

oboiikan.com

obeikan.com

oboi.kan.com

نُون والأَلم...

المُحظور والمنشور في الشأن السُّوداني

المؤلف:

فتحي الضَّو

Wheaton, IL 60187, USA

faldaw@hotmail.com

تصميم الغلاف:

سامح الكاشف

التسيق الداخلي:

جابي فايز غبريال

الطابعون:



مكتبة بئر بركة الزور

٤ ميدان حلیم - خلف بنك فيصل الإسلامي

شارع ٢٦ يوليو - القاهرة - مصر

ت: +٢٠ ٢ ٢٧٨٧٧٥٧٤ - +٢٠ ١٠٠ ٠٠٠ ٤٠٤٦

الجزء الثالث

القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع:

٢٠١٥ / ١١٠١٢

الترقيم الدولي

٩٧٨ / ٩٧٧ / ٢٩٠ / ٤٨٩ / ١

دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ج.م.ع.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يُحظر نشر أو تصوير أو طبع أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب
بأي وسيلة إلكترونية أو بخلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح وواضح من المؤلف

نون والأثم

المعظور والمنشور في الشأن السوداني..

oboi.kan.com

إِهْدَاء..

إلى الذين دفعوا أرواحهم فداءً لهذا الوطن الصابر أهله..
لا بُدَّ مِنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَإِنْ طَالَ السَّفَرُ!

obeikan.com

مقدمة الجزأين .. الأول والثاني

أما أن لهذا الليل الطويل من آخر؟! عندما شرعتُ في كتابة هذه المقدمة ففز إلى ذهني مباشرة هذا السؤال، أو التساؤل الحائر. مع التأكيد إنه لم ينتج عن ضيق ولا يُعبّر عن إبهام، ولا يُجسّد حالة من حالات التينيس التي دأبت العُصبة ذوي البأس على نشرها بشتى السُّبل، وفي مقدّماتها الإعلام، ذلك السِّلح الذي سخرت له الملايين من إمكانيّات الدولة.

في واقع الأمر، هو سؤالٌ تقريرِي، كلنا نعرف الإجابة عليه، بما في ذلك الذين تسلّطوا على رقاب الشعب السوداني لأكثر من عقدين من الزمن. نقول ذلك بثقة شديدة، لأنهم يعلمون قبل أن نعلم، إنهم يحكمون بالخداع والكذب والأباطيل، والاستغلال البشع لسماحة الدين الإسلامي. غير أنّ المهم في الأمر، أنهم توصّلوا إلى قناعة بأن ذلك طريقٌ قصير، حتى لو طالَت سنينه، ولعلهم اقتنعوا أيضاً باستحالة إعادة صياغة الإنسان السوداني، بعد أن أعاد الشعب صياغتهم، حيث ارتدّوا عن كلّ الشعارات التي رفعوها، وال مشروع برُمته في نهاية الأمر إلى بوار.

لسنا بصدد تفصيل كوارث وَضَعَت بصماتها بوضوح في الواقع السوداني، فتلك من المُسلّمات التي ظلّ الشعب الصّابر على المكاره يُعايشها، بل عبّر عن تمرّده عليها بوسائل عديدة، أدناها الصّمت، وإن كان أضعف الإيمان، والذي لا يعني الخنوع ولا الانكسار، ولا الخضوع للأمر الواقع، بقدر ما أنّ التجارب أثبتت أن صبر الشعب السوداني على قهر الأنظمة الديكتاتورية يندرج تحت باب "الإمهال" وليس "الإهمال"، ولنا في انتفاضتين مشهودتين في عامي ١٩٦٤ و ١٩٨٥ أسوة حسنة. تلكما هما "الرّبيع السوداني" للذين سبقا "الرّبيع العربي" المائل الآن في زماننا هذا، بعد أن اكتسح بعض الأنظمة الديكتاتورية.

من جهة أخرى، لا نود تقلّيب المواجع في الأدوار السالبة لبعض النخب السياسية، فذلك أمرٌ تناولناه بتشريح موضوعي في سياق مادة هذا الكتاب. ولكن يكفي في الحد الأدنى الإشارة إلى أنّ ضعف القوى السياسية الوطنية والديمقراطية يُعدّ سبباً رئيسياً في بقاء هذا النظام القمعي، وتطاولَ سنواته. هذا إذا لم نشأ التحليق في سماء أرحب، تضع الأزمة بكاملها في طبيعة وخصائص الشخصية السودانية، الأمر الذي يتطلب منا إعادة قراءتها - وليس صياغتها -

وفق ظروف العصر الذي نعيشه بمتغيراته الهائلة، حتى نستطيع مواكبة الدول والخروج من دائرة الفشل.

إن المحنة التي أدخلت العُصبة ذوي البأس الشعب السوداني فيها لعميقة. ولا يُعتقد بأنها يمكن أن تزول بزوال النظام. لكن ذلك لا ينبغي أن يُقلق الحادين على مستقبل الوطن، ذلك أن الديكتاتوريات برغم اجتهادها الشديد في وضع بصماتها على الشعوب، فإن التجارب أثبتت أنها سرعان ما تزول بزوالها. نقول ذلك ليس لأن التفاؤل أمرٌ مطلوب، ولكن لأنه الواقع الذي تخشى الأنظمة القمعية مواجهته من باب أنه السلاح الخفي الذي يعمل على تفتيت عضدها وارتخاء قبضتها. من هذا المنطلق، نحن نؤمن بأن مستقبلاً زاهراً ينتظر الشعب السوداني الصابر، على الرغم من مرارة الواقع الحالي بكل موبقاته التي تدعو إلى اليأس والخنوع.

إن مادة هذا الكتاب تقدّم نفسها بنفسها، لذلك تجبّينا الحديث عما تناولته من موضوعات شتى في القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية، ذلك ما سيلمسه القارئ ببساطة. وفي واقع هذا الأمر، فقد قدّر له ذلك من خلال ما نُشير، وأيضاً من خلال ما حُصِر. فهذه الأخيرة هي سلاح العاجزين في ظلّ تقنية باتت تطرق الأبواب دون استئذان.

عوداً على بدء، ففي محاولة للخروج من النفق المظلم، والذي وضع النظام فيه نفسه، ومن باب الإحياء بالظهور بمظهر مختلف، بات أهل النظام يتحدثون عما أسموه "الجمهورية الثانية"، وتمهيداً لتسويق هذه الفكرة البائسة، ابتدعوا ما سُمّي بـ "هامش الحريات" لدسّ السم في الدسم. لكن على الرغم من محدوديته يمكن القول أنه كان حافزاً لبعض الكتاب والصحفيين على استغلاله بكتاباتٍ راتبة ومتواترة، هدفت إلى تعرية دولة الفساد والاستبداد، حتى صَعُب على الحية أن تغير جلدها، الأمر الذي أجبر العُصبة الحاكمة العودة إلى سيرتها الأولى، حظراً لما يُكتب، وإيقافاً للصحف نفسها، وتشريداً للعاملين فيها.

بيد أنه تكفي الإشارة في هذا الحيز إلى الأقلام التي باعت نفسها للشيطان، ومن المؤكّد أنه سيأتي اليوم الذي تُبسّط فيه الموازين، وتُنشر فيه المخازي، بالرغم من أن ذلك لن يحرك شعرة في رأس من دأبوا على خدمة الديكتاتوريات، ونذروا أنفسهم لصناعتها على مدى السنوات التي قضتها العُصبة ذوي البأس في السلطة.

بما أن الشيء بالشيء يُذكر، لم يكن متاحاً لنا المشاركة في توصيل آرائنا ووجهات نظرنا للمواطن الذي يقبع تحت قبضة النظام داخل القطر، ذلك على عكس ما دأبنا عليه في المنابر الإعلامية الخارجية الكثيرة، والتي نجحت إلى حد ما في تغطية ذلك النقص. لكن تغير هذا المشهد بعض الشيء بعد اتصال محمود من الزميل الأستاذ عادل ألباز، طارحاً رغبته في مشاركتنا له بالكتابة في صحيفة

جديدة أطلق عليها اسم "الأحداث" في سبتمبر ٢٠٠٧، ومع قناعة منطقة، قبلنا ما عزفنا عنه سنين عددا، وشاركنا بمقال أسبوعي راتب.

لكن ذلك لم يكن ليُسعد النُصبة ذوي البأس التي جَنَحَتْ إلى سلاح القهر بالعمل على منع المقال من النشر في كثير من الأحيان، غير عابئة بأن ذلك يُعد من شيمة المتخلفين عن ركب تكنولوجيا العصر، فعملنا جاهدين على استثمار ما هو متاحٌ للتعبير عن وجهات نظرنا في القضايا السودانية المختلفة، وامتد ذلك طوال سنوات ثلاث، توقفنا بعدها عندما ضاقت صُدور الراصدين بما نكتب، ونحن نستشعر الانتصار على الجلاذ وهو في أسوأ حالات ضعفه.

بعدئذٍ عنّا لنا، مواصلة للرسالة التي توأصينا على حملها، أن نحصر ما كتبنا في هذا الكتاب من باب التوثيق، كمساهمة متواضعة في المعركة التي يخوضها الشعب السوداني ضد العُصبة الحاكمة.

يحتوي هذا الكتاب على المقالات التي نُشِرَتْ، إلى جانب تلك التي حُظِرَتْ، واستلزم ذلك حصرهم في جزأين. وشننا وضعها كما هي وفقاً للترتيب التاريخي، وإن اقتضى التبويب الخروج عن ذلك في حالاتٍ قليلة.

في الختام، لا بُدَّ من الإشارة إلى دور القراء، ولُحني هامتنا لهم احتراماً وتبجيلاً، ونُحْصُ بالذكر الذين لم يخلوا بملاحظاتهم، نقداً وتقريظاً، سواءً بالكتابة مباشرة على بريدنا الإلكتروني، أو الذين عبّروا عن ذلك في المواقع الإعلامية المختلفة، ممّا كان له أعظم الأثر في المُوازرة والسند، توخياً لاستمرارية الرسالة.

سواءً هذا أو ذاك، صفوة القول، فقد تأكّد بل ترسّخ في أذهاننا مدى تفاعل السودانيون بقضايا وطنهم وتوقّعهم إلى حياة حرة كريمة، وتطلّعهم لوطن شامخ، يتباهون به بين الأمم. وممّا يُحزن النفس في هذا الصّدّد، تبعثُرهم في المنافي والمهاجر وديار الاغتراب، بل من نكد الدُنيا على من ظلّ منهم داخل أسوار الوطن، إنهم لا يعلمون بصورة علميّة حضاريّة كم بقي منهم على قيد الحياة، وكم عدد الذين غادروها، وكم عدد الذين هاجروا، سواءً داخل وطنهم أو خارجه، ناهيك عن فنائهم العُمريّة وكل ما يتصنّ بتفاصيل حياتهم، ومُهمومهم وتطلّعاتهم وطموحاتهم، لكنّا الإنسان خلق في السودان لقضاء رحلة مُرهقة من المهد إلى اللحد.

إن اختلاف الرأي لا يُفسدُ للودّ قضية.. ذلك ديدنا ولو كره المكابرون!

فتحى

يناير ٢٠١٢م

obeyikan.com

مقدمة الجزء الثالث

بيد يدك - عزيزي القارئ - الجزء الثالث من هذه السلسلة التي هدفتنا من ورائها إلى التوثيق. وهو هاجسنا الدائم وفق ما يعلم القراء، إذ أن ما وُصمنا به - وهو بالطبع واقع - من ذاكرة مثقوبة، جعلت الأحداث تتساقط من خلالها كما الغريبال. ثم تعيد نفسها بصورة سمجة ومملة ومستفزة لا تمت بالطبع لأي سلوك حضاري يرتنيه الناس في تقدم بلدانهم ازدهارها واستقلالها.

تراكمت سنوات نظام العُصبة الحاكمة في الخرطوم، وتراكمت جرّانه مشاكل السودان السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وبالرغم من أن هذه المقالات التي يحتويها الكتاب تغوص في تلافيف هذه القضايا المختلفة، إلا أن الأزمة في تقديرنا تضحّت بأكثر ممّا تصوّر المراقبون والمتابعون بحيث صارت في مُبداها ومُنتهىها أزمة أخلاقية، سنترك جرحاً غائراً في جسد المجتمع السوداني، ويحتاج تعافيتها لسنين عدداً، حتى بعد رحيل النظام.

إن الشفافية والصراحة تحرّضاننا على القول إن بقاء السودان نفسه ككيان جغرافي وديمقراطي رهين بقدره الحاديين عليه من أبناء الوطن لكي ينتشلوه من تلك الهوة العميقة والخروج به سليماً إلى آفاق جديدة.

بيد أن القارئ سيلتمس من خلال قراءة هذه المقالات أن المؤلف لم يسقط راية التفاؤل التي جُبِل عليها في كتاباته على مدى سنوات القحط والجفاف التشاؤم، على الرغم من التينيس الممنهج الذي برع فيه النظام وسدنته.

مع كل ذلك نقول بوضوح لا لبس فيه، أن أي حلول تهدف إلى إنهاء الأزمة السودانية، وتغفل المحاسبة الصارمة على كل الجرائم التي ارتكبتها هذا النظام، ستصبح مجرد حلول لإعادة إنتاج الأزمة ومواصلة التنكب فيما سُمّي بصراع الدائرة الشرييرة المعروفة.

من منطلق ذات التفاؤل، الذي رفعنا رايته، يمكن القول أن أزمة النظام قد بلغت مداها، إذ تشير كل التقديرات إنه يعيش حالة "الموت الإكلينيكي"، وأن جرابه قد فرغ تماماً من كلّ الطرائق والأحاييل التي أتبعها للبقاء على سُدّة السُلطة، ولعلّ آخرها ما سُمّي بـ "حوار الوثبة" لتمديد أمد بقائه.

حرّيّ بنا القول إن الخلاف بين الجزأين الأول والثاني من جهة، وهذا الجزء من جهة أخرى، هو أن مقالات الأخير لم تُنشر داخل السودان للأسباب المعروفة، في حين أن الأولين نشرت بعض مقالاتهما داخل السودان، وحُظر بعضها الآخر في ظل ما سُمّي بـ"هامش الحريات" الذي أوجدته اتفاقية نيفاشا أثناء الفترة الانتقالية.

لن نخوض فيما استجد من أمور، وذلك مما أولته المقالات بعض حقه، وبالذات التطورات التي حدثت في أروقة القوى المعارضة السياسية والعسكرية، بعد "إعلان باريس" و"نداء السودان".

نأمل أن يجد القارئ ما يروي ضمأه...

فتحّي

شيكاغو - مطلع ٢٠١٥

تُصْبِحُونَ على ثورة.. تَمْسُونَ على وَطَن!*

في السنوات الكالحات، وعلى مدى أكثر من رُبْع قرنٍ أو يزيد، كانت الأزمة أكبر ممَّا نتصوَّر، اتسعت المحنة حتى ضاقت العبارة.. ضنكٌ في العيش، وفسادٌ في الذمم، وتدهورٌ في الأخلاق، وبلدٌ انقسم ثلثه إلا قليلاً، وشعبٌ أصبح هائماً في الخارج وحائراً في الداخل. وبين هذا وذاك.. ونحن في غمرة لهائنا المستمر في مناهضة نظام العصابة ذوي البأس، تسمو أحزاننا حيناً حتى تبلغ عنان السماء، ثم تخفّت حيناً آخر، لتنتظر خزاناً جديداً يخرج من بطون التاريخ.

في تلك السنوات الكالحات، رَحَلَ عَنَّا أعزاء من قبل أن يشهدوا اليوم الذي خططوا من أجله طويلاً وتمنوه كثيراً.. لكن أرواحهم ما زالت تحلق فوقنا كلما اجتمعنا في محفلٍ للتفكير والحوار حول قضايا الوطن وهمومه التي تكاثرت..

ليس حصراً، وذواكركم حاضرة، ما زالت قبورهم طريّة ونديّة، رغم تقادم السنين! تذكرون...

رَحَلَ عَنَّا في السنوات العجاف عبدالعزيز العميري، قبل أن يُكمل أنشودة الخُب والحياة والحرية..

رَحَلَ عَنَّا علي عبدالقيوم في هيبة وجلال الشعراء، وهو يريد وما زال يوصينا:

أي المشارق لم تُغازل شمسها
ونميط عن زيف الغموض جِمارها
أي المشائق لم تُزلزل بالثبات وقارها
أي الأناشيد السماويات
لم نشدد لأعراس الجديد بشاشة أوتارها..

رَحَلَ عَنَّا مصطفى سيد أحمد، وهو يحمل بيمينه خُزنه الدفين ويهش به على الفقراء والمساكين والكادحين:

والله نحن مع الطيور..
الما بتعرف ليها خرطه
ولا في إيدها جواز سفر..

رَحَلَ عَنَّا الَّذِينَ اغْتَالَتْهُمْ الْأَيْدِي الْأَثَمَةُ فِي "بُيُوتِ الْأَشْبَاحِ" وَالْجَامَعَاتِ
وَالطَّرَاقَاتِ: النَّاتِيَةُ أَبُو عَاقِلَةَ.. مُحَمَّدٌ عَبْدُ السَّلَامِ.. عَلِيٌّ فَضْلٌ.. عَبْدُ الْمَنَعَمِ سُلَيْمَانٌ..
عَلِيٌّ الْمَاحِي السَّخِي.. وَتَطُولُ الْقَائِمَةُ حَتَّى تَصِلَ عَلَيَّ مُوسَى..

رَحَلَ عَنَّا شَبَابُ غَضٍّ، كَانُوا مِنَ الْبَرَاءَةِ بِمَكَانٍ، وَصُمُّوهُمْ بِتَهْمَةٍ أَصْبَحَتْ
دِينَ الْغَضَبَةِ فِيمَا بَعْدَ، وَكَعَبَتْهُمْ الَّتِي يَطُوفُونَ حَوْلَهَا.. مُجْدِي مَحْجُوبٌ مُحَمَّدٌ
أَحْمَدٌ.. بَطْرُسُ الْقَسِّ يُسْطُسُ.. وَأَرْكَانُ جُلُودِ دَاقَاو..

رَحَلَ عَنَّا مُحَمَّدٌ عُثْمَانُ وَرَدِي شَامَخًا كَالطُّودِ الْأَشْمِ، وَمَا تَزَالُ فِي آذَانِنَا
بَقَايَا لِحْنِهِ الَّذِي أَصْبَحَ تَعْوِذَتِنَا فِي مَعَارِكِ الْحُرِّيَّةِ وَالْكَرَامَةِ..

إِنِّي أَوْمنَ بِالشَّعْبِ حَبِيبِي وَأَبِي

وَبِأَبْنَاءِ بِلَادِي الشَّرَفَاءِ

الَّذِينَ اقْتَحَمُوا النَّارَ

وَكَانُوا بِيَدِ الشَّعْبِ مَشَاعِلَ

وَبِأَبْنَاءِ بِلَادِي الْبَسْطَاءِ

الَّذِينَ انْتَفَضُوا فِي سَاحَةِ الْمَجْدِ.. فَزَدْنَا عِدْدًا

وَبِأَبْنَاءِ بِلَادِي الشَّهَدَاءِ

الَّذِينَ احْتَقَرُوا الْمَوْتَ وَعَاشُوا أَبَدًا

وَلِأَبْنَاءِ بِلَادِي سَاغْنِي

لِلْمَتَارِسِ الَّتِي شَيَّدَهَا الشَّعْبُ نَضَالًا وَصُمُودًا

وَلِأَكْتُوبِ مَصْنُوعًا مِنَ الدَّمِ شَهِيدًا فَشَهِيدًا

وَلَهُ لَمَّا رَفَعْنَاهُ أَمَامَ النَّارِ

دِرْعًا وَنَشِيدًا

رَحَلَ عَنَّا شَهِدَاءُ يُونِيسُودَانٍ، كَمَا تَرَحَّلُ النُّوَارِسُ نَحْوَ مِرَافِيءٍ بَعِيدَةٍ فِي
غِيَاهِبِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ..

رَحَلَ عَنَّا شَهِدَاءُ كَجِبَارٍ، كَالنَّسَمَةِ فِي هَجِيرٍ صَيْفِ الشَّمَالِ الْحَارِقِ، وَفِي
قَبْضَتِهِمْ صَاعٌ مِنْ تَرَابٍ وَصَاعٌ مِنْ تَمَرٍ وَصَاعٌ مِنْ أَلَمٍ..

رَحَلَ عَنَّا شَهِدَاءُ أَشْأَوْسَ، فِيمَا اسْمِينَاهُ فِي حَقْبَةِ نَضَالِيَّةٍ بـ"الْجَبْهَةِ الشَّرْقِيَّةِ"
وَمَا أَكْثَرَ جَبْهَاتِنَا، وَلَمْ نَلْقَ عَلَيْهِمْ نَظْرَةَ الْوَدَاعِ الْآخِرَةِ، أَوْ تُشَبِّعَهُمْ كَمَا يُشَبِّعُ
الْأَبْطَالُ الْعُظَمَاءُ فِي مَسِيرَةِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ..

رَحَلَ عَنَّا أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ يَافِعٍ فِي مَعْسَكِ الْعَيْلِفُونِ، هَرَبُوا مِنَ الْمَوْتِ إِلَى
الْمَوْتِ.. لَمْ تَنْكَلِهِمْ أَمَهَاتٌ تَحْجَرُ الدَّمْعَ فِي عَيُونِهِمْ وَتَيَبِّسُ الْخُزْنَ فِي أَفْئِدَتِهِمْ..

رَحَلَتْ عَنَّا سَارَةُ الْفَاضِلِ مُحَمَّدُودٍ، سَيِّدَةُ تَعَطَّرَتْ بِمِسْكِ النُّضْلِ ضِدَّ أَنْظِمَةِ
السُّوءِ، ذَاقَتْ مَرَارَةَ السَّجُونِ، وَخَتَمَتْ حَيَاتَهَا بَعْدَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ مِنْ اجْتِمَاعِ
لِمُنَاقَشَةِ قَضِيَّةِ السَّلَامِ فِي بِلَادِ عَزٍّ فِيهِ السَّلَامُ!

رَحَلَ عَنْهُ أَحْمَدُ عَبْدِ الْمُكْرَمِ وَوَدَّعَ خَوْجَلِي وَزَيْنَ الْعَابِدِينَ أَحْمَدُ مُحَمَّدٌ وَيُشَارُ
الْكُتَيْبِي وَسَامِي سَالِمٌ.. مَتَوَسِّدِينَ جِرَاحَهُمْ وَحِلْمَ نُونٍ وَالْأَلَمِ..

رَحَلَتْ عَنْهُ عَوْضِيَّةٌ عَجَبْنَا، جَاءَهَا الْمَوْتُ فِي عَقْرِ دَارِهَا، قَتَلُوهَا وَمَشَوْا فِي
جَنَازَتِهَا كَمَا يَمْشِي اللَّثَامُ فِي جَنَازَةِ الْكَرَامِ..

رَحَلَ عَنْهُ الْحَاجُّ مَضْوِي مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ، مُنَاضِلًا عَتِيدًا ضِدَّ الْإِسْتِعْمَارِ
الْبَغِيضِ، وَمُنَافِحًا جَسُورًا ضِدَّ الْأَنْظُمَةِ الدِيكَتَاتُورِيَّةِ وَالشُّمُولِيَّةِ، صَالٍ وَجَالٌ وَهُوَ
يُبَشِّرُ بِالْديمِقْرَاطِيَّةِ وَلَمْ يَبْأَسْ رَغْمَ تَطَاوُلِ السَّفَرِ، بَلْ لَمْ يَسْكُتْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَضَعَ
عَصَا تَرْحَالِهِ عَلَى قَبْرِ تَحْفَهُ مَائَةِ مِنَ السَّنِينَ وَيَزِيدُ..

رَحَلَ عَنْهُ عَمْرٌ نُورُ الدَّائِمِ، فَقِيرٌ مِثْلَمَا جَاءَ لِلدُّنْيَا فَقِيرًا، وَلِلْمُفَارِقَةِ.. كَانَ
وَزِيرًا لِمَالِيَةِ أَهْلِ السُّودَانِ..

رَحَلَ عَنْهُ خَلِيلُ إِبْرَاهِيمِ مَغْدُورًا وَوَاقِفًا كَمَا تَمُوتُ الْأَشْجَارُ، وَكَانَ مُنَاضِلًا
شَرَسًا وَعَنِيدًا، شَاءَ صَعُودَ الْجِبَالِ وَأَبَى الْعَيْشَ بَيْنَ الْحَفْرِ..

رَحَلَ عَنْهُ رَجُلًا أَفْنَى عَمْرِهِ فِي النُّضَالِ حَتَّى تَضَاعَلَ النُّضَالُ خَجَلًا.. رَحَلَ
عَنْهُ التَّيْجَانِيُّ الطَّيِّبُ بِأَكْرَمِ.. آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ السِّيَاسِيِّينَ..

رَحَلَ عَنْهُ مُحَمَّدٌ الْحَسَنُ حَمِيدٌ، وَتَرَكَ لَنَا مَا لَنْ نَضِلَّ بَعْدَهُ أَبَدًا فِي مَضْمَارِ
الْوَطَنِ وَالْوَطَنِيَّةِ..

أَرْكَزْ.. أَرْكَزْ.. أَرْكَزْ

لَا تَجِيبْ رِخْوَةً

يَا مُتَلَبِّدٌ فِي الْأَدْرَانِ

الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مَا هُوَ الْبُرُوءَةُ

وَمَا هِيَ مَكَائِي الْعُكْبَةُ تَجِيهًا

حِينَ يَتَكَرَّفُسُ تَوْبُ التَّقْوَى

وَمَا فِي خُرْطٍ لِلْجَنَّةِ تَوْدِي

وَمَا فِي طَرِيقٍ مَفْرُوشٍ بِرِشْوَةٍ

وَالْمَشْرُوعُ الدِّينِيُّ الْخَالِصُ

مَا مَحْتَاجٌ لِدِرَاسَةٍ جَدْوَى

يَا مَنْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِهِ

رَدَّ الْخَالِقُ دَائِمًا أَيُّهُ

رَحَلَ عَنْهُ الشَّرِيفُ مَحْجُوبٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ رَايَةَ الْبَشَارَةِ حَتَّى آخِرَ رَمَقٍ مِنْ
حَيَاتِهِ.. مِثْلَمَا كَانَ عَصِيًّا عَلَى أَنْظِمَةِ "السَّجْمِ وَالرَّمَادِ"، صَارَ عَصِيًّا عَلَى دَمْعِ
شَيْمَةِ الْقَطْرِ!

رَحَلَ عَنْهُ فِي دَارْفُورٍ.. هَلْ أَقُولُ مَائَةَ أَلْفٍ، هَلْ أَقُولُ مَائَتِي أَلْفٍ، هَلْ أَقُولُ
ثَلَاثِمِائَةَ أَلْفٍ؟! مَا أَرْخَصَ الْإِنْسَانُ فِي بِلَادِي.. هَوْلَاءُ تَضَاعَلُوا وَتَضَاعَلُوا

وتضاءلوا، حتى أصبحوا كما قال صلاح أحمد إبراهيم: «حزمة جرجير يُعد كي يُباع»، لذلك لم يجد الرئيس "الضرورة" حرجاً أو وازعاً، حينما قال إنهم عشرة آلاف شخص.. هَبْ يا من استرخص الإنسان الذي كَرَّمه ربه، أنهم عشر آلاف ضحية، أو ألف، أو حتى واحد صحيح، ألا يقل ذلك القسمة على أمل والضرب على ألم والجمع على وطن؟! قُل لنا أيها المكنز سلطنة سنكوى بها جباهكم يوم ترى الناس سُكاري وما هم بسُكاري.. هل ذلك يستدعي الرقص على أشلائهم كلما صعدت منبراً وضربت لك الدفوف؟!!

رَحَلَ عنا أنساتي وسادتي، جون قرنق دي مابور في لحظة شيق فيها التاريخ السوداني شهقة الموت، وَقَدْ أَفَ للحياة.. رَحَلَ رَجُلٌ استثنائي في ليلة افتقد فيها الوطن ليله وبدره ودجاءه، وترك خلفه حلم "السودان الجديد" معلقاً بين السماء والأرض!

بَلِ رَحَلَ عَنَّا سنبلة الجنوب الحبيب كله، وبكى ملكاً مُضاعاً لوطن رَحَلَ ثلثه بلا سميع أو مجيب، وضحايا بعدد الحصى والرمل والتراب.. لم نُقِمْ لهم ماتماً ولا نصبنا لهم سُرادقاً، ولا أَقَمْنَا لهم عُرْسَ شهيد!

رَحَلَ عَنَّا بَلِ يرحل كل يوم، زغب الحواصل، في جنوب كُردفان وجنوب النيل الأزرق، إذا نجوا من قذائف "الانتينوف"، كانت المجاعة لهم بالمرصاد.

في مثل هذه الأيام من العام الماضي رَحَلَ عَنَّا أَكْثَرُ من مائتي شهيد تقدّمهم سارة عبد الباقي وهُزَّاع عز الدين وصلاح السهوري، وقُبُورهم لم يجف ماؤها بعد، وما زالت أرواحهم تهنو لثأرها..

هكذا يرحل الأخير في بلادنا، وما تزال العُصبة ذوي الياست تجثم على صدورنا.. مَرَّ رُبْعُ قرن وما يزالون عطشى للسلطة.. لم يرتووا وقد مصّوا ضرعها حتى جفّت، وما زالوا يعوثن فيها فساداً.. ما فتنوا يقتلون أبناءنا ويغتصبون بناتنا في الطرقات.. وما انفكوا يُذلّون طلابنا ويسومون طالباتنا سوء العذاب في المدارس والجامعات، وبالأمر رأيت ما فعلوه في حرائر طردن من داخلية "البركس" وهُمَّنَ على وجوههنّ في بُلْدٍ نريد في ثرائه ونحن نغني عن "أخو البنات" و"مقنع الكاشفات"!

الفقر - يا كرام - ينهش عظام بسطاء أهل السودان وهم يموتون من النُخمة. كلكم تعلمون كيف مضى العيد قبل أيام كما أعيد أبو الطيّب المُنتبّي، ولم يأتِ بجديد.

الأمراض تفتك بالشجر والحجر والبشر، صغارهم وكبارهم.. أما هُم فكما تعلمون يجوبون الدنيا لمجرد صداع ألم بهم، أو لإجراء فحوص طبية من قبل أن تداهم أمراض من حيث لم يحتسبوا.. مؤسسات التعليم أصبحت فارغة كجوف أم موسى، وهُم يُرسلون أبناءهم إلى بقاع الدنيا المختلفة، دون حياء أو وازع

أخلاقي.. الأحوال المعيشية والأخلاق في سياق مع البؤس والتردي والانحطاط.. يلهون بالدين ويعبثون به، كما يعبث الأطفال بدميتهم.. يقبلون على الدنيا بكل ما فيها من ملذات، ويختون الناس على أن يُدبروا عنها نحو الآخرة غير مأسوف عليهم.. يغضون البصر عن الظلم، ويُطيقون العدل على سائر بقاع السودان بإشعال الحروب بقدر سواء.. بفضلهم أصبح المواطن السوداني مشروعا للإرهاب والتطرف والتخلف، إذا استبقى نفسه داخل أسوار الوطن مات كما تموت الضن في الفلوات، وإذا خرج طائفاً رأسه في بوابات المطارات خشية أن يُتهم بما ليس فيه..

الناس في بلادي أصبحوا في حيرة من أمرهم.. ماذا هم فاعلون؟! إذا صبروا أهينوا، وإذا أهينوا اعتقلوا، وإذا اعتقلوا ضربوا، وإذا ضربوا عُذبوا، وإذا عُذبوا ماتوا كمدأ وحسرة..

من أجل هذا لسنا في حاجة للقول، إن الإطاحة بهذا النظام الفاسد المُفسد هي فرض غي، على كل سودانية قبل أن تخطب يديها بالحناء، وعلى كل سوداني وإن كان في المهد صبياً..

من هذا المنطلق يمكن للمرء أن يقول إن ندوات الخارج، تُصبح غير ذات جدوى، إن لم تخرج بما يُعين الناس في حتمية الإطاحة بهذا النظام القميء.. ليس مطلوباً منها أن تسقطه بالبيانات والتمنيات الطيبة والأحاديث الجاذبة، وليس مطلوباً منها أن تسقطه بأيدي غير سواعدنا السمراء، ولكن المطلوب منا أن نتواصى وذهتدي لخارطة طريق تستلهم نضالات شعبنا العظيم، وتحثنا على وقف محنته وإهنته، وتدُلنا على بوابة النصر المؤزر بحول الله ومواطنيه.. ونحن نعيش زخم ثورة أكتوبر العظيمة، مقبلين على ذكرائها بأمل أن تأتي بالجديد المنتظر..

لله درككم وأنتم تصبحون على أمل.. وتُمسون على ألم!

تُسُون على ثورة... تُصبحُون على وطن!

ولا بد من الديمقراطية وإن طال السفر!!

* هذه الكلمة لازمة ضرورية دأبت على إلقائها في مُقدِّمة ندواتي كأبسط ما تكون الذكرى والوفاء لمن رحلوا عن عالمنا من قبل، أن يروا حلمهم يتحقق!

obeikan.com

العصبة ذوي البأس وسيناريوهات الرحيل القادم!

كان ذلك في منتصف شهر يوليو من العام الماضي، وكذلك في منتصف نهار يوم قانظ لا ظلّ فيه إلا ظلّ الحقيقة. أما المكان، فكان شارع "المك نمر"، الذي اكتظّ بسيارات مختلف أشكالها والوانها، تزحف زحفاً ونيداً تارة، وتقف كحمار الشيخ في العقبة تارة أخرى.. وكلما أكثر من التوقف، زاد تأفّف سائقها ومن في معيّتهم، وتناثرت لعناتهم المجهولة وهم يُحدّقون في اللاشيء. ثمّة قوم آخرون يتحرّكون في تكاسل واضح جرّاء الشمس التي ألهمت رؤوسهم، ويحاولون درئها بما ملكت أيديهم.. شيب وشباب بأعمار متفاوتة، يتحرّكون كالأشباح بين السيارات، بعضهم يُنادي بصوتٍ مبجوح على بضاعة كاسدة يعرضها بالبحاح شديد على المشتريين، ترغيباً وترهيئاً.. ذاك رجلٌ في منتصف عمره يحمل "ثوماً" مغلفاً في أكياس بلاستيكيّة، يقول بلحنٍ مشروخ إنها تسر الناظرين، وإنه وارد إيران! وبالطبع هو لا يعلم الأسباب التي دفعت بهذا الثوم إلى أرض معركة في غير معترك.. وهذا بدأت سيماء الشيخوخة تشق أخاديدها العميقة في وجهه المُرّهِق، لكنه يبدو غير مبالي بها بأكثر من مبالاته بـ"حفاظات أطفال" يعرضها للبيع وقد نالت من وقاره غصباً.. وذاك صبيّ رغم ثقل ما يحمل من "سجاد صيني" على كتفيه، إلا أن غمّره الغض ساعده على الركض برشاقة بين السيارات المُتراصّة.. قد تعجّب هُنيئاً لم هو في عجلة من أمره، كأنه يود التخلص من بضاعته بثمن بخس.. يا إلهي سوق ضلّ طريقه إلى الشارع، وسلع مختلفة ومتناقضة كسحنات أهل السودان أنفسهم!

أما أنا، فقد شاء قدري أن أكون واحداً من حاضري ذلك المشهد الشكسيري، حشرت نفسي في سيارة تُذكّرك بالقبر وعذابه من فرط صغرها.. ومن شدّة الشمس التي ترسل شواظها مدداً، باغتتني فكرة أن أحملها على ظهري وأشق بها عباب السيارات ركضاً.. لكنني استسلمتُ وطردتُ الفكرة المستحيلة من رأسي.. إذا ما الذي يمكن أن يفعله المرء بأكثر من الصبر؟! هكذا شغلت نفسي بأسئلة فلسفيّة في محاولة للهروب العقيم.. يا ترى، هل اختصّ المولى سبحانه وتعالى أهل السودان وحدهم بالصبر على المكاره؟! أم أن في هذا الكون قوّم مثلاً ابتلاهم الله بخُغام يصنعون المحنة ويطالبون شعوبهم بالصبر عليها؟! لكن لماذا يمزع الناس في بلادي الصبر كما يمزع السائل والمحروم فقره؟!

يقولون لك كلما ضاقت واستحكمت حلقاتها، "الصبر مفتاح الفرج" .. يُظلمون نهاراً جهاراً في حقوقهم فتحرج عليهم أشباح من الأنس لتحديثهم حديثاً عجباً.. يسألونهم عن المفاضلة بين خسارة الدنيا وخسارة الآخرة؟! إذا قرأوا الصحف الصفراء، طالعوا أكلي السُحت يصفون للناس كيفية خلط الصبر والصفرجل وحبّة البركة وزيت الخروع لنتبّوا بهم مكاناً علياً بين الأمم.. وإذا شاهدوا التلفزيون، تجمّدت أوصالهم من كثرة ما أصابها من وابل الصبر وشئونه، وإذا سمعوا مذياعاً، فلن تخطيء أذانهم علماء السوء يُذكّرونهم بالصبر وشجونه!

في خضمّ تلك الخواطر اللولبية، رأيته من بين الذين يتقافزون بين السيارات.. شابّ نحيل تكاد تشفق عليه من فرط هزاله، يحمل في يديه بضع زجاجات مياه معدنية.. لوحث له بيدي، فتوجّه نحوي مستبشراً، وعندما اقترب مني أكثر، تفرّست في ملامحه.. عينا غائرتان لا يدري المرء هل هما هكذا من جزاء الشمس اللاهبة، أم بسبب فقر موروث؟! طلبت منه زجاجة ماء وسألته عن اسمه وأنا لا أدري لماذا؟! قال لي بطريقة اليّة ترحي بأنه سنم السؤال ذاته من كثرة تكراره: عبدالرحمن يا أخي، وأردف ظناً منه أنني لم اسمعه.. عبدالرحمن يا أستاذ.. قلت له: نعم الاسم يا عبدالرحمن، وزدت مثله بلزوم ما لا يلزم.. كلنا عبيد للرحمن، ولكننا لسنا عبيد للحُكّام يا عبدالرحمن، ولا مش كده؟! باغتني كأنه كان ينتظر شيئاً يُفرّغ فيه شحنة الشمس الحارقة، وقال: والله صدقت يا حاج!

بدا أن عبدالرحمن استهواه حديثي، فطفق يُحدثني عن أشياء بدت له وساءته. قال بشيء من الأسى إنه خريج اقتصاد جامعة الخرطوم، وأعقب بسرعة كأنه يود أن يبدد دهشة رسمت معالمها على وجهي، وقال متهمكماً: ما فيش حاجة غريبة في البلد دي يا أستاذ.. فانا أطبق عملياً الاقتصاد الذي درسته نظرياً.. ثم واصل دون أن ينتظر مني تعليقاً، وأضاف بأنه: فعل المستحيل وطرق جميع الأبواب بحثاً عن وظيفة، وبعد ثلاث سنوات من البحث المضني لم يكن ثمة مناص من أن يلجأ للشارع بحثاً عن لقيمات يسدّ بها رمق أسرة أحاط بها الفقر كما السوار بالمعصم، هو عائلها الوحيد، وفيها الأب الضرير، والأخ الصغير، والأخت الغرير، والأم التي أقعدها المرض.. قطع عليّ عبدالرحمن الصمت الذي ران بيننا، وقال كأنه استمر غلياناً بات يمور في صدري ولا يستطيع المرء منه فكاكاً.. طبعاً أنا أعلم بأنك لن تصدّقني، فقلت له: ما الذي دعاك لتعتقد ذلك وأنا لم أقل لك شيئاً؟! قال: نظراتك.. هذا ما لا أستطيع المجادلة فيه، لكن الحقيقة أنه كان مخطئاً، فقد صدّقته بمنطق أن صدقه أو كذبه لن يضيراني شيئاً.. دسّ عبدالرحمن يده في جيبه وأخرج ورقة أنهكتها الأيادي من كثرة ما تبادلتها فيما يبدو، كانت تلك شهادته الجامعية، أما أنا، فلم أجد غير شهادة لا إله إلا الله أقدمها له تريباً لمحنته!

تركني عبدالرحمن غارقاً في بحر من التفكير العميق، ومضى كطفل تاه من والديه في غمرة زحام.. لا أدري بعدها كيف تحرّكت أرتال السيارات؟! وكيف انفضّ سامر ذلك الزحام؟! وهل الشمس ما زالت ترسل شواظاً من لهب؟! بل كيف وجدت الدار بعد توهّم؟! ومثلما تمضي سائر الأشياء في البلد الحزين، مضت الأيام بعضها يأخذ بمعاناة بعض، لكن صورة عبدالرحمن ظلت راسخة في ذهني لا تبارحه البتة.. وبالرغم من أن حتمية رحيل العُصبة ظلّ راسخاً في نفسي زهاء أكثر من عقدين، إلا أنني أصدّقكم القول إنني توسّمت في عبدالرحمن بشارة ثورة الرّحيل.. قلّْتُ لنفسي إنه من اختصر سفر الخروج من الجحيم بعد أن قرأ علينا نصاً بهياً، حطّ فيه النقاط على الحروف وأعرب جملة كانت تبحث عن تصريف لسنين عددا.. إن قلّتم إنه "بوعزيزي" الثورة السّودانية، صدقتم، وإن قلّتم إنه "خالد سعيد" الثورة القادمة، صدقتم.. أما وأن قلّتم إنه "أحمد القرشي طه" فتكونوا قد صدقتم مرتين!

كلنا يعلم أن الثورات لا تأتي بغتة، ودروس التاريخ وعبره تقول لنا إن الثورات حتى التي كانت بالأمس القريب، هي عبارة عن تراكمات، يمتزج فيها الاستبداد السياسي بالفساد الاقتصادي بالغبن الاجتماعي، والواقع أن العُصبة الحاكمة لم تترك سطراً شاغراً في هذه المسلمات إلا وملأته بممارستها النازية والتي أوصلت الأمور إلى عُقّ الزجاجة.. ولأن المريب يكاد أن يقول خذوني، فقد شاهدنا وراقبنا كلنا الهلع والجزع والخوف الذي سيطر على وجوههم مع بداية واستمرار سريان ما سُمّي بـ"ثورات الربيع العربي"، عندئذ بدأت السّلطة المغتصبة تتحسّس مواقعها، وتتحدّث عن الشباب كأنها اكتشفت وجودهم لتو.. ثم بدأت الوعود الجوفاء تنهال من الأفواه المتضمنة بالكاذيب.. ظهر من حديثهم عن "خلق" مليون وظيفة، وآخر عن الدعم والرعاية التي تتولاها بالعناية صندوق تشغيل الخريجين، وثالث عن الذهب الذي ذهب بعقولهم، بل لم يجد "الرئيس الضرورة" حرجاً في نفسه من أن يُقيّم لهم الوعود تلو الوعود، وهو الكاذب الأكبر!

جفّت الأقلام ورُفِعت الصُحف.. لسنا بصدد الحديث عن أزمان كتبنا وكتب عنها آخرون حتى كلّ متنهم.. الآن بات كل شيء في العراق، فالسلام المزعوم اتّضح أنه محض سراب يقيّغة حسبه الإنقاذيون ماء، والخزينة التي شبّتها سييء الذكر "نافع" بمحراب السيّدة مريم وسؤال أبيها زكريا، أصبحت فارغة كجوف أم موسى، وموارد أهل السّودان بدّدها الفساد وذهب بريحها الاستبداد.. أفافت السّلطة الغاصبة من نشوتها الزائفة لتجد نفسها محاصرة بواقع اقتصادي أليم، بيد أن الحقيقة الماثلة أمامنا تؤكد أن الأمور قد وصلت خيار الصفر، وهو الخيار الذي يقول بوضوح إن الشروط الموضوعية للثورة السودانية القادمة أضحت قاب قوسين أو أدنى، ولم يعد في "جراب الحاوي" ما يعينه على ممارسة خدع جديدة! بيد أننا في هذا المقال نود أن نضع بين أيديكم السيناريو الذي نعتقد حدوثه، والذي

يتدرّج صعوداً حتى يصل إلى خلاصة اكتمال دائرة الخلاص، وصولاً للرَّحيل
الوشيك، وهو سيناريو قد تزيد عليه أيها القارئ الكريم وقد تنقص، ولا أعتقد أن
مراقباً حقيقياً يرى الأمور تتدرج أمامه بهذه الصورة المأسوية ولا يعضد ما
اجتهدنا في التنبؤ به، بوقائع ما سيحدث في الساعة الخامسة والعشرين!

• أولاً: ستقوم السلطة الغاصبة بتحسين ظروف تُعلن فيها عن ما أسمته
بـ"القرارات الاقتصادية الجديدة".. أي رفع الدعم عن المحروقات (لفائدة
القارئ الكريم، يقول الاقتصاديون إن ٧٠% من تلك المحروقات يستخدمها
النظام نفسه).. إذاً، فرفع الدعم هذا يعني أن الحكومة سترفع الدعم عن نفسها،
شريطة أن يتحمل المواطن أثاره الكارثية. ومن عجب، أن السلطة الغاصبة
من شدة حيرتها، بدأت تبحث عن يوم ثامن في أيام الأسبوع السبعة، حتى
تعلن قراراتها المهلكة على الناس وهم غافلون!

• ثانياً: بعد إعلان الإجراءات الاقتصادية، ستعمل الآلة الدعائية الإعلامية
(تلفزيون محمّد حاتم ذو الميزانية التي تبلغ أربعة مليارات جنيه في العام)
بالإيحاء أن تلك إجراءات حتمتها الأزمة الاقتصادية العالمية، علماً بأنها ذات
الأزمة التي نفوا تأثيرها من قبل!

• ثالثاً: يُسجّر النظام ذات الدعاية الإعلامية بسدنته المبتوثين في الأجهزة
المختلفة ليرجوا لما وصفوه بالحكومة الرشيدة، والإيحاء بتخفيض ما أسموه
بـ"شاغلي المناصب الدستورية"، والذين قال عنهم وزير المالية إنهم يبلغون
٨٢٨ فارس، مع أن هذا افتراء.. لكنه صدق عندما قال إن عددهم الكلي نحو
٩٠٠٠ منذ أن جثمت العُصبة على صدورنا.. هل يعلم القارئ الكريم أن من
تقاعد من هؤلاء ما زال يتأبط امتيازاته، فضلاً عن أنه قد يكون قد زاد عليها
بمخصّصات وظيفية أخرى باطنية. فما على الحاديين سوى استخدام الآلة
الحاسبة لمعرفة ما يستهلكه هذا الجيش الجزار من الخزينة العامة، وسيجد بلا
انحياز أن الحل ليس في تخفيض الدستوريين، وإنما في ذهابهم إلى مزبلة
التاريخ!

• رابعاً: ستصدر الأوامر للأجهزة الأمنية والشرطية بالتساهل ابتداءً في التعامل
مع المواطنين، بمنطق أن الضغط سيولد الانفجار، ثم مع ازدياد رقعة التذمّر
تالياً ستكسب السلطة الغاصبة على عقبيها وتصدر الأوامر بضرورة إحكام
القبضة على خناق المواطنين ترهيباً وترعيباً، وهنا تبرز الحكمة الأخرى في
ثقافة الشعوب المضهدة، والتي تقول: إن العنف يُولد عنفاً مضاداً!

• خامساً: إزاء هذا السجال صعوداً وهبوطاً، يكتشف بعض أفراد الأمن
والشرطة إنهم يُوجّهون أسلحتهم نحو أسرهم الممتدة بترابط أهل السودان،
وفيهام الأخ والأخت والعم والعمة والخال والخالة.. إلخ، وسيُدركون أن

معاناتهم لا تنفصل عن معاناتهم، وطبقاً لذلك ستبدأ أعداد كبيرة تقفز من المركب الغارق، ليبقى فيه فقط أصحاب المشروع الوهمي، الذين يدركون أن بقاءهم أحياء في بقاء النظام!

• **سادساً:** تتسع دائرة المعاناة بصورة غير مسبوقة في المجتمع السوداني.. انهيار العملة الوطنية، إفلاس الخزينة العامة، غلاء فاحش، نُدرة شاملة في السلع الضرورية، طوابير في كُلِّ ما يستهلكه المرء، ربّما طال ذلك الهواء الذي ينتفسه! في مقابل ذلك، يتجلى جشع الموالين في أبشع صوره، فإزاء الإحساس بالدولة المنهارة والزائلة، يزداد نهمهم لمزيد من الفساد وتهريب ما تبقى من أموال للخارج!

• **سابعاً:** تبدأ الأسئلة الكبيرة تظهر بوضوح حتى في أذهان المُحايدين، ويبدأ الناس الإنشقاق الحاد، حيث تأتي كل كيانر العُصبة دفعة واحدة، حتى تلك التي ظنوا أنها سقطت من الذاكرة الجَمعيّة، ومع اتساع دائرة التذمّر وبلوغ الروح الحلقوم بوصول الأمور إلى نقطة خيار الصفر، تتجاوز طرائق التعبير لدى الأفراد، لتأخذ منحىً جماعياً يسقط خيار "الميتة أم زَماداً شخ"، أي الميتة العاطلة كما تعبّر عنها الثقافة الشعبيّة السودانيّة.

• **ثامناً:** ستبدو علامات الشقاق في أوساط العُصبة الحاكمة، وذلك بتحميل طرفٍ المسؤولية طرفاً آخر، وتلوح في الأفق نُذرُ مُفاصلة أشد وطناً وأقوم قِلاً، تلك التي لن يتورّع الخصماء فيها من استخدام كافة أسلحة الدمار الأخلاقي الشامل، واستناداً على قاعدة "إذا اختلف اللسان سُرِق المسروق" سيقف الناس على حجم الجريمة الحقيقي التي أرُكِبَت في حق الوطن ومواطنيه، ممّا سيزيد النار أواراً!

• **تاسعاً:** بمنزلة تأمّر أبناء سيّدنا يعقوب على أخيه، ستعمل فئة في الظلام على محاولة تسليم الرئيس الضرورة بدعوى "إنقاذ المشروع الإسلامي"، استناداً على "فقه الضرورة" ولعلّ أقصى ما يمكن أن يتوقعه المرء في هذا السيناريو يشير إلى احتمال التخلص منه مداراة لسوءتهم، بُغية الطموح في فتح صفحة جديدة مع المجتمع الدولي!

• **عاشراً:** مع إزدياد حالات التدهور الإنسانيّة، من نزوح ولجوء وفلتانٍ أمني، سترمي القوى الدوليّة بنفسها في أتون الصّراع عبر استصدار قراراتٍ أمميّة، وتفعيل أخرى نائمة في الأضابير، واضعين في الاعتبار أن استقرار دولة الجنوب الوليدة يكمنُ في ذهاب عُصبة الشمال، بهدف أن يكون الجنوب النموذج الذي تستقر به القارة الأفريقيّة، وليس العكس.

• **أحد عشر:** ستنهض القوى السياسيّة من مرقدها، وستخلع رداء الكسل والتقاؤس واللامبالاة، وذلك تحت تأثير اتساع قاعدة التمرّد الشبابي في

أوساطها، ولن تجد قياداتهم بدأ من الاستجابة لمطالبهم ورغباتهم، حتى لو كان ذلك بذريعة "مكره أخاك لا بطل"!

• ثاني عشر: عندما يتسع الفتق على الرائق، ستجد الأجهزة الأمنية نفسها أشد عجزاً في مواجهة الطوفان البشري، وسيرتد استخدامها سلاح القوة إلى نحرها، بحيث يمكن أن تتدخل في مواجهة بعضها البعض، عوضاً عن مواجهة المواطنين!

• ثالث عشر: يصبح السودان في عين العاصفة، ويحتل الخبر الأول باستمرار في النشرات العربية والأجنبية التي ستجد ضالتها في بلد سيناريواته مفتوحة على مصراعيها تدرجاً من السيئ إلى الأسوأ.. سيكثر الخبراء الذين يشعلون الأجواء بتحليلات واستنتاجات قد تخيب وقد تصدق.. تتحرك الكتل الجامدة في المهاجر والمنافي وديار الاغتراب، ومع اتساع المحنة، تتسع دائرة الاتهام لمن رمى بها في أتون تلك النار لسنوات تطاولت، وتبدأ في التفاعل الإيجابي الذي يتعدى تظاهرات "أضعف الإيمان" أمام السفارات، مما يلفت الأنظار لمحنة أخرى منسية!

• رابع عشر: يقوم الفاسدون بتغيير جلودهم، واستنساخ أنفسهم للإحياء بأنهم كانوا من المُنادين بالتغيير منذ زمن، وأنهم كانوا ينصحون من وراء الكواليس، وذلك تأهباً لركوب موجة التغيير القادم من وراء الحُجب والأستار!

• خامس عشر: مع تمدد المحنة وتغورها، تبدأ الغصبة ذوو البأس في تقديم تنازلات جزئية، بغية شق صفوف معارضيها، الأمر الذي يُريك صفوفهم في بدايته، ولكن لأن التنازل يورث تنازلاً، يزداد الضغط الذي يطالب بكثرة من التنازلات.. آنئذ يبدؤ المتقاعدسون في الانحناء للعاصفة حتى لا تقتلعهم وسدنة النظام بقدر سواء!

• سادس عشر: تزيد القوى المعارضة المسلحة التي تحارب النظام في الأطراف من مساحة تمدها لإرهابه بحروب استنزافية، فتزداد معاناته مع خزينة خاوية، لأسباب معروفة لن تُجدي وسائل تجييش الشباب وستزداد وتتطور أساليب الرفض والتذمر والتمرد مما سيزيد من حدة المواجهات.

• سابع عشر: تتداعى مؤسسات الغصبة الكارتونية السياسية.. يعجز الحزب الوطني الذي كان السلطة تحصي عضويته بنحو ستة ملايين مواطن، وتسميه في شعاراتها "الحزب القائد لوطن رائد"، يعجز عن إخراج تظاهرة لبعض مئات من الناس، للإحياء بأنه ما يزال موجوداً!

• ثامن عشر: تزداد رقعة التمرد بتمرد كتائب أمنية وشرطية وعسكرية، وتتداخل سيناريوات الكواليس والصوالين المغلقة.. ستعلو أصوات كثيرة

تطالب وتعمل على عدم اتساع دائرة الفلتان الأمني، الذي قد يدفع البعض ضريبته القاسية.

• تساع عشر: سيظهر عبدالرحمن (الجندي المجهول في شارع الملك نمر) وصحبته بصورة مليودرامية في المشهد السوداني "الشكسيري"!

• عشرون: هذا سيناريو مفتوح تُسدل فيه الستارة إما بالهروب الكبير، أو بالذي لا يعلمه إلا الله، وينتهي بتكوين حكومة انتقالية تتواصى على عقد مؤتمر دستوري شامل، وإيقاف الحروب الدائرة وإطلاق الحريات وإخلاء السجون من المعتقلين السياسيين، وإجراء محاكمات عادلة لفلول العصابة، وتجري في خواتيمه انتخابات حرّة ونزيهة بإشراف المجتمع الدولي، وتعود للسودان عافيته تدريجياً، باعتباره عضواً صالحاً في المنظومة الدولية، ووطناً عزيزاً على أهله، وليس خصماً لهم، كما توهمّت العصابة ذوي البأس!

هذا هو السيناريو "المتشائل"، ولا تسألوني عن مآلات السيناريو "المتشائم"، وبنفس القدر السيناريو "المتفائل"، فهما من أمر شعبي!!

آخر الكلام: لا بُدّ من الديمقراطية وإن طال السّفَر!!
٢٠١٢/٦/١٤

obeikan.com

هل خُلق السودان في كَبَدٍ؟! (١)

أرسل لي قارئ كريم - مِمَّنْ يُحسنون الظن فيما نكتب - رسالة جمعت بين العتاب والعقاب، أو إن شئت بين الترغيب والترهيب.. سألني فيها سؤال مُنكر ونكير - كما نقول في ثقافتنا العامة - عن الأسباب التي حدثت بنا للتوقف عن الكتابة بعدما تطاول أمدها وتمطى أوانها؟! ولعله وجدها ساحة للتنفيس عن كربة من كُرب العُصبة ذوي البأس المتعددة الهويّات، فتقمّص دور البشير النذير، وطفق يُعيد لي الظروف التي أحاطت بالوطن المنكوب وأهله، بصورة تفطر القلوب وتفتت الأكباد، وتمادى حتى طفر دمعي وخيل إليّ أنني أعلمها للمرّة الأولى. وكأي لاعب ماهر من لاعبي كرة القدم، باغتني، مؤكداً ومستكفاً في آن معاً، وتسألت: كيف جاز لي أن أنام نوم قرير العين هانيها، وقد بلغت معاناة الوطن وأهله ذلك الحد من البؤس والتردي والانحطاط؟! وبعد أن أسهب في تفاصيلها وأطنب، أقسم قسماً مُغلطاً أنه غير حاثث، وينبغي أن أكون له من الصديقين.. قال: كان يجب أن تكون هذه الأسباب دافعاً لنا في الاستمرارية، لا مبرراً للتوقف المفاجئ. وحتى يسد عنّا كلّ منفذ، فقد عدّ التوقف نفسه جريمة مكتملة الأركان في حق الوطن المكلوم وأهله، وزاد أنها قد ترقى لدرجة الكفر.. ثمّ ختم بما تصوّره ترغيباً بعد ترهيب، وطلب مني أن أعيد قراءة آخر مقال كتبتّه، مشيراً فيه إلى ما اعتبره تزامناً بين ما كان في رحم الغيب، وبين ما حدث في واقع نعيشه ملء السمع والبصر والفؤاد. أما وقد امتثلتُ لما طلبه، أقول قبل أن نعيد قراءته معاً: إنه لا هذا ولا ذاك خطراً ببالي، لا وقتذاك ولا عندئذٍ يا سيّدي!

لكن فلنترك هذا جانباً إلى حين، ودعونا نتأمّل بانوراما هذه الرسائل لتماهياها مع هواجس الواقع القلق، فهي تعكس صورة مجرّدة لما نحن فيه رازحون. إذ لم يكن القارئ المذكور أعلاه وحده، فثمة قراء آخرون تقاطرت رسائلهم، وكانوا شركاء في نفس التساؤل، بقاسم مشترك واحد، حول التوقف ودواعيه؟! لكن بعضهم خلّق في سموات آخر - كلّ بحسب هواه - واتّخذوا من نظرية "المؤامرة" متكأ ومقيلاً. وبعضٌ آخر، وهُم ما نسميهم بـ"حزب التبئيسيين"، أي الذين يُبجسون الناس ثوراتهم، وتعرفهم من سيمائهم، إذ بهم غلظة في المعاني وشطف في التعابير.. هؤلاء لم يجدوا مشقة في التقليل من شأن

الانتفاضة الجماهيرية أو الهبة الشعبية الأخيرة حدّ السخرية من توابعها، بل سرحوا وشطحوا ونطحوا، وجاءوا بطلاسم وهممات تشبه فحيح الثعابين للقضاء على ثورة من قبل أن يستبينوا ليلها من ضحاها.. بينهم قارئ واحد، رمانا بذات الداء وانسلّ، تاركاً وراءه ما ثقل حمله وصعب فهمه. إذ افترض - غفر الله له وسدّد خطاه - أن الإحباط العام أصابنا بداء "السكتة القلمية" إن جاز التعبير. وهو يعني بالإحباط الانتفاضة المودودة نفسها، تلك التي ماتت في مهدها - بحسب زعمه!

بيد أنه إذا ما تجاوزنا عن تقرّيط الذين نُقدّر مشاعرهم ونتضاءل معها خجلاً ضمن ذات الرسائل، فإن المحنة لا تخلو من فكاهة، وقديما قيل: شرّ البليّة ما يضحك وخير البليّة ما يدعو للتأمل والتدبّر والتفكير.. فقد فاجأني قارئ آخر بافتراض غريب، إذ عزا الأمر برُمته إلى الخسد، وقال إنه من المؤمنين بهذه الفرضية التي نبتت وانتشرت في مجتمعنا. وكنتُ من باب المجاملة قد كتبتُ له مستحسناً ما اعتبرته دعابة، فإذا به ينفي ويقول إنه جادّ وليس في الأمر هذر أو مذر. بل لم يجد في نفسه حرجاً بتزويدي بصورة من شهاداته الأكاديمية حتى لا أحسبه من الجاهلين - أو كما قال. ثمّ ذكر لي أنه شخصياً "شهيد" لهذه الظاهرة، بل وإمعاناً في الإقناع، استشهد بكاتب سياسي من فطاحلة كتّابنا المرموقين، والذي ذكر في أكثر من حوار أنه "محسود"، فانظروا الدرك السحيق الذي نحن فيه غاطسون!

لكن الذي سقط منه سهواً أو عمداء، هو أن العُصبة نفسها قد جَبَّت قول كل خطيب في هذا المضمار، حيث عزا - أحد خزنتها - تنكّب البلاد وعثراتها إلى الخسد وليس إلى نهجهم الديكتاتوري، كما هو معلوم. جاء ذلك على لسان الدكتور عوض أحمد الجاز، الذي ظلّ يتنقل بين الوزارات كما تنتقل الفراشة بين الأمكنة. إذ قال لنواب المجلس الوطني الذين سألوهم دون أن يُدركوا أن بعض الأسئلة تُبدا لهم فتسوؤهم "السودان بلد محسود"! وقيل إن الخليفة عبدالله التعايشي قال عن ذات البلد المغلوب على أمره إنه "راكبها شيطان أو جان" سيّان، والواقع أنني لم أعجب من قول الوزير ولا الأمير، فقط عجبّت لمن يسبغ الظاهرة على من أبغى بحُب وطن، قضاياه لا تشدّ همّة حاسدٍ ولا تحرك نقمة جاحد. فالذي يعرفه المرء مثلاً أن المحسود هو الذي يرقل في نعيم الدنيا من مأكّل ومشرب وملبس وتطاوّل في البُنَيان، وهي كلها أمور فسدت وأفسدت فيها العُصبة ذوي البأس، بدرجة بات فيها الشيطان يستعِذ منهم كل صباح!

في حقيقة الأمر، استعرضنا تلك النماذج، لنقول إن للديكتاتوريات ثقافتها التي تترك بصماتها في سلوكيات البشر، حتى ولو تحصّنوا من شرورها. إذ كلنا يعلم أنها لا تجيء كالنسمة، ولا ترحل كالظل. فهي عندما تنقضّ على السُلطة بليلٍ، تنسّر بقناع الوطنية وتندثر بثوب النزاهة والتجرّد، وحينما يخلو لها الجو

ثَبِيصُ الْمَكْرِ وتصَوَّرَ الدهاء، ولذا عندما ترحل، فهي تخلف وراءها ركام ثقافة كارثية تنوء بحملها النفوس. ولنضرب مثلاً بواقع نعيشه الآن، حيث وجد الناس أنفسهم في مواجهة حالٍ أليم، يتنازعون وطناً لم يكفه الانقسام، فصار قابلاً لانشطار عديد.. وطن لم يعصمه الصمود فأضحى أيلًا لسقوط جديد!

نعم، نعود للموضوع الأساسي، وهو ازورارنا عن الكتبة.. في الواقع لم أشعر بمرارة هذا الأمر إلا عندما توقف صديقنا سيف الدولة حمدنا الله لفترة مؤقتة وعاد امتثالاً لوعده قطعه. فيما عني لي بعدها أن استمراريته كانت تغطي بالفعل ما اعتبرته تقصيراً من جانبنا. والحق أقول، إن سيف الدولة هذا كاتبٌ مجيد، بل هو سيفٌ مسلطٌ على رقاب الغلبة فعلاً لا قولاً، يكتب عن إحساس صادق بقضية شعبه، والصديق كما تعلمون هو سنام الموضوعية وذروتها، لهذا ظل سيف الدولة يلاحقني بالسؤال المُرهِق حول أسباب توقفي، مختصراً الجدل دائماً بالسؤال عن العودة، ومتى أوانها. وكلما لُذْتُ بتاريخ ذكرته قطعاً لدابر أي نقاش، وجدته يذكرني بحلولة كمن يتحرى أمراً الناس عنه لاهون!

عطفاً على ذلك، وتأسيساً على هذا، ومن باب الشفافية المرتجاة بين الكاتب وقرائه، وجدته أنه لزاماً عليّ أن أشرح أسباب ما انقطع عمداً وليس سهواً، تفادياً لأي تساؤلات شاطحة بمثلما سلف ذكره، ففي تقديري أن ثمة عقداً غير مكتوب بين الكاتب المحترف والقراء، وهو ما ينبغي احترامه. ودونه، فالكاتب الملتزم الذي يتوقف برهة ثم يعود فجأة دون إبداء أسباب مقنعة، يكون أشبه بمن تسلل إلى دار على غفلة من ساكنيها. وحتى لا يقال عنا إننا ننهي عن خلق ونأتي بمثله، أقول إن تعييننا طوعاً أو قسراً، من حق الطرف القارئ في العقد أن يتوعد الطرف الكاتب بعذاب مهين، بمثلما توعد سيدنا سليمان هُدهُده إن لم يأتيه بخبر يقين!

فيا من كلت جنوبهم من أثر الانتظار، ويا من تغورت عيونهم جرأً البحث عن الذي يُقرأ ولا يُقرأ، ويا من كُلت متونهم من الضرب على لوح محفوظ، نضع بين أيديكم ما نظنه شافعاً في يوم بسطت فيه موازين التقويم والتقييم، وتساولت فيه مبادئ الأخذ والعطاء، وتماهت فيه أسس الحقوق والواجبات.. هاؤوم أقرأوا أسبابنا:

• أولاً: بذات الشفافية، بل بوضوح الشمس في كبد السماء، نقول إن الكتابة بالنسبة لنا ليست ترفاً، ولأننا نعيش صراعاً مكشوفاً مع عُصبة مجرمة، فهو لا حياد فيه. سنظل نلهب أفعالهم بالسنة جذاد ونُشرح أعمالهم بأقلام مداد. من هذه الزاوية، كان لزاماً علينا التفكير في خطوة تالية نسدد بها ضربة أخرى بعد "الخندق"، ونحن لها عاملون. ودونما مُدارة نقول: هي خطوة نبشّرها فيها بعذاب واقع، وعقاب آتٍ، ولو بعد حين. نقول ذلك ونحن نعلم أن ليس

بمقدورهم أن يفعلوا شيئاً سوى إحياء عظام حاشية السلطان، الذين يكتبون ببطونهم، ويفكرون بسيقانهم، لإنكار ما نكتب، وهم كاذبون!

● **ثانياً:** في سبيل تعزيز التواصل مع القراء الذين بيننا وبينهم ميثاق وعهود لا نتنكر لها، عمدنا إلى طرق درب آخر من دورب التواصل، وأسعدنا أننا وجدنا فيها ملاذاً.. كان ذلك في ندواتٍ سياسية قدرنا أن يكون للحوار فيها لسانٌ وشفتين حول قضايا الوطن المُتَشَعِّبة الدروب والمتعددة الالام. وفي هذا الصدد، قدر لنا تلبية دعواتٍ كريمة من ناشطين قابضين على جمر هذه الوطن.. ابتدنا هذه الندوات بمدينة دينفر (ولاية كلورادو) ثم منطقة واشنطن الكبرى.. أعقبها رحلة أولى إلى أوروبا، بدءاً بمدينة دبلن بإيرلندا ثم مانشستر ولندن ببريطانيا، ورحلة تالية، انطلقت من أوسلو بالنرويج، وانتهت بلاهاي في هولندا.. كم كانت سعادتي بالغة بالتحاور مع مهمومين من أبناء وبنات وطننا، الذين تدوشتهم المهاجر واحتضنتهم ديار اللجوء والاعتراب، ولعلها ساحة نرجي فيها الشكر لكل من دعانا وثابر في إنجاح هذه الندوات، ولكل من حضر وقدر ونظر في شأن الوطن المختطف. أمّا أنت يا عزيزي القارئ، فنسألك بعد هذا رضاء يشفع لنا فراغ الغياب!

● **ثالثاً:** المعروف أنه لا يأتي التوقف إلا ويكون مصحوباً بالتأمل في ما ظلّ يكتبه المرء، وذلك بهدف مراجعة الذات، لأن الكتابة إذا ما كانت مصحوبة بالتزام واضح، يصبح حتماً عليها تحقيق غايتها ولو باخر نفس من أنفاس كاتبها. فبالرغم مما أورثتنا له الديكتاتوريات وفجورها في القيم التي تضعفت، والأخلاق التي تدهورت، وما صاحبهما من مروءة باتت تبكي على قارعة الطريق، إلا أنه ما يزال ثمة أمل في تقويم ما اعوج، وإصلاح ما انكسر. وفي تقديري، فإن الكتابة قادرة على ذلك، وإن عجزت عن تحقيق هذه الغاية، فذلك لا يُعَدُّ فشلاً لكاتبها فحسب، وإنما امتهاً كذلك لعقل قارئها. وعليه، نحن نجد المتابعين والمهمومين والمثابرين، بنقد موضوعي للواقع في ضوء الانقفاضة التي بدأت وتوقفت إلى حين. أين كانت نقاط الضعف، وما هي مكامن القوة، وكيف يمكن أن تصل لغاياتها النبيلة، وذلك بمعلومات استقيناها من منابعها، ونقد ذاتي دون موارد أو مجاملة أو "كلام مغتت"!

عوداً على بدء، جاء المقال الذي طلب مني القارئ الكريم أن نعيد قراءته بعنوان "الغصبة ذوي البأس وسيناريوهات الرحيل"، ولننظر في الجزء الثاني من هذه السلسلة ما الذي استبطنه بحدِيثه.. سنقرأه معاً لعلنا نأثّر فيه ناراً يضيء قبسٌ منها دياجير العتمة الماثلة!

آخر الكلام: لأبد من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٢/٩/٢٥

هل خُلِقَ السُّودَانُ فِي كَبَدٍ؟! (٢)

خَتَمْنَا الْجُزءَ الأولَ من هذه السلسلة بملاحظة القارئ الكريم الذي طلب منَّا العودة لآخر مقال كتبناه قبل التوقف المؤقت. كان المقال المذكور قد نُشِرَ في ٢٠١٢/٦/١٤، في حين اندلعت المظاهرات الأخيرة بعد يومين، أي في ٢٠١٢/٦/١٦، ورغم أن أوراها ظلَّ متقدِّماً، لكن يجب ألا ننسى أن من قدح زنادها آنذاك هُنَّ صفوة من حرائر طالبات السُّودَانِ اللَّائِي يدرسن في جامعة الخرطوم، داخلية "البَارَكْس". لم يَكُنْ ذلك يعني تزامناً فحسب، بل كان المقال يتحدَّثُ عن المظاهرات بحُسانها أمراً حتمياً، وإن كانت في طيَّات الغيب، وهو ذات الأمر الذي نريد تأكيده الآن، وبخاصة للذين يظنون أن الانتفاضة أجهضت بغير رجعة، وهو ما ظلت تُروِّجُ له ماكينة الدعاية النازية للعُصبة ذوي البأس. والمقال وفق ما يذكر الذين قرأوه آنذاك ارتكز على مرئياتي في الزيارة الخاصة التي قُمتُ بها للسُّودَانِ في يوليو من العام الماضي. تلك المرئيات انداحت إثر مشهد لشابٍ في العقد الثاني من عُمره، قال إن اسمه عبدالرحمن، وهو أحد الباعة الجائلين الذين يتقافزون بين السيارات في شارع المك نِمر وهم يعرضون بضائع شتى، لا رابط بينها سوى الفقر الذي وُحِدَ بين حاملِها في ذاك النهار القانظ.

كان قد دار بيني وبين عبدالرحمن الذي كان يحمل زجاجات معدنية بيمينه وشهادة بكالوريوس في الاقتصاد من جامعة الخرطوم بشماله، حديثاً مقتضباً رأيْتُ فيه تباشير القادم من وراء المجهول، والتي وردت نصاً كما يلي: «صورة عبدالرحمن ظلت راسخة في ذهني لا تبارحه البتَّة. وبالرغم من أن حتمية رحيل العُصبة ظلَّ راسخاً في نفسي زُهاء أكثر من عقدين، إلَّا أنني أصدقكم القول إنني توسَّمتُ فيه بشارة ثورة الرحيل، قلْتُ لنفسي إنه من سيختصر لنا سفر الخروج من الجحيم بعد أن قرأ علينا نصاً بهيئاً، خطَّ فيه النقاط على الحروف وأعرب جملة كانت تبحث عن تصريف لغوي لسنين عدا»! وحتى تكتمل الصورة، رأيْتُ أن اجتزئ السيناريوهات التي وردت في المقال وإعادة نشرها، لنرى معاً إلى أي مدى تطابق خيالها بواقعها، وذلك كي تكون تلك نقطة انطلاقنا نحو تسليط الضوء على ما حدث تقييماً وتقويماً واستقراءً.. وإلى نص الاقتباس:

«بيد أننا في هذا المقال نود أن نضع بين أيديكم السيناريو الذي نعتقد حدوثه، والذي يتدرَّج صعوداً حتى يصل إلى خلاصة اكتمال دائرة الخلاص،

وصولاً للرَّحيل الوشيك، وهو سيناريو قد تزيد عليه أيها القارئ الكريم وقد تنقص، ولا أعتقد أن مراقباً حقيقياً يرى الأمور تتدرج أمامه بهذه الصورة المأسوية ولا يعضد ما اجتهدنا في التنبؤ به.. بوقائع ما سيحدث في الساعة الخامسة والعشرين!

• أولاً: ستقوم السلطة الغاصبة بتحين ظروف تعلن فيها عن ما اسمته بالقرارات الاقتصادية الجديدة. أي رفع الدعم عن المحروقات (لفائدة القارئ الكريم يقول الاقتصاديون إن ٧٠% من تلك المحروقات يستخدمها النظام نفسه. إذا فرفع الدعم هذا يعني أن الحكومة سترفع الدعم عن نفسها شريطة أن يتحمل المواطن آثاره الكارثية. ومن عجب أن السلطة الغاصبة من شدة حيرتها وتوَّجُّسها، باتت تبحث عن يوم ثامن في أيام الأسبوع السبعة لكي تعلن قراراتها المهلكة على الناس وهم غافلون!

• ثانياً: بعد إعلان الإجراءات الاقتصادية ستعمل الآلة الدعائية الإعلامية (تلفزيون محمد حاتم ذو الميزانية التي تبلغ أربعة مليارات جنيه في العام) بالإيحاء أن تلك إجراءات حتمتها الأزمة الاقتصادية العالمية، علماً بأنها ذات الأزمة التي نفوا تأثيرها من قبل! . .

• ثالثاً: يُسجَّر النظام ذات الدعاية الإعلامية بسدنته المبتوثن في الأجهزة المختلفة ليرَّوجوا لما وصفوه بالحكومة الرشيدة، والإيحاء بتخفيض ما اسموه بشاغلي المناصب الدستورية، والذين قال عنهم وزير المالية إنهم يبلغون ٨٢٨ فارس، مع أن هذا افتراء. لكنه صدَّق عندما قال إن عددهم الكلي نحو ٩٠٠٠ منذ أن جثمت العُصبة على صدورنا. هل يعلم القارئ الكريم أن من تقاعد من هؤلاء ما زال يتأبَّط امتيازاته، فضلاً عن أنه قد يكون قد زاد عليها بمخصَّصات وظيفة أخرى باطنية. فما على الحاديين سوى استخدام الآلة الحاسبة لمعرفة ما يستهلكه هذا الجيش الجرَّار من الخزينة العامة. وسيجد بلا انحياز إن الحلَّ ليس في تخفيض الدستوريين، وإنما في ذهابهم إلى مزبلة التاريخ!

• رابعاً: ستصدر الأوامر للأجهزة الأمنية والشرطية بالتساهل ابتداءً في التعامل مع المواطنين بمنطق أن الضغط سيولد الانفجار، ثم مع ازدياد رقعة التذمر نالياً ستتكس السلطة الغاصبة على عقبيها، وتصدر الأوامر بضرورة إحكام القبضة على خناق المواطنين ترهيباً وترعيباً، وهنا تبرز الحكمة الأخرى في ثقافة الشعوب المضهدة والتي تقول: إن العنف يُؤدِّد عُنفًا مضاداً!

• خامساً: إزاء هذا السجال صعوداً وهبوطاً، يكتشف بعض أفراد الأمن والشرطة إنهم يُوجَّهون أسلحتهم نحو أسرهم الممتدة بترابط أهل السودان، وفيهم الأخ والأخت والعم والعمة والخال والخالة.. إلخ، وسيُدركون أن

معاناتهم لا تنفصل عن معاناتهم، وطبقاً لذلك ستبدأ أعداد كبيرة تقفز من المركب الغارق، ليبقى فيه فقط أصحاب المشروع الوهمي، الذين يدركون أن بقاءهم أحياء في بقاء النظام!

• سادساً: تتسع دائرة المعاناة بصورة غير مسبقة في المجتمع السوداني، انهيار العملة الوطنية، إفلاس الخزينة العامة، غلاء فاحش، ثدرة شاملة في السلع الضرورية، طوابير في كل ما يستهلكه المرء، ربّما طال ذلك الهواء الذي يتنفسه! في مقابل ذلك، يتجلى جشع الموالين في أبشع صورته، فإزاء الإحساس بالدولة المنهارة والزائلة، يزداد نهمهم لمزيد من الفساد وتهريب ما تبقى من أموال للخارج!

• سابعاً: تبدأ الأسئلة الكبيرة تظهر بوضوح حتى في أذهان المحايدين، ويبدأ الناس الانتقاد الحاد، حيث تأتي كل كباتر العُصبة دفعة واحدة، حتى تلك التي ظنوا أنها سقطت من الذاكرة الجمعية، ومع اتساع دائرة التذمر وبلوغ الروح الحلقوم بوصول الأمور إلى نقطة خيار الصفر، تتجاوز طرائق التعبير الأفراد.. لتأخذ منحىً جماعياً يسقط خيار "الميتة أم رماداً شخ"، أي الميتة العاطلة كما تعبّر عنها الثقافة الشعبية السودانية.

• ثامناً: ستبدو علامات الشقاق في أوساط العُصبة الحاكمة، وذلك بتحميل طرف المسؤولية لطرف آخر، وتلوح في الأفق نُذر مفاصلة أشد وطأة وأقوَم قِيلاً، تلك التي لن يتورّع الخصماء فيها من استخدام كافة أسلحة الدمار الأخلاقي الشامل، واستناداً على قاعدة "إذا اختلف اللسان سرق المسروق" سيقف الناس على حجم الجريمة الحقيقي التي أرتكبت في حق الوطن ومواطنيه، ممّا سيزيد النار أواراً!

• تاسعاً: بمثلما تأمر أبناء سيدنا يعقوب على أخيهام - مع الفارق في التشبيه - ستعمل فئة في الظلام على محاولة تسليم الرئيس الضرورة بدعوى "إنقاذ المشروع الإسلامي" استناداً على "فقه الضرورة"، ولعلّ أقصى ما يمكن أن يتوقعه المرء في هذا السيناريو يشير إلى احتمال التخلص منه مداراة لسوائهم، بغية الطموح في فتح صفحة جديدة مع المجتمع الدولي!

• عاشراً: مع ازدياد حالات التدهور الإنسانية، من نزوح ولجوء وفلتان أمني، سترمي القوى الدولية بنفسها في أتون الصراع عبر استصدار قرارات أممية، وتفعيل أخرى نائمة في الأضابير، واضعين في الاعتبار أن استقرار دولة الجنوب الوليدة يكمن في ذهاب عُصبة الشمال، بهدف أن يكون الجنوب النموذج الذي تستقر به القارة الأفريقية وليس العكس.

• أحد عشر: ستنهض القوى السياسية من مرقدها، وستخلع رداء الكسل والتقاعد واللامبالاة، وذلك تحت تأثير اتساع قاعدة التمرد الشبابي في

أوساطها، ولن تجد قياداتهم بدأ من الاستجابة لمطالبهم ورغباتهم حتى لو كان ذلك بذريعة "مكره أخاك لا بطل"!

• ثاني عشر: عندما يتسع الفتق على الرأتق، ستجد الأجهزة الأمنية نفسها أشد عجزاً في مواجهة الطوفان البشري، وسيرتد استخدامها سلاح القوة إلى نحرها، بحيث يمكن أن تدخل في مواجهة بعضها البعض، عوضاً عن مواجهة المواطنين!

• ثالث عشر: يصبح السودان في عين العاصفة، ويحتل الخبر الأول باستمرار في النشرات العربية والأجنبية التي ستجد ضالتها في بلد سيناريوهاته مفتوحة على مصرعيها تدرجاً من السييء إلى الأسوأ. سيكثر الخبراء الذي يُشعلون الأجواء بتحليلات واستنتاجات قد تخبى وقد تصدق، تتحرك الكتل الجامدة في المهاجر والمنافي وديار الاغتراب، ومع اتساع المحنة تتسع دائرة الاتهام لمن رمى بها في أتون تلك النار لسنوات تطاولت، وتبدأ في التفاعل الإيجابي الذي يتعدى تظاهرات "أضعف الإيمان" أمام السفارات، مما يلفت الأنظار لمحنة أخرى منسية!

• رابع عشر: يقوم الفاسدون بتغيير جلودهم، واستنساخ أنفسهم للإحياء بأنهم كانوا من المنادين بالتغيير منذ زمن، وأنهم كانوا ينصحون من وراء الكواليس، وذلك تأهباً لركوب موجة التغيير القادم من وراء الحُجب والأستار!

• خامس عشر: مع تمدد المحنة وتغورها، تبدأ الغصبة ذوو البأس في تقديم تنازلات جزئية بغية شق صفوف معارضيه، الأمر الذي يربك صفوفهم في بدايته، ولكن لأن التنازل يورث تنازلاً، يزيد الضغط الذي يطالب بأكثر من التنازلات.. آنئذ يبدأ المتقاعسون في الانحناء للعاصفة حتى لا تقلعهم وسدنة النظام بقدر سواء!

• سادس عشر: تزيد القوى المعارضة المسلحة التي تحارب النظام في الأطراف من مساحة تمدها لإرهاقه بحروب استنزائية، فتزداد معاناته مع خزينة خاوية، لأسباب معروفة لن تُجدي وسائل تجيش الشباب، وستزداد وتتطور أساليب الرفض والتذمر والتمرد مما سيزيد من حدة المواجهات.

• سابع عشر: تتداعى مؤسسات الغصبة الكارتونية السياسية، يعجز الحزب الوطني الذي كانت السلطة تحصي عضويته بنحو ستة ملايين مواطن وتسميه في شعاراتها "الحزب القائد لوطن رائد" يعجز عن إخراج تظاهرة لبضع عدد من الناس، للإحياء بأنه ما يزال موجوداً!

• ثامن عشر: تزداد رقعة التمرد بتمرد كتائب أمنية وشرطية وعسكرية، وتتداخل سيناريوهات الكواليس والصوالين المغلقة.. ستعلو أصوات كثيرة

تطالب وتعمل على عدم اتساع دائرة الفلتان الأمني الذي قد يدفع البعض ضريبته القاسية.

• **تاسع عشر:** سيظهر الرّمز عبدالرحمن (الجندي المجهول في شارع المك نير) وصحبُه بصورة مليودرامية في المشهد السوداني "الشكسيري"!

• **عشرون:** هذا سيناريو مفتوح تسدل فيه الستارة إما بالهروب الكبير، أو بالذي لا يعلمه إلا الله، وينتهي بتكوين حكومة انتقالية تتواصى على عقد مؤتمر دستوري شامل، وإيقاف الحروب الدائرة وإطلاق الحريات وإخلاء السجون من المعتقلين السياسيين، وإجراء محاكمات عادلة لفلول العُصبة وتجري في خواتيمه انتخابات حرة ونزيهة بإشراف المجتمع الدولي، وتعود للسودان عافيته تدريجياً، باعتباره عضواً صائحاً في المنظومة الدولية، ووطناً عزيزاً على أهله، وليس خصماً لهم كما توهمّت العُصبة ذوي البأس!

هذا هو السيناريو "المتشائل"، كما قال الأديب الفلسطيني إميل حبيبي، ولا تسألوني عن مآلات السيناريو "المتشائم"، أو نقيضه "المتفائل"، إذ هُما من أمر شعبي!!..

انتهى اقتباس المقال.. ونترك للقارئ الكريم حرية إعمال فكره في التأمل في هذه السيناريوهات، ومدى تطابقها مع الواقع، بل مدى توافمها مع ما زال محتمل الحدوث في القريب العاجل!

آخر الكلام: لا بُدَّ مِنَ الدِّيمقَراطِيَّةِ وإن طَالَ السَّفَر!!
٢٠١٢/١٠/٤

oboi.kan.com

هل خلق السودان في كَبَدٍ؟! (٣)

من باب الذكرى التي تنفع المتابعين، نقول إننا خالصنا في الجزء الثاني من هذه السلسلة إلى إعادة إيراد السيناريوهات العشرين، والتي كتبناها والانتفاضة الأخيرة كانت كائناً يتخلى في رحم الواقع السوداني.. أي أنها بمعايير السياسة كانت محض خيال على الورق، ولكنها عندما اندلعت أصبحت حقيقة تجسد واقعاً قائماً، الأمر الذي فتح باب الاجتهاد لمقارنة هذا بذاك. وبناءً عليه، يسوءني جداً على المستوى الشخصي أن أقرأ وصفاً للبعض يقول إنها أجهضت أو وُذِّت. ذلك لأن المُجهض أو الموءود تذهب رُوحه إلى بارئها، ولن ينفخ الله في صورته إلا يوم لا ظل إلا ظله. ولهذا يطيبُ لي عَوْضاً عنهما أن أقول إنها بدأت وتوقفت، فلم تصل لنهاياتها المنطقية، وبهذا التوصيف يبقى تواصلها أمراً محتملاً أو وارداً ينتظر زماناً ومكاناً معيّنين. وحتى لا يقال إن تلك مجرد تخرُّصات أو تمفّيات تخص قائلها، سوف نخوض في الأسباب الواقعية التي أدت إلى توقفها، وما إذا كان هذا التوقف هُدنة في سجال مستمر أم إنه لشيء في نفس صانعوها؟! وبالقدر نفسه سوف ننظر في إمكانية استمرارها، وهل تُخفها فرص النجاح، أم سيحقيق بها فشلٌ ذريع يطمرها في مقبرة التاريخ؟!

في البدء، ثمة وقائع وحقائق واستخلاصات من الحدث بما لا يمكن لأي مراقب تجاهله أو غض الطرف عنه. ولأن البيوت تُدخَل من أبوابها - كما يُقال - نود أن نذكر بعض آيات سورة تلك الانتفاضة، وفق ما تلاها الثائرون والمنفضون والساخطون والمُتذمرون والمحرومون والمتمردون على سلطة الأمر الواقع:

- أولاً: كانت تلك الانتفاضة هي الأولى من ناحيتي الكم والكيف طيلة السنوات الثلاث وعشرين التي حكمت فيها العُصبة ذوو البأس السودان بالحديد والنار. ولعلّ تطاولها يُعبر عن خصيصة من خصائص الشعب السوداني، إذ أن حدوثها المتأخر قد يوحي للمراقبين كأنما هو إهمال، ولكنه في الواقع يندرج تحت بند الإهمال المعروف في سايكولوجية شعبٍ جُلٍ على الصبر على المكاره، وبالطبع ليس ذلك مبرراً لتفاديسه، ولكنه الواقع الذي لا يمكن إغفاله أو تزيينه.. بغض النظر عن مساوئ الإهمال وتكلفته الباهظة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ونفسياً!

• **ثانياً:** على غير ما كان سائداً، هذه الانتفاضة تميّزت بتوسّع مسرح الحدث، حيث انتفضت مُدن وُفُرى ودساكر، بعضها لم يعرف ثقافة التظاهر منذ أن نزل سيدنا آدم من الجنة، واستقرّت بعض سلالته في تلك المناطق. على الرغم من أنه طاف عليها طائف الاستعمار بويلاته، وقبّعت تحت نير أنظمة وطنية ديكتاتورية بجبروتها ولم تحرك ساكناً، وعليه تُعدّ تلك ظاهرة جديدة تستحق الوقوف والتأمّل والاستقراء!

• **ثالثاً:** يُخطئ كثير من المراقبين - ولا نبرئ أنفسنا منهم - عندما يقارنون بين الواقع العربي، الذي أنتج ما سُمّي بـ"ثورات الربيع العربي" وبين الواقع السوداني، مُغفلين خصائصهما في كيفية تعامل هذه المجتمعات مع قضاياها المختلفة، ولنضرب مثلاً لا يستدعي كثير اجتهداء.. عندما قام المُودانيون بثورتين شعبيتين مشهودتين في تاريخهم السياسي عام ١٩٦٤ و١٩٨٥، كانت كل بلدان الربيع العربي بلا استثناء تزرع تحت قبضة حُكم سُلطوي، ربّما كان أكثر استبداداً من الحُكام السُودانيين الموسومين بالديكتاتورية عصرئذ.. وثار عليهم الشعب وخلعهم من السُلطة.. أي أنها ذات المعادلة القائمة الآن بطريقة معكوسة. وعلى الرغم من أن المقام ليس مقام مُلح وطرائف، لكن في تقديري، ما من ديمقراطي بصورة عامّة، وسوداني على وجه الخصوص، لم يضحك حتى بانث نواجزه، عندما سمع رئيس الغُصبة الحاكمة في أحد لقاءاته الرّاقصة وقد أطلق لعقيرته العنان، وقال إن ثورة الربيع العربي حدثت في السودان في يونيو ١٩٨٩، أي عندما نفذوا انقلاب التأمّر في ذاك التاريخ النعيس!

• **رابعاً:** لكن لا بدّ لعاقِل أن يتساءل: لماذا قال "الرئيس الضرورة" ذلك في الأصل؟! الإجابة ببساطة: كان ذلك تعبيراً يسيراً لدرس من دروس الانتفاضة رغم قصره، وجاء هكذا مُجسّداً حالة الهلع والخوف التي اجتاحت الغُصبة ذوي البأس حتى أيقن المراقبون أن بينهم وبين الرّحيل بضع فراسخ. وفي هذا الصّدّد، يذكّر المُفَرّاء الكرام كيف أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، ومنهم فسطاط أوى إلى نقد ذاتي حتى ظنّوا أن ذلك سيُنَجّيهم من المركب الغارقة. ولعلّ قفّة التراجيكميدي أن يحاول غازي صلاح الدين البراءة، أو أمين حسن عُمر تزوير التاريخ، وينعي قُطبي المهدي عُصْبته وتنظيمهم الشمولي، علماً بأن الأخير هذا يُعدّ أحد الذين ابتدعوا ظاهرة "البنك المنزلي"!

• **خامساً:** بالعودة لفقّه المُقارنات سالفه الذكر، والقائلة أن ثمة فارق جوهري بين ثورات الربيع العربي وبين انتفاضة أهل السُودان. بالطبع كلنا يعلم أن السبب الحقيقي للأولى جاء على إثر غيَاب الحريّات العامة، ممّا حدا بديكتاتوريات تلك البلدان التوهّم بأنها ستعيش أبداً في ظلّ سُلطتها الغاشمة. في حين أن مبعث الحالة السودانية كان الجوع.. نعم، الجوع في البلد المُفترَض

فيه إنقاذ العالم إن تكالبت عليه المسيغة. ومن المعروف أن الخبز ظل منذ عصر لويس السادس عشر وزوجه الغريرة ماري أنطوانيت سبباً رئيسياً في قيام الثورات، وإن تفرّعت مطالبها بعدئذٍ. ذلك بالطبع لا ينفي أن موبقات نظام العُصبة الأخرى يعجز عن رصدها أي جبار عتيق، ولهذا نجح للتأكيد أن الجوع كان سبباً رئيسياً وليس أوحداً، والجوع كما تعلمون يُهزِرُ إنسانية المرء ويفقده كرامته، وجاء في الأثر أنه قد يقود إلى الكُفر «قال فيما أخرجه ابن أبي شيبه، قال حدّثنا أبو معاوية عن 'الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن، قال قال رسول الله كاد الحسد أن يغلب القدر وكادت الفاقة أن تكون كفراً»، ولذا فقد استعاذ منه الرّسول الكريم أيضاً!

• سادساً: من خطل ما وقع فيه البعض من أخطاء، استغرابهم من غياب الأحزاب السياسية، التقليدي منها والعقائدي. كأنّ هؤلاء لا يعلمون أن تلك الانتفاضة كانت نتاج واقع جديد، واقع كُتِبَتْ فيه شهادة عجز القوى السياسيّة، ومُهرت فيه شهادة ميلاد قوى اجتماعيّة جديدة، هم فئة الشباب. والذين ظهروا بقوة وفاعليّة حيرت أهل النظام والأحزاب معاً. ومن المفارقات أن معظم هؤلاء الشباب هم من ولد وعاش في حقبة الحكم الاستبدادي العُصبي المائلة، وصبروا حتى ظنهم البعض جيلاً مدجناً أو "حناكيش"، بلغة الثقافة الشعبيّة السائدة!

• سابعاً: اتساقاً مع ما جاء أعلاه، فإن 'الانتفاضة أيضاً كشفت بل عرّت مواقف قيادات سياسيّة وأفرغت بعض أطروحاتهم من محتواها بعدما شنّفوا بها آذان العباد رديحاً من الزمن. اتصالاً مع ذلك، عندما أكدت الانتفاضة أن السودان ليس جزيرة معزولة، وأنه يؤثر ويتأثر مع محيطه الإقليمي والدولي. وقتئذٍ لم يجد المتظاهرون الشباب من يُوصل صوتهم للمنابر الإعلاميّة، ويفتح لهم أبواب المحيطين بغية مُوازرة مرجوة ومطلوبة ومحمودة، وهو حديث المواجه الذي سنخوض فيه تفصيلاً وتوثيقاً دون أن نخشى لومة لائم، وذلك حتى يعرف الناس فيما هم فيه مختلفون!؟

• ثامناً: يقولون: "لا فضيلة مع الفقر"، ونحن أيضاً نقول: "لا فضيلة مع الأمن". ذلك لأن كانت الأولى هي المسئولة عن الانحطاط الأخلاقي الذي طفق كيله في ظلّ العُصبة ذوي لباس وأدّى إلى ظهور "دار المايقوما لفاقي السند" ومثيلاتها. فإن الثانية قد أوضحت بما لا يدع مجالاً للشك أن المنتمين لجهاز الأمن هم من شاكلة ما قال عنهم كبيرهم الذي علّمهم انتعذيب وبشاعته، الفريق أوّل صلاح عبدالله قوش، وصفاً نقشعر له الأبدان. جاء ذلك في حوار بصحيفة 'الصحافة' ٢٠١٢/٧/٢٦م نجتزئ منه المقتطف المذكور التالي:

- طيب إحساسك شنو ورجال الأمن يتصدون للمظاهرات؟

= أنا قادر أعرف، أستطيع تقييم هذه الحساسية، وعارف الناس بتقول عن
ناس الأمن شنو.

- بقولوا شنو؟

= بقولوا ديل أولاد حرام وأولاد...

- يا راجل؟

= والله...

والحقيقة هُم ليسوا في حاجة لشهادة شاهد من أهلها، فقد أثبتت الأحداث التي
صاحبت الانتفاضة ذلك، إذ ذُهِلَ الرأي العام من طبيعة الممارسات
اللاأخلاقية التي نالت من جُسوم المعتقلين والمعتقلات، وإن لم تنل من
عزيمتهم وإصرارهم وإرادتهم. وحتى لا يحزن هؤلاء، نقول إنها وضعت ما
ظَلَّ السُودانيون يَتَفَنون به شعراً ويتباهون به نثراً في مهبِّ الريح!

• تاسعاً: أكدت الانتفاضة أن من كان دينهم الفساد، وظلوا يعبدون الدولار
والدينار والدرهم، هُم أول من سيُولي الأدبار يوم الزحف العظيم. فقد كشفت
الانتفاضة عن أن النظام الذي ظَلَّ يُخَصِّص ٧٠% من الميزانية للأمن
والدفاع طيلة سنواته في الحكم، أي لأكثر من عقدين من الزمن (بما فيها
عصر البترول الذي أقل نجمه) هو مجرد نمر من ورق، ولكن من ذا الذي
يقول للأنظمة الشمولية والديكتاتورية أن العبرة ليست في القوة المادية بقدر ما
في القوة المعنوية والتي لا تعرفها قواميسها وأجندتها وكوايسها!

• عاشرًا: خلاصة الأمر، واتساقاً مع ما ورد أعلاه أيضاً، فقد أكدت الانتفاضة
حقيقةً أثرية، وهي أن الأنظمة الديكتاتورية مهما أسرفت في القتل، وبالغت في
استخدام البطش والغنف والتنكيل، وسخرت موارد الدولة بُغية الحفاظ على
وجودها في سُدَّة السُلطة، وتظاهرت للرائي بتطاول أمدّها وطول سلامتها،
فإنها حتماً ستُشيع على آلة حذاء لتقبر في مدافن الدُلّ والجُزي والعار!

تلك حقائق أفرزتها الانتفاضة التي لم تبلغ نهايتها المنطقية، ومع ذلك لن
يستطيع أحد أن يمسح هذه الحقائق من خارطتها، سواء نهضت أو قُمِعت..
تواصلت أو تقاعست.. نجحت أو فشلت!

والى بقية السلسلة التي سنحاول أن نجيب فيها على المخبوء بين طيات
الأحداث.. ونعم أجر القارئ!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطية وإن طال السُفر!!

٢٠١٢/١٠/١٣

هل خلق السودان في كَبَدٍ؟! (٤)

اتصالاً مع ما توقفنا فيه الحلقة الثالثة، انطلقت تظاهرات أو انتفاضة (يونيو/يوليو) الماضية بصورة غير مسبقة من قبل في التاريخ السياسي السوداني الحديث. وذلك ليس من أحاديث المبالغة أو المزايدة، أو حتى فيما يدرجه البعض هُزوءاً بتمنيآت المعارضين. فالواقع يقول إن الصورة التي كان متعارف عليها من قبل في تجاربنا السياسية المشهودة، سواءً في الانتفاضتين الشعبيتين اللتين حدثتا من قبل العام ١٩٦٤ والعام ١٩٨٥، أو حتى في الانتفاضات الصغيرة التي اندلعت في كل عهود السلطات الديكتاتورية ولم تبلغ نهايتها المرجوة، كانت تبدأ وتنهض من جامعة الخرطوم والمدارس الثانوية بالعاصمة المثلية، وتتجه تلقائياً نحو قلب العاصمة الخرطوم أو ما سُمي سابقاً بـ"المحطة الوسطى" مع تماثل ذات الصورة في أجزاء أخرى من العاصمة المثلية، الأمر الذي كان يدفع بالنقابات والهيئات المدنية لدخول المعترك، مسلحةً بالشعار الشهير "الإضراب السياسي والعصيان المدني" فيعطّون بموجبه دولا ب العمل تلقائياً، ويندفع منسوبوها - أي النقابات والهيئات - نحو ساحات المظاهرات لتأجيجها وتصعيدها. وفي ختام ذلك المشهد، تتحضر القوى الحزبية السياسية فتلحق بقطار الأحداث.. وهكذا يتواصل السيناريو إلى أن تحقق الانتفاضة الشعبية غايتها المنشودة برحيل النظام!

ذلك ما كان من أمر صورة نمطية كلاسيكية متعارف عليها.. بل اتخذت طابعاً سودانويّاً محضاً أصبح مضرب الأمثال في تاريخ الثورات والهبات الشعبية. ليس ذلك فحسب، وإنما كانت هاجس العُصبة نفسها فعملت على إبطال آلياتها بطرقٍ عديدة يعرفها القراء الكرام، ولا داعي لتكرار سردها. وعليه لعلّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما الذي حدث في الانتفاضة الأخيرة التي اندلعت منتصف يونيو الماضي، واستمرت طوان الشهر نفسه، وكذلك الشهر الذي تلاه أي يوليو ٢٠١٢، حتى تستحق صفة التميز والتفرد التي ذكرناها؟! قلنا في مُستهلّ هذه السلسلة إن هذه الانتفاضة بدأت أولاً في جامعة الخرطوم، داخلية "البركس"، وثانياً، أن من أشعل فتيلها حفنة طالبات تعاضن عندهن الحس الوطني بأسباب مختلفة، ثمّ لحق بهن زملائهن الطلاب تضامناً وتأزراً وإصراراً.. ثمّ سرعان ما تمددت خارج أسوار الجامعة.. ثمّ تواصلت، ليس في قلب العاصمة -

كما هي الصورة المألوفة - وإنما في مشهد سريالي شمل أحياء شعبية، أخذ بعضها برقاب بعض في ضواحي العاصمة. ثم امتد الأمر وطال مدناً في الولايات المختلفة في معظم بقاع السودان، ثم زاد الأمر بدخول قُرى وبلدات صغيرة، في مشهد دراماتيكي فريد لفت أنظار المراقبين السياسيين وغيرهم، بحكم أن هذه المناطق المنسية لم تعرف التظاهر يوماً في ثقافتها منذ أن ظهرت للوجود!

ذلك من الناحية النوعية، أما من حيث الكم، فقد اعترف إبراهيم محمود، وزير الداخلية أمام المجلس الوطني تواضعاً، وقال إنها بلغت نحو ١٨٠ مظاهرة. وتعلمون أن الذي حدث بعدئذٍ تمثل في أن التظاهرات احتلت موقعاً متقدماً وبارزاً في كل وسائل الإعلام العربية والأجنبية (بعضها اضطرَّ لذلك اضطراباً لأسباب نستعرضها فيما بعد).. بهذا المنظور الواقعي، وبناءً على ما سقناه آنفاً، يمكن القول إن مظاهرات شهري يونيو ويوليو الماضيين تميّزت بكونها انتفاضة فريدة لم تحدث في تاريخ السودان الحديث من قبل، بغض النظر عن كونها وصلت لنهايتها المنطقة أو لم تصل.. زاد على ذلك ما حدث من ردود فعل في مشاهدتها الخلفية غير المرئية للبعض، حيث رشحت معلومات أكدت أنها قصمت ظهر النظام، رغم آله الأمنية الضخمة، وأن بعض سدنتيه أزمع الهروب فعلياً، سواء لإنقاذ الذات التي تحصّنت لليوم الأسود بالقرش الأبيض، أو بحمل ما خفّ وزنه وغلا ثمنه، أو حتى بغريزة البقاء الكامنة في النفس البشرية!

تلك صورة من صور الكواليس التي لم ير المراقبون من نارها سوى دخان تكثف في فضاءاتها، وكشفت عنه بعدئذٍ أكثر بروزاً تكتلات سلطوية استصحبت مرارات الماضي ومحن الأيدولوجيا وتناقضاتها في إطار الحزب الحاكم. يومئذٍ أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، مرةً بالقاء تهم التقصير جزافاً بقصد تبرئة الذات كما ذكرنا، وأخرى بنصائح متناقضة جاءت تجرجر أذيالها في ضحي الغد. وفي واقع الأمر، كلنا يعلم من دروس التاريخ التي لا تمل التكرار، أن مثل هذه السيناريوهات ليست وفقاً على العصبية ذوي البأس وحدها، فذلك شأن كل جماعة أو أفراد ولغوا في التأمُر بمثلما حدث بين هابيل وقابيل، أو مثلما فعل أبناء يعقوب بأخيه يوسف، أو كما هي شيمة كل الأنظمة الشمولية والديكتاتورية حينما ينخسف ليلها وينكسف نهارها!

ذلك سيداتي وسادتي ما كان من أمر الفعل، فما الذي حدث في ردود الفعل؟! أي لماذا لم تتواصل انتفاضة بكلّ هذا الزخم والتميز والتفرد الذي ذكرناه، ولم تبلغ نهاياتها الطبيعية أو المتوقعة أو المأمولة؟! بصورة أكثر وضوحاً.. إذا ما كانت الأكثر تميزاً وتفرداً.. لماذا لم تؤد لسقوط النظام؟! ما هي الأسباب الخفية والواضحة التي أحاطت بها وحالت دون بلوغ تلك الغاية النبيلة؟! هذا "سؤال المليون" كما يقولون، نعلم أن المتأرقين منه كثر، والهاربون أكثر،

برغم اجتهادات المتابعين والمراقبين والنشطاء السياسيين. وعليه فنحن حينما نعيد إنتاجه هنا، أو بالأحرى نحاول الغوص في أعماقه مجدداً، ينبغي علينا وضع النقاط فوق الحروف، وذلك بإقرار إجابة أمينة وصادقة وشفيفة، لا تجتر ما مضى ولا تفتنت على ما هو أت، أي بشرط ألا تجنح للخيال ولا تتجنى على الواقع.. نقول قولنا هذا وفي خاطر ما نسميه بـ"ثقافة الديكتاتوريات" التي وضعت أثقالها في وجدان السودانيين، فانقسموا بين خائن وبطل، ومن إحنهم ومحنهم فإن "حكومات السَّجَم والرَّماد" لم ترهق نفسها في استقطاب من سيلعب الدورين معاً!

إن الإجابة الواقعية لسؤال المليون هذا لن تستقيم، إلا إذا استصحبنا معنا - في هذه السفينة الباحثة عن مرسى - أسئلة فرعية غاية في الأهمية: هل اندلعت تلك المظاهرات على حين غرة، أم أنها كانت في حكم المتوقع.. ليس للمراقبين فحسب وإنما لسدنة النظام الحاكم أيضاً؟! لماذا حدثت في الفترة المذكورة وقد أجمع الكثيرون على أن نظام العُصبة يحمل من الأوزار ما يجعل بقاءه ليوم واحد ضرباً من ضروب العبث والاستهتار واللامبالاة؟! أي لماذا لم تحدث قبل هذا طالما أن الشروط اللازم توفرها كانت قائمة؟! هل كانت في حاجة لـ"ربيع عربي" لتصحو من منامها، أم أن العرب استلهموا ربيعها فتحرّكت تواصلًا معهم أو العكس؟! هل ثمة تأمر حيكت سيناريوهات في الكواليس أدى لتوقفها؟! وإن كان ذلك كذلك فمع من وضد من؟! ما الذي قاله الدكتور حسن الثرابي لكاكتب هذه السطور ووافق فيه شئ طبقة؟! وبنفس المستوى ما الذي قاله السيد الصادق المهدي للكاكتب نفسه مستلهمًا تجلياته من وادي عبقر؟! وتواصلًا.. من الذي ظلّ يمارس بانتهازية واعية دور المغفل النافع وهو به من المقتنعين؟! لماذا صمت الحسيب النسيب السيد محمد عثمان الميرغني، فلا سعد الحال ولا سعد النطق؟! هل لتوقف الانتفاضة علاقة بسيكولوجية الشعب السوداني الراكزة بين ضفتي الإهمال والإهمال؟! هل ثمة ارتباط في المحيطين الإقليمي والدولي ألقى بظلاله على الانتفاضة سلباً أم إيجاباً؟!

وتتواصل الأسئلة الحيرى على الجانب الآخر.. من الذي كان يرى في أروقة العُصبة أن إنقاذ المشروع يتمثل في التضحية بالمشير البشير ككبش فداء يجب تسليمه للمحكمة الجنائية؟! هل تحوّلت العُصبة بانقلاب قصر تحسباً في حال اشتداد أوار الغضب الشعبي بُغية إعادة ترتيب الأمور على نحو يعيد السُّلطة لحياض الحركة الإسلامية؟! ثم هل يمكن تكرار السيناريو بذات النمط أم بغيره؟!

هكذا - وعلى هذا المنوال - تندّعى كثيراً من الأسئلة المتواصلة، والتي سنحاول الإجابة عليها بمعلومات، بعضها من بنات أفكارنا واجتهاداتنا الموثقة، وبعضها الآخر استقنياه من مصادرنا العلمية في بطن أهل النظام نفسه، والتي

سبق ومثنتنا بما لم تكذبه الوقائع ولم تدحضه الأحداث. لن نفرّق بين هذا وذاك، وفي أذهاننا قرّاء أصبحوا من كثرة ما تمرّسوا على قراءة الواقع السياسي السوداني، بل ومن فرط ما خبروا الأعياب العُصبة وفنونها، صاروا يعرفون دبيب النمل في شوارع الخرطوم. ولعلّ في ذلك مقتلهم – أي العُصبة – الذين ظلّوا يعتقدون دوماً أنهم يحكمون شعباً قاصراً، ينبغي التفكير نيابة عنه بحيث لا ينبغي أن يرهقوا عقولهم!

أيها الناس، إن أفة العقل السياسي السوداني – وأنا لستُ براء – تتمثل في ذاكرتنا الكثيرة الثقوب، فالأحداث تجب بعضها بعضاً، لأننا ننساق وراء همجية النظام التي تُسكرنا لتُبعدنا عن لبّ القضية، وهذا مقصدهم! فصبراً، يا من تعلمتم شينا ولم تنسوا شينا!

آخر الكلام: لا بُدّ من الديمقراطيّة وإن طال السفر!!
٢٠١٢/١١/٦

هل خلق السودان في كبد؟! (٥)

هل نحن حقاً نستشعر المحنة التي ألمّت بهذا الوطن الرؤوم؟! منذ سنين وهو ينن تحت قبضة عصابة مُستبدّة.. مُنذُ سنين ونحن نشهد عرضاً مستمراً لمأسى تترى علينا كلما أشرقت شمس يوم جديد، بما يعجز الخيال عن وصفه والعقل عن تصوّره.. حربٌ يدور رحاها في الجنّوبين الجديدين (جنوب كُردفان وجنوب النيل الأزرق) فيدفع الأبرياء ضريبتها قصفاً بالانتينوف والكاتيوشا ومدافع الهاون، ونحن عنهم لاهون.. ملايين من بني وطننا يهيمن منذ سنوات في معسكرات الدّل والهوان بأصقاع دارفور، ويلوذون بتخوم دولٍ كُنّا نُطعمها من جوع ونأمنها من خوفٍ، ونحن عنهم غائبون.. أكثر من أربعين ألف جندي أجنبي يَدُوسون بأحذيتهم العسكرية على كرامة وسيادة الوطن المستباح، بعد أن توغّدهم سليل مُسيلمة الكذاب وبشرهم بعذابٍ واقع، ونحن لهم ناسون.. مؤسساتٍ أفقرت جواً (الخطوط الجوية السودانية) وأفلست براً (سكك حديد السودان) وخُطمت بحراً (الخطوط البحرية السودانية)، ونحنُ عنها سائلون.. بترول جاء وذهب ولم يَزِ الناس منه سوى "الزفت" الذي مائّل سَوَادُ خُطوطهم ومُهم لمُحزونون. وحتى يكتمل عرض التراجيديا، فُذِر لنا أن نشهد وأد أهم مشروع زراعي في العالم (الجزيرة) ونحن عنه غافلون!

خدمات تعليميّة تتردّى لدرجة أصبح الطلاب يُعاقرون فيها الخمر والمُخدرات عوضاً عن العلم والأخلاق، ونحن مثلهم مُغَيَّبون.. خدمات صحيّة تنهار، فينام مرضى الكلي على قارعة الطريق، ويموت الآخرون داخلها، كما يموت الجراد في الصحارى، ونحن على مأساتهم مُتفَرِّجون.. الرئيس "الضرورة" يسافر بلا حياءٍ ليتطبّب في بلدان الآخرين، ويترك خلفه أشباح مواطنين تعثروا بأرض النيلين بلا غذاء ولا كساء ولا دواء، ونحن في أمره حائرون.. يتكاثر العطالي كما يتكاثر الذباب في البلاد، فيعمل دُهاة العُصابة على دفعهم نحو الفياقي بحثاً عن الذهب، حتى يذهب عقلهم.. بلد يُستباح أمنها القومي وسُفهاء بني أُميّة، يصرفون المليارات على مؤتمر النفاق والخداع دونما وازع أخلاقي.. وكأنما كل هذا لا يكفي، إذ ينهض بين الفينة والأخرى مقطوعو النسب من سدنة جهاز الأمن، ويعملون على استباحة حُرّمات الناس، وانتهاك ما تبقى لهم من كرامة، ونحن في شغلٍ عنهم فاكهون!

يا أيها السيدات والسادة من "شعب السودان الفضل"، مُقيمون تحت نير الظلم والاستبداد، ومبعثرون في فجاج الأرض، تجترون أفاعيل الظالم المُستبد نفسه. نقول مهلاً، فستمتد هذه السلسلة بقدر تمتد محتتنا وخيبتنا ولا مبالتنا. فنحن بلا ريب أمام وطن تقهقر حتى بانث عوراته.. وطن ما زال بعض نُخبته يتجادلون في هويته، بينما عُصبة فاجرة حسمتها قتلاً وتعذيباً وتنكيلاً، وسطرتها خداعاً وإذلالاً وتشريداً، وكرّستها استغلالاً للدين وفساداً في الدنيا.. وطن تمرّق وأهله شاهدون على محنته.. وطن حاق به الفشل من كل جوانبه، بينما حُكّامه في غيهم يعمهون.. إذا سألتهم كابروا، وإذا تجاهلتهم كذبوا، يُناقفون في الخفاء ويُداهنون في العلن، يأمرّون بالمنكر وينهون عن المعروف، يجتمعون على الباطل وينفضّون عن الحق، يقتلون أبناءه بالليل ويتساءلون عن حرمة دم البعوض بالنهار!

من نكد الدنيا على هذا الوطن الجريح، أنه عندما تضافرت ظروف ولاحت في الأفق تباشير انتفاضة أوحّت بخلاصه وأنذرت برحيل عُصيته، انبرى الذين أحسن الناس الظنّ فيهم وعملوا في الخفاء والعلن دون أن تستمرّ الانتفاضة في خطّها المرسوم، وحتى لا تبلغ نهاياتها المنطقية. وبالطبع لم يحتاج الأمر لكثير جهد، فثمة ذرائع ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، يقولون تارة إن الأخطار التي تحيّق بالوطن تزيد من شهية المُتربّصين به، وتارة أخرى يقولون لك إن البديل لم يبلغ سن الرشد بعد، وثالثة يتحجّجون بالاتفاق على برنامج كأّن هذا النظام داهمهم على حين غرة. وعندما لا يجدون لا هذا ولا ذاك، يلونون بصمت القبور، أو يفرون بجلودهم لعواصم باتوا يزورونها أكثر ممّا يتواجد فيها أهلها!

فمن هم هؤلاء؟! نقول بكلّ شفافية، إنهم المُتقاعسون الواقفون على السياج من أبناء الشعب السوداني في المقام الأوّل، ومن ثمّ القوى السياسية والحزبية في المقام الثاني، فلا غرؤ إن كانت الانتفاضة اختباراً عسيراً لهؤلاء، قبل أن تكون امتحاناً وبيلاً للنظام الفاسد نفسه.. بل لو أننا ذهبنّا في اتجاه المزيد من إسقاط الأقنعة، فمن المؤكد أننا سنشير دون أدنى مواربة إلى قادة الحزبين الكبيرين – كما ينعتهم البعض – الذين قالوا لشعب الوطن الصابر أهله: "اذهبوا أنتم وربكم فقاتلوا، إنا ها هنا قاعدون"!

بيد أنّ الحسيب النسيب السيّد محمد عثمان الميرغني، قد جبّ غريمه وجاء في طليعة المُخدّلين.. ابتدع الميرغني، الذي كان يرأس أكبر حلف سياسي معارض في تاريخ السودان (التجمّع الوطني الديمقراطي) استراتيجية دخول النظام "بالتفسيط"، وله في ذلك أمرٌ عجب. حدث ذلك علناً لأوّل مرّة عندما التقى المشير البشير في أسمرّا في ٢٦/٩/٢٠٠٠ وأطلق عليه "اللقاء الاستكشافي" لكنّا هبطاً من الفضاء بغته.. وبالمعيار نفسه قال إنه "الشريك الخفي"، كان ذلك عندما شعر في العام ٢٠٠٢ أن الحليف المُعلن (الحركة الشعبية) مضت في طريق "مشاكوس" وفي نفسها شيء من حتى.. ثمّ باغت الميرغني حلفاءه في

التجُّع الوطني العام ٢٠٠٣ وعقد مع النظام الذي توعد بالاقْتلاع من الجذور (اتفاقية جدة) وقد وقَّع عليها من قِبَلِ العُصبة علي عُثمان محمد طه!

كانت الاتفاقية في مُجملها تفرِغ لمقرَّرات أسمرًا من محتواها وقيمها، لا سيَّما، البند الخاص بمساءلة ومحاسبة النظام على جرائم الفساد والجرائم الجنائية التي اقترَفها في حق الشعب السُّوداني، فاستبدلها الميرغني بمصطلح آخر في الاتفاقية الجديدة، سمَّاه: "رد المظالم" .. اكتشف المراقبون فيما بعد أن المظالم التي كان يعنيها، هي ممتلكاته التي صُودرت. ولحكمة يعلمها البعض، فالمعروف أن وقعها في نفسه كان أشدَّ مضاضة من ضرب الخُسام المُهتد. لهذا زالت دهشة الذين لم يكونوا يعلمون ويستعجبون إصراره على تضمين أي بيان ختامي لهيئة قيادة التجُّع الوطني هذه الديباجة، حتى حفظها الخُفاء عن ظهر قلب!

على كل، حمل الرَّاحل قرنق عصاه وغادر التجُّع الوطني الديمقراطي بعد أن وضعه الاتفاق الإطاري "مشاكوس" في سرج واحد مع أهل النظام. أما الميرغني، فمن باب درء الحرج، أبرم اتفاقاً جديداً مع النظام الذي كان عدواً. وتمَّت المصاهرة بموجب ما سُمِّي بـ "اتفاقية القاهرة" (٢٠٠٥) ليقبل بموجبها الكيان الذي ملأت سيرته الأفاق (التجُّع الوطني الديمقراطي) بقسمة ضيزى في المشاركة. وهُنا داهمَ الحياء أيضاً الذين تدثروا بالنضال ضد الديكتاتوريات، فتفتق ذهنهم عن بدعة المشاركة في السُّلطة التشريعية وحدها، في حين مضى الميرغني في اتجاه المشاركة في السُّلطتين التشريعية والتنفيذية، وبموجبها حاز على معظم مقاعد الأولى (١٤ من ٢٠)، وزاد عليها بثلاث وزارات في الثانية، منح منها الجنرال عبدالرحمن سعيد واحدة، فزاده تيهاً في مآهته.. أما هو، فقد قصد أن يتفرَّق خزيها بين الشركاء لأنها جاءت بأمر أدا!

عاد الميرغني للسُّودان شريكاً خفياً بالفعل، كما نعت نفسه. بدليل إنه لم يشغل نفسه بالقضايا التي تهم أهل السُّودان، وكدابُه أصبحت عيونه مُصوبة على هموم ذاتية، هي نفسها ما ظلَّ يشغل بها نفسه في كل الحقب السياسية، ديمقراطية كانت أم ديكتاتورية. فقد كانت دارفور وما زالت تفور وتمور وتثور، والناس يموتون فيها كما تموت السوام من العطش، ومع ذلك لم تنل شرف نظرة من سيادته تزيح عنها رهق الحرب. أما الجنوب، الذي كان يعتبره "خطاً أحمرًا"، فقد سار في درب الانقسام دون أن يحقِّزه ذلك على زيارته للذكرى والتاريخ. بل حتى عندما رحل قرنق وهرع الناس لتشجيعه من كل حذب وصوب، تخلف الشريك الذي استعصم بطاقيَّة الإخفاء، مع أنه كان يصف الرَّاحل بـ "الحليف الاستراتيجي"، وظلَّ يحتفل سنوياً بالاتفاقية التي مهرها معه في ١٦/١١/١٩٨٨ دون أن يبالي بدوران التاريخ ولا تعاقب الجغرافيا!

لكن الذين كانوا يعرفون طرائق الميرغني في الكرِّ والفَرِّ، أدركوا حينها أنه في طريقه لدورة كاملة سيستبدل فيها حليفاً بحليف. تزامن ذلك مع كذبة كبرى في

العام ٢٠١٠ زعم النظام فيها أنه سيغير جلده بانتخابات ديمقراطية التزاماً باتفاقية السلام. كان تلك واحدة من الحيل الماكرة التي استوجبت مد أيديهم بكل سوء للأحزاب (الكبيرة) فطلبوا منهما المشاركة حتى يكتمل الديكور، فلم يمانعا. لكنها كانت مشاركة مدفوعة الأجر. اكتشف أهل الإنقاذ في السيد الميرغني حبه للمال حباً جماً، عندما أعادوا له أملاكه المصادرة، طلب منهم أن يعتبروا سنوات المصادرة إيجاراً مؤجلاً. ثم صار كلما اشتهى المال أو تنسم رائحته ساوموه على موافقه. فكان ثمن الانتخابات ١٣ مليار جنيه!

لن نأتي بجديد إذا ما قلنا إن النظام تحسّب لاندلاع ما سُمي بـ"الربيع العربي" في تونس (ديسمبر ٢٠١٠)، ومصر (يناير ٢٠١١)، وليبيا (فبراير ٢٠١١)، واليمن (فبراير ٢٠١١)، وحالياً سوريا التي تقف في الطابور. كانوا يعلمون أن الحبل على الجرار كما يقولون، ماذا فعل الأبالسة الذين يدعون الطهر، وفي نفس الوقت تمرّسوا على (القمار السياسي)؟! قاموا تحسباً بعدة خطوات، منها أولاً مد جسور الطوارئ مع السيدين الميرغني والمهدي، لتحبيدتهما إذا ما طاف عليهم طائف الانتفاضة. وقدموا لهما إغراءً ابتزازياً، وهو أن يقبلا دخول ابنيهما للمشاركة في النظام بمناصب "رفيعة"، فاستجابا.. ولكن، كل منهما دوافعه التي تتباين وإن اشتركت في محنة التوريث. ولنترك المهدي وابنه جانباً، أما الميرغني ونجله فقد تبعتهما خمسة مليارات جنيه حملها أحمد سعد عُمر "عربون محبة"، حتى لا يكون هناك مجال للرفض. واستبقى الرسول "عمر" نفسه في القصر حتى يكون أقرب للمُتلقي والمُعطي.. من حبل الوريد!

بالاتفاق الباطني، حقق الميرغني ما ظلّ يطمح له دائماً ويتمثل في موطن قدم في السلطة، وهو الأمر الذي تمّ من خلال تعيين ابنه "جعفر الصادق" مساعداً لرئيس الجمهورية، بغضّ النظر عن فعاليته أو ما يمكن إنجازه، وبغضّ النظر عن طبيعة السلطة نفسها. أما الأمر الثاني، فهو الاستحواذ على وزارة التجارة، وهذه قد تسنمها أحد جلاوزته (عثمان عُمر الشريف) بشرط أن ينأى الحزب التليد عن أي إرهابات تدعو لتغيير النظام، سلماً كان أم حرباً!

صفوة القول، لعلّ السؤال الذي يجب أن يسأله السودانيون لأنفسهم: هل السيد الميرغني مهموم حقاً باستعادة الديمقراطية؟! ما الذي حرّمته منه الديكتاتورية حتى تمنحه له الديمقراطية؟! كيف يمكن أن يناضل أحد من أجل استعادة الديمقراطية وهو لم يكابد غيابها؟! هل يعرف الحزب الاتحادي "الديمقراطي"، الديمقراطية غير الصفة التي ألحقت باسمه؟! هل ثمة معيار آخر غير "المصالح الشخصية" يبتغيها أعضاء الحزب وهو يتقلبون بين الأحزاب جيئة وذهاباً؟! ما الذي صنعه الميرغني ليبقى جديراً بالبقاء على رأس حزب لنحو نصف قرن؟! ما هذا الحزب الذي يرحل أينما رحل صاحبه؟! كيف يعرف أهل السودان الذين يتحدث الميرغني باسمهم ما يدور بخله وهو زاهد في الحوارات

الصحافية واللقاءات الجماهيرية والمؤتمرات التنظيمية؟! كيف يمكن أن يجمع المرء بين زعامة طائفة دينية وحزب يعد من منظمات المجتمع المدني؟! هذه أسئلة يمكن أن تتواصل بلا نهاية.. بل حتى لو كان النيل مداداً والشجر أقلاماً لما استطاع المرء لها حصراً ولا عدّاً!

كفانا وهماً وينبغي علينا الخروج من دائرة الغيبوبة، فهذا قدر حظّ السيد علي.. لم يكن غريباً أن يلعب السيد الميرغني دوراً سالباً في الانتفاضة التي لاحت بشائرها، وليس مدهشاً أن يعمل على عدم تواصلها نتيجة الاتفاق الباطني بينه وعُصبة النظام كما ذكرنا. وعليه، من كان ينتظر تغييراً من "حزب الميرغني" فإن ليله سيطول، وإن كان هناك حقاً شباب ناهض في الحزب كما يزعمون، وهناك إصلاحيون يتوخون أهدافاً وطنية كما يردّدون، فعليهم أولاً الثورة على هذا الواقع البئيس حتى يستقيم السير في الطريق الصحيح، إذ لا يستقيم الظل والعود أعوج!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطية وإن طال السَّفر!!

٢٠١٢/١١/١٨

oboiikan.com

هل خَلق الشَّوْدَان في كَبَدٍ؟! (٦)

الْفُرَّاء الْكِرَام...!

في البداية أقول.. إن سمو الذي بيننا يُحْتَمَّ عليّ الاعتذار عن انقطاع هذه السلسلة، والتي كنا قد خصَّصناها وشرعنا فيها بتحليل الأسباب التي حالت دون بلوغ الثورة أو الانتفاضة أو الهبة الشعبية التي اندلعت منتصف العام - على مدى شهري يونيو ويوليو- نهاياتها المنطقية، أي اقتلاع النظام الإسلامي الفاشستي من جذوره. وتعود ظروف الانقطاع إلى السفر، حيث يتعدَّر على المرء مواصلة الكتابة. على الرغم من أن بُؤس الواقع المرير الذي يعيشه أهلنا ووطننا يفرضها - أي الكتابة - كدين مستحق. ومن ما لاشكَّ فيه، يمكن القول إن هذه الظروف جعلت من القضية نفسها هماً مقيماً في أفئدتنا.. ما أقامت بين ظهرائنا هذه العُصبة التي لم تراع فينا ديناً ولا دنياً!

عُدْتُ من القاهرة والتي أصبحت اسماً على مُسمًى كما تعلمون، وذلك بعد زيارة امتدَّت لنحو ثلاثة أسابيع. والذين يزورون القاهرة مثلي هذه الأيام، هم قطعاً لا يقصدونها ابتغاء السياحة ولا الترويح عن النفس، أي لا شوق يدفعهم لرؤية أبي الهول، ولا حباً يحرزهم لمشاهدة المُوميّات التي ترقد باسترخاء في المتحف الكائن في ميدان التحرير. لكن من خلال تماثلي غير مرني لم يكن عصياً عليّ ولا على غيري، أن ندرك من خلال مشاهدات هذه الواقع "الثائر" أنها ليست ببعيدة عمّا نحن فيه غارقون. فالمسرح هو نفس المسرح، وإن اختلفت سيناريوهات، والمسرحية هي ذات المسرحية وإن تبدَّل شخوصها!

عندما تكون في مصر، فاعلم - يا هداك الله - أن ثمة أشياء لا يُسأل عنها مطلقاً.. لماذا؟! لأنها إن تبدي لك ستورثك من أمرها عُسرًا.. سيّان ذلك، سواء دخلت مصر آمناً مطمئناً بالمنطق القرآني، أو جنتها قلقاً باحثاً عن إجابة لما استعصى عليك فهمه بالمنطق العلماني. ومع ذلك، فلا مناص من أن الأسئلة الحيرى ستحاصرك حتماً، وأنت تخال في قلب ميدان التحرير، متبخرتاً بين الثوار، تحاكي أبا دجانة في رهطه. من يا ترى سمى هذا الميدان بهذا الاسم الجذاب؟! لا أدري، ولكن لا أشك في أن ذلك كان في عهود الاستعمار يوم كان الناس يتوقون للانعتاق من ربقتهم، ولم يخطر ببالهم أن قيصرًا جديدًا سيخرج لهم من بين مسامات جلودهم ليُلهب ظهورهم بما عجز الاستعمار نفسه عن فعله.

على كل، هب أن التسمية هي كذلك، فلماذا لم تظن الأنظمة "الوطنية" لهذا الاسم المُفخَّخ؟! وبعبارة أخرى، كيف غفلت الديكتاتوريات التي تراكمت عن الاسم دون أن تجرؤ على تغييره؟! أم يا ترى كان سدنتها يتساءلون سراً كما تتساءل قوم لنا جهرًا.. التحرير ممَّن؟!

على كل، سواءً تساءلت أم لم تتساءل، فلا جدوى من الأسئلة بعد أن أصبح الميدان قلب مصر النابض، ورغم صغر مساحته، فهو قادرٌ على ضخ الدماء في جسدها طويلاً وعرضاً وارتفاعاً. وإذا قُدِّر لك أن تزوره، ستدرك هناك أن الموميات القابعة في المتحف قُربه، نهضت ونطقت وأسمعت من به صمم، وستعلم أيضاً أن أبا الهول أصغى السمع لأمير الشعراء "أحمد شوقي" بعد ما عيل شعره:

أبا الهول طال عليك الغُصْر *** وَبَلَّغْتَ في الأرض أقصى الغُمر
كَأَنَّ الرمالَ على جانبيكَ *** وبين يديكَ ذُنُوبُ البَشَر!

لستُ من الذين يميلون لاستنساخ تجارب الشعوب، ذلك ليقيني أن ما تعارف منها اختلف ومتنافر منها اختلف. لكنها قد تتماثل ولا ضير في ذلك. وبصورة عامة، فالتاريخ نفسه كما حدثنا المؤرِّخ الكوني الأشهر أرنولد تويني (ما هو إلا قنوات متصلة لا فجوات بينها)، لهذا لا يغرُنك قولنا تفاخراً إن ربيعنا السوداني بثورتيه المعروفتين ١٩٦٤/١٩٨٥ سبق الربيع العربي بعقود زمنيّة. حسناً، بغضِ النظر عن أن ذلك يعني أننا نصنِّبنا أنفسنا أمراء على مستضعفي شعوب الكرة الأرضيّة، ولكن المأزق الذي لم ننتبه له، هو أن استمراء العُصبة ذوي البأس الجلوس على صدورنا لأكثر من عقدين حسومين، انتقص من رصيدنا المذكور في بنك الإنسانية. عليه، فلندخر ذلك في ذاكرتنا لتتنازع أمام تجارب الآخرين، فذلك ربما أورثنا - على الأقل - حافراً في استنهاض الهمم لكس دولة العُصبة ورميها في مزبلة التاريخ!

دخلت مصر آمناً.. في البداية بدا لي كأنني أبحث عن ثورة استعصت - إلى حين - على الغر الميامين من شباب بلادي، ذلك ما خطر ببالي كلما وجدت نفسي في خضم مسيرة أو تظاهرة أو اعتصام أشارك في فعاليّاته كان لي فيه ناقة وجمل. نعم، كان لي فيها ناقة وجمل، لماذا؟! ليس لأن النيل يجري شمالاً، فتلك هي ديكتاتورية الجغرافيا التي لا نستطيع لحكمها تبديلاً. ولكن لأن الظلم لونه واحد، وأن الاستبداد طعمه واحد، وأن الفساد رائحته واحدة، وأن الديكتاتورية لسانها واحد وإن تحدّثت بلغاتٍ ولهجات عديدة، وأن الشموليات دينها واحد وإن اتخذت من دستور ربِّ العالمين متكاً. وباختصار فدولة "الإخوان" مثلها واحدة، من حسن البنأ وحتى حسن الترابي!

أرجو ألا تأخذنا العزّة بأثام التاريخ، فنحن قومٌ مجبولون على إطلاق القول على عواهنه، لا سيّما، عندما يتعلق الأمر بفقهِ المقارنات بين شعوب وقبائل

وأأم. عليه، أشهد أنني رأيت وعاشتُ شعباً ثائراً بكل المقاييس.. يا إلهي.. ارتجت أوصالي واقتُسرَ بدني وتلاحقت أنفاسي، عندما شاهدتُ فتيات وفتياناً في مِيعَة الصَّبَا يحملون أكفانهم في أيديهم وهُم على استعدادٍ للتضحية بأرواحهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. رأيتُ شبابَ بيوت الطوى لأيام وليال، لا يأكلون سوى خِشاش الأرض من "قول وطعمية"، وبالرغم من تعطل مصادر رزقهم، وتوقفت حياتهم بكل ضروبها، فهُم غير عابئين ولا غاية لهم سوى تأكيد دولة المواطنة، وتكريس الديمقراطية منهاجاً للحُكم. هزني منظر أسرة بكاملها من الجد للحفيد وهي تعتصم بصورة فردية، وترفع لافتاتٍ تُندد بالظلم الذي حاق بها والوطن، ما أجمل الحرية.. اضطرب وجداني أيضاً عندما توقفتُ أمام رجلٍ مُسن، بلغ من العمر عتياً، يستظل بلافتة كُتِبَ عليها سؤال فلسفي وجودي قد يعجز جون بول سارتر نفسه عن إجابته.. "أنا مين؟!"..

جالستُ زملاء صحافيين، وسمعتُ من آخرين إعلاميين، وتحدثتُ إلى العديد من النُخب المثقفة، وخالطتُ المنات من غمار الناس في الشوارع والمقاهي والميادين والمواصلات العامة، حيث يتواصل الحديث عن الثورة الناهضة ومآلاتها، وذاك هو القاسم المُشترك الأعظم. كان الناس - ونحن منهم - يظنون وهماً أنهم شعب خانع، وينسون أنه عندما يتعلق الأمر بالشعوب ودروسها لا ينبغي أن تزرُ وزارة وزر أخرى. بيّد أن الصورة وجمالها لم تُنسأ في لقاءات المكاشفة والمصارحة مع النُخب المهمومة بأمر وطنها أن نذكرهم بالخطيئة التي ارتكبوها - سهواً أو عمدأ - عندما تقاعسَ غالبيتهم عن إبلاء تجربتنا المريرة العناية الكافية. قلنا لهم: لو أنكم فعلتمُ لكنتم جُنُبتم بلادكم هذا المازق التاريخي، منذ أن بدأ بتضاؤل الخيارات، عندما وجدتم أنفسكم أمام صناديق انتخاباتٍ لم تعكس الواقع بحذافره. وصدق الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل في قوله: «كل من أدلى بصوته لمُرسى كان نكايَةً في أحمد شفيق»، والعكس صحيح!

مهما تكن الصورة، فلا بُدَّ لأي ديمقراطي مخلص لتوجُّهاته أن ينشرح صدره وهو يرى تلك الوقفة الصلبة لشرائح المجتمع المصري المتعددة ضدَّ الدولة الدينية، دولة المرشد مُحَمَّد بديع وأزلامه، الذين يريدون قَبْر مصر بكلِّ تراثها الحضاري في قبوها. إنها ثورة حقيقيَّة، قِوامُها الشباب بكلِّ عُفوانهم وتطلُّعهم لمستقبل أفضل، وسندها القانونيون من قضاة ومحامين، وعضدها الصحافيون والإعلاميون والمُفكِّرون في مراكز البحوث ومنظمات المجتمع المدني والجامعات والمعاهد، وقِوامُها الفنانون والمُمثِّلون والمُوسيقيون، وقاعدتها الطبقة العاملة في جمهورية "المحلة الكبرى" نموذجاً، وفي كلِّ كانت المرأة رأس الرُمح لإداركتها أنها أوَّل من سِيعاني من "دولة المرشد" إن قيُضت لها الظروف وصولاً. نعم، بمفهوم الثورة الميتافيزيقي فهي كذلك، لأن التغيير مسَّ العصب الميَّت في الجسد المُحتط، فأنت تلمسها عندما يُحدِّثك عن الدُستور قومٌ صنَّفَتهم الظروف والطبقيَّة المقيتة أسفل درجات السلم الاجتماعي. وذاك لعمري ثقافة

جديدة وقول لا يعرض عليه بالنواجذ إلا من اكتوى بنار الظلم وذاق مرارة الاستبداد منذ عهد الفراعنة وحتى عهد الأبالة!

مأساة دولة مُرسي أنهم يريدون أن يفعلوا ما فعله إخوتهم فينا من بشير ونذير وسعير.. فالمرشد والرئيس وقعوا في ذات الخطيئة، يظنون أن الله سبحانه وتعالى ابتعثهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. فامتحنوا الناس في دينهم وقسموهم بين فسطاطين، الكفر والإيمان. ثم جاءوا بالخطيئة الثانية، وهي امتحان الناس في وطنيتهم، بحيث يدمج الفرد بالوطنية إن وقف إلى جانبهم ونعته بالخيانة العظمى إن عارض مخططاتهم. ثم جاءوا بالخطيئة الثالثة، وهي أنكى وأمر حيث حيث قسموا مصر لأوّل مرّة في تاريخها، ذلك حينما عمدوا للتفريق بين المرء وزوجه، الابن وأبيه، البنت وأمها. فقد حدّثني الصديق الدكتور (م.م.)، وهو حتى وإن خالفته الرأي، فإنه يُعَدُّ من المفكرين الإسلاميين المستنيرين، وله كتبٌ عديدة تشهد بذلك، كما أنه على أعتاب العقد السابع من عمره.. قال لي، إن زوجته التي قضى معها العمر كله باتت تصدر عنها أحكام تكفيرية، بالرغم من أنها تعرفه أكثر من قرّائه، وقال ساخراً: أخشى أن تهجري يوماً وتقوم بتطليقي!

الواقع أن مُرسي وحكومته، شأنهم شأن بني جلدتهم الذين خبرناهم، ما أن جلسوا القرفصاء على كرسي الحكم حتى باتوا يُفَكِّرون في فقه "التمكين"، لم يقتنعوا بالممارسة الديمقراطية التي كفلت لهم أربع سنوات، فباتوا ينظرون لأربعمائة عام، فيها يُرذّل الشعب المصري ويُهان. لهذا، رأى الرئيس ومن خلفه المرشد وأتباعه في المنام ما سُمّي بـ "الإعلان الدستوري"، وهو في الواقع "لزوم ما لا يلزم" على حدّ تعبير نجيب سرور، عطر الله قبره. كان الإعلان اختصاراً عبارة عن مشروع فرعون، وتكريس ديكتاتور جديد، أراد أن يقول للمصريين في لحظة غفلة من الزمن: "أنا ربكم الأعلى"، فتداعت لذاكرتهم مرارة الظلم والاستبداد والسنين الكالحات، وحضرت في خواطرهم تجارب الدولة الدينية في أفغانستان وإيران والسودان ومن لفّ لفهم، فأدركوا أنهم أمام مازق خطير، إن غفلوا عنه سيقودهم الهوس الديني حتماً إلى القرون الوسطى!

لأن النيل يجري شمالاً، ولأن الدول مثلها مثل البشرية، إن عطست شمتتها الأخرى، فلا يظن أحدكم أننا عن هَمّا غافلون، ونواصل حول محنتنا التي قاربت منتهاها الأسبوع المقبل بحول الله!

آخر الكلام: لا بُدَّ مِنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وإن طال السَّفر!!

٢٠١٢/١٢/٢٥

هل خُلق السُّودان في كَبَدٍ؟! (٧)

اتصالاً مع ما مضى من حلقات هذه السلسلة، كنا قد شرعنا في تناول الأسباب التي أدت إلى تعثر الهبة الشعبىة، أو الانتفاضة الأخيرة، التي اندلعت منتصف العام المنصرم معظم شهري يونيو ويوليو، ولم تصل لنهاياتها المنطقية. وقلنا إن ذلك لا يعني استحالتها، فالسيناريو ما زال محتمل الحدوث باعتبار أن الظروف التي أدت لاشتعالها ما زالت قائمة، بل الصحيح أنها ازدادت سوءاً على سوء. من هذا المنطلق، رأينا تسليط الضوء على مواقف القوى السياسية وقياداتها التي تخاذلت، أو تلك التي غلّت يدها إلى عنقها وقعدت ملومة محسورة. لعل ذلك يسهم في سدّ الثغرات تحجيلاً بالوصول إلى الهدف الجمعي لغالبية أهل السودان، والمتمثل في إسقاط هذا النظام الشمولي الفاشستي بعد أن تكاثرت جرائمه وتعدّدت خطاياه. علماً بأن سقوطه هدف مشروع سيتحقق بالإرادة الشعبىة والحمية التاريخية حتى لو تقاعست القوى السياسية عن أداء واجبها الوطني!

كُنّا قد آلينا على أنفسنا الحديث بشفافية في هذا الموضوع، ونعتقد أنها مطلوبة لأن الأمر يتعلق بقضايا وطن ينقسم وينفهر وينقسم أماننا ونحن نقف مكتوفي الأيدي، بقلوب واجفة تكاد تكون أفرغت من أي مشاعر وطنية. كنا قد توقفنا في الحلقة الماضية عند المواقف المزدوجة، بل والسلبية لـ "الحسيب النسيب"، السيد محمد عثمان الميرغني، ليس في هذا الأمر وحده، ولكن في التعامل مع قضايا السودان بصورة عامة، وقضايا الديمقراطية والحرّيات العامة بصورة خاصّة. وأكدنا بما لا يدع مجالاً للشك - دونما تجن أو بُهتان - أن هذه وتلك تُعدّان ترفاً في أجندته. وعليه، لا ينبغي التعويل عليه في اتخاذ الموقف الوطني المطلوب، سيّما وأن هذه المواقف قد تعرّت أكثر ممّا ينبغي، وباتت واضحة كالشمس في كبد السماء. ولا اعتقد أن العبارات التي يطلقها سنوياً دونما تغيير أو ابتكار تقنع أحداً، مثل قوله الأخير لصحيفة "الشرق الأوسط" ٢٠١٣/١/١٤م: «ضرورة التصدي للمهدّدات الكبيرة التي تحدّق بالسودان وتوشك أن تدفع به إلى مخاطر جمة». بيّذ أننا لا نجتر ذلك، ولكن نُعيد حتى نكف عن خلق الأوهام وصناعة الأصنام. فالمُحصلة التي يجب أن نسلم بها قطعاً لدابر أي جدل، هي أن "الحسيب النسيب" ظلّ منتفعاً من الأنظمة الديكتاتورية بالدرجة التي تجعله لا يتمنى سقوطها، ناهيك عن العمل على إسقاطها!

على صعيد آخر، ولأسباب تبدو معروفة للجميع، أنه ما ذكر هذا الحزب أو صاحبه، إلا وأشارت الأصابع للسيد الصادق المهدي، الغريم الذي يقف على رأس حزب الأمة. فمن عجب أن هذين الحزبين ظلاً يتنافسان في الخير والشر! بالرغم من كل ذلك لا بُدَّ من القول قبل الإبحار في الأعماق، أن ثمة فوارق كبيرة بين الراسين. وليس عصياً على أي مراقب رصدتها أو عدها، كما أننا لسنا بصدد ذلك إلا بالقدر الذي يستوي به هذا المقال على سوقه. فبينما ظلَّ الأول (الميرغني) مستعصماً بالبُعد عنا وعن قضايانا (يكتفي بمقابلة سنوية، يكتبها ويجب عليها وينشرها صحافي اسمه محمَّد سعيد محمد الحسن، لا يعرفه الكثيرون، رغم أن عمره جاوز السبعة عقود زمنية، وقضى أكثر من نصف قرن منها معاقراً السُّلطة الرابعة دونما هويَّة، ذلك ببساطة لأنه لم يسجل موقفاً واحداً في بلاطها) بينما ظلَّ الثاني (المهدي) كتاباً مفتوحاً على الدوام، بغضِّ النظر عن محتواه.

بناءً على ذلك، كانت لنا حوارات متصلة معه كلما تهيأ ظرفها، وآخرها منتصف شهر رمضان ٢٠١١م، أي السنة قبل الماضية. وكانت قد استمرَّت زهاء الثلاث ساعات، وجاءت في محاولة مثلاً لاستنكاخ مواقف البعض حول ما يجري في البلد الصابر أهله. وحتى لا تُغيط الرُّجُل حقه، فهو سواء معي أو مع غيري، فإنه لا يتوانى في منح محدِّثه الإحساس الكامل برحابة صدره وتقبُّله النقد، حتى لو كان من العيار الثقيل. ولكن قلَّ لي بربِّك، منذ متى كان ذلك وحده كافياً؟! بل ما جدواه إن لم يتبعه تقييم وتقويم وإصلاح؟!

في ذلك الحوار، سألتُ المهدي مباشرة عن رُؤيته لسيناريوهات التغيير المتوقعة في أجندته؟! فأجابني بما يعرفه الكثيرون، وطرح عدة سيناريوهات رجَّحها بالانتفاضة الشعبية. وبالنظر لتاريخ الحوار المذكور، كانت الانتفاضة يومذاك في رحم الغيب. ومن جهة ثانية، كان قد أفصح لي عمَّا يخشاه في ذهنه وسماه بسيناريو "الحزام الزنجي" - على حدِّ تعبيره. كان يقصد زحف الحركات المُسلَّحة، وتحديدًا قطاع الشمال (عبدالعزیز الحلو من جنوب كُردفان، ومالك عقار من جنوب النيل الأزرق) نحو العاصمة، بل لم يجد في نفسه حرجاً من التأكيد بأنه تحدَّث مع العُصبة الحاكمة عن خطورة هذا السيناريو لأنه يؤدِّي - بحسب زعمه - إلى تفنيت السودان. وقال إنه قصَّد بمناقشتهم لأن يتخلوا عن غلوائهم واستعلائهم، والجلوس مع المعارضين لتجنب السودان وأهله صوملة جديدة تُقف ماثلة للعيان. والحقيقة لا أدري، إن كان لمثل هذا الإمام علي بن أبي طالب عندما شغب عليه الخوارج «كلمة حق أريد بها باطل»... مع ذلك، لا أود أن أعيد تفصيلاً ما قلَّته له عن هذا السيناريو الذي لم يجد قبولاً، بل لم يجد ارتياحاً في نفسي من أن يصدر من رُجُلٍ في قامته، خشية أن أظهر ببطولة لا أدعيها، ويظهر هو بخيانة لسْتُ متيقناً من إثباتها!

لكن دعونا نتوقف في الانتفاضة الشعبية التي رجَّحها المهدي عمَّا سواها من سيناريوهات لإسقاط النظام، فالذي حدث وعلم به القاصي والداني، أن

الانتفاضة المأمولة عندما جاءته بالبواب، فرَّ منها وقفز بالشباك. كيف حدث هذا يا هداك الله؟! جاءته الانتفاضة تجرجر أذيالها في عقر داره، وجعلت من مسجد السيد عبدالرحمن مركز انطلاقتها، هل ثمة شرف أكبر من ذلك؟! لا أريد أن أعيد المواقف المتخاذلة والتي كانت لا تشبه رجلاً جاء من صلب سلف استرخص الغالي والنفيس. كما أنني لا أريد أن أعيد المواقف الأكثر خذلاناً لمن سار في ركبه، وعلى رأسهم السيد عبدالحمود أبو، والذي كان موقفه متماهياً مع مواقف جعلته يضع رجلاً في هيئة شئون الأنصار وأخرى في هيئة علماء المؤتمر الوطني.. فالمهم أن حسيلة هذا وذاك كان خذلاناً مبيهاً!

أكثر ما يحزنني في شخصيَّة المهدي، امتحانه لنفسه من دون أن يطلب منه أحد ذلك. مثلما حدث أثناء وجوده في القاهرة قبل نحو شهرين أو يزيد، حيث دعا السودانيين للاعتصام، واحتلال الساحات والسفارات في الخارج. وبعدها مباشرة تزامنت عودته للسودان مع الجريمة النكراء التي اغتال فيها النظام أربعة من طلاب جامعة الجزيرة، الأمر الذي استنفر قطاعات كبيرة في معظم مدن السودان ودفعها للتظاهر. عندئذ نسي المهدي دعوته، بل حتى عندما اجتمعت قوى الإجماع الوطني لمناقشة الأمر، خرج المهدي بالبواب الخلفي - طبقاً لما تواتر من أخبار - ومن قبل أن ينفض سامر الاجتماع.

كما نذكر في ذات السياق أيضاً، أنه سبق وتبرَّع بوعود لم يُنجزها. حيث رهنَ عدم حدوث أشياء بتقديم استقالته. قالها يوم احتدم الجمعان أثناء ملابسات مذكرة ضبط القوات المسلحة، وكان يترأس حينذاك الوزارة في الديمقراطية الثالثة، وقالها مرة ثانية، وحدد يوم ٢٦/١/٢٠١١م للإطاحة بالنظام، أو اعتزال السياسة. وهو تاريخ عظيم لو تعلمون. عندما حان أوانه، لم يفعل المهدي لا هذا ولا تلك، وإنما ذهب لمقابلة رأس الدولة المطلوب للمحكمة الجنائية في القصر الذي بناه عُردون! أما الثالثة والأخيرة، فقد كانت قبل أيام نطق فيها بالاعتزال مرة ثانية، وعندما خوصِر بالتاريخ، قال إنه لم يحدد موعداً بعينه. بل زاد بما هو أنكى، حيث قال إنه لن يُقدم على ذلك إلا بعد أن يُنجز مهمة تدريب من سيخلفه في عرش الحزب. وتلك لعمرى مثلت أكبر إهانة لكادر الحزب، فضلاً عن أن السؤال الذي توارَد للذهن مباشرة: إذا ما الذي كان يفعله المهدي وهو في سدة الرئاسة لما يربو على نصف قرن؟!!

واقع الأمر أن ثمة سؤال آخر، ظلَّ يراودني كلما رأيت السيد المهدي يتلجلج في أفعاله ويتناقض في أقواله، وسأطرحه على القراء الكرام: هل المهدي يريد إسقاط النظام حقاً؟! بصورة أخرى، ما الذي يفتقر له المهدي في ظلِّ النظام الديكتاتوري الحالي، حتى يطمح له في كنف نظام ديمقراطي مأمول؟! بصورة أكثر وضوحاً، إن كان السيد المهدي يتأمل إسقاط النظام، فلماذا يريد إسقاطه؟! وبصورة أكثر وجعاً، إذا أسلمنا جدلاً بأن المهدي يريد إسقاط النظام عبر الانتفاضة الشعبية، فماذا أعدَّ لها؟! وبصورة أكثر واقعية، هل ندوة أسبوعية دأب

المهدي على مخاطبتها (بين السياسة والصحافة) ومخاطبة المُصلين دورياً وخطبة العبدین، هل هذه آليات تكفي لإزاحة نظام ديكتاتوري وتعبئة الرأي العام ضده؟! وهب أنها فعلت - ولو بأضعف الإيمان - فكيف سيُعبّرون عن مكثون صدورهم؟!

إن من يريد إسقاط النظام تكون لديه أهداف مشروعة يتأملها من وراء إسقاطه. هذه الأهداف تتراوح بين غايات وطنية وأخرى ذاتية، وبقدر ما أن الأولى معروفة، فإن الثانية تتمثل فيما يمكن أن تحققه الديمقراطية للفرد في سياق تطوره الإنساني والطبيعي، وقدرته على الخلق والإبداع والإنجاز. بهذا المنظور، أرجو ألا أظلم السيد المهدي إن قلت إنه مثل صنّوه، ليس له حاجة في نظام ديمقراطي لأنه ببساطة لا يوجد ما يفتقر له شخصياً في ظلّ النظام الديكتاتوري. فهو يمارس حياته بكلّ عفوانها، بما في ذلك "الكلام"، وهو أبغض الحلال الذي وصمته به العُصبة نفسها عندما أطاحت بحكمه. بل يمكن القول - بالنظر لهذا الواقع - بأن الديمقراطية تأتي في مؤخرة أجندته، والتي في تقديره تنصّرها الآن الطائفة الأنصارية وهُمومها، أي كيفية المحافظة على الإمامة في عقر داره بعدما كثّر المتربصون حولها. ثم يأتي الحزب وشُجونه في البند الثاني لأجندته، أي كيف تظل الرئاسة قابضة في دائرة أسرته. ثم بعدئذٍ يمكن للقضايا الأخرى بما فيها قضية الديمقراطية أن تجد لها موقعا في الأجندة!

حتى لا يُقال عنا أننا نرمي الحديث على عواهنه، سندعم قولنا هذا بما هو مكتوب ومنشور على المستوى النظري، وآخر من وراء حجاب على المستوى العملي. بالنسبة للأول، فليتأمل معي القارئ هذا المقتطف من حوار أجرته معه صحفية نابهة (السوداني ٢٠١٣/١/٨):

• السيد الإمام.. هل أنت مع إسقاط النظام؟

= إسقاط النظام وسيلة من وسائل إقامة نظام جديد. نحن نقول إننا نريد نظاماً جديداً، أحد الطرق إسقاط النظام والآخر هو برنامج الكوديسا، الإسقاط ليس الوسيلة الوحيدة لنظام جديد.. نحن نأيدنا بالبرنامج القومي والسبيل له برنامج الكوديسا وانتفاضة الجهاد المدني، وهذا الكلام مكتوب من سنة ونصف.

• وائت تنادي به منذ ذلك الوقت ولم يحدث شيء؟

= سيحدث، أي شيء له فترة حضانة، الأفكار الآن أصبحت موجودة لكثير من الناس، نحن نوجد رأياً عاماً وسيُجسد نفسه في أحداث.. الحديث عن مشروع سياسي لا يعني أنه سينفذ غداً لكن يعني أن البذرة وضعت وهي تنمو إلى أن تورق وتزدهر وتثمر.

• نصبح السؤال، هل أنت مع وسيلة إسقاط النظام؟

= أنا مع الوسيلة الأسهل.. فنصّل نظام الكوديسا وإن عجزنا نختار الثاني.

• لم تعجز بعد؟

= نحن ماشين.

• هل تسقط الحكومات العسكرية بوسائل سلمية مثل التي تنادي بها؟
= مايو سقطت. الترتيب الأفضل "الاعتصامات" وهو ما يُسمى بالجهاد المدني، ونحن نقول إن كل الوسائل مشروعة إلا العنف.

• أعلنت قبل أن تسافر لإحدى الدول الخارجية أنك ستسعى لحشد السودانيين في الخارج لاعتصامات أمام السفارات، هل نجحت في ذلك؟

= يا أستاذة، هذه الأشياء بتوقيتها، لم نفل الليلة، سنذهب في خطنا وإن تحقق الهدف المتمثل في التحول الديمقراطي والسلام الشامل كان وبها، وإن استحال نكون قد فعلنا تعبئة كافية لاتخاذ الجهاد المدني.. نحن مع كل الوسائل إلا العنف.

انتهى المقتطف النظري ولن تنتهي المحنة، وهو يشرح نفسه بنفسه ويؤكد ما أشرنا إليه سابقاً من ملاحظات في نهج المهدي. أما على المستوى العملي، سأفصح مباشرة عن ما تناهى لسمعي منذ فترة عن صفقة بين المهدي والغضبة وقاسمها المشترك ابنه عبدالرحمن. تقول الرواية إن الغضبة استخدمت مكرها ودهائها في إقناع المهدي في أنهم بصدد ترشيح ابنه لرئاسة الجمهورية في العام ٢٠١٥ ولكي يتسنى له ذلك فإنهم يطلبون موافقته لأن يشغل منصب مساعد رئيس الجمهورية حتى يتعلم أصول الإدارة والحكم. وهو المقترح الذي لاقى هوئ في نفس المهدي لأنه يصب في اتجاه البندين الأول والثاني، المذكورين في صدارة أجندته، وهما: الطائفة والحزب.

كما أنني بئ على يقين أن المهدي لا يريد أن يحكم بعد هذا العمر، ولكنه يريد أن يرى ابنه في ذات الكرسي. وطبقاً لذلك، كلنا يعلم أن المهدي حاول استخدام كل براعته في الإخراج لتبرير أمر يصعب تبريره. بدليل أنه لم ينجح في إقناع الأقربين، ناهيك عن الأبعدين. حيث قال السيد نصرالدين الهادي المهدي (الشرق الأوسط ٢٠١٢/١/٧) وكان آنذاك في موقعه كنائب لرئيس الحزب: «بهذا التعيين حكم على مستقبله السياسي في حزب الأمة بالنهاية».. حقاً، كيف لرجل في قمة المهدي السياسية أن يدفع بابنه إلى أحضان الشيطان، إن لم يكن لديه مآرب أخرى؟!

ذلك ما سنمضي في تحليله الحلقة القادمة.. وما خفي أعظم؟!

آخر الكلام: لا بد من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٣/١/١٦

obeikan.com

هل خلق السودان في كَبَدٍ؟! (٨)

أشرنا في الحلقة الماضية إلى أن السيد الصادق المهدي رجلٌ رُحْبُ الصدر، لا يضيق بالنقد ولا يتبرّم منه، إلا فيما ندر، وتلك لعمرى ميزة يفترق لها كثيرٌ من السياسيين السودانيين. دعونا نمضي قليلاً في خصائص ومُميّزات تُحسب له، حتى لا يظن أحد أننا نُميط اللثام عن سلبياته ونغمطه إيجابياته. لقد عُرف المهدي بعِفّة اللسان، فهو يختار من الألفاظ ما يؤذي خصمه، ولكن بأدب. وإن شئنا تشبيهاً لتقريب الصورة، نقول: هو نقيضٌ نافع على نافع، الذي دخل التاريخ السوداني كأسوأ سياسي تبرأ منه لسانه. والمهدي قارئ نهم، أعتقد أن ما قرأه من كُتُبٍ في حياته يعجز رهُط من الناس على أن يأتوا بمثله، وأزيد بأن المهدي رجلٌ حاذٍ الذكاء، يشهد له أنه لم يستخدمه في صنع الدسائس ولا تدبير المؤامرات. كما أنه لم يعزل نفسه في بُرج عاجي، بل يطيب له مخالطة الناس.

أزيد أيضاً، بأنه يتسم ببساطة العيش، ربّما حدّ التّقشّف، لا يشغل نفسه بترفٍ من ترف الدنيا. ويعلم الناس أنه لم يُوصَمَ بفساد، لكن كادت قدمه أن تتعثّر في مسائل مقاربة، وإن تعثرت بالفعل في أخرى (الأولى عندما طالب وقبل بمبدأ ما سُمّي بـ"تعويضات ال المهدي" إبان تسلمه رئاسة الوزارة في الديمقراطية الثالثة، وتراجع عنها بعد أن أثارت جدلاً أخلاقياً أكثر منه قانونياً.. أما الثانية، إغماض عينيه عن فساد ابن عمّه والوزير في حكوماته، السيد مبارك الفاضل في نفس الفترة.. بيّد أن الثالثة – ويا للمفارقة – عاد في زماننا الحاضر وقُبِلَ بـ"مغنم" عَفَّ عنه من قبل.. فبدلاً عن استرداد العرش السليب، سأل العُصبة المغتصبة بما سمّاه هو "تعويضات عن ممتلكات للحزب"، في حين سُمّوها هم في الخفاء بـ"الرّشوة السياسيّة". وليس سراً أن كثيراً من المراقبين ربطوا تلك بمواقفه الرمادية الأخيرة من مسألة سقوط أو إسقاط النظام، سيما، وأن للسودانيين قول دارج في مثل هذا المقام، ما كان ينبغي للمهدي المولع بالتّقافة الشعبية أن يتناساه!

على الجانب الآخر، وبالنظر لموضوعنا المحوري في هذه السلسلة، وانطلاقاً من الفرضيّة الأخيرة، لا شكّ عندي أن المهدي بمواقفه التي تارّجحت، يعد أحد عوامل كثيرة – ذكرنا بعضها وسنأتي على ذكر البعض الآخر – ساهمت في ألاّ تمضي انتفاضة يونيو ويوليو لنهايتها المنطقيّة. وبمثلاً ذكرنا في الحلقة الماضية، أن هذه المواقف المتذبذبة أكّدت لي بما لا يدع مجالاً للشك، أنه وغريمه

الآخر لا يتمنيان سقوط النظام، ناهيك عن العمل على إسقاطه، وفي ذلك ذكرنا شواهد تدحض قول كل نقيض. ولعل أكثر ما شغل بالي بعد أن استعرضت الإيجابيات أعلاه في شخصه، تساؤل لم أجد له إجابة شافية: لماذا لم ينجح المهدي في تجيير تلك الإيجابيات في شخصيته لكي يكون الرقم الصعب في الساحة السياسية السودانية؟! علماً بأنه يتقصر ذلك وهماً، كقوله لصحيفة 'البيان' الإماراتية ٢٠١٢/٠٨/١٠م: «أنا أنشط سياسي في الشرق الأوسط فكرياً وتنظيماً ومبادرات..» «ليه عايزين يعطلوني».. أنا لا أرى غير الحسد سبباً وراء تعطيلي». ولا تعليق، حتى لا ندخل في زمرة الحاسدين!

ثم وجدت نفسي في مواجهة أسئلة كثيرة تفرعت من السؤال المحوري أعلاه، ومنها: لماذا ظل المهدي وما انفك يُهدر الفرص الواحدة تلو الأخرى حتى بدا للمراقبين كمن يلهو بها؟! لقد ظل المهدي في مضمار العمل العام لما يناهز نصف قرن، نتجت خلالها عنه أخطاء فادحة ومكلفة، فلم لم يعترف بخطأ واحد في حياته؟! لماذا يمتحن المهدي نفسه في مواقف يعرف سلفاً أنها ليست في صالحه وعندما يلازمها الفشل تمضي الأمور كما يمضي السابله في الطرقات؟! كم مبادرة أطلقها المهدي في حياته السياسية على المستوى الداخلي وتبخرت كما يتبخر الماء في الهواء؟! لماذا يسير في ذات الطريق وي طرح لأطراف خارجة مبادرة تلو مبادرة دون أن يقول له أحد الفرقاء جزاك الله عنا خير الجزاء؟! لماذا يختار المهدي دائماً المكان الخطأ والزمان الخطأ لمواقف تتطلب الدقة في التصويب؟! هل المهدي سياسي سيء الحظ، أم أنه سياسي سيء التخطيط؟! كيف يقيس المهدي معايير شخصيته في عيون الآخرين، إذا انتقدوه قال إنهم حاسدوه وإذا بصروه قال إنهم مغايروه؟! ألا يشعر المهدي أن أحاديثه باتت لا تثير شهية الناس، لدرجة أنه بات يطلق تصريحات يظن سامعها أنها ستدك الأرض دكاً، فلا يسمع لها صدى بعد حين؟! كيف يمكن ألا تعينه الإيجابيات المذكورة في الصمود أمام دعوته التي أطلقها في بواكير عمره بفصل الإمامة عن السياسة وينتهي به الأمر إلى دمجها، بل «الكنكشة» حولهما؟! أشهد أنني لم أر سياسياً كريماً في منح منتقديه أو مناوئيه أو معارضيه فرصاً ذهبية مثلما يفعل المهدي، فهل يفعل ذلك من باب الإثارة أم الهواية أم خطأ في التقديرات؟!

تمعّنت في كل هذه الأسئلة الحيرى، وأخرى ما زالت تترى. غير أنني تمعّنت أيضاً في الأسباب التي كادت أن تجعل من المهدي شخصاً مدمناً على الفشل، وألخصها من باب الاجتهاد في التالي:

- أولاً: التردد.. لا أظن أن المهدي سمع للمرّة الأولى هذه الصفة المقيّنة، والتي أصبحت تحيط بشخصه كما السوار بالمعصم، وأعتقد أن أذنه ألفتها من كثرة ما ردّدها عليه الخصوم والأصدقاء معاً. وبالطبع فإن لكلا الطرفين من الشواهد والأدلة ما يعجز كتاب عن حمله. ولست هنا في مقام من يريد إثباتها

بإيراد أمثلة ونماذج لن نعوزها. ولكن فقط نشير إلى أن ملابسات ما جرى بينه وبين السيد نصر الدين الهادي قبل شهور قليلة خلت يوضح ذلك. غير أنني بدلاً من إيراد الأمثلة رأيت أنه من المفيد محاولة استنكاها مسيبتها. إذ أعتقد ألا أحداً من المجتهدين يمكن أن يذهب أكثر من أن المهدي يظن أنه من الذكاء بحيث يستطيع إرضاء كل الناس في وقت واحد، وهو غاية لا تترك كما يقال. على كل المعروف أن التردد هو أبغض الحلال الذي يمكن أن يلحق بسياسي، لأنه يجعل بينه وبين الفضل مودة وألفة وتواءم!

• ثانياً: النقد الذاتي، هذه الصفة قلنا عنها إن غيابها يعد الأكثر سطوعاً في شخصية المهدي. وتعلمون أن كثيراً من علماء النفس "السايكولوجيين" يعزونها لظروف التنشئة والتربية والبيئة المحيطة. وفي كل، لعل المناخ الطائفي في حالته يُشكّل القاسم المشترك، وهو محيط يرى في النقد تبخيس للذات وتقليل من شأنها. أيأ كانت مسيبتها، فالثابت أن عدم ممارسة فضيلة النقد الذاتي حجت عن المهدي مرآة كان يمكن أن يرى نفسه فيها بوضوح وأمانة، فمسيرة ما يناهز نصف قرن في الحقل السياسي، كان فيها من الأخطاء ما يجعل الهامات تتطأطأ خجلاً، لكن ذلك لم يحرك شعرة في رأس المهدي، بل كثيراً ما رمى الآخرين بذانها وانسلّ. عموماً إن افتقار السياسي للنقد الذاتي وأدواته يجعل من صاحبه شخصاً بلا لون ولا طعم ولا رائحة!

• ثالثاً: المهدي ينقصه مستشارون يلجأ لهم إذا ادلهمت الأمور أمامه. والواقع أنه عوضاً عن إحاطة نفسه بمستشارين، جعل من قيادات الحزب "كومبارس" يدورون في فلكه. ولهذا يكثر بل يسهل خروج هؤلاء من ردهات الحزب. وللتدليل ثمة قائمة طويلة من الاسماء التي خاضت مع المهدي معارك متواصلة وآثر بعضهم الابتعاد تاركاً له "الجمل بما حَقَل" لا بدّ للمرء أن يتساءل عن رجال صدقوا بما عاهدوا أنفسهم به.. أين البروفيسور مهدي أمين التوم.. أين السيد صلاح إبراهيم أحمد.. أين البروفيسور فيصل عبدالرحمن علي طه؟! علاوة على آخرين أرهقهم الترحال والعمر وأثقاله، وسنتجاوز عن فئة رمت نفسها في أحضان الشيطان؟! والقائمة تطول. ولعلّ أسوأ ما قرأته للمهدي في هذا الصدد إبان احتدام الوغى بينه وبين السيد مبارك الفاضل، قوله للأخير: «إن هذا حزبه - حزب الأمة - فمن شاء فلي انضم ومن شاء فليغارق»، وبالرغم من أن هذا المعيار يوضح لماذا استعصت أزمت الحزب على الطبيب المداوي، لكن مع ذلك إن شئنا تشخيصاً نقول إن المهدي يثق في ذكائه حدّ الغرور، فدائماً ما يتصور أنه يستطيع أن يحل قضايا العالم كلها ضربة لازب، ناهيك عن قضايا السودان وقد تسوى جناح بعوض بظنه!

هل نقول من أجل هذا وذاك، عقد المهدي حلفاً مع المشاريع الخاسرة؟! من عجب، تبدو لي أحياناً كأنها ملاذ يلجأ له لمُدارة عجز القادرين على التمام.

وفي ذلك سأضرب مثلاً، باعتباره الأخير في أجندته. إذ دأب المهدي على حضور مؤتمر سنوي لمنظمة اسمها "نادي مدريد"، لا أظن أن الكثيرين - حتى الذين تَمَرَّسوا في متابعة ديبب المنظمات - سَمِعُوا بها. وفي الواقع، قيل إنه منتدى لوزراء ورؤساء وزارات سابقين، معظمهم لم يسمع به أحد حتى عندما كانت تحيط بهم السُّنْطَة وصولجانها، بل فرضاً أنهم سمعوا به يا مولاي، فالمنتدى ليست له أَلِيَّة لتحقيق أهداف بعينها، يقيمون مؤتمرات سنويَّة ويُصدرون بياناتٍ لا تغادر صُدُور قائلِها، ثم يقضي أعضاؤه الفترة بين مؤتمر وآخر في التجوُّل بين عواصم العالم.. لهذا أظن أنه أقرب لنادي "أرباب معاشات"، يجتمعون لاجترار ذكريات السُّلْطَة. مع كُلِّ ذلك، يُعتبر المهدي حضوره - مهما كانت الأوضاع مكفهرَّة - فرضٌ عين، ويعد ذلك ضمن إنجازاته التاريخيَّة. وقبل أيام قطع المحيط لحضور مؤتمر هذا المنتدى في ولاية أركنسو، وعاد أدراجه دون أن يتوقف في واشنطن حيث صنَّاع القرار في كُلِّ صغيرة وكبيرة في شئون العالم. المُتابعون لحركات وسكنات المهدي، يقولون دون تَجَنٍّ: إن كان لَكُلِّ إمري آفة، فإن المهدي آفته في ذكائه!

ذلك يقودنا أيضاً للمهدي وكُتُبِه، والتي ما كان لي أن أقبل نحوها لولا أنني قرأت في اليومين الماضيين أنه دشَّن كتاباً جديداً في احتفاليَّة لا تُدَلُّ إلا على ترف فكري، لماذا؟! لأن الكتاب موضوع الاحتفاء يبدو كاليتم الباحث عن مأوى، بالنظر للقضايا التي نحنُ فيها رازخون. فقد قرأت يوماً من باب التضخيم في عيد ميلاده السبعين، أن الأحباب أحصوا له ما يزيد عن مائة مؤلَّف، ولعل مثلي من يُشجَّع مثل هذه الأعمال لأنه يعلم مُكابدتها، ولكن بمثلما قرَّظنا حُبَه للقراءة، يجب أن نقول إن التَّأليف يأتي خصماً عليها، ذلك أن الأحباب ظلموه بإحصاء بعض منها لا يُمُتُّ لمنهج التَّأليف بصلة (مثل كُتُبَاتٍ طُبِعَ عليها خُطْبُ الجُمعة والعَيدِين) لهذا تأتي مؤلفاته ولا تجد من يذكرها كمرجع يُعْتَدُّ به، هل من الأحباب من يستطيع أن يُحصي مؤلف أثار زوبعة فكرية أو سياسيَّة؟! في حين أنه كان ينبغي بل يُنْتَظَر منه كقامة فكريَّة سامقة أن تضارع مؤلفاته الجبال طولاً!

واقع الأمر، أن الأسباب التي تفسِّر ذلك كثيرة، منها أن المهدي يريد أن يكتب في كل شيء، بل يظن أنه يمكن أن يكتب في أي شيء بغضِّ النظر عن صدى هذا أو ذاك، وليس من أنيس أو جليس يُسدي له النصِّح المُبين. أما نحن، فلن نقول شيئاً دون أن نستدل بظلاله، فمن المُفارقات كتب المهدي مطلع هذا الأسبوع (٢٠١٢/١/٢١م) آخر مقال بعنوان: "ماذا بعد ميثاق كمبالا؟"، وأدهشني في آخر سطر بعد أن أحصى مثالب الميثاق وعثراته بقوله، أن هذا الميثاق: «فرصة لقوى المعارضة أن تعمل على إزالة العيوب وفرصة للنظام الحاكم أن يراجع سياساته بصورة جذريَّة من أجل الوطن الذي سوف يمزقه الاختلاف والاحتراب». هذه - يا هداك الله - دعوة

موجَّهة لنظام جثم ما يقارب رُبع قرن على صدورنا، ولم تتمرَّق بعد! فمن ذا الذي سيقول للمهدي ينبغي أن تراجع مسيرك، فإن مسير النظام قد حفظناه عن ظهر قلب!

صفوة القول، إن قبول المهدي لابنيه في أن يخرطاً في نظام يحاربه هو يُعدُّ استغفالاً واستخفافاً بالعقول. ولكن هَبْ أننا أمناً بديمقراطيته مع أبنائه في خياراتهم، فذهب أحدهم لجهاز الأمن بكلِّ ما يمثله الجهاز من قُبْح في ذهنيَّة السودانيين، وذهب الآخر للقصر، الذي قتل فيه جده غُردون، لينضمَّ لرتل من شذاذ الافاق والعاطلين عن العمل، في حين بقي هو في المَلازمين معارضاً. أليس من حقنا أن نتساءل: هل يمكن للمهدي الذي عجز عن إقناع ابنه بخطر خطواتهم تلك، أن يقنع شعباً كاملاً بضرورة إسقاط النظام؟!

ليس لديَّ ضبابيَّة في هذا الأمر، فقد كتبتُ هذا بعد طول تأمُّلٍ وألم وحسرة، وأقولها بصدقٍ شديد ومحبَّة أخوية خاصَّة، إنك يا سيدي - بحديث ما ذكرت - قد ساهمت مساهمة واضحة في ألا تمضي انتفاضات هذا الشعب المكلوم نحو نهاياتها المنطقيَّة، والتحويل عليك في أمر كهذا بعدنِّ أشبه بمن يتمنى استمطار السماء ذهباً.. فيمثل وضوح هذا، أطمح في وضوحك كذلك.

ورحم الله امرئ أهدى إليَّ عيوبي، أو كما قال!

آخر الكلام: لا بدُّ من الديمقراطية وإن طال السَّفر!!
٢٠١٣/١/٢٥

obeyikan.com

هل خلق السودان في كبد؟! (٩)

إذا أردت أن ترى عَبَثَ التحالفات السياسية في الواقع السوداني، فانظر - يا هداك الله - إلى الحزبين: الشيوعي والشعبي. وفي واقع الأمر، لست متيقناً ما إذا كان توصيف "حزب" ينطبق عليهما بدقة، وفق المنهج والمعايير التي اصطلح عليها في العلوم السياسية. والحقيقة ليسا وحدهما، فما من تنظيم سياسي في الساحة السودانية يمكن أن يُقال عنه أنه جدير بهذا التوصيف بحذافره. فإن كان ما يُسمى بالأحزاب التقليدية قَمِينة بهذه المفارقة، نظراً لطبيعتها الطائفية التي تتضاد مع المصطلح، فما بال الحزبين اللذين يدّعيان الحداثة، بغض النظر عن الأيدولوجية الماضوية للثاني، وجمود الأول الراهن في "الضل الوقف ما زاد" - بحسب تعبير المبدع الزاحل عُمر الطيّب الدوش. وعليه، فإن حالهما صار أشبه بحال كسيح وأعمى، كان بينهما ما صنع الحدّاد ويعيشان في قرية طاف عليها وباء، فهجرها أهلها ركضاً باحثين عن ملاذ آمن. لم يجد العدوان اللودان ثمة مناص من تحالف فرضته الكارثة، فتواصيا على أن يمتطي الكسيح ظهر الأعمى ويفرا مع الهاربين. فعلا ذلك، ولكن عاددا سيرتهما الأولى دون أن يفلح العطار إصلاح ما أفسده الدهر، ولكن قل لي برّيك - يا عزيزي القارئ - هل عرفت الكسيح من الأعمى؟!

أعلم أنك لن تخطيء الإجابة، فوفقاً لمعطيات الوضع الراهن، أي منهما يمكن أن يكون هذا أو ذلك. لكن بصورة عامة، فإن المفارقة التي لن تجد لها تفسيراً في واقعنا المريض، هي أن النشاط الحزبي يتطلب الديمقراطية منهجاً وتطبيقاً، ونحن نروم الديمقراطية نفسها من قوى سياسية تفقرها. والمفارقة التي لن تجد لها تفسيراً، هي أن الكيان الحزبي يفرض على عضويته الأطر التنظيمية المتعارف عليها، ونحن نرزخ تحت نير أحزاب لا تملك في أضاويرها مجرد لوح محفوظ يضم أسماء منسوبيها. والمفارقة التي لن تجد لها تفسيراً، هي أن العمل الحزبي قوامه العطاء، ونحن نعيش في كنف أحزاب أصبحت وسيلة للثراء والرفاهية الشخصية، لدرجة صارت فيها ظاهرة الخروج والعودة دون حسيب أو رقيب أمراً عادياً. أما وإن شئت الحديث عن عدد عضويتها، أو قاعدتها، فسترهق من أمرك عُسراً!

تقصياً للفرضية الأخيرة، كنت قد جلستُ إلى الدكتور حسن الترابي منتصف رمضان قبل الماضي، وثالثنا الأستاذ كمال عُمر في هذا اللقاء الذي امتدّ لنحو ثلاث ساعات، كانت شهية الترابي خلالها مفتوحة للكلام بحيوية يحسده

عليها من بلغ من العمر عتياً. لم يترك الثرابي باباً إلا وطرقه، طاف بي وحلق في سماوات طباقاً، بعضها سألتها عنها، وأخرى لم أتبرع بالسؤال عنها. وهنا فليسمح لي القارئ بالنعطافة صغيرة عن موضوعنا (واقع الأمر، وبالرغم من تقادم السنين، لم أدرك تماماً أن ما سُمي بـ"المفاصلة" بين القصر والمنشئة مفاصلة حقيقية، إلا عندما تفرست وجه الثرابي، وهو يتحدث عن حُكَّام اليوم حواريو الأمس، وكان وقتها يضغط على أضراسه، وكذا إبهامه وسبابته كمن يهرس في شيء ما هرساً)!

بيد أنني اتخذت من ذلك منطلقاً لمعرفة حجم الحزب الذي يرأسه، وذلك بسؤاله عن الكيفية التي يريد بها إسقاط بنيه وإزاحتهم عن سدة السلطة. قلتُ له متعيّداً استفزازاً. ولكن أين الجماهير التي تستند عليها، وأنت ترأس حزباً بقاعدة متواضعة، إن لم تكن معدومة؟! فقال بثقة مفردة تتبعها تلك الابتسامة الساخرة: نعم لدينا، وهم يعلمون ماذا أعني عندما أتحدث عن الانتفاضة، وهم يعلمون أنني أشاركهم الجلوس في أي مقعد في هذه الدولة، وهم يعلمون إنني القادر على إزالتهم من السلطة.. واقع الأمر، في تلك اللحظة ومَضَ في ذهني منظرٌ مفارق عند دخولي داره، إذ رأيت شخصين فقط يجلسان في فنائها، وهي ذات الدار التي كانت تعج بالبشر في زمان مضى، حتى يصعب أن يجد المرء فيها موطن قدم!

طبقاً لذلك، يصعب تصديق الثرابي في كل ما يقول، لأنه كثيراً ما نقض غزله بيده، وكثيراً ما جبّ قوله بنفسه. وفي تقديري، أن حديثه عن قاعدة شعبية هو محض تنطع سياسي لا غير، وأظنه يضع عينه على قاعدة حواريه نفسها، وربما اعتقد وهماً أنها يمكن أن تعود إلى حياضه مرة أخرى. وبالرغم من أن هذا الافتراض يعد ممكناً بالمنظور الانتهازي، الذي درجت عليه هذه الفئة من الإسلامويين، وبما أن الصراع هو صراع سلطوي في المقام الأول، ونظراً لأن من بيدهم السلطة هم حواريو القدامى، هنا يمكنني القول باطمئنان شديد، إن الثرابي هو من سيعود إلى حضنهم، غَضَّ البصر عن كلّ مظاهر الفجور في الخصومة التي ورد ذكرها.. بل نقول للمستغربين حينها، لن يجد الشيخ حرجاً في استنباط مخرج فقهي مستندا على قياس القرآن والسنة.. فهذا ممّا لا يعوزه!

عليه، يمكن القول أيضاً طبقاً لمعطيات الواقع، إن الثرابي يريد امتطاء ظهر القوى السياسية التي تحالف معها في إطار "قوى الإجماع الوطني" لتحقيق مآربه الخاصة، متمثلة في استعادة فردوس السلطة المفقود. وإذا ما أسلمنا جدلاً بالآ غضاضة في تحالف بينه والقوى التقليدية، أي الحزبين الطائفيين أو "السيامييين"، نظراً لما بينهما من قواسم أيولوجية مشتركة، وتبعاً لطبيعة القوى اليمينية في ضعفها حيال السلطة، باعتبارها وسيلة لتحقيق أحلام ذاتية أكثر من كونها وسيلة لتلبية تطامع جماهيرية مشروعة. لكن الذي لا يستقيم له عقلاً، أن يكون الحزب الشيوعي مُغيياً عن الوعي، وهو أحد رُؤاده، فبغض النظر عن

الإختلاف الفكري المعروف، فقد كان يفترض أن يكون الأكثر إدراكاً بطبيعة المؤتمر الشعبي بصورة عامة، والترابي بصورة خاصة، لا سيّما، وقد لدغ من جُحره مرّتين!

إن الإجابة الواقعيّة على هذا السؤال، تقودنا إلى حالة التكلّس والجمود التي يعيشها الحزب الشيوعي، والتي يمكن اختصارها في كلمة واحدة، وهي "العجز"، فقد أصبح الحزب الشيوعي عاجزاً عن الفعل للدرجة التي باتت تستدعي الشفقة. و"الشفقة" في العمل السياسي أو حتّى في العلاقات الإنسانية تُعدّ أعلى مراتب التقريع، ذلك لأنها تسلب المُخاطَب سواء كان فرداً أو تنظيمًا أهم خاصية حيوية يُفترض أن يمتنع بها، وهي الإحساس بالكينونة!

لقد بنى الحزب الشيوعي السوداني تاريخاً مجيداً في النضال الوطني، للدرجة التي كان فيها ينافس نفسه. بل قدّم نفسه بنفسه كحزبٍ مجرد من الانتهازية السياسية. وتحلّق حوله قوّم تجرّدوا من أي طموحاتٍ شخصيّة حدّ الزهد، نذروا أنفسهم من أجل الدفاع عن الحريّات ونشر الوعي ومنافحة الديكتاتوريات، ولم يتوانوا في تقديم ذواتهم قُرباناً لما آمنوا به. الذي حدث يا صاحبي، أن هذا الرّصيد الضخم أصبح وبالاً على الحزب نفسه، فكلما دارت دوائر المقارنات وفقهها، انسلخ الماضي عن الحاضر نظرياً لأنّ اليون شاسع، أما عملياً فقد حضر الناس مناسبات وأحداث كثيرة. ليروا الحزب الذي كان يتصدّر محافل النضال الوطني وقد خلا مقعده بين الحاضرين. في تقديري، ذلك ممّا لم يدركه البعض حينما قال أمينه العام الأستاذ الرّاحل محمد إبراهيم نُفد: "حضرنا ولم نجدكم!"

لن يستطيع الحزب الشيوعي السوداني إنجاز العملية التاريخية في استرداد الديمقراطية وهو بهذا الضعف البائن، لن يستطيع إسقاط الديكتاتورية التي تهدد وجوده - قبل أن تهدد كافة شرائح المجتمع السوداني - وهو بهذا الحال "المائل" بل أستطيع أن ألحق العار بالحزب العتيد في تنكره لشعارات رفعها في معركة المصير الوطني وقال: «لنا الصدر دون العالمين أو القبر». كان الحزب يقدّم الشهداء تلو الشهداء دون مَنٍ أو أذى، كان يفتح صدره بلا خوف أو وجل، كان يطرح الوعي لمن يريد، كما قال الأستاذ الرّاحل عبدالخالق محبوب، كان ينظر لآخرته كأنه يموت غداً ولدنياه كأنه يعيش أبداً. لكن الحزب بات يُقدّم خطوة ويؤخر أخرى كلما دعا داعي النضال الوطني، تقويع وسط الجماهير حتّى أعيائها البحث عنه، كان الحزب مبادراً فأصبح تابعاً، تضائل حتّى أصبح صحيفة إلكترونيّة، وبأضعف الإيمان لا يتورّع في أن يُقدّم الشكوى تلو الشكوى متأملاً من الجلاّد أن يُنصفه في حظرها، ومن عجب، فإن كوارده القياديّة وجدت في الصُخف ماوى، فأصبحت ترفد نضالها بمقالات راتبة مثلنا، نحن الذين لا قاعدة لهم سوى قرّانهم، وهُم قد هجروا الشوارع والمصانع والحقول!

لذلك عندما حدثت انتفاضة يونيو ويوليو وما بعدهما، غاب عنها الحزب الطليعي وكان من الطبيعي أن يغيب. فالضعف في بنيته لم يكن وليد اليوم أو نتيجة الظروف الراهنة، فهي حالة نفسية قبل أن تكون مادية، دخل فيها الحزب بعد تراجيديا ما سمّاه بـ"أسبوع الآلام" وأصبح بعدنذ يعيش فوبيا الفناء. اختفى أمينه العام للمرّة الأولى لمدة أربعة عشر عاماً متواصلة، فاخفى الحزب معه، ولم يظهر إلا بعد أن أصبح الطاغوت قاب قوسين أو أدنى من السقوط. اختفى الأمين العام للمرّة الثانية لنحو أحد عشر عاماً، فاخفى الحزب أيضاً. وفي العام الماضي، ترك الأستاذ نُقْد الدنيا بقضيتها وقضيضها واختفى اختفاءه الابدئي، ولم يخرج الحزب للعلن! لقد حدث كل ذلك ولم تجد عضويته من يقول لها ما إذا كان الاختفاء الأول أو الثاني عملاً صائباً أو طائشاً. بمثلما لم يجد عموم السودانيين من يقول لهم: لماذا لم يخرج الحزب للتليد للعلن بعد أن طويت سرادق العزاء؟!

ليس التقاعس وحده، ففي الحديث عن التحالفات السياسية التي هي صُلب هذا المقال. كانت للحزب تجربة كبيرة في إطار التجمّع الوطني الديمقراطي في الخارج، وظلّ متمسكاً بها تمسكاً "ضهبان وجد طريقه بعد لأي" ولأن الحزب كان في حالة ضعفه التي ذكرنا، فوجد في "عباءة السيّدين" ما يدرأ عنه شبهة العجز بغضّ الطرف عن أخطاء استراتيجيّة بدعوى وحدة العمل المعارض، هي ذات الأخطاء التي أدّت إلى قبر التجربة وهي حيّة. يومذاك ركضت الأحزاب التي تجاوز الحزب عن سوءاتها نحو الخرطوم، وتركته قائماً يُصلي صلاة الكسوف، فلم يجد الأعضاء من يقول لهم أصاب الحزب وأخطأ المراقبون أو العكس!

هُنيهة خطا التابع بخطى المتبوع، فدخل الحزب برلمان السلطة الديكتاتوريّة بتوهُم مناهضتها ديمقراطياً، ولم يجد أنيساً أو جليساً يقول له إنك بفعلتك الحمقاء تكرر لسلطة غاشمة، فالمجلس الوطني واحد من مؤسسات الخزي والعار، بل لم يجد من يذكره أنه سيشارك في صنع مسرحيّة ظلّ ينافحها دهرأ. وبعد أن قضت عضويته وطراً في المجلس المزعوم، لفظتهم السُلطة الغاشمة كما يلفظ الجائع النواة. ومع ذلك مضى الحزب في ذات المسرحيّة بمنطوق لم تحقّ به الندامة، فقرّر أن يخوض ما عُرف بـ"نتخابات الخج"! وما بين هذا وذاك، لم يجد المراقبون من يقول لهم: لماذا فعل ما فعل، ولم يفعل ما كان ينبغي عليه أن يفعل؟! فاستمرّ الحزب بعدنذ يصنع العجز ويلعقه، بل استمرّ التكلّس والجمود والحالة التحنيطيّة التي أصبقت على خناقه، ثمّ راهناً جاءت وثيقة "الفجر الجديد"، فإذا بالحزب الذي كانت استقامته في لسانه، يتلجلج في الحديث حتى وضع مصداقيّة قيادي بحجم الأستاذ صديق يوسف في محكّ الاختبار!

إن التحالف السياسي المزعوم بين القوى السياسيّة، بالرغم من أنه الوسيلة المثلى لمواجهة ديكتاتوريّة باطشة كالتي ناءت بكلّها علينا، لكنه في الواقع

أصبح شعار "حق أريد به باطل". الذي نعلمه، أن التحالف يفترض توازن الإرادة الوطنية قبل تساوي أوزان القوى السياسية، أي لا فضل لحزب على آخر إلا بالتصميم على تحقيق الأهداف الوطنية النبيلة، وفي طلبتها اقتلاع هذا النظام وفكره الظلامي من جذوره. وهو افتراضٌ نجزم دون أدنى شك أنه غير متوفر في أجندة القوى التي تدّعي التحالف في إطار "قوى الإجماع الوطني" .. من أجل هذا، لا ينبغي السؤال عن غياب هذه القوى عن سوح الانتفاضات التي اندلعت ولم تصل لنهايتها المنطقية كما ذكرنا، بقدر ما السؤال عن إرادتها الوطنية في تحقيق الهدف المنشود؟!!

عليه، لماذا الإصرار على تحالفٍ يخفي العاجزون فيه عجزهم في طيأته؟! فليتنقّض سامره وليتقدّم كل حزبٍ إسهامه الوطني في كيفية إسقاط هذا النظام عملياً، وعندما تتمايز الصفوف، سيعرف الناس بعدئذٍ العاجز من القادر، وسيأتي التحالف السياسي المرجو مبزاً من أي انتهازية سياسية!

بالعودة لنقطة الانطلاق، نقول: طالما أن الحزبين، الشيوعي والشعبي على طرفي نقيض، فإن أي تحالف سياسي بينهما أو حتى هُما في بطنه، هو في واقع الأمر مجرد "رقعة معدية" في حده الأدنى، حتى وإن تطهّر الثاني من رجس ملتصق به، وتبرأ الأول من ضعفٍ وعجز حاق به. أما في حده الأعلى، فذلك ممّا يُقال عنه - ياسيداتي وسادتي - محض استهبال سياسي وإن كره المكابرون!

اخرجوا من جُحوركم يرحمكم الله، لمواصلة رسالتكم السامية، أو أعلنوا فينا عجزكم، فالتاريخ لا يرحم!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٣/٢/٧

obeikan.com

هل خُلق الشّودان في كَبَدٍ؟! (١٠)

هذه خاتمة السلسلة أعلاه، ولكنها ليست خاتمة المحنة التي نعيشها وجعلت وطناً شامخاً يقف على حد السيف بين أن يكون أو لا يكون. كأنه يحيا في القرن السابع عشر ويسترجع تراجيديا ولیم شكسبير بذات العبارة الشهيرة التي جرت على لسان "هاملت": "To be, or not to be: that is the question". نعم، ذلك هو السؤال، ولكن من كان يظن أنه سيعيد إنتاج نفسه ويصبح سؤالا مؤرقاً لوطن حائر يقف في ردهات القرن الحادي والعشرين، وهو مهذّب في كيانه وكيونته؟! يعلم المتابعون إننا في سياق هذه السلسلة، حاولنا بجهد المُقل أن نجيب على سؤال محوري طرحناه بوضوح، حول الأسباب التي أقعدت انتفاضتي يونيو ويوليو من العام الماضي - بل ما قبلهما وبعدهما من مشاريع هبات شعبية - في ألا تمضي لنهايتها المنطقية. والتي بحسب تقديرنا تتمثل في إسقاط نظام العُصبة ذوي البأس، وبحسب أحلام "الحسب النسب" في زمان مضى.. اقتلعه من جذوره! وخرّ بنا القول أننا في رحلتنا هذه استصحبنا تساؤلات المراقبين السياسيين، وهم يحصون من المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تحاصر النظام، بما يفوق كل الأسباب التي أجمعت عليه ثورات الربيع العربي!

قلنا في الإجابة، إن العبء الأكبر يقع على عاتق القوى السياسية التي تقاعست عن أداء واجباتها ومواصلة دورها التاريخي، وما درجت عليه في مناهضة الأنظمة الشمولية. وفي ذلك أشرنا تحديداً إلى مواقف السيد الميرغني المزدوجة، والتي كبّلت الحزب العريق وأدخلته في "كرنتينة" بئسة. كما أشرنا إلى تناقضات السيد المهدي والتي بدورها قرّمت الحزب العتيد وسلبته "فحولته" السياسية. وذكرنا ثالثة الأثافي في الحالة "التحنيطية" التي دخل فيها الحزب الشيوعي، وسحبت معها تاريخاً تليداً في مناهضة الأنظمة الديكتاتورية. وبذات القياس، لم نر في معارضة المؤتمر الشعبي سوى محض انتهازيّة سياسية تطمح لاسترداد عرش الطاغوت وهو صنيعها.. بيّذ أنه قبل هذا وذاك، ينبغي أن نوجّه المسؤولية للواقفين على السياج، الذين حدّد مارتن لوثر كينج موقعهم في الخارطة بقوله: «إن أسوأ مكان في الجحيم مُخصّص لأولئك الذين يقفون على الحياد في المعارك الأخلاقية الكبرى»! فهم من أصاب حياتنا بالخسار والبَرار والغوار!

على الجانب الآخر، ففي الحديث عن النظام الديكتاتوري المتجبر وآلياته، ليس خافياً بالطبع الأجندة الظاهرية والتي اتخذت من البطش والعنف والترهيب وسيلة، والقتل والسَّحل والتنكيل غايةً. وتعلمون أن جلاوزة النظام لم يتررَّعوا في أن يعلنوا على الملأ تخصيص ٧٠% من ميزانيات الدولة – وعلى مدى أكثر من عقدين – للأمن والدفاع. أي تسخير كل الموارد، بما في ذلك البترول، الذي كان ينبغي يلبي حاجيات الناس من صحة وتعليم وتطوُّر ورفاهية. ودونما كثير تفصيل، يعلم المراقبون مسيرة النظام الدامية والشاملة في انتهاكات حقوق الإنسان السوداني، والتي لم تتوقف عند حدِّ العنف البدني، وإنما شملت العنف اللفظي أيضاً، بهدف الأساءة والخط من قدر معارضيه بصورة عرَّضت قيم ومثل وأخلاق مجتمع توارثوها كابراً عن كابر لامتحاي عسير. بيد أننا هنا نود أن نحصر فيما يلي حديثنا حول الأجندة الباطنية التي توسَّلتها النظام لقمع الانتفاضات ودرء المواجهات الشعبية قبل أن يستغلظ ويقوى عودها!

• أولاً: هذه النقطة تعيدنا لجاهلية النظام في بواكير استلامه السلطة، حينما عمد إلى إجراءات تعسفية سُميت افتراءً بـ"الفصل للصالح العام". كانت سياسة قطع الأرزاق تلك عملاً مدروساً ومنهجاً فُصِّد به فتح الباب لما سُمي بـ"سياسة التمكين" ولا يظن أحد أن فصل ما يناهز رُبع مليون من قطاعات الخدمة المدنية والنظامية، مضى دون ترك آثار صادمة خلخلت بنية المجتمع وأورثتنا أجيالاً مشوهة. تدهور التعليم واعتلت الصحة، وازدادت رقعة الفقر وتطاول البؤس.. نفشت ظواهر النفاق والحسد والانتهازية، وساد الكذب والخداع والتباغض، اضمحلَّ الوازع الديني فصار الناس يتبارون في التدين المظهري، انتشرت الجريمة كما ونوعاً وراجت المخدرات وتعاطي الكحول بين الشباب في الجامعات والمدارس، تمددت الرذيلة وانحسرت الفضيلة، وشهد للإنحلال الأخلاقي دور خُصِّصت للطفولة الضائعة فضجَّت بساكنيتها من زغب الحواصل بلا أمومة أو أبوة.

رُبَّ قائل هذه هي ذات الأجندة الظاهرية التي خبرناها من العصابة طيلة سنيها في السلطة، ولكن أين الأجندة الباطنية التي تدَّعي؟! للمتسائلين نقول إن الإجراءات القمعية سالفه الذكر، تؤدي بالضرورة إلى هتك نسيج المجتمع وخلق شخصية مسلوكة الإرادة، غاية هُمها ملء وعاء بطنها إن وجدت لذلك سبيلاً، غرض النظر عن حاله من حرامه. تقضي سحابة يومها لاهثة وراء جذرة لن تطولها، وتعود في المساء تجرجر أذيال الخيبة بلا حراك أو أي رغبة في فعل شيء، فتغمض عينيها وتنام ملء جفونها عن خبيتها. تلك إجراءات قمعية هدفت إلى تحويل الإنسان السوداني إلى دابة تقاد كيفما اتفق. هي ذات الإجراءات التي اتبعتها النازية والفاشية لترويض شعوبها. ذلك قد يفسر حالة اللامبالاة التي غشيت مضارب البعض، فأصبح سقوط النظام تمنى

والنضال ضده ترف ومضيعة للوقت. لهذا يكثر تنظير القائلين.. هل هذا هو الإنسان السوداني الذي عرفناه؟! فتتمدد الدهشة وينحسر اللسان!

• **ثانياً:** موازاة مع السيناريو سالف الذكر، فتحت العُصبة منافذ البلاد على مصراعيها لتفريغها من الناشطين السياسيين والنقابيين وسائر المواطنين لتقليل مساحات التذمر والتمرد والثورة. على مدى عقدين من الزمن، أصابت البلاد حُمى الهجرة الجماعية.. خرج الناس بالملايين زُرافاتٍ ووحداناً. ومن نكد الدنيا على السودانيين أن لا أحد يعرف عددهم وهم مغتربون في الخارج، كما لا يعرف أحداً عددهم وهم مستغربون في الداخل. لكن إن شئت تقريباً لصورة مهشمة، فتظر ذماً في مكان مدح لكرار التهامي، والمذكور – للذين لا يعرفونه – كائنٌ قال عن نفسه إنه كان «غواصة الجبهة الإسلامية في الجامعة»! ذلك حينما سُئل عن كيفية تسُّمه هذا المنصب وهو من غير أهل الولاء.. ما علينا، أن أساء البعض لأنفسهم بما يستوجب احتقارهم، المهم أنه قال إن جهاز المغتربين الذي يرأسه، يُصدرُ ثلاثة آلاف تأشيرة خروج يومياً!

حول ذات الكارثة، قال أحمد كرمو ('الصحافة' ٢٠١٣/٢/١٢) وهو إنفاذي برتبة وزير دولة للعمل: «هاجر خلال عام ٢٠١٢ نحو ٩٤٢٣٠ شخص منهم ٥٠٢٨ طبيباً» وللمحنة وجه آخر في سفر النزوح الجماعي. ففي دارفور حيث الإنسان عصي على الإحصاء حياً وميتاً، بلغ عدد النازحين داخل وطنهم وفي دول الجوار ما يناهز الثلاثة ملايين نسمة. أضف إلى ذلك نصف مليون في جنوب كردفان، ونصف مليون في جنوب النيل الأزرق بسبب الحروب الصامتة وويلاتها. ويقال إن المغتربين والمُهْجَرين لأسباب سياسية وإقتصادية بصورة شاملة يقدر عددهم (خبط عشواء) بنحو خمسة إلى ستة ملايين نسمة. إذا كنت يا عزيزي القارئ ممَّن يحسنون حسابات الحقل والبيدر فستعلم – يا هداك الله – أن البلاد رحل ثلثها وهلك ثلثها وبات الثلث الأخير ينتظر قدره! ونقول بمثل هذا النهج تمسك النظم التوتاليرية على مفاصل الدولة والمجتمع!

• **ثالثاً:** ما يزال الحبل على الجرار، فمن ضمن الثلث الذي تبقى، وضع دهاقنة النظام شريحة الشباب نصب أعينهم بعد أن تكاثر عدد العاطلين في أوساطهم وبلغ ما نسبته ٤٧% وهي نسبة تجعل أي نظام ديكتاتوري يتحسَّن مواقع كراسيه. فحتى يتم تفريغهم من أحلامٍ قد تأتي ولا تأتي، فُكر العباقرة ثم قدروا فرَّجوا لشيء اسمه «حُمى الذهب» وعمدوا إلى سريانه بين الناس بقصص أشبه بالأساطير، فسلبت لب أي شاب حتى أصبح لا حراك له سوى أن يمم وجهه شطر الصحاري على أمل أن يعانق الأحلام العذبة التي راودت مخيلته رداً من الزمن. وبمثلما كان يصنع جهاز الدعاية النازي رواياته، أصبح

جهاز الأمن والاستخبارات برعاية محمد عطا المولي يضخ لوسائل الإعلام قصصاً أشبه بالخيال فتسرى بين المحرومين سريان النار في الهشيم!

بالطبع ذلك مما لا يعوزه مكرهم فجاءوا بشخص حذق البصاصة والفجاجة واللجاجة. إذ صار مشاهدو الفضائية السودانية التي تُصدّر الكآبة لهم، يطالعون وجه كمال عبد اللطيف وهو بكامل حلتة في الحقول، تتبعه كاميرا تلفزيونية بيمينه، وطبيب لفت سماعة طيبة حول عنقه على شماله. ولمن فاتته مثل هذا المشهد الدراماتيكي، نسأله ألا يدع أحمد البلال الطيب يفوته أثناء انفعاله بالذهب وهو ينز نفاقاً وعبطاً ولبطاً. سترى أيضاً موظف بربطة عنق في صحراء ببوضة يقول إنه مندوب بنك السودان وأمامه ميزانه (ويل للمطففين)! وحتى تكتمل الصورة سيملاً الشاشة شخصاً سيماه في وجهه من أثر الفساد، يقول إن مهمته ربّانية تتمثل في جباية الزكاة وأنصبتها. هم سيقولون لك إن أكثر من نصف مليون شاب تائهون في هذه البوادي والصحارى، ولكنك لن تتدهش إذا علمت أن الرقم يساوي ثلاثة أضعاف العدد المذكور. شباب هائمون في ظروف صحية قاسية، يموتون بإحدى الوسيلتين، أما لدغات الأفاعي أو ضمراً في ذات الحفر، هذا بغض النظر عما يمكن أن يعتري نفوسهم من تغييرات سايكولوجية تقتلهم وهم أحياء. ذلك عبث وجرم لا يغتفر. هل كان أحد من السودانيّين لا يعلم في هذا البلد الظالمة حكومته أن هناك ثروات تغور وتغور وتمور في باطن أرضه بصورة تعجز أي راصد. وهل يظنون أن محمد علي باشا غزا السودان للترفيه والتنزه؟ لم تكن ثروات البلاد يوماً محل شك، فالثك ظل دوماً يحوم حول مردودها. ولهذا نعلم جميعاً إنه لمثل هذا تتأبر الأنظمة الشمولية في تشتيت شمل الشباب حتى تأمن غضبهم!

• رابعاً: هذا سيناريو لن نتوه في دهاليزه كثيراً، لأن الناس كشفت سره وخبرت حيله، فقد عملت السلطة الجائرة على تطبيقه بفنون تدهش أي حاي. فالإسلاميون الحاكمون قوم جُبلوا على بيع دينهم وشراء ذمم الناس، وفي ذلك دأبوا على تصويب أسلحتهم نحو شرذمة من الانتهازيين والوصوليين والذين في قلوبهم غرض ومرض من القوى السياسية الأخرى. فيغدقوا عليهم المال لتسييل لعاب الطامعين، وينشروا عليهم الوظائف بهدف جذب المتخاذلين. وبين هذا وذاك تصبح سياسة فزق تسدُ منهجاً لتفريغ وتركيع وإذلال هذه القوى، مستخدمين في ذلك حيلة ودهاء لم يسبق لها مثيلاً في تاريخ الديكتاتوريات!

• خامساً: لم يقتصر الأمر على تشتيت الناس وتهجيرهم قسراً حتى لا يكاد المرء يطالع موقعاً جغرافياً لم تطأه قدم سوداني، وطبقاً لبراءاتهم في فقه البيوع رأوا في المهاجرين مشروعاً استثمارياً يدر عليهم مالاً وفيراً. فتقننوا في فرض الضرائب والأتاوات والجبايات، وزادوا عليهم بالزكوات والتبرعات وأشياء أخر ما أنزل سلطان بها فرمان. هل تعلم يا قارئنا الكريم أن التحويلات

السنية لهؤلاء تبلغ سنوياً ما بين خمسة إلى ستة مليار دولار بالتقديرات الرسمية، ثلثها من مغتربي المملكة السعودية. فالمغتربون في عُرفهم هم بالفعل بقرة حلباً، ومقابل ذلك يواجهون عنثاً في الإجراءات وتعسفاً في المعاملات، أما حقوقهم السياسية والثقافية والاجتماعية فذلك ترف لا قبل لهم به! لقد تحولت السفارات إلى (بقالات) للبيع والشراء، وأصبحت أوكار أمنية ترصد أنفاس المغتربين وتلاحقهم بسوط عذاب!

حتى لا يقال عنّا ضربَ لنا مثلاً ونسيّ "أم السفارات" في الجباية. فقد علمتُ من مصادر موثوقة في البنك السعودي الهولندي أثناء تردّي على المملكة العربية السعودية بدءاً من منتصف التسعينات الماضية للعلاج، أن سفارة النظام في الرياض تورّد في حسابها البنكي مليون ريال يومياً، وتحوّل في ذات اليوم إلى بنك السودان المركزي. لم تطل دهشتي يومذاك، إذ علمتُ أنه إلى جانب جبايات الضرائب وشقيقتها، فقد كانت السفارة استثناء بين السفارات، حيث يوجد في بطنها فروع بنوك تقوم بالتحويلات للمغتربين، مثل بنك أمدرمان الوطني والبركة وشركة الأسواق الحرة وشهامة ومضاربات أراضي وهلمجراً. واستمرّ هذا الحال على هذا المنوال، ثم مضى على السفارة حين من الدهر، علمتُ بعده من مصادر بنكية أخرى أن حسابها أغلق في البنك المذكور عام ٢٠٠٨ بسبب فضيحة مائة ألف دولار مزوّرة اندست وسط المبلغ المؤرّد. وبعده قامت بفتح حساب آخر في بنك (...) وأصبح رقم التحويل يتزايد تبعاً لزيادة أعداد المغتربين، إلى أن وصل الآن لما يتراوح بين مليون ونصف ريال إلى مليونين، ويصل أحياناً إلى ثلاثة ملايين ونصف عقب العطلة الأسبوعية، وإلى هنا ننصح المتسائلين الكف عن أسئلة إن تبدى لهم حتماً ستسؤهم!

لكن حتى نريح هواجس هؤلاء، فقد اخترنا وثيقة حديثة صدرت قبل نحو أسبوعين ضمن الطبعة الثالثة من كتابنا الأخير الموسوم "الخدق.. دولة الفساد والاستبداد"، فليأملها المغتربون بصورة عامة ومغتربو المملكة السعودية بصورة خاصة، وهم في ذات البلد التي وصفت الغصبة مليكها بأقذع الأوصاف والشتائم، ومع ذلك لا يستحي الرئيس "الضرورة" من التوجّه نحوه للتطبيب. فانظروا نهاية هذا المقال، كيف تتبعثر ملايينكم ويتفرّق عرقكم بين المفسدين!

صفوة القول، هذه هي "بروتوكولات حُكّام صهيون".. إنها محاولة لفتح كوة في الحائط الصلد، لعلنا نقف على مواقع الزلل فنقومها ونترصد مراكز الخلل فنجتنبها. إذ أن الديكتاتوريات التي تعاقبت على حكمنا سلبتنا أعزّ ما نملك، حتى صار البعض ممّا يرى الفساد فيغض عنه البصر، ويرمي له الفتات فيمعن فيه النظر!

آخر الكلام: لا بُدّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٣/٢/٢٠

معالي الدكتور / مصطفى عثمان اسماعيل الموقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سبق وان بعثت برسالة سابقة لسعادتكم حول تكوين جالية منطقة مكة المكرمة وقد تحويل الخطاب من مكتبكم الى مكتب معالي البروف غندور .. ومنذ ذلك الزمن ونحن نطرق كل الابواب حيال تحويل مال الجالية التي هي في الاساس تم فرضها من قبل الجالية للتبرع بمبلغ ٢٥٠٠٠٠٠٠ خمسة وعشرون مليون دولار ابان الحرب في الكرمك وقيسان وقد استمرت حتى بعد تحقيق المبلغ المستهدف وقلنا لآبأس طالما في عدم قواتنا المسلحة الا انه وبعد ان ساد السلام في البلاد سعى رئيس واعضاء مجلس تنسيق الجاليات المنطقة الغربية الى وزارة الدفاع لتقاسم المبلغ في عهد الفريق بكري حسن صالح والذي بدوره تكرم ووافق على ذلك مشكوراً مأجوراً . واستمر التصرف في هذه الاموال لحلحلة بعض مشاكل المغتربين ولكن بمساهمات يسيره لا تعالج مشكلة احد .. وحدثت ايضا متغيرات هنا في المهجر من الزام المقيمين بالتأمين الصحي وقد قلل ذلك من مشاكل العلاج وحوجة الصرف عليه وكذا الزام سائقي المركبات بالتأمين عليها مما ايضا خفف من او انهى مشاكل الديات .. ولما بلغ المبلغ المجمع لدى الجالية مبلغا مقدر اصبح يفكر فيه كل بطريقته و كيف يمكن ان يستفيد من هذه المبالغ وعلى سبيل المثال لا الحصر هنا مقترح تقدم به احد الاخوة بالجالية المنتهية دورتها لاستثمار هذه الاموال في شقق مفروشة في السودان واعترض عليه اعضاء المجلس ومن هنا بدأت هذه الخلافات الكبيرة التي تحول دون تكوين جالية جده.. وفي هذه الاثناء يظهر سعادة السفير خالد محمود الترس الذي قام هو بدوره بأيقاف مندوبي الجالية المكلفين بالتصرف في هذه الاموال وحول كامل التصرف فيها الى مكتبه.. واصبح ضلعا ثالثا في خلافات الجالية.. واثناء احتفالنا بانتصار القوات المسلحة اقترح رئيس المؤتمر الوطني بالطائف مباشرة بالمبادرة بتحويل هذه المبالغ الى اصلها ودعمنا هذا الاقتراح مهللين مكبرين.. الا ان سعادة السفير حين جاء دوره هاجم المقترح في كلمته وأشار الى ان معالجة مشاكل المغتربين هنا اولى بهذه المبالغ.. وبعد ذلك واصلنا مشوارنا منافحين ولم نصل الى اي حلول ولما جاء العدوانى الاسرائيلي الغاشم.. تقدمت برسالة عبر صحيفة الانتباهة الى رئيس ومجلس اعضاء الجالية شارحا فيه ضرورة تحول هذه الاموال كما هو مرفق.. وأيضاً لم يحرك احدا ساكننا.. الشاهد في الامر ان سعادة السفير خالد الترس لا يسمح لاحد بالتحدث عن هذا الموضوع.. لذا ارفع لكم.. ولاسيما وانني علمت من مصدر موثوق انكم ابان توليكم حقيبة وزارة الخارجية اكدتم ان علاقة القنصلية باموال الجاليات فقط دور حفظها كأمانة طرفهم وأن كامل التصرف فيها لاصحاب الحق اللانحي.. ولا نفوتني الاشارة الى ان هذه الاموال اصبحت تصرف فقط حسب السلطات التقديرية لسعادته دون الالتفات لما يحكمها من لائحة.. كما تجدر الاشارة الى ان اس مشاكل تكوين الجالية وصراعاتها هذه الاموال.. امل اذا كان هذا الامر من اختصاصكم سرعة البت بتحويل كامل الـ(مائة ريال) والمبالغ المجمعة بالقنصلية بعد مراجعتها الى القوات المسلحة او اعفاننا من دفعها اذا كانت البلاد والقوات المسلحة ليست بجاجتها وأن لم يكن في دائرة اختصاصكم.

حفظكم الله ورعاكم،،،

أخوكم/حافظ فتحي محمد صالح

موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٧٧٤١٨٣٥

صورة طبق الأصل

إِنِّي كَفَرْتُ بِصَنَمِكُمْ الَّذِي تَعْبُدُونَ!

يا من تفترون على الخلق كذباً، تدعون ظلاً لله في أرضه، وتُقوضون أنفسكم حُكماً باسمه على عباده..

عندما استلمتُ السُّلطة في السُّودان بانقلابٍ عسكري صبيحة الثلاثين من يونيو ١٩٨٩م، كنا نعيش في ظِلِّ وطنٍ ممدود، ونظام ديمقراطي برلماني محدود.. أياً كان ضعفه وقواه، ومهما بلغ من فجوره وتقواه، فقد ذهبنا إلى صناديق الاقتراع واختارناه طواعية بملء إرادتنا.. ليس لأننا نؤمن بأنه الحكم الأمثل لبلادنا فحسب، ولكن لأن واقع بلادنا نفسه يشهد بذلك. فنحن شعبٌ كثرت إثنياته حتى كاد أن يعجز الأنثروبولوجيون عن عدِّهم وحصرهم. ونحن قومٌ تعددت دياناتهم لدرجة احتار الثيوقراطيون في تعايُشها كما الحَمَلُ الوديع قُرب ذنبٍ لنيم. ونحن أناسٌ تباينت ثقافتهم، فصار الديمغرافيون يحسدوننا على ثرائها أكثر من شعوب تمنّتها ونصبت لها شركاً فعزّ تصيُّدها. من أجل هذا، كانت الديمقراطية غايتنا والحرية وسيلتنا، ذاك هو النظم المثالي الذي آمنا به وقلنا إنه من سيحفظ لنا حقوق هؤلاء وإن كُبرت، ويبيّن واجباتهم وإن صغرت. وقلنا إنه النظام الذي سينقلنا من ظلام التطرّف إلى نور الحضارة والانفتاح، وقلنا إنه النظام الذي سينهض بوطننا نحو آفاق التميّز والتقدّم والازدهار. وأخيراً قلنا إنه النظام الذي سيكفّل لنا مقعد صدق بين القبائل والشعوب والأمم!

(٢)

يا من تفترون على الخلق كذباً، تدعون ظلاً لله في أرضه، وتُقوضون أنفسكم حُكماً باسمه على عباده..

لم نكن يومذاك نشجّر في يوم سقيفة بني ساعدة طلباً لخلافةٍ بغير وسائلها وطُرُقها وآلياتها. فليس بيننا من هو في مقام علي بن أبي طالب فيزهدنا، وليس فينا من هو في قامة أبي بكر الصديق لتأتيه تجرجر أذيالها.. لم نكن عصرنّ نخيم فوق رؤوسنا موقعة جمل ولا حرب نهروان ولا مذبحه كربلاء ولا معركة صفين، حتى ينادي فينا منادٍ يدعونا لرفع المصاحف على أسنة الرماح. لم يكن عهدنّ ثمة فتنة كبرى ولا صغرى ولا يحزنون، لم يكن وقتنّ قد تمايزت صفوفنا بين أمويين وعبّاسيين، أو انقسمنا إلى سُنّة وشيعة، أو تقوّعنا بين مهاجرين

وأنصار.. على هُذي المواطنة الحقّة تواصينا، وكان المواطنون كأسنان المشط، لا فرق بين أحدهم وآخر إلا بقدر ما اتَّخذ الحرية ديناً والديمقراطية دُنياً. كنا نعبُد الله بيقين، وندافعُ بالمنابر نحو رحاب وطن عظيم، يرحم فيه كبيرنا صغيرنا، ويوقر فيه صغيرنا كبيرنا.. لم نكن في حاجة لأذقانٍ تشهد سلامة إسلامنا، ولا لغُرّة فوق جِباها تُؤكد سُمُو إيماننا.. كنا نُزكي في صمتٍ ونصوم بخشوع ونُصلي في قنوتٍ وندعو ربنا بلا قنوط! فيا أيها الناس، إن كان دينهم يدعو للفتنة، ويُفرِّق بين المرء وأخيه في دولة المواطنة، ويأمر بالمُنكر وينهي عن المعروف، فاشهدوا أني برئ من دينهم ومِمَّا يعبدون!

(٣)

يا من تفترون على الخلق كذباً، تدَّعون ظلاً لله في أرضه، وتُفَوِّضون أنفسكم حُكماً باسمه على عباده..

كُنّا إذا وقفنا اعتدلت قاماتنا كبرياء، وإذا جلسنا تواضعت أجسادنا بلا خيلاء.. هبطتم علينا كالجراد، ففغرنا أفواهنا دهشة، وطأطأنا رؤوسنا خجلاً.. كانت الديمقراطية أكبر همّاً ومبلغ علمنا، تمنيناها مُبرّاة من العيوب ولم نُقل إنها قرآن مُنزَّل أو إنجيل جديد.. ارتضيناها لأنها غدت سُنّة ماضية في حيوات البشر، يعزُّ الشعب بها من يشاء ويذلُّ من يشاء.. هي ذات الديمقراطية التي أخرجت شعوباً من ظلمات العصور الوسطى إلى رحاب الحضارة والتقدم والازدهار.. لكننا كنا في غفلة من أمرنا، أو كنا من البراءة بكان بحيث ظننا أن مسيئة قُبر مع الأولين مُتوسِّداً كذبه.. بل كنا من السذاجة حين اعتقدنا أن عبدالله بن أبي سلول لن يعود شاهراً نفاقه ودجله فوق محنتنا.. وكنا من اللامبالاة بدرجة لم نتخيّل فيها أن أكثر من بروتس كان يعيش بين ظهرانيها، وقد خبأوا خدجهم خلف ظهورهم ليوم كراهية وطغان جلس.. كنا كالحمقى الذين يبحثون عن ظلٍ في ليلة السكاكين الطويلة، ولم يكن ثَمّة ظل يومئذٍ سوى ظلّ الحقيقة.. فيا أيها الناس، إن كان دينهم يشيع التخلف ويحض على المؤامرة، ويحرِّض على الكذب، وينشر النفاق بين بني البشر، اشهدوا أني برئ من دينهم ومِمَّا يعبدون!

(٤)

يا من تفترون على الخلق كذباً، تدَّعون ظلاً لله في أرضه، وتُفَوِّضون أنفسكم حُكماً باسمه على عباده..

بعد أن نجحتم في الانقلاب المشنوم الذي دبرْتُموه باسم الدين بحيلٍ يعجز الحِوَاة عن فعلها، شرعتم باسم الله في تدنيس أرضٍ كانت عذراء قلوب ساكنيها، وباسم الله ولغتم في الفُجُور حتّى زلزلت الأرض زلزالها، وباسم الله سعيتم في فضاءات الوطن، فملاتموها ظلماً وجوراً وحروب، حتّى تصدّعت أركانها واشتعلت نيرانه.. قتلتُم شباباً يُفَعّا بِثَهمّة أصبحت بعددِ دينكم ودُنياكم وآخرتكم.. أزهقتم أرواح طلاب أبرياء كانوا يرومون علماً يستبينوا به سُبُل الحياة وينشدون

أخلاقاً تُعينهم على نوائب الدهر.. أهدرتم دماء من خالفكم الرأي والرؤى، وقطعتم أرزاق عباد الله الكاطمين الصبر والغیظ، كان ذاك يوم أن تلثم الصحابي مجذوب الخليفة وجعل المنبر مقصلة كما الحجّاج بن يوسف، وقال إني أرى رؤوساً قد أينعت في الخدمة المدنية والنظامية، فهبّ لموازرتة في الحملة الانتقامية تابعه الطيب محمد خير "سيخة"، فراحت بعدنّ جحافل المفصولين تجوب الأرض بحثاً عمّا يسدّ الزمق ويحفظ الكرامة. ولأنه لا فضيلة مع الجوع، فقد أكلت القوارير بأثداهن، واستطعم اللاجئين خشاش الأرض في معسكرات الدّل والهوان. فيا أيّها الناس، لو كان هذا دينهم الذي يقطع الأرزاق، ويقتل النفس التي حرّم الله، ويعلن الحرب على أناس شهدوا ببربوبيّة الخالق تبارك وتعالى، فاشهدوا أني برئ من دينهم وممّا يعبدون!

(٥)

يا من تفترون على الخلق كذباً، تدعون ظلاً لله في أرضه، وتُفوّضون أنفسكم حُكّاماً باسمه على عباده..

يا أيّها الكهنوتيّون الجُدّد، باسم الله والجهاد خُصّتم حرباً في جنوب البلاد ظللنا نريد منذ اندلاعها وحتى مقدمكم البنيس، أنها حرب ذات مظالم سياسية واقتصادية واجتماعية واضحة المعالم، ظلّ المُخلصون يثابرون في اجترار الخلول تلو الخلول، منها ما كان قاب قوسين أو أدنى، كما الحال في الاتفاقية التي درأت الحدود (قوانين سبتمبر) بالشبهات، فدبرتم من أجلها الانقلاب وأعلنتم الحرب الدينية على مواطنيكم وقسمتموهم بين فسطاطين، جنوب كافر وشمال مسلم.. طار التوصيف في الافاق واستقرّ الوصف في النفوس، فبهت من بهت، وفزع من فزع، وكفر من كفر.. ثم مضى حين من الدهر تطايرت النعوش كما يتطاير الفراش حول النار.. ألقمتم التكالى حجراً فتجمّد الدمع في المآقي، وشيعتم الوهم بين الناس بأساطير وأباطيل فتخثر الحزن في القلوب.. ثم انقلبتم على أعقابكم خاسرين بعد أن هتّ كُفاراً من وراء الحدود عصاهم، فاضطربت أحوالكم وتقطعت أوصالكم وأذعنتم وفلّتم سوف نجنح للسلم، فكان الثمن وطناً بأكمله قرباناً في مذابح الفداء.. ليس للدين الذي تتظاهرون بمناسكه، ولكن من أجل السلطة التي تتشبّثون بطوقسها.. فيا أيّها الناس، لو كان هذا دينهم الذي يُقيد الحريات ويكبح الأفواه، ويحرّف كلم الله، ويخدع عباد الله، ويفتري على خلق الله، فاشهدوا أني برئ من دينهم وممّا يعبدون!

(٦)

يا من تفترون على الخلق كذباً، تدعون ظلاً لله في أرضه، وتُفوّضون أنفسكم حُكّاماً باسمه على عباده..

باسم الله ودينه، الذي يحضّر على طعام المسكين، كنزتم الذهب والفضة والبترو، عبدتم الدولار والدينار والريال والدرهم، بنيتم للفساد بيوتاً تطاولت

طبقاً فوق طبق.. وركبتم دواباً تباينت أحداً مع أحد.. بينكم صال السارقون فغضبتكم
الطرف عن اختلاساتهم، وجال المرتشون فأصابكم وقر من أثر الخنوع.. أقمتم
الحدود على الضعفاء الذين لا يقوون على العيش بما يكفون، وتركتم الأقوياء
الذين يأكلون أموال الوطن بالباطل وما يدخرون.. باسم الله والإسلام صرنا
بفضلكم إرهابيون، ونحن الذين كنا حينما نذبح خراف الأضحية تنقطر عيوننا دماً
ودمماً.. أصبحنا بأفعالكم مشردين، ونحن الذين كانت تنقطر قلوبهم لوعة على
فراق وطنهم ولو لبضعة أيام مما تعدون، أصبحنا بجرانركم مجرمين ونصابين
ومشبوهم، ونحن الذين كنا نعتز بسمو أخلاقنا وجمال قيمنا وأصالة معدنا.. فيا
أيها الناس، لو كان هذا دينهم الذي يشجع على الباطل ويحيد عن الحق، يُزَيّن
الفساد ويحث على أكل أموال السحت، لو كان دينهم هذا الذي يرهّب ولا يطعم
من جوع، يرعب ولا يؤمن من خوف، فاشهدوا أنني برئ من دينهم ومما يعبدون!

(٧)

يا من تفترون على الخلق كذب، تدعون ظلاً لله في أرضه، وثقوضون
أنفسكم حكماً باسمه على عباده..

إنها لا تُعْمي الأبصار ولكن تُعْمي القلوب التي في الصدور.. هؤلاء يا الله
صنعوا أصناماً من المال والسلطة والجاه والفساد والاستبداد والذل والهوان وسوء
الأخلاق وعبدوها!

هؤلاء تاجروا بديننا ومأكلنا ومشربنا وصحتنا وتعليمنا وثرواتنا وعاداتنا
وتقاليدنا وراثتنا وماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وحياتنا وأحلامنا وأمالنا وطموحاتنا
وأمننا وسلامنا وأرزاقنا وثقافتنا واجتماعياتنا، وفوق كل ذلك، هؤلاء تاجروا بك
يا رب العالمين.. تباركت وتعاليت وتنزهت عما يزعمون! يا أيها الناس، اشهدوا
أنني برئ من أصنامهم التي يعبدون، ومن دينهم الذي يزعمون، وأمنت بربي
الذي لا يعرفون!!

آخر الكلام: لا بُد من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٣/٣/٥

في ذلك فليتناقص المفسدون!

ما زالت الوثائق تنهال علينا مثلما ينهال على رؤوسنا صقيع هذه البلاد، الذي تموت من جرّائه الحيتان، كما قال الأديب الراحل الطيّب صالح، طيّب الله ثراه. وفي هذا يطيب لنا أن نستعير مقاربة أخرى راسخة للزعيم الراحل إسماعيل الأزهرى، ونقول كلّما سالونا: من أين لكم هذه الوثائق؟! أجبتهم بوثيقة أخرى.. بين يدينا وثائق جديدة لمشروع قديم لم يَز سوى نور الورق ونار المفسدين.. أما نحن، فقد رأينا نشرها لأننا لا نستطيع معها صبراً حتى نلحقها بالطبعة الرابعة لكتابنا الموسوم بـ"الخدق.. دولة الفساد والاستبداد في السودان" والذي ضمّ بين دفتيه خزي وعار وشنار العُصبة ذوي البأس. ولم تستطع مواجهته سوى بمطاردة الكتاب حيثما حلّ، والتضييق على من يريد اقتنائه ما استطاعوا لذلك سبيلاً.

ومن قبل أن نبسّط هذه الوثائق بين يدي قُرّاء الصبر شيمتهم والعدل غُرَّتهم، حريّ بنا أن نستعرض بعض الملاحظات حول خطينة المُنقذين الكُبرى "لُجلي بها النظر يا صاح"، أو كما قال شاعرنا الراحل العظيم سيّد عبدالعزيز، بالرغم من أنه قصّد به وصفاً هو من السُّمو بمكان، حتى وإن تطابق عجز البيت مع فاسدٍ "طرفه نائم وصاحي"، وهُم كُثُر!

• أولاً: على عكس ما زعم البعض، ليس بالضرورة أن تكون الوثائق التي تتسرّب وتصل لغمار الناس ونحن منهم، هي جهد مُفسدين والغين في الفساد نفسه. فالوالغ هو من يتستر على صحبه وهو فيهم، ولا يكشف سرّهم حماية لذاته، وليس حباً في سواد عيونهم. وعوضاً عن الزعم المذكور، نحن نعتقد تواضعاً، أن فضح الأسرار غالباً ما يتأتى بإحدى الوسيلتين، إما وخز ضمير متأخر أو لتباين مصالح المفسدين أنفسهم. وبينما الأولى لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، فإن الثانية تظهر عندما تخضع للقاعدة الذهبية التي تقول: "إذا اختلف اللسان، ظهر المسروق"، وهي القاعدة التي أثبتت التجارب صحّتها بل وفاعليتها بمرور الزمن. وتعلمون يا سادتي كذلك أن المفسدين يتراصون كأسنان المشط في أقبية الفساد، بيد أن غرائز الحقد والكراهية والشحناء والبغضاء والكيد والحسد تبرز بينهم عندما يتفاضلون في الثراء، فينكشف حينئذ السارق ويظهر المسروق!

• **ثانياً:** المعروف أن العصابة الحاكمة في السودان سرقت السلطة بليل، وطبقاً لهذا المفهوم ليس غريباً على من فعلوا ذلك استحلال كل شيء حتى وإن تضاد مع الدين الذي يتبعون. ومن جهة ثانية فالمعروف أيضاً أن هرم الفساد كلما اتسعت قاعدته كانت وقائعه آيلة للكشف والفضح والتعرية، فما بالك في فساد أصحاب الأيادي المتوضئة والأفواه المتضمنضة، والذي صار له لسان وشفيتين وأصبح يُعبر عن نفسه دونما كثير اجتهاد!

• **ثالثاً:** بل يمكن القول إن فسادهم أصبح ديناً له سنن وفرائض، فيه امتزج الحلال بالحرام وتطابقت بينهما الأمور المتشابهات. وصارت له أسماء غير ما تعارف عليها بنو البشر منذ أن هبط أبوهم آدم إلى الأرض، وأضحت لفاسديه هويات لم تسمع بها أذن ولم تخطر على قلب كائن من الناس، وغدا بشيرهم ونذيرهم وهو الفاسد الأكبر، ومن بيده الثواب والعقاب. ثم وجدنا أنفسنا في يوم كيوم الحشر يستحيل العثور فيه على عفيف شريف طاهر اليدين من ملتهم، لدرجة بات فيها الغول والعنقاء والخل الوفي أيسر منالاً!

• **رابعاً:** نعم إن ما يميز فساد المنقذين أنه صار مرتبطاً بهوية دينية تدعيها عصبته، الأمر الذي أحدث تشويشاً رهيباً في نفوس وعقول الكثيرين، خصوصاً البسطاء الذين خُبلوا على دين الإسلام بالفطرة وتفاصرت امكانياتهم عن التفقه فيما يدعم معتقدهم ويوطد أركانه في سلوكياتهم. مثل هؤلاء رأوا العصابة ترتاد المساجد فشهدوا لها بالإيمان امتثالاً لقول رسولهم الكريم، وفي مناسبات آخر رأوا ذات العصابة وهي تعيثُ فساداً في الأرض ضجت منه السماء. فما الذي يمكن أن يتوقعه المرء من أناس بنوا مرنياتهم العقدية على خيالٍ محدود وفسادٍ ممدود؟!!

• **خامساً:** في خضم جدل كهذا لبّتنا كنا نعيش في دولة عصرية تعتمد على شفافية الاستبيانات والإحصاء وحديث الأرقام الذي لا يكذب، وذلك حتى نستطيع أن نتبين كم عدد الذين دخلوا الإسلام في ظل حكم العصابة ذوي البأس، وكم عدد الذين غادروا ساحته بعد أن رأوا تناقض أقوال الذين يدعون الحاكمية مع أفعالهم. فحينئذٍ ستسقط المزايدات بأمل أن يعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون!

• **سادساً:** على صعيد آخر، المفارقة أن ثمة فئة تحسبهم في مصاف المتعلمين ولا نقول المثقفين ولا المتفهمين، بعضهم غادر ساحة الحاكمين لأسباب يقولون عنها إنها أيولوجية وليست سلطوية كما هو معروف لنا. هؤلاء ما زالوا يكيلون بمكيالين إذ يغضون الطرف عن خطايا الحاكمين، في الوقت الذي يسارعون فيه إلى صقل سيوفهم وتطريق حناجرهم بدعوى أن أحد رعايا فسطاط الكفر أساء لدين الله. ونحن نسأل هؤلاء عمن هو المؤذي الحقيقي

للعقيدة؟ هل هو من أظهر غير ما أبطن وجعل الدين مطية لتحقيق أهداف دنية أم آخر لا يسوى عند الله جناح بعوضة كما يقولون؟

• **سابعاً:** في تواصل شنون وشجون الفساد دعونا نهبط للأرض قليلاً متلمسين آثاره السالبة على الناس. إذ لا تعرف البشرية في مسيرتها الدنيوية خطيئة لها آثارها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المدمرة مثلما فعل ويفعل الفساد. فأسوة بما تساءلنا به دينياً من قبل، ليت أهل السودان يتساءلون دنيوياً عن حالهم ووضعهم بين الشعوب والأمم لو أن ثروات بلادهم بكثرتها - كما وكيفاً - وُزعت بالعدل والقسطاس على الناس ولم تنهبها العصابة نهب من لا يخشى إفقار بلاده!

• **ثامناً:** في تقديرنا إن الفساد مثل الخمر ما أسكر كثيره فقليله حرام. والسكوت على الفساد يورث الخوف والحبس والخنوع والنفاق والمداينة. ومن عجب فإن بعض الناس درج على الاستخفاف بحجمه واستصغار شأنه، ولا يدري المرء أهو طعن في مصداقية من انبرى لتعريته صغر أو كبير أم هو تعمّد مد يد العون للمفسدين ليسدروا في غيهم؟!

• **تاسعاً:** من العصابة أناس يدعون الطهر والعفاف ويحاولون الظهور بمظهر البرىء، وهؤلاء تعرفهم من لحن القول وأدعاء الذل والمسكنة، في حين يعلم الناس أن العصابة جميعها على قلب رجل واحد وقد بزوا أبناء سيدنا يعقوب في التآمر. إذ عندما يتعلق الأمر بالفساد يدبرون عن الدين ويقبلون على الدنيا، بعضهم لبعض ظهيراً، لإدراكهم أن أي كبش فداء يمكن التضحية به يعني التضحية ببقية القطيع، لهذا عزّ على الناس رؤية أحد سدنتها وقد حوكم، لأنه سيجر من خلفه جيشاً عرمرماً في سياق كشف المستور، ولذا فالفساد هرمي في سلطة العصابة، أي بدءاً بالرئيس "الضرورة" القائل (إذا ما في مفسدين نجيبهم من وين؟) إلى سادن اللجنة الشعبية في المدن والقرى والضواحي!

• **عاشراً:** صحيح أن العصابة ذوي البأس تبيست جلودهم من أكل مال السحت، وصحيح أنهم ارتدوا ألقعة واقية ضد الحياء والخجل، وصحيح أنه أصابهم وقر فباتوا لا يسمعون، وصحيح أنه حلّ بهم عمي فصاروا لا يرون فسادهم، وصحيح أيضاً أنهم لا يباليون ولا يرفعون وهذا ما دأبوا عليه طيلة سنوات وجودهم في السلطة، ولكن ينبغي ألا يكون ذلك دافعاً للتقاعس أو مثيراً للإحباط، بل من المهم التذكير بأن توثيق الفساد هو واجب وطني ومسؤولية أخلاقية ليوم شره مستطير!

• **أحد عشر:** في سلطة الإنقاذ نجد أن الفساد قد اكتسب أشكالاً والواناً، فلم يتوقف الأمر على الفساد المالي وإنما تبعه الإداري والأخلاقي والاجتماعي

والثقافي والرياضي وهلمجرا. وفي خضم ذلك تراهم وقد ابتذلوا حتى الألقاب فلمزيد من التورية تطلق الألفاظ على عواهنها مثل الشيخ والأستاذ والمفكر والدكتور والعارف بالله وخادم القرآن... ألخ، فلا غرو عندئذ أن تشمل وثائقنا هذه اثنين ممن مُنحوا الصفة الأخيرة بكرم حاتمي وثالثهم باسط ذراعيه بالوصيد، مما أكتسب فسادهم هوية جديدة!

في المحور الثاني أو الجزء الأخير من هذا المقال دعونا نستجلي غموضاً اكتنف وثائق الفساد التي سنطرحها بين أيديكم بشروح في المتون واستظهار الحواشي، لتزيح ما قد يمكن أن يلتبس أمره على البعض في فساد أغطش ليلنا وكسف ضحائنا!

• أولاً: لمزيد من الإيضاح نأتي لقراءة خلفية هذه الوثائق، فالمعنيون فيها من العصابة هم قال عنهم المتنبّي (ألقاب مملكة في غير موضعها/كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد) أولهم (المفكر) أمين حسن عمر، ذلك الذي عُرف بنخنخة الكلام وعرجفة المقام وخيلاء الجسان. وثانيهما (المفكر) حسن مكي وقد قال عنه صديق لنا إنه جرى فيما لا يعلم، وآخرهم (المجاهد) حاج ماجد سوار الذي ترقى في مدارج عصبته ببطولة صفعه معلماً كاد أن يكون رسولاً!

• ثانياً: في الجانب الآخر من هذه العقود هناك شركة لن تجدها في أرض الواقع (ميدواي سنشري تكنولوجيا المحدودة) مثلما لن تجد مشروعاتها الإنشائية والبالغة وفق نصوص العقد ٩٥ مليون دولار وقد تطاولت أمام عينيك! وصاحب هذه الشركة من الجنوب اللبناني اسمه إسماعيل سراد، وجاء وفي معيته رهط من بني جلدته وآخر أمريكي الجنسية وثالث من رومانيا وبينهم سوداني لأسباب ستضح مراميها.

• ثالثاً: هذه الشركة وأصحابها اختفوا من الوجود.. لماذا؟ حدث هذا بعد أن (وقع الفأس في الرأس) إذ حدثني السيد يوسف (أ) وهو رجل أعمال ممن ينفرون من العصابة وأمثالها. قال لي إنه مدفوعاً بحسه الوطني جمع قرائن ووضعها أمام حاج ماجد سوار تؤكد أن مالك الشركة الذي جاء بقضه وقضيضه وكان يصرف صرف من لا يخشى الفقر، هو ببساطة عميل لجهاز الموساد الإسرائيلي، فبهت الوزير الهمام وعندما أدرك المذكور أن سره إنكشف أو في طريقه لذلك، غادر البلاد خلسة بما خف وزنه وغلا ثمنه، ولم يترك أثراً من ورائه سوى هذا الورق الذي نضعه بين أيديكم!

• رابعاً: وإن سألتكم كيف جاءت هذه الشركة؟ نقول لكم وفقاً لمصادرنا، جاء بها وزير الدفاع الأسبق الفريق إبراهيم سليمان بطموح واحد فقط وهو أن يُدرجوا

ابنه هيثم (بمثلاً سبق ودرّج ضباط آخرون العباس شقيق المشير) ولهذا تطالعون إسم ابن الفريق يتلألاً وسط حاملي أسهم الشركة الوهم!

• خامساً: وقع مع هذه الشركة (المفكر) أمين حسن عمر عندما كان وزير دولة في وزارة الثقافة والشباب والرياضة، ووفقاً للمصادر التي سربت لنا هذه الوثائق فإنه وصحبه خصص لهم ٢٠% وهي نسبة غير مرئية في العقد وتسميها العصابة بأسماء شتى ليست الرشوة واحدة منها على أية حال!

• سادساً: لأسباب نجهلها ظلّ المشروع يُداور مكانه لعامين حسومين، بالرغم من أن العقد ينص على التسليم بعد ستة شهور. خلالها، غادر (الأمين) كرسي الوزارة وخلفه آخر ذو اسم براق (حاج ماجد سوار) وفي العام ٢٠١٠ وقع ملحقاً يقضي بتوجيه بنك السوداني في تسريع فتح خطاب الضمان لتعجيل التنفيذ ويقضي بتسليم المشروعات التي تنوء بحملها الورق في نهاية نفس العام (من الأفضل قراءة التفاصيل في العقد) أما المفكر الآخر فقد وقع مع ذات الشركة عقد لمشروع وهمي أيضاً عبارة عن سكن لطلاب جامعة أفريقيا وقاعات محاضرات، وهي الجامعة التي ظل يرأس مجلس إدارتها حتى تهتك الكرسي الذي يجلس عليه، وقبل شهور قليلة أقيمت بواسطة مجلس الإدارة بأسباب لم يكشف عنها النقاب، ولكن تردد أنه متورط في قضية فساد أخرى مع إيرانيين من (الجمهورية الإسلامية) وتلك قصة أخرى!

• سابعاً: السؤال الذي يتوارد للذهن، كيف لعقد بهذه الضخامة في المال والمنشآت لا يمر عبر مجلس الوزراء الذي يفترض فيه أن يجيزه ويخصص له موارده المالية من الوزارة المعنية بذلك؟ وكيف لوزير دولة أن يوقع مثل هذا العقد الذي يفترض أن يكون من مسؤولية الوزير أو الوكيل التنفيذي؟

• ثامناً: العقد الذي يحتوي على سلسلة فنادق ومنشآت كثر خاص بـ (إنشاء وتطوير مدينة الشباب الرياضية/أرض المعسكرات) ولعلم القراء هذه غير المدينة الرياضية المتعارف عليها والتي زكم فسادها الأنوف هي الأخرى!

• تاسعاً: هب أن هذا العقد ليس فيه رائحة فساد، فالسؤال الذي يتوارد للذهن، هل يقع ضمن أولويات بلد يقبع ملايين من شعبها في معسكرات الذل والهوان في دارفور والحرب مستعرة، وملايين يعيشون على الكفاف في أطراف آخر وبينهم من يموت بأمراض الفقر، إن لم يقتلهم العطش أو المسغبة!

• عاشراً: ترى ما الذي حملة معه العميل الهارب من أسرار ذات صلة بالهجمات الإسرائيلية التي استباححت البلاد مثني وثلاث ورباع؟ وكم من عميل مثله يعيش في دولة المشروع الحضاري؟

هذا ما عنّ لنا من قراءة عَجَلَى لهذه الوثائق، أما أنتم يا سادتي، فطالعوها
بتأن وإمعان ربّما وجدّتكم أكثر ممّا ذهبنا إليه. فمن ما يُحمدُ لأصحاب الضمانر
اليقظة، أنهم سواءً في أزمنة الديمقراطية أو غياهب الديكتاتورية، يظل القلم الذي
يحملونه أشدّ مضاءً على المُفسدين من وقع الحسام المهندّ!

آخر الكلام: لا بدّ من الديمقراطية وإن طال السّفر!!
٢٠١٣/٣/٢٣

نظراً لكثرة الوثائق، فقد وضعناها في فيديو (يو- تيوب) وهو على الرابط التّالي، وإذا لم
يعمل يُرجى نسخه على المسطرة، وبالطبع يمكن استخدام التقنية لتكبير وتثبيت الوثيقة
لحين قراءتها على مهل..

<http://www.youtube.com/watch?v=٩٣PE٤PaMPRE&feature=youtu.be>

مَافَرْلين و"شَحْمَ الَّل" .. وبينهما طازج!

حَفَلت بعض وسائل الإعلام الأمريكية، ومنها صحيفة الواشنطن بوست، وقناة الـسي إن إن، ووكالة الـأسوشيتد برس، الأسبوع الماضي بخبر تُعده من العيار الثقيل، بدليل تدويره في بعض وسائل الإعلام العالمية. كان ذلك عن مداهمة ضباط من مكتب التحقيقات الفيدرالية الـ"أف بي آي" لمسكن السيد روبرت مافرلين، الكائن في بناية "ووترغيت" الشهيرة، في قلب العاصمة الأمريكية واشنطن دي سي. وذلك للبحث عن أدلة مادية تثبت ما توصلوا له قبلاً عن احتمال تورطه في "عملٍ مشبوه" - بحسب وصفهم، إنه ذي صلة بنظام الغصبة الحاكم في الخرطوم.

وبالفعل، أسفر البحث عن حُصولهم على ما عضد اتهامهم، ومن بين الأدلة، كان هناك عقدٌ موقَّع بين مافرلين والسلطات القطرية الرأعية للمفاوضات الدارفورية بمبلغ ١,٣ (مليون وثلاثمائة ألف دولار) وقعته الأخيرة نيابة عن الحكومة السودانية - من باب الترميم، في حين قيل إن الصفقة في حد ذاتها تنمُّ عمَّا اشتهرت به الغصبة من "غسل أموال" الباطل، إلى جانب أن مافرلين جاء بشيء أدا في القانون الأمريكي، وهو الاتصال بحكومة مُهمَّمة برعاية الإرهاب، وتلك جريرة - كما تعلمون - ظلت تتمتع بها الغصبة منذ أوائل تسعينيات القرن الماضي، ولم تستطع الفكاك من برائتها رغم أنها قدّمت "للسادة الأمريكيان" من آيات الولاء والطاعة في الخفاء، ما عجز الجرن عن تقديمه لسيدنا سليمان!

تناقلت كثير من وسائل الإعلام العالمية الخبر، وعلى إثر سريانه في الأسافير والمواقع الإلكترونية، اتصل بي العديد من الأصدقاء والزُملاء والقُرَّاء، بعضهم عبّر عن سعادته بحسب أن مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكي منح كتابي الأخير "الخدق.. أسرار دولة الفساد والاستبداد في السودان" مصداقيةً للوثائق التي ضمَّها بين دفتيه، كدليل على الفساد والاستبداد في دولة الغصبة، ومن بينها وثائق القصة المُشار إليها بحذافرها.

وبرغم سعادتي بالسبق الإعلامي، الذي تقاصرت عنه في حينها أو تباطأت دونه الأجهزة الأمنية الأمريكية بكلِّ ما أوتيت من إمكانات ضخمة لا تخفى على الناظرين، إلا أنني لم أذهب في ذات الاتجاه الذي ذهبوا إليه في التقريظ، ذلك

لأنني لم أضع مصداقيتي أصلاً في كفّ عفريت حتى تأتي الدّاف بي أيّ تمنحني صكاً في البراءة.. ذلك ما لم أنتظره منها أو من أية جهة أخرى، غير الذين ظلت أوجه لهم رسالتي، وتعاقدت معهم بشرط واحد غير مكتوب.. أن يتفاعلوا مع ما يقرأون، وأن أنفعل بما يشعرون!

واقع الأمر، لم يكن ما حدث مصدر مفاجأة لي، بدليل ما جاء في خاتمة الفصل الخاص بهذه القضية في الكتاب (ص ٢٦٨)، والذي صدر في يناير ٢٠١٢م، أي قبل أكثر من عام..

«مضى روبرت كابيللي في طريق العدالة الأمريكية التي لا يُظلم عندها أحد من رعاياها، ولا تنحاز لأحد بسبب وضعه الوظيفي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، فالكل سواسية أمام القانون وبحسب الدستور الذي وضعه «الآباء المؤسسون» Founding Fathers كما يُسمون في الثقافة الأمريكية. يبقى القول إن كانت قضية ماكفرلين قد خلقت ضجة حينما أطلت، ولم تمض لنهايتها المنطقية لأنها غابت فيها الدلائل والبراهين، وهو ما نجحنا في توفيره بتواضع، وقد أصبح مبدولاً للقراء الكرام ومن يرغب من أهل الشأن. تبعاً لهذا، يمكن القول بإمكانية وضع الموضوع في دائرة الضوء مجدداً، بإعادة فتح ملفاته المفخخة في الدوائر العدلية الأمريكية. وهو أمر إن حدث أو لم يحدث فلا نزن أنه سيعطينا كثيراً أو قليلاً. اللهم إلا إن رُسخت تداعياته على القضية السودانية. فما بالك يا عزيزي القارئ لو أن هذا التداعي نتجت عنه تسوية شكلية لقضية حيوية كقضية دارفور؟! حيث تصعب المقارنة من الناحية الأخلاقية. ففي هذه القضية دفع كثير من الأبرياء ضريبة قاسية، وصلت حدّ إزهاق الأرواح، علاوة عن النزوح الذي لم يتوقف يوماً، فضلاً عن حياة الذلّ والمهانة في المعسكرات، وما خفي كان أسوأ. من هذا المنطلق، ما الذي يمكن أن يتوقعه المرء لو أنّ المعنيين عمّدوا إلى فتح ملفات هذه القضية مجدداً، وفي ظهرها كل هذه الحمولة الإنسانية؟!»..

انتهى الاقتباس، ولعلّ القارئ يلتمس فيه إيماننا بحتمية وصول القضية لنهايتها المنطقية، طال الزمن أو قصر!

يجدرُ بنا القول إنه ليس ثابتاً لدينا ما إذا كان مكتب التحقيقات الفيدرالية قد اعتمد في مسألة تورط ماكفرلين وحيثياتها – ومنها العقد المبرم بينه والسلطات القطرية – على المنشور في الكتاب، أو أنه – أي مكتب التحقيقات الفيدرالية – وصلته ذات المعلومات من المصدر الذي سرّبها لنا (وهو بالمناسبة من جهازة العصابة ذوي البأس نفسها، كما سبق ووضّحنا في الكتاب)، أو أن المكتب توصّل

لها بطريق آخر غير الذي سلكناه. لكن الذي نعلمه، أن الكتاب وماذته أصبح أحد أدلة المحكمة الجنائية في لاهاي. وسواء بهذا أو ذاك فإن القضية اتخذت الآن مجرى آخر، والذين يتابعون مثل هذه القضايا يعلمون أن الحجر الذي ألقى في بركتها الأسنة، سوف تتسع دوائره وستنداح ولربما ابتلعت في جوفها أناس كثيرين، مرثيين وما هم خلف حجاب!

لا بد أن القراء الذين لم يتابعوا الموضوع من قبل، يتساءلون الآن عن من هو ماكفرلين؟! ولجيب بحسب ما جاء في الكتاب (ص ٢٥٣)، هو:

«أحد المستشارين البارزين للأمن القومي الأمريكي، حيث شغل هذا المنصب في العام ١٩٨٣ - ١٩٨٥ وله بصمات واضحة في السياسة الخارجية الأمريكية في إدارة الرئيس الأسبق رونالد ريغان، لكن اسمه ارتبط بقضية كبرى ظللتها فضيحة ملأت ريحها الآفاق، تلك هي فضيحة "إيران كونترا"، وقد أدين في عام ١٩٨٨ بثم تتعلّق بحجب معلومات عن الكونجرس، كذلك أدين بتورط القوات الأمريكية (المارينز) في دخولها لبنان عبر شواطئه، وما ترتب عن ذلك في تفجير السفارة الأمريكية في بيروت، والذي راح ضحيته ٦٣ أمريكياً، وتفجير مقر المارينز في بيروت أيضاً وراح ضحيته ٢٤١ أمريكياً. لكنه حصل لاحقاً على عفو من الرئيس جورج بوش، ثم عمل مستشاراً في العام ٢٠٠٨ للمرشح الرئاسي الجمهوري جون ماكين عن ولاية أريزونا. ولاحقاً أسس مجموعة استشارية باسمه»!

بهذه الخلفية والإرث الضخم في الخطايا، يأتي السؤال التالي، حول كيفية وصول ماكفرلين لقلب الغلبة السودانية الحاكمة في الخرطوم؟! جاء ذلك عبر أحد جلاوزة جهاز أمن واستخبارات صلاح قوش، وهو المدعو محمد حسن بابكر "شحم البل" وهو المشار إليه في عنوان المقال.. فوفقاً للمعلومات المنشورة في الكتاب (ص ١٥١):

«نحن لا نعرفه، كما أنه ليس بذات الشهرة التي يمكن القول أن الكثيرين يعرفونه. لأنه ببساطة، يعمل في الكواليس كرجل أمن، وبالتالي لا يعتقد أن من يعرفونه يتعدون دائرة أهله وأصدقائه وزملائه في العمل، أو من عرفه هنا وهناك. لكن هذا لا ينقص من أهميته في القضية التي نحن بصدها. فهو على العكس تماماً، يُعتبر شخصاً مهماً بين غصبته الأمنية كما أشرنا. سردنا سيرته الذاتية من واقع ما خطه شخصياً بيده، وإن كانت لا تخلو من مبالغة، رغم أن تلك شيمة من شيم أهل الأمن عموماً. ربما أوردنا بتلك الصورة لكي يُقتنع رئيسه بحسن سيرته ونقاء سريرته، والقاعدة تقول إن رجال الأمن الخدّامون في الأنظمة الشمولية، كذبة إلا من رحم ربي. ذلك بالطبع وفقاً للمنطق الذي يتسق مع

طبيعة النظام، حيث يُصبح الكذب مثل الملح في الطعام، لا تستقيم معه سيرة أو يتوافق معه حدث إلا إذا كان مُبْهَراً ببُهار الكذب، ومظلياً بغلاف الرِياء، ومتدنراً بلحاف النفاق!

خلاصة القول، أن "شحم البز" هو عَرَّاب القضية التي نحن بصددِها، ثم مضى الكتاب في تفصيل سيرته الذاتية ولا نريد أن نشغل بها القارئ، ولكن تكفي الإشارة فقط لما سألني عنه الكثيرون، وهو "شحم البز" ما إذا كان اسماً أو لقباً، والواقع أنني لا أعرف ما إذا كانت هذه أو تلك ولكن كلمة "البز" هي دارجة سودانية ومعناه الفصيح "الإبل"، أي أن التعبير يعني "شحم الإبل"، ووفقاً لما علمنا هو لقب الشيخ محمود ود زايد، زعيم قبيلة الضباينة، الذي عُرف بشجاعته وكرمه فيما عُرف بـ "قدح ود زايد"، وكذا مناهضته المهدية، والخليفة عبدالله التعايشي تحديداً. وتعيش القبيلة في أرض البضانة، وغير معروف لدينا إن كان للمُقدّم حُسن صلة بكل هذا، أم أنه نشأه في الألقاب، وهو على كلٍ ليس بذِي بالٍ في سياق ما نحن بصددِهِ، فصاحب اللقب الأصلي كريم في ما يفخر به الناس، أما الموصوف به فكريم فيما ينفر منه الناس!

لرجال الأمن دهاليز مظلمة، لهذا فبين الشاطر ماكفرلين والمشطور "شحم البز" ينطرح السؤال التالي، عَمَن هو الطازج الذي بينهما؟! فالطازج قد يكون القضية التي ذكرناها، ولكن اسمحو لي أن أضيف لها نكهةً يستطعمها القراء.. ففي بحثها الدؤوب عن الانفلات من المقصلة الأمريكية (على عكس ما دنا عذابها كما يقولون)، وفي سبيل إيمانهم بأن ٩٩% من أوراق الحلول بيد "السادة الأمريكيان كما أنشدوا"، توصلت العصابة التي يمثلها "شحم البز" للخيطة الذي يدلها على ماكفرلين. كان ذلك وسيطُ اسمه "البينو أبوج"، وهو أمريكي من أصول سودانية يومذاك، وجنوب سودانية بعد الانفصال الآن. ولالبينو هذا تفاصيل وردت في الكتاب نعجز عن اختصارها. المهم في الأمر، أن ماكفرلين نفسه شرع في الاتصال بشخصيات أمريكية متنفذة للعمل معه كقوى ضاغطة "توبي" لتحسين صورة النظام السوداني القذرة، منهم من كان يتولى مهاماً جساماً كـ "إسكوت غرايشين"، المبعوث الرئاسي السابق، وجيمس جونز، مستشار الأمن القومي السابق، كما حاول استمالة آخرين، منهم جون دانفورت وروبرت أوكليلي المبعوث الرئاسي الأسبق في الصومال وآخرين. وبالطبع، كان المال هو أداة التسهيل التي تذيب صلد الحديد. وفي هذا الشأن، هناك كثير من التفاصيل يمكن استقاؤها من الكتاب حتى لا نكرّر تدوير معلوماته!

ليس من باب الترويج للكتاب الذي نُعدُّ بالفعل طبيعته الرابعة - رغم أنف العصابة التي حظرت دخوله السودان. إذ أنه يحتوي على ما هو أنكى مع شخصيات أمريكية نافذة، مثل قصة القس جون دانفورت، وصفقة السكر الذي أصبح علقماً في حلقنا.. فدانفورت هو الذي عمّد الواقع الذي نحن فيه مُنفصلون

الآن.. واقع الأمر، سواءً هذه أو تلك، فالقضايا متّجهة نحو مزيدٍ من التعرية وتسلط الأضواء، ولو بعد حين. ولهذا ليس بعيداً أن تصبح إحدى قضايا الرأي العام بشيءٍ من الإثارة المعروفة في الأوساط السياسيّة والإعلاميّة الأمريكيّة، نظراً للموقع الذي كان يحتله روبرت ماكفرلين، والخطوط الحمراء التي عبرها، والتي تعتبر الدوائر الرسميّة أن فيها مساساً بالأمن القومي الأمريكي. ومن عجب، كان ماكفرلين أحد حُرّاسه بالأمس، وأصبح أحد مُهدّديه اليوم!

لعلّ الذين قرأوا الكتاب يعلمون أن أكثر من نصف فضائحه ووثائقه الدامغة هي عبارة عن قضايا جنائيّة متصلة بالمحيط الإقليمي والدولي، والقليل منها – وبخاصة قضايا الفساد – متصلٌ بموضوعاتٍ محلّية سودانيّة، وإن كانت الأخيرة قد دأب البعض على تناولها بطريقة “عفا الله عمّا سلف” وفق ما هو معروف في المنهج السلبي السّوداني، فإن الأولى ذات الأبعاد الخارجيّة ليست فيها دية أو كفارة. وبالأخص تلك القضايا المتصلة بالشئون الأمريكيّة، وما على القارئ المهتم سوى أن يصغي السمع لما هو قادمٌ، فقد تأتيه الأخبار بمن لم نزود!

آخر الكلام: لا بُدّ من الديمقراطيّة وإن طال السّفر!!

٢٠١٣/٤/٨

oboiikan.com

هذا هو "رئيسكم" الذي لا تعرفون (١)!

كلّما تأملتُ مصيبة هذا البلد، الذي تحكمه عُصبة حرّمت حلاله وأخلّت حرامه، أستعجب من هذه المِحنة التي تطاولت لما يَناهز رُبع قرن من الزّمن، بل ومن شدّة ما رُزنا بحرّائها وضرائها، يظن المرء أننا كل عام نردّل فيها أضعافاً مضاعفة. وعلى الرغم من أن عُصبة الجبهة الإسلاميّة لها من صفات الانحطاط الأخلاقي، ما يتقاصر دونه سوء الظن، وتتقازم معه أفعال قوم عاد وثمود وأصحاب الرّس، إلا أن دهشتي - أو بالأحرى محنتي - تزداد غوراً، وجُرحي يزدادُ لُسوراً كلما أدركتُ أن من يقف على رأس هذه العُصبة رئيساً غُطريساً، ليس فيه من خصال الرئاسة ما يؤهّله لحكم هذا البلد المغلوب على أمره.

مع ذلك، لن يجرمننا شأن تطابق خصاله وطبيعة النظام القائم في الحُكم عليه بالقسطاس. فكلنا يعلم أن مثل هؤلاء الذين يجدون أنفسهم بغتة في سُدّة الرئاسة تزداد فرصهم في ظلّ الأنظمة الشموليّة والديكتاتوريّة، في حين تتضاءل بل تكاد تنعدم في ظلّ الأنظمة الديمقراطيّة. وذلك نظراً للبيئة الحاضنة التي تولد فيها الأخيرة. فالانتخابات الحرّة النزيهية، هي التي يتولى فيها الأكفاء المهام الجسام، وهي التي تكفل للشعب التمتع بالحرّيات الممدودة، وهي التي تستظلّ بسلطة تشريعيّة قويّة، وتتعرّش بقضاء عادل، يتساوى فيه الناس كأسنان المشط. بيد أن السؤال القديم المتجدّد، الذي يطرح نفسه في الحالة المُربكة التي نحن إزاءها.. هل كان الرئيس "الضرورة" المشير عُمَر حَسَن أحمد البشير حاكماً للسُّودان بأكمله، أو حتى ما تبقى منه طيلة الفترة المذكورة؟!!

واقع الأمر هذا سؤال تقييري، ومع ذلك أودّ أن أستعير إجابته بوصفب سديد، أتحنّأ به كاتب أبق من عُصبتة.. فقد قال الدكتور عبدالوهاب الأفندي في سياق مقالٍ تحليلي نُشر مطلع هذا الشهر في المواقع الإسفيريّة السودانيّة الميثوثة في أرجاء الدنيا: «في حقيقة الأمر، فإن الرئيس البشير لم يقض ٢٣ سنة حاكماً للسُّودان، لأن الحُكم خلال العشريّة الأولى كان في أيّد أخرى، ولم ينفرد البشير بالسلطة إلا خلال الأربع أو الخمس سنوات الماضية. فقد كان البشير أمضى سنوات طويلة يمثل دور الرئيس بإتقان شديد، بينما لم يؤدّ مهمة الرئيس حقيقة بإتقان في أي وقت..»

بالطبع فإن كل من يقرأ هذا سيقول: صدق الأفندي، وكذبت الغصبة فيما يفترون. ولكن بالقدر نفسه سيقولون: وما الجديد في أمر يعرفه حتى الذين لم يبلغوا الحلم في البلد الصابر أهله؟! ذلك بالطبع أيضاً صحيح، ولكن أقول إن تفصيل وتوصيف الأفندي هذا جلبناه "لأمر في نفس يعقوب"، وقد وجد هوى في نفس كاتبه، بحيث بدا لنا إنه أعمق وقعا وأصدق واقعية!

بيد أنني أود أن أؤكد قبل الخوض في تفاصيل هذا المقال، أنه غير معني بالجدل الذي ثار فجأة حول "ترشيح" المشير البشير نفسه من عدمها في العام ٢٠١٥م، وذلك لعدة أسباب، منها أن كلمة "ترشيح"، إلى جانب أنها ليست من مصطلحات النظم الشمولية والديكتاتورية، فهي تؤكد ما دأبت عليه الغصبة في الاستخفاف بالعقل الجمعي لأهل السودان. فهم يتحدثون عن دورتين رئاسيتين وكان ما قبلهما من سنين سقطت في جيب النسيان. ويتحدثون عن دستور، والقائم رغم علاته، لا يتذكرونه إلا في الملمات. والواقع أن النظام وفق مرجعيته الانقلابية ظلت مسألة الشرعية الدستورية تُورَقهم، وقد حاولوا مرارا التحايل عليها بمنهج "الفهولة السياسية"، فزحوا في بواكيرهم ما أسموه بـ"نظام المؤتمرات الشعبية"، ثم ابتدعوا "الإجماع السكوتي"، وعندما كسد سوقهما، أخرجوا من جرابهم ما عُرف بـ"التوالي السياسي"، وحينما ذهب ريح كل هذه الطلاسم، عمدوا مباشرة إلى التزوير الفاضح في انتخابات "الخج". فضلا عن أن الجدل المُفتعل نفسه هو عبارة عن مسرحية قُصد بها صرف الأنظار عن القضايا الأساسية بسراء الوقت. وبناء على كل هذا، فإن كتب هذا المقال يوم إيمان العجائز بعدم شرعية هذا النظام، حتى لو لبثوا فينا ما لبث نوح في قومه!

نعود للرجل الكثير الذنوب وقد ناقض اسمه سيرته ابتداء.. ونود في هذا المقام أن نسلط الضوء على صفات تتناقض فيمن طمّح لقيادة أمة، وهم كان أم حقا.. كنت قد ذكرت في مقال سابق صفة ذميمة تُعد من أمّهات الكبائر، وقد التصقت بالمذكور التصاق الوشم بالجلد.. جاء ذلك في سؤال وجهته لضابط سابق في القوات المسلحة، وكان ممن أثق في مصداقيتهم وقد علمت أنهما ترافقا لعدة سنوات في كُتلة عسكرية واحدة.. سألته في بواكير الانقلاب الكارثي عن رأيه في المذكور؟! طفق محدثي يذكر صفات عدها حميدة، حتى يكون منصفاً كما قال.. غير أنه ختم شهادته بما لم يحل عقدة من لساني، وقال إنه عُرف عنه صفة سيئة واحدة، وهي "الكذب"، وللذين لا يُحسنون دارجية أهل السودان، نقول إنها تعني "الكذب".. واقع الأمر لم يطل انتصارنا حتى نتحقق من هول ما ذكر، فقد علمنا بعد حين أنه ذات اللقب الذي اشتهر به المذكور في أوساط ضباط القوات المسلحة السودانية أو "عرين الأبطال" كما تسمّى..

ولسبب لا أدريه، أذكر أنه عندما أوردت هذا الإقرار في المقال السابق، استنفر رخص من غصبتهم أنفسهم، وأمطروني بوابل من التكذيب.. المفارقة أن

“الدنيا ضيقة” عند السودانيين، كما تقول أمثالهم، وجاءت الأسافير بتقنياتها التي كادت أن تجعلها أشبه بسَمِّ الحَيَّاطِ. عندئذ انداحت الأقوال والأفعال من لدن “عُمَر الكضاب” بدرجة أذهلت كل مُرضعة عمّا أرضعت!

في يونيو من العام ٢٠٠٢م، أجرى الصحافي “الجمبازي” أحمد البلال الطيّب لقاءً تلفزيونياً ببرنامج “في الواجهة” مع المُشير بمناسبة مرور ١٣ سنة على الانقلاب العسكري، حكى فيه تفاصيل الدقائق الأخيرة التي سبقت ساعة الصفر.. قال إنه أراد التحرك من منزله في “حي كوبر” نحو القيادة العامة، وفجأة ظهرت سيارة في الشارع العام، فاعتقد أن أمره قد انكشف، وتكرّرت الدهشة بمتلاحماً عقدت لساني من قبل، حينما ختم المذكور روايته تلك مُعلقاً على الخوف أو القلق – سيّان – الذي اعتراه ساعتئذٍ، وقال: «لأنو طبعاً زي ما يقول المثل السوداني، الحرامي في رأسه ريشة».. ودونما اكتراث لحجارة السّجّل التي ألّقاها على رؤوس العباد، أُعيد بث هذا اللقاء بعد ثلاث سنوات (يونيو ٢٠٠٥) بمناسبة ذات الذكرى التعيسة. ولمزيد من التفاصيل، يمكن للقارئ أن ينظر (ص ٦٢) في كتابنا المُعنون بـ“سقوط الأقنعة.. سنوات الأمل والخيبة”!

تعلمون أن تلك من الكبائر التي نو جَرّت على لسان رئيس في حكومة محترمة، لزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت أثقالها. لن نذهب بعيداً، فالدولة التي تقف على رأس فسطاط الكُفر كما يقولون، حاكمت رئيسها على رؤوس الأشهاد وبشفافية لا تعرفها الشريعة “المدغمسة” التي يتباهى بها “السارق الأمين”، فالولايات المتحدة الأمريكية لم تحاكم رئيسها الأسبق بيل كلنتون حينما شاع خبر علاقته مع مونيكا لوينسكي، المتدربة اليفعة في البيت الأبيض. لم تحاكمه بتهمة “الشروع في الزنا”، وإنما بالكذب تحت القسم، كما تقول الثقافة لعدلية الأمريكية. وهبّ يا قارني الكريم أنهم حاكموه بالأولى، فما الذي ستقوله الخُصبة في ثُمة كالوا من حرامها ما أبغض الناس في حلالها. إذ لم يكتفوا بالمتنى والثلاث والرُباع، بل جاد بعض ممّن له فضلٌ ظهر على من لا ظهر له، فليس غريباً بعدئذ أن يسمع القوم بِمُسمّياتٍ للنكاح لم تُجر على لسان سلف ولا خطرت على قلب خلف!

اللقاء التلفزيوني المذكور جاء فيه ما هو أنكى وأمر. حكى فيه المُشير كذبة بقاء أخرى مصحوبة بتلك الضحكة العجفاء التي تعرفون، قال إن ذهنه تفتّق عن حيلة، إذ اتفق مع طبيب الوحدة العسكرية (اللواء الثامن – المُجلد – غرب السودان) أن يكتب له تقريراً طبياً يزعم فيه أنه مصابٌ بـ“مغص كلوي” حتى يتسنى له الغياب عن العمل.. تأنّط تقريره هذا ويَمّم وجهه شطر العاصمة الخرطوم لمعانقة مجدٍ بائس.. وهناك تمذّد الكذب بحسب وقائعه، إذ ذهب للقيادة العامة صبيحة خميس الانقلاب، وتعمّد أن يقول لكلّ من يستفسره عن سبب حضوره، إنه جاء لمتابعة إجراءات سفره للمشاركة في كورس بجمهورية مصر العربية. قد يقول

أصحاب مذهب "فقه الضرورة" إن ذلك من باب التمويه. ولكن هَبْ أن ذلك كذلك، فكيف لرأس دولة أن يبيت كذبه بالصوت والصورة ويتباهى به بعدن؟! إن مثل هذه الروايات لو جرت على لسان رئيس يحترم نفسه في دول "البغي والغدوان" لسقط من شاهق والتصق اسمه بخطيئة لا تُبلى!

غلب الطبع التصبُّع، كما يقولون.. فيعد نجاح الانقلاب، لم تكن بعدن في حاجة لمزيد من القصص.. تصدر "خُمر الكضاب" قائمة الناكرين، فلم يكتفِ بنفي ما ظلت تنفيه عُصيته حول علاقة الانقلاب بالجبهة الإسلامية، ولكنه زائد بمكابرة فجّة حتى صدّق كذبه.. منها ما حدث أثناء ما عُرف بـ "المُفاصلة" مع جناح الترابي، ففي مزائدة على الأخير، وهو عزابُ الانقلاب نفسه، ادّعى المشير أنه ليس عضواً في التنظيم وحسب، وإنما والده العارف بالله (حسن أحمد البشير) تتلمذ على يد حسن البنا وبايعه، وُضع اليَدَ باليد. ثم مضى بعد أن جاءت الرئاسة تجر جر خبيثتها يتحرى الكذب ويتبعه كظله كلما سعد منبراً وهنّ بعضاه على الكاضمين الغيظ والصبر. بل لم يجد ثمة مناص من أن يكذب بقسم "غموس" عندما خطب في جمع يوم ٢٩/٦/٢٠٠٦ بميدان الساحة الخضراء، وقال إنه لن يسمح بدخول أيّة قوات أجنبية طالما هو في سدة السلطنة. وأعطى وعداً لسامعيه بتأكيد أنه «يُفضّل أن يُقال عنه مجاهد وقائد للمقاومة، وليس رئيس دولة محتلة»، ومن قبل أن يتبحر حديثه في الهواء، لم يُفاجأ الذين يتابعون كذبه بوجود أكثر من أربعين ألف جندي أجنبي يسرحون ويمرحون في عرصات السودان، لم يكتفوا بوضع أحذيتهم الثقيلة على صدور شعبه، بل مثّوا لسانهم ساخرين من المُتوعد الهمام!

واقع الأمر، أنني لم أعجب بمزائده على عزاب الانقلاب، بقدر ما زاد عجبني في أن "أسد البرامكة" الذي قيل لنفسه أن يكون ديكورا لعقيد كامل من الزمن تحت إبطه، لم يجرؤ خلاله على أن يرفع صوته أو عينه على شيخه، كما كان يناديه في الصوالين المغلقة، بينما ظلّ يرقص طرباً في الهواء الطلق كلما ترنم فنان اسمه "قيّم" بأغنية: "النار ولعا وأنوطاً فوق جمراً"، ولمزيد من الدهشة كنت قد ذكرت في كتابنا "الخدق.. أسرار دولة الفساد والاستبداد" أن من دأب على الرقص كلما ضربت له الدُفوف، ضربت عليه الدلة والمسكنة أيضاً، فلم يثنق الترابي وجهاً لوجه أي لوحدهما في العشرية الأولى كلها سوى مرّة واحدة، كان ذلك بعد حدوث محاولة اغتيال الرئيس المصري السابق حسني مبارك في أديس أبابا في يونيو ١٩٩٥، فقد كانت كل المُقابلات السابقة في معيّة آخرين، بما فيها الأولى التي كانت قبيل الانقلاب بيوم أو يومين تقريباً. وبعد هذا، لا بُدّ أن البعض ممّن أفلقهم تنطع الرئيس الضرورة بنقائه الجرجي، تساءلوا بمثلما تساءلنا عن رئيس يرقص على أشلاء خبيثته وهو يعلم أنه ليس برئيس!

يعلم البعض أيضاً ما ذكرناه في مقالٍ سابق، كيف قتل الرئيس لضرورة فتاة يافعة عام ١٩٨٧م، أي قبل الانقلاب.. حدث ذلك أثناء حفل زواج في بلدة

“بفرة” التي تقع بين المجلد ولقاوة، والضحية إحدى فتيات قبيلة المسيرية. جاءت لتتعم ببعض الفرح والسرور وتُتمّي نفسها بفتى الأحلام القادم، فإذا بخلمها يُصبح في لون الدم وطعم الموت، حيث جاءتْها رصاصة طائشة من الرئيس الذي كان يرقص ببندقية كلاشنكوف، راح يتباهى بها فانطلقت منها رصاصة استقرت في صدر الفتاة. ضحيته، وبطريقة أهل السودان المعروفة في الحلول “الجودية” قال لنا قارئ كريم، أن زميل المذكور في القوات المسلحة ويمت بصلة قربي للضحية، وهو المُقَدِّم بندر البلولة حيدر تدخل للحلول دون أن تتصاعد القضية وتصل للقضاء. وقيل إن “الأجاويد” حلوا الأمر بفرض مبلغ من المال على سبيل “الدية” وقد قبل بها أهل الفتاة، ربّما كرمًا منهم أو لأن للفقر الذي طال معظم أهل السودان أحكامه. واقع الأمر، القصة نفسها ذكرها صديقنا العميد (م) السر أحمد سعيد في كتابه “السيف والطغاة” (ص ٢٥١) بذات التفاصيل والتي ختمها بقوله: «إن مثل ذلك التصرف الأخرق أقل ما يمكن أن يعاقب به صاحبه هو الإبعاد من الخدمة. لكن من سخریات الزمن ومن بدع العالم الثالث أن يظلّ ذلك العميد “الأسير” في الخدمة في صفوف القوات المسلحة، بل ويصبح قائداً عاماً وقائداً أعلى لها»، وقد يقول قائل أيضاً إن الرّجل لم يقصد. ونحن إن وافقناه، فماذا يقول في جندي لم يُحسن أبسط أنواع صنعته، وهي تصويب السلاح بدقة نحو هدفه؟!

حتى أكون منصفاً كما ذكرت، لا يعني ذلك أن الرئيس الضرورة لم ينطق صدقاً، فقد فعلها مرّة واحدة بحسب رصدي.. ذلك عندما خاطب ختام مداولات المجلس القومي للتخطيط الاستراتيجي حول الخطة الخمسية يوم ٢٠٠٧/٦/١٢، وقال: «يا جماعة نحن جينا لهذا الموقع عساكر وتعلمنا بعض الشيء من خلال وجودنا في مجلس الوزراء، وما يدور في لجان التنمية».. فحزنت لحال شعب يتيم تعلم الجهلاء الحلاقة في رأسه!

وإلى الحلقة القادمة التي نميط فيها اللثام عن المخبوء تحت اللسان والذي يمر خلف الجدران!

آخر الكلام: لا بد من الديمقراطية وإن طال السّفَر!!
٢٠١٣/٥/٤

obeikan.com

هذا هو "رئيسكم" الذي لا تعرفون (٢)!

كُنَّا قد أوردنا في الجزء الأول من هذا المقال، شذرات من صفات ذميمة انُصِف بها الرئيس الهمام المشير عُمر حسن أحمد البشير، وعلى رأسها جريرة الكذب أو "الكذب" كما نقول في عاميتنا. بيد أنني لن أستطيع معاداة هذه الصفة دون أن أورد سنام كذبه، لا سيما، وأنه كذب راح ضحيته فتى غرض الإهاب كان سابحا في أحلام الشباب اسمه مجدي محبوب محمد أحمد. حدث ذلك في بواكير الانقلاب الكارثة، عندما كانت الغصبة ذوي البأس تبحث عن ضحية أو كبش فداء، فوجدت في الشاب ضالتها، وحكمت عليه بالإعدام.. يومذاك، رفع رئيس القضاء جلال الدين علي لطفي الحكم الجائر للرئيس بُغية التصديق عليه، فمهره المذكور بتوقيعه دون أن يطرف له جفن. وما أن علمت به أم الشاب اليافع، حتى طفقت تبحث عن وسيلة لإنقاذ فلذة كبدها من حبل المقصلة. كان هناك من اقترح عليها الذهاب لمنزل من نُصِبَ رئيساً للبلاد، وهي لا تعلم، بل لا أحد يعلم غير مجاليه لقيه الذي كانوا به يتهايمسون.. توسلت إليه أن ينقذ ابنها من موت بات مُحدقا، واقسمت له أنه ليس "تاجر غُلمة" كما وصموه، وأن الأموال التي وجدوها في خزانة الأسرة تركها زوجها بعد موته، ولم تمتد لها يد أنس ولا جان منذ نحو ثلاث سنوات. عندئذ قال لها المذكور ما اجتهدنا في توثيقه نصاً: «أطمئني يا حاجة، ما يحصل لي شيء، الموضوع ده نحن عايزين نخوف بيه الناس ساكت، طبعا إنت عارفه الأوضاع كانت كيف، ونحن جينا عشان نصليحها. أطمئني، ما في زول بقتلوه في حقه»..

بهذه الكلمات التامات غادرت الأم المُلتاعة، وقد اطمأنت بالفعل، وقالت إنها نامت ليلتها تلك كما لم تنم من قبل. وبالطبع لم تكن تعلم أن ابنها كان قد غرق في النوم أيضاً.. ولكنه نائمٌ أبدي.. ففي حوالي الساعة الرابعة صباحاً استيقظت على ما ظنته أضغاث أحلام، ولم يكن ذلك سوى أصوات ثواكل الدار وقد أحطن بجثمان الفتى الغرير مسجى بالدموع!

لندع الكذب وشنونه ونمسك صفة ذميمة أخرى بشجونها.. تلك هي العنصرية البغيضة، ورائدها في عُصيته ذات الرئيس الغطريس. وليكن مدخلنا لهذا الصفة الكريهة ما حدث منتصف شهر أبريل الماضي، أثناء زيارته لدولة

جنوب السودان.. سُئل في مؤتمر صحفي عن وصفه السابق للحركة الشعبية بـ"الحشرة الشعبية"، فقال مضطرباً بعد أن فاجأه السؤال فيما يبدو، إنه بالفعل عنى بها الموصوف وليس شعب جنوب السودان.. كانت تلك - باستعارة وصفه - إجابة "مدغمة"، أورثتني رثاءً لحال من تنطع وأفتخر بما يفتقده، والمفارقة هو نفسه من تلقى ما سُمِّي "بيعة الفداء والموت" من القوات النظامية يوم ٢٠٠٩/٣/١٥ بميدان الساحة الخضراء بالخرطوم!

كان واضحاً أنه عندما تعرّت مصداقيته في المؤتمر الصحفي المذكور، نقض غزله بفمه وظنّ أن إجابته درأت عنه شبهة الحرج الذي حاصره، لكن السؤال الذي طرّق آذان الحاضرين آنذاك.. هل الحركة الموصومة بالتحقير هي حركة تحرير الأوغادين، أم الحركة الشعبية لتحرير إريتريا؟! فضلاً عن أنه لم يكن يعلم أن الموضوع ليس "الحشرة الشعبية"، ولكن في قوله المصاحب آنذاك، والذي جبّ به أية عنصرية منذ أن نطق بها أبو الطيب المتنبّي مجسّدة في بيت شعره القميء «لا تشترى العبد إلا والعصا معه *** إن العبيد لأنجاس مناكيد».. كان المشير البشير يومئذٍ قد استعاره وقال لسامعيه وهو يحكي انتفاخاً صولة الأسد: «نعمل ليهم شنو.. إذا ما بجوا إلا بالعصاية؟!». قالها وهو يُلّوح بذات العصا التي ظلّ يهش بها على شعبه كلما ما اعتلى منبراً وضربت له الدفوف!

دعونا نُبحر قليلاً في باب العنصرية التي حمل لواءها الرئيس الضرورة. قبل أعوام خلت نطق الدكتور الترابي بواقعة اقشعر لها بدن السامعين. جاء ذلك تورية في ثنايا سرده رواية عن الرئيس ورأيه في جرائم الاغتصاب التي حدثت في دارفور، فربطها المشير بنقاء عرقي متوهم. وهي الرواية التي سنمسك عن ذكرها لأن عباراتها تخذش الحياء ويعف القلم واللسان عن ترديدتها. ولكن إن قال البعض إن تلك الرواية مجروحة لأن بينه والترابي ما صنع الحداد بعد المفاصلة. نقول ثمة رواية مماثلة أكثر اتساقاً وأصلب عوداً. تلك قد حدثني بها صديق مصداقيته غير قابلة للشك.. حدثت أثناء عمله في شركة خليجية بينها معاملات تجارية واستثمارية مع شقيق المشير (اللواء طبيب عبدالله حسن أحمد) والذي دعاهم لزيارة الخرطوم، فحضروا وفي معيتهم صديقنا الصدوق.. استقبلهم الشقيق عند باب الطائرة بمراسيم رئاسية أطلقت فيه الدراجات النارية صافراتها وأنوارها التي تزعّل العيون وتسّر الناظرين!

في اليوم التالي، أولهم الشقيق عشاءً رئاسياً، أي كان في صندارته الرئيس والسيدة حرّمه (الثانية) كمكرمة لا ثناء بعدها.. في أثناء تجاذبهم أطراف الحديث، بدأ الرئيس يتخفف من أعباء الرئاسة، فسردّ على مسامع الحضور قصة ربّما توهم أنها ستورثه تواضعاً عُرف به أهل السودان، فقال: «كنا في زيارة للمملكة العربية السعودية لتأدية العمرة، رافقنا فيها مطوّف عشان يدلنا على المزارات الإسلامية، ولما وصلنا لقبر، قال عنه إنه قبر سيدنا العباس، حينها نظرت للأخ

بكري، وبكري ده بالمناسبة يا جماعة وزير معانا، فأريته يضحك ضحكة مكتومة، لأنو بصراحة عارف الحكاية.. والحكاية إنه لقي فرصته فيني، فأنا دائماً بقول ليه العباس ده جدنا، وكنت عايز أقول للمطوف السعودي نفس الكلام، لكن قلت يا ولد أنت رئيس جمهورية يقوم السعودي يقول "العبد" ده متصلبط ساكت فينا.. وللذين لا يحسنون دارجية أهل السودان أيضاً، نقول إن "المتصلبط" هو الذي يدعي ما ليس حقه.. عندنئ تمنى صديقي أن تنشق الأرض وتبتلعه، وهو نفس شعوري الآن ولربما شعور القراء الكرام أيضاً!

قلنا إن هذا رجل كثير الذنوب، وكان الأجدر بي أن أقول "كثير الثقوب".. ما أعنيه هو الذي أقر به كل علماء النفس من لذن سيغ蒙德 فرويد وحتى صديقنا البروفيسور طه أمير طه، إذ حصروا مهمتهم في دراسة تحليل النفس البشرية على قاعدة "ضرورة كشف الرغبات المكبوتة وإعادتها لدائرة الشعور لكي يواجه المريض الصراع الذي فشل في حله سابقاً".. بهذا المفهوم، كلنا مرضى والحمد لله، لكن ما نحن بصده هو ما حدا بي أن أنبش ماضٍ لنيم، لا سيّما، ونحن في البلد الصابر أهله لا نعبأ بذلك كثيراً، ولا نخضع الأشياء لتحليل علمي يجنبنا مغبة وعناء السفر في خضم قضايا نجني جُصرِمْها بعد أن نتال من أجسادنا وأروحنا وعقولنا، وحينها لات ساعة مندم!

بهذا المنظور، وفتت كحمار الشيخ في العقبة لا ألوي على فهم، كان ذلك أثناء قراءتي قصة عفوية جاءت على لسان الحاجة هدية محمد زين، والدلة الرئيس ('الأهرام اليوم' ٢٠١٣/٣/٢٧)، قالت إن المذكور مارس في طفولته شقاوة لم تستطع كبح جماحها، لدرجة كاد أن يفتك بها ذات يوم: «عَمرَ كان طبعو كويس، لكن مرة دقيقتو دقة شديدة عشان نزل البحر وهو طفل والدنيا كانت دميرة، وقلت لي أمي: يمة ولدي بغرق أنا ماشة الحقو، وضّالى جبّتو وكان عنديو "قنقر" معانا، وقال لي: يمة قنقرى وينو؟ ما اشتغلنا بيهو وشلنا القهوة من أمي.. قام مسك يدي وقال لي تاني: يمة قنقرى وينو؟ شلنا القهوة باليد الثانية وبرضو ما رديت عليه.. قام مسك يدي الثانية والقهوة اتكشحت.. بعد داك دفرّتو جوة الأوضة، أنا اضرب فيهو وأمي تضرب فيهو، أمي كانت ماسكاها، قلنا ليها: يمة ما تفكيو لو اتفگا بيعمل فينا مصيبة.. أمي فكتو، شال الحديدية أم رأسين البكسرو بيها السكر زمان وضربني في عضم الشيطان، وغاب سبعة يوم فى بيت جدو، إلا بعد داك خجل واعتذر»..

لايّد وأن كلّ من قرأ هذا الحديث - مثلي - قد زالت دهشته فيما نحن فيه خائضون.. فالقتل الجماعي والفردى يُصبح مبرراً، وأحاديث الإغتصاب والعنصرية لها ما يسندها، والفساد يشتى ضرّوبه لديه مرجعية. ولا يملك المرء سوى أن يقول لمثل هذا تضع الدول "الكافرة" القائل في دائرة الضوء، تشرحاً وتحليلاً وتطبيباً!

بعد الانقلاب الكارثة، وفي سياق تسويق الدكتور حسن عبدالله الثرابي نفسه ونظامه بنشوة الطواويس التي يجيدها ويدمنها، زار الشيخ العاصمة البريطانية لندن في بداية حقبة تسعينات القرن الماضي.. ضمن هذه الزيارة، رتب الحواريون له لقاءً خاصاً مع مجموعة من كوادِر حركات الإسلام السياسي (تسرّب اللقاء مُصَوِّراً وشاهده عددٌ قليل من الناس، إن لم تخني الذاكرة، فقد كان الدكتور عبدالوهاب الأفندي بينهم، أو بالأحرى أحد منظميه).. جرى فيه حواراً صريحاً، وكانوا هم منتشون أيضاً بولادة دولة الخلافة الإسلامية في السودان.. سأل أحدهم الشيخ سؤالاً معلولاً بشيء من الفذلّة التي تدّعي معرفة الواقع السوداني: «يا شيخ حسن أنتم أنتم بحكومة الإنقاذ الوطني، ألا تخشوا من مصير السيد عبدالله خليل الذي جاء بالفريق إبراهيم عبود فنكص عن وعده له.. وكذلك الشيوعي عبدالخالق محجوب الذي جاء بجعفر نميري فغدر به؟!».. عندئذ اعتدل الثرابي في جلسته وأرسل ابتسامته المعهودة، وقال بصلف وغرور لا يُستغرب: «صحيح يا أخي الكريم، ولكننا أكثر ذكاءً من عبدالله خليل وعبدالخالق محجوب.. أمّا عمر البشير فهو أقل ذكاءً من إبراهيم عبود وجعفر نميري!» لا أدري هل بُهِتَ الذي سَمِعَ، أم كَفَرَ الذي نطق!

حريّ بنا القول إن محاولة تتبّع الصورة الذهنيّة والنفسية للرئيس المُشير، استلزمت منا تقصياً وِعراً بمقاربة قد تعين في سبر غور شخصيته بالمفهوم الفرويدي.. في هذا الإطار، علمتُ من مقرّبين، بعضهم بالأصالة وآخرين بالتزلف، أنه يُحبُّ ثلاث ويكره ثلاث.. فهو يكره القراءة والتقارير المُطوّلة والاجتماعات، ويحب تلبية نداء شهوتي البطن والفرج، وسماع المُلح والضرائف. فمن أجل هذه وتلك، قد يجتهد كثيرون في فك طلاسم حيرتهم. وبناءً على هذا، لا بُدّ أن بعضاً منا استوقف نفسه في العقد النضيد من المحيطين به، ويحسبون في عداد الأصدقاء المُقرّبين.. عبدالرحيم محمّد حسين، بكري حسن صالح، أسامة عبدالله، مصطفى عثمان إسماعيل، ومحجوب فضل بدري. وإن كان الناس يعرفون سيرة هذه الثلّة بعللها المعروفة، فلا بُدّ أنهم تساءلوا عن الأخير وهويته!

محجوب فضل بدري كاننّ متسلّق رقى نفسه بنفسه في بلاط الغصبة ودهاليزها. كان جندي في صفوف "سلاح الإشارة" برتبة جاوِش، وعند تنفيذ الانقلاب تولى تشغيل الإذاعة السودانية ضمن آخرين، وبعد أن قضى وطره واستطاب المقام ركل الجندية، وتمرحل في الوظائف المدنيّة، إلى أن استقرّ به الحال كسكرتير صحافي للرئيس الضرورة.. كيف حدث هذا؟! المحجوب يتمتع بعيني صقر تمرّس في اختيار فريسته والانقضاض عليها.. دخل أولاً على الرئيس الضرورة بمعدته، حيث تزلف للسيدة حرمة الأولى فاطمة خالد وسماها "أم الفتراء"، وحيث لا دهشة في بلاط الغصبة أصبح اللقب الآن "منظمة خيريّة" كاملة الدسم، تقدّم خدماتها للمؤلفة قلوبهم والغارمين وأبناء السبيل.. ثم عكف على تدبيج مقالات تتأفق الرئيس بتأكيد أنه سليل الدوحة النبويّة.. أما الوظيفة غير

المرئيّة للمحجوب من العين، فإن له قدراتٍ في فن الإضحك وذِرَ الطرائف والملح، وهذا ما يُحبّه ويهواه الرئيس "الضرورة" أسوة بخلفاء الدولة الأمويّة والعبّاسيّة. بهذه الصفة تخصّص "أبو نواس" السوداني في نشر البهجة والمسرّة على المذكور حتى لا تنكده أخبار الحروب وضنك عيش مواطنيه.. فضلاً عن أن المحجوب عُرف بمهارته في نقل أخبار العُصبة ممّن يُحبّون التثليث والتربيع في النكاح، والمُولعون بممارسة أبغض الحلال، وغير المُلّومين ممّن ينشرن جناح الدّلّ من الرّحمة على ما ملكت أيّمانهم، ووطء "السراري" في الدهاليز المظلمة والبيوت الشواهِق!

صفوة القول، إن كل العُصبة فيما يفترون سواء.. وسواء مارس المشير دور الكومبارس أو أتقن دور الممثل المفترض، وسواء استبقى نفسه في القصر أو فارقه فراق واميّ، وسواء ادّعى الرّشاد وزهد أو تمادى في غيّه وسدّر، وسواء طال الزمن أو قصر، فسيذهب وعُصبته حتماً إلى مزبلة التاريخ.. سنُشيعه دموع الفقراء وآلام المحرومين وآهات الثواكل المكومات ممّن فقدن أزواجهنّ وأولادهنّ وبناتهنّ، وستطارده ويلات الذين قطعت أرزاقهم، وستُسبّه لعنات الذين تشرّدوا داخل وطنهم، وتشتتوا في معسكرات الدّلّ والهوان والمنافي والمهاجر وديار الاغتراب!

أما الزّرع الذي جفّ، والضّرع الذي تبيّس، والوطن الذي تقهقر، فذلك حسابه من جنس ما تعرفون... أليس كذلك أيّها الشعب الكريم؟!

آخر الكلام: لا بُدّ من الدِّيمقراطيّة وإن طال السّفَر!!
٢٠١٣/٥/١١

obeikan.com

كيف قتل مصطفى عثمان شهيد "أم دوم"؟!

على الرغم من أنه ليس في الأمر عجب، أو ثمة ما يثير الدهشة، لكن هل لاحظت يا عزيزي القارئ تزايد الهجوم على نهب المال العام، خصوصاً ثروات البلاد - ما ظهر منها وما بطن - وبصورة يكاد يراها حتى من فقدوا نعمة البصر؟! أقول، ليس في الأمر عجب، لأن هذا دأبهم منذ أن اغتصبوا السلطة بالانقلاب العسكري/العقائدي في العام ١٩٨٩م، وكانوا أشبه بالنتار الذين أحالوا نعيم بغداد إلى جحيم. ولكن طالما أن تلك هويّتهم وهوايتهم معاً، ترى لماذا ازداد وطيس النهب في الآون الأخيرة وطفح كيله؟! في تقديري أن الظاهرة ترجع لعدة أسباب، سنُفصّل عن ثلاثة منها:

• أولاً: المعروف أن الأنظمة الشمولية والديكتاتورية مهما طالت سلامتها، فإنها تشيخ وتهرم بنفس درجات صعودها. وعندما يحيط بها العجز من كلّ حذب وصوب، يُصبح الإمساك بمفاصل الدولة أمراً بالغ الصُّعوبة، إن لم يكن مستحيلاً. ولأنها تعتمد على آليات التخويف والترهيب والترغيب، فهذه الوسائل لا تضمن ولاء ولا تدرأ بلاءً. فضلاً عن أنها ذات سقف محدود، ومهما بولغ في ممارستها فإنها حتماً سترتد إلى نحر صانعيها.. هكذا قالت دروس التاريخ التي لا تُحصى ولا تُعد، أما قولنا نحن فيؤكد أن العُصبة تعيش أسوأ حالاتها، وأن دُنُوّ أجلها قاب قوسين أو أدنى، وذلك ليس تمنياً ولا تنظراً ولا رجماً بالغيب. بل هي معلومات توافرت لنا ووثائق ما زالت تترى علينا حتى ظننا أننا نجالسهم في دواوينهم الخاصة أو مكاتبهم العامة. فهؤلاء قوم مكشوفي الحال، حتى وإن تدثروا بالأمن وترمّوا بالقوّة. وما على الذين تساورهم الشكوك، سوى مضغ الصبر قليلاً، فسيروا بعد حين "نمر الورق" على آلة حذاء محمول!

• ثانياً: في ذات السياق، ليس غريباً على من شعر بدنو أجله أن يضاعف من نهب ثروات البلاد. ذلك ما يسميه السودانيون في ثقافتهم العممة بـ (خَمّ الرماد) في إشارة للنهل من المحرمات قبل الدخول في شباك المحظورات. فنظام العُصبة يعيش انهياراً داخلياً متفاقماً حتى وإن تجمل سدنته!

• ثالثاً: كلنا يعلم الظروف الاقتصادية التي نتجت عن انفصال جنوب السودان. وهو الانفصال الذي استسهلته العُصبة بخلطها "حسابات الحقل والبيدر"،

الأمر الذي ذهب جزأه ما نسبته ٨٥% من صادرات البترول، كانت الميزانية تعتمد عليها منذ تصديره في العام ١٩٩٩، وتبعاً لذلك أهملوا القطاعات الإنتاجية، وعلى رأسها الزراعة، بل أحالوها لصعيد جزراً. ومع ذلك، ما يزال الطييون في بلادي يتساءلون عن ٧٠ مليار دولار (بحساباتهم الرسمية) عبارة عن عائدات البترول لعقد من الزمن، لم يروا منها حتى "الزفت"، وإن مائل هوية دمغت حياتهم!

الاجابة ببساطة، أن العائدات قد ذهبت لسبيلين: الأول، تم تخصيص ٧٠% من الميزانية للأمن والدفاع نتيجة عوامل الخوف والرعب والهلع الدائمة التي ظلوا يعيشون لجحها وهواجسها. بالرغم من أن الجيش المفتري عليه، أو المفتري على شعبه، تم تسخيره لحروب داخلية ولم يحارب عدواً أجنبياً خارج حدود الدولة السننية منذ تأسيسه. أما السيل الثاني، فلم يكن في حاجة لإثبات، فقد شاهد الناس الجيوب التي انتفخت، والأوداج التي تورمت، والبطنون التي تكوّرت. وفي دولة المشروع الحضاري، شاع الحرام باعتباره حلالاً، وتفشى الفساد بحسبه شطارة، وتخلخل النسيج الاجتماعي بعد أن سادت الشحنة والبغضاء والكراهية، واستشرى النفاق، وانتشر الحسد، وتدهورت الأخلاق، وتضعضت المبادئ وأنزوت قيم توارثها الناس كابراً عن كابر!

ما أكثر الخطايا التي روجت لها العُصبة بفقهِ التقيّة. وما أكثر الأخطاء التي ارتكبوها بفقهِ المصلحة. ولأن المال هاجسهم والجشع غايتهم، فقد شرعوا في بيع كل شيء دون أدنى اعتبار لأي شيء. فالعُصبة لا تعرف قيمة الأرض وإن تشدقت بالأهازيج الدينية والأغاني الوطنية، ولننظر لما آل إليه حال مثلث حلايب تحت ستار الصفقات السريّة.. أو الفسقة، حيث تدور حرب صامتة بين الأهالي والقوّات الأثيوبية.. أو تشاد التي صارت تسرح وتمرح في الأراضي السودانية كلما أرادت التنزّه لاصطياد معارضيتها..

يشعر المرء أحياناً كأنما يشاهد السودانيون فيلماً من أفلام الرعب. بين غمضة عين وانتباهتها، علموا أن "مشروع الجزيرة" الذي يُعدّ من أخصب المناطق الزراعية في العالم، ويمّاز بخصائص وخواص فريدة، أصبح هشياً تذروه الرياح، وأن البلد الذي كان لديه أسطول جوي بشعار "سفريات الشمس المشرقة" غرّب مجدها، وصارت مثل كرة "بنج بونج" تتقاذفها أيدي الفاسدين. ومثلها غرقت هيئة النقل البحري في لُج عميق، وتبعتها هيئة النقل النهري، والسكة حديد، وبالأمر طُرح مصنع سكر سنار في المزاد. ولكن هل يندهش المسلمون إذ علموا أن من ادّعوا التفويض الإلهي خصصوا حتى كتاب الله (القرآن الكريم) والباب مُشرّع والشواهد قائمة لمن أراد التحقق!

ولكن كيف قُتل مصطفى عثمان شهيد "أم دوم"؟! أو بعبارة أخرى، كيف قُتل الرجل الأملس الأمرد الكثير التدليس، ذلك الشاب الذي لم يبلغ العشرين ربيعاً

حتى يحقق بعض أماله وأحلامه في الحياة، سيّما، وهو الابن الوحيد بين حفنة من البنات؟!!

تحت مظلة البيع الشامل تلك، بزغ نجم مصطفى عثمان، أو "الطفل المعجزة"، ولا يحسب أحد من القراء أنني أسخر منه أو أسبغ عليه لقباً يستهجنه. الواقع أن ذلك هو عين ما تكرم به عليه المدعو كمال حسن بخيت، أو الصحافي المكتنز وربما وسحتاً ونفاقاً، ذكر ذلك في الصحيفة التي يترأس هيئة تحريرها غصبا، ومن فرط جهله ظنّ أنه يمدحه.. ويبدو لي - والله أعلم - أن الموصوف نفسه أسعده الوصف، أو أنه حسّب نفسه كذلك.. جاء هذا في أعقاب معركة "الإخوة الأعداء"، ولعلّ البعض يذكر كيف سخر انتهازيته تلك في السعي بين فسطاطي القصر والمنشئة، بحثا عن سدر مخضود، وطلح منضود، وظلّ ممدود للسلطة وصولجانها!

يجدرُ بي أن أمهد الإجابة على السؤال المطروح، باقتباس من مقال مُحكم الصياغة حول ذات الموضوع، نُشرَ على صفحات هذا الموقع للصديق الزميل صلاح شعيب: «أما على صعيد السمسرة الدولية في الأراضي، فسيُسجل تاريخ الصراع حول الأرض أن الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل مسئولٌ بشكل مباشر عن إهدار أراضي السودان عبر عقود طويلة المدى، ومُجحفة في حق المواطنين، وأصحاب الأرض. فهذا الوزير ظلّ يقضي ليلاليه في أجنحة الفنادق العالمية ليسمير باسم حكومته في أراضي المقموعين من الناس، وتلك الأراضي الشاسعة التي صارت مستعمرات للاستثماريين الطفيليين من العرب والأجانب دون ضابط. ولكثرة جولاته العالمية المُضرة بال أهل، أصبح الصحافيون لا يدرون أين يقيم هذا "الوزير الجوال"؟! ولأن ذهن مصطفى إسماعيل مجبولٌ على الطمع في الإقطاع، والذي هو جزءٌ من موروث السلفية الأصولية، فإنه لم يكن ليراعي شيئا مثل مراعاته لضرورة فك ضائقة الأزمة المالية التي دخل فيها النظام بعد ذهاب نفط الجنوب».

ثم استشهد "شعيب" بما أورده موقع 'حرّيات' الإلكتروني، وقال أن: «رئيس غرفة تجارة جدة، صالح كامل كشف عن موافقة الحكومة السودانية على منح مليوني فدان من الأراضي الزراعية للمستثمرين السعوديين للاستزراع في إطار منطقة حرة، بحيث أن تكون خارج جميع القوانين السودانية. وأوضح كامل بحسب ما أوردت 'العربية.نت' أن الاجتماع الذي جمع الجانبين السعودي والسوداني بحضور مصطفى عثمان طرح موضوع استزراع مليوني فدان من الأراضي السودانية من قِبَل مستثمرين سعوديين دون إخضاعها لأي شروط، بحيث تكون منطقة حرة. وأكد أن المزارع ستكون ملكية سعودية في منطقة حرة ولن تعوقها أية عوائق من القوانين السودانية، وقال إنه لا يترتب على ذلك دفع رسوم أو ضرائب».

عند هذه النقطة، أرجو من القارئ الكريم أن يدقق النظر في خواتيم التصريح أعلاه على لسان المذكور، ومن ثم فليُعدّ البصير كرتين وينظر إلى الوثيقة التي حصلنا عليها أسفل هذا المقال، والتي توضّح كيف أن رجل الأعمال السعودي يُبدي عطفاً وحناناً على بني جلدتنا أكثر من جلاوزة الغصبة التي لا تعرف غير جني المال المخلوط بعرق البُسطاء ودم الأبرياء.. بل من المفارقات أن "السمسار الدولي" الذي فضحته أقواله وأفعاله، هو نفسه الذي وصم الشعب السوداني في حديثٍ مؤثّق بالسفارة السودانية في الرياض بـ"التسؤل" أو "الشحاة" على حدّ تعبيره الدارج!

أصل الحكاية أن "المُتسؤل الدولي" سبق وأن غرّض أراضٍ خصبة، توارثها الأهالي أباً عن جد، كان سلفه السمسار الآخر عبدالرحمن سرالختم والي الجزيرة السابق والسفير الحالي في أثيوبيا، قد وهبها لمستثمرين بعمولاتٍ سُمّيت عنها اللثام قريباً، فقام أصحابها من أهالي المنطقة بوقفة صمديةٍ حمايةً لإرثهم التاريخي، ولكن ذهبت احتجاجاتهم أدراج الرياح، وبقيت الأراضي المنزوعة تحت قبضة أشباح أجانب (وقف كاتب المقال بنفسه على فصول هذه المأساة في زمنٍ مضى) ثم جاء مصطفى عثمان لِكَمَل المسيرة الظافرة، لكن المستثمر السعودي الذي تناهي لسمعه مضاضة ظلم السُلطة لبني وطنها، أبدى زهداً كما تشير الوثيقة في أي نزاع مع الأهالي. عندئذٍ اتجه من بيده ملكوت الاستثمار نحو أراضي "أم دوم" باعتبارها بديلاً يُغري المستثمرين، الأمر الذي استفز أصحاب الأرض فاستنفروا أنفسهم لمجابهة الظلم والطغيان.. لجأوا أول الأمر للشكوى بالطرق القانونية في دولة منحت القانون عطلةً أبديةً، وألحقت ذلك باستخدام الغاز المُسيل للدموع والدموع أصلاً لا تحتاج لغاز، وتبعته بالاعتقالات العشوائية التي لم تفرّق بين شيخ وصبي، بعد أن استخدمت الرصاص الحي فسقط جراًه "محمّد عبدالباقي"، الذي روت دماؤه الأرض التي سقط شهيداً دونها!

راحت أبواق إعلام النظام ترّوج لأكاذيبها وأباطيلها.. جاء الوالي عبدالرحمن الخضير ومعه رهطٌ من صحبه، وهي عادة أدموها كلما أزهقوا روحاً، وقاموا خفافاً لتقديم العزاء، استغلالاً لتسامُح أهل السودان في الضراء واختراقاً لسماحتهم في السراء. بيّذ أنه انقلب السّحر على السّاحر، كانت تلك فرصة حانت لأهالي المغرور ليُلْقنوا الوالي وبطانته درساً في الأخلاق، فانسحبوا من سُرّادق العزاء وتركوهم نهياً لخيلاتهم المريضة، وهم يعلمون أن الدين الذي يدّعون اتباعه، قال إن الدم لا يغسله سوى الدم دون إسرافٍ في القتل.

بيّذ أنه من سوءات الغصبة التي تعرفون، أنها لم تترك حجراً ولا بشراً إلا وطالته بشروورها.. فمنهم من أصبح القتل منهاجه وشرعته، وهناك من كان ديدنه التستّر على الجريمة وهو يدّعي البراءة، وفيهم من تمثّل الطهر وهو والغ في جرائم الفساد والاستبداد. ولمّا كانوا جميعاً في السوء سواء، هل تفلح عبقرية

“الطفل المعجزة” في نجاته من عذاب واقع، لا سيّما، وأن الجرائم الجنائية لا تسقط بالتقادم!

آخر الكلام: لا بُدَّ مِنَ الدِّيمَقْرَاطِيَّةِ وإن طَالَ السَّفَرُ!!
٢٠١٣/٥/١٩

AMC Legal Affairs

From:
Sent:
To:
Subject:
Attachments:

[Fadul M. Faou] [faw171@gmail.com]
Tuesday, December 18, 2012 10:00 AM
AMC Legal Affairs
حفظ وزارة الزراعة ولاية الجزيرة
ولاية الجزيرة 2012

معادة ديزيادة عيادته زيادة الموقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ارجو ان الفيد سينتكم بانه وبعد زيارة كل المقترحت المعروضة من السادة ولاية الجزيرة في المناطق المجاورة لولاية الخرطوم حيث تم استبعاد الخيارات بمنطقة شرق الجزيرة (رفاعة) نظراً لبعدها من ولاية الخرطوم وإن الخيارات المعروضة عبارة من حيازات لأفراد يجب التفاوض معهم قبل استثمار الارض. اما الاراضي في شمال ولاية الجزيرة فوجد انها تحقق الطموحات الاستثمارية حيث انها تقع ملاصقة لولاية الخرطوم تماماً وقربها من الخدمات وسهولة الوصول والخيار المفضل هو لموقع الشق للشركة العربية الكرنيفية للدواجن المطل على شارع الخرطوم مدني. وفي حلة مواقاة سعادتك على الموقع نجدون المرفق طيه صيغة الخطاب الموجه الى السيد وزير الزراعة ولاية الجزيرة لتصديق الارض.

ارجو لتكرم بالنظر والاخذة

B.R
Fadul Abdelgadir Mohamed Tahir
ALBARAKA BANK (SUDAN)
Tel 062-9912256/11
00249912311366

على مكتبكم سجلتكم لتمام استكمال

مستند استكمال
جميع المستندات

حسب توجيهاتكم راجعاً لكم المندرج مع ولاية الجزيرة قام
فريقه من قبلنا بمراجعة المستندات التي قدمها شكراً

لسادة هرفاقه على ناشى والى الجزيرة ووزير الزراعة حيث

استمر الرأي به مشاورة الشيخ سلال طامل على الوضع

حيث استحسن الموقع وأسنده عليه مع استبعاد الفكرة اعلمكم

أرأى انكم انتم تزدون الى التزامات مع المرحلي حيث انه اوضح

بانه لا يردو بالملأه هردك في أنه امر يدور الى حلقه مع المرحلي

بالتات ، ديرى انه بأسر قد اخذ بعض الوثيق من تدير واستأنه

مجهدكم في هذا الحاننا راجعاً على التات بزره المرحلي

أمر شاكراً لكم تديره المرحلي في ولاية الجزيرة المرحلي

صديق تديره مع على وزير الزراعة وشكرت بعض التتملا
بموقع المندرج رانه استمراداش لتأخا قد يأخذ تديره مع المرحلي

oboiikan.com

بُؤْس النّوَايا وَسُوء الطّوَايا!

نَمّة أَقْصُوصة تُروى في سياق الميثولوجيا السّودانيّة المُتداولة، تحكي عن شخصٍ مريضٍ مرضاً نفسانياً عضالاً، توهّم فيه أنه دجاجة مُتَمَنِّعة يطاردها ديكٌ شهوانيٌ لحاجةٍ في نفسه. وبعد رحلةٍ طويلةٍ مع الأطباء امتدّت نحو أربعٍ وعشرين عاماً حسوماً، أقنعه الطبيب في خواتيمها أنه ليس دجاجة، وأكد له تعافيه تماماً، وقال إن بإمكانه الخروج من المستشفى لداره مباشرة.. عندئذٍ، انتفخت أوداج المريض وتهللت أساريره طرباً، فشكر الطبيب وأثنى عليه ثناءً جميلاً، ولكن قبل أن يغادره، قال إنه يود لو يسأله سؤالاً صريحاً، فردّ عليه الطبيب بالإيجاب، فقال المريض: لقد اقتنعتُ أنني لسْتُ دجاجة، ولكن من ذا الذي يُقنع الديك؟!

انتهت الأمثلة، ولكنني وددتُ أن أضيف لها من بنات أفكارٍ ما يزيدها حيرةً على حيرة.. فقد قيل إن الطبيب المداوي خرج بعد أن سمع سؤال المريض ولم يعد لمشفاه.. إذ توهّم أنه الديك نفسه!

بيد أنني تأملتُ في المسألة أيضاً، فوجدتها تماثل إلى حدٍ كبير حال العُصبة ذوي البأس الحاكمة في الخرطوم. فإن قلت إنهم المريض المشوّهة نفسيّته فقد صدقت، ذلك لأنهم كلما ألّمت بهم نازلة ظلّوا يتوهّمون أشياء بعيدة عن الواقع، ولم تخطر على قلب متابع. وإن قلت إنهم الدجاجة المُتَوَهِّمة، فقد صدقتُ أيضاً، ذلك لأنها وإن بدت مهیضة الجناح لكنها أعيت شعباً حتى عجز عن أدوائه الطبيب المداوي. وإن قلتُ إنهم الديك المُفتري، الذي استهان بالمريض وخسبته دجاجة يقضي منها وطراً، فلن يجانبك الصواب، بدليل أنه ومنذ سنوات عدة ظلّ هذا الشعب الطيّب يلهث خلالها وقد تقطعت أنفاسه بعد أن أدخلوه – بخطيئة أدمنها – مدخل الوطر في تلك الدجاجة!

كنتُ أظن أن حقوق الطبع محفوظة لمقولة شهيرة أطلقها جوزيف فريديريك جوبلز، وزير الدعاية النازي: «أكذب وأكذب حتى يصدقك الناس».. قالها وهو يتحسّن مسدسه مثلما كان يتحسّن خطى نظام ديكتاتوري ناء بكلّ كلة على صدر الشعب الألماني، وتمدّد في نسيجه بصلفٍ وغرورٍ وعنجهيّةٍ. لكن لم أكُ أعتقد أن قوماً تسلطوا على رقابنا بزوا الرّجل حتى تهلّل المسكين في قبره. فهم لم يكتفوا

بتحري الكذب، وإنما برعوا في صناعته كذلك، ومن ثم تصديقه، وبعدئذ يقومون بترويح ما حاكوه باعتباره حقيقة شاخصة أبصارها لا يعرف الشك لها سبيلاً. المفارقة أن من دأب على فعل ذلك يحتاج دوماً لعدو داخلي أو خارجي - سيان - ليصرف به الأنظار عن أزماته الحقيقية، وعندما لا يجده يقوم بتخيُّله أو توهُّمه أو حتى خلقه بشراً مشوهاً، وهو المضممار الذي جبَّ فيه أهل الإنفاذ قول كل خطيب. وهل نحتاج لدليل أكثر من التطورات الجارية الآن، والتي تنبئ بعمق وفداحة الكارثة التي نحن عليها مقبلون؟!

منذ أكثر من عقدين، ظلت السلطة الفاسدة في حالة هياج مُستمر، إن حمل عليها الشعب تلهث، وإن تركها تلهث. وما أن يطوف عليها طائف بعذابٍ واقع، إلا وتجدها قد استدعت أزماتها وسخرت إعلامها بحديثٍ مكرور عن المؤامرات ودُروبها، وبالطبع لا مناص من استدعاء دول الاستكبار العالمي ورببيتها إسرائيل، بدعوى أنهم يستهدفون السودان.. مرّةً للنيل من إسلام أهله، وثانيةً لنهب ثرواته، وثالثةً لإضعافه بتقسيمه لدويلات.. ثم يزيدون جرعة الاستخفاف بالعقول في إدعائهم أن هذه الدول تفعل ذلك لأنها لا تريد لهذا البلد الصابر أهله أن ينهض، لماذا؟! لأنه إن فعل، فسيُشكّل خطراً على البشرية، ومن عجب إنه ذات البلد الذي يحكمونه، ولا يجد المواطن البسيط فيه قوت يومه!

بيد أننا في هذا المقام نود تفكيك هذا الخطاب المعلوم، ليس لتأكيد خوائه الفكري والسياسي، فذلك ما يدركه راعي الضأن في الفلوات، ولكن من أجل نزع ورقة التوت التي يداري بها عورته. علماً بأن استخدام المنطق مع من يعوزه أشبه بمن يرجي استمطار السماء من فاسقٍ وإن أكثر صلاة الاستسقاء!

● أولاً: في سياق مبررات العجز والفشل، تكثف الحديث عن إسرائيل ودورها حتى ظننا أنها تحكم الكون بأجمعه. ولعلّ السؤال الذي يطرح نفسه ببساطة: لماذا تَعَمَد إسرائيل إلى استخدام قادة الحركة الثورية كأداة لتنفيذ مخططاتها الإجرامية، علماً بأنها عندما أرادت ذلك قامت بأربع نزهات في شرق السودان، فشل وزير الدفاع الهُمام في رصدها حتى "بالنظر"، وألحقها بخامستها في قلب العاصمة، وقد نجح المذكور في رصدها "بالنظر"، لكنه قال إنه أدخر مُعدّاته العسكرية لـ "اليوم الأسود"!

من جهة ثانية، كلنا يعلم عن الثورات التي اندلعت في ما سُمّي بـ "دول الربيع العربي"، وبعضها يعيش سجّالاً تاريخياً مستمراً معها، والبعض الآخر أقرب إليها جغرافياً من حبل الوريد، ومع كل ذلك، لم يقل أحد من جلاوزة الأنظمة القديمة أن إسرائيل اقتلعتهم من جذورهم، ورمتهم في مزبلة التاريخ، وبنفس القدر لم يقل أحد من أباطرة الأنظمة الجديدة أن إسرائيل تواطأت معهم وأجلستهم على سُدّة السلطة! فما بال قومٍ لا هم من هؤلاء ولا هم من أولئك قواماً؟!

● **ثانياً:** يقولون إن دولاً بعينها تستهدف إسلام أهل السودان. وهو قولٌ قُصِدَ به الإيحاء أن الله - تبارك وتعالى - ابتعثهم في مهمةٍ رساليةٍ أبت السماء والأرض والجبال أن يحملنها وحملوها هم طوعاً واختياراً. ونحن إن أسلمنا جدلاً بهذا التتبع البائن والإدعاء الأجوف، فإن السؤال المطروح سيدور حول ماهية النموذج الذي قَدَّموه حتى يُصَدِّقَ الناس أنهم مبعوثو العناية الإلهية لحماية الدين كما يهزجون؟! بالطبع لن تكون الإجابة عصيةً على من تابع مسيرتهم الدامية والمؤلمة. فهو لاء لم يتوانوا برهة، بل تَفَانُوا في تقديم أسوأ نموذج للدولة الدينية مُنْذُ زوالها بزوال الدولة الأموية والعباسية. وهو نموذجٌ قطع قول كل خطيب.. فقد أبان الناس - ونحن فيهم - كلمتهم حوله. قالوا لو أن الدين الإسلامي يبيح الفساد بهذه الصورة السافرة التي تجري أمام أعيننا، ولو أن الدين الإسلامي يدعو لإزهاق الأرواح بإبادة جماعية كما يفعلون، ولو أن الدين الإسلامي يحض على الكذب والنفاق والتدليس.. فنحن منه براء!

● **ثالثاً:** عندما يذهب خطاب استهداف الإسلام هباءً، يلجأون إلى صنْؤِه، ويقولون إن دول الإمبريالية العالمية تستهدف ثروات السودان. ولا يدري أحد من الناس ما الذي حَبَّأنا به ربُّ العالمين وحرم منه الآخرين، حتى نُحَسِّدَ عليه ونكون مَحْطَ أنظار الطامعين؟! بل إن بعض دول العالم ترفل في أكثر مما لدينا وبعض هؤلاء أضعف من جناح بعوض، ومع ذلك لم يُقَلِّ أحد منهم إن دول الاستكبار العالمي استهدفتهم ونهبت ثرواتهم "خُمرة عين". لكن الحقيقة التي لن تُخفى عن القارئ أن هذا خطابٌ قُصِدَ به ذرُّ الرَّمَادِ على فسادهم، وهم من استباح البلاد وثوراتها، وكانوا أشبه بجرادٍ هبط على أرض مخضرة فأحالتها بلقاً قفراً!

● **رابعاً:** عندما لا يُجدي خطاب استهداف الثروات فتيلاً، ولا يستدر خطاب استهداف الدين عويلاً، يلجأون إلى فرية تقول إن دول الاستكبار تلك تريد إضعاف السودان بتقسيمه إلى دويلات! من سوء حظهم، أن أفعالهم تُغني عن سُؤالهم، وبالذات في هذا الأمر، إذ ما يزال ما تبقى من شعوب أهل السودان يعضون أصابع الندم ويمضغون الحسرة والألم على ثلث البلاد الذي انقسم ولم تطفُر دمة من عيونهم. ولأنهم لا يرعون للوطن سيادة ولا للوطنية حرمة، فإن السيناريو الكارثي في طريقه لإعادة إنتاج نفسه أمام أعيننا، ونحن عليه شهود!

● **خامساً:** عندما يرتد خطاب التآمر الخارجي على عقبيه، يلوذون بخطاب التآمر الداخلي، ويقولون إن الحركة الثورية تريد تغيير هوية السودان، أي أن تعيده سيرته الأولى نحو جذوره الأفريقية. ومرة أخرى، لو أسلمنا جدلاً بهذا المنطق البئيس، فهذا لسان حال يقول إن الأفريقية تلك رجسٌ من عمل الشيطان، ينبغي على السودانيين اجتنابه. من جهة ثانية، فإنه قولٌ ينطوي على

استعلاءً بغيض ظلّ السُّودانيون يُعانون من توابعه، ودفعوا ثمنه حروباً لم تترك شبراً إلا وأصابته بشروها. ولم يكن بمُستغرب أن يجهر به الرئيس "الراقص" بذات السيرة عندما نطق به في القضايف، وقال إن انفصال الجنوب حسم هوية البلاد العربية إسلامية، ضارباً عرض الحائط بما خلص إليه المجتهدون ردحاً من الزمن، وتواطأوا على تسميته بـ "السودانوية" قطعاً لدابر أي سفسطة لا طائل يجنى من ورائها! وهل ثمة ما يُقال عن هذا النظام بعد العنصرية التي أججها، والإنثية التي رفع راياتها، والقبلية التي أحيا عظامها وهي رميم؟!!

• سادساً: عندما تنهار دعاوي التآمر الخارجي والاستهداف الداخلي، يلجأون إلى ذمّ وسيلة هُـم صانعوها.. إذ يستنكرون على معارضيتهم استخدام السلاح الذي اتخذوه إليه لإزاحتهم عن السُّلطة، علماً بأنها ذات الوسيلة التي ولغوا منها كما يلغ الكلب العطش الماء. فالنظام - كما هو معلوم - لم يترنّع على كرسي السُّلطة بانتخابات ديمقراطية، فقد جاء بانقلاب عسكري وظلت شرعيته المفقودة هذه هاجساً مُؤرقاً طيلة وجودهم في السُّلطة، بل حاولوا التحايل عليها والالتفاف حولها بطرق شتى دون جدوى. لهذا لم يكن غريباً أن ينسلّوا ويرموا الآخرين بدانها. ومن عجب أن الذاكرة السودانية تحفظ لكبيرهم الذي علمهم التآمر قوله الذي اختصر به الصراع حول السُّلطة: «نحن جبنّاها بالبندقية والعايزها، يجي يقلعها بالبندقية»، وبالفعل فقد طبقوه عملياً مع من سولت له نفسه باقتلاعهم، بل حتى مع من حاول التعبير عن معارضته بتظاهرات سلمية!

• سابعاً: عندما يذهب الزبد جفاء في كل الدعاوي السابقة، لا يجد النظام حرجاً من دمج معارضيه جهراً بما يعاني منه سراً. إذ يُخرج "الحاوي" من جرابه آخر الخدع البصرية، فيدمغ معارضيه بالعمالة وينعتهم بالارتزاق ويصمهم بالخيانة الوطنية. بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك بنزع الهوية "السودانوية" عنهم ضربة لازب. وفي الجهة المقابلة، لا ينفك أهل النظام من الإيحاء الزائف بأنهم بلغوا حدّاً خرافياً في التماهي مع الوطن، أو "روح واحدة في جسدتين"، على حدّ تعبير شاعرنا الشفيف حسين بازرعة!

يا سادتي يا كرام، إلى أين نحن ماضون؟! فيم الحروب التي لم تترك شبراً إلا وأصابته بوابل من شروها؟! إلى متى إزهاق الأرواح؟! وحتام إهدار الموارد؟! هل ندرك تماماً أن البلد العظيم الذي تغنينا به شعراً ونثراً يتسرّب الآن من بين أيدينا كما يتسرّب الماء القراح من بين أصابع الظمئ الشرود. إن من أبجديات الحكم والإدارة أن تكون مُدركاً لإمكانات شعبك المادية والروحية، وعارفاً بطموحاته وأحلامه، وعالماً بكل التحديات والظروف المحيطة به. وهي مسلمات لم تعها سُلطة الإنقاذ وظنت أنها تحكم قطيعاً من الأغنام، كلما دخلت

حرباً قبل أن يهدأ مثار نفعها جهزت أخرى، إذا جأ بالشكوى أذلوه، وإذا لاذ بالصمت بدّوه، سلبوه المتعة فبات لا يرى من الحياة سوى ضنكها، ولا يسمع من لحنها غير لغة التهديد والوعيد والقتل والدمار والهلاك، شعبٌ اختفت من قاموسه الكلمات التي تصدح بالذنيا ونعيمها، الحُب وطهره، الجمال وسره.. أرهقوه لدرجة أصبح يرى في الموت مضييه وحاضره ومستقبله!

صفوة القول، كنتُ قد ذكرتُ في المقال السابق، عبارة قنْتُ فيها عرضاً إن سقط النظام أصبح وشيكاً، وليسمح لي القارئ الكريم بتكرارها ونشهد عليها من فطرنّا من صلصال وإليه نعود، هذا على الرغم من أن السياسة وشئونها لا تعرف القول الفصل ولا الرهان المطلق، لكن فليثق من أولانا ثقته في أنه قول لا ينطق عن الهوى، ولا جاءنا من وحي يوحى، وإنما بناءً على وقائع ورصد وتحليل نكاد نرى فيه رأي العين ليلة السكاكين الطويلة تصدع ردهات القصر الذي بناه غُردون!

ولمثل يوم كهذا، سعى النظام إلى "حتفه بظلفه" كما تقول العرب العاربة!!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٣/٦/١

oboiikan.com

هل آن أوان ليلة السكاكين الطويلة؟!

كنتُ أعتقد يقينا أنني كتبتُ شيئا عادياً أو هكذا ينبغي أن يكون في مثل هذه الظروف. لكن ذهلتُ عندما فاض بريدي برسائل قراء كرام يسألون بل يتساءلون عن صحّة ما ورد في خواتيم المقال الأخير. وعندما تمعّنت في الأمر وجدتُ أن سبب هذا الحشد البريدي لا يعدو إلّا أن يكون نتيجة لثلاثة احتمالات.. إما أن ما كتبتُ كان مبهماً لدرجة يحتاج فيها لإبانة، أو أن حُب الاستطلاع الغريزي في النفس البشريّة تطلع للمزيد الذي يُشفي الغليل، أو أن هاجس 'الخوف على وطن يقف على شفا جُرف هارٍ، بات يسيطر على أفئدة السُودانيين، وفي ذلك يقف البعض عاجزاً عن مد يد العون لإنقاذه من سقوط محتمل!

على الرغم من أن أياً من هذه الأسباب يمكن أن يكون ترياقاً يجيب على التساؤلات أنفة الذكر، إلّا أنني عدلتُ احتمالاتي تلك باستبعاد السبب الأول. ليس لأن ما كتبتُ كان واضحاً وبلغه عربيّة فصّحى، ولكن لأنني تذكرتُ طرفة راجت في زمن الرئيس المقبور جعفر نميري عن شخص مقهور مثلنا، كان قد شرع يوزع أوراقاً بيضاء في الطرقات بزعم أنها منشورات ضد ذلك النظام الديكتاتوري، بالرغم من أنه ليس مكتوب عليها أي شيء، وعندما قيل له كيف يدّعي أنها منشورات، قال على الفور: وهل الحال الذي نعيشه يحتاج لتوضيح؟! وبالطبع شرّ البليّة ما يُضحك، كما يقولون!

لأن وراء الأكمة ما وراءها، دعونا ابتداءً نستدعي الفقرة موضع التساؤل. وهي الفقرة التي خالصنا إليها بعد تحليل الوضع القائم وحالة الانسداد الراهنة التي وصل إليها النظام، وجاءت كالتالي: «صفوة القول، كنتُ قد ذكرتُ في المقال السابق عبارة قلّت فيها عرضاً، إن سقوط النظام أصبح وشيكاً، وليسمح لي القارئ الكريم بتكرارها ونشهد عليها من فطرنّا من صلصال وإليه نعود، هذا على الرغم من أن السياسة وشنونها لا تعرف القول الفصل ولا الرهان المطلق، لكن فليثّق من أولانا ثقته في أنه قول لا ينطق عن الهوى، ولا جاءنا من وحي يوحى، وإنما بناءً على وقائع ورصد وتحليل نكاد نرى فيه رأي العين ليلة السكاكين الطويلة تصدع ردهات القصر الذي بناه غردون! ولمثل يوم كهذا سعى النظام إلى "حتفه بظلفه"، كما تقول العرب العاربة»!!

انتهت الفقرة، ولكن دعونا من قول العرب العاربة، وهاتكم حديث "العرب الممزوجة بدم الزنوج الحار"، كما قال شاعرنا الراحل إسماعيل حسن. في واقع الأمر، إن ما كتبتُ استند على ساقين، الأولى ساق الظاهر الذي لا يُخفى على العين كما افترضت الطرفة.. والساق الثانية، ساق الباطن - وهي الأهم - وقد إنكأت على معلومات تسربت لنا من المصدر الذي ظل يمدنا - ومنذ فترة طويلة - بالذي أرهقهم وقصّ مضاجعهم وبَدَدَ النوم من عيونهم. وللذين لا يعلمون ولم يتمكنوا من قراءة كتابنا الأخير "الخدق.. أسرار دولة الفساد والاستبداد"، نقول: إنه ابن سرحتهم، أي من جنس الغصبة، نافذاً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وبمثلما يتظاهرون يمد سبابته ويرفع عقيرته مهلاً ومكبراً في مناسبة أو بدونها.. ولأسباب شرخناها من قبل، ذكرنا فيها دوافعه كما أفصح عنها، بالرغم من أنه ما يزال بالنسبة لنا لغزاً مرهقاً.. بيد أن ذلك ليس مُهماً بقدر ما المهم هو ما اتحفنا به واحتفى به القراء بعد أن تطابقت مجرياته مع ما يجري على أرض الواقع.. ومع ذلك، لسْتُ في حاجة لتأكيد صدقيته أو نقبضها فيما سيرد ذكره، والحمد لله الذي سخر لنا قراء هم من الحصافة بحيث باتوا يفرزون الغث من السمين من أول نظرة!

لنبداً بالساق الأولى، حتى لا يصيب القراء الكرام ما أصاب قوم تبع من ذهول.. فالذي يعلمه المتابعون والمراقبون والمحللون السياسيون أن النظام تكاثرت ازماته وتناقلت بدرجة تجعل من احتمال صموده امراً عصياً، إن لم يكن مستحيلاً. فضنك العيش ورهقه الذي يعيشه السواد الأعظم أو غالبية أهل السودان، مُرشّح لمزيد من التناقض في ظل اقتصاد ضعفت الغصبة ما أفنى فيه آدم اسميث عمراً، بدليل هذا الخبر الذي ربّما طالعتموه مثلي في صحيفة 'الصحافة' ٢٠١٣/٦/٦: «طالب نواب البرلمان الحكومة بالإسراع في رفع الدعم تدريجياً عن السكر والمحروقات للسيطرة على السوق وإلا سيظل غولاً فاتحاً فاه ليلع كل ما يتخذ في سبيل تخفيف المعاناة ومحاصرة الترهّل والاستمرار في ترشيد الإنفاق الحكومي».. وجاراهم في الهراء نفسه وزير مالية النظام الهامم الذي نقلت عنه صحيفة 'الأخبار' ٢٠١٣/٦/٦ قوله: «إن مكافحة التهريب لن تتم إلا برفع الدعم عن السلع الاستراتيجية، السكر والمحروقات».. وليس في الأمر عجب، أليس هذا الوزير هو من دعا أعضاء المجلس الوطني الأسبوع الفائت لتبني مشروع "صلاة الاستسقاء" رسمياً لإنجاح الموسم الزراعي!

توخياً للدقة نشير إلى أن علامة التعجب الأخيرة إضافة كريمة مثلاً، كأبسط ما يكون التعبير عن محنة.. بدا لي أن معاناة الشعب الطيّب تبدو كنار جهنم، كلما سأل الناس الحكومة السنية تخفيفها آجابتهم بالمزيد.. يحدث هذا التداعي المرعب في ظلّ خزينة خاوية على عروشها، وعملة محلية تدهورت إلى أن فقدت قيمتها، وتضخم بلغ نحو ٢٥% وديون وصلت إلى ٤٥,٦ بليون - بحسب آخر إحصائية لصندوق النقد الدولي - وبضالة في أوساط الشباب طالت أكثر من ٤٧% فتأججه

معظمهم نحو تعاطي المخدرات بأرقام فلكية، ثم انتشرت الرذيلة طردياً مع الفقر الذي داس على أي فضيلة!

ليس ذلك فحسب، فكانما الخلق ليس فيهم ما يكفيهم، فالمتابعون يعلمون أن أزمة الجازولين ضاعفت من معاناة المواطنين في المواصلات.. أقول ضاعفت لأن الوالي الهمام انصب جُلَّ اهتمامه في كيفية "تشتيت مواقف الباصات العامة" بحسبه أنها تمثل شروعاً في انتفاضة.. وليت الأمر توقف على المواصلات، فالأنكى انعكاسها على الزراعة التي أجذبت قبلاً.. أما الخدمات الصحية فتلك فصولٌ من مأساة لا يعرفها إلا من يكابدها، مريضاً كان أو معاوداً لمريض.. وإن شئت أن تبلغ قمة الرثاء لحال وطن انطمس مستقبله، فانظر لقطاع التعليم، حيث رفع الجهل بيتاً عماده المشعوذون والمُكفِّرون وشذاذ الآفاق، وانهذ فيه بيت العلم والمعرفة. وكلما توسل المواطن المسكين الأمن من خوف - بحسب الدستور الرئاني - أجاوبه بحروبٍ يأخذ بعضها برقاب بعض، واستعر لظاها في عدة جبهات، وإن التمس الناس ترويحاً عن النفس، طالعوا فيلماً مُرعياً عن فسادٍ برّ قارون وسدنته!

لكن دعونا من كل هذه التفاصيل التي حفظها الناس عن ظهر قلب! أودُّ أن أسأل أسئلة التمس بها قبساً يُبدد ظلمتي.. هل حدث أن هتف أحدكم عزيزاً لديه في الوطن المكلم وخلت محادثته من شكوى الأوضاع البائسة، يتبعها سُخطٌ عارم؟! هل حدث أن قضى أحدكم أياماً معدودات بين أهله وصحبه وعاد دون أن ينفث زفراً حراً على وطن تسرب من بين الأصابع؟! منذ ما يناهز الربع قرن، هل طالع أحدكم خيراً يُدخل السرور والحبور إلى قلبه عن بلد صار عبئاً على أهله والبشرية؟! تلك أسئلة - رغم حيرتها - ستجد لها جواباً فيما ذكره أحد جلاوزة الغصبة والمسؤول عن "جهاز تعذيب المغتربين"، الذي قال إن جهازه هذا يُصير ثلاث آلاف تأشيرة خروج يومياً! إذأ، فهذا هو الوطن الذي قامت قيمته قبل أوانها، وفرّ فيه المرء من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه، والظل الذي يأويه؟!!

ما أتعسه من وطن سيطرت فيه شرذمة من الأفاكين والمُنافقين على مقاليد الأمور، هم أنفسهم الذين دأبوا على رؤيته يتقرّم كلما تضخمت كروشهم.. وطنٌ يعيش حالة موت إكلينيكي "سريري" على مدى رُبع قرن، ينام مواطنه على لغة القتل والتتكيل والدمار والهلاك، ويصحو على أنغام الفساد والكذب والتدليس، وطن تضاعل بعد اتساع وأفقر بعد غنى، الناس يهربون منه وإليه، بل من المفارقات التي تدعو للتأمل أن في سنوات الحضيض هذه، انفضّ عن النظام حتى الذين أيدوه غفلة وناصروه لأسباب أيديولوجية وتوسّموا فيه خيراً، اكتشفوا أنه كسراب بقيعة، فإذا بهم يفرون منه ظمأى كما يفر السليم من الأجرّب!

نأتي للساق الثانية، وعلى القراء الكرام استخدام كافة أدوات السلامة الجوية في الهبوط الاضطراري، الذي نحن بصددده. فمن باب احترام العلاقة التي تواتقنا

عليها لأكثر من ثلاثة عقود زمنية، سأطلعكم - يا سادتي - على مجتزأ بحذفه من رسالة لمصدرنا المحير، بأمل أن تفتح أبصاركم وتتور بصانركم فيما استغلق عليكم من أمور..

«هذه المرة ليست لدي وثائق أرسلها لك كالعادة، ولكن لدي أسرار يشيب لها الوندان، ربّما رأسك وليس رأسي ولا رؤوس عُصيتي ذوي البأس كما تسميهم. فأما أنا، ليس لأن رأسي خلا من السواد، ولكن لأنه لم يغد هناك ما يشيبه من فرط ما سمعتُ وهول ما شاهدت، أما بالنسبة (لُعصبتنا)، فقد تحايلوا على شبيبهم بالصبغة والحناء، وهي الظاهرة التي انتشرت كما النار في الهشيم، وقد لا تعلم أن لهم في ذلك مآرب أخرى. المعروف أن الظاهرة تفتح شهية المرء للحياة، وبالتالي تفتح شهيته للسلطة وتبعاً لذلك يقبل بذات الشهية على الفساد. والله سبحانه وتعالى يقول {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدّاً حتى إذا رآوا ما يُوعدون إمّا العذاب إمّا الساعة فسيعلمون من هو شرّ مكاناً وأضعف جُنّداً.. الآية} لا يغرنك تبرئة نفسي من سلطة زائلة، فقد بلغنا فيها أرذل العمر، لكن ليس العمر الذي تعدون. ولكن لأنني أحمد الله الذي أذاقتني جحيمها وليس لدي أدنى طموح في جنتها وأشك أنها كذلك. لا عليك بهرطقتي هذه، وإليك الوقائع التالية.. أزمنا ضاقت واستحكمت حلقاتها، ومن المفارقات أن جماعتكم ناس الحركة الثورية فعلوا الأعاجيب ولكنهم لم يوفقوا في التوقيت، فقد كان الغزو في زمن استحكمت فيه الأزمة السياسية بين القطبين المتنافرين، وزادت عليها أزمة كبرى في المؤسسة العسكرية. قبيل ذلك بقليل اجتمع المجلس الخماسي الذي سبق وقلت لك إنه المخول بوضع خطوط عريضة لسياسات استراتيجية تتنزل على القواعد لتنفيذها (البعض بدأ يطلق عليه مجلس الصحابة) في ذاك الاجتماع حدث تلاسّن حاد بين شيخ علي ودكتور نافع، ولم تكن تلك هي المرة الأولى فقد تكررت من قبل في احتلال هجليج. وتدور بشكل أساسي فيما يزعم دكتور نافع بأن شيخ علي يعتبر مسؤولاً عن كل ما حاق بالنظام من بلايا ورزايا منذ نيفاشا، في حين أن شيخ علي يقول إن لغة دكتور نافع الجافة نفرت عن الحكومة العدو والصديق. ربما تتساءل عن موقف الرئيس بين التيارات، بالطبع فإن المجلس الخماسي ليس على قلب رجل واحد، لا تستغرب إن قلت إنه - أي الرئيس - يسعد كثيراً بهذا التنافر لأنه يود أن

يظهر بمظهر (كبير العيلة) وتزداد الحاجة له كطرف محايد في الصراع. في خضم هذا التشابك حدثت واقعة أم روابة وأبو كرشولا مما حدا بالمجلس المذكور استغلالها للتغطية على سوءاته، وقرر أن تنتظم البلاد تعبئة عارمة تستند داخلياً على عنصر الدين، وخارجياً على عنصر العرق، باعتبار أن الجبهة الثورية تريد تغيير هوية السودان، وهو الخطاب الذي استجابت له دولتين خليجيتين كبرى وصغرى بدعم غير مرني، في حين تمتعت واحدة من دول الجوار الشمالي واستجابت الأخرى بدعم غير مرني أيضاً. أما على الصعيد العسكري، الذي حدث قبل نحو شهر من واقعة أبو كرشولا جاء رهط من العسكريين لشيخ علي يشكون وزير الدفاع عبدالرحيم وطرحوا أمامه تجاوزات مهنية وفساد مالي وأسباب تضعضع الجيش، استمع لهم شيخ علي ولم يعد بشيء وعندما حدثت الواقعة جاءوه مرة ثانية وطالبوا بإقالته حفاظاً على هيبة المؤسسة العسكرية، قال لهم شيخ علي إنه يوافقهم الرأي في أخطائه وخطاياها، ولكن إقالته في مثل هذه الظروف ستعطي مؤشراً سالباً لصراعات داخلية. والحقيقة تلك كلمة حق أراد شيخ علي بها باطلاً فهو يعرف دائماً كيف ينحني أمام العاصفة وقد قصد بكلامه ذلك أن يطمئن على أنهم (لن يفعلوها!) وهو في نفس الوقت لا يستطيع الحديث مع الرئيس عن عبدالرحيم وأعاجيبه، لأن شيخ علي لا يريد توتير علاقته بالرئيس حتى لا يضعف أمام خصمه اللدود الآخر. خطاب التعبئة الداخلي الذي ذكرت رانده شيخ الصافي جعفر، وكان قد جمع عدداً من (غصبتنا) في داره وعلى رأسهم شيخ علي، وخطب فيهم خطبة مؤثرة، فهو يعرف كيف يستدر الدموع، ولكن القليل ممن هطلت دموعهم كانوا يعلمون أن ما حدث في أبو كرشولا كان طوق نجاة من أزمة استحكمت حلقاتها كما ذكرت. الحقيقة لا يخرج النظام من ظلماته سوى معارضتكم، ومهما فعل جماعتنا فلن يستطيعوا جزاء الإمام الصادق المهدي، فهو يتبرع بما يطلب منه ولا يطلب. تماماً كما فعل قوش من قبل مع الاستخبارات الأمريكية الـ(سي آي إيه).. بالمناسبة قوش كانت محاولته حقيقية، ولكنه يعلم أنه لا يستطيع أن يكون حاكماً، إذ أن مهمته في الدنيا وإلى أن ينتقل للدار الباقية صناعة من يحكمون، ولهذا قليل منّا يعرف أنه كان يلعب تلك اللعبة الخطرة لصالح شيخ علي، ربما التطويل في اعتقاله محاولة

لإيجاد دليل مادي في هذا الافتراض، بدليل تمديدتها المرة تلو الأخرى بدعوى استكمال التحريات! لكنهم يعرفون أنه لا قوش ولا شيخ علي ممن يقعون في فخ كهذا. أختم لك بديكتاتورية سافرة مارسها الرئيس في أعقاب ما رشح عن أن أعضاء المجلس الوطني استدعوا وزير الدفاع لمساءلته، فقد حدث العكس، إذ استدعى الرئيس رئيسهم أحمد إبراهيم الطاهر، وقال له بصورة صارمة: (بلغ نوابك ديل كل واحد يمشي دائرته ويعملوا مع الناس في تجهيز الحملات وتفويض الشباب وبطلوا الكلام الفارغ البعملوا فيه ده).. الحقيقة أن الرئيس في حيرة من أمره أو هو بين نارين كما نقول، لولا المحكمة الجنائية لسلمها لأقرب شخص من (غصبتنا) ومضى في سبيله لممارسة هوايات تحدثت عنها أنت في مقالاتك (كنا نظن أن عبدالرحيم وحده يعلم أسرارده).. الخلاصة، الآن نافع انتفض ريشه كثيرا بعد الدعوة الأمريكية (اهلك ديل شواطين عدل كده) وهي إن تمت فيها ضربة قاضية لشيخ علي، الغريب أن نافع بدأ يتعامل بناءً على هذا الوهم!

أخلص ختاماً لسناريوهات محتملة قد تنفك في التحليل، أمل أن تقول قبلها أو بعدها: اللهم لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه».

إلى هنا فليسمح لي القارئ الكريم أن أتوقف لأن ما ذكره مصدرنا الذي سمّيته "راسبوتين" وهو به سعيد، يمكن أن يلفت نظر الغصبة ذوي البأس فتعمل على إبطائه، أو ربّما تأذى منه آخرون من القابضين على الجمر، وفي كلا الحالين نخشى من عواقب وخيمة على وطن بات يقف على حد السيف، ويشخص بصره نحو أوان عنوان مقالنا هذا!

آخر الكلام: لا بُدّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٣/٦/١١

حديث الوداع!!

من المؤكد أن بعض القراء سيردّد بثقة مفردة – بمجرد انتهائه من قراءة هذا المقال – ما قاله طرفة بن العبد شعراً وأضحى بين الناس مثلاً “كُلُّهُمْ أَرَوْغ من ثغلب *** ما أشبه الليلة بالبارحة”، وهذا عين ما فعلت. عموماً يجب التنويه في بداية هذا المقال – قبل الخوض في تفاصيله – إلى أنني لسْتُ كاتبه، بل ليس من فضل لي فيه سوى هذه المُقدّمة وأجر المنوِّلة.. ستعلمون أن كاتبه ديكتاتورين، أحدهما صبَّ جام جهله علينا ومضى إلى رحاب ربّه مقبوراً. والثاني ما زال يرقص طرباً على آلام محنتنا، وسيمضي أيضاً إلى مزبلة التاريخ مذموماً مدحوراً.. أرجو ألا تشغلوا بالكم بالخوض في طلاسِم مقارنات بين السلف والخلف.. لكن الذي لفت انتباهي فيما نحن بصدده، هو تشابك خطاهما حدوك النعل بالنعل.. وقد عجبت من دروس التاريخ التي ظلت تغمرنا كل يوم ونحن لا نحسن السمع ولا نلوي على الطاعة.. أما إن وجدتم أنفسكم غارقين في مقارنات الواقع البنيس بحديث الديكتاتور الثاني، فاعلموا أن ذلك ترفٌ تضاعل أمامه “ديوجين” وخبأ مصباحه. ولنبدأ بحديث الديكتاتور الأوّل.

كان عصر الاثنين ٢٥ مارس ١٩٨٥ يوماً مألوفاً كسائر الأيام في حياة أهل السودان التي عرفوها منذ أن جثم الطاغوت على رؤوسهم. ولهذا، لم يكن هناك ما يسترعي الانتباه في شارع النيل أمام قاعة الصداقة، غير الحركة الدووية لأفراد الشرطة وكوادر الأمن، وأناسٌ غادين ورائحين، أكّدوا لمن سأل أن “الرئيس القائد” سيتحدّث إلى أعضاء اللجنة المركزيّة للاتحاد الاشتراكي، وهي إجابة معتادة، لكن ما أكثر الساخطين إن تبعثها لعنات في السر أو ربّما العلن، فذلك بعض طبع السودانين في الملمات. واقع الأمر، كان الاجتماع التاريخي – على حدّ تعبير الصحيفتين الرسميتين – مخصّصاً لقضايا عامة، درج المشير جعفر نميري على تناولها قبيل رحلته السنويّة إلى واشنطن، بغرض إجراء فحوصاتٍ طبيّة روتينيّة، على حدّ تعبير ذات الصُحف. ولكن الزيادة التي فرضها على أسعار السلع الاستهلاكيّة، وضوحاً لشروط صندوق النقد الدولي، فرضت نفسها على مداولات الاجتماع، وكانت وقائعها ماثوثة في الراديو والتلفزيون. وتلك أيضاً، عادة يَدمنها الديكتاتوريون وليس نميري وحده!

أصلح الرئيس عمامته، عندما تطرَّق الحديث للموضوع المُشار إليه، وتحدَّث بنبرة غاضبة لا تخفى عن العيان، وقال: «لقد استمعتُ إليكم وأنا مندهش، هناك اثنين ممَّن تحدَّثوا يسألان عن سبب زيادة الأسعار. والسبب هو انخفاض سعر الجنيه السوداني أمام الدولار. ولأنني رفعت الدعم عن جميع السلع، فالدولار أصبح الآن يدوِّخ جميع العملات. وقد يأتي وقت تمتلئ فيه جيوبكم بالجنيهاً وتكونوا غير قادرين على شراء شيء. الصُّحف تكتب عن صفوف البنزين، وهُم لا يعلمون إنني لا أقدر منذ شهر ونصف على شراء جالون واحد، لسبب بسيط، هو إنو لا يوجد المال الذي أشتري به، وقد توقف ٨٠% من طاقة المصانع، لأنها تحتاج إلى الوقود لتشغيلها ولا يوجد الوقود الكافي.. نحن يا جماعة نتعرَّض لمؤامرة تستهدف شلَّ حركتنا في الإنتاج عشان نكون سوق للتوريد، منذ أيام أهدى لي أحد الأصدقاء عمَّة اشتراها من سويسرا، عمَّة سودانية تصنع في سويسرا.. إذا ما مصدقين تعالوا عندي في البيت وشوفوها».

كان الحديث المُرتجل مع سطحِيَّته وسخافته مبعث ضحكٍ مكتوم من بعض الأعضاء، الأمر الذي دعاه لمواصلته بشئ من الجدية: «تضحكوا؟! لماذا تضحكوا؟! أنا بتحدَّث عن حقائق، نحن مستهدفين.. ويجب أن تفهِّموا الناس ذلك، أم أنكم بتخافوا من شوية طلبية».. ثم صمت، فصدرت همهمات من بعض الأعضاء، وتبعها البعض بهزَّ رؤوسهم نفاقاً وتزلفاً بإظهار علامات الاستحسان، فواصل شطحاته: «هناك من قال لي إنو بيحصل على أربعة جالون بنزين في الأسبوع وده ما ببيكفي، فقلت ليه: أنت ما بتحصل على أربعة جالونات، أنت بتحصل على عشرين جالون لأن كل بيت فيه خمسة عربات، وكل عربية بتحصل على أربعة جالون، وكل فرد في الأسرة بنطلق بواحدة، وعندما تكون هناك مناسبة اجتماعية زي العرس، كل واحد بيركب عربية.. لماذا لا تركب الأسرة عربية واحدة؟! وحتى المؤسسات الحكومية، كل موظف عايز يركب عربيّه بمفرده. وعندما ننتج مشروباً محلياً، ينصرف الناس عنه ويشربون الإسبرايٲ، لأن الإسبرايت أموالها كثيرة وبتتشر إعلانات كثيرة. في مرَّة رأيت شاب يرتدي ثياب بالية وحافي القدمين، ومعاه خمسة جنيه، ومُصر يدخل سينما قاعة الصداقة بالخمسة جنيه، لأنه عايز يستمتع بقاعة الصداقة، لماذا نحن فقط؟! كبرياء سوداني».

واصل "القائد المُلهَم" غرسَ خنجره المسموم في الكبرياء الذي ذكر، بينما الأعضاء المُبجلون اختلطت همهماتهم بطنطناتهم بقهقهاتهم المكتومة: «طيب، هذا الكلام يا جماعة ليس للضحك، إنها حقائق لا بد من أن نواجهها.. ان كمية الأربعة جالون بنزين أراها كثيرة، لماذا لا تكون جالونين فقط؟! ولماذا لا نستخدم المواصلات العامة ونركب البسكليت.. علينا أن نقصد في كل شيء.. من يأكل ثلاثة وجبات يأكل وجبتين، ومن يأكل وجبتين يأكل واحدة، ومن يأكل

وجبة واحده يأكل نص وجبة، ولماذا نشترى المعلبات الغذائية والصلصة؟! يا جماعة نحن شعب لم يتعود على الصلصة، نحن نأكل الويكة والكسرة، ولا نشرب الإسبرايٲ. لماذا لا نشرب موية الكسرة؟!.. هناك من تحدت عن ما سمناه مظاهر الثراء على بثينة.. بثينة دي زوجة رئيس جمهورية وسيدة السودان الأولى، مش زوجة نجار عشان تلبس ده وتخلي ده..

بالطبع لم يعد المشاهدون يميزون ما إذا كان "حادي الركب" جاداً أم هازل، في حين أن الجثث التي تكومت كالعهن المنفوش على الكراسي الوثيرة، لم تبد أي من الملاحظات التي تميز بين الإنسان والحيوان في مثل تلك المواقف. على العكس، فهي التي مدت له حبال الجهل مدأ، فأفرط في غزلها، وهي التي طأطأت له الرؤوس وأرهفت السمع وأفردت له جناح الطاعة.. فرغ "قائد المسيرة" من حديثه، ثم غادر القاعة وسط تصفيق حاد قابله بعين الرضا وبهز عصاه منتشياً كفارس عاد للتو منتصراً من معركة حامية الوطيس. لكنها احتفائية كانت لمن كرر البصر مرتين أشبه بلحن جنازي!

أما الديكتاتور الثاني، المشير عُمَر حسن البشير، قرينه في السوء، فقد تحدث أمس الأول الجمعة ٢١/٦/٢٠١٣ في رهط من مُشايغيه في مجلس شورى المؤتمر الوطني لدورة الانعقاد السابعة، بحسب ما ذكر في مستهل حديثه، والذي نقله بحذافره دون أدنى تدخل منّا في الصياغة أو بالتعليق، وتلك مهام نقلي بها على كاهل القراء الكرام! قال:

«الجماعة قالوا عندهم "خطة ١٠٠ يوم" عشان يسقطوا الحكومة ولا المؤتمر الوطني، وبعد داك قالوا إنو نشرك المؤتمر الوطني في الحكومة. بعد ما يسقطوا المؤتمر الوطني بيكون في كلام ثاني. فهي إذا كان نحن بنتكلم الآن نحن، زي ما قلنا في المرة السابقة، نحن يا جماعة مقبلين على انتخابات، والانتخابات دي بعد سنتين، والسنتين ديل ما زمن طويل، لو كل حزب بدأ من الآن يعمل على تجهيز قواعده ونظمه، لكن إذا كان الناس لو مفكرين بكره حتقوم مظاهرات والقوات المسلحة حتتأخر للمظاهرات ويسقط المؤتمر الوطني.. المؤتمر الوطني ليس الاتحاد الاشتراكي، وليس هو حزب حكومة، وإنما هو حزب حاكم. وأثبتت الأيام أنو القواعد الحية والنشطة في الشعب السوداني هي المنتظمة في المؤتمر الوطني، في قطاعاتها المختلفة، في شبابه، في طلابه، في المرأة، وفي كل قطاعات وأمانات المنتشرة، نحن كل المطلوب منّا يا جماعة، إنو ما ننوم على أنو والله معظم الشعب السوداني معانا، ما عندنا منافسين في الساحة السياسية، نحن يجب إنو ما بنعمل لكسب الانتخابات وإنما نحن بنعمل لبناء دولة، بناء الدولة ليس الهدف للحزب إنو يكسب الانتخابات في كل أربعة سنوات، ولكن الحزب ده عشان يقود النشاط، وكل النشاط

في الدولة يجب أن يقوم به الحزب، نحن إتكلنا عن حتى النشاط الرياضي والنشاط الثقافي يا أبو علي (هو رئيس مجلس الشورى، تحدث قبله وقال: كيف تفتح أجهزة الإعلام للفنانين والغناء والرقص ومهرجانات السياحة والبلد في حالة حرب وجهاد - الكاتب) ساعة لربك وساعة لقلبك، والحكاية ساعة بساعة، لو كلنا طلبنا كل واحد ماسك سبخته وماسك مُصحفه وقاعدين في المساجد الحكاية بتمل، يحصل الملل، فلازم يكون في فترات بتاعت ترويح يا أبو علي. ونحن حزب يا جماعة كل الناس، الفنانين مؤتمر وطني واللعبية بتاعين الكورة مؤتمر وطني، والهنات والتنظيمات دي كلها يا جماعة مؤتمر وطني، ده نشاط للمجتمع كله، لكن ده كلو نحن في النهاية عايزين نشذب النشاط ده ونضعه في قالب، حقيقة يخدم أهدافنا في بناء مجتمع طاهر ونظيف إن شاء الله البغني والبرقص كلو ليست بمجون ولا لهو وإنما هي حقيقة ترويح للنفس بعد ساعة من العمل والجهد، لأنو كل زول شایل بندقيتو أربعة وعشرين ساعة برضو دايرلو فترة كده يقعدوا، المجاهدين ديل ينشدو ويغنو عشان ما يروحوا على أنفسهم..

أما الكلام عن إعادة هيكلة الدولة لتقليل الانفاق، يا جماعة حقو نحن ما نقول كلام وبعدين نحن نصدقو ونفرضو على الناس، والناس يصدقوه. الكلام عن الصرف وترشيد الصرف، أنا عايز أوريكم الصرف الأساسي ماشي وين. أكبر إنفاق للدولة هو الدعم، نحن بندعم المحروقات وبندعم الدقيق والقمح وبندعم الكهرباء، لما حصرنا الدعم المباشر وغير المباشر البقدم من خلال هذه السلع والخدمات، لقيناه ١٤ مليار بالجديد، ١٤ تريليون، الميزانية كلها كم.. ٢٥ مليار، يعني نصف الميزانية ماشي دعم لسلع مباشرة وغير مباشرة، وده الدعم الغير مباشر كله، لأنو ما بنمشي للمواطن كاش في جيبه ولكن بمشي ليه من خلال خدمات، الدعم الغير مباشر ده، أكثر الناس استفادة من الدعم غير المباشر، هم الناس أصحاب القدرات والإمكانات، الناس البصرفوا أكثر والبيستهلكوا أكثر هم البياخدو دعم أكثر، يعني دعم البنزين بياخدو منو؟ أصحاب العربات الخاصة، أي زول راكب عربية خاصة الحكومة دافعه ليه مرتب، البيت الفيه أربعة عربيات خمسة عربيات كل واحد يبببسب إنو أخذ دعم كم من الحكومة، حنجي تلقى بعض الناس الدعم البياخدوه في البنزين أكثر من مرتب الوكيل، الناس البيستهلكوا كهرباء منو؟ الناس العندهم مكيفات والأسبيليت يونت.. هل كل سوداني عندو مكيف؟ هل كل زول عندو كهرباء؟ كم الناس البياخدو من الشعب السوداني؟ والأموال بتاعت الدعم دي يا جماعة هي مال عام، لا من

جيبى أنا ولا من جيب على محمود.. ده المال العام المفروض يوجه لتنمية وخدمات لكل الشعب السوداني. فالعدالة، أنا بقول العدالة تقتضى لأنو الدعم ده ما للفقراء، الفقراء بياخدوا مبلغ محدود جداً، كلو كم يا.. أميرة.. منتين للفقراء، أنا متأكد أنو أي زول من الناس الساكنين في البيوت الكبيرة بياخذ دعم كهرباء أكثر من دعم بنالو الفقير من الدولة، هل دي العدالة، دي مسؤولية أمام الله سبحانه وتعالى. فدي نحن دايرنها تتراجع. الحاجة الثانية في إنفاق الدولة هو الفصل الأول، ميزانية الحكومة ٥٠% منها فصل أول، هل المرتبات مجزية الآن؟ إذا كان الدراسات بتقول أنو والله مفروض يكون الحد الأدنى للأجور ١٤٠٠ بالجديد، الحد الأدنى كم يا...؟ ٤٥٠ معاناتها أي زول بياخذ مرتب هو دعم حق الفقر، فالفصل الأول بحجمه الكبير ده البمثل ٥٠% من الموازنة هو نيس بكاف، عشان كده أسه الناس بتعمل في دراسات عشان كيف إنها ترتفع بهذه المرتبات لكن من وين تجيب الموارد التغطي هذه الزيادة؟

ونحن في إطار المراجعة، يا جماعة في مراجعة مافي، الليلة نعين للدول الحواليا والحكومات القبالنا، هل سمعتو بمراجع عام في هذه الدول بيقدم تقريره للهيئة التشريعية مباشرة؟ أنا بتحدي، يا جماعة قبل حكومة الإنقاذ خمسة سنين حسابات حكومة السودان لم تقفل ولم تراجع، والمراجع العام لجمهورية السودان في وقتها الآن موجود وحي بسمع في كلامي ده، خمسة سنين ما اتقفلت الحسابات، ما تراجعت. نحن كونو الآن بنجيب المراجع العام وبيقدم تقريره مباشرة، ما قاعد يجيبه لينا في اندولة عشان نهذه يا جماعة، ولا نقصصه ولا نسمكره، أنا شخصياً بعرف مخرجات التقرير ده من الأجهزة الإعلامية، لما يقدموا، الأجهزة الإعلامية تعكسه، حتى بعد داك تعرف قال شنو؟ المراجع العام ما قاعد نجيبه عشان يكون ده تقرير بتاع دولة المراجع العام. وأنا أفكر قمة الشفافية إنو في مراجع عام لجمهورية السودان بيقدم تقريره مباشرة لممثلي الشعب. استخدام كلمة أو التعبير بالإعتداء على المال العام عند المواطن العادي وكثير من الناس، إنو زي الهجوم على المال العام، ده الإعتداء كده، لكن في معظمه، نحن يا جماعة بعد داك التقرير ما يجي بنجي نشوف كل الملاحظات، وبعد ما يناقش المجلس ويجينا من المجلس الوطني كل التقرير وملاحظات النواب وقرارتهم وتوصياتهم على التقرير، الناس براجعوه، أي تجاوز بيطلب أنو يقدموه للنياية، بمشي النياية وناس كثيرين جداً مشوا النياية، واتأخذ فيه إجراءات، وواحدين وصلوا المحاكم واتحاكموا، وما في قضية وما بنتستر على زول، في أغلبها هي تجاوزات في اللوائح والنظم المالية، وده لضعف

الكادر الحسابي والمالي الموجود في الدولة بعد الهجرة الضخمة الناس المهاجروها للخارج، أيضاً لبعض المسؤولين حقيقة بتكلموا عن إنو والله القروش طالما ما دخلتها في جيبى ما في مشكلة، لكن التقيد باللوائح والنظم هو حقيقة واجب، لأنو إذا كان إنت ما دخلت في جيبك ما بتضمن أنو غيرك يسلك نفس السلوك ده ويدخلو في جيبه، عشان كده الالتزام مهما كان حيفقد الدولة بعض القروش وبعض الزمن، أحسن الإلتزام بالنظم واللوائح عشان الواحد أول حاجة يبرىء نفسه أمام الناس، لأنو حتى لو إنت برئ أمام ربك سبحانه وتعالى وما برئ أمام الناس برضاها بتبقى منغصة في حقك.

في هذه العجالة حنتعرض للتحديات الكبيرة المواجهانا، وهي ليست تحديات جديدة يا جماعة، وليس بتأمر جديد، والتأمر حيظل مستمر، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ما استطاعوا ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، يا جماعة ده تدافع مستمر، ومعركة مستمرة، بيننا وبين قوى الشر، الآن العالم البيسيطر عليه تحالف صليبي صهيوني، التحالف الصليبي الصهيوني ده عنده القنائة الآن إنو سيطر على العالم وموارد العالم وسياسات العالم وإنو أخضع كل الناس لسياساته، فما بقبل أنو في دولة في العالم الثالث إنها تكون خارجة عن هذا النظام، ونحن خارجين عن هذا النظام وحنظل خارجين عنه، لأننا نحن إن شاء الله متمسكين بحبل الله المتين، نحن عندنا أصحاب عقيدة، أصحاب رسالة ما بنسلم ليهم ولا بننقاد ليهم، سعوا سعي حثيث جداً واستخدموا كل الأساليب من حصار إقتصادي وحصار سياسي وحصار دبلوماسي وحتى قانوني، لأنو أسه الرئيس ووزير الدفاع وآخرين، كلهم قال مطلوبين للعدالة الدولية، هو في عدالة، وين هي؟

حصار أمني دعم التمرد في دول الجوار، كل من.. حتى بعض الناس الكانوا قرييين مننا كلهم شغلوهم عشان والله الهدف في النهاية قالوا تغيير النظام في السودان، نحن نقول والله هو الأمر بيد الله سبحانه وتعالى، يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ليس بيد أمريكا، لأنو لو كان بيد أمريكا حسني مبارك ما سقط، لو كان بيد أمريكا شاه إيران ما كان سقط، لو كان بيد أمريكا موبوتو ما كان راح، ديل أهم الأدوات الكان أمريكا وحلفاتها يشتغلونها في المنطقة دي، الآن راحوا ونحن قاعدين والحمد لله رغم أنفهم. لكن يا جماعة التأمر ده بيحتاج لمزيد من الترابط والتماسك وما نعتقد إنو والله نحن امورنا كلها حتمشي كل يوم لحسن وأحسن، يجب يكون في إمتحانات وتكون فيها ابتلاءات، والرسول (ص) بعد الانتصار الداوي في بدر برضو تعرض للهزيمة في أحد، ويوم حنين... فلم تغني عنكم من الله

شينا، يا جماعة ده ابتلاء عشان الواحد ذاته يتذكر الحكاية... وإنما الأمر بيد الله سبحانه وتعالى، في اللحظة البتحصل لينا مشكلة، ده الوقت النحن محتاجين الناس يقيفوا فيه والناس يترابطوا فيه ويقيفوا، عشان كده الكلام القالوا أبو علي، استمرار الإستنفار يا جماعة، نحن في حالة استنفار، إذا فرغت فأنصب.

بنقول في ظل هذا التآمر ننظر لعلاقتنا الخارجية، بنلقى نحن علاقاتنا الخارجية مع الدول الحواليا نقدر نقول هي بدرجة ممتاز، ما عدا أخوانا اللي صدقنا معاهم لما وقعنا الاتفاقية بتنفيذها، وصدقنا معاهم بأنو وجهنالم موقفنا الواضح في إنو أنحنأ على أتم استعداد أنو نقيف معاهم ونساعدهم في بناء دولتهم وبناء مؤسساتها، لكن كان ردهم على ده كل شنو؟ مزيد من التآمر وأنا بقولها بكل أسف، إنو ده طبع اللنيم، إن إنت أكرمت الكريم ملكته، وإن إنت أكرمت اللنيم تمردا...

لم يتبق الكثير، ولكننا نكتفي بهذا القدر، فهو كفيلاً بـ"فقع المرارة" واستجلاب كل أنواع الغثيان. ولكن إن انتهى حديث "الرئيس الضرورة" فأنا أعلم أن أوجاعكم لم تنته، وآلامكم لن تهدأ، وأنتم ترون وطناً رؤوماً يتسرّب - بفضل هؤلاء - كما يتسرّب الماء من بين الأصابع!

آخر الكلام: لا بد من الديمقراطية وإن طال السفر!!
٢٠١٣/٦/٢٣

oboiikan.com

هل يَزَحَفُ الحِرَاكُ السُّودَانِي نَحْوَ خِيَارِ الصَّفْرِ؟!

توقفتُ عن الكتابة لفترة تربو على الثلاثة أشهر، وهي فترة تطاولت حتى شعرتُ كأنها دهرًا، بالنظر لما نحن فيه غارقون. وفي الواقع، لم يكن التوقف أمراً خُطط له أو قُصد عمدًا، فهو قد جاء نتيجة ظروف اتصل بعضها برقاب بعض، فحالت دون التواصل الراتب المعهود. هذه الظروف قد بدأت أولاً بدواعي أسفار، ثم أعقبتها مظاهر أسقام، وبالطبع لا هذا وذاك يعنيان القارئ في كبير شيء، ولذا سنتجاوزهُما بالحديث فيما ينفع الناس. بيد أنه بعد أن قضيتُ أوطاري من الأولى، وقضت الثانية أوطارها من جسمي، كان التأمل ملاذنا فيما تفاقم أثره وعظم أمره في حال البلاد والعباد. وتعلمون إنه حال كثر فيه توصيف المُنظرين، فمرة يقولون عنه إنه مُشكلة، وتارة أزمة، وثالثة كارثة. ولعلَّ الأخيرة صارت أكثر واقعية بعد أن أنشبت أظفارها على الاثنين معاً، وباتت تهديدهما بالزوال جغرافياً وديمغرافياً. ولا يظن أحد أن في ذلك شطخ أو نطح، أو حتى ضرب من ضروب المبالغة، فالأمثلة في عالمنا كثيرة، وجميعها حالها يُغني عن سؤالها. أما في واقعنا، فالشاهد أن انفصال الجنوب بالأمس، وما تمور به دارفور اليوم، هي محض مقدمات في إمكانية حدوث ما تاباه نفس كل وطني غيور!

أياً كان الحال أو ما سيؤول إليه، يمكن القول إن الفتق قد اتسع فعلاً على الرأتق. فالأمر بمنظورنا لن يتوقف عند سقوط أو إسقاط النظام، بقدر ما سيتوقف على التركة التي سيخلفها من ورائه، وهي الغاية التي لا ينبغي أن تنقاصر دونها الوسائل حتى يتم التعامل معها بمسؤولية تُبعد عن الوطن شبح إعادة إنتاج الأزمة، فالعاقل من اتعظ بغيره واستبان النصح قبل ضحى الغد. ولا يمكن القول إن هذه المعطيات مؤتمنة في ظلِّ تكاثر الكتابات حول الشأن السُّوداني. فهذه الظاهرة – أي الكتابة – رغم أنها محمودة، إلا أنه في تقديري غلب غثها على سمينها، واختلط فيها الحابل بالنابل، كما يقولون. وإزاء هذا الوضع، يخشى المرء أن تضيق قضايا الوطن الأساسية كما ضاع "عقد على جيد خالصة"، لهذا رأينا من المفيد استخلاص بعض النقاط التي ينبغي علينا التركيز حولها وتأملها بغية رسم خارطة طريق تعيننا فيما نحن فيه سادرون. ولأن المهم هو الحوار، حريّ بنا التأكيد قبل تسطير هذه النقاط، القول إنها تقبل الاختلاف بذات الروح التي تقبل بها الاتفاق. وسواء هذا أو ذاك، نأمل أن تشفع لنا غيابنا لدى القارئ، فهو من حقه أن يتوعد كاتبه مثلاً توعد سيدنا سليمان هدهده إن لم يأتيه بالخبر اليقين!

• أولاً: أصبح السودانيون يعيشون حياة غير طبيعية، مستغربون في الداخل ضربت عليهم الدل والمسكنة، ومغتربون في الخارج لا عد ولا حصر لهم، لكن السلطة الغاشمة تعرفهم بسماتهم، أي عندما يضحون الخمسة مليار دولار سنوياً في الجسد المتهالك (تمثل ٥% من الناتج المحلي، بعد البترول مباشرة قبل وبعد الانفصال) لكن المؤلم أكثر في حديث الأرقام، أنه عندما تسنمت الغصبة مقاليد السلطة قبل ربع قرن، كانت الطبقة البرجوازية - بحسب التوصيف الماركسي - تعادل نحو ٢% من سكان البلاد، وكانت الطبقة الوسطى التي تعد بمثابة العمود الفقري للمجتمع توازي نحو ٤٨% وقدرت نسبة الفقراء والذين هم تحت معدل الفقر بنحو ٥٠%، بلا أي تمايز طبقي. لكن هذه النسب تخلخت بعد هجوم التتار، وظهر المجتمع الطبقي بكل سوءاته. إذ أصبحت الرأسمالية الطفيلية تقدر بنحو ٥% ويمثلون السلطة الحاكمة وأزلامها، وهم من صار يتحكم في مصائر نحو ٩٥% من السودانيين بعد تذويب الطبقة الوسطى واندغامها مع قواعد الفقراء. وهي ذات النسبة التي يشار إليها باعتبارها نسبة الفقر في السودان بحسب الاحصائيات العالمية. وسواء زادت أو نقصت فهذه ليست أرقاماً صماء فقد عملت بالفعل على "إعادة صياغة الإنسان السوداني" سلباً، على عكس ما زعموا. فلا عرو بعدن أن رأينا الكذب وقد حل مكان الصدق، وطغى الجبن على الشجاعة، واستشرى النفاق وانحسرت الصراحة، وتسيدت الرذيلة على الفضيلة، وشاع الحسد وتضائل الإيثار، وانتشر الاحتيال وتوارت الأمانة، وفي خضم هذه المحرقة أصبح القابض على موروثة من الخلق السوداني القويم كالقايض على الجمر!

• ثانياً: يعد الفساد المالي والأخلاقي من أسوأ ما نتج عن حكم الغصبة، ذلك لما له من تبعات كثيرة عملت على تغيير الأنماط السلوكية للشخصية السودانية بحسب ما ذكرنا. وكنا قد كتبنا عن فساد الغصبة بوثائق دامغة، وبانرغم أنها كادت أن تطير عقول قارئها إلا أنها لم تحرك ساكن من كانوا في غيهم يعمهون. على كل ينبغي التأكيد من باب التوثيق على أمرين هامين تميز بهما فساد الغصبة ذوي البأس. أولهما الحقيقة الراسخة التي تؤكد أن هذا الفساد يعد الأكبر كما ونوعاً في تاريخ السودان على الإطلاق. وثانيهما، بالنظر لما يدعونه فقد أصبح فساداً مؤلجاً. تداوله أصحاب الأيدي المتوضئة ضغناً على إبنالة، كأحد شعائر الدين التي يؤجر عليها المتسابقون. ودونكم قضيتان، نوردهما من باب الذكرى التي تنفع المؤمنين (فساد وزارة الأوقاف، وفساد شركة الأقطان) فأبظالها هم أنفسهم رعاة الدولة الدينية، وهم أنفسهم ممن يرتادون المساجد ويعتلون المنابر، وهم أنفسهم من يذرفون الدمع السخين حتى تبطل أذنتهم وهم متبتلون. وأرجو ألا يعتقد أحداً أن الشفافية هي التي فتحت صحنهم، فهذا ببساطة حدث في إطار مقاصدة في حرب الجماعتين المتناحرتين

في سُدَّة السُّلْطَة. لكنني لن أغادر محطة الفساد هذه من دون أن أزوّدكم بوثيقة جديدة تطالعونها أسفل المقال، وقد وصلتني ضمن وثائق عدة سنعمل على نشرها. والحقيقة ما كنت سأفعل لولا أن صاحبها هو من وصم الشعب السوداني بـ"الشحادة" من قبل، وزاد عليها الآن بقوله لصحيفة الجريدة ٢٠١٣/٩/١٣ بأنهم قوم: «متعودون على الرخاء ويصعب فطامهم»، فتأملوها يا سادتي بلا تعليق، فقد تدركوا أن الموصوف عُرفاً بـ"الطفل المعجزة" ثناءً بـ وتمضى وتساوت عنده الملايين والملايين وبينهما طازج!

• ثالثاً: يقولون إن الاستبداد يُؤلّد الفساد وما في ذلك شك بالطبع، وإن كان العكس صحيحاً أيضاً. لكن ما بالك لو قلنا إنه - أي الاستبداد - له لسان وشفتين في البلد الصابر أهله. ففي أعقاب كوارث السيول والفيضانات الأخيرة، لم يكن المواطنين المكومين ينتظرون من السُّلْطَة أن تهديهم خيلاً ولا مالاً، لكن والي الخرطوم عبدالرحمن الخضر - قدّس الله سيره - نطق بمشاعر الاستعلاء وطبائع العنجهية التي درجت عليها العُصبة، وأدلى بتفسير غريب في فقه الأزمة والكارثة. لحقّ به أيضاً معتمد الخرطوم، الذي أعاد للأذهان قصّة ماري أنطوانيت. وفي واقع الأمر، هُما امتداد لخطاب برعت فيه عصبتهن، ولو أنهم التفتوا قليلاً للمخطوط في باطن كتب التاريخ لما كلفوا أنفسهم مغنّة الحديث. فهذا هو نفس الخطاب الذي عدّه عبدالرحمن بن خلدون من مظاهر زوال الحُكم، وهو نفس الخطاب الذي حسبه عبدالرحمن الكواكبي من علامات زوال الدولة. ومالنا نذهب بعيداً في التنظير، قُل لي برّك، أين الطغاة الذين كانوا بين ظهرانينا بالأمس في دول الربيع العربي؟! على كل، نخلص إلى ما نود تثبيتته، وهو أن استبداد العُصبة كفسادها تماماً، فهما مؤدلجان ظاهرأ وباطناً. فالناطقون به هم أصحاب الأفواه المُتَمَضِّمَة، وهل في ذلك قسم لتبيان بوار وعوار الدولة الدينية؟!

• رابعاً: الشباب هم عماد الأمة ومستقبلها، وفي السودان يُمثلون أكثر من نصف عدد السكان كما تعلمون. لكن المؤلم أن ما نسبته ٤٧% منهم تُحاصرهم العطالة والبطالة وتهتدّدهم السلوكيات التي يمكن أن تنتج عنها. والحقيقة نحن لم نلهم الاهتمام الكافي وفي صدورهم إنطوي السر العظيم، وهو بالضبط ما كان محط أنظار العُصبة على الدوام، فلم يتورّعوا في جعلهم وقوداً للحرب الدينية التي ابتدعوها في جنوب البلاد، فألقموها نحو ٢٠ ألف شاب ماتوا "سميلة" ولم تتكلّم أمهاتهم!

• خامساً: إنني على يقين أن الأنظمة الشمولية والديكتاتورية لا يمكن أن تغادر مسرح السُّلْطَة إلا بنفس الوسيلة التي تسلّطت بها على رقاب العباد. فالواقع إن الذين يُروّجون لتسوية سياسية تساوي بين الجلال والضحية، ويحاولون التحايل على ذلك تحت دعاوي ما يُسمّى بـ"التسامح السياسي السوداني"، هم

يفعلون ذلك بثمن فاضح. كما أنه انطلاقاً من العجز الذي يحيط بهم، هم يطمحون أيضاً في سلطة تجرّج نحوهم أذيالها المرهقة، أي دون أن يريقوا لها دمعا أو يهرقوا لها دما. ليس لأن هذا وذاك هما ثمن الحرية كما في تاريخ الأمم والشعوب، ولكن لأن سنايك خيول المغول الحاكمين هم من بادر وداس مبكرا على التسامح السياسي المزعوم، فأصبح ذلك بعدئذ سننهم وفرائضهم في حكم البلاد والعباد. وتأسيساً على هذا، فإن أي تسوية سياسية تُسقط مبدأ المحاسبة على الجرائم الجنائية التي ارتكبتها جلاوزة العصابة، أو حتى غض الطرف عن الفساد الذي أفقر البلاد، ستكون مجرد تسوية صلعاء تُعيد إنتاج الأزمة!

سادسا: ما أكثر شرور العصابة حين تعدها، فهل بعد تأجيج نيران القبليّة والإثنيّة حديثٌ لمذكر؟! وفي تقديري أن الظاهرة هي نتاج أمرين لا ثالث لهما. الأول، أنهم أقدموا على ذلك من أجل تغذية غريزة البقاء في السُّلطة، وهو ثمنٌ بخس لو كانوا يعلمون.. أما الثاني، فهو نتاجٌ طبيعي للحروب المتواصلة التي شنتها العصابة على شعوب السودان في الربع قرن الماضي. فقد بذلَ سدنتها ما وسعهم في تكريس منهج "فَرْقَ سَدِّ"، وهو أيضاً منهجٌ بانس، لو كانوا يدرون. فهذه الظاهرة عملت على تفتيت النسيج الاجتماعي وتهتكه، وهذه الظاهرة ضعفت التعايش السلمي بين شعوب ومختلف قبائل السودان، بل إن هذه الظاهرة وضعت السودان كله الآن في "كف عفرية" لا سيمًا، وأن شبح الحروب الأهلية الموسعة بات يدق على الأبواب بغنف. ومن عجب، فإن هذه الفنة الضالة تظن من فرط سكرها بالسلطة، أن النار إذا ما انداحت واتسع محيطها فسيكونون من الناجين!

سابعا: كلنا يعلم أنه كلما تشبّث الديكتاتوريات بالسلطة عملت على تحويل مجتمعاتها إلى كائنات مسلوبة الإرادة. ليس هذا فحسب، فالمُتأمل للواقع السوداني يدرك تماما أن الديكتاتوريات التي رُزنا بشروها، وبالأخص التي نتلظى بنيرانها الآن، عملت بمثابة متواصلة على تدجين الشخصية السودانية وفق مفاهيمها وتصوّراتها وتهيؤاتها، ولا يمكن القول إنها لم تجد من استجاب لدعاويها، وهي تعلم أن ذلك لن يعصمها من الهلاك. فهي في نهاية الأمر تريد مواطنا مضيقا يُنجز واجباته ولا يتحدّث عن حقوقه، وتوهمه بأنها تفكر نيابة عنه، وتقتنع باتها تعرف ما يضره وما ينفعه. والمفارقة أن الأمر في حالة "دولة الصحابة" الماثلة بين أيدينا يزداد تعقيدا، نسبة لاختلاط المُقدّس بما تعارف عليه العقل البشري. فهو لاء يزعمون أنهم يحكمون بتفويض من ربّ العالمين، وبالتالي فإن ما يُقرّرونه يأتي مبرا من الخطأ لأنه من شيم الخلق. نقول ذلك، بعد أن لاحظنا أن الديكتاتوريات بذلت ما وسعها لتكبيّل الإنسان السوداني عن أعمال الفكر، بل اجتهدت لاغتياله وليس تكبيله، تماما مثلما حدث للأستاذ محمود محمّد طه. وبالنظر لواقعنا، يمكن القول إنها نجحت في

محاربة الفكر، بدليل أنه بعد ما يناهز الثلاثة عقود زمنية على رحيله، لم تستقبل المكتبة السودانية عملاً فكرياً متكاملًا سوى كتاب الدكتور محمد محمود الذي صدر مؤخراً تحت عنوان "نبوءة محمد.. التاريخ والصناعة"، فبغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف مع كاتبه، فالثابت عندي أن الكتاب وفق الجهد المبذول فيه، يعد علامة هامة في إحياء سنن بضاعة كسدت، أو فلنقل كادت أن تكسد في الواقع السوداني!

من جهة أخرى، لعل الذين يتابعون الوسائل الإعلامية العربية عموماً والمرئي منها على وجه الخصوص، تأخذهم الغيرة في مشاهدة الحوارات الفكرية الثرة بدرجة يكاد المرء يعجز عن متابعتها. هؤلاء يُدلون بأرائهم المثيرة للجدل بعمق وثبات ووضوح، نشاهد ذلك في مجتمعات المغرب وتونس والجزائر ومصر والعراق ولبنان وسوريا.. إلخ، وبعضها يمرُّ بفترات مخاضٍ عنيف. في الوقت الذي نتضاءل معه ضعفاً ونتوارى خلفه خجلاً ونعجز في التعبير عن خيبتنا حتى في عرض قضايانا السياسية، ناهيك عن الفكرية. أنظروا إلى ما أنتجنا خلال حقبة ربع قرن في ظلّ دولة "المشروع الحضاري" ففي بدايتها تشدّق الدكتور حسن الثرابي عزّابها وخريج السوربون بقوله: «يكفي أن اسم السودان أصبح على كل لسان».. وسيان الأمر عنده أكان ذلك خيراً أم شراً. ثم أنظر لحواريه وهم يعيشون وهمّ المشروع بزاد قوامه عبارات "لحس الكوع"، و"بلوها وأشربوا موتها"، و"سلخ جلد الكديس"، وفي تقديري أن الحركة الفكرية الذؤوبة في بعض المجتمعات المذكورة هي التي جعلت بينها وبين تمدّد الإسلام السياسي سداً، وحالت دون أن يغرس شوكة المسموم في لحمها. كما يمكن القول إن الفقر الفكري الذي نعيشه، هو الذي جعل تجربة الإسلام السياسي البائسة تتمدّد في ساحاتنا منذ أن وضع "إخوان الشيطان" بذرتها في العام ١٩٧٧، وواصلوا رعايتها في العام ١٩٨٩ بالانقلاب المشؤم وحتى يومنا هذا. بتأكيد أن الفقر الفكري الذي نعيشه، هو الذي جعل منّا دولة هامشيّة، رغم تنطع الثرابي، وتعلمون أن أي أمة لا تجعل من الفكر غاية همها، هي أمة عاطلة وباطلة، وتشكّل عبئاً على المجتمع الدولي!

• ثامناً: إن الفقر الفكري صار متبوعاً بما لا يدع مجالاً للشكّ بفقر ثقافي وإعلامي أيضاً. فالصحافة التي نطالعها اليوم هي وريثة لصحافة عُمرها الآن أكثر من قرن. صحيح أن الديكتاتوريات ناءت بكلّكها على صدرها وأورثتها هذا الحال البئيس، وأزيد أكثر أن الديكتاتورية المحجبة الحالية جعلت من الإعلام هدفاً مركزياً. ففي القطاع المرئي، خصّصت ميزانية تقدر بنحو خمسة مليار جنية سوداني سنوياً للفضائية التي يُضفي عليها صفة "القومية" عنوةً وابتساراً، لأن هذه المليارات هدفت إلى صنّع الأوهام وضخّ الأكاذيب وتزييف الوعي. وحتى تكتمل هذه الرسالة القاصدة، فقد تمّ تأسيس قنوات فضائية أخرى بواجهاتٍ مختلفة، وإلى جانبهم عدد من المحطات الإذاعية. أما في

مجال الإعلام المقروء، فاعلم - يا رعاك الله - أن جميع الصُحف (عدا الأيام، القرار، الجريدة) مملوكة لجهاز الأمن والاستخبارات بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وغني عن القول فثمة تفاصيل يعرفها من كان في المهدي صبيّاً، لهذا كان من الطبيعي أن تكون مواقفها مرتبطة بثير مومتر الأخذ والعطاء. ولكن أرى لزماً علينا، استثناء رهط من الصحافيين والكتاب الشرفاء، نعرفهم بمواقفهم الراسخة، ونخشى أن نُؤذيهم إن أفصحنا عن ذكركم!

• تاسعاً: ما يُؤرّقني حقيقة، أن النظام سواءً بأفعاله الخرقاء أو بنظرية ردود الفعل، صنع تنظيمات أكثر تطرفاً منه، وقد لا يعلم بعض القراء الكرام أن ثمة ١٤ جماعة تكفيرية تمارس دعاويها بلا حسيب أو رقيب فوق رؤوسنا. هذه التنظيمات تكفر بعضها بعضاً. إذ تكفر السلطة نفسها أحياناً كنوع من أنواع الابتزاز، وتكفر أصحاب توجهات يفترض أنهم ينهلون من نفس مرجعيتهم، مثلما فعلوا مع السيد الصادق المهدي والدكتور حسن الثرابي، وتكفر كذلك المتصوفة الذين نهضت العقيدة الإسلامية على أكتافهم في السودان. ولعلّ الناس تابعوا بقلوب واجفة خروبهم المقدسة التي شنوها لتكسير قباب بعض الأولياء من الأموات، والناس أيضاً شاهدوا مواجهات مسلحة في المولد النبوي مع اتباعهم من الأحياء في السنوات المنصرمة، وشمل ذلك محاولات اغتيال الشيخ الصابونابي والشيخ أزرق طيبة. أما أصحاب المذهب العلماني - كما في قاموسهم - فهؤلاء رجسٌ من عمل الشيطان ينبغي اجتثاثه. فهل اعتبرنا يا أولي الألباب، وتأمّلنا حال وطن يقف على شفا حفرة من الجحيم، علماً بأن مصير الذين وقعوا في ذات الجحيم ماثلاً أمام ناظرينا!

• عاشراً: نخلص إلى حقيقة مريرة، وهي أن البلاد تقف الآن في مفترق طرق، تتحكّم فيه ثلاث مسارات.. ضلع يقف عليه نظام فاشل، وثانٍ تُمسك به قوى سياسية عاجزة، وثالثٌ تتشبّث به قاعدة شعبية عريضة تقف لا مبالية نتيجة لكُلِّ ما ورد ذكره أعلاه، وثمة شريحة خرجت من بطن الفئة الثالثة هذه وقوامها رهط من المخذلين والتبئيسيين والمتشائمين دوماً، وهم من يشيعون أفكاراً هدامة بغية تفتيت عزم الناس، ووهن عزيمتهم، والقبول بالأمر الواقع. وعلى الرغم من سوداوية هذه الصورة، إلا أن الراجح عندي، بل هو الذي لم أفقد الأمل فيه يوماً، وأكد أن الحراك السوداني سيبدأ الزحف نحو خيار الصفر، وأن مسألة سقوط النظام مسألة حتمية، طال الزمن أو قصر. ليس لأن الأزمة الاقتصادية الراهنة هي السبب، وإن كانت واحدة من تجلياتها، ولكن لأنها أزمة أخلاقية أنطقت الحجر العصبي، وتراكمت أسبابها السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمن ألقى السمع وهو شهيد!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٣/٩/١٥



بسم الله الرحمن الرحيم

أفدت الرئاسة / ح.ح. / إلى / ل.إ.م. / ت.م. / ه.ز. /
السيد الرئيس

١- صرفت الإثفاق ل.إ.م. / ل.إ.م. / و.م. / به / بعد / ت.م. /
وزارة ل.إ.م. / وزارة ل.إ.م. / ن.م. /

٢- ت.م. / ل.إ.م. / وزارة ل.إ.م. / ق.م. / ل.إ.م. /
ت.م. / ق.م. / ت.م. / ت.م. /
ق.م. / الت.م. / مليون دولار / الت.م. / وزير ل.إ.م. /
ل.إ.م. / ل.إ.م. / ل.إ.م. / ل.إ.م. /
ل.إ.م. / ل.إ.م. / ل.إ.م. / ل.إ.م. /
ل.إ.م. / ل.إ.م. / ل.إ.م. / ل.إ.م. /

٣- آمل أن أكون معكم قريباً

٤- السيد الرئيس / ل.إ.م. / ل.إ.م. /
ل.إ.م. / ل.إ.م. / ل.إ.م. /

أفدت الرئاسة / ح.ح. / إلى / ل.إ.م. / ت.م. / ه.ز. /
السيد الرئيس

٩٩٩

oboiikan.com

نداءٌ خاص للمُغتربين والمهاجرين السودانيين

كنا قد ذكرنا في مقال الأسبوع الماضي، أننا نحن معشر السودانيين وجدنا أنفسنا في ظلِّ حكم العُصبة ذوي البأس نرزح بين فسطاطين. مستغربون يقبعون تحت ويلاتهم في داخل الوطن، ومغتربون يكتون بنيران سياساتهم وقد تبعثروا في مختلف أصقاع العالم. ليس هذا فحسب، بل إن من نكد الدنيا على هؤلاء وأولئك ألا يعرف أحد عددهم أصلاً حتى يستقيم الحديث عنهم بصورة منهجية. لكن للدقة يمكن القول إن العُصبة عملت مرّتين على إحصاء مستغربي الداخل خلال فترة حكمها التي تمطّت وتثاءبت وبلغت رُبع قرن إلا بضعة أشهر. ومن المفارقات التي لن تدهش أحداً أن كلا المحاولتين كانتا لأسباب غير ما درج الناس على تعريفه بـ"الإحصاء السكّاني" والذي يتعيّن على الحكومات المحترمة إجراؤه حتى تستطيع إنفاذ مشاريعها التنموية وبرامجها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. لكن العُصبة المتجبرة أسقطت كل هذه الغايات النبيلة، واستبقت وسائل القهر التي تضمن بقاء السُلطة في حضنها بثلاثٍ شدادٍ. فتأبّطت بهنَّ شراً سمّته "التمكين"، وعاثت به في الأرض فساداً وطغياناً واستبداداً!

تذكرون يا سادتي أنه في بواكير تسعينات القرن الماضي، أعلنت السُلطة الغاصبة عن عزمها إجراء إحصاء سكاني في ٢٤ ساعة فقط. ومن عجبٍ أنها فعلت ودخلت به موسوعة "جينيس" للارقام القياسية، وكان الناس لا يعلمون أنه كان محض إحصاء أمني في إطار خططهم الرامية لإحكام القبضة على خناق الشعب السوداني. يومذاك فرضوا على المواطنين عدم مغادرة منازلهم مهما كانت الدواعي، وطافوا عليهم بمعلوماتٍ ظاهرها الإحصاء وباطنها الإخفاء، بغية تحقيق الغرض المذكور. أما المرّة الثانية فقد كانت قُبيل مهزلة الانتخابات الأخيرة التي أجريت في العام ٢٠١٠، وكان بهدف التمهيد لإجراء تزوير ممنهج لتلك الانتخابات. الأمر الذي تمّ وفق ما خُطّط له أيضاً، وبموجبه أُطلق عليها في الثقافة الشعبية (انتخابات "الخج") فصارت اسماً على مُسمّى. وسواءً هذه أو تلك، فنحن لسنا بصدد تأكيد أن العُصبة تحكّم قوماً لا تعرف عددهم، فهذا أمرٌ لا يمكن أن يفوت حتى على فطنة "ذبيح الله مجاهد" الناطق الرسمي باسم إمارة طالبان الإسلامية. لكن ما نود تنبيهه بحكم الواقع أن الأحياء والأموات في قاموس

الغضب يتساوون في الرثاء. ألم يقل الرئيس "الضرار" إن عدد ضحايا حرب دارفور لا يتعدون عشرة آلاف قتيلاً!

بيد أن مغتربي الخارج ليسوا بأحسن حالاً من سابقهم، مع فارق أن الغضب لم تجهد نفسها بإحصائهم.. لا سهواً ولا عمداً.. ذلك لأنها ببساطة لا تحتاجهم في تزوير انتخابات وضعت سداً بينهم وبينها. كما أنها لا تخشاهم في زعزعة أمنها، لأنهم واقعياً يوجدون خارج نطاق قبضتها الجغرافية. وعوضاً عن هذا وذلك، فتحت منافذ البلاد على مصراعيها ليخرجوا زرافات ووحداناً، في هجرة جماعية لم يشهد السودان لها مثيلاً. الغريب الذي لن يُفجع أحداً أيضاً، أن الغضب تقر هذا التهجير بلسان ينضح نباهياً. فقد قال كرّار التهامي إن جهاز شئون المغتربين الذي يدير مملكته، يُصدّر ثلاث آلاف تأشيرة خروج يومياً (المذكور قال في حديث منشور، أنه عُين في هذا المنصب بحكم أنه كان "غواصة" للجهة الإسلامية أيام الطلب، فتأمل!). كذلك قال فرح مصطفى، وزير العمل، إن عدد المغادرين في الربع الأول من العام الماضي ٢٠١٢ بلغ نحو عشرين ألف مواطن. عليه، يمكن القول إن الغضب أدخلت الإنسان السوداني ضمن الصادرات بأمل أن يدُرَّ عملاً صعبة تسد بها جشعها، ولهذا لا غرو أنه كلما تكثر أعداد الفارين من الجحيم، تنامت شهية الغضب لمزيد من الجبايات بدءاً من دمعة الأحياء، وانتهاء بدمعة الأموات!

بما أن السوء بالسوء يُذكر، كلنا يعلم أن سدنة الغضب يُشنفون أذاننا بحديث يكاد يفقد المرء وقاره من الضحك. فهم مثلاً يُحبّثونك عن فوائد الظلام عندما يتواتر انقطاع الكهرباء، ويذكرونك بضرورة الاستشهاد إذا وضعوا أعينهم على إرث طمعوا في أيلولته إليهم بعد رحيلك عن الدنيا، وإذا أفلست الدولة وصارت خزائنها خاوية على عروشها من أثر الفساد - مثلاً هو الحال الآن - يقولون لك إن لهذا من صنع المتأمرين والطابور الخامس والإمبريالية العالمية. على ذات النسق، قال الرئيس المشير ضمن هرطقاته في المؤتمر الصحفي ٢٣/٩/٢٠١٣ إنه اتفق مع وزير المالية للسماح للمغتربين بإيداع أموالهم بالعملية الصعبة، وسحبها بنفس العملة متى ما شاءوا. هل سمع أحدكم برئيس جمهورية يمارس أفعال الخوافة؟! فبغض النظر عن أن حديثاً كهذا يُعبر عن طبيعة السلطة الديكتاتورية لأنه اتفاق بين رئيس ومرووس نُثر على الهواء الطلق.. كيف لرئيس ألا يُحسن الظن بذكاء مغتريبه، فيتحايل عليهم بالحديث في أمر يعرفون دوافعه الآن، ويحبّثهم في زمن أصبحت سلطته كمنسأة سيدنا سليمان، تنتظر الإسقاط؟! أشهد أنني رأيت الكثير من الفهلويين في حياتي، ولم أكن في حاجة للمزيد، وواقع الأمر كنت قد كتبت من قبل، وقلت إن الرئيس المشير رجل كنوب، ولم أفتر عليه كذبا، فقد جاء حديثنا مشفوعاً بالأقوال والأفعال الموثقة، ومع ذلك ما كنت أظن أنني أحتاج لنعت شخص يوماً بشيء أبغض من الكذب.. وأنضاعل حياة من ذكره!

ذكرنا في المقال الماضي أن تحويلات المغتربين عبر المنافذ الرسمية تبلغ نحو ٥ مليار دولار سنوياً. وقد قرأت منذ نحو أسبوع أن هذا الرقم انخفض قليلاً لأسباب غير معروفة بالنسبة لنا، إذ بلغت تحويلات العام الماضي ٢٠١٢ نحو ثلاث مليارات دولار ومائة واثنين وسبعين مليوناً. وكنت قد ذكرت في مقال سابق معلومة موثقة، تقول إن السفارة السودانية في الرياض تقوم بإيداع ٢ مليون ريال يومياً في حسابها البنكي (عبارة عن حصيلة مختلف الأنشطة التي فصلناها في المقال المشار إليه) ويزيد هذا المبلغ في بعض أيام الأسبوع، نقول ذلك لمن يريد أن يستخدم الآلة الحاسبة في عمليات الجمع والطرح، أو الكرّ والفرّ بلغة العُصبة الباضية!

كذلك يطيب لي دائماً التذكير بأرقام يجتهد المنفذون دائماً لمحوها من الذاكرة الجمعية لأهل السودان، هذا على الرغم من أنها من بنات أفكارهم وليست من انتاج المعارضين والمغرضين والعملاء. أما تكرارها في مقالاتنا فيجيء أولاً من باب الذكرى التي تنفع الغافلين. وثانياً، حتى يعلم الناس أنهم أفقروا في بلد غني بكل المقاييس المعروفة. فبالإضافة لتحويلات المغتربين البالغة ٥ مليار دولار سنوياً. نقول إن عائدات البترول في الفترة من العام ١٩٩٩، أي العام الذي شهد تصديره لأول مرة وحتى العام ٢٠١١ أي عام انفصال الجنوب، كانت نحو ٧٠ مليار دولار. أضف إلى ذلك الموارد الطبيعية الأخرى والمعادن، وأضف الصادرات الحيوانية والزراعية من قبل أن تعبت العُصبة بمشروع الجزيرة وإخوانه. فكيف يفلس بلد بهذا الثراء العظيم؟! وفي واقع الأمر، نحن لا نخوض في تفاصيل فساد وثقنا له حتى كل متتنا ومتن غيرنا من الراصدين. كما أننا لسنا بصدد إعادة سيرة استبداد فاض كيله، فدونكم قولاً لم يجف رذاذه بعد، وهو ما تجسد في حديث (الهوت دوق والبيتزا والمساكن الشينة وركوب البكاسي) فإن لم يكن هذا هو الاستبداد بعينه، فقل لي يا صاح بالذي خلقك من ماء مهين، كيف يكون الاستبداد عندئذ؟! فنحن نعلم وأنتم تعلمون أن هذه العُصبة عشت بالمكونات الروحية والمادية لأهل السودان لدرجة يمكن أن يقول المرء إنه لولا دفع الله السودانيين بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً!

من المؤكد إن الناس في حيرة من أمرهم وقد تخالط صبحهم مع مسانهم، فالرئيس الضرورة مشغول بما يحب من نعم الدنيا الزائلة، أو إن شئت فقل شغل عمداً بخسنيها معاً، ولعلّ بعضنا لاحظ أنه يكرّر أرقاماً ويلوكها منذ سنين دون تمعن في مطابقتها لواقع يعيشه الناس ولا يحتاج لـ"درس عصر"! مثلاً ما عاد الحديث عن سيد مروي يُجدي بعد أن مثل قمة الفشل كمشروع كثير الكلفة قليل المردود. لكن إن أحببت أن تعلم يا عزيزي القارئ شيئاً عن النمل الذي أكل السكر وأفقر البلاد وأهلها، فتأمل فقط في ما تحاشي الرئيس الضرورة ووزير

ماليتَه الهمام الخوض فيه، وهي مخصّصات البدعة المُسمّاة بـ"الدستوريين"، والذين يستحذون على مخصّصات تنوء بحملها السطور. العاملون منهم في جهاز الدولة يبلغون الآن نحو ٨٢٨ دستوري كامل الدسم، في حين أن عددهم كاملاً يبلغ نحو ٩٠٢٥، وهُم الذين تقلّدوا مختلف المناصب منذ العام ١٩٨٩ وبالرغم من أنهم غادروها فهم ما يزالون يحظون بمخصّصات كاملة. في حين أن ساكن القصر وسدنته، من مساعدين يُفع ونواب رُفع وآخرين من وراء حجاب، تبلغ مخصّصاتهم الشهرية نحو مليون دولار شهرياً. وتعلمون من كثرة ما ذكرنا وكرّرنا أن العصابة ظلت تخصّص ٧٠% من الميزانية طيلة رُبع قرن للأمن والدفاع، أي لقتل شعوبنا بالحروب المتواصلة، في حين خُصّصت نسبة ١٠،٤% للصحة والتعليم. ولعلّ مُحصّلة كل ذلك حالة الإفلاس الكامل التي أُطبقت على الدولة الآن، فقد وصلت ديون البلاد إلى أكثر من ٤٥ مليار دولار، وتفشّت البطالة لتسجل رقماً قياسيًّا، إذ بلغت نسبتها نحو ٤٧% ونسبة الشباب بينهم أكثر من ٧٠% أما التضخّم فقد وصل إلى ما نسبته ٤٣% فهل بعد هذه الأرقام يمكن لجفن أن يغمض أو قلب أن ينبض أو لسان أن ينطق؟!!

صفوة القول، ماذا نحن فاعلون؟! لا شكّ أنه في مثل هذا المناخ سيسيطر على عقولنا هذا السؤال الحائر، وسنظل نرّده في صحونا ومنامنا، في سِرّنا وجهرنا، ونحن نرى الحراك الوطني قد بدأت نذره تمطر ثورة من سماء حبلى بأحداث جسام. وفقاً لما فصلناه، دعونا نوجه نداء مخلصاً للمغتربين والمهاجرين بدعوتهم لقصر تحويلاتهم المالية في إطار الحد الأدنى، أي في حدود العيش الكريم للملتزمين نحوهم من أسرهم وأهلهم. وليتهم يغلون أيديهم عن أي تحويلات دون ذلك، سواء كانت مشاريع استثمارية أو شراء عقارات أو أراضٍ أو منازل أو أي شيء من هذا القبيل، وذلك حتى يوصدوا الباب أمام نظام ظلّ يوجه تحويلاتهم في أضر لا تعود على الوطن وأهله بفائدة مرجوة!

نعم، نحن مجتمع تكافلي، ونحمد للمغتربين والمهاجرين أنهم حافظوا على هذه الشعيرة، فشملت رعايتهم الأسرة الممتدة وهُم يتابعون شهيق وزفير الوطن بقلوب واجفة ولا يدرون ما يفعلون. بل يمكن القول لولا المغتربين المبعثرين في فجاج الأرض، ولولا دول الاغتراب التي عشنا في رحابها سنين عدداً، لاصبحنا أمة متسولة بامتياز ونحن ننن تحت كل كل ديكتاتوريات تعد أنثى المالاريا "الأنوفيلس" أرحم منها في مص دماننا! وبالطبع نحن لا نهدف من وراء هذه الدعوة لفصم عرى هذه العلائق الاجتماعية التي نعتزُّ بها، بقدر ما نريد أن تتكامل تضحيات من هُم بالداخل مع مجهودات من هُم بالخارج، للتخلص من نظام يعيش سكرات الموت الذي كانوا منه يحدون!

آخر الكلام: لا بُدّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٣/٩/٢٦

فصل آخر من الجحيم القادم!

يدخل "جوزيف جارسين" بعيون زائغة إلى غرفة فارغة، ليست بها نوافذ ولا مرآة ولا أي أثاث آخر، فقط بها باب واحد، بحسبها جهنم. هُنيئاً وينضم "أينيس سيرانو" و"أيستل ريجوه" إلى جارسين، فيُغلق باب الغرفة تلقائياً ويجد الثلاث شخصيات أنفسهم وجهاً لوجه ورابعهم ضمير الغائب. وبسبب ما اقترفوه من مختلف الذنوب في الدنيا، كانوا يتوقعون أن يُعذبوا عذاباً لا يستثنى أحداً. لكن التعذيب بتلك الصورة النمطية لم يحدث، وعوضاً عن ذلك كان عبر نظرات الآخرين. فشرعوا في التحقق من ذنوبهم وكشف خطاياهم وذلك باجترار ذكريات مؤلمة والتفكير عن رغبات مكبوتة. في البداية رأى الثلاثة أنفسهم من خلال الأحداث التي تدور على الأرض، ولكن مع مرور الزمن أصبحوا أكثر انعزالاً عن الأرض وما فيها، فصاروا يفكرون في أنفسهم فقط. وعند اقتراب نهاية المسرحية، يصبح جارسين طالباً الخروج فينفتح الباب، لكنه لا يجرؤ على اتخاذ الخطوة الأولى في الخروج خوفاً من المجهول، فيفضل أن يبقى في الجحيم. وكذلك لا يستطيع أي منهم بسبب ما توهموه من حرارة عالية، والتي يتضح أنها مجرد ذريعة نفسية بدافع الخوف من شيء ما!

تلك هي خلاصة المسرحية الشهيرة لفيلسوف المذهب الوجودي جون بول سارتر، والتي خلاص فيها إلى أن "الآخرين هم الجحيم" لِيُفسِّرَها كل منا بما استقرَّ في عقله ووقر في وجدانه. أما أنت يا عزيزي القارئ، فسودنها كما تشاء، لن تجد مشقة إذا رأيت نافع علي نافع وقد تقمصته روح جارسين، لن يساورك الشك إذا اختبأ الرئيس المشير في ثناياه، ولن تتردد إن تجسد فيه عبدالرحيم محمد حسين أو علي عثمان أو عوض الجاز أو أي من القتلة الذين خضَّبوا أيديهم بدماء الشعب الأعزل. وتعلمون أن الآخرين موجودون في كل مكان، أما في حالتنا فهم - بلا ريب - سبب بلايانا ورزايانا وتعاسنا وشقاءنا وآلامنا، إنهم يا صاح الجحيم عينه. إن شئت أن تخوض المغامرة فستجد نفسك أمام شخوص يعجز فلاسفة الإنسانية وعلماء النفس والاجتماع عن سبر أغوارها، لأنها ببساطة تنطوي على الذي لم يُدرَس في قاعة أو ضمته مراجع أو خضع للتنظير.. بل لم يخطر على قلب بشر!

الآخرون همّو يا رفيق، فالتعاسات لا تأتي فرادى، تأملوا جيداً هذه الوجوه التي علتها غبرة جزاء السلطة وادمائها، وأرهقتها قفرة من كثرة التقتيل والدم

المسفوك في الأشهر الحرم والأشهر الحلال. هم الذين أسكرتهم السلطة حتى باتوا لا يُفرّقون بين الوطن والمحن. إذا سمعوا شعبه ينن من المعاناة، قالوا من أين ينبعث هذا اللحن العذب الجميل؟! وإذا رأوا دماء شبابه تسيل حمراء قانية، قالوا تالله ما رأينا منظراً أجمل من هذا في الوجود.. وإذا أرادوا التقرب إلى الله رُفّي، طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد. كلما ضمرت بطون الناس زادوا شحماً ولحمًا وورماً. هم من سلالة مُستبدة لا تشبع من تحقير البشر، ولا تكف عن الإساءة للناس. ففي ذواتهم انحراف سلوكي "بالميلاد". وصفات متأصلة "بالتجنس"، هي عُصبة هوايتها تفرغ عقدها النفسية لتشبع غرائزها المريضة. نفوسٌ مليئة بالحق والكراهية، كأنها خلقت من ضلع شيطان رجيم. بينها وبين المحبة خصام وبينها وبين المودة عصيان، عُصبة إن حَمَلَتْ عليها تلهت، وإن تركتها تلهت!

على الرغم من أنني على قناعة كاملة بأن العُصبة ذوي البأس هؤلاء، ارتكبوا من الأخطاء والخطايا - على مدى ربع قرن - ما يعجز القلم عن رصده، إلا أنني أضيف بأن سنام هذه الأخطاء والخطايا تمثلت في ردود فعلها الفاشستية التي تعاملت بها لقمع الانتفاضة الحالية (سبتمبر/أكتوبر). ذلك لأن ما حدث بالوقائع التي شاهدها العالم كله موثقة بالصوت والصورة، استمرت دموع البشر واستنطقت الصخر العصي. لم يحدث أن شاهد السودانيون قمعاً لمتظاهرين غزل بتلك الصورة الوحشية حتى في أزمنة الاستعمار البغيضة، علماً بأن المتظاهرين لا يملكون سوى حناجر راعدة وإرادة وطنية صلبة. وطبقاً لذلك فأنا على يقين بأن ما حدث بالأمس ستترتب عليه غداً مطلوبات سياسية وجنائية واجتماعية ونفسية وأخلاقية كثيرة. وتعلمون أن ذلك ليس ببعيد في يوم ستفتح فيه الصحائف وتنصب موازين العدل. فالتجارب علمتنا أن التاريخ حتى وإن صنعه الأخيار والأشرار معاً، إلا أنه لا يُكتب بالرصاص ولا بقلم "الرصاص" بمثلما لا يُمسح بـ "أستيكّة" ولا تسقط وقائعه بالتزامن!

على الرغم من قناعاتي أيضاً أن العُصبة الحاكمة تجرّدت من كل ما يمُت إلى البشر بصلّة، إلا أنه بلغني من مصادرهم العلمية، أن أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وقد حدث ذلك أثناء اجتماعاتهم التقييمية السريّة للتظاهرات. إذ جرّأت فئة واستهجنّت العنف المفرط - كما قالوا - في التعامل مع المتظاهرين. لم أندهرش، وقلتُ لمن سمعت منه إنني أصدّقه، ولكن ليس لأن مشاعر إنسانية تلبّست عُصبته على حين غرّة، أو أن نوازع الخير غلبت مدد الشر في نفوسهم، ولكن ببساطة لأنهم رأوا في الضحايا المصير الذي ينتظرهم في الغد المأمول. فكان من الطبيعي أن يجفل النوم مع عيونهم، وظني أنهم استجلبوا له - أي النوم - من المهدئات والمسكنات والمنومات ما يمكن أن يجبّوا به "أهل الكهف" بلا جدوى! لكن قل لي يا من تلوم ولا تلام، كيف تنام عين من ثقت بأذنه بكاء الثكالي، وكيف يهدأ بال من رأى في الصحو أطفالاً قُلت براءتهم وشباباً أزهقت

أرواحهم ويفعاً هُتكت أعراضهم.. وبعد كل ذلك، رأى في المنام أنه سيُذبح ولم يجد من يفذه بذبح عظيم!

لقد زلزلت الانتفاضة الأرض تحت أقدام العُصبة. فتوارى نهج الغرور والعنجهية والاستعلاء، بل عندما تَرَكَت نيرانها واشتدَّ أورها، توارى صنّاع النهج الزائف عن الأنظار كما تتوارى الجردان في جُحورها. ومن سخرية الأقدار أن المشروع الحضاري بكل صيته الذي ملأت به العُصبة الأفاق، لم يجد من يدافع عنه سوى المؤلفة قلوبهم، الذين جُبلوا على الدَّجل والكذب والنفاق أمثال أحمد بلال وخالد المبارك، وثالثهم ربيع عبدالعاطي الذي ظلَّ باسطاً ذراعيه بالوصيد عند كُلِّ قناة فضائيّة لدرجة أصبح فيها مثار سخرية الإعلاميين العرب! عموماً لم يحن جرد الحساب بعد، فالانتفاضة ما زالت مستمرة. ونعلم علم اليقين أنها ماضية في طريق الجحيم نفسه وهذا ما استقرّأناه من دروس التاريخ. ولأنها انتفاضة كرامة ضدّ الدّلّ والمهانة، فهي تعلو ولا يُعلَى عليها. كلنا يعلم أن حديث المشير غير المسئول عن المَـنّ بالمأكّل والمشرب كان بمثابة عود النّقاب الذي أشعل التظاهرات. ولأن الديكتاتوريات على أشكالها تقع، لو أنه قرأ تاريخ السودان بعناية، لأدرك أن ما تفوّه به هو نفس الحجارة التي قذفنا بها صنّؤه المخلوع جعفر نميري من قبل. ومن عجب، فهو لا يرعوي فقد أعاد طعن الكرامة السودانيّة بما هو أنكى، إذ وصف المتظاهرين بـ"الخونة والعملاء وقطاع الطرق" .. فتأمل!

بيد أنه ليس وحده، فثمّة من استمرّوا الذاكرة الغريبيّة التي وُصِمنا بها ولا ننكرها. فما أن هدا مثار نقع المظاهرات فوق سماننا، إلا ورأينا المرجفين في المدينة يستلون أعلامهم ليحدثونا عن انتفاضة موءودة وينتقصون من قدر شهداء رروا بدمائهم الطاهرة ثرى وطن مكلوم. قرأناهم وهم يجمعون الغنائم ويُقيِّمون الولائم ويطرحون "المناقصات" ويضربون الدّلّ والمسكنة. رأيناهم وقد حبسوا أنفسهم بجسد لا يكل وقلب لا يمل من سلّطة تأتي منقادة تجرّج أذيلها. آخرون كانوا كما في جحيم سارتر، يصنعون من الشرّ جيوشاً ويخشون مصيراً كمصير من يفِر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. هؤلاء يعرفهم الناس بسيماهم التي انصبت على كتاباتهم ولحن القول الذي يستتبع موافقهم. لا يجدون في أنفسهم حرجاً في تغيير السلاح من الكتف اليمين للكتف اليسار دون أن يكروا البصر مرّتين، أو حتى يطرف له جفن. لقد كشفت الانتفاضة عورة السياسيين الانتهازيين والمتفقين الكذبة، الذين برعوا في التذجيل والتخذيل والتئيس وتناسوا أن الحقيقة تظل ناصعة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها!

بوسعي أن أحصي لك يا عزيزي القارئ من الأسباب التي تجعل نار الانتفاضة متقدّة ما يمكن أن يكل متني عن خطه وترهق عينيك قراءته. ليس لأن الظروف السياسيّة والاقتصاديّة التي أوجدتها ما زالت قائمة، وليس لأن السُلّطة

الغاشمة لا تملك لها حلاً ولا تستطيع معها صبراً، ولكن الأسباب نفسها وأكثر
تمددت وانتفخت وتفاقت بعد الدم المسفوك. هل بلغك بعدنذ نبأ الذين شيعوا ما
سُمي بـ"التسامح السياسي السوداني" إلى مثواه الأخير، هل بلغت سيرة الطيبين
الذين اسقطوا من قاموسهم "عفا الله عمّا سلف"، فقد يعفو الله فهذه واحدة من
صفاته واسمائه الحسن جلّ وعلا، أما الشعب فلا يظن أحداً أنه فاعل!

إنها انتفاضة الكرامة، لو كانوا يسمعون، وما رفع الدعم عن المحروقات
سوى سطرٍ أخير في كتاب لا يمنة إلا الثوريون!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٣/١٠/١٣

إني أرى تحت الرماد وميض نارٍ!

من المؤكّد أن القارئ الكريم كثيراً ما طالع هذا العنوان المُقلق والمُربّع والمُخيف، في الكتابات التي تناولت الشأن السياسي السُّوداني، وتحديدًا في السنوات العُجاف التي استأسدت فيها العُصبة ذوي البأس على أهل السُّودان واستأثرت بالجاه والمال والسُّلطة. وأستطيع أن أقول - على المستوى الشخصي على الأقل - إنني وعلى سعة إطلاعي، لم أقرأ هذا العنوان قبل العام ١٩٨٩ يعلو أي شأن من شئوننا السياسة أو العامّة. أي منذ أن قاله نصر بن سيّار الكنانيّ، آخر حُكّام خراسان - بعد موجة مظاهرات واضطرابات اجتاحت ولايته - في رسالة إلى مروان بن محمّد، آخر ولاة بني أميّة وضمنها هذه القصيدة بشّطرها المذكور. وفيها حذّره بخطورة الأوضاع وعواقبها الوخيمة، لكنه لم يستبن النصّح فكان لا مناص من الكارثة. وعليه كانت هذه القصيدة بمثابة الإشارة الأولى في انهيار الدولة الأمويّة وقيام الدولة العباسيّة. أما في زماننا الحالي - أي زمان الأمويين الجُدّد - الذين سامونا سوء العذاب، فقد عمّد كثير من الكُتّاب والصحافيين إلى تصدير مقالاتهم بهذا العنوان، منهم من حاول إساءة النصّح للفئة المُستبدة والمُتجبرّة، وتذكيرهم بالمصير الذي حاق بسابقيهم من الطغاة في التاريخ الإنساني. ومنهم من أوردّه خوفاً ورهبةً وخشيّةً على البلاد والعباد من سيناريو مأساوي غرقت في لجه أممّ وشعوب. ولكن بالرغم من أن كل هذه الشواهد ماثلة أمام أعينهم، إلا أن العُصبة ذوي البأس المعنّيّة بالرسالة حاكوا الأمويين القدامى، إذ جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واستكبروا استكباراً!

صحيح أن كُتّاباً كثيرين استخدموا العنوان أعلاه، ولكن حتّى لا تصيبكم الكلاله والملالة والأذى، فأنّا أصدقكم القول إن الأمر لمختلف جداً هذه المرّة، أي ليست كسابقاتها التي لم يُوبه لها أو يُعمل بها، فنحن لا نوردّه هنا من باب التكرار أو الانبهار، ولا من زاوية الترهيب أو الترهيب. ولكنه محصّلة لقراءة متأنّية بشواهد ونتائج تأملناها بعد طول استقراء في واقع أصبح كتاباً مفتوحاً بسيناريوهات يعجز عن حصرها أي راصد. حيث كان من الطبيعي أن نصل لهذا الوضع الكارثي والذي لم تكف فيه العُصبة الحاكمة بالفشل، بل استعصمت بـ"عنف البادية"، على حدّ تعبير من أهدانا وعياً لم تحسن صنّعه. والواقع أنها لم تستخدم ذلك بين غمضة عين وانتباهها، فذلك نهجٌ تمطّى على مدى رُبع قرن

وناء بكلكله على صدورنا ونحن له صاغرون. يقيني أن البلد الصابر أهله لم يتأملوا بعد وقائع ما حدث في انتفاضة ٢٣ سبتمبر الأخيرة، ولعلمهم فاعلون. والذي نفس الفقير إلى ربه بيده، أن هذه المُقَدِّمات التي رشحت بغير أنه سيكون لها مترتبات سياسية واجتماعية ودينية ونفسانية، فقد أضرمت ناراً فيما ظلّ أهل السودان يعترضون به في إباءٍ وشمم وكبرياء!

في يوم ٢٧/٨/٢٠١٣، زار المشير البشير السيّد الصّادق المهدي في منزله بالملازمين بمدينة أمدرمان، وعلى إثر انتهاء اللقاء، هوت للأخير القنوات الفضائية بالذي يهواه. وبالرغم من أن الصور نفسها جِئَتْ قول كُلِّ خطيب، إلا أنه عبّر عن سعادته البالغة بنشوة لا تباريها سوى نشوة صلاح الدين الأيوبي حين حرّر مدينة القدس بعد معركة حطين، وقال: «هذه ظاهرة لا تكون إلا في السودان، لما فيه من تسامح سياسي شائع بين السودانيين». ولكن من نعم الله علينا، أن الأحداث في ظلّ دولة الغصبة يأخذ بعضها برقاب بعض، إذ سرعان ما ينكشف أمرها ويذاع سرها. فبعد أقل من شهر، كان التسامح السياسي السوداني يقف على أسنة الرماح، وتحول بقدرة قادر إلى رصاص وهراوات وغاز مسيل للدموع ومخلوط بدماء تقطع نياط القلوب. وفي التقدير، لم يكن ذاك اختباراً لمنهج التسامح السياسي المزعوم، بقدر ما هو تعرية لأوهام حاول الإمام مداراة سوءته بها، أما الغصبة نفسها فلم تكن في حاجة لكشف عوراتها، فتلك خُطى سارت على دربها منذ أن اغتصبت السُلطة بدبّاباتها المُجنزرة بالكتاب والسنة!

كثيرٌ ما ذكرت في كتاباتي وقلتُ إن التسامح السياسي السوداني المزعوم ما هو إلا محض فرية رُوِّجت لها النُخبة لُخفي بها نقصُ القادرين على التمام، هو في حقيقته كحبّئهم التي يطوفون حولها، ويعلقون على أستارها أخطائهم وخطاياهم، هو ضربٌ من ضروب الحُواة ليُخفوا به عجزهم وفشلهم، هو نوعٌ من أنواع الأبلسة السياسية التي دأبت عليها حتى تستطيع أن تواصل زحفها المقدّس في التشبُّث بالسُلطة ولكي تصرف الأنظار عن المساءلة وانحساب والعقاب، هو نهجٌ مارسته ثعالب الغصبة أيضاً فيما سُمّي بـ«ديمقراطية رأس الذنب الطائر»، بحيث تستحوذ على السُلطة التنفيذية لإفطارها، والسُلطة التشريعية لغدائها، والسُلطة القضائية لعشائها. ومع ذلك، يطيبُ لها التحدُّث عن التسامح السياسي السوداني بلسانٍ عربي مُبين!

بيد أن خلافتنا حول المفهوم ليس لأن نقيضه يجري على الأرض. ولكن لأنه أساساً لا وجود له في عالم السياسة حتى لو كانت تدور وقائعها في مجتمع، تدثر بالطهر والعفاف وترمّل بالشفافية والديمقراطية. ذلك لأن السياسة منهج يستند على حقوق المواطنة وواجباتها في الدولة المدنية الديمقراطية. وتعلمون أن البشرية عرفت عوضاً عن ذلك ما سُمّي بـ«التسامح الديني»، وهو الذي انبثق من ركام حروب جرى فيها الدم أنهاراً، مثلما حدث في أوروبا على سبيل المثال،

وهو الذي كفل لدولها فيما بعد الاستقرار والتقدم والازدهار الذي تنعم به الآن. ومن المفارقات التي تجسد زيف ونفاق العُصبة الحاكمة، أنه في الوقت الذي كان ينبغي عليها الاهتمام بهذا الإرث الإنساني عملت على العكس تماماً، فعلاوة على التسامح السياسي الذي أصبح تنازلاً سياسياً (وفق منهج نافع وصحبة) أحالت التسامح الديني إلى تناحر ديني في حربٍ رفعت فيها شعارات "الجهاد" دجلاً وافتراءً. وجاءت ثلاثة الأثافي في عصفها التسامح الاجتماعي بالتفريق بين شعوب وقبائل وإثنيات أهل السودان، فبدلاً عن أن يتعارفوا وفق المنهج القرآني أصبحوا يتقاتلون طبقاً لدين العُصبة!

باسم التسامح الديني، دشنت السلطة بيوتاً لا يذكر فيها اسم الله وأحالتها لأوكار تمارس فيها البطش والتعذيب والتنكيل.. باسم التسامح السياسي المزعوم لجأت العُصبة في بواكير عهدها بالسلطة إلى بث الرعب في قلوب الناس، فأقدموا على قتل ٢٨ ضابطاً وعشرات من صف الضباط والجنود في شهر لو استحل فيه صائم دم باعوض لاستوجب القضاء والكفارة، ثم قبرتهم وبعضهم كان ين من الألم. باسم التسامح الاجتماعي حصدت أرواح أكثر من مائة طالب في معسكر الخدمة الإلزامية بمنطقة العيلفون، وآخرين كان سلاحهم القلم والألم في جامعات الخرطوم والجزيرة وكسلا والفاشر.. باسم التسامح الاجتماعي، مارست هواية القتل والتنكيل في مواطنين أبرياء زادهم الصبر على المكاره في كجبار وبورتسودان ونيالا.. باسم التسامح السياسي كان القتل غير المسبوق في تاريخ السودان لمتظاهرين عُزل في ضواحي الخرطوم ونيالا ومدني بتلك الصور التي أدمت قلوب ناظرها.. باسم التسامح الاجتماعي تم تشريد الملايين في دارفور وإزهاق أرواح مئات الآلاف، تواضع الرئيس "الضرورة" وقال إنهم محض عشرة آلاف لا غير، كأنهم يا مولاي "حزمة جرجير يُعدّ كي يُباع"، كما قال الشاعر الراحل صلاح أحمد إبراهيم!

في الضفة الأخرى من النهر، هل يعتقد عاقل أن المغبونين والمظلومين والكاظمين الغيظ، يمكن أن ينتظروا عند المصب إلى أن تحمل المياه لهم جثة عدوهم؟! إذ أن لكل فعلٍ رد فعل، كما تقول قوانين الطبيعة. فلنتأمل ظواهر باتت تسري بين الناس ويتفاقم أثرها يوماً بعد يوم. على أنني أتساءل هل رأى أحدكم أو سمع أو قرأ أن مواطناً سودانياً قذف حاكماً بكرسي أو "مركوب"، أو سمع كلمة حق في وجه سلطان جائر، مثلما فعل محمد حسن البوشي مع نافع علي نافع، أو طرد بطريقة مُهينة كما حدث مع نافع نفسه في مأتم الشهيد السنهوري بضاحية بُري؟! هل استشعرت العُصبة تلك الكراهية التي انداحت بين الناس في مجالسهم وهم غير ابهين لمآلتها؟! هل قرأوا هذا النقد المكثف في وسائل الإعلام المختلفة لدرجة بات المرء يتساءل عن هم مناصروهم؟! هل أدركت العُصبة الغضب الذي بات يسيطر على كثير من الناس لدرجة كادت أن تفقدهم الكراهية وقارهم فيما يقولون ويسمعون ويكتبون؟! هل عرفت العُصبة أبعاد ومغزى السخرية

التي تزكّت نارها وزاد أوراها؟! هل طرق دعاء المظلومين وتوسل المغبونين
آذانهم؟!

إن العاقل من اتعظ بغيره والحكيم من تدبر أمره، والجاهل من كان عدو
شعبه ونفسه. واهمّ من يظن أن الكرسي سيظلّ كرسيّاً ولن يتحوّل لعربة مفخّخة،
وواهمّ من يعتقد أن "المركوب" لن يصبح كلاسنيكوف، وواهمّ من يظن أن
الكراهية والثأر مشاعر يتناولها الناس عند اللزوم، وواهمّ من يعتقد أن الغضب
يظل قصيدة شعر حالمة، وجاهلّ من يظن أن النيل لن يجري جنوباً.. لستُ زرقاء
اليمامة سادتي، ولا ادّعي رجماً بالغيب، ولكنني بحسن المواطن الذي يخشي على
وطنه وقلبه على موطنه، أقول إنني أرى وميض نار أوشك أن يكون له ضرام،
فعلى العُصبة أن تتحسّس موقع أقدامها من قبل أن يأتي الطوفان الذي كانوا عنه
يحيدون!

آخر الكلام: لا بُدّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!
٢٠١٣/١٠/٢٥

الانتفاضة الشعبية الثالثة.. هل من سبيل؟!

يظن البعض وهم آثمون، أن الانتفاضة الشعبية الثالثة التي اشتعل فتيلها، وازداد أوارها، وكادت أن تطرح ثمارها في سبتمبر الماضي، قد توقف قطارها ولا سبيل من تواصل مسيرتها نحو غاياتها النبيلة. ويذهب بعض آخر إلى ما هو أسوأ من التشاؤم، فيُشكِّكون في قدرة الشعب السوداني على إزاحة النظام الديكتاتوري البغيض من سدة الحكم ورمي عُصْبته في مزبلة التاريخ. ويوغل آخرون في التطيُّر، فتذهب بهم الظنون مذهب شتى.. أدناها أن السودانيين رضخوا للأمر الواقع، وسنامها التشكيك في وطنيتهم برُمْتها. ثم يحققون هذه وتلك بفيروسات التينيس والتخذيذ والتبغيض، درءً لأي طموحات وزهقا لأي أحلام. ثم يصفعونك بأحاديث "المؤامرة" حتى تكاد وطنيتك أن تصاب بالترعُّع. وإذا عجزوا عن هذا وذاك، قالوا لك إن البلاد لا تحتمل صراعا يذهب بريحها. أما "المتشائلون" فيدلِّقون على وجهك ما لن تستطيع معه صبرا، فيقولون لك: "نعم، الانتفاضة قادمة".. ولكن كيف ومتى وأين؟! ويطرحون أسئلة أخرى تتنسل كالآرانب، في حين يفترض أن يكونوا هم مجابوها. بالطبع كل ذلك ليس بجديد عليك أيها القارئ الكريم، وأحسبك تطالع بين الفينة والأخرى أحكاماً قطعية على هذا المنوال، منها ما هو في حكم سقط المتاع، ومنها ما يتمسك به قائلوه ويكابرون حوله كأنه قولاً منزلاً لا يأتيه الباطل من بين شقي ناثره. ولأن هذا طريق لا يحتمل التأويل، فأظنكم تتساءلون: وأين يقف الكاتب؟! أقول ابتداءً، يكفيني فخراً إنني ما زلت "أؤمن بالشعب حبيبي وأبي"، بل أزيد ولا أزايد على شاعرنا الفطحل محمد المكي إبراهيم، وأقول: إنه أمي أيضاً!

لكن دعوني أوغل في تفاؤلي، واقرأوا معي قولاً وجيزاً ورأياً سديداً ينزل الضمائية في قلوب سامعيه: «قد علمتني تجربتي أن قوى الصراع الاجتماعي المتفاعلة تكون دائما مقبورة تحت السطح وتظهر نفسها بطرق مختلفة قبل مدة طويلة من انفجارها، وأن هذه القوى تظهر أوّل ما تظهر في قوة الفكرة قبل أن تتبلور في أشكال تنظيمية تتحدى السلطة في وضوح النهار».. هذه المقولة الرائعة خطها م. س. هاندار، وهو صحفي أمريكي جاب عوالم كثيرة وعاش أحداثاً ضخاماً في شرق وغرب أوروبا، شاهد شعوبها تصنع تاريخاً تليداً، وهو ما أصبح موضع حكمه أعلاه. وقد جاء ذكر تلك العبارة في مقدّمة كتاب "السيرة

الذاتية" لمالكوم إكس، كما رواها كاتب "الجزور" إليكس هيلي، وقام بترجمته صديقنا البروفسير أحمد عبدالرحمن، الأستاذ السابق بجامعة الخرطوم والحالي بجامعة الكويت، وهو سفرٌ لا غنى عنه لمن أراد أن يمتنع نفسه بالدهشة، ويُغرقها في بحور من التساؤلات الفلسفية العميقة. أما أنا، فقد فعلتُ، وأستمع بقراءته هذه الأيام. وعندما وقعت عيناى على تلك العبارة البليغة كدتُ أن أصيح: "وجدتها.. وجدتتها"، وأركض عارياً كما فعل أرخميدس من قبل. ولكن طالما أن ذلك لم يحدث، فأنا أدعو المتشائمين ليضعوها نُصب أعينهم، ويمكن لـ"المتشائمين" أن يتقادوها تميمة في أعناقهم أيضاً!

إن التعليق على ثُرَهاث المُتَشائمين وتبليس المتشائمين، يدعونا يا سادتي إلى أن نسبح أولاً في المياه الهادئة كما يقول الفرنجة في أمثالهم. نحن نعم وأنتم تعلمون، أن الشعوب ليست حالة استاتيكية ساكنة، كما يقول الفيزيائيون. بل هي باختصار، قوى ديناميكية تتفاعل سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً مع واقعها، لتصنع حيواتها بصور مختلفة ووفق نظم وأطر داخل منظومة معينة. وبناءً على ذلك لا ينبغي أن يصدر البعض أحكاماً نهائية في أمر يتعلق بالشعوب وحراكها، اللهم إلا إذا كانوا من ذوي الأغراض الدفينة وراء توصيفاتهم. وطبقاً لهذا فإن المتأمل أو المتابع لحركات وسكنات الواقع السوداني، يمكن أن يقول بمنتهى البساطة إن الحالة الصامتة التي تكتنف الساحة السودانية الآن، هي ذات الحالة التي كانت تغمرها قبيل اندلاع انتفاضة سبتمبر الماضي، ويومذاك لم تكن الانتفاضة في رحم الغيب فحسب، وإنما كانت نسياً منسياً في خلد المتشائمين، وإن كانت جمرة تتقد تحت الرماد في أعراف المتفائلين. وبذا لكانما تاريخ الأمس يعيد نفسه الآن. وذلك ما يعني أن إعادة انتاج التصورات والتهبؤات من قبل المتشائمين أو حتى المتشائلين لن تحول دون أن تواصل الانتفاضة مسيرتها نحو غاياتها المنطقية!

من أجل هذا وذاك يمكن القول أن انتفاضة سبتمبر كانت عنصراً مفجئاً في أجندتهما، الأمر الذي حدا بهم أن يلودوا بتفسيرات الطغمة الحاكمة مع بؤسها. والتي تقول تارة إنها كانت فعلاً عفوياً جاء على حين غرة، وتارة أخرى تقول إنها عملاً احتجاجياً جزاء رفع الدعم عن المحروقات. بيد أن القراءة الواقعية كانت تشير لما حدث باعتباره انتفاضة نتجت عن تراكمات ظلت تمور تحت السطح، وعندما اكتملت ظروفها الموضوعية، تحولت بعدئذٍ إلى فعل ثائر طالب برحيل النظام. لكن يمكن القول إن الهروب للأمام بتفسيرات مضللة من قبل النظام مرده إلى ثقافة الديكتاتورية التي تحاول سلب السودانيين عشقهم للحرية والديمقراطية، وأيضاً لتجئب القول بأنها كانت انتفاضة كرامة. ونستدل على الافتراض الأخير هذا بالتأكيد على أنها اندلعت في أعقاب حديث المشير البشير عن "التهوت دوق" و"الهمبرجر" ووزير مالىته الهمام عن "البيتر" والمساكن

الخواوية على عروشها، وكلاهما كما تعلمون نهلا من قاموس غني بالبذاءات والإساءات والانحطاط، التي شنقوا بها أذان السودانيين لسنين عدداً!

نخلص إلى أنه حتى لا يكون تفاؤلنا باستمرارية انتفاضة سبتمبر الثالثة مثل تشاؤم المُعرضين بانقطاع وصلها، دعونا نُورد من الأدلة والبراهين ما يُعزّد قولنا، ونطرح من العِز والدروس ما يقوّي عزمنا بجعل استمراريّتها أمراً ممكناً.

• أولاً: على الرغم من نفينا أنها انتفاضة جوع، وهو توصيف هدفت به العُصبة تَقْزيم طموحات الشعب السُّوداني في ملء وعاء بطنه كما ذكرنا، لكن دعونا نفترض أنها كانت كذلك، لكي نوضح المأزق الذي تعيشه العُصبة الآن. فالمعروف أن وقائع انتفاضة سبتمبر حينما بدأت، كان قرار رفع الدعم عن المحروقات وزيادة أسعار السلع الضرورية حبراً على ورق. أما وقد أصبح الآن واقعاً عايش الناس بموجبه ضنكاً في العيش أحال حياتهم إلى جحيم، فإن ذلك من شأنه تعزيز فرص استمرارية الانتفاضة، بمنطق العُصبة السالف الذكر. وكأنني أسمع شكوى الناس مرجلاً ينز الأذان أزاً!

• ثانياً: إن الأيادي المُضِرَّة بالدماء لم تدق على باب الحرية الحمراء بعد أو كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي. ذلك لأننا قلنا وسنكرّر القول – إلى أن يسمع من به صمم – إن الدماء التي أريقَت من أجساد المتظاهرين الشباب، فضلاً عن دماء سبقتها طوال رُبع قرن ستترتب عليها مساءلات جنائية وسياسية واجتماعية وأخلاقية ونفسانية لم تفتح صحائفها بعد. ورغم وضوح الرسالة فما زالت العُصبة سادرة في جهلها، ولم تع التغيير الذي طرأ على الهوية السودانية بفعل مسلكها الذي جعل "التسامح السياسي السوداني" مجرد ريشة في مهب الريح!

• ثالثاً: إن الانتفاضة كانت نتاج تراكمات لقضايا كثيرة على رأسها الاقتصاد، وذلك بعد أن عاثت فيه العُصبة فساداً، وأهدرت موارد البلاد ووضعتها على شفا خفرة من الإفلاس. ولعلّ الناظر للساحة الآن يدرك أن هذه القضايا ازدادت تعقيداً، ولا سبيل لحلها أو حتى بناء آمال في حلها. الأمر الذي حدا بهم إلى الركض يميناً ويساراً بلا جدوى. ومن ضمن سعيهم، لجأوا إلى دول عربية شقيقة كانت مغنياً للسودانيين في كربهم وأزماتهم، ولكنها على العكس تماماً تَمَنَّتْ بإذلال أراق ماء وجوهنا نحن شعب الله المحتار، الذين لا نملك رصيذاً في هذه الدنيا سوى كرامتنا وعزتنا وكبرياءنا وهم يعلمون!

• رابعاً: ممّا لا جدال فيه إن الانتفاضة خلقت واقعاً آخر في صُعد العُصبة الحاكمة، منها بروز تكتلات أسفرت عن نفسها حتى الآن في مجموعتين، أعلنّا انسلاخهما في انقسام جديد. وبالرغم من أن أسبابهما لا تعني المعارضين الحقيقيين للنظام في كبير شيء، إلا أنه لا يمكن التقليل من

تأثيرهما على صعيد العُصبة نفسها. واستطيع أن أؤكد أن ثمة انقسامات أخرى قادمة، وهي التي ستأتي حاملة في أحشائها ما تتبأنا به فيما أسميناه في مقال سابق بـ"ليلة السكاكين الطويلة" وهو اليوم الذي ستزوغ فيها الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر!

• خامساً: ومِمَّا لا جدال فيه أيضاً أن الانتفاضة كسرت عنجهية وصلف واستعلاء النظام، وتذكرون حينما اتسع محيطها وأصبحت تنذر بأفول شمسها، توارت العُصبة كما تتوارى الجردان في جُحورها. ومن المفارقات، أن الوجوه التي طالما انتفخت أوداجها بالتهليل والتكبير تركت المشروع الحضاري في العراق، ولم يجد من يستر عورته سوى المؤلفة قلوبهم! بل حتى الرئيس الراقص اختفى من الصورة، ولم يستطع ممارسة هواية الرقص على أشلاء ضحاياه، إلا بعد ما ناهز الثلاثة أسابيع!

• سادساً: اضطرب خطاب العُصبة - وما زال - في الاعتراف بالقمع المفرط الذي مارسوه حيال المتظاهرين.. على سبيل المثال في المقابلة التي أجرتها قناة "الجزيرة" مع علي عثمان محمد طه نائب الرئيس يوم ٢٠١٣/١١/٦، وفيها أدلى باعترافات في ذلك الشأن من الممكن جداً أن تقوده إلى محكمة الجنايات الدولية في لاهاي. وفي واقع الأمر، أن العنف المفرط والتخبط في عدد الضحايا وطرق قتلهم هو خطاب تلجلج فيه العُصبة كلها. ففي الوقت الذي أكدت فيها العديد من منظمات المجتمع المدني السودانية والمنظمات الناشطة في مجال حقوق الإنسان الدولية وعلى رأسها منظمة العفو الدولية أن عدد الضحايا تجاوز الـ ٢٠٠ شهيداً، يقول طه وصحبه أنهم ٨٤، وقد سبق ذلك طوافهم على أرقام عدة منها ٧٠ قتيلاً وفي بداية الانتفاضة قالوا إنهم ٣٤ قتيلاً، ومارس عبدالرحمن الخضر والي الخرطوم الاستهانة بالآرواح في اسطح معانيه، وذلك في قوله إنهم يتراوحون ما بين ٦٠ إلى ٧٠ قتيلاً. لكنهم "حزمة جرجير يُعدُّ كي يُباع"، كما قال الشاعر الراحل صلاح أحمد إبراهيم. وفي واقع الأمر، فإن العُصبة تعتبر معارضيها إن كانوا أحياء انهم مجرّد عملاء ومخربين ومندسين، وإن كانوا أمواتاً فلا ثواكل لهم حتى يستحقوا الإحصاء!

• سابعاً: لم تكن الانتفاضة درساً للعُصبة وحدها، فقد كانت كذلك لمعارضيها أيضاً. نسبة لأنها كانت انتفاضة شبابية خلقاً وابداعاً وتنفيذاً، فقد اسقطت وهم البديل الذي سيخرج من رحمها. في تقديري، أن الذين ينظرون لتقاغس "السديين بعين الريبة والشك يهدرون وقتاً ثميناً ويضيعون جهداً مقدراً، فمنذ متى كان السيدان في طليعة انتفاضة شعبية؟! فما اعتبره البعض تخاذلاً ينسجم تماماً مع طبيعتهم الطائفية ومع طبيعة شخصيتهم. ومع ذلك فالذين

يُعوّلون على مواقف متقدّمة منهما كأنهم يدعون هذا الشعب الصابر إلى إعادة انتاج أزمته. يا سادتي، دعوا السادة في نومهم يغطون!

صفوة القول، جفّت الأقلام وارتفعت الحناجر، لقد خلخلت الانتفاضة أوصال الدولة الظالمة، واصبحت فرضُ عَيْنٍ على كُلِّ من امتلك حساً إنسانياً ضد نظام داسَ على الكرامة السودانية وسلب السودانيين حريّتهم وديمقراطيّتهم وسامهم سوء العذاب. وستظل هكذا فعلاً مستمراً طالما أن الظروف التي أوجدتها ما تزال قائمة، ولو كره تجّار الدُّنيا والدين ومَن لفَّ لفّهم من المُنافقين!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٣/١١/٩

oboiikan.com

وَدَدْتُ سَاعَةَ التَّيَافُفِ السَّاقِ بِالسَّاقِ

في البداية، أرجو ألا تساموا أو تضجروا، أو حتى تيأسوا من تعابير ظللنا نكرّرها في الأونة الأخيرة، ومن ضمنها العنوان أعلاه، أو عن إيمان العجائز حول حتمية سقوط نظام العُصبة ذوي البأس، أو ما سَيَقُ وتنبؤنا باحتمال حدوثه عن "ليلة السكاكين الطويلة"، تلك التي أوردنا فيها حيثيات نكاد نراها رأي الغين، برغم المسافات الطوال التي تفصلنا عن وطن بات يقف حائراً بين الألم والأمل. أما وإن كنتُ اليوم سأكتب استناداً على معلوماتٍ جديدة توفرت لنا فيما سبق ذكره، أرجو ألا يسألني سائل عن عذاب واقع على عُصبة فتحت الباب على مصراعيه لكلِّ وسائل التغيير، والبادئ أظلم، كما تعلمون. فهذه العُصبة التي تحكمت في حاضرتنا ومصائرنا، قبرت ما سُمِّي بـ"التسامح السياسي السوداني" في أسفل سافلين، شيعت المثل والقيم والأخلاق السودانية إلى مثواها الأخير، حرمت حلالاً ساقه الله رزقاً على عباده، وحللت سفك الدم الحرام والتنكيل بالمعارضين، عبثت بعقيدة من جُبل على دين الإسلام بالفطرة فوضعتهم بين خيارين، إما أن يفروا بدينهم أو يفروا من دينهم. وفي كُلِّ، لو أن أبا الطيّب المُنتبّي عاش بين ظهرانينا، لكان المواطن السوداني المغلوب على أمره، هو من عناه بقوله: «كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً»!

دعونا من المعلومات وأسرارها وليحكّم كلُّ منا عقله، ويفتح عينيه على هذا الواقع البئيس. انظروا وقولوا لنا: ماذا ترون في بلد وصلت حد الإفلاس؟! ما الذي ستقولونه عن فساد صمّم صانعوه على استنزاف موارد هذا البلد حتى آخر قطرة؟! ما الذي ستقولونه عن عُصبة استبدّت لدرجة بات فيها الرئيس الضرورة يمن على الناس بتوافه الطعام عند أصحابه "الهوت دوق" ووقاكة كمهدي إبراهيم يدمغنا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت عن رفاهيّة حلت بنا في الأيام الغابرة، و"طفل معجزة" كمصطفى عثمان يمارس فينا هُوابته في الجهل، فينعتنا بالشحادة، كأنه ليس في جوهنا مُزعة كرامة، وهي آخر ما تبقى لنا من موروث نفخر به في هذه الدنيا الفانية، وإمعة كعلي محمود عبدالرسول وزير المالية الذي اختلطت عليه حسابات الحقّ والبيدر، إذ رأى فيما يرى الواهم أن الذين امتطوا الدواب الفارشات، وسكنوا القصور العاليات، ولم يروا في القرآن سوى آية النكاح، هم السودانيون الذين يحكمون. في حين غَضُّ البصر عن الذين يتضوّرون

جوعاً، ويشهقون معاناةً، ويزفرون أسى، في بلادٍ أصابت فيها عُصْبَتَه البشر فأفْقروها ومسوا فيها الحجر فقسَموها!

دعوكم من قولهم ومن قولنا أيضاً، وأجبلوا النظرين، فماذا ترون في الأفق؟! بعد رُبع قرن، يقف الناس صفّاً بحثاً عن الخبز والصبر.. بعد رُبع قرن، يصل ثمن كيلو الطماطم نحو ٢٥ جنيهاً وهي طعام الفقراء والمساكين والمؤلفة قلوبهم.. بعد رُبع قرن، ليس سعرها فحسب، بل ذات الطماطم تُستورد من أثيوبيا، ويتبعها الثوم من إيران، ويزيد عليهما السكر من الجزائر، وما زال هناك من يردد بأن البلد الذي يتسوّل طعامه سيكون سلة غذاء العالم؟! هل يُصدّق عاقل أن الحصول على اللحم صار حُلماً متمنّعاً في بلد الثروة الحيوانية فيه تُقارب عدد النجم والحصى والثراب؟! انظروا في الأفق، هل ترون ديونا وصلت لأكثر من ٤٣ مليار دولار وكانت نحو رُبع ذلك يوم أن سطوا على السُلطة؟! هل ترون أكثر من ٧٠ مليار دولار من مُدخلات البترول وقد ذابت كما يذوب الآيس كريم في أفواه أبناء الغصبة؟! انظروا فهل ترون شباباً عاطلاً، بلغ بحديث النسب نحو ٤٧%، ومنهم من بات يلوذ بالمُخدرات والخُمور للهروب من هذا الواقع الأليم؟! أمعنوا النظر، فهل ترون بنوكاً على شفا حفرة من الانهيار؟! لعلمكم ادركتكم لماذا صار الإنسان السوداني رخيصاً إلى درجة يُعاذ فيها تصديره إلى بلاده بعد هروبه من جحيما؟! انظروا مُثنى وثلاث ورباع، فلن ترون سوى بلد وصل حدّ الإفلاس، اقتصادياً وسياسياً وفكرياً وثقافياً، وسدنتها ما زالوا يُكابرون بدرجة تضاعف فيها الأبالسة وتقرّم الشياطين!

دعكم من قولهم وقولنا، فسوف أذر على سمعكم قولاً ثقيلاً نطق به الآخرون. فكلنا سمع بقائد عبقري اسمه مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا السابق وصانع نهضتها الحديثة. ففي نوفمبر من العام الماضي، عنّ للغصبة الحاكمة أن تدعوه لمؤتمرٍ من مؤتمراتهم التي لا تُحصى ولا تُعد.. احتقوا به وفي نفوسهم شيء من حتى، وتحذّثوا إليه كميّوث رسالي وفي أصواتهم غُنة، فقالوا: كيف يمكن أن ننهض ونصبح مثل ماليزيا؟! لم يقل الرّجل لهم حياة إنهم في ماليزيا تعايشوا بمللهم ونحلّهم في بلد متعدّد القوميات والديانات واللغات.. لم يقل لهم إنهم لم يدعوا زوراً أن الله تبارك وتعالى ابتعثهم لإخراج الماليزيين من الظلمات إلى النور.. لم يقل لهم إنهم جعلوا بينهم وبين الفساد سداً، وحالت الديمقراطية بينهم والاستبداد.. صمت الرّجل، وقال بإيجاز مقصود: «إذا أردتم أن تُصبحوا مثل ماليزيا فعليكم بإرجاع مبلغ الـ ١٣ مليار دولار المُودعة في بنوكنا، فماليزيا ليست في حاجة لها وبلادكم أحوج».. ثم استقل طائرته وعاد أدراجها!

تلك ساق - يا رعاك الله - ولكن أين الساق الأخرى التي سيُساقون فيها إلى حتفهم. لا شك أنكم كنتم تعلمون مثلي أن الغصبة يتنازعها فريقان طيلة

سنوات ما بعد انقسامها أو مفاصلتها في العام ١٩٩٩ الأولى عُصبة علي عثمان محمد طه، والثانية عُصبة نافع علي نافع. وهذان الفريقان ظلّا يتصارعان في الكواليس مدّاً وجزراً، بمعنى أن فريقاً يستقوي على الآخر في مرحلة ما وفقاً للظروف المحيطة حتى يظن أن الدولة "السايبية" قد دانت له. لكن فجأة تتغيّر المعادلات، فيظفر الطرف المستضعف برداء الطرف القوي فيُوحى لناظره أن الدولة المتهترئة جاءتّه تجرّج خبيثتها، وهكذا دواليك، كما يقول اللغويون. أما الواقعيون، فيقولون إن الفريقين انشطرا الآن لنحو عشر فرق، ليس من بينهم فرقة ناجية. فدولة العُصبة الآن هي محض جُرُر لا رابط بينها غير الشحناء والبغضاء والمكائد التي يحكيونها لبعضهم البعض، بدرجة فاقت ما كان دائراً في أروقة قصور خلفاء الدولة الأموية والعباسية معاً!

في خضمّ تلك المعمعة التي تسمع لها تغيظاً وزفيراً هذه الأيام، انتقل الرئيس الكذوب من حالة الديكتاتورية الجماعية إلى ديكتاتورية الفرد، وبات يتحكّم في مسار الدولة وفق أهوائه، ويطارده هاجس التآمر الذي شارك في نظم خيوطه من قبل، ويُقلّقه نبأ المحكمة الجنائية وإن تطاول الزمن. ولعمري فقد صدّق "خاله الرئاسي" المدعو الطيّب مصطفى في حديثه لوكالة الأنباء الفرنسية قبل بضعة أيام (٢٠١٣/١١/٢١) وأفصح فيه عن خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فقال: «...يريد الاستمرار في السّلطة ليحمي نفسه من المحكمة الجنائية الدولية التي أصدرت مذكرات اعتقال بحقه بتهمة ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضدّ الإنسانية في إقليم دارفور».. وزاد أيضاً بما كان يستحي من ذكره من قبل: «لا أحد من الحزب الحاكم يجرؤ على الوقوف في وجه البشير، وأن قيادات المؤتمر الوطني يتبعونه مثل قطيع من البهائم التي تتبع الراعي».. ولعلم الذين لم تحفظ ذاكرتهم ما كتبنا من قبل، وهم غير ملومين، نقول إن المنعوت بديكتاتورية الفرد هذا كان قد طرح نفسه فيما سبق طرفاً مُحادياً بين عُصبة علي عثمان وعُصبة نافع علي نافع بدعوى أنه مُنقّق عليه.. ولنتأمّل الاتي الذي يزيج بعض الغيوم!

كخلفية ضرورية لما نود أن نقول، رَحَلَ قبل أيام قليلة خلت عبدالوهاب محمد عثمان، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وهو بين يديه الآن.. المذكور عُرف بين عُصبته بالدقة الشديدة والنزاهة، ولكنه لم يشذ في ما ظلوا فيه متفقين من صفات أخرى.. كانت وزارة الصناعة هي آخر منصب شغله عبدالوهاب قبل رحيله، وهو ختام رحلة طويلة، بدأت منذ أن تسلمت عُصبته السّلطة في يونيو ١٩٨٩، وللذين لم يقرأوا كتابنا الأخير "الخدق.. دولة الفساد والاستبداد"، الذي صدر العام الماضي، نقول: كان عبدالوهاب ضمن منظومة "السواقين"، وهي خلية من الأجهزة الخاصة، تضم مدنيين موصولين بالعسكريين ليكونوا وُسطاء بينهم والقيادة التنظيمية للانقلاب. وإلى جانبه، كنا قد ذكرنا أيضاً علي كرّي وأحمد علي الفاشوية والزبير محمد الحسن ومحمد حسن المقلي (شقيق عبدالله

حسن أحمد) وعلي الروي - والأخيران انتقلا للدار الآخرة - وآخرون (أنظر الخندق.. الفصل الثاني بعنوان: النوم مع الشيطان، ص ١١٤)، ومُذاك الزمن تمرحل عبدالوهاب في علاقته حتى أصبح مقرباً من المشير البشير أو الحاكم بأمره الآن. ويستدل العالمون ببواطن الأمور على الإيثار في مسألة استقالته من منصبه بعد فضيحة مصنع سكر النيل الأبيض، والذي كان مخططاً أن يشهده وزراء مجموعة بنك التنمية الأفريقي. فقد كان حامل الاستقالة والمحمولة إليه يعلمان أنها محض مسرحية تُزرع عنها الستار!

بيد أنه بين المنصبين كان الراحل عبدالوهاب قد تقلد منصب مدير عام شركة "دان فوديو" وهي بؤرة ضمن بُور الشركات الأمنية العديدة، بجانب أنها عُرفت بكونها معقلاً من المعازل العتيدة في الفساد، ونستدل بقصة واحدة لأولي الألباب، وذلك لارتباطها بمسألة تقلد الراحل منصب مديرها العام. الرواية تقول إن شخصاً اسمه إبراهيم موسى، ليس كسميته - عليه السلام - وإنما على العكس تماماً، فهو يُعدّ من جلاوزة الغصبة الفاسدين والمفسدين، وهو أيضاً ابن عم علي كرتي، الذي يشغل منصب وزير الخارجية الآن في دولة الكهنة. واجمالاً، فهو أخطر ما أنتجته الحركة الإسلامية في الإجماع، وأفسدها في المال، وأولغها في الدم.. سرح وصحبته في شركة "دان فوديو" بلا رقيب أو عتيد.. أثناء ذلك، كانت فضيحة رجل الأعمال السعودي عادل بترجي سنام فساداً هو ورهطه. فقد استولوا من المذكور على أكثر من عشرة ملايين دولار بقانون "وضع اليد"، الذي برعت فيه الغصبة تشريعاً وتنصيصاً وفهلوة. وكان بترجي قد هوى لدولة الصحابة يرجو لملايينه استثماراً يُضاعفها. والذي حدث بعدئذٍ، أن عهد كبار الغصبة إلى أحدهم من الاقتصاديين بالتحقيق في ذلك الملف. لكنه إثر تلقيه تهديداً ووعيداً طلب الحاكم بأمره من عبدالوهاب عثمان أن يتولى الملف بالناية المركزة، ومن ثم إدارة الشركة كلها.. وقد امتثل!

طبقاً لهذه الخلفية التاريخية، كان الحاكم بأمره قد عهد أيضاً إلى عبدالوهاب بملف آخر قبل نحو ثلاثة أشهر من رحيله. والملف المُحال يدخل ضمن المقاصات التي تشهدها جزر الغصبة هذه الأيام، فثمة جزيرة ضجرت من فساد أسامة عبدالله المحظي بحصانة لا تخفى على الناظرين، (كنا أيضاً قد نشرنا في الخندق ص ٣٥٠ قرار تعيينه رقم ٢١٧ لسنة ٢٠٠٥ وفيه استثناء من المحاسبة من قبل أي جهة حكومية، لدرجة كاد القرار أن يلحقها بعدم محاسبته من خالقه جلّ وعلا)، على كلٍ بمنطق "إياك أعني فاسمعي يا جارة" تمّ الطعن في ذمة عبدالعاطي هاشم الطيّب المسئول المالي والإداري في وحدة السُود، والأهم أنه الساعد الأيمن لأسامة بن عبدالله (كان صديقنا الزميل عبدالرحمن الأمين قد نشر نذراً من فساد - "الراكوبة" ٢٠١٣/٤/٣) بعد فترة وجيزة أعاد عبدالوهاب عثمان ذات الملف للرئيس الحاكم بأمره، وقال له إنه لا يحتاج لتدقيق وإنما يحتاج للنيابة العامة مباشرة.. تبعاً لذلك، أودع عبدالعاطي السجن، فارتبكت حسابات

أسامه بن عبدالله ورهطه في المنظومة، واللبيب بالاشارة يفهم. وواقع الأمر، ظلَّ أسامة بن عبدالله طليقاً ولم يخلُ بينه والسجن سوى تلك العلاقة الغامضة مع الرئيس الحاكم بأمره، والتي لم يَفُكْ البعض طلاسماها، سوى أن أسامة هو عزَّاب زيجة البشير الثانية (وداد بابكر) وبها صار من المقرَّبين!

لكن الذي صار كانت للأقدار فيه يدٌ لا تُرى بالطبع إلا عند حدوثه. فبعد فترة قصيرة من تسلمه ملف أسامة بن عبدالله وفي معيَّته عبدالعاطي هاشم الطيّب، والذي رمى الأخير هذا في غياهب الجُب لفترة قصيرة، ظهرت على عبدالوهاب أعراض ألم في الحبال الصوتية وتغيَّر فيها صوته. سافر على إثرها إلى ألمانيا وعاد منها مستشفياً، ثم فجأة ظهرت عليه أعراض مرض في القلب وشُخِّصت حالته بماء في الرئتين، فغادر على إثرها أيضاً إلى الأردن إذ صعدت روحه إلى بارئها بعد أربعة أيام.. المفارقة التي تشبه الغصبة وأفعالها، وقد تُدهش الذين لا يعلمون، أن الذي غادر مع الرَّاحل عبدالوهاب عثمان وعاد مع جثته من الأردن كان هو أسامة بن عبدالله! لهذا فاعلم - يا هداك الله - إن رأيت دموع الغصبة تتهمر على فقيدي بمثلما شاهد البعض الحاكم بأمره، فأيقن أن وراء الدموع مكائد وفسانس ومؤامرات!

كفى بالغصبة الموت واعظاً، وقد دنت ساعة التفاف الساق بالساق!

آخر الكلام: لا بُدَّ مِنَ الدِيمَقْرَاطِيَّةِ وإن طَالَ السَّفَرُ!!

٢٠١٣/١١/٢٨

obeikan.com

صلاة الغضب على جنازة الحركة الإسلامية

تعلمون - يا سادتي - أنه لم يخلُ مقال لنا من مرارة منذ أن تسنمت العُصبة ذور البأس السلطنة في هذا السودان الصابر أهله، وبالتالي لن يكون غريباً إن جاء حديث في هذا المقال حامضاً ولاذعاً ومُفرطاً في نقده، وإلا فقل لنا يا صاح، ما عسانا أن نفعل غير الاستمرار في مقاومة الظلم ومحاربة الاستبداد وتعرية الفساد، ليس كفرض عين فحسب، وإنما كمبدأ ورسالة مقدسة لا تحيد؟! ولا يغرنكم الأبالسة إن تمطت سنواتهم وتثأبت سوءاتهم وناءوا بفسادهم على صدورنا.. فنحن ما زلنا نرى في الغد المأمول فرحاً يشع نوراً ليبدد ظلامنا ويُفَرِّج كُرْبنا ويُعَوِّضنا خيراً يلحقنا بالإنسانية ومسيرة التقدم والازدهار. ومع ذلك نرى أن من حق القارئ الكريم - حامل صخرة "سيزيف" بصنوف عذاباتها - أن نخفف معاناته بالتبسم في وجهه، لعل في ذلك صدقة تُوجَر عليها معاً. من هذا المنطلق، لا بأس إذا أن نبندر مقالنا هذا بنكتة أرسلها لنا صديق عزيز فأضحكني كما لم أضحك من قبل، إذ صادفت هوى في نفسي ووجدت ملاذاً رحباً بتزامنهما مع الواقع المؤلم. فنحن - يا سادتي - قومٌ من فرط ما تلقينا من رزايا الأنظمة الديكتاتورية وحكومات "الحجي والدجل والكجور" صرنا حيارى، إذا حزن المرء جرأً بلأيا داهمته استغفر الله، وإذا ضحك لأمر باغته استغفر الله أيضاً! على كل، كانت النكتة بمناسبة كرنفال ما سُمي بـ "التعديل الوزاري" أو الحدث الذي شغلت به العُصبة خلق الله ونامت ملء جفونها عن شواردها. تقول: كان هناك أحد المنتمين لفئة "أصحاب المزاج العالي"، وحدث أن كان يمارس هوايته تلك في غرفة مغلقة بها شبّاكان مفتوحان ذات اليمين وذات اليسار، وفجأة دخل عليه عصفور من الشباك اليمين وخرج من الشباك الآخر. وهنا انتفض صاحبنا مذعوراً بقلب كاد أن ينخلع من قفصه. فنظر باتجاه العصفور وقال له بصوت كسير: يعني عملت شنو بالله؟!!

(٢)

لم أشغل نفسي كثيراً بهذا التعديل الوزاري، والذي لم يعنِ عندي شيئاً أكثر من انطباع صاحبنا هذا عن العصفور وما فعل. فهو - في تقديرِي - مجرد مسرحية من مسرحيات كهنة العصر الجديد. مع ذلك ربّما كان الأمر مفهوماً في تكالب العُصبة نفسها - ممن عزّ فطامها - نحو سلطة أدموها أو تهافت المتطلعين

للتزؤد من فسادها أو تطلع الانتهازيين الذين يريدون الاستمرار في أداء فروض الولاء والطاعة. ولكن ما لم يكن مفهوماً، كيف انطلت هذه اللعبة الابتزازية على القوى السياسية المعارضة وبعض الأفراد - ونحن فيهم - فانشغلوا بها؟! فهي على الأقل "شهر ليس لدينا فيه نفقة"، كما يقول المثل السوداني الدارج، كما أنها ليست عصاً سحرية لتحيل هشيم السودان إلى جنة تجري من تحتها الأنهار. ففيم التكهكع والتلكع والتسكع إذن؟! في واقع الأمر إن مثل هذا الاهتمام العشوائي يجب أن يحفزنا لضبط كثير من المصطلحات الخاطئة. كأن يكتب البعض عن الدستور الذي تم خرقه، أي دستور يا سادة ونظام العُصبة نفسه هو من سطا على سلطة ديمقراطية اغتصب شرعيتها ومزق دستورها إرباً إرباً؟! وفي تقديري أنه نظراً لفعله الحرام هذا، ظُلت مسألة الشرعية الدستورية هاجساً مؤرقاً للنظام وسدنته، بدليل أنهم حاولوا التحايل عليها كثيراً. مرة تحت مُسمى "الإجماع السكوتي"، وثانية تحت مظلة "التوالي السياسي"، وثالثة بانتخابات زُورت جهاراً نهاراً وأطلق عليها تدرأ انتخابات "الخج"، ولم يبالوا. لهذا يظل هذا النظام نظاماً انقلابياً غير شرعي رغم أنف يوسف القرضاوي شيخ مشايخ قبيلة الإسلام السياسي، الذي حاول الأسبوع الماضي نزع هذه الصفة منهم، بدعوى نقائهم سنينها، والحقيقة لم يكن ذلك سوى تزلف قصد به درء ازدواجية المعايير في حكمه على ما حدث في بلاده الأم "مصر"، بل إن المضحك المبكي إمعان العُصبة نفسها في مزيد من التحايل، فما هم يفعلون ما فعله فرعون بقلّة عقله، حيث ما زالوا يتشبثون بدستور "نيفاشا" مع أن شريكهم فيه نال غنيمته ومضى إلى بناء دولته. فيما من تودون الخوض في مسألة التعديل الوزاري، يُرجى وضع ذلك في سياق ما تحكمون!

(٣)

أما إن شئنا الابتعاد عن التجزئة وتجارة "القطاعي" التي لا تحرك حجراً ولا تخدم غرضاً، فلننظر للمسألة بصورة أكثر شمولاً، ونكرّر ما سبق وقلناها عن مآلات تتزايد احتمالاتها يوماً إثر يوم. فما حدث بالمنظور الواقعي يُمكن حصره في خمس نقاط لعلها تفسّر وتحدّد مسار النقع فوق رؤوسنا وكفى.. **الأولى:** أن ما حدث هو تعبير عن فشل مشروع بانثر أصلاً، وبالتالي ما حدث هو هروب للأمام كسب الوقت. إذ يبدو أن العُصبة - كمن عرف الديار بعد توهم - أدركوا أن الأنشطة اشتدّ وثاقها سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وأيديولوجياً حول رقبتهم.. **ثانياً:** ظلّ وما فتى هذا النظام يحمل بذرة فئانه في جوفه، ولم يكن بقاءه كل هذه الفترة جزاء قوة ذاتية بقدر ما هو نتيجة ضعف القادرين على التمام كما تعلمون. وأياً كانت الأسباب، فالعبر بالخواتيم، والتي تقول الآن - بلا شك أو تردّد - إن الرحيل أصبح وشيكاً، ليس هذا فحسب، بل ومكلف أيضاً، في إطار العُصبة من جهة وبينها وبين مُعذّبيها من جهة أخرى.. **ثالثاً:** كتبنا عن الفساد حتى كُلت أيدينا ولن نعيد ما ذكرنا ولكن لا بُدّ أن يستصحب المراقب مزيداً من

الإرهاق للميزانية العامة إذ سيستمر السلف في نعيمهم ويفتح الخلف نفاجاً لفسادٍ جديد. ويطيب لي للتذكير أن أطرح عليكم هذه المعادلة الصفرية ودعكم من كل قول ثاقب عن الفساد وقصصه، ونعيدها بناءً على ما أكدته الدكتور الطيّب زين العابدين في أن راتب أحمد إبراهيم الطاهر رئيس المجلس الوطني يبلغ ٣١ مليون جنيه سوداني شهرياً ولم يستطع صاحبه له دحضاً، وهو من بقي في هذا المنصب نحو ١٣ عاماً ($٤٨٣٦٠٠٠٠٠٠ = ١٣ \times ١٢ \times ٣١٠٠٠٠٠٠$) أي أربعة مليارات وثمانمائة وستة وثلاثين مليون جنيه، هي عبارة عن راتبه في تلك السنوات التي ظلّ فيها لا بئاً في كهف المجلس الوطني، حدث هذا في بلد راتب طبيب الامتياز فيه يبلغ ٦٠٠٠٠٠ جنيه فقط لا غير، فراتب الطاهر هذا يساوي ما يناهز الخمسين ألف مرّة راتب هذا الطبيب لنفس الفترة! أي عدل يرومه المستغفلون في قادمين جدد هؤلاء قدوتهم؟! **رابعاً:** الأمر ببساطة، ستختفي الشخص، ولكن ستبقى الظلال شاخصة أبصارها على كل صغيرة وكبيرة، وما هو من تبرأ منه لسانه يقول بكل بجاحة أنهم سيسلمونها لعزرائيل.. **خامساً:** إن من يود الغوص في الأعماق لرؤية ذلك الثمن الباهظ، عليه إعادة قراءة تاريخ الدولة الأموية والعباسية وما كان يُحاك في القصور وخاتنة الأنفس، وهل يعتقد برئ أن للعصبة تاريخاً أقل سواداً. غافلٌ من يظن أن الدماء التي أهرقت، والأرزاق التي قُطعت، والنفوس التي غُذبت، والكرامات التي امتهنت، سيصفح ضحاياها صفحاً جميلاً ويقولون عفا الله عمّا سلف!

(٤)

وطالما خُصنا في هذا الأمر مع الخائضين، هاكم المنصور الشكلاقي في مسرحية ثُجّار الدين والدنيا. تأكيداً لما ذكرنا أعلاه لن يقول الأبالسة إن ما حدث هو نتيجة "انتفاضة سبتمبر" حتى وإن حاول أن يقلل من شأنها التبخيسیون والمُخدّلون، ولكن انصت لثُرّاهاتهم، ستسمع بعد حين من يقول إن الذي ابتعثهم ليمألوا الأرض عدلاً قد أوحى إليهم بإخراج تلك المسرحية. أليست هذه لغة ناهزت رُبع قرن حتى مللنا سماعها؟! إذن ما الجديد الذي يمكن أن يأتي به القادمون ولم يستطع أن يحققه الأولون؟! هل يعقل لمن تمرّس على القتل وحياسة المؤامرات أن يبقي ظهره مكشوفاً في انتظار قدره؟! هل يظن عاقل أن رؤوس الفتنة في العصبة بدءً بعلي عثمان طه مروراً بنافع علي نافع وانتهاءً بعوض الجاز ومن لف لفهم، سيكتفون من الغنيمة بالجلوس في منازلهم واجترار الذكريات؟! بيد أنني أرى أن المسألة أكبر مما يظنون، فهي - يا سادتي - تحرير شهادة وفاة دولة المشروع الوهمي، وهاكم البراهين التي تلقف ما يأفكون.

(٥)

في يوم ١٩٦٥/١١/٩ وقف شاب اسمه شوقي محمّد علي وتحدّث معقّباً في ندوة عامة بمعهد المعلمين العالي بمدينة أمدردمان، وكانت بعنوان "الإسلام والأخلاق"، أو "المجتمع والبغاء" وتناول في مداخلته موضوع حديث الإفك.

وقيل أنه تعرّض فيه لإحدى زوجات الرسول الكريم. كان عمره آنذاك ١٩ عاماً ولم يقل إنه يتحدّث بهوة حزب مُعيّن، وبالتالي كان يمكن الرد عليه أو حتى مقاضاته في ذلك الإضرار بنصر القانون. لكن من بين الحاضرين من كان يتربّص بالحزب الشيوعي، ورأى في ما حدث فرصة للنيل منه، باعتبار أن عضويته كخُفراً فُجّراً وليسوا خصوماً سياسيين. كان علي عبدالله يعقوب في طليعة المتربّصين، وساندته في "موقعة المعهد" تلك السيدة سعاد الفاتح. ولو أنك - يا عزيزي القارئ - كنت أحد الذين شاهدوا يعقوب هذا يتحدّث في برنامج تلفزيوني "أسماء في حياتنا" عن هذه القضية، لما تزعزعت قناعتك في أنه أحد الذين احسنوا التجارة بالدين مثلما احسنها برعية "البنوك الإسلامية".. في ذلك البرنامج، قال يعقوب إن همّه الأساسي انصبّ في تجييش المشاعر الدينية ونسج الأحاديث التي تدين الحزب الشيوعي وتجرحه على فعلٍ حتى وإن لم يرتكبه. وبالفعل تحقق لهما ما عزمَا عليه، دون اعتبار لمآلات عمل طائش كان بمثابة حجر الأساس في انقلابات عسكرية اكتويننا بنيرانها منذ الاستقلال، وأورثتنا تلك الدورة الشريرة اللعينة. فضلاً عن أنها فتحت باب العنف في الجامعات الذي دشنته الدكتور عبدالرحيم علي بموقعة "مسرحية العجكو"، ثم أصبح العنف بعدئذ سنة يتعاضاها الإسلامويون كما يتعاطون الماء والهواء. ولكن السؤال: لماذا نُقلّب هذه المواجه ونسترجع هذا الشريط المخزي الآن؟!

(٦)

المذكوران - سعاد الفاتح وعلي عبدالله يعقوب - يعيشان بين ظهرائنا أحياء يُرزقن. وضالما هما أحياء يقران، فلا شك عندي أنهما اطلعا على مراوحة الدكتور غازي العتباتي حول نفي وإثبات ما قيل عن تبرّئه من الدولة الدينية وتأكيده استحالة حكم السودان بها، ولعلمهما قرءا أيضاً ما عضّده أحد المنشقين عنه، والذي قال إن أحد القيادات - الذي لم يُسمه - عارض الهوية الإسلامية كتوجّه للحزب بزعم أن "الدين أفيون الشعوب".. المذكوران ضالما هما حيّان يتنفسان، فلا شك عندي أنهما رأيا ما قاله الدكتور الطيّب زين العابدين عن لفظهم الشريعة الإسلامية في تنظيمهم الجديد "الحركة الوطنية للتغيير" كما يلفظ المرء النواة. المذكوران ضالما هما حيّان يجادلان، فلا شك عندي أنهما شاهداً مبارك الكودة وهو يوقع على وثيقة "الفجر الجديد" التي تنادي بحرية المعتقد وتجهر بفصل الدين عن السياسة. فلماذا لم يمتشق يعقوب سيفه وتطلق سعاد الفاتح صيحات الاستغاثة لنجدة الإسلام وتغيير "بني علما" الجُدُد؟! بل قبل هذا، وبصورة أكثر شمولاً، يعلم المذكوران وبقيّة عُصبتهم أن أحد الذين نهضت التجربة الإسلامية على كتفه، بل كان أحد السبعة العظام الذين رعاوا الانقلاب تدبيراً وتنفيذاً، كان قد شيع التجربة بحديثٍ موجه إلى مثواها الأخير. حينذاك لم ينطق أحد من العُصبة معقّباً على ما قاله يس عُمر الإمام.. «أنا أخجل أن أحدث الناس عن الإسلام في المسجد الذي يجاورني، ولا أستطيع أن أقول لأحفادي

انضموا للإخوان المسلمين».. وعوضاً عن أن يُشيعوها كما شئعها يس عُمَر الإمام، شيعوه هو إلى الدار الآخرة قبل شهور خلت، وأقبل بعضهم على بعض يتباكون!

(٧)

صَدَّقَ ذو الجلال والإكرام في قوله {لا يحيق المكر السيء إلا بأهله... الآية} وطبقاً لهذا، فإذا نظرت بعيني زرقاء الإمامة - يا قارئي العزيز - ستجد أن الفكر السيء حاق بأهله فعلاً. فالتنظيم الذي تأسس منذ نحو أكثر من ستة عقود زمنية في طريقه للتلاشي، وهو الآن في حالة تدعو للرثاء، ويكفي أن بكري حسن صالح يشغل منصب نائب الأمين العام فيه. لا شك أنكم تعرفون المذكور، فهو لم يقض عمره مصاحباً كتب سيد قطب وحسن البنا وابن تيمية - مع بؤسها - بل يساورني ظن غير آثم أنه لم يقرأ في حياته سوى كُتُب أرسين لوبين، ولم يشاهد سوى أفلام جيمس بوند. ونظراً لإيماننا بالحرريات العامة، فلن نطعن في سلوكه الذي يضعه ضمن سرب صاحب النكته أعلاه، ولن نستكثر عليه تلك "المُضغة" التي لم تبارح فمه منذ رُبع قرن، ولكن كيف يمكن للمرء أن يعيش ازدواجية كهذه "يسبح بالنهار ويصبح بالليل" كما يقول عامة أهل السودان؟! وهل تعلمون محصوله في هذه الحركة؟! سأعيدكم للوراء قليلاً، فأنتم تذكرون ما سُمي بـ"مذكرة العشرة" التي قسمت التنظيم إلى "قصر" و"منشية"، تلك المذكرة في الأصل كانوا تسعة رهط يتأمررون، وعندما اكتمل كيدهم وأرادوا عرضها على الرئيس الضرورة، كان بكري هذا حاجبه الأمين، فسَدَ عليهم المنافذ بمكبيه، وقال لهم لن يحدث ذلك إلا إذا أضافوا اسمه، وهكذا صاروا عشرة، فتأمل! وما زال هناك من يرفع عقيرته ويقول: "لا للسلطة ولا للجاه!"

(٨)

أبعد هذا هل هناك من يجروء على أن يدسّ لنا هذا السُّم الزُعاف في قارورة عسل، ويقول إنه يرغب في أن يحكم باسم الإسلام السياسي؟! الحمد لله الذي أحياناً حتى نكون شهوداً على ما فعله طواغيت عصرنا هذا.. كشفنا عن فسادهم وما فرطنا في الكتاب من شيء.. بدّدوا ثروات السودان، ما ظهر منها وما بطن. جغرافياً، أصبحنا نعيش في بلد قضى ثلثه نحبه، وأطرافه الأخرى تنتظر.. ديمغرافياً، تشهد بلادنا هجرة جماعية لم تعرف لها مثيلاً حتى بات المرء يتوقع ألا يجدوا أحداً يحكمونه. اقتصادياً، رُزنا بخزينة خاوية على عروشها، وديون بلغت نحو ٤٦ مليار دولار، وبطالة تجاوزت ٤٧% يداويها الشباب بتعاطي الحرام والمكروه عمداً.. اجتماعياً، تفشت القبليّة والإثنيّة والجهويّة بحروب متواصلة يأخذ بعضها برقاب بعض، واجتماعياً تقف "دار المايقوما لفاقي السند" شاهداً على ما اقترفت أيديهم.. واجتماعياً، انتهكت كرامة أكثر من ٥٠ ألف امرأة تحت مظلة قانون النظام العام سيئ الصيت.. سياسياً، أصبحنا محسوبين على

رئيس دولة مطلوب للمحكمة الجنائية.. عقدياً، صحنوا على دين يجلس على صفيح ساخن، وصار الخيار إما أن نهزّب به أو يهزّب منّا!

(٩)

هل كانت تلك سذاجة منا، أم كرم معهود فينا، أي أن نسلم رقابنا لإخوان الشيطان (كما وصفهم الرئيس المخلوع الذي بايعوه على المكره والمنشط) وهم يتأبّطون "القانون البطل"، كما قال ذات المخلوع عنه، ويقصد قوانين الشريعة الشوهاء، فهل كان لزاماً علينا أن ندفع هذه الضريبة القاسية حتى نستبين الحق من الباطل؟! هل كان حتماً علينا أن نصبر على خُرْعَبات إسحق أحمد فضل الله، وجهالات محمّد وقيع الله، وثُرّهات الطيّب مصطفى، وعجرفة أمين حسن غُمر وصفاقة نافع علي نافع؟! هل كان علينا أن نمتحن في وطنيتنا وشرذمة من شذاذ الأفاق تلقى علينا دروساً في كيفة الولاء للوطن وحبّه؟! هل ثمة عقوبة أكثر في عهد الانحطاط الصحفي من أن يتصدّره محي الدين تبتاوي ومصطفى أبوالعزائم وأحمد البلال الطيّب وكمال حسن بخيت والنقيب قمرالدين وعبدالمحمود الكرُنكي وثامنهم الهندي عزالدين؟! هل حقاً كنا نحتاج لهذه الجرعة من الأسى حتى نستيقظ من سباتنا العميق؟! باسم الدين قُتلنا، وباسم الدين غُذينا، وباسم الدين انتهكت أعراضنا، وقطعت أرزاقنا، واحتقرت كرامتنا!

(١٠)

نعم، سوف نشيع الأنبياء الكذبة غداً، وسنقبر دولة الإسلام السياسي بعد غدٍ، ولكن قل لي بربك الذي خلقك فسوّاك فعدّلك، من ذا الذي يعيد إلينا أحلامنا التي وُبدت، وطموحاتنا التي سرقت، وأمالنا التي أجهضت؟! من ذا الذي يرجع إلينا ماضينا الذي دُمّر وحاضرنا الذي تشوه؟! من ذا الذي يعيد لنا ربع قرن اقتطعناه من جلودنا همّاً وغماً وأسى؟! من ذا الذي يعيد إلينا ذكرياتنا الجميلة؟! من ذا الذي يعيد لنا خارطة وطن كان واعدّاً، فوطنته سنابك خيول المغول وأحالتّه صعيداً جرزاً؟!!

يا سادتي.. قوموا إلى صلاة الغضب يرحمكم الله!

آخر الكلام: لابدّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٣/١٢/١٦

الوصية التي أَرَهَقْتَنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا!

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١- هذه وصيتي ووكلتي علي تنفيذها زوجتي بعد الله.
- ٢- تُسَدُّ الديون أعلاه وإذا لم يعرف يوسف الحلواني وبائع الفحم والحلاق يصدق بما لهم على الفقراء باسمهم والتسديد من نصيبي من مال السلوم.
- ٣- ينظر في ما علي من حساب من شركائي بمقتضى فواتير من عبدالكريم عبدالرحمن (حساب خصوصي باسمي) فيسدد وهو حوالي // ٣٦ ج //
- ٤- ينظر في استجرار المكتب من شراكة السلوم وما يخصني منه يدفع وإبراهيم الاسد مسئول عن الارشاد الى ذلك.
- ٥- يعطى شيخ لطفى مبلغ // ٣٠٠ ج // تعويضاً له عما صرف علي وعلى اولادي.
- ٦- تعطى الوجود مبلغ // ٥٠ ج //
- ٧- ما يبقى يكون لزوجتي وأولادي وزوجتي هي خيلفتي عليهم بعد الله.
- ٨- لا يفرش علي ولا يتصدق ولا اكفن في جديد ولا يباح علي ولا تجعل علي قبري أي علامة ويباشر غسل زوجتي.

محمود محمد طه

السبت ١٣ شعبان ١٣٧٠

موافق ١٩ مايو ١٩٥١

(تظهير طبق الأصل)

(٢)

هذه هي الوصية التي أَرَهَقْتَنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا. اطَّلَعْتُ عليها مؤخراً في ثنايا كتاب جمع فأوعى، شدُّ وثاقه وجمع وثاقه، الأستاذ عبدالله الفكي البشير وصدر أواخر شهور العام المنصرم في نحو ما ناهز الألف وثلاثمائة صفحة، مسجلاً بذلك رقماً قياسيًّا في مضمار التأليف. وبما أننا ننتسب نفحات الذكرى التاسعة والعشرين لاغتيال شهيد الفكر الإنساني، الأستاذ محمود محمد طه، أستطيع أن أقول إن هذا الإصدار الضخم - حساً ومعنى - قد زاد المناسبة سموً وزانها وفاءً وأكسبها جلالاً. هو كتاب إذا رأيته أعجبك عنوانه، وإذا قرأته وقعت أسير بيانه. سطر كل شاردة وواردة متصلة بحياة الأستاذ الوافرة بالعطاء والزاهرة بالمعرفة والمليئة بالمواقف المتفردة، بل وامتدَّ التوثيق لكل ما يتصل بفكره، عرضاً وتحليلاً وتسجيلاً لما كتب وكتب عنه، الأمر الذي يمكن أن يوفر

جهداً كبيراً ووقتاً ثميناً، يذخرهما دائماً أي باحث ومطلع ومهتم بمثل هذه الأعمال العظيمة. أصدفكم القول، إن هذا الكتاب يفرض عليك هبة غير مصنعة وأنت تنظر إليه من قبل أن تمتد له يداك وتجوس في سطورهِ عيناك. ولا أقول ذلك نظراً لكبر حجمه، وإنما لكبر حجم من تناول سيرته. ونحن نعلم وأنت تعلمون أن الأولى نسبة والثاني حتمية لمن شاء لعقله شقاء ولقلبه طمأنينة، أو كما قال أبو الصيب المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله *** وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
ولعمري أن تلك غاية أصبحت أندر من لبن العصفور، فقد بنّا نعيش في زمن
تسيّد فيه المتنعّتون وكاد الجهل أن يتوج ملكاً على العباد!

(٣)

سنترك الأستاذ عبدالله الفكي البشير وكتابه في حصن مكين، ولكن قبل أن اغادره أقول بلا مراء إنني تمنيت لو كنت كاتبه، لا سيما، وقد زاد من رغائبي أن الكاتب وأنا لم تكتحل عيوننا برؤية الأستاذ يمشي بين الناس بشراً سوياً. بيد أن أستاذ الفكي تدارك تلك النقيصة بشرف الانتماء للفكرة الجمهورية، أما أنا فقد بقيت في سرب الذين هم في جهلهم يعمهون.. كذلك لن أغادر كتابه هذا دون الإشارة إلى أن الوثيقة المنشورة أعلاه اصطدتها وعيني تزاور صفحاته ذات اليمين وذات الشمال. حينها شعرت - برغم تقادم سنينها - أن الأرض مدت من تحت قدمي. وقد هاج كيائي وماج واضطرب، لدرجة كدت أن أقول لابناني زموني وذرّوني. لكن أبناي أنفسهم لاحظوا حيرتي وشروذ ذهني وإطالة نظري في اللا شيء. هم بداهة لم يدركوا سرّ انجذابي وأنا - بالطبع - لم تحلّ عقدة في لساني لأقول لهم قولاً ينزل الطمأنينة في قلوبهم. فما الذي يمكن أن يقوله شخص مثلي وهو لا يقوى على اختصار السنين في ثوان؟! كيف يتسنى لمثلنا أن يحتفظ برباطة جأشه وهو يقرأ وثيقة كهذه ولا يسأم من تكاليف الحياة وطولها كما سئم منها ليبد بين ربعة العامري؟! عندئذ لم يكن ثمة مناص أمامي، غير تلفحي بالصمت ريثما يهدأ روعي. ومع ذلك، بين الوالد وما ولد حاصرته أسئلة كيوم الحشر. فأدبرت عنهم والإشفاق يكاد ينبجس دمعاً من عيونهم، وتركوني تائها أتأمل وثيقة أورتتني من أمري عسراً، وعجبت من أن انضمام مهمّا تصاولت سنين غيابهم، إلا أنهم يشعرونك بأنهم ما غابوا عن دنياك إلا لأخذ سنة من النوم، وأن جلاذيتهم ومعذيتهم وقاتليهم يمضون لكهوف النسيان كما تمضي السائبة في الطرقات، لكن التاريخ يصنعه الأخيار كما يصنعه الأشرار أيضاً، وفي ذلك حكمة لكلّ ذي لب ألقى السمع وهو شهيد!

(٤)

نعوذ للذكرى وشئونها والوصية وشؤونها، لنستخلص منهما عبراً ومعاني سامقة، لتعيننا في هجير الحياة الحارق ونحن نبحت عن خلاص من الطواغيت وشياطين الإنس. ولا شكّ عندي أن القراء سيمضون في طريق التأمل في

نصوصها والتفكر في حياة كاتبها، بأكثر ممّا فعلتُ واستنتجتُ النقاط المختصرة التالية:

• أولاً: بنظرة عجلَى لا تخطنها العين، تنضح الوثيقة بشجاعة صارت فيما بعد جزء أصيلاً وخصلة متفردة من خصائل الأستاذ محمود محمّد طه، لازمته منذ بواكير حياته، وهو يخوض غمار الفكرة الجمهورية وحتى آخر لحظة من رحيله عن الدنيا. والشجاعة كما يُعرّفها اللغويون، هي الجرأة والإقدام، وبهذا المعنى تؤكد أن الأستاذ محمود استبطن مصيره وهو يشق طريقاً وعراً وشائكاً، بل معروفة مآلاته في التاريخ الإنساني. فهو الطريق الذي سلكه من قبل رُسُل وأنبياء وعلماء ومفكرين وسياسيين من أصحاب المبادئ السامية والنبيلة، وقد تعرّضوا في مسيرتهم تلك لصنوف من التعذيب والتنكيل والتقتيل، وأدناه السخرية والازدراء والتخذيل. في عام ٣٠٩ هجرية، أخرج الحسين بن منصور الحلاج من سجنه، فجُلد وقطعت يده ورجلاه، وشوّه، وصلب، وجزّ رأسه، ثم أحرقت جثته. وفي سنة ١٢٤ هجرية، خطب خالد القسري والي الكوفة خطبة العيد، وكان الجعد بن درهم يرسف في الأغلال أسفل المنبر، فقال: «أيها الناس ضحوا بقبل الله ضحاياكم فإني مضج بالجعد بن درهم»، وبالفعل نزل من المنبر وذبحه ذبح الشاة. ومثلها عانى الإمام أحمد بن حنبل وهو يُعدّب من خليفة إلى آخر بدءاً بالمأمون، مروراً بالمعتصم والواثق. وانتهاه بالمتوكل، فقد أذاقه الوليل والثبور وعظائم الأمور، أما سعيد بن جبير، فقد قتله الحجاج بن يوسف الثقفي بتشفيّ يحسده عليه غلاة الساذيين. وقبلهم عزف سُقراط عن الهروب والنفاد بجلده وهو يعلم أن الموت بالسُمّ الرُعاف جاءه يجرجر ويلات. وأمام جبروت كهنة الكنيسة الكاثوليكية، أحرص جاليلو عن الكلام المباح فمات كمدأ. وعلى الرغم من أنه بقي في غياهب السجن لنحو ما يربو على الثلاثة عقود زمنية، يأتي نيلسون مانديلا الذي رحل عن دنيانا بالأمس نموذجاً لمن هزم جلاّديه وهم صاغرون!

(٥)

• ثانياً: إن استدلالنا بالوصيّة على شجاعة الأستاذ محمود يأتي أولاً من زاوية أنها كُتبت - وفق المنظور الزمني - في أعقاب تأسيس الحزب الجمهوري (١٩٤٥)، الذي توسّل به مناهضة الاستعمار بالمواجهة والصدام المباشر، ممّا حدا بالمستعمر إيداعه السجن مرّتين قبل نهاية الأربعينيات، ليصبح بذلك أول سجين سياسي سوداني. ثانياً، ظلّ غير عابئ بما حاق به في السجن ومعاناته، بدليل أن الوصيّة جاءت وفق منظورها الزمني أيضاً في بواكير نشر فكرته الجمهورية (أواخر العام ١٩٥١)، واستمرّ بعدد في طرح رؤاه العقديّة والفكرية والثقافيّة والسياسيّة بصبر ومجادة لأكثر من ثلاثة عقود زمنيّة، كانت الشجاعة المذكورة زادها الذي لا ينضب. ثمّ توجهها بوسام لا يعرف الصدا، وهو يتمسك بمبادئه ولا يحيد عنها قيد أنملة، ففي ظلّ ظروف بات

فيها الموت ينشر أشرعته السوداء في كُلِّ مكان، صعد لمنصّة الإعدام كصديق يريد أن يلتقي صديقه بعد طول غياب. وعندما تفاقت تلك المشاعر التي استنطقت الصخر العصيا، بلغت سنامها بتلك الابتسامة الغامضة في لحظة تاريخيّة تتقاطع تماماً مع معانيها، ولذا برغم اجتهد المجتهدين لن يستطيع أي كائن أن يسير غورها ولو تنزلت عليه غيثاً من السماء. ويقيني أن صاحبها هو الوحيد الذي سينزع عنها اللغز في يوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه!

(٦)

• ثالثاً: لعلّ الزُّهد والبساطة والتعُفُّ هو الفسيلة الأخرى التي تطالعتها في شجرة الوصيّة بما لا تستطيع أي عين نكرانه إلا من رمٍ. فالزُّهد أصلاً هو ما ميّز حياة الأستاذ فيما بعد. لقد كان زاهداً حدّ الاخشوشان في ملبسه ومأكله ومشربه ومسكنه. وهو الذي كان بمقدوره إن لم يعيش ترفاً فعلى الأقل أخذ نصيبه من الدنيا بكده وعرقه وفق وظيفته الأصليّة النادرة كمهندس في ذاك الزمان، أو فيما بعد، وقد تحلق حوله تلاميذ يسدّون عين الشمس. يقيني لم يكن الزُّهد الذي اتبعه الأستاذ محمود محض تظاهر بقدر ما هو دروس ألّقاها علينا ونحن عنها غافلون. ولا أدري كيف استطاع العيش للعقد السابع من عمره بذاك الطعام الذي لم تتوفّر فيه العناصر الغذائيّة الكاملة المعروفة؟! ولا أدري كيف غالب شهوات النفس وهو يحصرها في ملبس واحد لا شريك له؟! المفارقة التي لن يستطيع المرء سير غورها، أن تلك كانت حياة الضحيّة الذي وصم بالردة وسلوكياته تنم عن هذا الخلق العظيم، ما بال الجلال الذي ادّعى المنافحة عن الإسلام يلبس الحرير والسندس والإستبرق وقومه غراة؟! كيف له أن يأكل من الطعام أطايبه وشعبه جانع؟! حتّام يسكن قصوراً بُنيت من دم فقراء يكسحون كدحاً في الدنيا إلى أن يلاقوا ربّهم. لقد مضى الأستاذ محمود إلى رحاب ربّه وترك لنا من خلفه ثروة تضم «ثوب وعراقي وسروال وطاقيّة ومركوب وأبريق وسجادة»، هي كل ما شاهدت في غرفة الجالوص القابعة في الثّورة الحارة الأولى. ولا نملك إلا أن نقول «من أراد أن يرى رجلاً كان أكله القديد فليتملّ في حياة محمود محمّد طه، ومن سرّه أن ينظر إلى زُهد عيسى بن مريم فليُنظر إلى محمود محمّد طه».. والأخيرة هذه قالها الرسول الكريم في أبي ذرٍّ.. فتأمّل!

(٧)

قال سقراط فيما قال: «ينبغي على الإنسان أن يفهم نفسه قبل أن يفهم العالم حوله».. أما أبو ذر المذكور أعلاه، فهو أبو ذر الغفاري، ولا شكّ - يا قارئ الكريم - أنك قرأت عنه أنه نُفي أو هُجر إلى الرّيدة مغاضباً سيّدنا عثمان بن عفّان بسبب ما آل إليه حال الخلافة، فيما اعتبره تبذراً وإسرافاً. ولما أدركته الوفاة، بكت زوجته أمّ ذر، فقال لها: ما يُبكّيك؟! فقالت: ما لي لا أبكي وأنت

تموت بفلاة من الأرض، وليس عندي ثوب يسعك كفناً لي ولا لك.. أما أنا يا عزيزي القارئ، فعلاوة على ما قرأتُ عن أبي ذر وزُهدِهِ، فقد حدثني عمنا الراحل يونس الدسوقي، وكان مثقفاً موسوعياً، ضرب اللسان عذب الكلام، عندما يتحدث يملك شغاف قلوب سامعيه بصوته الذي يعلو حيناً وينخفض أحياناً وفق مقتضيات السرد. وكان عم يونس - كما يحلو لنا أن نناديه - صديقاً للأستاذ محمود، وبالرغم من اختلاف مشاربهما الفكرية، إلا أنهما تحابيا في الله، على حدّ تعبيره. ذلك كان إبان عمل الأستاذ كمهندس ري في المشاريع بمدينة كوستي في منتصف الخمسينات. حدثنا عم يونس ذات يوم وكنا رهط من أصدقائه حديثاً شفيفاً عن الأستاذ في تلك الفترة، وما يهمننا منه فيما نحن بصددِهِ، قال إنه كان يحضر إلى كوستي من عمله بالمشاريع عند نهاية كل شهر، حاملاً معه مُرتبته الشهري، فيضعه في سلة صغيرة تحت منضدة تتوسط غرفته، وما أن يسمع الناس بمجيئه فيتدافع نحوه أصحاب الحاجات، ويشرحون أحوالهم الدنيوية طلباً للمساعدة، فكان يُوجههم نحو تلك السلة ويطلب من السائل أن يأخذ ما يكفيهِ، ويستمر على هذا المنوال إلى أن تفرغ السلة من المبالغ التي ضمّتها، فيستدبر الأستاذ كوستي عائداً لمكان عمله، ويتكرّر الموقف في الشهر الذي يليه.. وهكذا دواليك!

(٨)

عندما نتأمل هذه القيم، ندرك تماماً لماذا تأمرت خفافيش الظلام على قتله. والناظر لحال الذين طغوا في البلاد اليوم، وأكثروا فيها الفساد، يدرك تماماً ما كان أمامهم إلا أن يفعلوا فعلتهم الشنعاء تلك. ذلك لأن حياة الأستاذ محمود بذلك النمط الذي ذكرنا تتضادّ تماماً مع الصورة التي نراها أمامنا الآن. فقد قتلوه كي يخلو لهم الجو ليبيضوا ويفرخوا فيه بضاعتهم الكاسدة تلك، قتلوه لكي يتمكنوا من نشر أكاذيبهم وأباطيلهم وضلالاتهم، فهم يعلمون أنهم ما كانوا سيفعلون لو أن الأستاذ محمود بقامته الفكرية الفارعة، وقدرته الفذة على المجادلة والتي هي أحسن، وفق المنهج الرباني، وحكمته التي تميز الخبيث من الطيب، وقدرته في الثبات على المبدأ، أنه بتلك الصفات الوحيد القادر على دحض أكاذيبهم وهزيمة ثرّعاتهم. لو كان بيننا لما تمّدت سنواتهم لنحو ربع قرن. إنني أنعي إليك يا سيدي نقاعسنا عن بلوغ الغايات النبيلة، أرثي إليك حالنا ونحن صمّم بكم عمي عن إرث تركته لنا في فضائل الأخلاق، من شجاعة وزُهدٍ وبساطة وحلم وحكمة.. أشكو إليك جُبنا وقد عجزنا أن نقول مثلك كلمة حق في وجه سلطان جائر!

يريدون أن يُطفنوا سيرتك يا سيدي وكأنهم لا يعلمون أن فرعها ثابت وأصلها في السماء، يريدون أن يطمسوا ذكراك يا شهيد الأمة، وفي ذكراك انطوى السر العظيم لو تأملوا وكانوا يفقهون!

آخر الكلام: لابد من الديمقراطية وإن طال السّفر!!

٢٠١٤/١/٢٠

أسرارُ يصعبُ ترويحُها.. أو وقائعُ الكارثةِ المقبلة! (١)

إن كان ثمة جملة واحدة مفيدة وصادقة في الخطاب الكارثة الذي ألقاه "الرئيس الضرورة"، المشير عَمَر حسن البشير منتصف الأسبوع الماضي، فهي قوله: «ونتوجه لأنفسنا، وللذين يستخفون بمنافسيهم وخصومهم، أن بعض هذا الاستخفاف، موجه إلى الشخصية السودانية في الحقيقة، تقليلاً من شأنها، ودافعاً بها إلى شيء من التردد بدأت مظاهره تغزو عقول أجيالنا»، ولا أدري ما إذا كان ذلك محض صدفة أم أن قائلها نُرعت عنه الحُجب وتنبأ بحدوثها أو أن "راسبوتين" قصر غردون الذي كتب هذا الخطاب شاء بنظرية "المؤامرة" توريط رئيسه بحديث بدأ به عتاة الديكتاتوريين ممن لهم باعٌ ضويل في الهرطقة والإسفاف وسواقط الكلام.. من لدن مُعمر القذافي وعلي عبدالله صالح وحُسن مبارك.. وهاجراً.. ففي واقع الأمر لا أعرف حديثاً سخر منه الناس واستهزأوا بصاحبه مثل هذا. وقلتُ لنفسي: إذا، فلماذا لا يكون قارنه هو كاتبه، لا سيما، وقد تماهى مع لغة الانحطاط التي ظلَّ يؤدي بها مسامعنا كلما ضُربت له الدفوف؟! قُل لي بحسبك: ما الذي يتوقعه المرء من نافخ الكير إذا اقترب منه؟! وسيان الأمر عندي، فذلك أشبه بمن يطلب من الفريق أول بكري حسن صالح مثلاً، أن يتحدث عن محاربة المخدرات في احتفائية لهذا الغرض، أو أن يدعو عوض الجاز لمخاطبة مؤتمر خُصِصت فعالياته لاجتثاث ظاهرة الفساد، أو أن يُسأل الفريق عبدالرحيم محمد حسين أن يحاضر ضباطاً عن الاستراتيجيات العسكرية! فنحن - يا سادتي - نعيش في عالم غرائبي، لو أن صمويل بيكيت، رائد مسرح العبث أحيي من قبره، لوضع يده على خذه وطفق يبيكي على حالنا!

(٢)

نعم، أعترف بأنني كُنْتُ كمثّل سائر عباد الله المُغفلين الذين حرصوا على مشاهدة الخطاب الكارثة، لكن الذي خفف عني وطأة تعفيلي هذا، هو أنني لم أكن أرجو من وراء ذلك إصلاحاً أو فعلاً يحيل هشيم البلاد إلى جنة تجري من تحتها الأنهار. ليس ذلك تأففاً أو تعففاً أو استعلاءً، وإنما فقط لأن عقيدتي السياسية الصمدية تجاه هذا النظام ورُمته، تُذكرني دوماً بأنه نظام انقلابي فاقد الشرعية وإن تناولت سنيته، وقد ظلَّ طيلة تلك الفترة التي قضاها في السُّلطة يحاول بشتى السبل والجيل والأحباب الالتفاف على هذا الواقع بلا جدوى، فهو نظام

مراوغ آدم من سدنته الكذب والمكر والخداع. لهذا ليس في الأمر عجب إن ظهر رئيسه يوماً ذلك بعقل خالٍ وفؤاد أفرغ من جوف أم موسى، وبدا كأحد جنرالات ماركيز بيتغي سبيلًا للخروج من مآهته ليجمل به سوءات السنين. علماً بأنه لو كان الشجر أقلاماً والنيل مداداً لما استطعنا لهذه السوءات عدّاً ولا حصرّاً. لهذا لم يكن غريباً أن يتأتا صاحبها ويتعثر وهو يكاد لا يقوى على القراءة، تماماً كمثل الحمار يحمل أسفارا وفق التشبيه الرباني البليغ!

(٣)

نبذ أنني اكتشفت أن الموضوع أكبر مما حصرنا أنفسنا فيه، أي الخطاب الكارثة. فقد بصرت وقدرت ونبشت في وقائع وأسرار وضحت لي بما لا يدع مجالاً للشك، أن الأزمة التي استحكمت والمحنة التي تعيشها الطغمة الآن كانت مدعاة لهذه التحولات التي طرأت على بنية النظام، وتقف من وراء التغييرات التي تمت وأحالت بموجبها بعض سدنتها إلى "الصالح العام" وبخاصة جماعة "المحفل الماسوني" التي كانت تدير أمور البلاد وتتخكم في مصائر العباد. وعليه سوف أطرح عليكم - سادتي القراء - حصيلة ما جمعت من أسرار، بعضها اختزنه في صدري زمناً، ليس لعدم أهميته ولكن لأنني لم أعتد على الانشغال ببعض أفعال الخواة التي تصدر من الغضب، فهم غاية ما يتمنونه أحياناً أن ننشغل عنهم بالهوامش ونترك المتون. وبعضها أسرار مستجدة هطلت علينا من ذات مصادرهم، وهي نفسها التي تُصلي معهم بالنهار وتُسبح معنا بالليل عبر وسائط التواصل الاجتماعي. وعموماً ما بين أيديكم نأمل أن يُفسر لكم متى وكيف ولماذا يود الشعب أن يُغير جلده؟! فتابعوا معنا فضح كواليس النظام الذي أكل "أباه" وأقبل الآن على أكل "بنيه"، أو إن شئت فقل وقائع الكارثة المقبلة.. إن لم نتداركها!

(٤)

خلف موت مجذوب الخليفة صباح يوم ٢٠٠٧/٦/٢٧ في حادث سيارة، ظهور كتلتين ظلتا تنافسان في الخفاء للتحكم في مفاصل السلطة. الأولى كان يرأسها علي عثمان محمد طه، والثانية تزعمها نافع علي نافع. لكن في واقع الأمر، ظلّ الأول مثابراً نحو إبقاء عرش الخلافة برُمته طوع بنانه، لا سيّما، وقد تضخّم هذا الشعور ابتداءً في نجاح الانقلاب عام ١٩٨٩، والذي لعب فيه دوراً بارزاً، مروراً بنجاحه أيضاً في إزاحة عزّابه الدكتور حسن الثرابي عام ١٩٩٩ من واجهة السلطة، وقد كان - بحسب ظنه - أنه يقف حجر عثرة أمم تمثّد طموحاته.. ثمّ انتهائاً بالتوقيع على اتفاقية السلام الشامل عام ٢٠٠٥ مع الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة الدكتور الراحل جون قرنق. تلك كانت هي الأسباب الثلاثة التي جعلت من طموح علي عثمان طه يستعر خلف الجدران، لكن سقفته لم تيسر حسب ما اشتهى وتمنى. فظهور مجذوب الخليفة كان قد كشف له شره بين نحو السلطة ودهاليزها، وقد عمل ما وسعه لاحقاً لأيلولتها لقبضته،

الأمر الذي لم تستطع عينا طه أن تُغفله، خاصة وأن الخليفة نفسه لم يكن يداري ذلك الطموح، بل في كثير من الأحيان كان يتعمد إظهاره لمن حوله تباهاً، فلم يكن عصياً على من كان أحد أعمدة "فقه التمكين" أن يبدأ التمكين بنفسه!

(٥)

سارت سفينة العُصبة بكل أثقالها، ترهقها في الخفاء صراعات المكاتب والصوالين المغلقة. ولمزيد من إسقاط الأفعنة، خريّ بنا أن نستوقف أنفسنا قليلاً في مجذوب الخليفة وسيرته المثيرة للجدل. فهو أول من "خصص" السلطة ربّما في العالم وليس في السودان وحده. فقد كان للرّجل جهاز أمن خاص به، تتبّعه ملحقاته من جلاوزة وسجن ومعتقلات خاصة وآلياتها، علماً بأننا لا نعرف حتى الآن أحداً ظهر للوجود بعدنّز ليحدثنا عن ما كان يجري في "دور العفاريث" تلك، لكن الذي نعرفه أن ثمة وجوهاً كثيرة اختفت من مسرح الحياة، وللمفارقة بعضها من سدة النظام نفسه. وقد حكى لي زميل انتقده بشدة في مقال نشره بداية الألفية الثالثة، فاستدعاه علي عثمان طه وقال له إنه قرأ مقاله ولكن عليه أن يحترس «فلمجذوب أجهزة خاصة» بحسب تعبيره، وإن كانت تلك رسالة تستبطن ما أضمره طه ابتهاجاً بمقال محدّثه. ومجذوب هو من جرّ رؤوس أكثر من مائة ألف من جهاز الخدمة المدنيّة، وقطع أرزاقهم فيما سُمّي استخفافاً بـ "الفصل للصالح العام"، وهذا رقم بالرغم من أنه يزيغ الأبصار، إلا أننا ظللنا نكتبه على مدى ربع قرن بنفس السهولة التي ندلق بها كوب ماء بارد في جوفنا العطش. لكن لا أحد يستطيع أن يدرك مكابذته سوى الذين اكتووا بناره وكانوا ضمن ضحايا المقصلة. فهو رقمٌ يحكي قصصاً قوامها دموغ وآلام، وتمرُّغ الكرامة في أحوال الفقر، وهجرة واسعة ضرب لها السُّودانيون أكباد الأبل والطائرات والسفن، وحفّيت أقدامهم.. هو رقمٌ يقف شاهداً على خللة قيم ومثل وأخلاق مجتمع كان بينه وبين الفضيلة بضعة أمتار، فصارت بينه وبينها فراسخ وأميال.

ليس هذا فحسب، فللمجذوب أيضاً سنة أخرى، فهو أول من ابتدع ما يُسمّى بـ "مال التجنيب" لإيمانه بأنه يمكن أن يلين له صُلب الحديد. ولهذا حرص على أن يتبعه بنكٌ متحرّك أينما حلّ. من أجل هذا وذاك، لا أحد يستطيع أن يقطع برأي في حادث السيّارة التي أودت بحياته وقبرت معه طموحه. ربّما كان ذلك قضاءً وقدرًا، أو ربّما كانت بفعل فاعل، وسواءً هذا أو ذاك، فما أكثر الحوادث الغامضة التي لن تُحلّ طلاسماً إلا بعد انفضاض سامر نظام العُصبة. وإلى حين ذلك، نقول: نحن الذين نوثق للتاريخ بخيره وشرّه، ليتنا كنا نعرف بعض حسانات مجذوب الخليفة حتى نذكرها تأسيساً بالحديث الشريف!

(٦)

أصبح مجذوب بين يدي مليكٍ مقتدر لا يُظلم عنده أحد، لكن قطعاً كان علي عثمان طه أحد الذين تنفسوا الصعداء، وحمد الله الذي لا يُحمدُ على مكروهٍ سواه.

فقد أصبح بمقدوره أن يقود سفينة السلطنة دون هاجس يُؤرقه، أو هكذا ظن. لكن لحظه العاثر لم يستطع مواصلة مشروع طموحاته بذات السيناريو الذي ذكرنا، فقد ظهر له في الواجهة لاعب آخر جديد. إذ لم يكن نافع علي نافع منافساً فحسب، وإنما جاء بالآليات نصيبته ملكاً في بلاط "صعاليك" النظام، و"الصعلوك" لغة هو الفقير، وصعاليك العرب فتاكها، وكانت تطلق على أي من يقوم من القبيلة بأفعال منكرة لا يقرها السلوك العام، ولهذا سعى نحو غاياته بوسائل قد يتضاءل معها ميكافيللي خجلاً في قبره. وقد بدأها بجهاز الأمن في أوج سطوته وبطشه وجبروته، ولم يضره بعدئذ أن يحمل لقب حامل أوزار الإنقاذ من المهد إلى اللحد.

بالعودة قليلاً للوراء، لم يكن نافع من المعروفين في أروقة التنظيم من قبل الانقلاب، ولكنه سعى سعياً حثيثاً إلى ردم هذه الهوة، بممارسات فيها كثير من العنجهية والاستعلاء والغرور، تبدو لمتأملها كأنها نتيجة عقد طفولية لازمت صاحبها ولم يستطع منها فكاكاً. إزاء هذا التراث الوافر، لم يكن أمام علي عثمان سوى الانحناء لعاصفة هوجاء، ظل خلالها متخذقاً بما اعتبره إنجازاته الثلاثة والتي ذكرناها في صدر هذا المقال، ومتظاهراً بعفة لسان تحاول أن تترك انطبعا إيجابياً في نفس محدثه، لكن تلك ما لم يكن يأبه لها نافع، الذي استخدم وسائله الخاصة لتفتيت عضد خصمه اللدود!

(٧)

بأسلوبه الحرباني المعروف، واصل علي عثمان محمّده مثيرته نحو التحكّم المطلق في السلطنة، فخطا خطوتين دراماتيكيتين للوصول لهدفه في المرحلة الثالثة لما عدّه إنجازاً كما ذكرنا. وتلك كانت قضية الحرب في جنوب البلاد. وهي القضية التي ظلت تتحكم في مصائر السودان وأهله قبل الاستقلال وبعده، ومن المفارقات أن خطاه التي سنذكرها رغم تضادها مع ما يُسمّى بـ"المشروع الحضاري" إلا أنها مرّت مرور الكرام وسط غضبته. ليس ذلك فحسب، بل سيذكر المراقبون أن إحداها كانت سبباً في اعتقال شيخه السابق الدكتور حسن الثرابي بعد أن وقّع تنظيمه "المؤتمر الشعبي" مذكرة تفاهم مع «الحركة الشعبية لتحرير السودان» في جنيف بتاريخ ٢٠٠١/٢/١٩. وعلى لرغم من أن طه اعتبرها خطيئة تستوجب "حدّ الزّدة" لنحر رقبة الثرابي، تناسى في خضمّ غمار مزايداته، إنه سبق المذكور ولم يتورّع في أن يأتي بمثل قوله، بل ربّما أنكى.

كان طه قد تحدّث في ندوة في جامعة الخرطوم بتاريخ ٢٠٠٠/٢/١٧ حديثاً عصف بـ"المشروع الحضاري" إلى أسفل سافلين، قال فيه: «أدركنا أن مسألة فصل الدين عن الدولة لن تكون سبباً في التفريق بيننا، هذه القضية يمكننا أن نتحاور فيها مع المتمرّدين الجنوبيين لنصل لبرّ الأمان»، ليأتيه ردّ الرئيس

«الضرورة» من الدوحة التي تزامنت زيارته مع الحديث دون أن يعقبه بالرقص المعتاد، فقال: «لا تراجع عن النهج الإسلامي»، ومع ذلك مضى طه نحو طموحه لا يلوي على شيء، فعمد النقلة الثانية التي أزاح فيها غازي العتباتي وتولى ملف المفاوضات بنفسه. ويبدو أن الخطوة استوجبت أن ينتقل بأسرته ليتخذ من فنادق نيروبي سكناً له، غير عابئ بالدولة التي تجمدت أوصالها في الخرطوم منذ التوقيع على بروتوكول مشاكوس في يوليو ٢٠٠٢ وحتى التوقيع على اتفاقية السلام الشامل في يناير ٢٠٠٥ لكن الذين يُدركون بواطن الأمور، يعلمون أنه في سبيل تعزيز قبضته على مفاصل السلطة، كان قد أقدم على تلك الخطوة حاملاً بين إبطيه مشروع وحدة السودان بحسب ما ذرّه على سمعه دكتور جون قرنق في حال حدوث استفتاء (إذ إن الأخير هذا كان واثقاً ويريد ذلك باستمرار).. أما الهدف الثاني، فقد كان وعد الوسطاء «لأمريكيين بإسقاط العقوبات الاقتصادية المفروضة على النظام منذ العام ١٩٩٧ بمجرد التوقيع على اتفاق سلام.. لكنه لم يكن يعلم أنه تأبط شراً وقدراً معاً!

(٨)

تعثّر طموحه مرّة أخرى، إذ غيّب الموت دكتور جون قرنق في حادث طائرة إثر ارتطامها بسلسلة جبال الأمانونج يوم ٣٠ يوليو ٢٠٠٥، وفي واقع الأمر، قبل طه كان غياب قرنق على الحركة الشعبية أعظم وبالأخص أعمق أثراً. إذ فقدت ربّتها فتخبّطت سفينتها في بحر لحي بات يغشاه موج من فوقه موج، أما فيما يخصّ رفع العقوبات الاقتصادية فلم يكن ذلك سوى «وعد عرقوب»، الذي لعقته العُصبة دون أن تنبشّ ببنت شفة. لكن طه الذي كان يرى عُصْبته تتداعى عليه كتداعي الأكلة على قصعتها، قام بخطوة حسبتها ستعيد الأمور إلى حياضه من خارج الحدود الجغرافية، ولم يكن يدري أن عُصْبته ستجرّعه علقمها من قبل أن يتبخّر حديثه في الهواء. كان قد اجتمع في بروكسل يوم ٢٠٠٦/٣/١٠ مع خافير سولانا مفسق الشئون الخارجية في الاتحاد الأوروبي، وروبرت زوليك مساعد وزيرة الخارجية للشئون الأفريقية، وقال لهما: «سندرس نشر قوات دولية بعد التوقيع على اتفاق السلام في دارفور»، وبعد عودته، أرغم على عقد مؤتمر صحافي (الصحافة ٢٠٠٦/٣/١٥) نسخ فيه كلامه دون أن يطرف له جفن، فأعلن على الملأ: «رفضه نشر قوات دولية في دارفور سواء قبل أو بعد الوصول لاتفاق سلام في الإقليم»..

عموماً، تلك فترة من عُمر المرحلة الانتقالية كانت بالنسبة «للإخوة الأعداء» أشبه بهدنة لالتقاط الأنفاس استعداداً لمعركة فاصلة. مجذوب يَمّ وجهه شطر أبوجا وهو يُمَيّ النفس بنصرٍ تتساوى فيه الكتوف مع «نيفاشا» طه، وطه نفسه صار في خُصَم تلك المقاصة أشبه بطفلي ضاع من أبويه في غمرة زحام، في حين ظلّ نافع متوثباً، إن حملت عليه يلهث، وإن تركته يلهث. فعمل على انتهاز الفراغ بممارسات جمعت كل أنواع التنفير والتدمير والتضليل حيال

الحركة الشعبية لتحرير السودان. لا، ليس هذا وحده - يا هداك الله - فقد أقدم نافع علي نافع بخبرته الأمنية وذخيرته في المَزَي والأذى، على تأسيس وحدة في جهاز الأمن تُعني بشئون الجنوب اليتيم، لكن قلّة تعرف أن اسمها الرمزي "الكودي" الذي أطلق عليها سراً هو "إدارة ملذات الحركة الشعبية"، وهي الوحدة التي حرّم بضائعها الحلال وحلّلوا الحرام، وجعلت من المشروع الحضاري برُمته محرّد فأر في مختبر تجارب. وفي هذا يا صاح قصصٌ يعف اللسان عن ذكرها، بل قلّ يحرن القلم عمداً عن خطيها!

(٩)

تعلمون رغم التتبع سالف الذكر أن القوّات الأممية هبطت أرضنا بأعداد تسد عين الشمس.. لا عليكم، هل يضير الشاة سلعها بعد ذبحها؟! المهم أن نافع دأب على فعل ما فعله الثور في مستودع الخزف، كان - بحسب ظنه وزُمرته - أن تحجيم وتهميش الحركة الشعبية في الفترة الانتقالية سيُفسد مجدداً انتظره علي عثمان، وكأنه لا يعلم أنه بفعلته الحمقاء كان يقرب الحركة الشعبية من دوائر الانفصال، وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر؟! على كل، ظهر الصراع سافراً للمرة الأولى بين الغريمين المذكورين في أواخر عام ٢٠٠٦ وأوائل العام ٢٠٠٧، ولكن ربّ سائل: وأين الرئيس الراقص من كل هذا؟! الصّدق أقول، إنه أصبح على علم بتحركات الطرفين ومكائدهما الخبيثة لبعضهما، ولكنه نام قرير العين بعد أن أكدا له - كلٌّ على حده - بالطبع، أن رئاسته في لوح محفوظ، بدعوى أنها ليست أكبر همتما ولا مبلغ علمهما، وبناءً عليه، منح كل فريق منهم أدنا للتقصّص الذي يحلو له، بينما واصل الرقص المنفرد على أهزوجة: "النار ولعها وأتوطأ فوق جمرها!"

(١٠)

عند اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية والبرلمانية - كما زعموا - حدث لذي كان يمكن أن يُغيّر تاريخ السودان من شبح الانفصال الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى، إلى رحاب الوحدة التي تُبقي الوضع كما هو عليه، إلى أن يأذن الله والناس بأمرٍ كان مفعولاً.. إذ حدث جدلٌ في أوساط الحركة الشعبية أثناء عقدها مؤتمر "مجلس التحرير" وهو أعلى سلطة في أجهزتها. وفيه تطايرت جمّة النقاشات الحادة بين تيّاري الوحدة والانفصال، انتصر فيها التيار الأوّل بطرح ذكي، دخلت فيه أطراف إقليمية (المملكة العربية السعودية) وأخرى دولية تتحكّم في شهيقي وزفير أنفاس العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) ومن وراء الكواليس سواصل القصة التي ستُسفر عن غُصّة.. إن كان في الكأس باق!

آخر الكلام: لا بُدّ من الِذِمَقَرِاطِيّة وإن طال السُفَر!!

٢٠١٤/٢/٧

أسرار يصعب ترويحها.. أو وقائع الكارثة المقبلة! (٢)

اتصالاً مع ما مضى، ذكرنا أن الحوار احتدم حول قضية الوحدة والانفصال في أروقة الحركة الشعبية لتحرير السودان، وهي كما نعلم القضية المركزية التي لا تحدد وجودها فحسب، وإنما مستقبل السودان ككل. وكلنا يعلم أنها ليست قضية مُستجدة، ولا حتى مرتبطة ببدايات تأسيس الحركة الشعبية في مايو من العام ١٩٨٣، وإنما سبقت الاستقلال وتلازمت مع وقائعها، واستمرت فيما بعد حرباً وسلاماً في ظل الأنظمة المختلفة التي مرت على حكم البلاد، سواء الديمقراطية البرلمانية، أو الديكتاتورية الشمولية، أو حتى الانتقالية التي كانت بين ذلك قواماً. ولكن عند ظهور الحركة الشعبية لتحرير السودان في التاريخ المذكور، أصبح لمصطلحي الوحدة والانفصال مسوغاً خاصاً في ظل رؤى زعيمها الراحل، الدكتور جون قرنق دي مابور، وهي الرؤى التي ضمّنها مانتستو التنظيم فيما عُرف بأطروحة "السودان الجديد" .. مع ذلك، يمكن القول إنها لم تعمل على إنحسار تيّار الانفصاليين في صفوف الحركة (وتاريخياً هم الذين يمثلون ما عُرف بـ "القوميين الجنوبيين"، أي الذين حملوا قضية الجنوب وهنا على وهن قُبِلَ ظهور الحركة نفسها)، ذلك لأن وحدوية دكتور جون نجحت في اصطحابهم بكلّ هواجسهم وشكوكهم ومكنوناتهم الانفصالية الصريحة، دون أن ينجحوا في التعبير عنها على أرض الواقع، أو حتى دمج هوية الحركة بتلك التوجّهات. ولم يكن خافياً على المراقبين أن نائبه سلفا كير ميارديت - وهو الوحيد الذي بقي من المؤسسين - أصبح يتزعّم ذلك التيار. بيّد أن هذه المعادلات وتلك وضعت الحركة فجأة على صفيح ساخن، حدث ذلك على إثر رحيل دكتور جون في الحادث المشؤم في يوليو ٢٠٠٥، بتداعيات كادت أن تذهب بريحها، لكن ما بقي من إرثه عمل على تأجيل هذا الافتراض، وإن لم يمنع تَمْطُهرَه. بدليل حدوثه بعد عدّة سنوات، صراعاً دموياً ما تزال تداعياته المأساوية تصبّ الملح على الجروح المفتوحة أصلاً!

(١٢)

تبعاً لهذه الحمولة الثقيلة، أقيمت الحركة الشعبية على عقد مؤتمر "مجلس التحرير الوطني" منتصف سبتمبر من العام ٢٠١٠، تزامنت وتزايدت فيه وتائر الانفصال، وعلا صوت الانفصاليين، وأصبح هاجسهم انقضاء الفترة الانتقالية بخيرها وشَرّها، ومن ثمّ الاتجاه نحو خيار الانفصال في الاستفتاء المُزْمَع عقده

بعد أشهرٍ قلانل من المؤتمر. وفي واقع الأمر، لم يخلُ لهم الجو بغياب دكتور جون وحده، وإنما ساهمت أيضاً أساليب التنفير والتطفير والتينيس التي كانت تمارسها عُصبة المؤتمر الوطني الحاكمة. على الضفة الأخرى، كان الودويون يتمسكون بأهداب مشروعهم كتمسك الغريق بقشة، خاصةً بعد أن تضعضت الفكرة التي تفتق عنها ذهنهم بأشراك روافع إقليمية ودولية لإنقاذ وحدة السودان، كما أشرنا في الحلقة الأولى.. لكن كيف حدث هذا؟! كان ذلك فُتير الانتخابات التي أقيمت في أبريل ٢٠١٠، أي سبقت المؤتمر المذكور. انذاك، كان لا بُد أن تقدم الحركة الشعبية مُرشحاً لرئاسة الجمهورية.. التقت وارثو وحدوية دكتور جون القفار باقتراح تقديم سلفا كير مُرشحاً لرئاسة الجمهورية، والعمل على فوزه، كآخر فرصة لضمان الوحدة.. المُفارقة أن سلفا كير نفسه رفض الفكرة ابتداءً، وقد استعرت هواجسه القديمة في أنهم يريدون التخلص منه، وهو في الأصل سواء في وجود دكتور جون أو بعد رحيله لم يكن يطمح مثله بحكم السودان البتة، وبالتالي وضع عينيه صوب حُكم الجنوب وحده، ولا شيء غيره. مع ذلك، رضخ بعد لأي، بشرط أن يضمن له "الشركاء" فوزه، إن كانوا يريدون وحدة السودان، وهو شرطٌ يعلمُ بدهائه المعهود استحالتُه. لكن المُفارقة، أن علي عثمان محمّد طه لم يُبدِ اعتراضاً، ربّما لأنه كان ما يزال يعتبر نفسه الرّاعي الرسمي لاتفاقية السلام الشامل، بالرغم من أنه بعد رحيل قرقنق، أصبح مهبط الجناح وسط عُصبته، وانضمّ لطائفة الأيتام الكثر الذين خلفهم قرقنق من وراءه. أما المُشير البشير، فقد قال بوضوح، إن ذلك أمرٌ دونه خرط القتاد!

(١٣)

على الرّغم من وعثاء السفر، لم تياس المجموعة التي تمسكت بأحلام قرقنق، وإن تضاعل عددها، فقررت أن تنقل الكرة إلى خارج الملعب السُوداني، وذلك بالاستعانة بروافع لا يقوى أحد أن يرفض لها طلباً. غادر وفدٌ من الحركة الشعبية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والتقى مسنولين في الإدارات المختلفة صانعة القرار، وطرحوا عليهم فكرة ترشيح سلفا كير للرئاسة، كآخر أملٍ لوحدة السودان. وهنا لا بُد من التذكير بأن وحدة السودان تلك ظلت أمراً متفقٌ عليه بين الحزبين الجمهوري الحاكم انذاك والديمقراطي المعارض، وتعدّ تلك من القضايا القليلة التي اتفق عليها الطرفان في السياسة الخارجية. ورُبّ سائلٍ: لماذا؟! نقولُ اختصاراً، لم يكن ذلك حُباً في سواد عيون السودان وأهله، وإنما لأن الانفصال سيفتح عليهم أبواب جهنم من معظم دول القارة الأفريقية، نسبةً لهشاشة مكنّاتها. لهذا راقت الفكرة لمن طرحت عليه، وتبنتها الإدارة الأمريكية بخطواتٍ عملية. إذ قامت بتمريرها إلى المملكة العربية السعودية، الحليف الإستراتيجي في المنطقة، ووضعت لها سيناريو مُحكم الصياغة والتدبير، إذ استند في جوهره على شراكة المملكة السعودية في أمن البحر الأحمر، وبدعوى أن الانفصال - إن حدث - فإن ذلك من شأنه أن يُربك المنطقة، وهي بالطبع الحجة التي تتضاعل معها دعاوى المكابرين. على كلّ، بعد أن تبلورت الفكرة، استبقى بعض أعضاء وفد الحركة

أنفسهم في العاصمة الأمريكية لعدة أيام ليروا ثمار ما غرسوه في ردهات البيت الأبيض!

(١٤)

شَرَعَت المملكة العربية السعودية في تنفيذ ما اتَّفِقَ عليه، وقامت بتقديم دعوة للمشير البشير بزيارتها لأمر عاجل. ومن المفارقات التي لم تُلَقَّ العُصبة في الخرطوم لها بالأمر، أن الدعوة تزامنت مع مرور الذكرى السنوية لاستقلال السودان. غادر الرئيس المشير البلاد يوم ٢٠٠٩/١/١ متوجّهاً نحو المملكة السعودية دون إعلان مُسبق، وهو اليوم الذي دَرَجَ العُرف على الاحتفال فيه بذكرى الاستقلال، وفي رواية أخرى، هو اليوم الذي اعتاد فيه المُشير وغيره مِن سكّنا قصر غُردون مخاطبة الأُمّة التي لم تعرف للاستقلال طعماً، رغم تراكم السنين. وهناك شَرَحَ السُّعوديون قلقهم من التَطَوُّرات الجارية في السودان نحو الانفصال، وبدعاوى شراكتهم في أمن البحر الأحمر - كما ذكرنا - عرضوا على المُشير مباشرة فكرة أن يُفسح المجال لترشيح سلفا كير للرئاسة، ضماناً لوحدة السودان. ولمزيد من التعصّب، أَكَّدوا أيضاً أن الانفصال سيُهَيِّد أمن مصر الإستراتيجي، وستُصبح إسرائيل عدواً مترتباً في الخاصرة. ثُمَّ أَكَّدوا له أنهم سيعملون على ترتيب أوضاعه الشخصية المُرتبطة بالمحكمة الجنائية، وعرضوا عليه الإقامة في المملكة إن رغب (كانت مذكرة التوقيف قد صدرت للمرّة الأولى من المُدعي العام للمحكمة الجنائية لويس أوكامبو في ٢٠٠٨/٧/١٤)..

بُهِتَ "الرئيس الضرورة"، الذي ظنَّ في الدَّعوة خيراً غير ذلك، ولم يكن يعلم أنها تتضمَّن ذلك العرض المُفخَّخ، الذي من أجله غادر البلاد وأهلها لا يعلمون.. أما أنا فساقسم بالذي يُؤتي المُلك من يشاء وينزعه مِن يشاء، أن كُلَّ من قرأ هذا الطلب تساءل - سرّاً أو جهراً - عن: السيادة المُهدرة؟! لكن بالطبع سيعلم الذين يجهلون أن السيادة لا تعني شيئاً في قاموس من داس السُّلطة بدبّاباتٍ مجنزرة، وملأ الساحات رقصاً، والمنابر تنبّراً، وظلَّ يهش بعصاه على معارضيهِ! على كُلِّ، لم يكن بوسعهِ سِوَى أن يشكرهُم على العرض، وقال لهم تبريراً أن ثَمّة مشاكل داخلية تشكو منها سُلطته كشأن كُلِّ دُول العالم، بتأكيد أنه يُمثّل صمام الأمان، لأن الأجنحة المُتصارعة متفقة على رئاسته، وقال إن مغادرته السُّلطة لأي سبب تُعد المُهَيِّد الحقيقي لوحدة السودان. ولم ينس أيضاً أن يُوكِّد قدرته على حسم تلك الصراعات في الانتخابات التي ستهيئ له ولاية جديدة تُعينه على ترتيب أوضاع البلاد بصورة جذرية.. ثُمَّ غادر غير آسف، يُسَيِّعه طلب تزامن - صدفة أم عمداً - مع ذكرى الاستقلال!

(١٥)

ربّما قلّة رأت في أخبار الفضائية الحكومية الرئيس - الذي عاد بخفي حنين - وكان في استقباله شُرذمة لم تتعدَّ أصابع اليد الواحدة، أو أكثر من ذلك قليلاً، بدّت وكأنها جُمعت على عجل، علماً بأن الحكومة التي كان يقف على رأسها يومذاك ضربت رقماً قياسيًّا في تاريخ التوزير في العالم بعدد ٩٩ وزيراً.

وتعلمون أنَّ الخرطوم مدينة لا تعرف الأسرار، بل إن كتمان الأسرار في عُرفنا نحن السودانيين كرايع المستحيلات، بعد الغول والعنقاء والخلّ الوفي. لم يكن غريباً أن تسري بين بعض الناس زيارة الرئيس الذي قطع البحر الأحمر في توقيت غريب ولم يعتبر حتى، يُقال عنها إنها لله! ولما كثر اللغط واللت والعجن، صرّح اثنان من العصابة بعد أيام قلائل بحديث كادا أن يقولوا فيه "البغلة في الأبريق"، على حدّ الأمثلة السودانية الدارجة.

قال علي عثمان طه، النائب الأول لصحيفة "الشرق الأوسط" بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٠: «هناك أحاديث رانجة حول تنحي البشير عبر انقلاب وإقامته بقصر في المدينة المنورة، وتلك شائعات يتمناها بغاث الطير».. وتلك مناسبة لا يمكن لنافع علي نافع أن يقول فيها خيراً أو يصمت، فصرّح لذات الصحيفة، وقال: «إن حكومته تلقت عرضاً من جهات لم يُسمّها بعدم ترشّح الرئيس البشير للانتخابات المقبلة، مقابل وقف إجراءات المحكمة الجنائية ضدّه بشأن دارفور»، ورَبّ سائل عن بقية العصابة آنذاك، ليس في الأمر جديد، فهم كما تعلمون تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، بعضهم أسكرته السُلطة بعد ازدياد تدفق أموال البترول التي كانت تجري مدراراً بين أيديهم، فصاروا يفسدون كما يتفلسون، وبعضهم كانوا منهمكين في حياكة مؤامرات ودسائس القصر والصوالين المغلقة، وبعضهم كالعهد بهم ساهون ولاهون لا يدرون صُبْحهم من ضُحاهم، وفوق هذا وذاك، كان هناك شعبٌ.. آخر من يعلم!

(١٦)

بعدنْ أصبحت الصورة واضحة لكلّ ذي لبّ حكيم.. انكفاً ما تبقى من التّيار الوحدوي في الحركة الشعبية على ذاته، وأصبح الطريق مُمهّداً للانفصاليين، مسنودين بقائد الحركة سلفاً كبير ميارديت من جهة، ومُؤازرين من السُلطة المُخادعة وجهاز أمنها المُنهمك في أنشطة "وحدة ملذات الحركة الشعبية" التي حللت كلّ شيء كما ذكرنا. لا عليك يا عزيزي القارئ، حتى لا يكون في الأمر ثمة طلاس، سأجعلك تقترب قليلاً من عش الدبابير..

حدّثني أحد وزراء الحركة الشعبية، وقد جاء للكرسي الوزاري بآمالٍ عِراض.. قال لي أنه ذهب ذات يوم وقابل كمال عبداللطيف المسؤول عن شؤون الوزراء في القصر الجمهوري، وسأله قرضاً حسناً، أي "سلفيّة" كما نقول عنها، فسأله عبداللطيف: فيم يريدّها؟! فقال له أنه يريدّها لآكمال بناء منزله.. عندنْ نفجر عبداللطيف ضاحكاً بصورة مجلجلة حتى كاد أن يسقط من كرسيه.. استغرب صديقنا وظنّ أنه جاء شيئاً إداً. لكن بعد أن هدأت أنفاس عبداللطيف، قال له بصوتٍ متهذّب من الضحك: «نحن ما عندنا سلفيّات لبيوت، إنت مش وزير؟! خلاص شوف ليك "هبرة نضيفة" كدّه وكمل بيها بيتك».. ولمصلحة القارئ في تخيل الميلودراما، تذكر أن المذكور عندما قال "هبرة نضيفة" كان قد لوّح بيده

في الهواء بطي الأصابع على راحة الكف كما نفعل في مثل هذه المشاهد..
الواقع، لم يكن صديقنا يعلم حتى وقتذاك أن كمال عبداللطيف عضو أصيل في
منظومة وحدة الملذات. فخرج من المكتب وهو مندهش من هذه الشفافية في
الفساد!

(١٧)

أخيراً وليس آخراً.. مع كل ذلك الإحباط الذي رشح من عدم ترشح سلفا كير
ضماناً لوحدة السودان، كان هناك ثمّة ضوء صغير في آخر النفق المظلم، أو إن
شئت، فقلّ عنه إنه محض "فرقة مذبح" كان يمكن أن تغير معادلات السودان
السياسية بطموح أكبر من مسألة ترشيح سلفا كير لرئاسة الجمهورية.. كان ذلك
سيناريو مُحكم الصياغة أيضاً، رَسَمَ معالمه بعض السياسيين الحاديين، والذين
ينتمون لتياراتٍ سياسية مختلفة. وتمثل اختصاراً في تكتل انتخابي قوامه الحركة
الشعبية وكل القوى السياسية الشمالية التي كانت منضوية معها تحت لواء التجمع
الوطني الديمقراطي. وهو السيناريو الذي افترض أن التكتل المذكور يمثل غالبية
أهل السودان، وبشرط أن تكون الانتخابات حرة ونزيهة، ولكن من ذا الذي
يضمن أمر كهذا في أجندة أبالسة التزوير؟! جاءت الإجابة البديهية.. الاستعانة
بالمجتمع الإقليمي والدولي، لضمان العملية الانتخابية وحمايتها من الغش.
المفارقة التي لن تدهش أحداً، ما أن أسفر هذا السيناريو عن نفسه حتى تحركت
قرون استتعار العصبية لتصنع السيناريوهات المضادة التي تحول بين أي تقاربٍ
بين الحركة الشعبية لتحرير السودان وتلك القوى الشمالية.. وبالطبع هناك من
استجاب ووقع في حبالهم، وهناك من تمّن وهو راغب، وهناك من استبقى نفسه
في السياج وهو يعض أصابع الندم ويلعن سنسفيل الفرص المهدرة لهذا البلد
تعيس الحظ!

وهذا يا عزيزي القارئ حديث آخر "مغتغت" سنزيج عنه الغطاء في الحلقة
القادمة!

آخر الكلام: لا بُدَّ مِنَ الدِّيمَقْرَاطِيَّةِ وَإِنْ طَالَ السَّفَرُ!!

٢٠١٤/٢/١٧

obeikan.com

أسرارٌ يصعبُ ترويحُها.. أو وقائعُ الكارثة المُقبلة! (٣)

للتذكير بما مضى من حلقات، نقول إن الهدف الرئيسي لهذه السلسلة هو تعرية صراعات الخفاء في أروقة الغُصبة ذوي البأس الحاكمة بشكلٍ عام، وتوضيح جذور الصِّراع التي أدَّت للتطُّورات الأخيرة بشكلٍ خاص. ونقدِّم في هذا الصدد تحليلاً بمعلوماتٍ نطمح أن تُعين القراء على وضع الأمور في مسارها الصحيح. لا سيَّما، وأن الغُصبة نفسها بصدد إعادة إنتاج الأزمة التي استحكمت حلقاتها، وباتت تهتِّد وجودها برحيلٍ محتمل. وعلى الرغم من الإقرار بتطاول أمدّه - أي الرّحيل - إلا أنه لن يأتي بغتة.. فهو حقيقة جَهَر بها ذوي الألباب حتى بحث أصواتهم وجَعَّت أقلامهم، بل جَهَر بها حتى الذين كانوا يشاركون النظام توجُّهاته الأيديولوجية، وتقاسموا معه سراءه وضرَّاه. ولكن نظراً لطبيعتهم الشموليَّة "التوتاليتارية" لم يَكُن من المأمول فيهم أن يستبينوا النُصح قبل وقوع الكارثة، بدليل أنهم يظنون الآن أنه يمكن استغلال هذا الشعب الطيِّب بمثلما استغلَّوه لرُبع قرن. وإلا فليقلِّ لنا عاقلٌ: ما الذي يجعل الديمقراطية التي كانت كُفرا بالأمس، إيماناً اليوم وتكاد تُدرج كركن سادس لأركان الإسلام؟! أليست الحرية التي استكثروها على الناس بالأمس، هي ذات الحرية التي يَمِنون بها عليهم اليوم؟! حرِّموا الغناء بالأمس وحلَّوه اليوم، لدرجة تكريم الفنانين محمَّد وردي ومحمَّد الأمين ومحمود عبدالعزيز.. والذين يتحدثون عن وطنٍ يسع الجميع، أليسوا هم أنفسهم الذين شرَّدوا أبناءه في الدَّاخل والخارج، واحتكروا الوطن والوطنية؟! أنظروا لِفعَلِ الخواة، قالوا بالأمس إن الله تعالى أرسلهم لإخراج أهل السُّودان من الظُّلُمات إلى النور، واليوم يقولون إن الله نفسه أوحى إليهم جمع شمل أُمَّة تفرَّقت بها سُبُل السياسة. والمفارقة مع بؤس ما ينطقون إلا أن ثمة قُوى سياسية حزبية جاورتهم في سوء الظن، وأخرى مصابة بشبقٍ فطري للسلطة، يريدون أن يشاطروهم إعادة إنتاج الأزمة ليُصبح هذا الشعب الكريم.. في كُلِّ عامٍ "يُرذلون"!

(١٩)

على مدى رُبع قرن تحكَّمت الغُصبة الماسونية في مصير أكثر من أربعين مليون سوداني، قدَّموا ثلثهم إلا قليلاً قرباناً لرؤيا رأوها في ضلام حربٍ أشعلوها فتنة.. رُبع قرن يعجز فيه القلم عن حصر البلايا والرزايا التي أصابت السُّودان

والسودانيين في مقتل.. كنا قد قلنا إن الفريقين المتنازعين أو المتنافسين، أو إن شئت فقل "الإخوة الأعداء" علي عثمان محمّد طه الحاكم بأمره في الخفاء، ونافع علي نافع الحاكم بأمره في العلن، تواصل بينهما الصّراع منذ رحيل ثالثهما مجذوب الخليفة، وشهدت الكواليس كراً وفرّاً، غلواً وهبوطاً، إلى أن جاء السيناريو الذي مضى بالوارثين إلى غياهب الجُب. بيّد أن الأمر لم يكن بذات السهولة التي كتبنا بها هذه الأسطر، إذ ينبغي علينا الوقوف عند حيثيات بعينها، وهي تتطلب منا قليلاً من الصّبر حتى يتسنى لنا متابعة وقائع تكشف أسرار مرحليّة، لها انعكاساتها على الواقع السّوداني المُتخّن بالجراح من جهة والمُهيأ لوقائع كارثة مقبلة من جهة أخرى. فهل يجوز لمن تلطّخت أياديه بدماء الأبرياء وولغ في الفساد حتى لم يبق من جسده شبراً طاهراً، أن يطوي تلك الصفحة كما يطوي كتاب فرغ من قراءته؟! ذلك سؤال أجاب عليه تاريخ البشريّة بصورة عامة وتاريخ العقديين بصفة خاصة، إذ لم تختلف جماعة منهم دون أن تنقسم، ولم تنقسم إلا بعد أن رفعت المصاحف على أسنة السيوف، ولم تُطو المصاحف وتُرجع السيوف لأغمارها إلا بعد أن أراقت على جانبيها الدماء. وتعلمون أن هذا ما قاله بوضوح التاريخ الإسلامي - الذي تحاول العُصبة تملق سنّنه وفرائضه والإحياء بأنهم حملة رايته - منذ أن صارت دولة الخلافة مُلكاً عضوداً، قتلاً وسحلاً وتكتيلاً، وممارسات أخرى تصدّعت لها ردهات قصور بني أميّة، وضجّت بها أركان دولة العبّاسيين، وتسوّدت جرّاءها قلوب آيات الله الجُدّد..

وللذين يهرّبون ممّا ندعو في الفصل بين الدين والسياسة، ويستعصمون بالثيوقراطية البغيضة ملاذاً، نقول إن تاريخنا المائل خير مثال، إذ أريقَت فيه الدماء قولاً وفعلاً، وتبعثها اراقة قيم ومثل وأخلاق.. فيا دُعاة الدولة الدينيّة، ما أكثر الشواهد حين تعدّها، ولكن الذاكرين قليل!

(٢٠)

نعود للسيناريو الذي تفتق عنه ذهن نشطاء سياسيين كما ذكرنا، وهو سيناريو اعتمد بشكل أساسي على المثل الإنجليزي الشائع: "الذين يُصوّتون بأقدامهم" التقليد الرّاسخ في تاريخ الانتخابات البرلمانيّة الديمقراطيّة السّودانيّة، أو ديمقراطيّة "وست منستر" كما تُعرّف. فقد نهض الاقتراح دفعة واحدة بعد الاستقبال الذي حظي به الرّاحل دكتور جون قرنق دي مابور في ميدان السّاحة الخضراء بالخرطوم، حيث تدفّقت ملايين لم يشهد التاريخ السّوداني لها مثيلاً، الأمر الذي أربك دوائر العُصبة الحاكمة، فبدأت في حياكة المؤامرات البارة في صنعتها، لدرجة ما زال البعض مُؤمناً إيماناً كاملاً بدور لهم في سقوط المروحية التي كانت تقله وأودت بحياته فوق سفوح جبال الأماتونج. وبالطبع، هو حديث ذو شجون بالفعل، ويحتاج لمبحث خاص، سنخوض فيه متى ما اكتملت أركنته. على كل فإن الاستقبال المذكور أوضح بشكل جلي أن ما ظلّ يدعو له الزّاحل قرنق ليّل نهار بما أسماه بأطروحة "السّودان الجديد" صار قاب قوسين أو أدنى من

التحقق. وهو بحسب قوله، يمكن أن يُؤدّي إلى تفكيك النظام سلمياً، لا سيمًا، وأن المجتمع الدولي ممثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية ودول الترويكاف الأوروبية كانت الضامن الفعلي لإتفاقية السلام. كان السيناريو قد تمثّل في ضرورة خوض الحركة الشعبية الانتخابات ضد المؤتمر الوطني الحاكم، ذلك بالتضامن مع كل القوى السياسية الشمالية التي كانت تنضوي معها في إطار التجمّع الوطني الديمقراطي، إلى جانب الحركات الدارفورية قبل أن تتشردم. (تكوّن الحلف في جوبا في مايو ٢٠٠٥، وسُمّي باسمها حيناً، و"قوى الاجماع الوطني" حيناً آخر)!

(٢١)

بالصورة الواقعية، كان ذلك سيناريو يمثل غالبية أهل السودان. بل يمكن القول بحدّث النسب إنه يمثل أكثر من ٩٠% من القوى الاجتماعية السودانية، فالمعروف أن الغلبة الحاكمة تمثّل أقل من ٥% من النسبة المذكورة حتى بعد أن بدّلت جلودها. على كلّ، كان رحيل قرنق فجأة (بعد ٢١ يوماً من وصوله الخرطوم) قد أربك دوائر الحركة الشعبية وتكتيكاتها أيضاً، وبالرغم من تجاوزها المحنة تنظيمياً باختيار سلفا كير، إلا أن الخلف مضى في طريق سلفه - وما زال - بـ"استيكة"! وعندئذ كان من الطبيعي ألا يتحمّس للخيار المذكور وحلفه الذي تبنّاه.. بل على العكس تماماً، اجتهد في طيّ الفترة الانتقالية بقضيتها وقضيضها للتعجيل بخطى الانفصال. وفي واقع الأمر، وبغض النظر عن توجّهات سلفا كير تلك، فإن الخيار الذي تحدثنا عنه خالطه سلبات، وحالت دون أن يجد حظّه من التجريب. كانت أولى تلك السلبات هي توجّسات الخلفاء وفي طليعتهم حزب الأمة، إذ ظلت علاقته متوتّرة مع الحركة الشعبية على الدوام، وتحديدًا منذ هروب السيّد الصادق المهدي من السودان أواخر ديسمبر من العام ١٩٩٦، وزادت توتّراً بعد الرسائل التي تبودلت بينه وقرنق، وكانت قمة في الخصومة السياسية (لمن يريد الاستزادة، فليعدّ إلى تلك الرسائل وملابسات العلاقة في كتابنا الموسوم بـ"السودان.. سقوط الأقنعة" أما ثاني السلبات فقد تمثّلت في كيفية ضمان نزاهة الانتخابات مع خصم له باع طويل في التزوير بكافة أشكاله، وإن خفّف البعض من غلوائه بضرورة الاستعانة بالمجتمع الدولي لتكثيف الرقابة!

(٢٢)

قد يقول قائل إن ذلك كان محض أضغاث أحلام، وبالطبع فإن للقارئ الحق في تفسير الأمور كيفما شاء، وكاتب هذه السطور نفسه برغم ثقته الكبيرة في الرّاحل قرنق إلا أنه لم يكن متيقناً من أنه إذا ما امتدّ به العمر سيعمل على إنجاح تلك الفكرة، خاصة وأن السلبات التي ذكرنا بعضها كانت تمثّل تحدياً كبيراً. لكن استطيع أن أقول إن الذي ساءني وآخرين بالطبع، هو أن ذلك السيناريو كان أشبه بوعد بلفور (أعطى من لا يملك إلى من لا يستحق).. فالفكرة رغم نبلها، إلا أنها أسقطت مسألة الشرعية عن نظام ظلّ هاجسه المقيم هو شرعنة نفسه، وقد ظلّ - وما يزال - أن تقادّم السنين كفيلاً بطمس تلك الشرعية المفقودة. على كلّ، رحل

قرنق ورخلت رؤاه معه وترك من خلفه قوماً تعاركوا على خلافته من قبل أن يجف ماء قبره، وفي خضم ذلك كان من البديهي أن تتجه الحركة نحو الانفصال. ومن باب سذ الذرائع، قدّمت ياسر عرمان مرشحاً لرئاسة الجمهورية، وأعلنت انسحابه بعد حين وما كان ينبغي لها أن تفعل غير ذلك، لكن واقع الأمر كان ذلك مجرد ذر رماد في العيون، لأن الكواليس شهدت أسوأ مقايضات. في التاريخ السياسي السوداني، حيث تمّت صفقات في الظلام بين النظام الديكتاتوري والحركة الشعبيّة شريكه في السّلطة. على سبيل المثال قايضت الطغمة تمرير قانون الاستفتاء وعقده في موعده بجملة قوانين، على رأسها تمرير قانون الأمن سيئ الصيت. وكان على شعب السودان الصابر تجرّع المأساة التي صنعتها فترة انتقاليّة زادته رهقاً على رفق!

(٢٣)

أقيمت الانتخابات في أبريل ٢٠١٠، وقد شهدت أكبر عمليّات تزوير في التاريخ السياسي السوداني، ولم يكن ذلك غريباً بالطبع. وقبل ذلك تحرّكت قرون استسعار الغصبة ممثلة في علي عثمان ونافع، اللذين جمعت بينهما المصائب، فعملاً على إجهاض ذلك السيناريو بالضرب على سبيلاته المذكورة. وفي سياق ذلك، توجّهت الأنظار نحو الحزبين الطانفيين، فدخل "المال السائب" معركة في غير معترك. وحينما انكشف سرّه، وذاع أمره، تمثّل تبرير الممنوحين في القول إنه عبارة عن تعويض عن ممتلكات صودرت، ونسوا أن الطغمة صادرت ما هو أعظم من ممتلكاتهم (يذكر الذين كانوا يتابعون أنشطة التجمّع الوطني الديمقراطي المقبور، أن السيّد الميرغني كان يُصرّ أن يتضمّن أي بيان ختامي لاجتماعات هيئة القيادة "ضرورة إعادة الممتلكات المصادرة"، وكان المجتمعون يعلمون إنه بندٌ لا ناقة لهم فيه ولا جمل، فهو يخصّه وقرينه الآخر).. المهم، أن ذلك فتح الباب للغصبة أن تُغيق عليهم من خزائن الشعب الصابر بمقابل معلوم.. هذا المقابل تمثّل بالنسبة للسيّد الميرغني في الاستمرار في مهزلة العملية الانتخابيّة بضمان عددٍ محدود من الدوائر الانتخابيّة، والابتعاد بالحزب عن أي أنشطة أخرى تعمل لإسقاط النظام، إلى جانب تعيين أحد الأجنال الكرام في منصب مساعد رئيس الجمهورية.. (كان حلف جوباً أو ما سُمّي بـ"قوى الإجماع الوطني" قد انفرط عقده وتباينت مواقفه قبيل الانتخابات، فقاطعها جميعاً أوائل أبريل ٢٠١٠، في حين مضى الحزب الاتحادي والمؤتمر الشعبي في خوضها على مستوياتها كافة) وكفى الله المتحالفين شرّ الانتخابات!

(٢٤)

كانت المبالغ التي مُنحت للسيدّين في الانتخابات مجرد غيض من فيض، لم يتوقف منذ أن وطأت أقدامهما الطاهرة أرض السودان وحتى اليوم. على سبيل المثال، كان علي أحمد السيّد، المحامي والقيادي في الحزب الاتحادي الديمقراطي قد كُشف في حوار منشور ('الراكوبة' ٢٠١٢/٦/٢١، نقلاً عن صحيفة 'الجريدة')

سُئِلَ فيه عن الأموال التي تسلمها الميرغني، فقال: «هي عبارة عن تعويضات و»لسع عندنا» ٨ مليار مع المؤتمر الوطني، والذي وصلنا حوالي ١٣ مليار بالقديم».. وبالرغم من أن ذلك لا يحتاج لتأكيد، إلا أن هناك ثمة مفارقة جديرة بالتأمل. يعلم الكثيرون أن المال يُعَدُّ أحد نقاط ضعف شخصيّة السيّد الميرغني، ويمثّل جمعه إحدى الهوايات الأثيرة إلى نفسه، هذا بغضّ النظر عن مصدره، أي سواء جاء من حكومة ديكتاتورية أو ديمقراطية أو من دول شقيقة أو صديقة، أو حتى جبايات من ممتلكات قد تسوء السائلين إن تبدّت لهم.. نقول لمن حاصره العجب، إن انهماك السيّد الميرغني في جمع المال، إضافة إلى دفع ابنه لمنصب سيادي، كما يقولون (باشتراط رعاية مباشرة من أحمد سعد عُمر وزير رئاسة الجمهورية) يشكّلان عاملين يعتمد عليهما في استمراريّة الطائفة، فهو يعلم تماماً انحسار أرضيّتها بفعل التطوّر الطبيعي وازدياد الوعي الذي يتضاد مع ممارساتها، فضلاً عن أنه شخصياً يقف على أعتاب العقد الثمن.. من أجل كل هذا، تجد الميرغني أكثر تمسكاً بالدولة الدينيّة كطوق نجاة من طوفانٍ قادم لا مُحال. لذا فهو غير معني بهويّة النظام الحاكم وإن ادّعى، ويكفّه من السواد الأعظم لهذا الشعب المحتار، بضع حواريين من نُخبه، يُخففون عنه وطأة محتته بتقبيل اليد الطاهرة، بحثاً عن «عطية مزيّن»!

في الحلقة القادمة نواصل اجتراح الآلام، ونستعرض فيها دوافع السيّد المهدي الذي أبرم مع النظام صفقة بثلاثة موبات أيضاً، كصنّوه المذكور!

آخر الكلام: لا بُدَّ مِنَ الدِّيمقراطيّة وإن طال السّفَر!
٢٠١٤/٣/١

oboiikan.com

أسرار يصعب ترويحها.. أو وقائع الكارثة المقبلة! (٤)

امتداداً لما ذكرنا من وقائع في الحلقة الماضية، والتي سلطنا فيها الضوء على تعامل السيد محمد عثمان الميرغني مع القضية السودانية بصورة عامة، ومواقفه المتقلبة من النظام بصورة خاصة، ولنا بشواهد إنها تحكمها بدرجة أساسية حُبُّه للمال حُباً جماً، الأمر الذي عمِلَت العُصبة على استغلاله حتى دَجَّنَتْه. نزيدُ أيضاً بقصّتين تعضيداً لما سردنا.. ففي كتابه "السودان، أهوال الحرب وطموحات السلام" ص ٨١٦، كتب الدكتور منصور خالد الآتي نصه: «وجَّهت السيدة سوزان رايس، مدير إدارة أفريقيا بمجلس الأمن القومي (قبل أن تصبح مساعداً لوزير الخارجية لشئون أفريقيا في إدارة الرئيس بيل كلنتون) سؤالاً للسيد الميرغني يُعبّر عن تلك المخاوف، في لقاء شارك فيه الكاتب، سألت رايس الميرغني: ما الضمان لأنكم لن تعودوا مستقبلاً إلى مواقفكم السابقة حول هذه القضايا؟! فأجاب: الضمان هو ثباتي على موقعي الذي تعاهدت عليه مع قرنق منذ العام ١٩٨٨»..

تلك القصة دارت وقائعها منتصف تسعينات القرن الماضي، أي في أوّل زيارة للميرغني لواشنطن بعد ترؤسه هيئة قيادة التجمّع الوطني الديمقراطي. والواقع أن الرّأوي سرد الرواية مبتورة، ولم يذكرها كاملة لاعتبارات نعلمها، وهي خاصة به. أما نحن، فقد تواترت إلينا طازجة حينها، والمنصور خالد بها زعيم.. فما ذكره في النص من "مخاوف" و"مواقف سابقة" ولم يُفصح عنهما عمداً، كانتا قد تمثّلتا في سؤال رايس للميرغني في بداية اللقاء، بقولها: «تُرى ما هو الفرق بينكم وحكومة الجبهة الإسلامية الحاكمة في الخرطوم، وكلاهما تدعوان لدولة إسلامية؟!». فقال لها: «نحن أسرة الميرغني أغنى أسرة في السودان، ولو أننا مثلهم، لاستبقيت نفسي في السودان لاستثمر أموالنا». ثم أكمل إجابته بالنص المذكور أعلاه والمقتبس من الكتاب.. فبُهِتَ الذي سأل.. ونحن أيضاً!

(٢٦)

أما الرواية الثانية، والتي ذكرناها في كتابنا المشار إليه من قبل "سقوط الألقعة.. سنوات الأمل والخيبة" ص ٤٧٥، فهي تصوّب في اتجاه مواز يُوضّح كيفية تعامل الميرغني مع القضية العامة بمنظور هوايته تلك بعد أن هيات له

الظروف ترؤس التجمُّع الوطني الديمقراطي، أو الكيان الذي حظي بموازنة غالبية أهل السودان، وبدعم إقليمي لا حدود له، ومساندة دولية كبيرة. حدثت القصة التي نرويها في أوَّل اجتماع بين السيناتور القس جون دانفورث وبعض أعضاء هيئة القيادة، وعلى رأسهم الميرغني في منزله الكائن في القاهرة والمُسمَّى بـ"فيلا الخرطوم" منتصف العام ٢٠٠٣، وأنداك كان الكيان المعارض يبحث عن حُرْم إبره يدخل بها مفاوضات الإيغاد "نيفاشا" بعد أن كان شريكاً للحركة الشعبية في السراء والضراء. وبجانب أعضاء هيئة القيادة (عبدالرحمن سعيد، فاروق أبو عيسى، التيجاني الطيب، محمَّد أحمد حسن عبدالمنعم، أحمد سعد غمر)، حضره أيضاً القاتم بأعمال السفارة الأمريكية في القاهرة مسرر ميلتون، ونسبة لضيق الوقت الذي تحدَّد للاجتماع بنحو ٤٥ دقيقة، قام الأعضاء المذكورون بصياغة مذكرة بحيث يقوم الميرغني بتسليمها لدانفورث. لكنه ترك كل ذلك جانباً وطفق يحدث الحاضرين حديثاً أدخل الملل في نفوسهم عن أسرة الميرغني واستثماراتها وراثتها. وقال موجِّهاً حديثه لدانفورث، إنهم أسسوا مصرفاً وعيَّنوا في مجلس إدارته ثلاثة مسيحيين. وبالطبع لن يخفى على فطنة القارئ ما رمى إليه. صحيح أن دانفورث قسيس قبل أن يكون سيناتوراً، لكنه لم يقل إنه جاء مبعوثاً من قبل العناية الأمريكية للتبشير بالمسيحية.

أما الثالثة الأثافي، لو تعلمون، فقد انفضَّ الاجتماع وغادر دانفورث ولم يثم الميرغني بتسليمه المذكرة المذكورة، الأمر الذي دعا الأستاذ فاروق أبو عيسى وصحبه الميامين بتكبُّد المشاق والذهاب لمقر إقامة دانفورث وتسليمه المذكرة. هل ترى بعدنذ يا عزيزي القارئ ثمة حاجة لأن تعرف لماذا أصبح الكيان الذي ملأ الدنيا وشغل الناس يتسَوَّل الخُلُوف؟!

(٢٧)

من أجل كل ذلك، إن كنا نتحدَّث عن المسكوت عنه في الواقع السوداني، ينبغي على شعبه الصابر ألاَّ يكلف الميرغني إلا وسعه. فالحقيقة التي يتعالم عنها معظمنا، رغم أنها تشكِّل واقعاً مؤلماً، هي أن الميرغني يرأس حزباً هو صاحبه، على عكس أبجديات العلوم السياسية التي تُعرِّف الحزب بأنه كيانٌ لجماعة. وبالتالي، فإن الميرغني لا يرى غضاضة، بل ليس في الأمر غرابة إن ترأس هذا الحزب لما يقارب النصف قرن، فضلاً عن أنه لا يرى أيضاً في الأمر مُنكراً إن جمع مع رئاسته تزعم طائفة بغض النظر عن تضاد رسالتيهما وتوجُّهاتهما ومراميها. بيد أن التناقُّض الأكبر يكمن في أن هناك من صدَّق أن فائد الشيء يمكن أن يعطيه، وظنَّ أن الميرغني يعمل على استرداد الديمقراطية. علماً بأن الحقيقة التي ينبغي علينا مواجهتها حتى نستبصر أمورنا بصورة تتواءم ومتطلبات العصر، هي أن رجلاً بتلك الصفات لا تهمه هويَّة النظام الحاكم، سواء كان ديمقراطياً ليبرالياً أو ديكتاتورياً متسلطاً، ولا اعتقد أننا جئنا بأمر جديد في هذا الشأن، فنحن على الأقل نريد ما يقوله البعض همساً ولا يجرأون على قوله جهراً. المفارقة أن دهاقنة الطغمة الحاكمة وقفوا على مكونات ذلك الواقع البنيس

وعملوا بوسائلهم الخبيثة على استغلاله وتجييره لصالح نظامهم. إذ أبرم الميرغني عقداً شفهيًا مع النظام - مثلما ذكرنا في انحلفة الماضية - قضى بالألا يعمل على إسقاطه أو حتى مساندة الذين يريدون إسقاطه قولاً أو فعلاً، لاسيما، وقد جبر النظام ضرره الذين كان يدعيه بغطايا لم تتوقف مطلقاً. إذأ، فما الذي يمكن أن يُرجي ممّن كرّس نفسه سيّداً لطائفة، ويرى الطائفة تعلو على الحزب، ويؤمن بأن الحزب فوق الوطن؟!

(٢٨)

ليس من باب فقه المقارنات، ولا شخصنة القضايا، فانبون شاسع كما تعلمون، إذ أن لكل من السيدين شأنٌ يُغنيه في الوطن وقضاياه. طبقاً لهذا، فثمة مسائلتين قد تفسيران المواقف الرمادية للسيّد الصّادق المهدي حيال النظام. الأولى، عُرف بأنه أكثر انشغالاً بالقضايا السياسية والفكرية سواءً اختلف الناس معه أو اتفقوا، ولهذا بدأ يظهر للمراقبين بمظهر الزّاهد عن المال وجمعه، بعكس الميرغني الذي ذكرنا. لكن ذلك زُهدٌ قد يصمد أمام الدهر وتقلباته، ولكنه قطعاً لن يقوى على الصمود في تسيير شئون طائفة وحزب معاً (المعروف أن حزب الأمة شأنه كشأن سائر الأحزاب السودانية - عدا الحزب الشيوعي نسبياً - ليس في أجندته المالية أي بند لاشتراكات الأعضاء، الذين رسخ في عُرفهم أن الحزب يُعطي ولا يُعطى)، لهذا كانت الحاجة هي نقطة الضعف التي عملت العصبية الحاكمة على استغلالها، الأمر الذي انعكس على مواقف المهدي، فأصبح يبدو وكأنه غير جادٍ في مسألة إسقاط النظام، وقد انعكس ذلك ضعفاً على حزبه، إذ صار يتأكل من أطرافه كما السودان نفسه. نتج عن ذلك أن دفعته الحاجة المستمرة لتسيير شئون الحزب والطائفة لأن يطرق الباب الحرام، فلجأ للسلطة الغاصبة تحت دعاوى استرداد ثمن سيارات صودرت بعد الانقلاب (علماً بأن للمهدي تجربة مريرة في مسألة تعويضات آل بيته إبان رئاسته الوزارة في الحقبة الديمقراطية الثالثة)..

من جهة ثانية، فثمة قلة من الناشطين - ونحن ضمنهم - كانوا على علم بالسبب الرئيس الذي حدا بالمهدي لإسقاط "لاءاته" الشهيرة وطي ملف العمل المعارض في الخارج، ومن ثمّ العودة للسودان في نوفمبر من العام ٢٠٠٠، بل قبل ذلك تسريع خطى تلك العودة باتفاقي منفرد مع النظام في العام ١٩٩٩ بجيبوتي. فهذا وذاك كانا سبباً في عدم قدرته الصّرف الذي يتطلبه نشاط الحزب في المهاجر، لا سيّما، وأن السيّد مبارك الفاضل - لشيء في نفسه - كان وقتئذٍ قد جفف كل المصادر التي كانت تُموّل الحزب، وهو أمرٌ كشفت مراميه الأيام بعد انتبذ مبارك مكاناً قصياً من الحزب!

(٢٩)

مع ذلك، سنستشهدُ مُرغمين في هذه النقطة بالسيّد مبارك الفاضل نفسه. أقول ذلك، ليس لأن شهادته مجروحة في المهدي بعد أن فجر في خصومة شقت عنان السماء. وليس لأن له بدأ سلفت في الاعتراف من ذات المصادر القمعية

التي وصم بها المهدي. وليس لأنه ذو قدح معلى في فشل النخب التي اصطَلينا بنيرانها، ولكن لأنه ببساطة أَكَّد ما قلنا إننا كُنَّا نعرفه ورهطاً من الناشطين في تفسير عودة المهدي للسودان وبمعنيته مبارك الفاضل نفسه. بمعنى أن العلاقة بينهما كانت عهدنيد "سما على عسل"، كما يقولون. ولكن بعد أن ذهب الأحياب كلٌّ في طريق، نشر مبارك مقالاً بصحيفة 'الصحافة' ٢٠٠٤/٥/٤، قال فيه مخاطباً المهدي: «قبل عودتك من منفك الاختياري الأخير بالقاهرة في ٢٠٠٣م، أرسلت إبنك عبدالرحمن إلى رئيس المؤتمر الوطني، ليقول له إن أبى يقول لك بأن بقاءه في القاهرة ليس عودة إلى المنفى ولا هو مرتبط بموقف سياسي، ولكنه بسبب العجز عن مواجهة الالتزامات المالية في السودان، وأنه يسألك العون حتى يعود إلى السودان. وقد استجاب رئيس المؤتمر الوطني وسدّد فاتورة العودة»..

ثم اكّد في نفس المقال، أن المهدي استلم من النظام مبلغ مليون دولار كتعويض عن السيارات التي صادروها. وعلاوة على ذلك، عندما كثر اللغط حول الأمر من بعض جلاوزة النظام بتصريحات مُتعمّدة قُبيل الانتخابات التي دَبجوها في أبريل ٢٠١٠، قام حزب الأمة بإصدار بيان مُطوّل في ٢٠١٠/٤/١٦ يصعّب اختصاره، لكن ما يهم أنه تحدّث عن الأموال التي ذكر أنهم تلقوها تفصيلاً مقابل ما أسموه بـ "الممتلكات المصادرة"، (عبارة عن ١٦٩ سيارة وأجهزة اتصالات ومطبوعة وأثاث)، وهي بحسب البيان قُدرت قيمتها بستة عشر ملياراً وتسعمائة وثلاث وعشرون مليون جنيه، دُفع منها ملياران وسبعمائة مليون جنيه حتى ذلك التاريخ.. ومع ذلك، نذكرها لأنها قضية جدلية حيال نظام صادر الديمقراطية قُبيل أن يصادر ما هو أدنى منها!

(٣٠)

أما المسألة الثانية التي عملت الغصبة الماسونية على استغلالها، وانعكست رخاوة في مواقف المهدي إزاء النظام، فقد تَمَثَّلَت فيما يَخُص طائفة الأنصار أو الكيان الذي يستمد منه الحزب والمهدي معاً إكسبر الحياة السياسية والاجتماعية. ونحن إن كنا قد وصفنا الحزب الاتحادي بأنه حزب خاص، فإن حزب الأمة يختلف عنه نسبياً في أنه حزب لجماعة، ولكن ليد آل المهدي نفوذ في الجماعة لا تخطنه العين، وضمن أولئك يبقى للسيد الصادق المهدي شخصياً اليد الطولى. وسنضطر مرة أخرى أن نستشهد بما ذكره مبارك الفاضل في المقال الذي ورد ذكره من قبل، برغم أنه ورد في لحظة احتدام الوغى بين أبناء العُومة، ولكنه كان بحضور آخرين ذكرهم بأسمائهم، ممّا يُمكن أن يخفّف من وِطاة الافتراء، قال مخاطباً المهدي: «بدأت الاجتماع بفاتحة حديثك أن "هذا حزبي أنا، فمن يريد العمل فيه عليه أن يفهم ذلك، ومن لا يريد فأمامه الشارع والمؤتمر الوطني"». وفي الواقع، يقول النفاثيون إن حُب التملك يُعدّ أفسى أنواع الحُب الذي انحرف عن مساره الطبيعي.. أما أنا، فأعتقد أنه شعورٌ ينتاب الأشخاص

الموفورين نشاطاً مختلف المشارب، وأزعم أن المهدي واحدٌ منهم بلا شك. لكن من الحبِّ ما قتل، كما تعلمون. بيد أنني لا أدري ما إذا كان للأمر علاقةٌ بذاك الشعر القمي الذي رُوج له بعض الرجرجة والذهماء في فترة تاريخية مضت من بواكير تأسيس الحزب. على كلٍّ، يمكن القول أن هواجس المهدي بالظائفة والمالات التي تنتظرها، يُعدُّ أمراً متوقعاً، أي يعلو ولا يُعلَى عليه، ولكن كيف؟!

(٣١)

في النزاع المزدوج المذكور، كان الجميع يعلمون أن إمامة طائفة الأنصار ظلت مصدر نزاع بين السيد الصادق وعمه السيد أحمد المهدي. وفي الوقت نفسه، كان الحزب هدفاً لتربُّص آخرين من آل البيت المهدي. وعلى رأس هؤلاء يقف مبارك الفاضل متوثباً وبعض أبناء الإمام الهادي المهدي ينتظرون. كذلك فتنةٌ آخرون كانت صراعاتهم أدنى من الإمامة، مثلما هو الحال عند بعض أحفاد الخليفة عبدالله التعايشي ومن جاورهم. ومن جهة أخرى، كان المهدي الذي يعلم تماماً بسُنن الحياة في الفناء والبقاء، يُدرك إن الوضع المائل لن يدوم طويلاً. إذ أن بقاء الكيانين مستقرين يعتمد بالدرجة الأساسية على من يخلف السلف، أي القادر مثله بالأمر نفسه في خضم صراعات مرئية ومخفية. لهذا ففي تقديري أنك لو نظرت لرجال حول الإمام الحالي، بل وكررت البصر مرّتين سيعود لك بصرك خاسناً وهو أسير!

(٣٢)

من هنا توجَّهت الأنظار نحو ابنه عبدالرحمن الصادق، بل هو خياره المُتاح للاستخلاف، بالرغم من أنه يتمتع بقدراتٍ سياسية وفكرية متواضعة لا تُؤهلُه في صِدِّ سهام المُتربِّصين برئاسة الحزب والمتطلعين لإمامة كيان الأنصار. من هنا انطلق دهاقنة العصابة الماسونية في كيفية التعامل مع المهدي باستغلال نقاط ضعفه تلك. فقدّمت له عرضاً كان فحواه أن حزبهم (المؤتمر الوطني) الحاكم يمكن أن يرشح ابنه عبدالرحمن لانتخابات رئاسة الجمهورية العام القادم، أو يدعم ترشيحه إن كان ذلك خيار حزب الأمة. وقالوا له إن كلا الخيارين يتطلبان انضمام الإبن لعصابة المؤتمر الوطني مساعداً لرئيس الجمهورية لكي يتعلم أصول الإدارة والحكم. كان ذلك عرضاً - وفق ما استقيناها من مصادر علمية - لم يستطع المهدي معه رفضاً أو تمناً، وبالطبع لا يمكن أن يُسيرَ به حتى لأقرب الأقرين، ليس لأنه يحل إشكالية كبرى يعيشها، ولكن لأن ردود فعله السلبية المتوقعة لا تشكّل قلقاً له، فقد سبق أن فعل مثلها في ديكتاتورية نميري، ويومئذٍ وبعدئذٍ كانت السدانة محض تنظير يكتبه الكُتّاب مثلنا، وليس لها ثمة تأثير على المعنى بها ولا الطائفة ولا الحزب. إذاً فما الذي سيقع على الإبن مستقبلاً لو أعاد التاريخ نفسه؟! لذا قام المهدي بإخراج سيناريو فطير، كان مصدر تنذر الناس، بقولهم: «إذهب يا بني للقصر حاكماً وسأبقى في ود نوباي معارضاً»، فلم يقنع حتى راعي الضأن في الخلاء. والمفارقة أن الإبهام ازداد غموضاً بتعيين الإبن الثاني "بُشرى" في جهاز الأمن، وإمعاناً في تغيير الجروح لم يستح المذكور في

الظهور خلف والده في يوم احتدم فيه الوغى، وقد امتشق ذات السلاح الذي تقتل به العُصبة شباب أهل السودان!

(٣٣)

ثمة مفارقة تاريخية جديرة بالتأمل، لأنها وضعت المهدي في امتحان عسير وهو صانعها. كان كما تعلمون قد بدأ حياته السياسية بالدعوة لفصل إمامة الطائفة عن رئاسة الحزب. وفي ذلك، حاض حرباً ضروساً بينه وبين عمه الإمام الهادي المهدي، وهي الحرب التي أعادت للأذهان صوراً ضجت بها قُصور الأمويين والعباسيين، ولم تنته برحيل الإمام الهادي، فقد ظهر السيد أحمد المهدي مطالباً بإمامة يظن أنه وارثها. وبدأت سلسلة معارك لم ينجل غبارها إلا عندما أعادها السيد الصادق إلى حياضه. وفي تقديري، أن الزمن لو رجع به القهقري للوراء لنكص عن دعوته تلك في إطار محاولاته الراهنة في استبقاء الحزب والإمامة في عقر داره ولا يغادرانها. فلا شك أنه قد ظهرت له الآن سوءات الجمع بين الضرتين. فابنته الدكتورة مريم تُعد أكثر أنجاله التصاقاً بالعمل الحركي السياسي، ولها مواقف مشهودة في مناهضة النظام الحاكم، بما يمكن أن يؤهلها تنافساً أو تركية برئاسة الحزب. لكن تبدو المعضلة أمامها في أن إمامة الطائفة أمرٌ دونه خرط القتاد، وذلك لاعتبارات لا تخفى على الناظرين!

(٣٣)

من أجل هذا وذاك، قلنا في الحلقة الماضية إن عُصبة المؤتمر الوطني التي تدرك هذه التقاطعات في أجندة المهدي، قامت بعقد ثلاث موبات شفاهة مع المهدي، وسيان إن عقدها مع نفسه لضمان تنفيذ بنود ما ذكرنا.. الأولى، عدم معارضته للنظام بصورة جادة توحى باقتلاعه من جذوره.. ثانيها، الابتعاد عن مشاركة القوى المعارضة حراكها المناهض للسلطة، سياسياً كان أو عسكرياً.. وثالثها، العمل على تقزيم ذات المعارضة والسخرية منها بأكثر مما يفعل النظام. ولنا في كل افتراض شواهد لا يستطيع المهدي لها حوضاً. وعموماً تلك مسلمات نسوقها لمن أعجزه تفسير مواقفه الملتبسة وأصبح مثلنا من الحائرين!

وخلاصة الأمر، فالمهدي يشارك صنؤه المُحصلة نفسها، بحيث يضع نفسه رباً على الطائفة، والطائفة عنده تعلو على الحزب، والحزب فوق الوطن، وللوطن شعب يحميه، وهو من الحاكمين!

بيد أننا سنتطرق لسؤالٍ جوهري في الحلقة المقبلة حول انعكاس سيرة السيدين هذه علي أجندة سيدي الطائفة الثالثة (علي عثمان طه ونافع علي نافع) وصراع كواليسهما موضع هذه السلسلة!

آخر الكلام: لا بد من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٤/٣/١١

أسرارٌ يصعبُ ترويحُها.. أو وقائعُ الكارثة المُقبلة! (هـ)

في خواتيم هذه السلسلة، سأضع بين يديك يا عزيزي القارئ الأسرار التي ضُخِّت بها قصور الأمويين الجُدد على مدى سنوات، ونجحوا نسبياً في إخفائها بعيداً عن العيون. وهي ذات الأسرار التي أفضت إلى التغييرات التي أجروها على بُنية السُلطة في الثامن من ديسمبر الماضي ٢٠١٣، وأبعد بموجبها الحرس القديم، وجيء بحرس جديد للإحياء بأنه سيُخرج البلاد من الجحيم الذي أوقعوها فيه. يُدَّ أن جديد مقالنا هذا، هو أن السيناريو لم يكن نتيجة الأزمة الشاملة التي تعيشها البلاد الآن، ولكنه جاء نتيجة تفاقم صراع الكواليس بين القطبيين المتنافرين، واللذين سبق ذكرهما (علي عُثمان طه ونافع علي نافع)، ومن ثم أدّى ذلك الصراع الخفي إلى الأزمات التي حاصرتهم وبات الفكك منها أمراً صعباً، إن لم يكن مستحيلاً. وكنا قد أوردنا عند بداية هذه السلسلة جذور التصدّع بينهما، ثم استعرضنا الفروع ذات الصلة بالجذور، بما في ذلك مواقف بعض قادة الأحزاب السياسيّة. وسنكمل بتأثير كل ذلك على مُجريات الواقع بصورة عامة ومالات الغصبة أو ما سَمَّينا وقائع الكارثة المُقبلة بصورة خاصّة. ولكن قبل الخوض في ذلك إن جحظت عينك يا عزيزي القارئ، أو "وقف شعر رأسك"، كما نقول في لغتنا الدارجة، فقول: يا هداك الله - أننا لم نفتلح هذه المعلومات اقتلاعاً من فم التمساح، ولكنها جاءتنا تسعى من ذات الأفواه المُتمضمضة نهراً، وماضغة أسرار بعضها البعض ليلاً. وتعلمون أن لها يداً سلفت، بوثنائق زلزلنا بها الأرض تحت أقدامهم.. ما زالوا يبحثون عن مجراها ومرسها!

(٣٦)

أولاً، وقبل الخوض في التفاصيل، أقول: عندما نذكر القطبيين المتنافرين تصرّيحاً، فذلك لا يعني أن الأمر محصور فيهما تلميحاً. فقد اجتهد كل منهما ما وسعه على تأسيس جماعة أو منظمة داخل التنظيم تأتمر بأمره، وتعمل على تدمير الآخر بكُلِّ ما أوتيت من قوّة وجبروت، كما تقوم في الوقت نفسه بتسخير إمكانيات الدولة بالصورة التي تضمن لها الإمساك بتلابيب السُلطة. من أجل كل هذه الطلاسم، لم يكن كثير من الناس يعرفون، كيف تُحكّم هذه البلاد، أو من ذا الذي يحكمها؟! فقد شغلوا الرئيس المشير الجالس على سُدَّتْها بالدُّنيا وملذاتها، وهو بمكره أيضاً كان يعلم بصراعات الجماعتين وطموحاتهما، ولكنهما أعلماه - كلٌّ بطريقته - باتفاقهما على رئاسته. عندئذٍ استفاد من تناقضاتهما من جهة،

واستند على رفيقيه الفريقين العسكريين (بكري وعبدالرحيم) من جهة أخرى. وفي الواقع، ما زالت علاقته بهما تشكّل استفهاماً سنعمل على إزالة غموضه أيضاً. ضمن هذا الإطار، قاد نافع علي نافع حملته الخفية على غريمه علي عثمان طه، أسفرت عن وجهها بوضوح، بدء من مطلع سنوات الفترة الانتقالية مع الحركة الشعبية لتحرير السودان. وكلما اشتدّ وطيس التناحس معها في القضايا المختلفة، كان نافع يرمي بكل أنقاله على طه للإيحاء لعصبته بتحميله المسؤولية بالدرجة الأساسية. الواقع أن الاتفاقية برغم أن المنظومة داخل التنظيم والمُتحكّمة في تسيير مجريات الأمور، اتفقوا عليها بكل بنودها، إلا أن طه بالفعل كان "مايسترو" الفرقة الذي عمل على إقناعهم بكثير من القضايا التي وصلت فيها المفاوضات إلى طريق مسدود، ممّا أوحى بأنه صانعها فعلاً. لكن المهم في الأمر أن نافع بادر بحملته تلك لأنه خطط ورسم وطمح لأيلولة الرئاسة لحياضه، وهو أمر لن يتأتى في ظل وجود طه الطامح لها أيضاً، ولسوف تقربه الاتفاقية من هدفه المنشود!

(٣٧)

قد لا يعرف الكثيرون أن ثمة بنود أقرب للسرية لم يتم التعبير عنها بصورة واضحة وجنية في اتفاقية السلام، فكانت أقرب للالتزام الشخصي بين علي عثمان طه وجون قرنق دي مابور، وذلك لأسباب كثيرة يعجز المجال عن حصرها ولكني سأذكر لاحقاً أهمّها. ففي حال اختار الجنوبيون الانفصال فإن القضايا المشار إليها أعلاه منها، المساهمة في دفع ديون السودان، وتعويض حكومة الشمال تعويضات مجزية عن الفاقد من البترول الذي سيذهب لحكومة الجنوب، بالإضافة إلى الاتفاق على سعر أعلى من الأسعار المتفق عليها عالمياً في ترحيل بترول الجنوب عبر خطوط أنابيب حكومة الشمال، وذلك لتعويض جزء من فقدان عائدات البترول. واقع الأمر، كان قرنق ضامناً لهذه البنود، ويقيني أنه كان مرناً في كثير من القضايا المختلف عليها لأنه كان قد وضع نصب عينيه فرصة لاحتمال له في حكم السودان كله، وفق ما طمح وخطط وضحى. لهذا السبب كانت ثمة قضايا كثيرة عولجت بذات الصورة التي ذكرتها أعلاه. لكن رحل دكتور جون قرنق ورحلت معه كثير من الأسرار وبقيت ظلالها شاخصة أبصارها على الواقع الكئيب في السودانين معاً. وللتذكير نقول إن القضايا الثلاث التي ذكرناها لم يتم الاتفاق عليها، إلا في أديس أبابا بعد أن تطوّرت الخلافات بين دولتي الجنوب والشمال بصورة كادت أن تندلع حرباً من جديد، ومع ذلك ما زالت متعثرة!

(٣٨)

ربما شعر بعض القراء بدهشة إن قلت لهم أن علي عثمان طه كان أكثر الذين شعروا بـ "الئيم السياسي" - إن جاز التعبير - بعد رحيل قرنق، والواقع أن طه كان يرغب فعلاً، بل أبدى حماساً في أن يصبح قرنق رئيساً للسودان، وتلك حقيقة يلمسها خلف السطور كل من طالع كتاب هيلدا جونسون WAGING

PEACE IN SUDAN المُعَرَّب بعنوان "اندلاع السلام.. قصتي مع مفاوضات أطول حرب في أفريقيا" لأن ذلك من شأنه أن يحقق له ثلاثة أشياء وفق استراتيجيته، وهي: أولاً، بالوصول لاتفاق تاريخي مع قرنق، فإن رئاسته سوف تعزز مكانة طه الشخصية بين رهطه (والتي كانت في كَفِّ عفريت آنذاك، وبالطبع بعد رحيل قرنق أصبحت هشيما في مهَبِّ الرياح).. ثانياً، إن رئاسة قرنق سوف تهيئ لمشروع حكم ائتلافي بين الجبهة الإسلامية والحركة الشعبية (للتذكير، فإن الحزبين التقليديين ظلأ يُشكّلان هما مقيماً للعصبة الحاكمة، وظلت تحلم على الدوام بمحوهما من الخارطة حتى يتسنى لها وراثة خطاهما).. ثالثاً، إن رئاسة قرنق سوف تُجبر العلاقة بين حكومة السودان والغرب وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية، والتي لن تكفي بإلغاء العقوبات المفروضة، بل ستضعف من دعمها (على هامش ذلك، سيجني طه مزيداً من تقوية نفوذه بين قومه، وعلاقة جديدة مع المانحين تُجِب تاريخاً مخزياً).. رابعاً، إن رئاسة قرنق ستحول دون انفصال الجنوب؛ وبالتالي لن تتحمل الجبهة الإسلامية وزر الانفصال. (لم يكن طه في حاجة لمفاضلة بين رئاسة البشير وقرنق، والليبيب بالقرآن يفهم) لكن جاء هادم اللذات ليعصف بكلّ التوقعات أو الاحتمالات أو الطموحات التي ذهبت أدراج الرياح!

(٣٩)

برحيل قرنق وطموحات طه معه، بدأ الأخير بين عُصْبته يعيش بظهر مكشوف، لكن الذين يعرفون طُرُاقه في الدسائس وصناعة المؤامرات، يعلمون أنه لا يُفرغ سُموه دفعة واحدة في أجساد ضحاياه. طبقاً لهذا، فقد أخرج من مخزونه جُرعة أخرى لاستخدامها كترىاق أمام شراك نافع ورهطه المُتربصين به من وراء حجاب. فقام طه باستخدام أسوأ سلاح صنعتته العُصبة، وهو الاحتماء بالقبيلة، حيث دبر وخطط مع صلاح قوش على "اثنته" جهاز الأمن والمخابرات، والذي كان يديره الأخير هذا بصورة إقطاعية أشبه بمملكة خاصة. لكن نافع، الذي يتمتع بالخاصية التي قيل إنها أعجزت من يداويها، ما أن نما لعلمه ذلك، حتى قام بالشيء نفسه في أروقة الأجهزة التي تقع تحت سيطرته، ومُذاك الوقت، صارت القبيلة في جهاز الدولة دينا تتبذل العُصبة في محرابه، وملادهم كلما شعروا بالأرض تميد تحت أقدامهم. من جهة ثالثة، أصبح محمد عطا فضل المولى عين نافع التي ترى، وبالتالي كان يقوم بنقل طموحات قوش له طمعاً في رئاسته الجهاز. فقام نافع بدوره بزرع الريبة والشكوك في صدر الرئيس المُشير بالتأكيد على أن قوش تضخمت مملكته عُدة وعتاداً، وذلك خطراً على النظام، لأنه يفتح الباب لانقلاب قادم. والمعروف أن مثل هذه الأقاويل دائماً ما يفتح الرئيس المُشير لها قلبه وأذنيه معاً، فذلك ممّا يُحبُّه ويهواه في إدارة شئون الدولة، فما بالكَ وقد جاءته مَمَّنْ علَم قوش المُكر والدهاء والتأمر. وتجنباً لشروره وامتنالاً للنصيحة، أقله من رئاسة الجهاز في منتصف أغسطس من انعام ٢٠٠٩، ومنحه وظيفة مستشار أمني ليكون بجانبه في القصر، أو بالأحرى تحت مرمى بصره!

(٤٠)

من جانبه، رأى قوش أن تلك وظيفة لا تستوعب طموحاته، وهو الذي كان يجلس على رأس جهاز تضحمت سلطاته وتمدد سلطانه حتى صار دولة داخل دولة. فشرع فوراً في تغيير وتحوير ملامح الوظيفة الجديدة قولاً وفعلًا، دونما إشارة خضراء من الحاكم الذي عينه، إذ روج لأجهزة إعلام السلطة باستخدام مصطلح "مستشارية شئون الأمن"، بدلاً عن "مستشار أمن" إحياء بتضخم الذات، وضمه لمملكته الجديدة عدداً من أساطين الأمن القدامى، ثم شرع في بناء مبنى آخر ليكون مقراً لتلك المستشارية.

على الضفة الأخرى، شعر علي عثمان طه أن خطته الرامية لاستخدام سلاح القبيلة ستبداً خطأها في جهاز الأمن والمخابرات، فأعمل نظره ذات اليمين وذات الشمال بحثاً عن سلاح آخر. هُنيئاً وصوب عينيه نحو القوى السياسية التقليدية، عملاً بقول المتنبي:

من نكد الدنيا على المرء أن يرى *** عدو له ما من صداقته يذ
وذلك بُغية أن ينجح في استمالتها ليستقوي بها، بعد أن تضعضعت خطته التمكينية في السلطة. نتج عن ذلك، أن أوحى لحليفه "قوش" في دوائر صراع الكواليس، أن يبدأ حواراً مع القوى الحزبية التي تقف في المعارضة، وسمي منها تحديداً "حزب الأمة" لأن صنّوه الآخر (حزب الميرغني) كان يزرع أصلاً تحت إبط السلطة راضياً من "الغنيمة" بثلاث وزارات وحيازة معظم المقاعد الستة عشر التي منحها السلطة للتجمع الوطني الديمقراطي في المجلس الوطني، وفق اتفاق القاهرة ٢٠٠٥. ومُذاك الوقت، بدأت المفاوضات المارثونية مع السيد الصادق المهدي والتي أفضت لما ذكرنا في الحلقة الماضية بالتوقيعات الثلاث. لكن نافع، الذي لا ينام ليلة دون تأمر، تحركت قنوات استسجاره، فتوثب للانقضاض على فريسته!

(٤١)

كانت عيون الغصبة تنتظر لما يقوم به صلاح قوش بكثير من الهواجس وهم لا يعلمون بتحالفه الخفي مع طه. لمزيد من التفاصيل، انظر كتابنا الأخير الموسوم بـ "الخنق".. دولة الفساد والاستبداد في السودان"، الفصل الثالث ص ١٢٦، بعنوان "قوش.. راسبوتين القصر".. الواقع أن قوش عمل بالفعل على تشكيل كتلة ثلاثة في صراعات كواليس السلطة، بعيداً عن طه نفسه بعد أن صار يُمنّي نفسه بأن تؤول له الرئاسة بكاملها، لا سيما، وقد نقل الوشاة للرئيس "الضرورة" عبارة تقوّه بها في لحظة جمعت بين المزح والجدية، وقال لسامعيه: «أنا ممكن أفلح السلطة دي في ثلاثة ساعات».. انظر "الخنق"، ص ٢٧، ولأن البصاصين لا يأتمنون بعضهم بعضاً، قام صفته محمد عطا فضل انمولي، بتسفير الكثير ممّا سمعه شخصياً من رئيسه إلى نافع علي نافع، الذي كان ينتظر باسماً أذنيه الكبيرتين لانتقاط كل ما يمكن أن يطيح بغريمه، ومن ضمن ما قيل له، كان تنصّت قوش على هواتف مكتب الرئيس المشير، بدلاً عن أن تنصّت

عليه المذكور. فوجد نافع بُغيته فيما أسرَّ به عطا المولى، ولاحت له فرصة ضرب خصمين بحجر واحد.. قوش قبل أن يشتد ساعده في المستشارية، وعلي عثمان طه قبل أن يبسط جناح الدِّل من الرحمة لساكن القصر.. تبعاً لذلك، قام نافع بنصب فخ لقوش وأوقعه فيه متلبساً بالجُرم المشهود، فاستدعي للقصر مساء يوم ٢٦/٤/٢٠١١ وتمَّ إبلاغه في اجتماع مُصغر حضره من العُصبة: عُمر البشير، بكري حسن صالح، عبدالرحيم محمد حسين، إبراهيم أحمد عُمر وقُطبي المهدي (مع ملاحظة غياب علي عثمان طه، ونافع علي نافع، لأسبابٍ يعرفها مُطالع هذا المقال)، فتمَّ إبلاغه بصورة مقتضبة بقرار إقالته، دون توضيح الأسباب. ولكن نافع لم يتنقَّص الصعداء إلا عندما أودع قوش السجن حبساً بعد بضعة أشهر بتهمة الشروع في انقلاب، وأصبح طه مكسور أجناح مهبطاً، وقد تناقصت المُعينات التي تساعده في استمرار معارك الكواليس التي تحلو له مع خصومه المفترضين!

(٤٢)

أخيراً، لم يكن أمامه سوى استخدام "ما ليس منه بُد"، وهو السيناريو "الشمشوني" المعروف، "عليّ وعلى أعدائي"، لكنه واقع الأمر خطط لأن يكون علي أعدائه، وبرداً وسلاماً عليه. فجلس إلى الرئيس المشير ووضع بين يديه تقريراً خطيراً يوضح حاضر ومستقبل السُّلطة الحاكمة، وأقنعه بـ "سيناريو الخوّة" للانفلات من المآلات التي سنذكرها، ثمَّ جلساً معاً مع منظومة العُصبة، وطحاً السيناريو، ممثلاً في القيام بخطوة دراماتيكية تقتضي ضرورة ذهاب الجميع إلى منازلهم، وهي خطوة أشبه بما يُسمَّى "انقلاب قصر".. في واقع الأمر، كان طه قد أعاد عقارب الساعة للوراء باستخدام سيناريو مشابه نسبياً، كان هو أيضاً صانعه، ذلك هو سيناريو "المفاصلة" في العام ١٩٩٩، وكما في الأول، فقد تأمل في الثاني - بحسب تخطيطه - أن يصرف الرئيس المشير الجميع إلى منازلهم، ومن ثمَّ يُعيدَ لمواقفه سالماً غانماً، ويكون بذلك قد تحقق له ما أراد في التخلص من عدوّه اللدود ورهطه. لكن الجماعة التي رضعت السياسة من أئداء قصور بني أمية، بدا فيها الرئيس المشير وقد استفاد من وقائع مفاصلة ١٩٩٩ التي كان فيها "كومبارس"، فوجد في اقتراح التخلص منهم جميعاً فرصة لا تُفوت، وبدوره حاك السيناريو بموازرة الجنرالين المُقرَّبين، وذلك لتأمين القوَّات المسلحة وجهاز الأمن والمُخابرات، وهُما الساقان اللذان تعتمد عليهما العُصبة في الحكم كما تعلمون!

وفي الحلقة القادمة، سوف نقرأ معاً أهم ما جاء في ائْتِقرير السري الذي جعل العُصبة تقدِّم على تلك الوثبة!

آخر الكلام: لا بُدَّ من المحاسبة والديمقراطية وإن طال السَّفر!!

٢٠١٤/٣/٢١

oboi.kan.com

أسرارُ يصعبُ ترويجها.. أو وقائعُ الكارثة المُقبلة! (٦)

بحسب ما ذكرنا في الحلقة الماضية، نخلص في الحلقة الأخيرة هذه، إلى استعراض ما تيسر من مقتطفاتٍ وردّت في المذكرة التي بسّطها علي عثمان محمّد طه بين يدي خواص عُصْبته، واقترحت تلك التغييرات الشكلائيّة، والتي بموجبها تمّت إقالة الحرس القديم - بما فيهم مصمّم الفكرة نفسه - وتعيين حرس جديد حلّ محلهم. وفي واقع الأمر، ذلك ليس بسرٍ نذيعه لأوّل مرّة، فهذا ممّا ضاق به صدر الرئيس المشير بعد أن سرت في المدينة التي لا تعرف الأسرار أخبار صراع الكواليس، فافصح عنه على الهواء كعادته دائماً، وذلك بعد أيام قلّائل في بلدة "قري" شمال البلاد: «والله.. والله يا جماعة، الترتيب الجديد للناس الحيفادروا والناس الحيجوا، وكل الترتيبات في المفوضيّات وغيرها، رأس الرُمح فيها هو علي عثمان».. وبغضّ النظر عن طبيعة النظام، وبغضّ النظر عمّا يعرفه الناس أصلاً، فالقائل لم يدرك مغبّة نسب الأمر كله لشخص واحد من عُصْبته، للدرجة التي حدثت به إلى أن يعمل تعديلاً شاملاً في بنية السُلطة الحاكمة، رفع من شاء بموجبه وأدّل من شاء. وهذا بالطبع ما حاولنا تأكّيده منذ بداية هذه السلسلة، وذكرنا ضمن أسبابه شذرات دفعت بـ"رأس الرُمح" - كما وصفه - إلى إحداث تلك التغييرات الدراماتيكيّة، وقلّنا إن منها احتدام الصراع بينه ونافع علي نافع ورهطه. بيّذ أننا نخلص إلى إضافة سبب يصعب الإفصاح عنه في ثقافة الإسلامويين، وهو المرض الذي يقولون عنه ابتلاء بالرغم من أنه لا يفرّق بين مُسلم وكافر. فقد يعلم البعض أن الرّجل يعاني منذ فترة من مرضٍ عضالٍ. وتعلمون أن بعض غلاة أهل تلك الثقافة يفنون عمراً في التعبئة من السيئات عباً في دُنياهم، وما أن يمدّ الله في آجالهم، إلا وتراهم يُنْكرونها في الحجّ، ليس باعتباره ركناً إسلامياً كانوا من مستطيعيه من قبل، ولكن لانتهازه كمناسبة يزعمون أنها ستجلب ما اقترفوه من خطايا في حياتهم، وبالمعيار نفسه يذكّرهم المرض جرماً ما فعلوا، وبالموت الذي كانوا عنه يحيّدون!

(٤٤)

أفرد التقرير الجزء الأكبر، ربّما أكثر من النصف في الحديث عن ما أسماه بـ"التحديات والتطلّعات"، وذكر منها ما عدّه إنجازاً، وهي من شاكلة ما ظلت الغصبة تزيده ليل نهار دون أن يقنع بشراً أو يحرك حجراً. ونود أن نشير لها هنا

إشاراتٍ عابرة، فقد تركّزت بشكل أساسي في الجانب العقدي تحت عنوان رئيس: "ترتيب الأولويات وتحديد الرؤية استشرافاً لمرحلة جديدة مقبلة"، وذكر منها العناوين الفرعية التالية:

- الحركة النهضوية للمشروع الإسلامي في المجتمع السوداني،
 - تأصيل المشروع الإسلامي والغرس في التربة السودانية،
 - المجتمع السوداني وزيادة معدلات التدّين،
 - استقطاب قطاع المرأة في الحضر والأرياف،
 - استنهاض الشباب والدور التربوي والجهادي،
 - التحدي وإجهاض مخططات التيارات اليسارية والعمانية في الفصل بين الدين والدولة،
 - ترويض الطائفية السياسية،
 - دول المحور الإسلامي والربيع العربي..
- وختم بالقول: «إن الحركة الإسلامية عقدت العزم على المضّي في نشر الدعوة تركية وتربية وهداية للمجتمع وخلوصه لخير الأمة».. وهكذا دواليك!

(٤٥)

كرّست المذكرة الجزء الثاني للأسباب التي استوجبت حتمية التغيير في بنية السّلطة، وهي أيضاً أسباب يعلمها القاصي والداني، لكن عنصر المفارقة فيها أنها تمثل اعترافاً نادراً بمن ظّلوا يكابرون لنحو ربع قرن، دون أن يطرّف لهم جفن. أرجعت المذكرة أولى الأسباب إلى انتخابات ٢٠١٠ التي أجراها النظام، وشهدت تزويراً غير مسبوق إلا في ظلّ الأنظمة التي تماثله في التوجّهات الشمولية. أكد التقرير أن: «الانتخابات أثبتت صعوبة الانفراد بالسّلطة في قطر ثري بتنوّعه الثقافي وتعدّده السياسي»، وأقرّ أن: «نتائجها الحقيقية كانت مخيبة للآمال، على الرغم من التوقعات المسبقة التي بالغت في تقدير العضوية والاستقطاب، واتّضح أنها لم تكن واقعية».. هنا لا بدّ أنه قد تراءى لكم خلف السُّطور ظلال صراع الكواليس بين علي عثمان مُعدّ المذكرة، ونافع علي نافع المسؤول التنظيمي في المؤتمر الوطني، والذي صنع كذبة السنة ملايين عضو وصدقها. وإحافاً بهذه الملاحظة، أورد التقرير فشل التحالف مع الأحزاب المشاركة في السّلطة، وقال إنها: «لا تتمتع بثقل جماهيري، وليست لها وزن أو تأثير يذكر، وقياداتها في حالة خلاف دائم»، مشيراً إلى أن الأحزاب ذات القواعد – لم يسمّها – تقف على قارعة الطريق «يمكن استقطابها في ظلّ مشروع قومي بقليل من التنازلات في الحكم»، وهكذا!

(٤٦)

أشارت المذكرة للسبب الثاني في سياق سرد الأسباب التي جعلت من التغيير ضرورة قصوى، إذ أسهبت في تحليل انتفاضة سبتمبر ٢٠١٣ والظروف السياسية والاقتصادية التي أحاطت بها، واعترفت بأن: «أسلوب المعالجات لم

يكن حكيماً، إذ وضع الزيت بالقرب من النار»، واقتُرحت: «ضرورة فصل القضايا الدارفورية بكلّ تعقيداتها عن القضايا التي أدّت إلى اندلاع أحداث سبتمبر، باعتبار أن الأخيرة مطلّية، أما الأولى فخطورتها تكمن في تمهيد الطريق لما يُسمّى بالجبهة الثورية في محاولات الوصول للخرطوم، نظرياً إن لم يكن عملياً»، وأشارت إلى: «حتمية محاصرة أنشطة الطلّاب الدارفوريين في العاصمة الخرطوم والمُدُن الكبرى، بحيث لا تقترب بالقضايا المطلّية التي أدّت إلى أحداث سبتمبر الماضي»، وأضّبت في توضيح الظروف الاقتصادية بعد انفصال الجنوب والتي بموجبها ذهبت ثلاثة أرباع عائدات البترول لحكومته، وأكدت: «إمكانية تفاقم الظروف الاقتصادية بصورة قد لا تبدو محتملة للمواطنين الذين يمثلون القاعدة الأكبر في المجتمع، ما لم يتم تجسير الفجوات بين الطبقات»، كذلك أفردت فقرات مطوّلة عن الأوضاع في القطاعات الصناعيّة والزراعيّة والإنتاجيّة الأخرى ووصفتها بالحرّة. وختمت بالآثار السالبة التي وضعت بصماتها على الاقتصاد السوداني جرّاء الحظر المفروض من الولايات المتحدة الأمريكيّة منذ العام ١٩٩٣ وتكهّنت باحتمال تزايد تبعاً للضغط الأمريكيّ في حروب جنوب كُردفان وجنوب النيل الأزرق ودارفور.

(٤٧)

في الباب الثالث اقترحت المُذكرة عدّة خطوات إجرائيّة بما أسمته: «معالجة إسعافية قصيرة المدى وبعيدة المدى» في الأولى أكدت ضرورة إجراء تقيّف شامل في مخصّصات ما سُمّي بـ «الدستوريين» وتحدّثت تفصيلاً عن عدّة بنود منها، الحصانات، أموال التجنّيب، تفعيل قانون الثراء الحرام، محاصرة الفساد بمحاكمات رادعة، ترهّل الحكومات الولائيّة.. إلخ.

من جهة ثانية، أشارت المُذكرة إلى ضرورة تقديم تنازلات ملموسة للمشاركة في السُلطة، وتبعاً لذلك يتواصل الحوار مع القوى المعارضة بحيث لا يستثنى أحداً، وخصّصت بالذكر حزب الأمة، في حين أشارت إلى أنه في حال إجماع «الأحزاب الصغيرة الأخرى» عن المشاركة «يمكن أن تبقى في المعارضة، إذ لا تأثير لديها على استقرار الأوضاع بصورة عامّة»، ومن جهة ثانية أشارت إلى «ما أسمته بالمعادلة المتوقعة، وهي ضرورة الحفاظ على مشاركة الحزب الاتحادي الديمقراطي الأصل في حال قبول الأحزاب المشار إليها بالمشاركة في السُلطة»، ثم اقترحت تعديلاً شاملاً «لامتصاص الاحتقان في جهاز الدولة»، وأكدت بموجبه «ضرورة تنجّي كل قيادات الحكومة، وبالأخص التي تحمّلت عبء الرسالة الجهاديّة منذ أن تفجّرت ثورة الإنقاذ، مع ضرورة تولي البعض مهام خاصة للاستفادة من خبراتهم في مواقع غير تنفيذية وتنسجم في نفس الوقت مع التغيير».. ثم اقترحت: «تكوين حكومة رشيقة قوامها الشباب بحيث لا يزيد عدد مجلسها عن خمسة وثلاثين وزيراً»، وكذلك تقليص الأجهزة المساعدة للحدي من الصرف.

(٤٨)

افردت المذكرة حيزاً كبيراً ضمن القضايا السابقة للعلاقات الخارجية «ضرورة الابتعاد عن المحاور التي خلفتها ثورات ما سُمي بالربيع العربي»، وفي ذلك مضت في توضيح الظروف التي نتجت عنها تلك الثورات، وما أسمته «الردة الثورية» في بعض الدول وذكرت منها مصر وتونس تحديداً، وأكدت أن الأوضاع في ليبيا «تبدو غير واضحة ولا يمكن بناء تحالفات في ظل ما يجري من عدم استقرار»، وخلصت إلى أن «المشروع الإسلامي في السودان يواجه تحدياً قد يجبره على تغيير خارطة التحالفات حتى لا تحقيق به العزلة الإقليمية وتصيبه شظايا الحرب الدولية»، واقترحت «تمتين العلاقات مع الصين وروسيا دولياً، ومع تركيا قطر إقليمياً»، وخصت الأخير بذكر مطول بالتعويل عليها في لعب دور أكبر مما فعلت بالنسبة للقضية الدارفورية في الخطوات المقترحة.

كذلك مضت المذكرة في تشريح العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية، وأشارت إلى إمكانية توسيط دول بعينها لتحسين العلاقة معها بتقديم تنازلات ملموسة. كما أكدت صعوبة التعامل مع الوضع القائم الآن مع جنوب السودان في الحرب الدائرة واقترحت «الحيداً نهجاً حتى يستبين الوضع»، ومع ذلك أشارت إلى: «صعوبة هذا الخيار في ظل الأوضاع المتفجرة في أبيي، وعائدات ترحيل البترول».

(٤٩)

تلك خطوط عريضة للمذكرة التي أصبحت تُعرف في أروقة العصابة بـ «فرمان علي عثمان»، وقد وقعت في ثلاث وأربعين صفحة، ووضعت في كل صفحة عبارة «سري للغاية» باللغتين العربية والإنجليزية، وقلنا إنها طرحت للخواص بتأكيد أنها لم تتيسر لذوي القربى في دوائر التنظيم (المؤتمر الوطني) ولا لينامي من الأحزاب الديكورية المشاركة في السلطة. وبحسب ما علمنا فقد تنزلت عليهم جميعاً إما للعلم أو الإقرار حيث لا مجال لإبداء الرأي أو المشورة. أياً كان الوضع فقد يرى البعض أن المذكرة لم تأت بجديد، وهم مُحقّقون، ولكن يكفي أجر الاختراق لسلطة أهدرت أموال الدولة في الأمن والتأمين، ونزعنا عنها الغطاء في التحدّث بلسنين، لسان يعترف بعُقوق الأزيمة في الكواليس وآخر يتحدّث عن الفردوس الموعود. وأرجو من القارئ الذي نحترمه أن يعذرني فيما يمكن أن يظنه غموضاً وقد عهدنا على عكس ذلك فيما نكتب، والحقيقة أن ذلك مرده لظروف مصادرها بما فيها النشر الكامل، وتعلمون أننا اختبرناهم كثيراً في قضايا أكبر من هذه، ووقفت العصابة أمامها كحمار الشيخ في العقبة، وم زالوا حائرون. وتبعاً لذلك لا أريد أن أحنث بوعده قطعه يكون سبباً في قطع «رزق» ساقوه لنا ومنه نقتات، مع الإقرار بأنهم لا يفعلون ذلك من أجل سواد عيوننا ولكن

لأجندة خاصة بهم، ونحن غير معنيين بها إلا بالقدر الذي يعيننا في فك طلاسم هم عنها غافلون!

(٥٠)

لقد تردّت الأمور إلى درجة الانحطاط، وصار السودان وطناً ملازماً للخروب والنزوح والإبادة الجماعية والتطرّف الديني والصراع القبلي والبؤس بكافة أشكاله، وصار السودان يحتل مكاناً علياً في الاستبيانات العالمية المرتبطة بالدول الفاشلة، في الأمن والحريّات والرفاهية والشفافية ومحاربة الفساد والحوكمة، وتدثّى الانتماء لدرجة أصبح الوطن مصدر سُخط مواطنيه بدلاً عن فخرهم. بناءً عليه، باتت التوقعات بتغيير وشيك تعلو على أي أجندة، ولكن أي تغيير؟! - نضع بين يديك - عزيزي القارئ - خمسُ مُسلمات استخلصناها من وقائع ما ورد ذكره في المذكرة، وخمسة سيناريوهات استنبطناها في قراءة واقع لا محال واقع:

• أولاً: لقد وضع جلياً - بما لا يدع مجالاً لأي مجتهد - أن الأزمة القائمة أزمة شاملة، وأنها تتفاقم يوماً بعد يوم، وأن السُلطة الحاكمة باتت تواجه ما يعرف بـ "خيار الصفر" وهو خيارٌ يفتح الباب على مصراعيه لأي سيناريوهات محتملة، سلماً كانت أم عنفاً!

• ثانياً: في خُصَمِ البحث عن حلٍ للمأزق الشامل، علّت الأجندة الشخصية أي تخليص الذات، وكذا الأجندة العقديّة المتمثلة في إنقاذ المشروع على الأجندة الوطنيّة، وبالرغم من أنه أمر ليس بمستغرب، إلا أنه يزيد من وتائر المهدّدات الأمنيّة والانهيار الشامل.

• ثالثاً: إن التغييرات التي حدثت شكلية وستظل تراوح مكانها لأنها لا تمسّ عصب الأزمة، وهي مجرّد إحياء من السُلطة الغاشمة بأنها غيرت جلدها، وفي الواقع لم تكن سوى وثبة في ظلام دامس وإعادة إنتاج للأزمة، فُصِدَ بها التحلّل من تبعاتها وعدم تحمّل فشل ما سُمّي بالمشروع الحضاري.

• رابعاً: بناءً على ذلك، فإن تغيير الوجوه، يُعد بمثابة الفاصل الثالث من مسرحيّة كان فصلها الأوّل عشية الانقلاب عام ١٩٨٩، بمقولة: «اذهب إلى القصر حاكماً، وسأذهب للسجن حبيساً»، وكان فصلها الثاني فيما سُمّي بـ "مُفاصلة القصر والمنشئة" عام ١٩٩٩، وكلها فواصل خليقة بالإسلامويين وسلوكهم!

• خامساً: الإحياء بتغيير الوجوه أيضاً، بما في ذلك علي عثمان ونافع علي نافع وعوض الجاز ومن لفّ لفهم، ما هو إلا لمزيد من التعمية وذو الرّماد في العيون، فهؤلاء قومٌ دأبوا على الرضاع من ثدي السُلطة ومن الصعوبة بمكان فطمهم منها!

أما السيناريوهات الخمسة المتوقعة كنتاج لهذه الأزمة، فهي وفق ما اجتهدنا جاءت كالتالي:

- أولاً: إن الانتفاضة الشعبية، مهما تقطعت وتاثرها أو تباطأت خطواتها، فهي قادمة لا محال، فالظروف التي تجعل منها خياراً محتملاً تظل قائمة، خاصة في مجال الحريات المُهدرة والأوضاع الاقتصادية المنهكة.
- ثانياً: تكامل الهبات الشعبية في مُدن السودان المختلفة مثلما حدث في سبتمبر الماضي مع تزايد العمليات العسكرية قد يعجل بسقوط النظام. وهذا سيناريو يعتمد على النقلة النوعية التي تقوم بها الجبهة الثورية، سواء في توسيع عملياتها العسكرية نحو المركز، أو تمكين علاقاتها بالقوى الحزبية المعارضة بميثاق سياسي واضح المعالم. وهو تحد يواجه ضخ الماكينة الدعائية للنظام، والتي تصوّرها كحركة عنصرية ذات هوية أفريقية تستهدف مجموعات الوسط النيلي.
- ثالثاً: تعقيد الأزمة بانقلاب عسكري قد يصطنعه النظام بتوليته الجديدة التي ابقت على الجنرالين (بكري حسن صالح وعبدالرحيم محمد حسين) وذلك لضمان خروج سلس من الأزمة ولو مؤقتاً، بما في ذلك إسقاط مبدأ المحاسبة، وهو ما قد يجد القبول من جيش أرهقته الحروب المتواصلة، وكذلك موافقة قوى متوثبة في المعارضة بدعوى فترة انتقالية لصياغة دستور جديد وإقامة انتخابات عامة!
- رابعاً: في حال تفاقم الأحداث وتردي الأحوال الأمنية، قد تتزايد الضغوط الدولية وتندرج بتدخل تحت الفصل السابع للهيئة الأمنية، وقد تتداخل سيناريوهات إحكام الحصار الاقتصادي والمحكمة الجنائية الدولية، وهو السيناريو الذي سيجد موازنة من دول في الإقليم صار النظام مصدر صدام دائم لها!
- خامساً: وهو السيناريو الذي كتبنا عنه كثيراً وتزايد احتمالاته لحظة بلحظة أمام ناظري، وقد سبق وسمّيناه "ليلة السكاكين الطويلة"، وهي اللحظة التي ستجعل كيدهم في نحرهم!

آخر الكلام: لا بُد من الديمقراطية والمحاسبة وإن طأل السفر!!

٢٠١٤/٤/٨

الحِوَارُ أم الخَوَارِ؟!

أكاذُ لا أعرف شعباً في التاريخ الإنساني استُغفل في حقوقه مثلما فعلت الغُصبة ذوو البأس بالسُودان وأهله. نعم، هناك شعوب كثيرة في هذا العالم الكبير حَكَمهم ديكتاتوريون بالحديد والنار، لكن دِلُونِي على رئيس واحد من نفس الفِصيلة يقول على الملأ: «نَحْنُ السُّلْطَةُ دي جِبنَاهَا بالبندقيَّة، والعَايزَهَا يَجِي يَشِيلُهَا بالبندقيَّة»، ثم بنفس الفم الذي نطق كُفْراً، يقول بعد أن هلك الزرع والضرع: «هَلُمُّوا لنتحاور من أجل السُودان الواعد»! دِلُونِي على رئيس من نفس الشاكلة اعترف "بعضمة لسانه" وعلى رؤوس الأشهاد بقتل عشرة آلاف شخص من مواطنيه، ثم تُضْرَبُ له الدُفوف ويعتلي منبراً ليرقص طرباً على أشلائهم؟! حِثُونِي عن رئيس من ذات القبيلة، جلس القرفصاء على سُدَّة السُّلْطَةِ لنحو رُبْع قرن، ثم دعا ضحاياء لمذبحة جديدة، وهَشَّ بعصاه على وجوههم، وقال لهم: «تعالوا يا جماعة نحن أولاد اليوم»؟! فصدَّقه البعض وهم يعلمون أنه إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا أَوْثِمَنَ خَانَ!

ما أكثر الأنظمة السيئة في العالم حين تعُدُّها، ولكن حِثُونِي عن نظام أعلن الجهاد على شعبه وأجبر شباباً غُضاً علي الانخراط في مُحرقته، ثم فتح سدنته المُصحف ولم يروا من آياته سوى «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُو اللَّهِ وَعَدُوكُمْ»، وبعد أن تطايرت النُغُوشُ، جاءوا يُحِثُونَهُمْ عن الوحدة الجاذبة، ثم فتحوا نفس المُصحف ولم يروا من آياته سوى: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا».. ذَكِّرُونِي برئيس فُصِّلَ عشرات الآلاف من الخدمة المدنيَّة والنظاميَّة، بدعوى "الصالح العام" وبعد أن قضى ثلثهم نحبه وتشرَّد ثلثهم الثاني ومضى الثلث الأخير يلحق الفقر والفاقة ومرارات الدُلِّ والهوان في وطنه وديار الاغتراب، قال لهم: «تأتي مافي صالح عام، وما في تمكين، وما في بيوت أشباح وأولاد مصارين بِيَض».. خَبِّرُونِي عن نظام كادت الخُمة أن تقتل جهابذته وهم يتحدثون عن التَقَشُّف؟! دِلُونِي على نظام كَرَّسَ القبليَّة والجهويَّة والإثنيَّة وطفق يدعو لنبذها؟!

ما أكثر المُفسدين في الأرض حين تُحْصِيهِمْ، ولكن حِثُونِي عن طُغْمة أنكرت الفساد من رمي، وهو دينهم الذي يَتَّبِعُونَ في محرابه صباح مساء، وبعد

أن كنت يد ديوان المراجع العام عن حصره، دعا فرعونها: «لمراجعة قانون
الثراء الحرام والمشبوه، بحيث تتيح نصوصه التصدي لكل أشكال الفساد»..
دلوني على غصبة انتهكت الشرعية واحتكرت السلطة وقتلت وعذبت ورشّرت
وأفسدت، وبعد أن استنفدوا أغراضهم، سرقوا لسان الله - تنزّه وعلا - وقولوه ما
لم يقله: «عفا الله عما سلف!».. حديثوني عن شعب ظلّ يحكمه حزب واحد بكل
وسائل الخوافة، ثم نادى نحو مائة حاي خرجوا من جُحورهم وألقوا ما هم ملقون،
فتلقف ما يافكون مثله؟! حديثوني عن بلد ظلّ بعض صحافيه يكتبون ببطونهم
وسملت عيونهم عن رؤية الواقع بكلّ مراراته وآلامه التي لا تخفى على
الناظرين، وفجأة خرجوا للناس شاهرين أقلاماً تتحدث عن الحرية وسبلها،
والشفافية ولزومها، والديمقراطية وضرورتها؟!

ما أكثر الفاشلين حين تذكرهم، ولكني أسألكم إن كان لنافع علي نافع قرين
في هذا الكون تبرأ منه لسانه، وكال من الإساءات لشعبه بقدر عدد مسامات
جلده؟! هل ثمة توائم له نكص على سوءاته وجاء يُبشّر الناس بالغُف الذي لا
يمكن أن يكون بديلاً للحوار، وأن الانفراد بالسلطة لا يُغني عن الانتخابات
وشجونها؟! دلوني على وزير دفاع هُطل استحوذ على أكثر من ٧٠% من
الميزانية، ومع ذلك يتحدّث عن "نظرية الدفاع بالنظر" دون أن تطرّف له عين؟!
أعلموني عن رجل تقمّص روح راسبوتين ومارس الانتهازية بعدد شعيرات ذقنه
أكثر ممّا فعل الدكتور حسن الثرابي.. اغتصب سلطةً وأصبح عزّابها، ثم فاضلها
وبات عدوّها، ثم عاد إليها وصار حليفها؟! من يُكلمني عن شخص واحد في هذا
العالم يمتلك حزباً خاصاً كالسيد محمد عثمان الميرغني، ويديره مزاجية بين
السياسة والقداصة بما لم يستطع خلفاء الدولة الأموية ولا العباسية فعله؟! دلوني
على سياسي قضى أكثر من نصف عمره في السياسة وشئونها، ومع ذلك يدفع
بفلاذات كبده نحو مقصلة نظام، يقول إنه يعارضه ويريد إسقاطه، ونحن له
مُصَدِّقون؟!

لقد نجحت الغصبة الحاكمة في خداعنا للمرّة الألف، نجحت في جعلنا نريد
دون وعي كلمة "الحوار" كأنه مُكتشفٌ سوداني جديد.. نجحت في إدخانا في
غيبوبة حتى لا يتذكّر أحد منا خطاياها.. نجحت في جعلنا ننطق بكلّ شيء إلا
الفريضة الغائبة التي اسمها المحاسبة.. يريدون أن يعيدوا إنتاج أنفسهم بإعادة
إنتاج الأزمة، كأنهم لم يقتلوا ولم يُعذبوا ولم يُفسدوا ولم يُفصلوا بلداً كان مُوحّداً..
وأشهد لو أنّ صمويل بيكيت، رائد مسرح العبث كان بين ظهرانينا، لما توانى
لحظة في الاعتراف بتقاصر عبقريته وتقارّم مواهبه.. يُخيّل إليّ يوماً في خضم
اللا معقول الذي نعيشه أن الشعب السوداني "الفضل" أشبه بشخص خُكم عليه
بالإعدام في جريمة لم يرتكبها، وعندما استؤنف الحكم قبل القضاة مبرراته،
وقاموا بتخفيض عقوبة الإعدام إلى حكم المؤبد، وفجأة هتف قادته "المعارضون"
نشوة بقولهم: يحيا العدل!

يا سادتي، ما أوسع المِحنة وما أضيق العبارة، فنحن شعبٌ ظلت السُّلطة
الباغية ترَوِّضه كما يروِّض مدرَّشٌ سيراك أسوداً ليسُوسها ويستأنسها.. جعلتنا
نُدَمِنُ الدهشةَ حتَّى أصبحنا ننام ونصحو على دبيبها في وجوهنا، إذا جُعنا صبرنا،
وإذا عطشنا تَذَمَّرنا.. عُصبة دَبَّغت جلودنا بكل أنوع الموبقات وسَمَّتْها
“ابتلاءات” لكي نهرع لسجادة الصلاة ونُبِّث الله شكوانا، لا أن نواجهها.. سُلطة
انتَهكت حرياتنا فأصَحَّنا السمع لأناشيدنا “الوطنية” ننفسُ بها كُربتنا.. عُصبة قَتَلتنا
فقام نفرٌ بمواراة جُنثنا وعادوا يثرثرون فيما هُم فيه منهمكون.. سُلطة نحرت
رقابنا من الوريد إلى الوريد، فضحكتنا كالطير مذبوحاً من الألم. إن الذي يجري
يا سادتي لا يخضع لمنطق، ومن أراد أن يُمنطقه بحماقة، عليه أن يحجز أولاً في
مستشفى المجاذيب. إذ يمكن للحية أن تغيّر جلدها، ولكن هل رأى أحدكم حيةً
غيرت جلدها فأصبحت حمامة سلام!

هذا نظامٌ كالسامري، الذي صنع عِجلاً له “خوار”، وسمَّاه زُوراً وبُهتاناً
“جوار”!

آخر الكلام: لا بُدَّ مِنَ الدِّيمقْراطِيَّةِ والمُحاسَبَةِ وإن طَالَ السَّفَر!!
٢٠١٤/٤/١٨

oboiikan.com

أنظر خلفك بغضب.. أو دغ دموعك تنهمر!

أنظر خلفك بغضب.. كانت تلك صرخة تمرّد اطلقها الكاتب المسرحي والممثل البريطاني جون أوزبورن، في مسرحيّة بذات العنوان عُرضت في لندن منتصف خمسينيات القرن الماضي، أي عقب الدمار الشامل الذي حاق ببريطانيا وغيرها جرّاء الحرب العالميّة الثانيّة. وأوزبورن إلى جانب البير كامو وصمويل بيكيت، يمثلون جيلاً من الروائيين والمفكرين والفلاسفة الذين الوا على أنفسهم رفع راية النهوض بالمجتمعات الأوروبيّة التي دمرتها الحرب، وقد عبّر أوزبورن في تلك المسرحيّة عن نقد الجيل الذي اشعل فتيلها بأنانيّة وشهوانيّة مطلقة، وأعزى تواطنهم في المشاركة لسياساتهم الخرقاء وفقدانهم الثقة في أنفسهم والآخرين. ثمّ جسّد ذلك الواقع المزري الذي شكّلته إفرازت ما بعد الحرب، فزادت من التعاسة المخيمة أصلاً. كذلك ولّد الإحساس بالهزيمة والانكسار غضب عارم كان بمثابة بدايات الخروج من القوقعة، وعليه جاءت المسرحيّة مليئة بروح العزيمة والإصرار والتمرّد. وطبقاً لذلك لا بد للمرء أن يتساءل.. من ذا الذي أحق بالغضب اليوم أكثر من الشعب السّوداني؟!

أرسل لي صديق عزيز فيلم (فيديو) ربّما كان مبذولاً الآن للناس في الأسافير العامّة (تجدون الرابط في آخر المقال) وطيلة الدقائق التي استغرقتها في مشاهدته، شعرت بأن الأرض تميد تحت قدمي، وداهمني خُزٌّ عميق وسيطرت على نفسي أحاسيس الكآبة والضآلة والنكد، فزهدت في الدّنيا بمن فيها وما فيها، ثمّ انتابتنني موجة حارقة من البكاء المرّ، ولم تتوقف دموعي عن الانهمار وأنا الذي كنتُ أظنّ أنها عصيّة على ذلك جرّاء الديكتاتوريات التي ناءت بكلّكلها على صدورنا. ولكن ماذا يفعل المرء عندما يشعر أن إنسانيّته خضعت لامتحان عسير وأن وطنيته أصبحت في مهبّ الرّيح؟! هل أبكي حال هؤلاء، أم أبكي نفسي، أم أبكي وطناً نهشت لحمه خفافيش الظلام فصيّرتة عظاماً نخرة؟! إنني على يقين كامل بأن كل من سيّشاهد هذا الفيديو ستشرق عينيه بدمع سخين، ولكن أليس حري بنا بعدنّ أن نستدعي الغضب النبيل الذي دعانا له أوزبورن؟!

الفقر ليس عيباً، ولكن العيب يكمنُ في لا مبالائنا وفقدان الإحساس بالآخر، سترون مثلاً ما رأيْتُ في وجه تلك المرأة الصابرة.. وجه أمي، وفي وجوه ابنائها

وبناتها وجوه إخوتنا وإخواننا.. قومٌ يعيشون على الكفاف، على بضع أميال من بيت الحاكم بأمره، ولا عزاء لهم غير تمتّاتٍ من الحمدِ والثناء لربِّ العالمين. هؤلاء الذين تشاهدونهم مواطنون في هذا البلد التعيس، لهم من حقوق المواطنة بمثلما للآخرين الذين يكتزون الذهب والفضة وينامون على أنغام فسادِ أدمنوه. هؤلاء كان من المفترض أن يكون لهم نصيب في الثروات التي خُبيت بها بلادهم، كثرت أم قلت. لهذا بكيُّهم وبكيُّ وطني وبكيُّ نفسي وأنا أشعر بأن يدي مغنولة إلى عنقي. رأيتُ في وجوههم ضعفنا وخزينا وعارنا. رأيتُ في وجوههم وجوهاً جلست القرفصاء على صُدُورنا، وصارت تمذ لنا ألسنتها ساخرة، السنة أحوالت شجاعتنا إلى جُبْن، ومروءتنا إلى أنانيّة، وشهامتنا إلى خُنوع. لسْتُ مُكرهاً على استدرار دموعكم يا سادتي، ولكن مُجبّراً على استثارة غضبكم، لأننا صرنا نحتجُ في صمتٍ، ونشكو في صمتٍ، ونبكي في صمتٍ، وقد تبلّدت مشاعرنا وتجمّدت أحاسيسنا ونكيل السب ليل نهار، وكأننا نُعيبُ زماننا ولا ندري أن العيب فينا!

أي مهانة لجِئت بهذا الشعب الطيّب، فنحن قومٌ نعيش في بلدٍ حباه الله بثرواتٍ ينذر أن تجد لها مثيلاً في هذا العالم الكبير، ولا أقول ذلك من أحاديث المبالغة، بل هو الواقع الذي نعيشه ونحن عنه غافلون. إذ يُنذر أن تجد بلداً جمعت بين عدّة مصادر للثروة، الزراعية والحيوانية والمائية والنفطية والمعدنية، وأصدقُكم القول لو أنها وُزعت بالقسطاس على كل أفراد شعبه لما وجد الأثرياء فقيراً يمنحونه زكّواتهم، ولما وجد ضعاف النفوس ثغرة في الفساد والإفساد، بل لما اهتبل الديكتاتوريون الفرص للانقضاض على السُلطة. فالسُودان الذي نعيش في كنفه ليس بلداً فقيراً، ولكن هناك حملة إفقار ضخمة قامت بها عُصبة كادت أن تموت من النُخمة والناس جانعون. أنظروا إلى حرب المليارات التي تكاد أن تذهب بالعقول. أنظروا كيف يحتفل "الفريق" عبدالرحيم محمد حسين بزواج كريمته في بلدٍ تتصوّر فيه تلك الوجوه جوعاً؟! أنظروا لوالي الجزيرة وهو يلهو بالملابيين، كما يلهو طفل بدُميته. دولة يحكُمها أبالسة فاقوا الخواة في خدعهم، فجعلوا غش البشر وغش ربِّ البشر صنُّوا!

دعكم من مداخل النفط اليوم، وتساءلوا عن عائداته التي بلغت حتى وقت الانفصال أكثر من ٧٠ مليار دولار، وأين ذهبت صادرات الذهب والثروة الحيوانية والصمغ العربي، ولا تسألوا عن مساعدات وقروض دول صديقة وشقيقة إن تُبدي لكم تسوؤكم. فهذا البلد الذي نتغنى بأمجاده ونفتخر بكرم مواطنيه، يعيش على ريع أهل الخير والمنظمات الطوعية، وفي ذلك نستدلُّ بإحصائية مفوضية العون الإنساني. ففي سنة ٢٠٠٨، كانت هناك ٢٨٠ منظمة طوعية عاملة في البلاد، انخفض عددها في العام الحالي ٢٠١٤ إلى ٩١، ليس لأنها أطعمت الجياع وروت العطشى، ولكن لأن الأبالسة "اكتشفوا" تأمرهم وطردوهم. مع ذلك، فالمنظمات الحالية يستفيد من مشاريعها ٢ مليون مواطن،

واجمالي ميزانياتها يصل إلى نحو ٤١٦,٤٣٩ مليون دولار سنوياً، ويعمل بها ٣٩٢٠ سودانياً. وفي دارفور، هناك ٣ ملايين نازح في حاجة للدعم العاجل، وهناك مليون و٨٠٠ ألف مواطن يتم دعمهم من قبل المجتمع الدولي (أي خمسة ملايين فيديو مثل ما تشاهدون)، والمفارقة إنك إذا تأملت - يا هداك الله - تلك الأرقام فستجد أن فساد "سيدنا الخضر" والثمانية العظام، إلى جانب بطلا فساد شركة الأقطان، يفوق ما تكررمت به تلك المنظمات على الشعب اليتيم. ومع ذلك، فالتتار لا يستحون في سبها أثناء الليل، وأكل خيراتها أطراف النهار.. ونحن صاغرون!

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت يا سادتي، فالأزمة ليست أزمة سياسية وإنما أزمة ضمائر ماتت وأخلاق تكلست. ما جدوى الحياة إن كنا مسلوبي الإرادة، وقد أصبحنا شعباً متسولاً. شعب مشرد داخل وطنه ومشتت خارجه، شعب ينام على صوت الرصاص ويصحو على هدير المدافع، ومع ذلك نصم أذاننا حتى لا نسمع أنين الضحايا ولا آهات المغلوبين. نحن يا سادتي نقف الآن في مفترق طرق، وحتى نحافظ على ما تبقى من وطننا، فخياراتنا أصبحت ضيقة.. بين أن ننتصر لكرامتنا أو نموت موت الشرفاء، بين أن ننحاز لإنسانيتنا أو ندفن أنفسنا أحياء، بين أن ننتصر لقيمنا أو ننكسر لثجار الدين. فالحرية لا تُمنح ولكنها تُنتزع، والمحاسبة لا تأتي طواعية، بل تجيب من يناديها، والفساد لا يُحارب بأضعف الإيمان وإنما بقول الصديق في وجه سلطان جائر!

العدالة مقدّمة على الديمقراطية، والمحاسبة تعلو العفو، والحرية صُئو المُساواة!

أنظروا خلفكم وحولكم بغضب، ومن لم يستطع، فليفسح المجال لدمع يطر من عينيه، لعله يغسل خطايانا في حق وطن يتسرب كما الماء من بين الأصابع!

آخر الكلام: لا بُد من الديمقراطية والمحاسبة وإن طال السفر!!
٢٠١٤/٤/٢٧

الرابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=٥٧٢E٠٩J٤hpA>

إذا لم يظهر يمكن نسخه والصاقه بمسطرة الأصل.

obeikan.com

قف تأمل.. كيف يفكر "الأبالسة"؟!

هل انكسرت الجرّة وخرج المارد من القمقم؟! سؤال ظلّ يراود أذهان البعض ممّن يرون قصص الفساد والاستبداد تسري بين الناس هذه الأيام، كما الهواء الذي يستنشقونه. ولكن حتى لا نغرق كثيراً في طلاس ما يحكون، فثمة تساؤل آخر سيضع السؤال أعلاه في محكٍ صعب: هل يا ترى اكتشف الناس هذا الفساد بغتة، وكأنهم لم يعلموا أنه ديدن غصبة حكمتهم طيلة رُبع قرن؟! في واقع الأمر، لا انكسرت الجرّة ولا خرج منها مارد الفساد. فالقليل الذي ظهر منه على السطح، وجعل قلوب الناس تكاد تخرج من أكنتها، هو رأس جبل الجليد العائم في محيط من فساد متعدّد الهويّات. فالفساد الحقيقي لم تُزح عن حجمه الأغطية بعد، ولا رُفعت عن صناعيه طاقية الإخفاء. ولعلّ أكثر ما يُقلق المرء هو أن الغصبة قامت بهذا الإخراج "الفهلوي" ليس بغضاً للفساد، ولا حباً للنزاهة كما يُصوّرون، ولكن لذّر الرّماد في العيون، أي لينصرف الناس عن رؤية بقية الجبل العائم. وبالتالي ينعم المجرمون الحقيقيون بما لهفت أيديهم من مال عام، وبما اغترفوا من خطايا سياسيّة، وبما ارتكبوا من جرائم جنائيّة!

تعلمون - يا سادتي - أن السنتنا ظلت تلهج بروايات الفساد منذ أن تسنّمت الغصبة ذوي البأس السُلطة قبل نحو رُبع قرن. فهم في الأصل توسّلوها بفسادٍ سياسي تمثّل في الانقلاب العسكري، الذي أضفى عدم الشرعيّة على وجودهم، وما يزال برغم تقادم السنين. ثمّ قاد الفساد السياسي بدوره إلى ارتكابهم جرائم جنائيّة دشّنوا بها وجودهم في السُلطة، اغتيالاً وتنكيلاً وتشريداً وموبقاتٍ أخرى، حطّت من كرامة الإنسان السُوداني وما يزالون. وبالتالي لم يكن عصياً على من توضّأت يدها بدماء البشر أن يغمسها في فساد مالي وأخلاقي لم يعرف السُودان له مثيلاً منذ وطىء رُحط من البشر ثراه واتخذوه موطناً. إذًا، ففيم الدهشة والقول المأثور يقول: إن ما بُني على باطلٍ لا يُنتج سوى باطلاً!

لكن دعنا نتأمّل - يا عزيزي القارئ - كيف فكّر الأبالسة وقدرّوا هذا السيناريو، والذي هددوا من ورائه إلى تعمية الرأي العام عن رؤية الفساد الحقيقي. بدأ السيناريو بشغل الناس بقصّة فساد السادة العظام في مكتب عبدالرحمن الخضر والي الخرطوم، وذلك لكي ننسى أن هؤلاء مجرّد فئران

صغيرة في جحر جردٍ كبير. وتبعاً لذلك، ظهر الوالي المذكور وكأنه "نبي الله الخضر" في نزاهته وشفافيته وطهارة يده. فالوالي - بحسب السيناريو المُعد - "يكتشف" الفساد فجأة في إمبراطوريته، فيهرع للرئيس "الضرورة" ويُحذّثه بشفافية، ومن ثمّ يتفقاً معاً على إحالة الأمر للقضاء العادل في دولة الصحابة، وبعدئذٍ يُخضع نفسه للاستجواب من قِبَل لجنة التحقيق. والحقيقة أن هذه البراءة ليست خيالاً من بنات أفكارنا، وإنما سيناريو واقعي يعجز عن كتابته مُخرج الروائع الرَّاحل "حسن الإمام".. المفارقة، من قبل أن ينتهي العرض، شمر المُفسدون و"حَمَلَة المباحر" عن مقالاتهم وإعلاناتهم التي تشيد بالخضر، مالي الولاية عدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً. نبيد أن سؤالاً ثانهاً في الأفق يقول: إذا كان السادة العظام قد نهشوا تلك المليارات، فكم يا ثرى حاز كبيرهم الذي رضعوا الفساد من حيله ومكره؟!

السيناريو نفسه أعاد تمثيله جهيدان من شركة الأقطان، والذان لهطا أكثر من ثلاثمائة مليون دولار، والناس يتساءلون عن الجزيرة ومشروعها بأي ذنب قُتلوا؟! بالطبع الغرض واضح، هو أن يتعامى الناس عن رؤية القِطط السُمان التي وقفت من خلفهم وحمتهم؟! كذلك أعاد تمثيل ذات السيناريو الزبير بشير طه، الوالي الذي استغرب الناس مبلغ ٣٢ مليون جنيه عبارة عن تكلفة غسل ملابسه في فندق مريديان، و١٥ مليون جنيه قيمة إفطاره في أسبوع. وما دري المُستغربون أن تلك "الملاليم" لا تسوى جناح بعوض، مقارنة بما جناه وهو يتقلب في المناصب كتقلب المؤتفكة في المضاجع. في تقديري، سيكون الزبير قرين "ابن العوام" سعيداً وهو يقدّم استقالته لكي يوصف بالطهارة ويدمغ بالنزاهة. ذلك لأن قصته رغم مرارتها ستغادر ذاكرتنا المثقوبة بعد حين مثلما غادرتها قصص أكثر إيلاماً، وسيمضي المذكور مواصلاً عيشه الرغد، مقتنراً بصيام يومي الاثنين والخميس، ومتمزّلاً بالحديث عن الجهاد وكاسحات الألغام من القروء، ولا تعجب إن حدثه أحدٌ عن السائل والمحروم، فأسقط دمعاً سخياً تكاد تشفق عليه من الهلاك!

أما "الحبكة" الدرامية في السيناريو - كما يقول أهل الفن - فقد قام بتمثيلها المُشير الرئيس نفسه، فقد هتّ بعصاه على رعيته، وتحدّث عن دولة أفلاطونية لا وجود لها إلا في مخيلته، وقال في حديث لصحيفة "السوداني" في أغسطس من العام ٢٠١١، رداً على نفيه روايات الفساد: «يعني لو مافي مفسدين نجيبهم من وين؟!».. ولكن ما إن استلذ الناس بترديد روايات الفساد، إذا به ينبري ويحدّثهم بذات الفم الوالغ في الكذب منذ سني "القطام" وحتى "ضرس العقل" عن كيفية اجتثاثه، ونصحهم بفذلكات قانون انشاء الحرام وإبراء الذمة، وهذا لعمرى أشبه بالثعنب الذي ارتدى ثياب "الواعظين"، فالمُشير المذكور يريد أن يقول للبرية إنه حتى لو كان هناك ثمة قوم فاسدين في دولته الفتية، فإنه شخصياً برئ مما يَافكون.. الرئيس الذي شغلته عُصْبته بملء شهوتي البُظن والفرج، كان قد وثّق

لفساده بالصوت والصورة من غير ما احتسب، جاء ذلك في حديث تلفزيوني حصر فيه أملاكه (منزلان بكافوري والرياض، شقة في مجمع النصر ومزرعة في السليط) بَيَّنَّ أنه تجاهل ذكر الفساد الذي يرقُد بجانبه، ونسي إخوة يوسف وما يضمُرُون، بل نسي القصر الذي استولى عليه عُتوة واقتداراً من أحد أبناء الرَّجُل العصامي، الشيخ مصطفى الأمين ويقضي فيه يوماً واحداً في الأسبوع "ليتحل" من رَهَق العمل وثقل المسؤولية!

يا سادتي، لا يغرّنكم ما ينشرون، فالفساد الذي نعينه يبدأ من رأس الهرم أعلاه، الذي يتحدّث عن الزُّهد مستشهداً بآياتٍ من كتاب الله، في الوقت الذي يشاركه الفساد فراش الزوجية، وعلى مرأى منه إخوته وعُصبتَه التي تُؤويه. ومن ثَمَّ، تقف فيه ذات العُصبة صفاء كيوم الحشر، بدءً من علي عُثمان طه وعوض الجاز ونافع علي نافع وأسامة عبدالله وإبراهيم أحمد عُمر وعلي كرتي وعبدالرحيم محمد حسين وبكري حسن صالح وكمال عبداللطيف ومحمد عطا وصلاح قوش وغازي صلاح الدين وأحمد إبراهيم الطاهر ومصطفى عُثمان والشريف ود بدر وعبدالحميد المُتعاقي ومهدي إبراهيم وجلال الدقير والسّماني الوسيلة وعبدالباسط سدرات ومبروك مبارك سليم ومأمون حميدة وجمال الوالي والؤلاة العشرة المُكرّمون بالسلطة، ولولا علّمتنا بأن القائمة ستتوّه بحامليها، لطالبنا بمثول الأموات في ثُبُورهم!

نسبة لأن الأمر كله ذو صلة بالتمثيل، فلا تستغربن إذا من روافع مساعدة للسيناريو. تأمل يا أيها المقتول كمداً من ذا الذي يكتب عن الفساد الآن.. المدعو صلاح قوش يتحدّث في "البرلمان" المنتخب عن كيف بدّدت عُصبتَه مليارين ونصف في إنشاء مبانٍ غير واردة في الميزانية، واسمح بكرمك الفياض - يا عزيزي القارئ - أن ألوّث مقالتي هذا ببعض الروافع التي دأبت على تقبيح الجميل وتجميل القبيح، فطفقوا يتحدّثون عن الفساد دون أن يرمش لهم طرف: راشد عبدالرحيم، محمد عبدالقادر، كمال حسن بخيت، اسحق أحمد فضل الله، الطيّب مصطفى، عبدالحمود الكرُنكي، النجيب قمرالدين، مصطفى أبوالعزائم، محمد وقيع الله، أحمد البلال، ومع ذلك فثمة قوم آخريّن من الكتبة يستحي المرء من ذكرهم، ذلك أن في ذكرهم هنا شرفٌ لهم، حتّى وهُم غاطسون في بُور الفساد. بيّن أن فساد الصحافة في هذا العهد الأغبر في حاجة لمبحث آخر من قبل أن يغيّر "سُؤاس الأحصنة" مضمار السباق!

يا أيها المُفسدون.. لكم دينكم ولنا دين!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطية والمحاسبة وإن طال السفر!!

٢٠١٤/٥/٩

obeikan.com

من وحي عرس العالم.. ليتهم كانوا يفقهون!

لم يكن ذلك المشهد الأسير يلفت انتباهي كثيراً فيما سبق، وذلك ربّما بحُكم اللامبالاة أو العادة المتأصلة أو الغفلة المتدارجة - سَمِها ما شئت - فما أكثر العَبْر وأقل الاعتبار. بيد أن هذه المرّة كان لحضوره فعل السّحر في نفسي. فبأسباب أدريها وقد يدريها مثلي ممّن أرهقتهم قرائن الأحوال، أي بين ما هو كائن في واقع نرزح في جحيمة وما هو مُفترض في حياة نحلم بها. كان هذا مدعاة لتأمّل وقائع حدث ظلّ يستقطب أنظار العالم بصورة عامّة، وفي جوفه المشهد الذي نحن بصدد الحديث عنه بصورة خاصة. وأقول ليس على المحروم مثلي حرج إن تأمله هذه المرة بشغف زائد ومتعة شائقة لا يضاهيها شيء. فقد أدركت - يا سادتي - ما انطوت عليه تلك الظاهرة من معانٍ حضارية جميلة؛ يعجز الراصد عن التعبير عنها حتى ولو تفانى في الوصف!

جرى العُرف، في مباريات كأس العالم التي تجري منافساتها هذه الأيام في البرازيل على عزف ما يُسمى بـ (النشيد الوطني) لكلا الفريقين المتنافسين قبيل كل مباراة. أثناء ذلك ظللنا نتابع الكاميرا وهي تتهادى على وجوه اللاعبين المتحفزين للنصر وجمهورهم أيضاً، وهم يرددون معاً أناشيدهم الوطنية، بحناجر راعدة وقسمات صارمة، وغالباً ما تكون كفوف أيديهم مقبوضة إلى صدورهم في دلالة على مكانة الأوطان في قلوبهم، في حين تسري ألحانها الموسقة في أذان السامعين، كما يسري الماء الزلال في جوف الظامنين. فهل تأملنا ذلك - يا سادتي - بنظرة غيّر تعيد إلينا الوطن الذي تسرّب من بين أيدينا ونحن غافلون! كأس العالم أو "المونديال" هو عرسٌ كروي لأكثر الأنشطة الرياضية شعبيةً في العالم. لذلك يعيش الملايين - بل البلايين - عبر قارات العالم السبع شهر عسل حقيقي، وهم يتابعون وقائع تلك المباريات بمتعة وولع وإثارة. وكنتُ قد دأبتُ على متابعته أيضاً منذ عقود مضت. بيّذ أنني لم أكتف بالمشاهدة المُجرّدة هذه المرّة، وإنما حاولتُ أن أسبج بعقلي وخيالي معاً إلى مرئيات هذا العرس، وما تضمّنته من معانٍ خفيّة، جعلت من العالم بكل تنوّعه الثقافي والإثني والعقدي يكاد يتوخّد على قلب إنسان واحد!

الجمال عنوان كل شيء، فالاستادات أو بؤابة الدخول للمنافسات، عبارة عن تحفة معماريّة تكاد تسلب عقول الناظرين. تتوسّطها تلك الميادين الخضراء

بخطوطها الهندسيّة الجذابة، وتحيط بها المدرّجات المختلفة بتناسق بارع. في حين تظّل جماهير الفرق المختلفة هي اللوحة الأكثر بهاء ورونقاً، لا سيّما، وأن بعضهم تبارى في لفت الانتباه بشتى السبل من أجل إدخال البهجة في النفوس، وإكساب المنافسات جمالاً وإشراقاً. كما أن البلد المضيف نفسه - البرازيل - شأنها شأن كل بلد أقيمت فيه المنافسات، فقد بذلت جهداً خرافياً في التنظيم والرفاهية لمنات الآلاف من الذين هوت قلوبهم وأفندتهم لديارها من عشاق كرة القدم!

إن المتأمل لهذه الرياضة، يرى فيها تجلي كثير من المثل والقيم النبيلة، فهي تعتبر عن معاني الحرية والمسئوليّة والديمقراطيّة والتسامح واحترام الآخر. يبذل اللاعبون قصارى جهدهم في المحافظة على شبك مرماهم خالية من الأهداف، وفي نفس الوقت يبذلون جهوداً مضاعفة من أجل إحراز الأهداف في مرمى الخصم، وذلك لا يتأتى عشوائياً وإنما بخطط مدروسة، تدربوا وتمرسوا عليها لسنوات عدة، وخلالها رعوا المواهب وصقلوا الخبرات، وأعدوا لليوم الموعود ما استطاعوا من عُدّة وعتاد، ولهذا فإن المنافسات لا تفاجئهم بمثلما يفاجئنا العيد، والسيول، والفيضانات، والانقلابات العسكريّة!

ورد في حديث صحيح أن الله جميلٌ يُحبُّ الجمال، وأقول: نحن كذلك. ومن منا يكره الجمال غير العُصبة ذوي البأس، التي تفانت في تكدير حياتنا. وفي واقع الأمر، لم أعرف في سير الأولين والآخرين - وفق قراءتي المتواضعة - إنساناً صارع الجمش وهام به حتى صرعه، مثل شاعرنا العبقري الراحل إدريس جَمّاع. أتذكره وأترخّم عليه كلما رأيت الكاميرا تنتخب وجوها مليحة لحسنات تفانين في صبغ وتزيين وجوههن بأعلام بلدانهن الزاهية الألوان، أو أي شيء من هذا القبيل، وذلك بهدف لفت الانتباه بنظرة تنسي النوقار وتسعد روح المُعنى. فإن أصبته بسهام لحظهن وأحللن عقدة من لسانه، فلسوف يهتف من أعماق قلبه ممجّداً رب الجمال، الذي خلقهنّ وسوّاهنّ وعدلهنّ، وسيقول سراً أو جهراً: يُنصّر دينك يا رب!

يعجبني كثيراً قولٌ جميل تردده إذاعة الديّبي بي سي العربية بين فواصلها، وهو منسوب للإمام الغزالي، وفيه يقول: «من لم يهزه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره، فاسد المزاج ليس له علاج». كلما سمعتُ هذا القول ضننتُ أن الإمام الغزالي يعني به «البروفيسور» محمد عثمان صالح، الذي يرأس هيئة علماء السُلطان، فهو من تلك الفصيحة التي ليس لها علاج.. آخر فتواه كانت عن تحريم الغناء في رمضان، وبمثلما يحدث في «أوكازيونات» الأسواق طلب التقليل منه بقية شهور العام. والإمام الغزالي قال قوله ذاك وهو لا يعلم أن بيننا ثلة من أنمة الحيض والنفاس، أفتوا أيضاً بتحريم مشاهدة هذا العُرس العالمي الذي يأتي مرّة كل أربعة أعوام. ولا شك أن البعض قرأ بعين الدهشة قول أحدهم عشية المناسات: «الفيفا مؤسسة طاغوتية تديرها الشياطين»، فتأمل!

علماء الحيض والنفاس هؤلاء ظلوا يُعَكِّرون صفو حياتنا بفتاويهم المُمِنة في التخلف والانحطاط. ومن المُفارقَات التي تجعل الدواب تفغر أفواهها دهشة، أنهم لا يرون ما يرى الناس، ولا يعايشون ما يعيشونه. لم يسمِعوا بأُنين عشرات الآلاف من الضحايا في دارفور وجنوب كُردفان وجنوب النيل الأزرق، بل في الخرطوم العاصمة وولاياتها، حيث أزهقت أرواح أبرياء. ولم يروا التعذيب على أجساد شباب زُجوا بهم في السُجون والمُعقلات، ولجِماؤا ألسنتهم عن قصص الفساد الذي تمَدَّد واستشرى حتى أصبح ديناً يُعَبَّد لدى عُصبتهم. لربَّع قرن ظلَّ عبدالجليل الكاروري ومحمد عبدالكريم وعبدالحى يوسف وعصام أحمد البشير والصابي جعفر ومن لفَّ لفَّهم، يحتكرون المنابر، ليحلِّلوا الحرام ويُحرِّموا الحلال، وفق ما تشتهي عُصبتهم الحاكمة!

بالطبع، لن أقول جديداً إن قلت إنني تيقنت بما لا يدع مجالاً للشك أن أيديولوجية الغلبة تستند على الاستغلال البشع لكلِّ شيء في الدين أو الدنيا بهدف التثبيت بالسلطة. فهم حينما يتحرَّرون رؤية هلال رمضان ويكثرُّون من التظاهر بمقدِّمه، فلا يظنُّ أحد أن ذلك حرصاً منهم على إحياء ركنٍ من أركان الإسلام الخمسة، بقدر ما يرون في الصوم فرصة لشغل الناس عن التمرُّد على سلطتهم الغاشمة. وبنفس القدر، هم يستثمرون مناسباتٍ مثل منافسات كأس العالم الحالية للغرض نفسه، وليس كرياضة يستمتع بها الناس في حياتهم، ناهيك عن أن الرياضة نفسها دَجَّنوها وجعلوا منها وسيلة سلطوية للوصول لغايات يرومونها، فلا غُرُوَّ أن حاق بها ما حاق بالبلاد من دمار شامل. كما إن الاستغلال البشع قد طال حتى المناخ، وكأنني بهم يتمنون أن تمَدَّ الطبيعة صيف السودان ليصبح كل العام، وتزيد فيه درجات الحرارة، وتُرسِل الشمس شواظها اللاهبة، ويثور الغبار والأتربة ليكونا سداً لا يبصر الناس من خلاله مساوئهم!

صفوة القول يا كرام، ليس بالتمني تبقى أنظمة السوء على سدة السلطة وإن طالَّت سلامتها، وليس بالفهلوة يستمر الأبالسة في تقبيح الجميل وتجميل القبيح. فلا تبتسوا يا من تمطى وتثاءب نهاركم وطال ليلكم، غداً ستشرق شمس الحقيقة، وسيروى التوافقون للحرية والديمقراطية والمساواة والعدالة الاجتماعية كيف سيكون العالم، ليس في مضمار الرياضة وحدها، وإنما في كل أوجه الحياة. وحينئذٍ سينزوي شُذَّاذ الأفاق والمُتطرِّفون والمهوسون والمتاجرون بالدين وكهنة الإسلام السياسي.. وتجد تلك القيم الجميلة مناخها الملائم لتعمُّ وتسود وتردِّهرا!

آخر الكلام: لا بُدَّ مِنَ الدِّيمَقْرَاطِيَّةِ وإن طال السفر!!

٢٠١٤/٦/٢٧

oboiikan.com

أَيُّ عَارٍ جَلَبْتَهُ لَأَسْرَتِكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟!

في أثناء تأجُّج نيران الحرب الأهلية في أيرلندا الشمالية في حقبة السبعينيات من القرن الماضي، قام الجنود البريطانيون بحصد رُواح ثلاثة عشر شاباً متظاهراً في شوارع بلفاست، فيما سُمِّي بـ "أحد الدم"، فاستدعى البرلمان وزير الداخلية لاستجوابه حول ملابسات ما حدث. فقَدَّم الوزير إجابات بدا أنها لم تقنع سيِّدة عضو في البرلمان، فعلى الدم في رأسها وفار كالتنور. ثم غادرت مقعدها وتحركت بعصبية ظاهرة يدفعها غضبٌ جامحٌ صوب الوزير، الذي كان يقدِّم إجاباته باطمئنان شديد، وبالطبع لم يدر بخُلده مُطلقاً أن السيِّدة سوف تصفعه وتعود إلى مقعدها، كأنها كلفت بأداء مهمة مُقدَّسة على الوجه الأكمل. وفي اليوم التالي، خرجت بعض الصحف بعناوين صارخة صبَّت الزيت على النار، بما فيها صحيفة "التايمز" الرصينة، والتي اختارت عنواناً أكثر إثارة "الآن اشتعلت الجِمية الأيرلندية"!

(٢)

قامت سُلطة العُصبة العاشمة باعتقال الدكتورة مريم الصَّادق المهدي بمجرد مغادرتها الطائرة القطرية التي وصلت مطار الخرطوم مساء يوم الثلاثاء الماضي، وكالعادة لم تقدِّم سبباً للاعتقال، مثلما أنه لم يدر أي أحد بالمكان الذي اقتنيت إليه، إلا بعد أن سُمِّح لها بإجراء مكالمات سريعة مع زوجها في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، فأخبرته بوجودها في مقرِّ لجهاز الأمن، أو بالأحرى أحد "بيوت الأشباح" بمدينة الخرطوم بحري. وفي ظلِّ الغموض الذي طابَق عمليات "المافيا" تلك، لم يكن بوسع المراقبين سوى اللجوء للتنجيم لمعرفة الأسباب التي لا تحتاج لكثير اجتهد. فقد قدِّمت مريم من باريس التي وقَّع فيها والدها السيد الصَّادق المهدي رئيس حزب الأُمَّة ومالك عقار رئيس الجبهة الثورية "ميثاق باريس"، وبغضِّ النظر عن دورها أو عدمه، فالميثاق المذكور لم يتبيَّن للناس ليله من ضحاها، وبالتالي لم يكن رجساً من عمل الشيطان حتى يتم اجتنابه. لكن النظام الذي دأب على ضخِّ السَّوء، ظلَّ يفترض الشيء نفسه في كلِّ من لا يدور في فلكه. على كلِّ، بعد أن قضت مريم ليلتها تلك في بيت الأشباح، تمَّ تحويلها إلى سجن النساء بأمدِرمَان، وما تزال تقبُع بين جُدرانها. فما الذي يمكن أن يشعل حمية الشقيق الحسيب عبدالرحمن الصَّادق المهدي يا ترى؟!

(٣)

لم نورد هذه الخاطرة اعتسافاً، بل لم يكن ديدننا أصلاً إقلاق مضاجع الشقيق المذكور، ولكنها الصدفة، أو قل "الحبكة الدرامية" كما يقول أهل الفن السابع. فأتناء مطالعتي وسائط إعلامية متعدّدة، طغى عليها تغطية خبر الاعتقال وما صاحبه من توضيحات وتحليلات وتداعيات، لاحظتُ صورة لا يصحبها أي تعليق أو خبر، تسللت لكزّ المواقع، وجمعت بين الشقيق ونافع علي نافع، أو الحاكم بأمره في العلن سابقاً ومن وراء الكواليس حاضراً، بدياً فيها وهما يتجاذبان أطراف حديث لا ندري كنهه، ولكن الصورة جسدت حميمته ودفنه، أو هكذا يخال لناظرها. وسواء كان حميماً أو منفراً، فسيئ الأمر لدى عبدالرحمن الصادق المهدي، الذي دأب على الإصغاء منذ أن وطأت قدماه ردهات القصر، الذي قتل فيه أجداده الجنرال عُردون، وما تزال بقع دمانه المُقتاترة على الدّرج تستثير حميته ليستنهض تاريخاً تليداً وهو من الغافلين!

(٤)

صورتان نقيضتان عصفتا بذهني، فداهمتني مرارة بطعم العلقم وانتابني أسى عميق، وأنا أتأمل المشهدين. وبرغم أننا وطننا أنفسنا على تقبّل كل قبيح نضح وينضح من إناء العُصبة ذوي البأس، إلا أنني لم أكن أتوقع أن يلهو الفاعل بالمفعول به في مواقف نعلم أن دولاً تحرّك من أجلها الأساطيل، وأن شعوباً تستنفر من أجلها الجيوش، وأن أفراداً تشعل حميتهم فيسترخصوا الغالي والنفيس حماية للعرض وإعلاء لراية الكرامة. طبقاً لهذا، لم يكن مطلوب من العقيد عبدالرحمن الصادق أن تستثار حميته زوداً عن كرامة الشعب السوداني التي داستها حوافر خيول المغول. ولم يكن مطلوب منه أن يشاركهم الضراء التي ألحقها التتار بالبلاد والعباد. ولم يكن مطلوب منه أن يبكي شباباً غصاً حصدتهم بنادق جلاوزة الأمن. ولم يكن مطلوب منه أن يصغي السمع لحسرات الذين يقبعون خلف الجدران في السجون وبيوت سينة السمعة. ولم يكن مطلوب منه أن يحس بالأم الذين حاصرهم الظمأ ونهشتهم المسغبة. ولم يكن مطلوب منه أن يحصي أهات الذين تكالبت عليهم الأمراض فعزّ الدواء والطبيب المداوي معاً. لقد كان المطلوب منه أن يجتاز امتحان جاءه يسعى في عقر داره، فرسب فيه بعد أن دفع ثمن تهوُّره مرتين في أعزّ ما يمت للمراء بصلة.. الوالد وما ولد!

(٥)

إزاء عجز الولد، لاذ الوالد بمنفى جديد، ليس جزاء ما اقترفت يداه بحسب ما يترأى للناظرين، ولكن خشية أن يعيد التاريخ القريب نفسه مجدداً. أما الشقيقة، فقد عزّ عليها جزاء خذلان الشقيق أن تطلق من محبسها "زغرودة" داوية كسانر نساء أهل السودان في مثل هذه المواقف، زغرودة تهتز لها جدران السّجن، وترتج أذن السجان. لكن الذي حدث - يا سادتي - يعجز غبريل جارسيا ماركيز عن تجسيده.. فبفضل ديكتاتورية الجغرافيا التي يُدّعن لها الناس وهم

صاغرون، كانت الشقيقة تفتش متاع البجن البانس والشقيق على مرمى حجر ينام في مضجعه قرير العين هانئها.. تكاد تسمع شخيرته رغم الحوائط التي استطالت، وهي ليست كحوائط الرّاحل مصطفى سند في "الحزن القديم" ولكنها حوائط "الحزن الجديد" المبنية بعظام ولحم ودم هذا الشعب الصابر، والمسؤرة بأنين المقهورين والغلبة والمظلومين، والمحروسة بالقوة والجبروت والاستبداد. وليته أصاخ السمع قليلاً، وهو يتقلب في فراش السلطة الوثير، فلربما سمع شكواها وتظلمها وقلة حيلتها!

(٦)

إن المقدمات الصحيحة تقود بالضرورة إلى النتائج الصحيحة، كما يقول علماء المنطق، والعكس صحيح بالطبع. ومع ذلك، احتار المراقبون وجرت الروايات مدراراً في تفسير انضمام عبدالرحمن لعصبة المؤتمر الوطني. وفي واقع الأمر، ليس عصباً لمن عزّ عليه أن يتبوأ مثل هذا المنصب في نظام ديمقراطي مكتمل الأركان، جزاء افتقاره للخبرة السياسية الكافية، أو الكاريزما القيادية، أن يأتيه ذات المنصب يجرجر أذياله في كنف نظام ديكتاتوري. وقد رأينا في مسرح العبث هذا كيف ابتذل الأبالسة المناصب حتى نالها الذين كلت بطونهم من أكل السُّحت. أما إن شئت إبحاراً عميقاً في لَجَج ما حدث، فستعلم - يا هداك الله - دون أي جهد يُذكر أن الخطوة التي كانت عبارة عن صفقة قوامها أطراف ثلاثة. فأهل النظام بعد أن استعصى عليهم الدخول بباب حزب الأمة، قدّر دهاقنته الدخول بالشباك. والسيد الصادق الذي ضيّع في الصيف اللين، أصبح جُلّ همّه في وريث يكمل مسيرة الصراع الأزلي مع المُتربّصين بالحزب وكيان الأنصار من آل البيت المهدي. أما عبدالرحمن نفسه، فيقيني أنه ليس من فئة الذين يشغلون أنفسهم بهذا أو ذاك، أو حتى بالذي نحن فيه خائضون. وتلك حقيقة كانت مبلغ علم الأبالسة، فسخروها من أجل السيطرة عليه بوسائل يعرفونها وبرعوا في تطبيقها على آخرين، حتى لم تبق في وجوههم مُزعة لحم!

(٧)

في أجندة الأطراف الثلاثة تلك، لسنا معنيين بالنظام وأحابيله فتلك سمة خبرها الناس عنه حتى لم يبق من درنه شيء يُذكر. أما المهدي، فكالعهد به، استسهل معركة بمتلما استسهل معارك كثيرة يظلّ يخوضها في مضمار السياسة لنحو نصف قرن من الزمان. وطبقاً لهذا، يبقى الحديث عن خطئه أو صوابه في هذا المقام مجرّد ترفّ يلجأ إليه العاطلون عن الهموم. فالمهم أنه دافع دفاعاً مستميتاً عمّا اسماه بـ "خيار الابن"، وذلك منعرج تغلبت عليه صلات الدم أكثر من روابط السياسة. لكن مهما يكن من أمر، فالمفارقة أن المهدي نفسه كان أوّل من تجرّع معادلات الأبالسة التي ذكرناها آنفاً ضمن أجندتهم الخفية في الصفقة، فزجوا به في سجن كوبر لأكثر من شهر، ولم تعوزهم الإهانات، فهم غصبة لا يعرفون غير الإذلال لغة في التواصل. لكن "عش رجياً ترى عجباً"، كما يقول

الإعراب، فالمهدي الذي أقدموا على سجنه كان وقتئذٍ أقرب إليهم من حبل الوريد، ناهيك عن أن الاتهام نفسه الذي نهى عنه النظام أتى به بعض سدنته من جهة أخرى، بدا لنا أن الابن اللاهي في ملكوته لم يدرك أن السجون بُنيت للحرمان من الحرية، والتي هي أثمن ما يملك الإنسان في هذه الدنيا، بدليل إنه لم يجد في نفسه حرجاً أن يزور والده رهين المحبسين "السجن ومحنته" على رأس رهط من "المهاجرين والأنصار" وكأنه يُشهدهم على سوء ما حصدت قدامه!

(٨)

الآن بعد أن انكسرت الجرّة واندلق اللبن، وبعد أن تحوّلت المحنة من قضية سياسية إلى قضية أخلاقية، لابدّ للحائرين مثلاً أن يسألوا عبدالرحمن عن النبأ العظيم.. ما الذي كسبه وفق ما خطط أو طمح له الوالد في تعلم أصول الإدارة والقيادة والحكم؟! هل يا ترى تعلم الصّدق من رئيس نظام استمرّ الكذب؟! هل تعلم الأدب من نافع علي نافع الذي تبرز منه لسانه؟! هل أخذ الحكمة من علي عثمان طه الذي حصّن نفسه بآيات المنافق الثلاث؟! هل استلهم الأمانة من عوض الجاز، أو اقتفى مدارج الرّهد من علي كرتي؟! هل التمس النزاهة من أسامة عبدالله، أم استوحى الشفافية من عبدالحميد المتعافي؟! هل نال العلوم العسكرية من عبدالرحيم محمد حسين، أم الحكمة من لدن بكري حسن صالح؟! هل أصغى السمع لمحمد عطا المولي وهو يحدثه عن حرمة قتل النفس وكيفية التحلل من الذنب؟! كيف يمكن للمرء أن يتعلم أصول القيادة من الذين جعلوا ميكافيلي مجرد تلميذ صغير في بلاطهم؟! كيف يمكن للمرء أن يتعلم أصول الإدارة من الذين حكموا بالخداع وتوسّلوا النفاق، وصار الكذب دينهم؟! كيف يمكن للمرء أن يتعلم أصول الحكم من سدنة نظام ديكتاتوري ولغت أياديهم في الدم الحرام، إذ فاق عدد الذين فتكوا بهم في دارفور عدد من قتل في شيكان وقدير وأم دبيكرات والجزيرة أبا وود نوباوي.. وقد تجاوز عدد الذين قتلوهم في الجنوب أضعاف عدد الذين قَدّموا أرواحهم رخيصة في كرري؟!!

(٩)

يا عبدالرحمن، خُذ بيد شقيقك وأرحل، فالحياة بلا كرامة كالأرض اليباب، ولا يمكن للمرء أن يبني مجداً على جماجم الشّهداء، وأرتال المفصولين من الخدمة المدنية والنضائية، وجحافل العاطلين عن العمل، والقابعين في أقبية السجون والمعتقلات، والمشرّدين في معسكرات الدّل والهوان، والمبعثرين في فجاج الأرض، والمنتظرين للذي يأتي ولا يأتي!

يا عبدالرحمن، من دخل عتق الدبابير لابدّ وأن يلدغ.. خُذ بيد شقيقك وأرحل، فالذي تبحثون عنه قد تركتموه ببسطام!

آخر الكلام: لا بدّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٤/٦/١٨

لماذا سكّت الثرابي عن الكلام المباح؟!

ألا رحم الله صديقي محبوب عثمان، الذي رحّل عن دُنْيَانَا في العام ٢٠١٠ كما ترحل النوارس إلى ما وراء البحار.. كان شفيفاً وعفيفاً وصريحاً.. ما انتظم عقد لمجالسيه حتى صار ريحانتهم.. حذق الجمع بين "الضُرَّتَيْن"، السياسة والصحافة. ومن خلالهما كدّخ إلى وطنه كدحاً، إلى أن لاقى ربّه راضياً مرضياً. كان قد شرفني بكتابة مُقدِّمة كتابي الأول الموسوم بعنوان "محنة النُخبة السودانية" والذي صدر في القاهرة العام ١٩٩٣، واقتبس من تلك المُقدِّمة العبارة التالية: «يشبه المؤلف قناعات قادة الجبهة الإسلامية بنظرية الفرد روزنبرج فيلسوف النازية الشهير، والتي تقول: «إذا كانت القسوة لازمة فلماذا لا نستخدمها لإرادتنا الوطنية»، ويضيف محبوب: «وهنا تستشعر ذاكرتي رأياً للدكتور الثرابي، أطلقه ونحن في سجن كوبر خلال الأسابيع الأولى بعد انقلاب ١٩٨٩/٦/٣٠ التي مكثها مُعتقلاً مع المعارضين كواحدة من وسائل الترميم يومذاك. قال الثرابي ما معناه إن الشعب السوداني لا ولن يسلك الطريق القويم إلا بالقهر. وعندما اعترض أحدهم بأن القهر يُولد الانفجار، كان رد السيد المرشد: دعك من هذا، فإن القهر يبدو شاذاً وغريباً في أيامه الأولى، ولكن سرعان ما يعتاد عليه الناس».. وختم محبوب تلك الفقرة بتساؤل مُزلزل: «ألا يكمل هذا نظرية فيلسوف النازية ويدعمها ويطورها؟!.. ولعمري، ذلك سؤال أجابته السنين وفجورها!

(٢)

في صيف عام ٢٠١١، جلستُ إلى الدكتور حسن الثرابي في منزله بالمنشية، كان ذلك أثناء زيارة للبلد الصابر أهله، وقد خطّطت لها الأقدار ونفذتها طائعاً مختاراً. وبحكم البُعد الجغرافي، أو إن شئت فقلّ القسري، لم يتسنّ لي رؤية تلك الدار من قبل، غير أنني سمعت عنها قصصاً أشبه بالأساطير. يقولون كادت أن تكون محجاً للحواريين، وإنها كانت تعجّ بالغاديين والرائحين عندما كان شيخهم يأمر فِيطاع. بل قيل إن البعض كان يستبقي نفسه فيها حتى مطلع الفجر ولا يغادروها إلا وهم مُكروهون. ولهذا استغربتُ يومذاك عندما رأيتهَا تكاد تكون خاوية على عُروشها، ولفت نظري كذلك أن الساحة التي أمامها تخلو من أي دابة، وكانت - بحسب ما قيل لي - يعزّ أن تجد فيها موطى قدم، ناهيك أن تجد

مكاناً لدواب كثرت أنواعها. دلفتُ للدار وقلتُ في سِرِّي "أدخلوها بسلام آمين" ..
وجدتُ الثرابي يجلس في الصالون وحده، بل للدقة كان يجلس على مقربة منه
شابٌ تبدو على سيماه الطيبة وانقار، عرفتُ فيما بعد أن اسمه "تاج الدين باتقا"
وهو يشغل وظيفة سكرتيره الخاص، وهي ذات الوظيفة التي كان يشغلها صديقنا
المحبوب عبدالسلام في العشرية الأولى، كما وصفها في كتابه ذائع الصيت.
أخذتُ موقعي بالقرب من الثرابي، وجلس إلى جانبي السيد كمال عُمر، وهو الذي
رتب اللقاء أصلاً. و"عُمر" هذا للذين لا يعلمون، لم يكن من الذين بزغ نجمهم في
فجر السنين العشر وما تلاها، ولكنه في العشرية الثانية وما جلاها، اقترب من
الثرابي حتى أصبح عينه التي ترى، وأذنه التي تسمع، ولسانه الذي ينطق، ومن
المفارقات أن التداعيات التي حدثت في مواقف المؤتمر الشعبي مؤخراً، وبدا فيها
"عُمر" يتقلب كتقلب المحب على نار الجوى، كشفت للمراقبين أن فيه شيئاً من
خُلُق الثرابي، ومن شابه شيخه ما ظلم!

(٣)

امتدَّ ذلك اللقاء لنحو ثلاث ساعات، وعلى الرغم من أنه جرى في رمضان،
حيث الطقس حارٌ وجافٌ، ونهاره قانظ كالعادة، إلا أن شهية المرشد للكلام -
بحسب تعبير محبوب - كانت ساعته أشبه بجهم، كلما قلتُ كفى قال هل من
مزيد. ولا أظن أن مثل تلك الرغبة كانت متاحة لمثلنا في العشرية الأولى، أي في
عز سطوته وجبروته. فيومذاك حتى حواريه، لو أن أحدهم ظفر برِدِ التحية فقط
لصار قلبه من الفرح وانقلب إلى أهله مسروراً. لهذا لم يكن عصياً عليّ أن اهتبل
سانحة غضبه وضيقه وجنقه منهم لاستخرج بُغيّتي من أسرار وأوطار، وبالطبع
ما كان لها أن ترى النور، لولا جور الزمان ومكاند الجبان. وفي سياق مقالنا هذا،
قد لا يهم كثيراً كل ما قال، غير أنني كنت ألحظ مدى تغير تقاسيم وجهه
واصطكاك أسنانه عندما يتحدث عن عقوق الحواريين، ويترفع عن ذكر اسمائهم،
بل لحظتُ أيضاً أنه كلما ازدادت دواخله غضباً، كان يضغط على طاولة صغيرة
أمامه بابها حتى يخال للمرء إنه سيتقبحها أو سيدمي أصبعه. ثم من باب التنفيس
أو الترويح عن الضيق، كان فمه يفتّر عن تلك الابتسامة الغامضة التي تتضاءل
قدرات أبرع الممثلين المسرحيين في أن يأتوا بمثلها. يومذاك فقط، أبقيتُ تماماً
بعد أكثر من عقد من الزمن، أن ما سُمّي بـ"المفاصلة" بين القصر والمنشئة ليست
مسرحية كما أشيع عنها، ولكنها حقٌ وكرهية وثاراتٌ مؤجلة!

(٤)

قيل أن يُبادر أحد ويتهمني بالسذاجة، أقول: لست وحدي، إذ أن قرائن
الأحوال ووقائع الأحداث في الفترة التي أعقبت "المفاصلة" شهدت فجوراً في
'الخصومة من الجانبين لم يسمع الناس بمثلها، إلا في قصور خلفاء الدولة الأموية.
رئيسٌ ابتدل الحكم، فضرب مثلاً ونسب نفسه.. وقف ذات يوم أمام حشد من
الناس، ومدّ يده إلى عنقه، وقال على رؤوس الأشهاد: «الشيخ يستاهل الضبح»،

أي الذبح بمثل ما يفعل تنظيم "داعش" بضحاياه هذه الأيام! والشيخ الذي أخذ من الجمال (بكسر الجيم) أهم صفاتها، راح يقتص من حواريه ويجلداهم بالسنة حداد ويتحرق شوقاً لليوم الموعد. راء الناس يوماً في ندوة ميثوقة في وسائل التواصل الاجتماعي، ينقل عن الرئيس الذي توعدّه بـ "الصبح" حديثاً لا يملك المرء حين سماعه إلا أن يستغشى ثيابه ويولي الأدبار هرباً. ثم تدور دائرة الأيام، وبينما الناس في انتظار المعركة الفاصلة أو المؤجلة، يُعاد ترتيب المسرح بطريقة جديدة قبل إنزال الستارة. ثم تستوجب المسرحية تغييراً مفاجئاً في المشاهد. يبتدع الرئيس "الضرورة" ما سُمي بـ "خطاب الوثبة" ويطرح حواراً سُمي بـ "الجوار"، ثم يتقابلا، الرئيس والمرؤوس، أو الشيخ وحواره السابق، أقبلًا على بعضهما ويكادان يطيران من الفرح. ثم تعانقا عناق من تحرّى لقاءً بعد طول فراق، محا النهار فيه كلام الليل.. تلك بدت للبعض كطلاس، ولكن وراء الأكمة ما وراءها يا سادتي! فمهلاً إذ أن ما حدث وراء كواليس المسرح أمره عجباً!

(٥)

ذلك هو السؤال الذي سيرنا أغواره من مصادرنا العليمة، وخرجنا بمعلومات ثرة نضع خطوطها العريضة بين يدي القارئ ربّما أزلت بعضاً ممّا التبس في ذهنه من طلاس. قالت المصادر: كانت قطر قد راهنت كثيراً على صعود موجة الإسلام السياسي في دول ثورات الربيع العربي، وعلى وجه الخصوص مصر وليبيا وتونس، وفجأة على غير ما تمثنت واشتهت، بل وعلت لذلك طويلاً بدوافع يعلمها المراقبون، وبالذات الصّراعات الخفية مع المملكة العربية السعودية، بدأت الأرض تميد تحت ثقل طموحاتها وانتاشتها سهام الكراهية والشحناء والبغضاء. فقرّر صنّاع القرار في الدولة الصغيرة عمّل إسناد Backup لطموحاتهم أو تمنياتهم - سيّان - فكان نظام الخرطوم محط أنظارهم، سيّما، وأنه النظام الوحيد في الإقليم، أو قل في العالمين العربي والأفريقي، الذي كان يشاركهم السراء في تمذد مشروع الإسلام السياسي في الدول المذكورة، مثلما أصبح الوحيد الذي يشاركهم الضراء بعد أن لاحت علامات تعثره.. زاد من الاختيار، أن للدوحة يدأ سلفت على الخرطوم في المبتدأ، علاوة على أن أزمات النظام، وبالذات الأزمة الاقتصادية كانت قد استحكمت حقائقها. ومن جانبها أيضاً، اشتربت قطر على الغصبة الحاكمة أن تبسط يدها للثراي، ليعود إلى سالف عهده بوجه جديد New Look كما يقولون، وهو ما صادفت هوى في نفس الرئيس المشير للتخلص من المتربّصين به في غصبته!

(٦)

طلبت الدوحة من الثراي زيارتها - وهو الذي لم تنقطع صلته بها منذ المفاصلة - حيث عرضوا عليه ابتداء مشروع مصالحة مع تلاميذه أو حواريه السابقين. من ناحيته، زاد الثراي - الذي جاءه الثأر يُجرجر أدنياه - من جرعة طموحاته، واقترح عليهم أن يطلبوا من الرئيس البشير الإقامة بين ظهرانيهم في

الدوحة. فقالوا له سبق وأن عرضوا عليه ذلك بايعاز من الإدارة الأمريكية، وبضمان إيجاد مخرج له من المحكمة الجنائية، بل كشف القطريون على أن ما درج على تسميته بـ"الوديعه القطرية" هي في الأساس اقتراح أمريكي لمزيد من الترسيع، ولكنه رفض بدواعي احتمالات صراع المتربسين بالسلطة من غصبت. عندئذ طرح الثرابي اقتراحاً آخر تلقفه القطريون، وقضى بالضغط على النظام لإزاحة كل الوجوه القديمة من واجهته، وبالأخص التسعة الذين يتحكمون في صناعة القرار (ملحوظة: لم يفصح المصدر عن أسمائهم)، غير أن الثرابي قرا على محدثيه الآية: «وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون». وقال إن ذلك سيكون ضماناً للمصالحة التي يقترحونها، وإنقاذاً للمشروع أيضاً. بالطبع حدث ما اقترح، ولكن باليات معلومة لم يأت القطريون بهذا في بسطها. وبالتالي، مضى الثرابي في المشروع توخياً للخطوة التالية!

(٧)

انتهت إفادات المصدر، أما إفادتي الخاصة التي قد تصيب وقد تخطي، تقول إن الثرابي سيمضي في المشروع غير عابئ بالوطن ومآلاته، وقد تآبط ثاره الشخصي الذي سبق وأن حددنا شواهد في بداية المقال.. الثرابي الذي علم حواريه الميكافيلية، لن يهدأ له بال إلا بعد أن يُغمد خنجره في جسد الذين أذلوه، ولن تغمض له عين إلا باعادة تحقيق حلمه القديم بحكم كل السودان، ولو بالوسيلة التي نقلها عنه الزاحل محجوب عثمان. يظن البعض وهما أن الثرابي مسؤول عن العشرية الأولى وحدها، وأنه تطهر بعد أن لفضه حواريوه كما تُلَفَّظ النواة، لكن الثرابي في تقديري يظل المسئول الأول عن أخطاء وخطايا ربع قرن من الحكم الفاسد. وهو بهذا المعيار يُعدُّ الأسوأ في التاريخ السياسي السوداني الحديث. كنت قد خصصت له في كتابي المذكور أعلاه فصلاً يحاول فض مغاليق شخصيته، وكان بعنوان "طموح مهرة الدم"، الأمر الذي نرى أنه تحقق بمقدار. بيد أنني أرى في الأفق وميض السكاكين الطويلة تلمع في الظلام، في انتظار ليلة ليلاء اتسعت دوائر حاضريها، وزاد احتمال تكاثر ضحاياها. يومذاك، لن يعرف الناس من القاتل ومن المقتول، من الضحية ومن الجلاد. فقط سيدرك البعض - بعد قوات الألوان - أن وضناً كاملاً زحف نحو الهاوية.. فمن ذا الذي يُخبر الثعلب؟!

حاشية: سنبل أحد الظرفاء: هل يلد الثعلب أم يبيض؟! أجاب: والله ده مغار ممكن يعملهم الاثنين!

(٨)

في أعقاب هروبه من السودان إلى إريتريا بما أسماه عملية "تهتدون" في ديسمبر من العام ١٩٩٦، جلسْتُ إلى السيد الصادق المهدي في حوار مُطوّل. سألتُه في إحدى المحاور عن الدكتور حسن الثرابي، الذي كان يومذاك الحاكم بأمره، بل إن المهدي كان قد أعزى كل ما حدث له من سجن وتهديد بالقتل

وإهاناتٍ شخصيّة كانت بأوامر من المُرشّد. وفي الواقع لم يكن ذلك بالأمر الغريب، فقد ظلت العلاقة بينهما ظاهرها الرّحمة وباطنها العذاب منذ أن باعدت بينهما دُروب السياسة بعد طول صداقة. وقد لَحَص المهدي مُؤخَّراً وصف ما بينهما بقوله، في حوار صحافي مع جريدة «السوداني»: «أنا افكر في مشكلة كيمياء بيننا».. بالتأكيد على هذه الكيمياء، نعود لسؤالنا الذي طرحته على المهدي في الحوار المذكور حول شخصيّة الترابي، فقال لي: «أنا اسميه كانديد» وقلت له: من هو كانديد هذا؟! فقال لي: «كانديد بطل في رواية للكاتب الفرنسي الشهير فولتير، كان يُقَبِّح الجميل ويُجَمِّل القبيح»، وقبل أن ترتدّ إليّ اجابته، أضاف: «لو أن هناك أحداً من الناس قَطَّعت رجله، لقال الترابي خيرٌ وبركة، فقد وفَّر ثمن فردة الجزمة»!!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطية وإن طال السَّفر!

٢٠١٤/٨/٣٠

oboi.kan.com

بلاغ عاجل إلى السفارة الأمريكية بالخرطوم

كان أهل السودان ليس فيهم ما يكفهم من النوازل التي تُسقطها العُصبة الحاكمة على رؤوسهم صباح مساء، بحيث لم تبق محنة على وجه الأرض لم يتجرعوا من كأسها المرير. بيد أن هناك أيضاً ممن يدعون الوقوف إلى جانبهم بدعوى مؤازرتهم في بلواهم، وهناك من يُصنّف هؤلاء ويضعهم في مقام الأصدقاء وهم لا يعلمون أنها صداقة أقرب للعداوة، أي ظاهرها الرّحمة وباطنها العذاب. في مقدّمة هؤلاء "الأعداء" تقف السفارة الأمريكية في الخرطوم على رأس من يسومون هذا الشعب الطيّب سوء العذاب. ولعلّ الفرق بينها وبين العُصبة الحاكمة في الممارسات، هو أن العُصبة تمارس هوايتها تلك في الهواء الطلق، وعلى رؤوس جميع شعب السودان، بل لا تتورّع في أن تفعل ذلك داخل بيوتهم وفي غُرف نومهم، وبالطبع لا تستثني من عذابها سوى فئة من الانتهازيين والمنافقين والسّاقطين والذين في قلوبهم مُتسع للانحراف. أما الأولى، وهي السفارة الأمريكية، فهي تمارس نمط آخر من عذابات "طائر الفينيق"، ولكن بفارق أنها تخص به البعض ممن يقتربون من ديارها ويلوذون بحصنها الحصين الكائن في ضاحية سوبا، طلباً لخدمة تُعَدُّ من صميم واجباتها!

على الرغم من الرسائل التي تصل لبريدي من قراءٍ توسّموا خيراً في مساعينا، إلا أنني وللحق أقول، لم أكن أهتم كثيراً بما كان يُقال ويتردّد عن السفارة الأمريكية في الخرطوم، بدعوى إننا ننافح نظاماً ديمقراطياً متسلطاً، وانطلاقاً من مسئوليتنا الوطنية نعمل جاهدين لموازنة الشعب السوداني العظيم في محنته، وذلك بتتبّع سوءات النظام الحاكم وكشف عوارته، برغم ديمقراطيّة الجغرافيا التي تفصل بيننا. وعلى هذا المنوال مضت بنا سنن الحياة، لولا حدوث ما غيّر من لا مبالاة نحو السفارة وتجاوزاتها. فقد تجمّعت لديّ معلومات وملاحظات رأيت ضرورة كشفها وطرحها على القراء، ليس من باب الانفعال بها، بل للتفاعل معها بالطرق الحضارية المألوفة، حتى يعلم القارئ على أمر السفارة جريرة ما يرتكبون من خطايا، سواءً بوعي أو بغفلة، فالأمر في كلا الحالين يستوجب تقويماً يحفظ للمواطن السوداني الذي يقصدها عزّته وشُمُوخه وكبريائه، وهي القيم التي تعلمون أن سهام هؤلاء الكيين الجُدّد انتاشتها قبلاً.

وتعلمون أيضاً - يا سادتي - أن السفارة الأمريكية انتقلت قبل عام أو يزيد إلى مقرّها الجديد في منطقة سوبا بضواحي الخرطوم، وقد شُيّد المبنى الجديد على مساحة تبلغ أربعين ألف متر مربع، ووفقاً لهذه المساحة الجغرافية، وعلاوة على التجهيزات اليدوية والتكنولوجية الضخمة، تُعدّ الأكبر في القارة الأفريقية ومثيلاتها في الدول العربية قاضية، وكذلك تُعدّ ثاني أكبر سفارة أمريكية في العالم بعد سفارتها في هافانا، كوبا. والحقيقة تلك مزية جميلة يستحسنها كل حبيب على الوطن ومصالحه العليا. وذلك من باب أن الاختيار وضع اعتباراً مفقوداً للموقع الجغرافي الإستراتيجي الذي ينعم به السودان، رغم انحسار خاصرته بانفصال دولة الجنوب. ولكن السؤال الذي ينبغي علينا طرحه: هل انعكس ذلك الاهتمام بالموقع على التعامل مع المواطن السوداني، ولا نقول حكومته، فهي ليست المعنية بهذا المقال؟! رغم ما لدينا من ملاحظات أخرى على السفارة في صمتها الخجول عن انتهاكات حقوق الإنسان السوداني التي تتم على مرأى ومسمع من مسؤوليها، وهم ساكتون!

عليه نقول إن ثمة ثلاثة ملاحظات أساسية نسوقها هنا للتدليل على سوء العذاب الذي يعانيه المواطن السوداني من السفارة الأمريكية وبأدلة وبراهين من قراء ملكونا ما بحوزتهم!

• أولاً: على الرغم من كبر مساحة السفارة التي ذكرناها، إلا أنها خصّصت صالة صغيرة حشرت فيها الذين يؤثرون تقديم طلبات تأشيرة الزيارة، بحيث أصبحت لا توجد مساحة كافية بينهم وبين الموظف الجالس خلف النافذة. فما أن يقوم هذا الموظف بتوجيه الأسئلة لمُقدّم الطلب، حتى تصل لجميع اذان الجالسين دون أن يسترقوا السمع أو يتكبّدوا عناء التنصّت. وممّا لا شكّ فيه أن تلك الأسئلة تدرج تحت بند نهج الخصوصية Privacy Policy التي تهدرها السفارة كما تهدر الزلازل ما ظهر على وجه الأرض. والجدير بالذكر، أن مسألة الحفاظ على الخصوصيات لم تُعدّ ثقافة سائدة في المجتمع الأمريكي فحسب، بل هي منحوتة في القوانين والتي استمدّت منها كينونتها وهيبتها واحترامها. حدّثتني سيّدة تقدّمت بطلب لزيارة شقيقتها الحاصلة على الجنسية الأمريكية وتعمل في وظيفة مرموقة، وقالت إنها لم تستاء من رفض طلبها، ولكنها حزنت على خصوصياتها التي أهدرت على مسمع الجالسين، فخرجت مهيضة الجناح من سفارة بلاد ترفع عقيرتها ليل نهار بالحديث عن حقوق الإنسان، على حدّ تعبيرها. ذلك جعل البعض يقتصر في إجاباته أو يتسرّها، أو يتلعثم في الإدلاء بها، الأمر الذي قد يُفسّره الموظف تفسيراً سالباً يصبّ في اتجاه الرفض. وفي تقديري، أن عدم اهتمام السفارة بتخصيص أماكن مغلقة للمراجعين يدلّ على استخفاف واستهانة وعدم احترام لخصوصية الأفراد. ولو أن أحداً من السفارة قال لنا: ليس ذلك من جنس ما تفضّل به حكومتكم عليكم؟! لما وجدنا لقوله هذا بلسماً يُضيد جراحنا!

• **ثانياً:** ثمة طلسماً آخرأ يتقاطع مع حجم السفارة وكبر مساحتها التي ذكرناها. فلأسباب غير معلومة، حصرت السفارة خدماتها لطالبي تأشيرات الزيارة فقط، في حين تقوم - ومنذ سنوات طويلة - بتوجيه طالبي تأشيرات الهجرة أو ما يُسمّى بتأشيرات الفُرعة العشوائية "اللوتري" إلى السفارات الأمريكية في دول الجوار (القاهرة، أديس أبابا، نيروبي) لتكملة إجراءاتهم. بما يعني تكبدهم المزيد من العناء، علماً بأن بعضهم يرجع من حيث أتى بدعوى أسباب كثيرة لا يفيد ذكرها شيئاً. وهذا إجراء تعسفي آخر ليس له ما يبرره سوى تلذذ السفارة بعذاب المواطن السوداني كأن بينه وبينها ثأر، في حين كان المأمول أن تقوم السفارة بشرح أبعاد هذا العناء لحكومة بلادها ممثلة في وزارة الخارجية إن ادعت إنها تقوم بتنفيذ تعليماتها حيال أولئك المعذبين!

• **ثالثاً:** يقوم المواطن السوداني الذي يطلب تأشيرة زيارة بدفع مبلغ وقدره مليون ومائة ألف جنيهه (بالقديم) كما يقولون، وتسمي هذه رسوم إجراءات تأشيرة Visa Processing Fees غير قابلة للاسترداد، حتى ولو رُفِضَ الطلب، علماً بأن الرّفْض هذا يستغرق أحياناً أقل من دقيقة. ومن المفارقات التي يعجز العقل عن استيعابها، أن الشخص الذي تبعثرت رسومه في الهواء لو شاء له التقديم مرّة أخرى فيستوجب عليه أن يدفع نفس المبلغ، بل حتى لو تكرر طلبه ذاك - لأسباب تخصّه - ثلاث أو رباع أو خماس، فعليه الدفع كلما تيمّم شطر نوافذ السفارة حتى يكُلّ جيبه. (ملحوظة: هذا لا يشمل رسوم التأشيرة نفسها إذا تمّت الموافقة على طلبه).. واقع هذه المفارقة الغريبة حدث بي للتحري عن عدد التأشيرات التي ترفضها السفارة يومياً، وقد علمت - دون أدنى مبالغة - أنها تتراوح أحياناً بين ثلاثين إلى أربعين طلباً. بما يعني عاندا لخزينة السفارة يبلغ نحو ثلاثين أو أربعين مليون جنيهه في اليوم الواحد، أي ما مجموعه أكثر من مليار جنيهه في الشهر. وهذا يعني أيضاً أن السفارة تقوم بتغطية تكاليف رواتب موظفيها المحليين وكل بنود صنفها من ماء وكهرباء وغاز وبترول.. إلخ، من ظهر المواطن المغلوب على أمره. وطالما الأمر كذلك، فمن مصلحة السفارة بداهة رفض أكبر عدد من طلبات التأشيرة حتى تضمن دخلاً معتبراً، ولا يغرنكم حال دولة تُعدّ الأغنى والأكبر والعظمى بين دول العالم!

يَبْدُ أن هذا وذاك قادني إلى التقصّي حول أسباب الرّفْض المكثف للسفارة والذي يُعزى كله تقريباً إلى المادة (B ٤ ٢١) من قانون الهجرة الأمريكية، وهي مادة يلوذ بها الموظف الجالس خلف النافذة لأنها تمنحه حقاً مطلقاً في الرّفْض تحت ذريعة تلك المادة دون أن يُسأل عن حيثياته التي استند عليها، وبالرجوع إلى تلك المادة في قوانين الهجرة الأمريكية، نقرأ معاً إنها تطلب من مقدّم الطلب تقديم أدلة قويّة ومنطقية وواقعية تُقنع ذلك الموظف بأنه سيعود أدراجه بعد انتهاء مدة

زيارته. لكن ذات المادة تتحدّ الموظف بأشياء معيّنة، منها على سبيل المثال، معرفة ثقافة المجتمع ومحاولة الإلمام ببعض عاداته وتقاليده وهلمّجراً. لكن ما يجري في السفارة الأمريكية في الخرطوم - وفق أمثلة بحوزتنا تصلح كدلائل وشواهد - تؤكد أن التأشيرات تُمنح وفق أمزجة الجالس خلف النافذة. مثلاً، هل يستقيم عقلاً أن تترك سيّدة في عقدها الخامس أو السادس الزوج ومعه بنين وبنات في طور الزواج لتعيش في أمريكا مهما كانت مغرياتها؟! وطبقاً لهذا المثال، قد يقول قائل من السفارة إن الإجراءات التي غلب عليها طابع الرفض تجيء بسبب الذين يذهبون ولا يعودون.. لكن بإجانة بسيطة، ليس كل الذين يذهبون لا يعودون، فالذين يطلبون تأشيرات الزيارة غالباً ما تكون لديهم أسباباً مقنعة، إما أنهم عجزوا في توصيلها للموظف المسنول، أو أن الموظف نفسه قسّر عن فهم ما يقولون. بل حتى لو افترضنا جدلاً أن البعض ذهب ولم يعد، فالقوانين الأمريكية الداخلية كفيلة بمعالجة تلك الظواهر، علماً بأن الظاهرة نفسها كانت أن تُصبح سنة ماضية بين كثير من شعوب دول العالم، ولم يقلّ أحداً بالضع أن كل السودانيين من جنس الملايكة. وعليه تبقى المسألة برُمّتها خاضعة للتمييز العادل، حتى لا يقول أحد إن تلك سفارة اقتبست من أهل النظام "فنونهم" في تعذيب مواضعهم!

صفوة القول، يؤلمنا دوماً السهام التي تكاثرت على المواطن السوداني حتى لم يعد هناك شبراً سليماً في جسده. ففي ظلّ العُصبة الحاكمة تحوّلت وداعته إلى مشروع إرهابي في المضارات، ومطلوب منه أن يُثبت العكس أينما حلّ. وفي ظلّ لطغمة الفاسدة تحوّلت أمانته إلى شكوك في دُمّته، وفي ظلّ العُصبة المتجبرة تعرّضت شجاعته إلى امتحان عسير، وفي ظلّ العُصبة الفاجرة، كد أن تضعضع احترامه بين الشعوب. دعونا نستردّ معاً بعض ما سرق من قيمه الجميلة. أوصلوا صونكم للسفارة الأمريكية وفق الثقافة الأمريكية نفسها، القائمة على الاحتجاج الحضاري، وذلك باستخدام سلاح الكتابة لها على عنوان بريديها الإلكتروني التالي، لعلنا نحفظ بعض ما بات يتسرّب من بين أيدينا كما الماء!

facebook: U.S. Embassy Khartoum

<http://www.state.gov/contact/>

آخر الكلام: لا بدّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٤/٩/١٣

تجريب المجرب يُعجل بحُلُول النَّدامة!

يَذَلُّونَ إنَّ التَّارِخَ لَا يُعِيدُ نَفْسَهُ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ يُكَرِّرُ غِيَابَهُ. وَزَادَ كَارْلُ مَارْكْسُ -مُطَرِّفُ الْفَلَسَفَةِ الْمَارْكْسِيَّةِ الَّتِي نُسِبَتْ لاسْمِهِ بِقَوْلٍ سَدِيدٍ: «إِنْ أَعَادَ التَّارِخُ نَفْسَهُ فَسَيَكُونُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى مَأْسَاةً وَفِي الثَّانِيَةِ مَلْهَاءٌ»، وَلَكِنْ مَا بَالُنَا نَحْنُ السُّودَانِيِّينَ يُعِيدُ التَّارِخَ وَقَائِعَهُ أَمَامَ نَاضِرِينَا مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ، وَنَحْنُ نَكْرِّرُ غَفْلَتَنَا الَّتِي تَصِلُ أحياناً حَذَّ السَّدَاجَةِ، ذَلِكَ بِالرَّغْمِ مِنَ الدَّرُوسِ الْبَاهِظَةِ الثَّمَنِ الَّتِي وَقَعْتَ عَلَى رُؤُوسِنَا كَحِجَارَةٍ مِنْ سَجِيلٍ. وَالْأَنْكَى وَأَمْرٌ، أَنَّنَا نَغْرُقُ كُلَّ مَرَّةٍ فِي ذَاتِ التَّفَاصِيلِ وَنَتَعَامَلُ مَعَهَا كَمَكْتَشَفٍ جَدِيدٍ، ثُمَّ لَا نَجِدُ بَأْساً فِي التَّعَامُلِ مَعَهَا بِذَاتِ الدَّهْشَةِ الْبُلْهَاءِ. تُدَلِّقُ عَلَيْنَا وَهِيَ تَتَرَاقَصُ أَمَامَنَا فِي خِيَلٍ كَأَنَّهَا تُمَعِنُ فِي إِذْلَالِنَا، أَوْ تَضْحَكُ عَلَى سَدَاجَتِنَا، أَوْ تَرْتِي لِحَالِنَا لِدَرَجَةِ الشَّقَقَةِ. وَالتَّارِخُ الَّذِي يُعِيدُ نَفْسَهُ أَمَامَنَا - يَا سَادَتِي - سَيَّانٌ إِنْ كَانَتْ أَحْدَاثُهُ قَبْلَ عَامٍ أَوْ سَنِينَ عِدَّةٍ، فَالْقَاسِمُ الْمَشْتَرَكُ فِي كُلِّ تِلْكَ الذَّاكِرَةِ كَثِيرَةُ الثَّقُوبِ. بَلْ تِلْكَ اللَّامِبَالَاةُ الَّتِي أَصَابَتْ إِحْسَانَنَا الْوِطْنِي بِالْتَبَلِّدِ وَأَوْرَثَتْنَا أَنْظِمَةَ دِيكَتَاتُورِيَّةٍ نَاءَتْ بِكُلِّهَا عَلَى صُدُورِنَا لَمَّا يُقَارِبُ نِصْفَ قَرْنٍ مِنْذُ الْإِسْتِقْلَالِ، فَأَصْبَحْنَا لَا نَدْرِي هَلْ نَبْكِي أَنْفُسَنَا، أَمْ نَرْتِي وَطَناً ضَاعَ كَمَا يَضِيغُ الْقَمَرُ مِنْ وَرَاءِ غَيُومٍ مَلْبِدةٍ فِي السَّمَاءِ؟! بَتَّنَا لَا نَعْرِفُ لَمَّاذَا نَعِيشُ وَحَتَّى نَعِيشَ؟! تَلَاشَتْ الْأَسْئَلَةُ الْوَاقِعِيَّةُ مِنْ عَقُولِنَا وَصِرْنَا لَا نَعْلَمُ مَا إِذَا كُنَّا سَنَمُوتُ قَضَاءً وَقَدْرًا، أَمْ قَدْرًا وَقَضَاءً؟! تَشَابَهَتْ الْمَعَانِي فِي نَفُوسِنَا، فَلَمْ نَجِدْ بُدْأً مِنْ أَنْ نَعِيبَ زَمَانَنَا وَالْعِيبَ فِينَا، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ.. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَثَمَّةَ سِينَارِيُو يَجْرِي إِعْدَادُهُ فِي الْكُوَالِيسِ لِئُفَرِّضَ عَلَى الْمُتَصَارِعِينَ وَبَيْنَهُمْ وَطَنَ ضَائِعٍ، تَمَاماً كَمَا فَرَضَ ذَاتُ السِّينَارِيُو بِالْأَمْسِ وَتَقَبَّلُوهُ صَاغِرِينَ!

(٢)

دَعَوْنَا نَطْرُقَ ذَاكِرَتَكُمْ وَنَدْخُلَ مِنْ أَبْوَابِهَا، لِنُعِيدَ عَلَى مَسَامِعِكُمْ مَا حَدَثَ بِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ. تَقُولُ الْوَقَائِعُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفِيقَ النَّاسُ مِنْ دَهْشَةِ الْإِنْقِلَابِ الَّذِي تَسْرِبُ بِالْإِيدْيُولُوجِيَا فِي وَطَنٍ مُتَعَدِّدِ الْإِثْنِيَّاتِ وَالثَّقَافَاتِ وَالدِّيَانَاتِ، تَحَوَّلَتْ الْحَرْبُ ذَاتِ الْمِظَالِمِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ إِلَى حَرْبٍ دِينِيَّةٍ جِهَادِيَّةٍ. فَبَيْنَ غَمَضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا، قَامَ نِظَامُ الْعُصْبَةِ الْحَاكِمَةِ، أَوْ تَنْظِيمُ "دَاعِش" فِي نَسَخَتِهِ السُّودَانِيَّةِ، بِتَصْعِيدٍ وَتَسْعِيرٍ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ فِي الْجَنُوبِ بِصُورَةٍ لَفَّتَتْ أَنْظَارَ الْعَالَمِ كُلِّهِ، فَبَدَأَ التَّعَامُلُ مَعَهَا فِي الدَّوَانِرِ الْعَالَمِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا مُشْكِلَةً عَقْدِيَّةً بَيْنَ نِظَامِ

“إسلامي” في شمال البلاد، وحركة “مسيحية” في الجنوب، وإزاء قوّة الماكينة الإعلامية والدبلوماسية والسياسية التي كانت تقف من وراء ستار، لم تجد أطروحات الزعيم الراحل جون قرنق دي مابور نفعاً في التنظير لسودان جديد يكون فيه “الدين لله والوطن للجميع”، ولا “أكليشيات” الحركة الشعبية نفسها بالانضمام للتجمّع الوطني الديمقراطي، الذي يرأسه السيد محمد عثمان الميرغني، وهو في الأصل مرشد طائفة دينية. ومن عجب أن الحركة الشعبية نفسها عندما دان قطف ثمار (نيفاشا)، نكصت على تاريخها الذي مهّرت له عمراً، وقالت على لسان رئيسها – غفر الله له ما تقدّم من ذنبه – من يريد تغيير قوانين الشريعة الإسلامية فليقاتل من أجل ذلك. وكانت تلك أشبه بدعوة من يلقبك في النهر ويقول لك إياك أن تبتّل بالماء، فالذين ناضلوا من أجل ذلك الهدف انحسرت عنهم مظلتهم وأصبحوا أضعف من جناح بعوضة، فلا غرور بعدنّ من أن يبقى الجنوب جنوباً والشمال شمالاً، وافترق الأحزاب كل في طريق!

(٣)

بالعودة للتاريخ القريب في الوقائع والحيثيات التي أفضت إلى نيفاشا الأولى، تقول ثقب الذاكرة إزاء الطرح الأيديولوجي السافر من غصبة الخرطوم، تحسّست كل من أديس ابابا وأسمرا (يوم أن كانا نظامين بطاقية واحدة) خارطة وديمغرافية بلديهما التي لا تخفى على المراقبين. ولأنهما أول من سيكتوي بالنار التي أشعلتها الغصبة، توسّلا طريق “منظمة الإيغاد” وضرحا عليها مشروعاً سُمّي بـ “إعلان المبادئ” Declaration Of Principles في العام ١٩٩٤ لمحاصرة أيديولوجية النظام وشروره. كان الإعلان قد أقرّ بلسان أعجمي مُبين أهمّ بندين ضمن بنوده السبع، وهما تقرير المصير وعلمانية الدولة. ذلك الإعلان – كما تعلمون – استلهم تعقيدات الواقع السوداني الأزليّة وقد جاء في عزّ أوار الحرب ولضاهها، فرفضته الغصبة بدعوى أن ذلك يتناقض ومشروعها الحصارى! ومنذ ذلك التاريخ بدأت “ساقية جحا” في الدوران، تعقد الإيغاد جلساتها وتنفض من دقائنها الأولى بسبب تعنّت النظام وشهوانيته لمزيد من الدماء والالام. ثم دارت الدوائر على الباغي المتجبر في العام ١٩٩٧، وتبعاً لذلك تغير المشهد جذرياً. حدث ذلك عندما قامت القوى المسلحة في “التجمّع الوطني الديمقراطي” بعمل عسكري ضخم، تسبّى لها من خلاله تحرير مناطق واسعة، امتدّت من قرورة أقصى الشمال الشرقي، إلى همشكوزيب في الوسط والكرومك وقيسان في الجنوب الغربي، وكان ذلك بمساندة إقليمية واضحة من الدول التي تحسّبت لواقعها، وبرافعة سياسية ودبلوماسية مقدّرة من المجتمع الدولي المتضرّر من إرهاب النظام. عندنّ تحسّست الغصبة كرسيّتها، فذهب عرابها الخفي “علي عثمان طه” أولاً إلى “مقابر فاروق” حيث قام بدفن “المشروع الحضاري”، ثمّ توجه ثانياً إلى نيفاشا ليقبل بمبادرة الإيغاد صاغراً ويمضي في طريق الالام، رغم نصّ المبادرة على العلمانية التي تتناقض مع ما ادّعوا. لكن هكذا الغصبة لا تحتاج لمن يكشف عن بلاياها ورزاياها، فقد نست ما قالت إنه تفويض من ربّ العالمين فرجحت

الكرسي على الأيديولوجيا. وتلك تداعيات قسّمتها - كما تذكرون - أولاً إلى "قصر ومنشئة" صراعاً على السلطة، ثمّ شيعت المشروع برُمته وقبرته تماماً. عندئذٍ اقتنصت دول أصدقاء الأيغاد "الترويك" الفرصة لتفرض حلولها على النظام بالوقائع التي أفضت إليها نيفاشا الأولى، ولن أرهقك - عزيزي القارئ - بتفاصيل أحداث لم تُح من الذاكرة بعد، حتى نعيد سيرتها الكارثية، فالوطن الذي انخلع ثلثه يقف شاهداً على جُرم ما ينكرون!

(٤)

النظام الذي يستند أصلاً على منسأة سُلّيمان، أصبح جزراً متقطعة سياسياً وأيديولوجياً وتنظيمياً، لدرجة أنك لو سُئلت اليوم عمّن يحكم السودان، لارتدّ إليك سُؤلك وهو حسير. دعك الآن من قول معارضيه، فعبداً الرحيم حمدي وزير ماليته الأسبق، المشارك في الكارثة الاقتصادية القومية يعلن افلاس النظام على الهواء. وعلي محمود وزير ماليته السابق يدمغ فساد النظام بالذي كتب فيه معارضوه حتى كل متّهم. وعلي كرتي سادر في غيّه ولا يلوي على شيء كان الوطن عزبة ورثها من أبيه، والعرابون الذين تواروا عن الأنظار من شاكلة على عثمان طه وعوض الجاز ونافع علي نافع ومن لف لفهم ما زالوا يواصلون مسيرتهم "القاصدة" من وراء حجاب. بل هان الفساد حتى صار يتحدّث عنه حسين خوجلي كُفراً. نحن الآن - يا كرام - نشهد حفل التعري Striptease التي يخلع فيها النظام ما تبقى من "ثوابته" ثوباً تلو الآخر. تلك هي الفرصة التي سيقتنصها المُتريّصون بضغفه من صناع نيفاشا الأولى ليضعوا بين يديه نيفاشا الثانية. وفي واقع الأمر، لم ينتظر النظام الإملاءات حتى تهبط عليهم من عل، فقد بدأ سدنته يشيعون ما اسموه بالمشروع الأمريكي، ووزير الإعلام الوقاظة أحمد بلال يتوهم بأن الإدارة الأمريكية ستقدّم لهم إغراءات برفع المقاطعة الاقتصادية، والمساعد الالمعي إبراهيم غندور يمضي في تكملة السيناريو، ويقول إنهم سيُرفعون من قائمة الدول الراحية للإرهاب أيضاً. وتتوالى الرسائل المتناقضة بغية "التخدير السياسي" الذي يجعل ضمأى السلطة يركضون وراء سراب بقّعة يحسبونه ماء!

(٥)

قليل جداً من المراقبين يعرف ما يدور في خبايا محور الرئيس السابق لجنوب أفريقيا ورئيس الآلية رفيعة المستوى التابعة لمنظمة الاتحاد الأفريقي "تابو امبيكي"، لكن حتى القليل هذا لا يعرف غير أخبار متناثرة عن المبعوث ورهطه، الذين وُضعت تحت أيديهم امكانات ضخمة، بطائرة تقلهم حيثما شاءوا ووقتما أرادوا، وطاقم من المساعدين في تخصصات لا حصر ولا عدّ لها، وفريق سكرتاريا يستجيبون لمن يأمر من قبّل أن يرتدّ طرفه، ثمّ حُرّاس أشداء غلاظ لحماية المبعوث من شرّ حاسد إذا حسد. وفي الكواليس، كان هناك وطنٌ عظيم تضاعل شموخه، تنعي فيه طائرة امبيكي عجز القادرين على التمام في غدوها ورواحها. أما النظام - كما تعلمون - فقد برّع طيلة ربع قرن في شراء الذمم،

وله في ذلك مذاهب شتى، فهم يَعْرِفُونَ كيف يتحاليون على المصطلحات، فالرشوة صارت مكافأة، والزبا أصبح جبر الضرر، والفساد بات رزقاً ساقه الله عليهم، والكذب والخداع والنفاق آليات فقه الضرورة. يَبْدُ أن الغرض من تلك الرحلات المتكررة إشاعة الملل بين الأطراف المتصارعة بغية خضوعها وتهينتها لتقبل أي مشاريع تسوية لا تتضمن المحاسبة، وهي الكلمة التي يخشاها النظام ويخاف عقابها، وتتحرى المعارضة فجورها وتقواها!

(٦)

بدأت حلول "القطاعي" - كما يقول الثَّجَّار - بتوقيع اتفاق في باريس، وهو اتفاق لو تعلمون عظيم، لأنه جعل السيد الصادق المهدي يُقَدِّم على خطوة دراماتيكية تتناقض تماماً وخطواته المترددة حيال النظام الحاكم منذ أن اقتلع منه السلطة في الليل البهيم. أما الجبهة الثورية، فهو يتسق تماماً مع أطروحاتها، لكن هناك من نظر للاتفاق بعيني صقر. إذ التقط امبيكي لغة الإعلان وعمل على إعادة صياغتها وقولبتها وطرحها في ثوب خلب به ألباب الناظرين. ثم قام بتوجيه دعوة لأحد طرفي "اتفاق باريس" وهي الجبهة الثورية، وأخرى ممثلة في النظام الحاكم الذي تحايل عليها درء للشبهات حتى لا يقال إنه جلس مع الجبهة الثورية. فابتعث موفدين يُقال عنهما سياسياً - بلغة أهل السودان الدارجة - ذات ما يقال بايولوجياً عن المولود الذي يجمع بين نوعين (خُنْث مُشْكَل) إذ أنهم جمعوا بين النقيضين أيضاً حتى يلتبس الأمر على المراقبين وبصعب إدراجهما في أي موقع. فالدكتور غازي صلاح الدين، عطَّارٌ خرج من حظيرة النظام نظرياً بدعوى إصلاح ما أفسدته عُصْبته، وعملياً ما زال يدور في فلكهم. أما أحمد سعد عمر فهو يمثل نظام الأبالسة ويعتلي منصباً وزارياً مهماً في سنامه، وفي نفس الوقت فهو يتحدث بلسان "الحسيب النسيب" الذي يظهر في الثواني الأخيرة كما اللاعب رقم ١٢، الذي يعرفه مشجعو كرة القدم. واقع الأمر أن "مولانا" الميرغني هذا يعيش في كنف نظام ويريد إسقاطه في نفس الوقت، يشارك فيه ولكنه يمد حبال الوصل مع الجبهة الثورية المعارضة بالتوم هجو الذي هجره، وبالطبع تلك طلاس أعيت من يداويها!

(٧)

نعود لامبيكي ورهطه، بعد أن دعا النظام بممثليه الأملحين من جهة، والجبهة الثورية بتركيباتها الفسيفسائية من جهة أخرى.. ظن أمبيكي أن "كل الصيد في جوف الفرا"، كما تقول العرب العاربة. فامبيكي الذي تعلم أساليب الخواة من النظام من كثرة ما جلس مع سدنته، أعد ورقة ونسخها حذوك السطر بالسطر، ليمهر كل طرف واحدة بتوقيعه، ثم جعل توقيعه القاسم المشترك بين الورقتين. ويبدو لي أنه في غمرة السرور الذي اجتاحت الموقعين في يوم ٢٠١٤/٩/٤، لم ينتبه أحد إلى أن أمبيكي فرغ "إعلان باريس" من محتواه الحقيقي، ففي النقاط الثمانية التي أعدّها وتمّ التوقيع عليها، لم يذكر - لا في السر

ولا الجهر- ما ذكره "إعلان باريس" في نقطته الخامسة تحديداً، والتي تقول: «اتَّفَق الطرفان على مبدأ عدم الإفلات من العقاب وتحقيق العدالة والمحاسبة ورفع الظلم ورد الحقوق»، بل لم يجتهد في أي مقارنة أخرى لهذا النص تجعل القلوب مطمئن في أكنتها، وتؤكد في الوقت نفسه عدم مكافأة المجرم على الجرائم التي ارتكبها على مدى رُبع قرن وسال فيها الدم أنهاراً والدمع مدراراً. لذلك نعيد ما ذكرناه سابقاً في أن أي تسوية تتجاوز "المحاسبة" هي في مبتدأها ومنتهأها محض إعادة لإنتاج الأزمة. فـ"المُحاسبة" وحدها هي العَصَا السحرية التي ستكشف الأعياب الحواة وستلقف ما يافكون!

(٨)

للمجتمع الدولي أيضاً أجندته الخاصة طبقاً لمصالحه. ويجب أن نعلم نحن السودانيون أن أجندة المجتمع الدولي لا تضمن المحاسبة، بل تسعى بقدر الإمكان للحؤول دونها، وبنفس القدر لا تتضمن الديمقراطية بالصورة التي تمنيناها وناضلنا من أجلها دون كلل أو ملل. وأود أن أشير هنا إلى أن ثمة قضيتين تعلوان أجندة المجتمع الدولي دائماً، الأولى وقف الحرب، والثانية ضمان تدفق المساعدات الإنسانية. من أجل هذا وذاك، لم يكن غريباً أن تتدافع الأيدي لمساندة خطوة امبيكي. ففي اليوم التالي مباشرة ٢٠١٤/٩/٥، أصدر الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون بياناً رَحَّب فيه بالاتفاق من قبل أن يجفَّ حبره، وكذلك فعلت الخارجية الأمريكية، وزادت سفارتها في الخرطوم ودول الترويكما بتعميم بيان استلهم ذات المعاني، ولم يدع الاتحاد الأفريقي الفرصة تفوته دون ترحيب بالخطوة، وكذلك فعلت الجامعة العربية الصامت الأكبر، وهل سافسد عليك "صيامك" يا عزيزي القارئ لو قلت لك أن نظام الأبالسة نفسه أبدى ترحيبه وسعادته بالخطوة! إذاً فقد أصبح المسرح مهياً لإعداد مذبج نيفاشا الثانية. فالنظام تخلخلت منظومته وتكاثرت مشاكله الداخلية واشتدَّ عليه الحصار الاقتصادي الخارجي، والمعارضة سواء المسلحة أو الحزبية، حالها يُغني عن سؤالها، فما الذي تبقى؟!!

(٩)

بالطبع تبثَّت إرادة الشعب السوداني الصابر. فإذا مضت الأمور وفق ما خطط لها في الكواليس، أقول لك إننا سنجد أنفسنا أمام سيناريوهين لا ثالث لهما: الأول، إعادة نسخ نيفاشا الأولى بذات الوقائع التي جرت من قبل، ولو شئت تبسيطاً يشرح ما التبس عليك، سأقول لك ضع تابو امبيكي مكان هيلدا جونسون التي رفعت اتفاق نيفاشا الأولى بلا عُمْد.. ثم ضع الآلية رفيعة المستوى مكان منظمة الإيغاد، ثم ضع أديس أبابا مكان نيفاشا.. ثم لن يُرهقك الممثلون من الجانبين ولا المُساندون من وراء حجاب.. أما السيناريو الثاني، فيمضي في اتجاه تفاؤلي بأن توخِّد القوى المعارضة نفسها وتترك خطورة المنزلق، ثم تعمل جاهدة وبارادة وطنية غالبية في الوقوف ضدَّ مشاريع التسوية التي تهدف لقسمة ضيزى،

وتعيد انتاج الأزمة وتكافئ المجرم على جرائمه.. إنه السيناريو الذي ينحاز
لطموحات وأحلام هذا الشعب الصابر، ويؤدي الوفاء لدماء الشهداء التي أهدرت
في دارفور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق وشرق البلاد وشمالها ووسطها
وكل المدن التي لم تسلم من الأذى!

أما أنا - يا سادتي الكرام - فما زلتُ "أؤمنُ بالشعب حبيبي وأبي" الذي
سيفرض حلوله المُجربة، حتى لا تحيق به الندامة!

آخر الكلام: لا بد من الديمقراطية وإن طال السفر!!
٢٠١٤/٩/٢٦

أسرار في الهواء الطلق!

(النص الكامل للوثيقة الخطيرة)

لا أدري ما الشعور الذي يمكن أن ينتاب مُطالع هذه الوثيقة بعد الفراغ من قراءة محتوياتها. أما أنا، فلو سُلِّتُ سأقول إن ثمة مشاعر شتى تملكنتني، بل حاصرنتني ولم أستطيع منها فكاكاً.. أدناها الغضب والإحساس بالذِّلِّ والمهانة، ويمكن للمرء أن يستبطن ما الذي يمكن أن تُسفر عنه عاليها إن شاء تخیلاً. تعلمون أن العالم هذا يعج بالأنظمة الشمولية والديكتاتورية، ولكنني على يقين أنك بمجرد أن تنتهي من تصفح هذا المحضر حتى تدرك بيقين كامل - قياساً بالقيم التي داسوا عليها والأخلاق التي وأدوها والمثل التي هُشموها - أننا ابتلينا بأحط أنواع الديكتاتوريات وأسوأ الأنظمة الشمولية. وأنا أعلم أن المخلصين مثلك - يا عزيزي القارئ - جافى الفرح قلوبهم، وصارت الأعياد في عُرفهم محض وقوف على الأطلال كما شعراء الجاهلية. بعضنا ظلَّ يُرَدِّد بيت المتنبي الشهير حتى كاد أن يصبح كتاباً مُقدَّساً. ومِنَّا من يتساءلون: كيف نحتفل بالأعياد في بلدٍ تَنَحَّرُ فيه الرِّقاب كما تَنَحَّرُ الأضاحي نفسها؟! ويستعجبون من فقر حاصرهم وطال السواد الأعظم رغم الموارد التي أعجزت الرَّاصدين؟! فلا غُرُو بعدنَّ أن صارت المناسبة الجميلة مجرَّد ذكريات تقبع في الخاطر، تحاصرها الأماني الشريدة وتطاردها الرغائب طمعاً في تصيُّدها. مع كل ذلك، أرجو ألا تبتئس - يا قارني الكريم - فأنا أضع بين يديك ما يبدد حزنك، وما لن تستطيع معه صبراً!

(٢)

شرعت 'الراكوبة' في الأيام الفائتة في نشر محضر اجتماع اللجنة السياسية والعسكرية، والتي تُعدُّ أعلى سلطة أمنية في هرم دولة الغُصبة الحاكمة في الخرطوم. بما يعني أن الذين أمَّوا الاجتماع يظنون أن تسريب أسرارهِ أمرٌ دونه خُطُ القِتَاد، فلا غرابة إن تحدَّثوا ساعتئذٍ بالسنة مطمئنة تشي إلى أن أسرارهم في بئر كما يتوقعون. بيِّد أن القُرَّاء الكرام يعلمون أن كشف أسرار الغُصبة ليس أمراً جديداً، بالنسبة لنا على الأقل. فقد سبق وأن جرَّبْتُ تلك "السياحة" الممتعة بعد أن اخترقت مصادري الخاصة جهاز الأمن والاستخبارات، والذي يتراءى للناظرين أن أسرارهِ في حصن حصين. فإذا بها فرضية كشفنا خطلها يوم أن اجتازت مصادري "الليل والأسوار"، كما قال سميح القاسم، ولم تخترق أسوار

الجهاز فحسب، وإنما دخلت حتى مكتب مديره "صلاح قوش" يومذاك، ومدّتي بصيد ثمين ضمّناه كتاباً صار مذبولاً للقراء تحت مُسمّى "الخنوق.. أسرار دولة الفساد والاستبداد"، ولمثل هذا يفخر المرء ويقول: ليس بعد الكُفر ذنب.. لماذا؟! لأنني بعددِ بَتٍّ على قناعة كاملة أن هذا النظام ليس سوى هِرٍّ يحكي صولة الأسد، وما استطالت سنواته إلا ظروفٌ كثيرة أسهبنا في رصدها وأصبحت معروفة لكلّ المراقبين!

(٣)

دعونا في البداية نعطي البروفيسور إريك ريفز حقه الذي لم ينتظره. فهو كما يعلم البعض أحد قلة من الإنتلجنسيا الأمريكيين المهتمين بالقضية السودانية وتسعّباتها. وقد نذر نفسه لنحو ثلاث عقود زمنيّة وهو يرفد المكتبة بمؤلفات تناولت الشئون السودانية المختلفة. وبفضّل ذلك صار مرجعاً أساسياً لمن يطلب مشورته ويستأنس بأرائه من كل الإدارات الأمريكية المكوّنة لجهاز الدولة. وقد شهدته الناس كثيراً وهو يدلو بشهادته أمام لجان الكونجرس في شأن التّبس عليهم أمره. كما أنه ظلّ يساهم بفكره النّير في حقل التدريس، حيث يعمل استاذاً للغة الإنجليزية وأدائها في كليّة سميث في نورثامبتون بولاية ماساتشوستس الأمريكية. كما أنه يشارك من حين لآخر في ندوات وسمنارات وورش عمل مع منظمات المجتمع المدني المعنيّة بحقوق الإنسان وانتهاكاتها. وله العديد من المقالات والدراسات في الصّحف والمجلات والدوريات الأكاديميّة. وعليه فإن الذين تابعوا مسيرته الغنية هذه، يعلمون تماماً أن مثله لا يمكن أن يغامر بسمعته وتاريخه الوضيء ليقع في شرك وثيقة لا يعتد بها، ناهيك أن تكون مزوّرة. ولكن دع عنك هذا وأسمع مني ما يُدمي فؤادك إن كنت ممّن أدمت الغصبة أفئدتهم في 'الأصل، ففي محاضرة له بواشنطن مؤخراً، كشف إريك ريفز عن معاداته من مرض السرطان، وقال إنه يتمنى ألا يرحل من الدنيا: «قبل أن يرى شعب السودان وقد نال حقوقه وحرّياته».. فهل بعد ذلك قسمٌ لذي حَجَر؟!!

(٤)

الذي حدث، أن مصدراً وصفه إريك في صدر وثيقته بأنه محلّ ثقته واحترامه، أمّده بهذه الوثيقة التي وضع لها عنواناً من لدنه: "النظر مباشرة في قلب الظلام.. فيما يفكر نظام الخرطوم؟!". وقال إريك إنه تصوّر في ترجمة تلك الوثيقة من اللغة العربيّة إلى اللغة الإنجليزيّة، وصدّرها بمقدّمة وتعليقات على بعض الوقائع. وأخيراً وصلت وثيقته تلك، والمكتوبة باللغة الإنجليزيّة إلى موقع 'الراكوبة' وهو الموقع الأشهر والأكبر في تناول الشئون السودانيّة، ويتمتع بمقرونيّة قياسيّة ومتميّزة. وبدورهم، اجتهد الزملاء المشرفين على الموقع في فترة زمنيّة قصيرة بترجمة الوثيقة من اللغة الإنجليزيّة إلى اللغة العربيّة، انطلاقاً من وطنيّتهم واستناداً على مهنيّتهم. أي أعادوها لسيرتها الأولى. وبالرغم من أن ذلك جهدٌ لا يمكن لأي إنسان الانتقاص من قدره، إلا أن الأمانة في الترجمة هُذبت وشُدّبت لُغتها مهنيّاً لدرجة باتت لا تشبه لغة "البلطجيّة" التي تحدّثت بها

العُصبة في الاجتماع المذكور. كذلك فإن الترجمة - وفق ما أشار الموقع - اكتفت بنماذج نظراً لطول الوثيقة، الأمر الذي جعل بعض الأجزاء المهمة تضيع في خضم الاختصار، ونسوق لذلك مثلاً بقول غندور إنهم تفقوا: «مع حزب الثرابي على منحهم ثلاثة مليار مقابل ضمان مشاركتهم في الانتخابات»، وهو وإن كان قولاً يندى له الجبين، لكنه لا يحرك ساكناً، لا في الطالب ولا المطلوب. كذلك فإن النماذج المنتقاة أوحى لنا أننا المحضرون غير مترابط، وهو وإن كان أمرٌ طبيعي، إلا أنه حداً بالبعض أن يرمي بشباك التشكيك. وطبقاً لذلك - يا عزيزي القارئ - وقطعاً لدابر هذا وذاك، فنحن نطرح أمامك الوثيقة الأصلية بتلخيصها الكاملة، وأرجو أن تكون صبوراً وتمنحها قدراً من وقتك، ومن ثم أسألك أن تتأمل في الحال والمآل الذي ينتظرك وينتظر وطناً «باسمِهِ كُتِبْنَا وَرَظْنَا» كما قال الراحل العظيم!

(٥)

في ظني - وليس كل الظن إثم - أن ذات المصادر التي أمدتني بهذه الوثيقة، قد تكون هي التي أمدت بها إريك، وهذا مجرد اجتهاد لن يزيد أو ينقص مما نحن بصدد حبة خردل. وعوضاً عن ذلك، سندلف للسؤال الأهم، والذي أحاول أن أعين القارئ على فك طلاسمه، والذي يقول: كيف تسربت هذه الوثيقة في أقل من أيام معدودات من انعقاد الاجتماع لنظام ديكتاتوري قمعي؟! وبالطبع ليس هنالك مجال للمقارنة مع "الدول المحترمة" التي جرى عُرفها ألا يتم الكشف عن مثل هذه الوثائق إلا بعد عقود زمنية. أقول قولاً هذا، وفي ذهني الافتراض الذي تحدثت عنه كثيراً في مقالاتي، وهو أن النظام الحاكم بات مجرد جُرر متقطعة، لا يوجد بينها رابطٌ سياسي أو تنظيمي، أو حتى أيديولوجي، عدا فقه المصلحة التي تُولف بين قلوب سدنته. وتبعاً لذلك، فنحن نفترض في مُسَرِّبها أنه يحمل الصفة القيادية بين عُصبتة، وقد يكون من حاضري ذاك الاجتماع أو خارجه. بمعنى أنه يصعبُ على موظفي السكرتاريا الصغار فعل ذلك، للخطورة التي يتسبب بها عمل كهذا، تصل عقوبته لقطع الرقاب. وفي تقديري أيضاً، أن هذه الوثيقة لم يُرد مُسَرِّبها أن تشق طريقها وتجتاز الحدود، ولكن يبدو أن يداً من الأيدي التي رفعتها - ربّما بينها مصدري نفسه - هُم من قذفوا بها عبر الحدود، ليتلقفها إريك ابتداءً وشخصنا الضعيف انتهاءً. أقول ذلك، وفي الخاطر عبارة ما زالت ترن في أذني، قالها لي الدكتور حسن الثرابي عندما جالسه قبل ثلاث سنوات في منزله بالمنشية. وجاءت العبارة في خضم غضبه على حواريه، الذين رموه في الجُبِّ، حيث قال: «يا أخي أنا أجلس معهم في كل ركن في هذه الدولة».. وبالطبع اللبيب بالإشارة يفهم.. كما يقولون!

(٦)

سيطالع القارئ وثيقة أصلية مُصَوَّرة من الأصل بحذافيرها، ولو أنك دققت في هذه النسخة، ستعرف بعين بوليسية فاحصة أن الذي صوّرها فعل ذلك على عجل، وهو ما يمكن تبيّنه في عدم مراعاته الدقة في النسخ، بحيث ظهرت

الصفحات مائلة في بعض الحالات، وهو احتمال يُعزِّده افتراض أن الوثيقة سلِّمت من يد إلى أخرى، ولم يكن للتقنية الحديثة (كأجهزة التنصت مثلاً) فيها أي نصيب. ثمة ملاحظة أخرى، نقول إن الوثيقة هذه كُتبت عليها تاريخ ٢٠١٤/٩/١، أي اليوم التالي للاجتماع، بما يعني أيضاً أنها في الغالب فُرِغت من جهاز تسجيل. وهذا يتضح كذلك في اللغة الدارجة السودانية التي كُتبت بها، حيث يصعب احتمال أن يكون من بين أعلام العُصبة من هو ماهرٌ في الطباعة أو الكتابة الفورية. وهذا بدوره يُعزِّز تصوير عدة نسخ لُئِلم لأرشيف أكثر من جهة مثل، جهاز الأمن وجهاز الاستخبارات العسكرية، بل إن من العُصبة من يحلو له التباهي بامتلاك مثل تلك الوثائق في منزله لأسباب لا تخفى على المُتابع. ودعني أزيد بملاحظة ثالثة صغيرة.. فمن باب الاستخفاف والإزدراء، أرجو من القارئ الصبور أن يُمعن النظر في تلك الأخطاء الشنيعة، حتى في كتابة اللغة الدارجة، ناهيك عن الفصحى التي فُطِست تفتيساً، وبعد هذا يسألونك عن التعليم وتدهوره في عهد الأبالة؟!

(٧)

ثمة ملاحظة أخيرة، وددت أن أفرد لها محوراً آخر، لأنها أحرزنتني وأوجعتني بالرغم من كثرة السهام التي انتأشتنا بها العُصبة ولم تترك في البدن مساحة لمُستزيد.. هذه الملاحظة جاءت تأكيداً لأسوأ ظاهرة رسَّختها العُصبة في الجسد السوداني المفلول، على مدى وجودها في السُّلطة. فكلنا يعلم أنهم جعلوا من القبليّة ديناً ومن العصبية محجاً، وأنهم استخدموها نهاراً جهاراً بغية الحفاظ على السُّلطة وتثبيت أركانها بخضوع تامٍّ لهم، الأمر الذي نتج عنه تفسُّخ النسيج الاجتماعي وتحلل الروابط الأسرية وتهتك القيم والمثل والأخلاق. من هذه الزاوية.. هل تمعنت يا عزيزي القارئ في الأربعة عشر كوكبا الذين ينتمون لـ"مثلث حمدي" تحديداً دون سواهم؟! وحرى بذلك أن يُسمّى "اجتماع المجرمين والبلطجية"، فقد كانت لغة القتل هي القاسم المشترك بين كل المتحدثين.. يكاد المرء يتحسّس الدم الحرام وهو يسيل من بين السطور، وهو ما سيُزهدك حتماً في دماء الأضاحي الحلال.. إن استطعت إليها سبيلاً!

فإلى نصوص المحضر..

آخر الكلام: لا بد من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠١٤/١٠/٣

**وقائع اجتماع اللجنة الامنية والعسكرية المنعقد بكلية الدفاع الوطني يوم
الاحد الموافق ٥ ذو القعدة ١٤٣٥ هجرية بتاريخ ٣١ اغسطس ٢٠١٤**

- ✧ رحب الفريق اول بكري بالحضور
- ✧ عرض تفصيلي وتحليلي عن بيان الجبهة الثورية ٢٠ الي ٢٥
- ✧ التقارير عرض اعلان باريس بين المهدي والجبهة الثورية ١٨ اغسطس
- ✧ والانشطة تقارير عن تحركات الصانق المهدي ولقاءاته بالقاهرة والامارات
واديس ابابا
- ✧ تقارير الرصد والمتابعة عن نشاط قيادة التمرد واتصالاتهم ومقابلتهم
✓ الاجندة
- i. بيان الجبهة الثورية واعلان باريس واثره
 - ii. محاور المماتعة والاعتدال والنشاط الشيعي في السودان
 - iii. امبيكي ودوره في القضايا السودانية
 - iv. الانتخابات والحوار والتفاوض الالوية
 - v. مشروع السودان الجديد واثره علي الامن القومي و النشاط
الاقتصادي

- ١) الفريق اول بكري حسن صالح النقيب الاول
- ٢) الفريق اول عبدالرحيم محمد حسين وزير الدفاع
- ٣) الفريق اول محمد عطا مدير جهاز الامن والمخابرات
- ٤) الفريق اول هاشم عثمان الحسين مدير عام قوات الشرطة
- ٥) فريق اول هاشم عبد الله محمد رئيس هيئة الاركان المشتركة
- ٦) فريق مهندس عماد الدين عدوي رئيس اركان العمليات المشتركة
- ٧) بروفييسر ابراهيم غندور نائب المؤتمر الوطني
- ٨) فريق يحي محمد خير وزير الدولة بالدفاع
- ٩) فريق صديق مدير الاستخبارات والامن
- ١٠) فريق امن الرشيد فقيري مدير الامن الشعبي
- ١١) عبدالله الجبلي منسق عام الدفاع الشعبي
- ١٢) عبدالقادر محمد زين منسق الخدمة الوطنية

(١٣) فريق امن صلاح الطيب مفوض الدمج والتسريح

(١٤) د. مصطفى عثمان ١٠٠ الامين السياسي

د. مصطفى

لدينا ازمة اقتصادية تحتاج لمعالجات جذرية تخفض معاناة المواطنين وخلق بدائل للسيطرة على السوق . وخاصة اننا مقبلون علي انتخابات وحوار وطني ما دايرين يتم استغلالها من ضعاف النفوس في اثاره مظاهرات كما حدث في سبتمبر الماضي . وتتشكل الازمة السياسية من افرازات مشروع السودان الجديد والذي صمم علي العنصرية والقبلية واستمرار الحروب وخلق جنزالات حرب . فصل الجنوب ثم اعد دورة الحرب في الدولتين علي عنصري وهذا يجب التصدي له ومنعه من الانتشار وشكل ازمة تهديد مباشر ووقف الاستثمار . تبعاً لمؤشرات الاقتصاد ويغذيها الحرب الدائرة في دار فور والمنطقتين وعوامل داخلية جراء الاقتتال القبلي بدارفور وكردفان . مضاف اليه تحركات الجبهة الثورية باوربا وانيس ابابا . وتأثير ذلك علي المعارضة الداخلية . والحوار وعلاقتنا الاقليمية والدولية . وهل نحن نخفي العيب يبرطع ويتلاعبوا بامننا القومي ومستقبلنا السياسي مع الاحذ في الاعتبار كل هذا الجولات هدفها واحد تدمير مؤسسات الدولة التي بنتها الانفاذ وتصفية حكم الاسلاميين واعادة هيكله الواقع السياسي وتقديم كل قادة الحركة الاسلامية الي محاكمات . وافشل الانتخابات لحسابات تخصصهم . . ولا بد من دعم امبيكي في كل المجالات . لكن غير متعائل يتفقوا مع طرح امبيكي لقناعة بان كل الحركات تبنت مشروع السودان الجديد . .

بطبيعة الحال كان لا بد من اجراء تحليل للازمة التي سقها تفكيك الانقاذ من خلال الحكومة الانتقالية والتي تشرف علي مؤتمر دستوري وفق «اعلان باريس» ، كخطوات سياسية عديدة لاكمال خطة حصار المؤتمر الوطني . وتتوزع هذه الخطوات ما بين الحصار الاقليمي والدولي والداخلي ، باستخدام الصادق المهدي لكون ان يستصحب مصالح حزبه وقياداته في الحراك المعارض الهدام والمضيء .

«اعلان باريس» الذي تم توقيعه مؤخرًا ، يعتبرونه واقعا سياسيا جديدا في الازمة السياسية ، يشكل لهم لاسقاط نظام الحكم ، بل المنخل للحوار الوطني والتأسيس عليه لاعادة هيكله الدولة . هذا الامنية التي ترداد لتتحقق الوقت نحو توحيد المعارضة ، ومن ثم اتخاذ القرار . لاسقاط الحركة الاسلامية ، انهم محكومين بسبق زمني محدود . لافشل الحوار الداخلي والانتخابات ، خوفا من اخذنا الشرعية لخمس سنوات ، وتحويل عملية الانتخابات الي فتنه ، وتبدل اوراق اللعبة

السياسية وانفلات امني لا تستطيع الحكومة السيطرة عليه ، وتكون الجبهة الثورية قد حققت اهدافها من خلال استخدام الاحزاب في تدمير السودان دون وعي ومعرفة ودراية بمخططات الجبهة الثورية وداعميها . . . وابدانا خطوات لافشال كل خطوة تقوم بها حركات التمرد . . . سياسيا واعلاميا ودبلوماسيا لاربائك حساباتهم . . . عمل علي الالتقاء بكل الاحزاب الموالية لنا واتفقنا معهم علي واحد اهداف مشترك تقام الانتخابات في مواعيدها واشتراكهم فيها وزيادة الدعم المالي لهم لمقابلة صرف مؤتمرات الحوار والانتخابات . . . مع التاكيد علي العمل المشترك . . . من التفويض حول المنطقتين فقط ومنبر الدوحة لدارفور . . . ورفض نقل الحوار للخارج ويكون داخليا تحت رئاسة الرئيس . . . وعدم الاعتراف بالجبهة الثورية ومواصلة تحرير المناطق المحتلة وتاكيد قومية القوات النظامية وتغيير الصورة النمطية لقوات الدعم السريع وتشجيع الشباب للانضمام للقوات المسلحة . . . والاحزاب المعتدلة كافية لاعطاء الشرعية . . . والمعارضة قوي الاجماع دايرين نحفظ بهم كده لتجميل وجهنا امام الراي العام الدولي والاقليمي . . . ونقول في معارضة في الداخل ومافي زول سلمهم ونمتقيد من التناقضات الموجودة بين الصادق المهدي وقوي الاجماع والقوي الغير منضمة لتحالف كاودا بالذات هيمنة الحركة الشعبية علي التنظيمات المسلحة . . . واما اجتماعات اديس ابابا مع الحركات المسلحة هي علاقات عامة ونحن مافي جهة بتلزمنا للتفاوض معاه موحدين . . . ومن اراد التفويض عليه الذهاب للدوحة او اديس ابابا للمنطقتين . . . والحوار بالداخل وفق شروطنا وضع السلاح . . . رغم قلنا ممكن الاحزاب المشتركة في الحوار ممكن يقبلوا حملة السلاح لاقعهم الحضور للداخل دون شروط مسبقة . . . واقتصادنا يحتاج لوقفة وهناك عقبات واثاء وجودي بالقاهرة قبلت العديد من المسؤولين وتحديثنا في موضع العلاقات والعوائق والمصريين خالفين من الاخوان الموجودين بالسودان وانا قلت لهم اوقفوا نشاط الحركات المسلحة والمعارضين ممكن نعمل تجاهكم وممكن نحجم نشاط الاخوان . . . والاخوة الخليجيين اشكوا من انتشار المذهب الشيعي وتمدد ايران بالسودان ودولنا ترفض الاستثمار في السودان . . . وقالوا نحن دايرين توازن معهم . . . طبعاً ان في رايي الشخصي علاقتنا مع ايران استراتيجية في مجالات الامن والدفاع . . . اما فتح مراكز ثقافية في اكثر من ٢٠٠ مركز لنشر الدعوة الشيعية هذا ولد العديد من المشاكل وسط المجموعات الاسلامية المتطرفة وخاصة نحن عندنا تيارات سلفية تنتمي لجماعات في كل العالم . . . دايرين موازنة بين العلاقة مع دول الخليج وايران ويمكن ظاهرياً نتعامل مع الخليج والعمل الاستراتيجي مع ايران وتدار بسرية كاملة في نطاق محدود عبر الامن والاستخبارات وتسير الدبلوماسية كما هي . . . وانا جيت جلست مع الرئيس واديتّه تقرير في كيف نطور علاقتنا مع دول الخليج دون

المسلس بجوهر تحالفنا مع ايران . وقلنا ننشاور مع القيادة الايرانية . والرئيس قام بدوره وكلف كل بدوره . وتوصلنا الي ايفاق التئشير للحسينات دون المسلس بالمستشارية الثقافية بالمفارة والبعثات وممكن نكسب دول الخليج ونكون قريب منهم ونعرف هم بفكروا كيف . وهل جادين في دعنا ولا دي مؤامرة دايرين يخرسوا علاقتنا مع ايران ويكمنفوا شهرنا للعدو . وفي كلي الحالتين ايران تستفيد ونحن نعرف . محور الاعتدال ونبني سياسة حقيقية في التعامل مع هذا المحور . وايران لدينا معها اتفاقيات امنية وسياسية ممكن ترفض تجربة التلويح لدول الخليج بعلاقات جديدة وخاصة السعودية خيفة من الوجود العسكري الايراني بالسودان واذا شعروا باي خطوة ربما دفعوا الاستثمار وفتحوا البنوك السعودية لاعتماد البنوك السودانية والاقتصاد تضرر بعدم وجود ضمانات لتحويلات المغتربين والمصدرين والموردين .

ترتيب الاولويات سريعاً، والمضي نحو امتلاك زمام المبادرة لقطع الطريق امام كل المؤامرات التي تحاك ضدنا . حتي نجعل مجرد التفكير لخيارات الاطاحة بنا صعبة، وان تكاليف التداعيات المصاحبة لا ي محاولة لاسقاطنا مكلفة وباهظة الثمن وان يقيم عليها او يخرج بظاهر بها يدفع حياته ثمناً لها، لذا الفرصة الموجودة عندنا هي الحوار المفضي لاتفاق لقيام الانتخبات في موعدها ولا تاجيل مهما كانت الاسباب . والاتحاد الاربوي مؤيد لحوار والتقيت كل سفرائه وايدوا جميعهم الاصلاحات السياسية . وتبرعوا بـ ١٨ مليون دولار لدعم التعليم . بدارفور وطلبوا زيارة الي دارفور قلت ليهم مافي مانع

❖ فريق صلاح الطيب

اؤمن علي ما ذكره الاخ مصطفى يجب ان نفصل بين علاقتنا الامنية والعسكرية مع ايران وان لا تنتشر علاقتنا مع السعودية والامارات دبلوماسيا واخويا . وخاصة بعدما ظهرت علي السطح سياسة المحاور . وان ثلاثة مليون سوداني يعملون بدول الخليج . اما تحركات الحركات المسلحة والامام قالو المودر بفتح ختم البقرة . الناس ديل راحت عليهم ما عرفوا يمشوا وين باريس ما نجحت جاموا اديس ولسع ماشين افريقيا . المهم في الكلام القوة علي الارض الناس ديل فقدوا كوا وقيادات ميدانية . ونستمر في تفكيكهم . ونحن استطعنا ان نضم ١٣٥٠ من جنود وضباط من قوات العدل والمساواة للقوات المسلحة وسرحنا الباقي وايدنا أي واحد ٥٠ مليون ووعدناهم نعمل لهم مشاريع دائمة وكل ابناء ج كردفان والنيل الازرق في كل الولايات

انضموا للدعم السريع لطرد التمرد والعمل علي عودة اهلهم من معسكرات اللاجئين. ونطور علاقتنا السياسية مع قيادتهم بخيت دججو وهم اضافة حقيقة للقوات المسلحة بدارفور. واستلمناه ورحلناه لمعسكرات وخصصنا مجموعة من خيرة الضباط ليدربوه ويغيروا عقيدتهم القتالية. وبخيت دججو قال عنده اتصالات حركة مناري وجبريل وحسنقيد من هذه الاتصالات. واما دانيال كودي استطاع يجيب ضباط وجنود وعنده ناس لسع جوه الجبال وقتلنا اي زول جاي نعمل ونددر ونضمن مستقبله وعبد الباقي قرفة عنده ضباط وعساكر وقال عنده ناس جايين بعد يجو نعمل لهم دمج وتسريع وناس النيل الازرق كمدان وعباس شغاليين. والشئي العارفينه عنهم. الحركات كلها ايلة للسقوط. ويقول الانتخابات قيامها في مواعيدها. عامل نفسي لكل الحركات المسلحة. ويؤدي الي نهاية حتمية لمشروع السودان الجديد. ديل ملوانقين في امبيكي وكلمني عبدول ممثل الاتحاد الافريقي مالك ويامر اشتكوه للرئيس الاثيوبي واشتكو امبيكي للمبعوث الامريكي.

✽ عبدالقادر محمد زين

الموازنة في علاقتنا بين ايران ودول مجلس التعاون مهم لكن سؤالي ممكن السعودية تتراجع بعدما صنفت الاخوان كمجموعات ارهابية. وعلاقتنا بايران لديها ارتباط بالتنظيم الدولي للاخوان لاد نشاور ايران وكل جماعتنا الاسلامية. وخاصة بان العلاقة مع المملكة غير مضمونة. رغم معرفتهم باننا نملك عنصر التهديد لحكمهم. وانا مع تفتيت وتقسيم هذه الحركات واستمرار العمليات العسكرية. والمصريين مضطرين لعلاقة خاصة بعد انتصار الاسلاميين في معركة طرابلس ووجود مشكلة مع ليبيا وحاولوا يدعموا حفتر وضربوا بالطيران وقتلوا نحن نستخدم هذه الكروت. وانا قنعان من الحركات المسلحة. لايد ان نحافظ علي المعارضة الداخلية وردع كل من تخول له نفسه زعزعة الاستقرار. وهذا العام درينا دبابين وكتائب استراتيجية بالولايات تساهم في حماية الانتخابات وتساعد الشرطة التصدي لاي عمل تخريبي من التمرد. نقوم به مجموعات مؤيدة لمشروع السودان الجديد. لان يامر لديه اتصالات مع نساء وشباب لتكوين اجسام للمشاركة في المظاهرات

✽ عبدالله الجبلي

كل الاستهداف الذي نتعرض له طيلة ٢٥ سنة بسبب علاقتنا مع ايران والثورين يتمسكون بالاسلام. ومافي دولة عندها الشجاعة تقول لكل الغرب لا الا ايران

• وهي شريك اساسي في ثورة الانقاذ • وهي من قدم لنا كل الدعم دون مقابل في حين السعودية تدعم قرنق والتجمع الديمقراطي • نحن نختبر مصداقية هذه الدول مع علمي بان قرارهم مع امريكا • اعلان باريس جزء من مؤامرة كبيرة تحكك لتركينا وان فقراته لن فيها فقرة تدل علي حسن نية ومطابق مع التنوع المتحد الذي اعلنه المهدي • نحن لن نعترف به ونواجهه عبر عمل اعلامي وسياسي وسط كوادينا واحزابنا • وغير معنيين باي مخرجات لاجتماع الحركات • هم نواياهم دايرين حوار سياسي ثم تفاوض مع الحكومة • وممكن نديهم شرعية • ونرفض أي حل يخطط دارفور مع المنطقتين • والحركات ماشة تتفرق نصبر سنة وسنتين كلما الزمان طال تكون هنالك متغيرات • هم في اخري اجتماع للجبهة يوم ٢٠ في البيان قالوا اسقاط النظام والمحكمة الجنائية وجرموا النظام ويجوا يتراجعوا بشأن الصديق المهدي • هم شعروا بالضعف وغدنا كلام الابدع وضع السلام وتسريح المليشيات • وهم عولوا علي الخواجات ينتظروا كثيرا • الان في صحوة حركات دارفور الموقعة معنا • اصبحوا يضموا ناسهم للترتيبات الامنية واصبحوا اضافة حقيقية للقضاء علي التمرد • وفي المنطقتين هنالك رغبة للاتضمام للدفاع الشعبي والدعم المريع كل يريد محاربة التمرد الذي عطل التنمية وهذا العام افضل الاعوام عندما خرجنا ٨٠ دفعة من مختلف الاعمار في الولايات وجاهزية ثلاثة الوية للقتال ومواجهة تداعيات الانتخليات والتمرد لازم يواجه بحزم • واي يتلاعب اوداير يظهر يضرب بالنار امن البلد خط احمر الداير مشروع السودان الجديد يمشي الجنوب بشأن مستوي مشروعهم

❖ فريق الرشيد فقيري

نحن اعدينا العدة للانتخابات منذ سنة اشهر بزيادة تواجد داخل الاحزاب بالداخل • وغدنا في كل حزب تلتين اعضاء المكتب السياسي حتي نستطيع التأثير في قرارات قيادة الحزب ويكون لمصلحتنا • احزاب المعارضة كتوا ٣٤ عندنا ١٧ الهيئة القيادية لقوي الاجماع عندنا ٢٠ واحزاب الحكومة ٨٠ احزاب اغلب القيادات معنا • كل عندنا وجود باغلبية من القاعدة الي القمة في كل الاحزاب • وحزب الامة مخترق بصورة كبيرة • ومهيمن علي كل قرارات الحزب • لكن حصلت مستجدات الصديق شال ملف التواصل مع الحركات من من صديق اسماعيل وادوه لمحمد عبدالله التومة لازم نعمل كلنا لاعادة صديق اسماعيل للملف ونضغط علي اسرة الصديق بواسطة ابنه لايد من عودة والدهم ونديه ضمان بالغفر مقابل التخلي عن احنדה باريس ويتنكر لهم • والصديق بطبعة لمن الزمن يطول ويعرف بان كل الذي قام به

خير مجدي انما وظفه المتمردين في خدمة اجنتهم واعاد لهم ماخسروه في القتال .وبعدا اعلامي وسياسي ودبلوماسي لوقت محدود سوف نتجاوزها بعدها اين يكون الصائق وعندما يعرف فشل كل مؤامرات المتمردين بالداخل ومسرحة العمليات .نحن متابعين كل تحركاتهم وروايتهم وعلاقتهم مع النساء واي زول بشرب شنو من الخمر ولمن يكونوا سكرانين بقولوا خيال كبير وعندنا بنات علي اتصال دائم معاهم .واستطاعن يرسلوا لن كل الاميلات والتلفونات والاسكاي والواتساب وكل سائطهم واستطعن اخترقهم الكترونيا .ومتابعة انشطتهم واتصالاتهم بالداخل اكثر زول بتصل ياسر عرمان ومشارك مجموعة واتساب اخترقناه . عبر التلفون والواتساب والاسكاي وعندهم اتصالات مع مجموعة من النساء والشباب لدعم مظاهرات سبتير والمعلومات تاكدت من رصدنا لاتصال من مكاتب القاهرة وبشجعوا للتظاهر .في تغطيتنا في الخارج ركزنا بشكل اساسي علي الحركة الشعبية اذا تمرنا قطاع الحركة يكون خلاص مافي اي تهديد امني للحكم .يتم القضاء بثلاثة سيناريوهات مرتبطة مع بعض تمشي بالمراحل واحدة واحدة .السيناريو الاول اختراق مكاتب الحركة بكل فروعهم بكوادر وقيادات وحدد منطقة الخطر معسكرات اللجوء والمناطق المحررة وجنوب السودان وبوغندا واثيوبيا وهي تمثل اكبر تهديد .لذا ركزنا الي كوادرنا للاقامة هنالك عبر واجهات مختلفة وشركات ورجال اعمال لتزيد الغناصر الموجودة بالمال واستقطاب المزيد .وفي قيادتنا عززنا ثقة كوادر الحركة فيهم من خلال اعتقاله ووضعهم في محل امن بعد الاتفاق معه لاعطاه دورهم مصداقية .وهناك منظمات وشخصيات نجعلها تتأشد السلطات باطلاق سراحتهم .والغرض لمن المتعاون بتاعنا يطلع بره بدوه حق اللجوء وحماية من الامم المتحدة ودعم من منظمات باعتباره لاجئ وبالتالي توفرت له وسيلة الراحة والاستقرار وبعدها بوسائل نتصل به وانجزنا العديد في الخارج في كل الدول اغلب تحركاتهم مرصودة .مقر الاتحاد الافريقي لمعرفة قابلوا مين وجاءوا مع مين وما هي انطباعاتهم .ومدي فهمهم للوضع الداخلي .ورصد لتحركات حامد الاغبش عندنا ناس تعرفوا عليه في اثيوبيا .ويتواصله معه عبر كل الوسائط .ودائما المتمردين مايتقوا في الناس الموجود مهما كان .نحن بنمشي حسب فهم خلينا تركيز عناصرنا داخلهم يستخدموا العلاقات الودية والصداقة والتوثيق بالصور ولابد يكونوا نشطين ويتواصلوا مع كل الناس وجمع المعلومات الاستراتيجية .عناصر الضعف والقوة .ونحن شغالين في كيفية ادخال بنك الجبال في مشاكل

وخلافات مالية وشكوك فيما بينهم . وعندنا خطط شعاليين فيها في كيف نلغي
 هذا البنك الذي يمول الحرب في كل السودان لان كل اموال الجبهة الثورية
 فيه ويقدم غروض للتجارة للداعمين للتمرد ويخدم عضوية الحركة هذا يمثل
 تهديد اكبر من الحركة . وفي الراهن نعمل انشقاق وكراهيه وسط قيادات
 الجبهة الثورية مثلا بين ويسر في عوامل ممكن ندخل بها . بين مناوي
 والثوم هجو ونصر الدين عوامل . وبعدها مناوي والجبهة . ثم نمشي للحركة
 المشعبية باسم وكوادر الحركة بالمنطقتين ثم خلاف بين الحلو وقيادات
 ميدانية من الجبال ثم مالك بينه وقيادات ميدانية ثم خلاف بين الكوادر
 والقيادة الثلاثية مع انحياز بعض الكوادر للقيادات حتي يتم الانشقاق بصورة
 غاية في الروعة . وسحب المهدي الي الداخل واعطاء وظائف للناس الشرق
 خاصة ان سيد ابو امنة ضعيف ويريد وظيفة دستورية لتقص فيه منذ مشاكله
 مع ايلان . واللواء الهادي مصطفى قال حيحاول فتح قناة حوار معه والاتحاد
 الديمقراطي كله حقنا الناس الاقوياء ناسنا احمد سعد وعمر الشريف وهلال
 وجلمنا معاهم وقالو نحن معاك وضمن لهم المشاركة في الحكومة بعد
 الانتخابات ونعمل لاصعاف المجموعات التي ضدهم داخل الاتحادي
 . عناصرنا داخل قوي الاجماع ما يخلوهم يتوحدوا مع اعلان باريس
 ويشككوا باستمرار اذا انهال اعلان باريس ماذا نحن فاعلون التريث مع تأييد
 الاعلان . ناسنا اجتمعوا مع بشري وعبدالرحمن الصادق . وقالوا لهم انتم
 ورثة الحزب ولايد تحاولو تجيبوا ابوكم وخاصة انه اصبح كبير في العمر
 وممكن تخلوه يلعب به شيوعي الحركات وبعدين ابوك لا يعرف اجنده
 للحركات وطرحوا له ان يجتمع باللواء عبدالباقى قرقة والعميد بخيت دبجوا
 عشان يعرفوا المعلومات الحقيقية لدوافع الحرب . ومن اين تمول الحرب
 ولماذا وهل يقبل الانتصار تقسيم السودان . وقبلوا الدعوي للجلوس مع اللواء
 عبدالباقى قرقة واستمعوا له وقدم لهم معلومات نحن ما عندنا ولماذا اختلفوا
 مع الجبهة الثورية . وبعد هذا اللقاء نحن واثنين اسرة المهدي بتجيبه طال
 الزمن او قصر . لازم يتفرقتوا كما تفرقت الحركة بالجنوب . عملنا دراسات
 عن الميول النفسية لكل كوادر وقيادات الحركة المشعبية والحركات في
 مناطق تواجدهم وتصنيف الكوادر النشطة والمتعلمة وذات بعد بعد تبلي
 وتوصلنا الي قوائم . والعلاقات الاقنية والراسية بين كوادر هذا الحركات
 . وجمعنا اي كلام يقولوا كدانا بتورينا المؤشر في كيف نعمل الاوليات في
 الاشاعة والحرب النفسية . وكل مكاتب البعثات بالخرطوم مخترقة ونعرف

مين ماشي وجايي. ولا فاشال مخططات السودان الجديد لتوحيد المعارضة
وضعنا متابعة لصيقة. اي سياسي ماشي للتمرد يتم منعه .

❖ فريق صديق عامر

بأمن علي الكلام من سبقتي بعلق علي علاقتنا مع السعودية والامارات من
جبهه وايران من جهة ونحن باستطاعتنا نعرف كيف نضلل دول الخليج
باجراعت عنفية وخاصة ديل وراهم امريكا واسرائيل وخليفين من علاقتنا
مع ايران. نحن مستفيدين من ايران اكبر تحالف في المنطقة في العمل
الاستخباراتي والانتاج الحربي لان علاقتنا متشابكة مع كل الحركات
الاسلامية. ونحن مدخل ايران لهذه الجماعات. والان اصبحت المنطقة
العربية محورين المعانعة والاعتدال ونحن لابد نقعد في الاثنين. والكلام ديه
ظهر لمن اخترنا محجوب شرفي سفير لدي القاهرة عشان يشرف علي
منطقة المغربي العربي وتواجد الحركات الاسلامية ومراقبة تواجد
المعارضة السودانية بالقاهرة. هم رفضوه. عرفنا الرسالة وبعدك ان
المصريين دايريننا نقف مع السعودية والامارات. وقبلي كده مسكوا قروش
البعثة بالمطار وقلنا لهم مافي طريقة نحولها. واحد فيهم قال السعودية ما
ممكن تحل. فقمنا الرسالة. وانا في تقديري ماترك السعودية والامارات
لحركات المعارضة واستقبال المهدي. ونحن لابد نواجههم بان الامارات
والسعودية هم من دعموا ومولوا مظاهرات سبتمبر لاسقاط النظام ونديهم
الدلة والتسجيل الصوتي لضباط استخباراتهم واسماء الضباط والامخاص
الذين اتصلوا معهم. وهم يحاولوا دوما استقطاب قيادات اسلامية وسبق ان
اتصلوا من اثنين من ضباطنا برتبة عميد وجلسوا معهم هنا في الخرطوم
وقبل الاجتماع جلسنا معهم انا ومحمد عطا وقلنا لهم امشوا ووريناهم
يعرفوا ماذا يريدون. وعملنا لهم تامين كامل ومافي زول يسالهم وتكررت
اللقاء ت حتي وصلت ٥ مرات ومن كلامهم عرفنا انهم دايرين انقلاب
بقيادات اسلامية لصالح دول السعودية والكلام دي كان يعلم الرئيس ورئيس
الاركان ووزير الدفاع ورؤساء الامن والامن الشعبي عشان نقدر نعرف
ربما يكون هنالك اتصالات مع اخرين دون علمنا لان اجهزة المخابرات
دائما تعمل بدائل لاستمرار عملها. واتفقنا كلنا اصلا ما نعمل أي شي تجاه
المملكة ونعكر العلاقة طالما نحن مسيطرين علي الوضع. وهم في النهاية
قالوا لهم انقلاب صعب لان كل الموجود في الجيش والحركة الاسلامية
غالبيتهم هم في الامن الشعبي. وتمكن من خلالهم مراقبة تهديدات المملكة

• انا بقول نستفيد من المملكة وما سنثق فيها وعلاقة مع ايران استراتيجيه
 • العمل يستمر في تفكيك الحركات والاليات مكونة وشغالة • وهذا العام
 نلس الجيش الشعبي زرعوا اراضي كثيرة بجنوب كردفان • يجب ان نسمح
 لهم بحصاد هذه الزراعة لابد من منعهم • لان الحصاد يعني تقويع للحرب
 • وكلما جوعناهم • استسلم منهم قيادات وهروب مواطنين • ممكن نستفيد
 منهم في ملاحقة المتمردين • نحن الدولة الوحيدة في العالم ما بنضرر من
 صراعات الجماعات الاسلامية ولا الشيعية • وكل الحركات الاسلامية
 بندير علاقتنا بها عبر الدولة انما عبر واجهات اجتماعية • وسر قوة الانقاذ
 في تحالف ايران والحركات الاسلامية واي تفريط في هذه العلاقة سوف
 نخسر كثير • الجنوب مازال يدعم التمرد للاطاحة بالحكومة وتحويل
 السودان زي الجنوب • ولمواجهة هذا الخطر عملنا اليات استباقية نندا
 بتفريق المعسكرات واستقطاب قيادات ميدانية وتدريب ابناء المناطق
 لمحاربة التمرد • وسبق وان زارني الملحق العسكري السعودي وطرح علينا
 التعاون مع بعض في المجالات العسكرية ومستعدين يقدموا كل ما يحتاجه
 الجيش السوداني من لوجستيك وممكن يطور الي تعاون بين الحكومتين وقال
 نحن اقرب للناس اليكم • وقلت له انتم بتعاونوا مع امريكا بصورة مطلقة
 • دون تراعى حقوق الاخرين • ويرضو الملحق الاماراتي بجي طوالي
 وبسمع لكلامه • كلامي النشاط الديني الشيعي ممكن يعمل فتنة خاصة مع
 وجود حركات سنية سلفية واخوان مسلمين وانصارسنه وانصار شريعة
 واهل الكتاب والهجرة والتبليغ وجماعة حزب التحرير ودولة الخلافة
 وانصار الدعوة • ونحن ماداير ين تصادم ممكن نخسر الاثنين • نحن نفهم
 الامتخبارات الايرانية بخطورة الوضع وهم يتفهموا • ونستفيد وللسعودية
 نحن معاكم • كثفنا العمل لتخريب كواكر استخباراتية من اخوانا الليبيين • وهم
 الان في دورة متقدمة في عمليات الانترنت وفك الشفرات والتصنت علي
 الهواتف والاجهزة الاسلكية • وقيادتهم طلبوا نبي لهم جهاز قوي •

❖ فريحي يحيى محمد خير

للقة الرئيسية في تحالف المتمردين والصادق المهدي هي الحركة الشعبية واكثر
 المستفيدين من الناحية السياسية والاعلامية والديماسية لوجود ثلاثة من اهم قياداتها
 السياسية والعسكرية والحركة الان بتكرر نفس سينارو قرنق في مؤتمر القضايا
 المعصيرية باسمر • ولازم نكون واعين لمخطط الحركة الشعبية قرنق اذا انهزم في
 الميدان هاجم منطقة اخري وتحرك سياسيا • وهم مهزومين في الميدان دايرين

- يرفعوا الروح المعنوية لكوادرهم . وتاجيل مشاكلهم الداخلية . لابد من طرد الحركة من المنطقتين ولن نترقب باي ميثاق اسمه باريس بل هو اتفاق عدواني ونم عن خديعة صممت من جهات معادية للسودان . التناحر حول المنطقتين فقط وحركات دارفور قتلت قوتها . وارادوا يمشوا النوحة . والعام هذا سوف ينتهي التمرد حنودي قوة كبيرة تهاجم من كل الاتجاهات . ونفاجاهم بقوات كبيرة وهجوم جوي وبري بقوات من ابناء مناطقهم جبال النوبة والنيل الازرق ودارفور بقوات الحركات التي انضمت للترتيبات الامنية . وسوف يكونوا معارضة سياسية يسهل تفكيكهم . علاقتنا مع ايران استراتيجية . ونوريبهم نيتنا اغلاق مراكزهم الثقافية لتواقي امنية وان هنالك تهديد من جماعات متطرفة ربما تسعى للفتنة ويجب اخذ عمل مماثل تجاه الجماعات الوهابية حتي لايفسر أي اجراء استهداف . مما يجعل الشيعة السودانيين يعملون سرا ويكون تهديدهم اكبر . اي خطوة تخدم مصالح لوقت محدود مع السعودية ودول الخليج كريس . لكن ماتستعجل . . وهم حاولوا قلب نظام الحكم ودعموا مظاهرات سبتمبر . في خطوة عدائية لايمكن السكوت عنها وهم خافوا من ردة فعلنا لاننا لم نتهم أي جهة وهم فسرنا هذا السكوت ربما ندعم جماعات متشددة . ومرة في دبي التقيت سعوديين واماراتيين ابلان معرض الطيران وتكلموا كثير عن مظاهرات وحاولوا يتظاهروا باتهم مشفقين علي حالنا وكانوا دايرين يعرفوا نحن عرفنا وما عرفنا . وكل دول الخليج معلومات عن الجماعات الارهابية ضعيفة خاصة الموجودين بليبيا والصومال ونيجيريا ومالي ودول المغرب العربي وافغانستان لان علاقتهم متوترة مع الجماعات المتطرفة . هم دايرين نتعاون معهم في مكافحة الارهاب لانه تهديد مباشر لهم وحتى داعش وجبهة النصرة والاخوان المسلمين والحركات الاسلامية بفلسطين علاقتهم ضعيفة . نحن ما بنضحى بعلاقتنا مع الاسلاميين وايران . ويمكن علاقة معهم في كافة المجالات عبر المصالح المتبادلة في الاقتصاد والعمل . والمصريين يجب ان يتعاملوا معنا ويمكنون كل معلومات الوجود المعارض بمصر وتحركاتهم واجتماعهم وعلاقتهم مع السفارات الموجودة بمصر مقابل منع الاخوان المسلمين والمتطرفين بليبيا من مهاجمة المصالح المصرية . وهذا يدعم للمملكة والامارات وحتى امريكا تعاوننا معهم في مكافحة الارهاب مقابل ايقاف دعمهم للحركات المسلحة وعدم الوقوف في المحافل الدولية . والملفات الاستخباراتية ممكن تصلح الاقتصاد والعلاقات الدبلوماسية ونجهض مخططات التمرد . انتصار نامنا في ليبيا مؤثر لانتصار علي مشروع السودان الجديد .

❖ فريق ركن عماد عدوي

١١
سري للغاية

أؤمن علي كل ماذكره القادة وان يحول فوراً الي قرارات . نادر تكلم عن
الإنجازات العسكرية لهيئة العمليات . تأمين الحدود مع اثيوب ووقفنا علي تقف
لائشاء قوات مشتركة علي طول الحدود مع الدولتين وتبادل المعلومات علي جفني
الحدود ومنع أي نشاط مسلح من ينطلق من كلي الدولتين والمساهمة في حماية سد
النهضة . هذا الاتفاق مفيد جداً لنا لانه يتيح لنا التحرك في المناطق الحدودية في
الجانب الاثيوبية ممكن عن طريقة مراقبة اللاجئين المقيمين باثيوبيا ويمكن بعد
عسكراً اثيوبيين يمنونا بمعلومات عن معسكرات الحركة الشعبية بمناطق تواجد
الجيش الشعبي ببابوس ومنطق أخرى ويمكن يتم استهدافهم بالطيران . والاتفاق
برضو ازعج المصريين بانه تحالف عسكري ضد مصالحهم المنيمة مما جعلهم
يتراجعوا ويقدموا تنازلات ومنعوا علي محمود حسنين من اقامة مؤتمره كبادرة
حسن نية واسرعوا في فتح معبر اشكيت البري وقدموا للترئيس لزيارة مصر . معناه
كسر للحظر علي الاخوان . ونحن لابد نستفيد منها في تحجيم دور الصداق للمهدي
ومقلباته للسفراء وتعاون امني عن تواجد المعارضة وان يلعب السيسي دور في
تحسين علاقات السودان بدول الخليج مقلل الامن لمصر من جماعة الاحوان
واجراء مصلحة مع الاخوان والنظام بيجاد تهينة للمواجهات في الوقت التراه
. قواقتا المشتركة مع تشارك في افضل الاحوال وليبيا حدودهم امنة خلصة بعد
انتصار حلفائنا بطرابلس قوات فجر ليبيا . واوصلنا لهم السلاح والمعدات المتبرعة
بها قطر وتركيا وكونا غرفة مشتركة برئاسة عقيد لانارة التنسيق معهم في كيفية
ادارة العمليات وتركيا وقطر مدونا بمعلومات لمصلحة الثوار بلاضافة
لاجهازتنا حتي يسيطروا علي كامل ليبيا . اكثر تهديد بحوثنا من جنوب السودان
حتي الان هم رافضين الخط الصفري وقلنا نعمل قوات مشتركة علي طول الحدود
هم برضو رافضين . وهم زالوا داعين للفرقتين . نحن لابد نوفر دعم ضخم لقوات
رياء ليخوضوا حرباً . ينظفوا بها كل منطقة اعالي النيل الكبرى . ورياء وتعبان في
زيتهم للخرطوم ورونا طرق الدعم ومين بحبوا وكل الاجتماعات التي تمت
بخصوص فك الارتباط ودعم سلع كبير للفرقتين ونوايا سلفاكير تجاهنا والوجود
الامريكي والاسرائيلي بجوبا والدعم الذي يقدم . ودعم موسيفني للجبهة الثورية
وامتناضة كمبالا لاغلب قادة التمرد والترتيب الذي تم بين جوبا وكمبالا بخصوص
ترحيل قادة الحركة الي يوغندا بعد توقيع التعاون المشترك . بقينا عندنا معلومات
ممكن تمكننا من اتخاذ القرار الصحيح تجاه الجنوب ويوغندا . وكيفية التعامل مع
حركات عميلة . انا رايتي الشخصي التفاوض مع العملاء مضيفة للوقت . وما
حلقوا الدائرينه ونحن ملينقبل اجونا ويقعدوا وسطنا بعدما ساعدوا العدو علي فصل
الجنوب ودائرين يفصلوا الباقي وطوالي يشتغلوا تقسيم افضل هزيمتهم عسكرياً

واليفضل نجيبه عبر دانيال كودي وسراج والسياسي كلها حركات موقعة . ونحن وما نخلي أي مخازن لمواد غذائية ونضربهم قبل الحصاد المرة ده لابد نحاصرهم .

❖ فريق اول هاشم عثمان الحسين

كل الحديث يحول لخطط عمل نبدا في تنفيذها لان مهندات الامن القومي كبيرة بعد بيان التمرد لاجتماعهم ٢٠ الي ٢٥ واعلان باريس مع المهدي والبولات التي قاموا بها في اوربا ومقابلات مناري وعبدالواحد والتوم هجو الي منظمات حقوقية واصف مقابلة ياسر عرمان للخارجية البريطانية والندوة التي تحدث فيها مع روزالين ولقائه مع قوي سياسية حليفة للمؤتمر الوطني مولانا محمد عثمان الميرغني ولقائه فاروق ابو عيسى وتحركات الحلو ومالك عقار كلها عمل عدائي غايته النهائيه تصفية حكم الانقاذ وتقديم قلة للمشاق مواجهة الحقيقة مهمة حتي اجتماع انيس مائسي في نفس الاتجاه التشهير بالحركة الاسلامية . ومحاولة فرض شروط ما لقوها بالحرب دايرينها بالصداق المهدي . المهدي حزبه ما وحد خليه يوحد ناس نومصالح واجنده مختلفة . في ناس الحركات مابجو اصلا جبريل منطلق من مقتل اخيه وياسر عرمان ما عنده معانا حاجة والطور عنده مشاكل مع النبوة ومالك عقار قتل ناس النيل الازرق وقتل اسري من قيسان ٣٠ شخص رفضوا التصويت له في الانتخابات فيهم العمدة قراش عمدة قيسان حبسوه ٢١ يوم ودفنوه في مقبرة جماعية جمعوه في كوتننروقتلوه بمنع الهواء لانهم مؤتمر وطني ومني قتل ناس كثيرين من البرتي وعبد الواحد ما عنده تنظيم . . نمشي في اعداد القوة تامين الانتخابات ولو في تفاوض خلوه بعد الانتخابات ويمكن الحوار الداخلي يستمر بعد الانتخابات . تستمر سلخ القيادات الميدانية طالما المعلومات متوفرة ونعد الاتفاقيات وعدم الجلوس مع التمرد ككتلة واحدة . اي زول جاي يعلم السلاح . ضبط الحريات الصحفية والتصريحات السياسية للأحزاب وان يكون الامن القومي خط احمر واي عمل سياسي واعلامي وفق القانون حتي لانصبح مثل جنوب السودان وافريقيا الوسطي وهذا ما يريده التمرد قالوا في البيان مع الصداق علاقة مع جنوب السودان حاضرا ومستقبلا شوف عمالتهم نحن مالنا والجنوب خليه يحلو مشاكلهم مع بعض . ومشكلة الجنوب ثاني مابتحل . وتجريم كل من يدعم التمردين وكل من ينتقد القوات النظامية بحزم . والان وضعنا خطة لنشر ٢٠٠٠ جندي من الاحتياطي المركزي في دارفور والمناطق المحررة من التمرد

بجنوب طردفان لاعادة الحياة فيها . ومطلب ابناء النوبة لتأمين عودة اهلهم من مناطق التمرد . هناك خلل امني بابي وراجع النقص لصعف الخير الفهم يجب تغييره بشخص ذو خلفية امنية من ابناء المسيحية . دايرين زول يخترق ويخليهم يعملوا ضد انفسهم

❦ فريق اول هاشم عبدالله

قمنا بتوجيه كل قادة الفرق بالولايات لمراقبة الحوار الوطني . ومتابعة انشطته لنستفيد من مخرجاته في توحيد رؤية الناس حول الدور القومي للقوات المسلحة ويجب علي كل السودانيين الانتماء اليها وانها ليس حكر علي حزب او جماعة وترفض القوات المسلحة اي حوار تحت رعاية اجنبية وان الاحزاب التي تدعو لرعاية اجنبية للحوار انما تستهدف امن واستقرار وتريد تفكيك قواته الامنية ليصبح السودان نهبا للمليشيات . والضباط الاسلاميين يرفضوا اي حوار يمس او يتدخل في عمل القوات المسلحة . المفاوضات مع المتمردين كل في منبره ومافي سمج لمنابر ونحن نسمع في ازمة سياسية وبين الازمة السياسية . نيل عندهم مشكلة كل المتمردين كانوا في السلطة وتمردوا ووجهوا السلاح الي القوات المسلحة وقتلوا منها الكثير وطعنوا في قومية القوات المسلحة وقالوا معاهم مليشيات اجنبية وصعدوا عليها الحملات . لايقات زحف القوات الي معاقل التمرد وتنظيفه والان القوات المسلحة في احسن حالاتها مدعومة بقوات الدعم السريع من ابناء المناطق التي يسيطر عليها التمرد . وجاهرين لاتطلق العمليات العسكرية . والمعسكرات تخرج والحرب مستمرة . وهنالك استجابة من ابناء النوبة والنيل الأزرق . ودارفور بكل ولايات السودان الانضمام لقوات الدعم السريع . بعدما عرفوا الزيادة الكبيرة في مرتبات كل القوات المسلحة وعملنا الجندي ٢ مليون والصلابط ملازم وملازم اول ٤ مليون ونقيب الي مقدم ٦ مليون وعقيد ومافوق يزيد عن العشرة . وقوات الدعم السريع مرتباتهم اكثرهم ولديهم حافز عمليات ٣ مليون . وهذه الزيادات الامكانيات المادية العالية لابد تستخدم لضرب التمرد . وبمجرد عملنا الزيادة حركات دارفور سلمونا حتي الان اكثر من ٢٠٠٠ منبرين . حركة دبحو فقط ١٣٥٠ من ضابط وجندي . وزعناهم علي المعسكرات لنخير عقيدتهم . وقتلنا ضابط اوجندي بجى من التمرد من المنطقتين عبر اللجان نديه نفس رتبته ومرتبته ويمسهم معنا في القتال . الانتخابات استحقاق لايربط بالحوار . اما المد الشيعي واثره علينا كل اتفقيتنا مع ايران مافيها ربط بين هذا وذاك ولكن برضوا نشاورهم وقبل هذا تطرقنا للموضوع

في ايران مع قائد الحرس الجمهوري وعارفين كل السودان سنة والتمتع ممنوع ونحن حاكمين بالقوة الشعب ما كله تبعنا ويمكن يخشوا متطرفين ويعملوا مشاكل زي ما قتلوا شيعي في غرب السودان في خلاف افصلوا هذا الموضوع .. ونحن عندنا مشاكل مع السعوية وهم اكتشفوا السلاح الذي ارسلناه عبر الاحمر الي اليمن الي شيعه عبد الملك الحوثي . ونحن لابد نعمل ميزان قوة في الجنوب . وريك وتعيان وضيو مطوك جاعوا وقالوا دايرين دعم في الاستخبارات والتدريب . بخاصة الدبلجات والمدفعية وتسلاحونا ومدنا بأسلحة متقدمة . نحن قلنا ما عندنا مانع لكن يكون في هدف مشترك . طبعا نحن نستفيد من طرحهم تعيان قدم اعتذار لعدمه حركات دارفور ومعركة هجليج وان الدينكا استخدموهم ليخسروا علاقتهم مع الشمال والان اكتشفوا الخطأ . وساعين لحكم فيدراي اوحكم ذاتي لكل اقليم . اي حكم ذاتي في اعالي النيل مفيد لنا من تامين حدودنا والنفط . والتجارة . والان الناس تدرس في كيف يكون عندهم قوة مؤهلة ومدربة ولديها استخبارات واجهزة متقدمة للامداد اللوجستي . ومهما حصل علاقتنا مع ايران خط احمر لولا هم لهرمت الانتقال . ولترتيب جيش حركة العدل والمساواة قمنا بتعيين ضابط برتبة عميد . الفاضل بشير محمد وهذه قوة كبيرة . ونحن ما عندنا تبادل اسري مع التمرد دليل محكومين وفق قانون هم تمردوا صد الدولة وليس في دولة اخري . ونهاية الحرب ضد التمرد يرجعهم للتفاوض وتسريح الميليشيات واخلاء كل الاراضي السودانية . ومن حقنا ناجر كل من له رغبة في القتال مقابل المال . المتمردين اخريين من يتكلم عن الاجانب من يمولهم وقاعديين مش في دول اجنبية . ونحن ممكن نجيب كل الحركات الاسلامية نقاتلهم بس نقولهم دليل عملاء امريكا . ممكن نفتهم مع التطرف عثمان يعرفوا مستواهم هذا كرت لم يستخدمه الان . والان قواتنا تسيطر علي كل مسارح العمليات وزمام المبادرة عندنا . وبثني علي تغيير الخير الفهيم بلجنة ابيني . وضرورة فرض هبة الدولة في مناطق الاقتتال القبلي وسيادة حكم القانون .

❖ فريق اول محمد عطا

هناك جهات تطالب بنشر تقرير عن احداث سبتمبر . او ارجاع السودان لليند الرابع . هناك جهات استخبارتية تدفع في اتجاه ماذا نفكر احداث سبتمبر كانت

مؤامرة لعمل ربيع عربي في السودان بتخطيط وتمويل من المخابرات المصرية والسعودية والامارات لتغيير النظام لذلك واجهناه بقوة حتي لا تكرر . و رصدنا كل المكالمات الداخلة للسودان من المخابرات السعودية والاماراتية والمصرية . وبعض الناس من الاحزاب . بقولوا عملوا التظاهرة . لكن تم احضار ناس خصيصا لادارة التظاهرات . وكنا متابعين المحادثات التلفونية وكل الوسائط وتوصلنا الي اللاعبين الحقيقيين وتم القبض عليهم واعترفوا بكل تفاصيل المؤامرات واسماء الضباط المكلفين بالاشراف علي التظاهرة والقيادة تتلقي تقرير يوميا في كل بلد . لذلك السعوديين والاماراتيين والمصريين خافيين بعدما كشفوا كل عناصرهم في قبضة الامن . ونحن لم نكشف حتي الان ودايرين نبترهم بهذا الملف . عملوا اجراءات كثيرة خوفا من دخول مجموعات ارهابية ربما ينتقم بها السودان . وادين سوف يكشف ملفتنا . كله تسرع وخوف نحن لازم نستفيد اقصى فائدة من هذا الملف لن نكشف عنه وهم تكلموا مع علي كرتي نحن ممكن ندعمكم وقفوا التعامل مع ايران وجاء علي وكلمني وعلي ماعارف أي حاجة واصبحوا يرسلوا وساطة لتحسين العلاقات . وانتوا ماتوا الحوثيين سلاح وشيلوا منظومة الدفاع الجوي بنجيب ليكم واحدة مهما كلف . اما موضوع التشيع الامن الديني لديه كل شخص متشيع ومرصودة كلها لكن لم تصل مرحلة الخطر وكلما حصل شئ بنادي قتل السفارة ومرات نتصل مع مدير الامن القومي الايراني عن مخاطر الدعوة علنا ونحن عندنا حركات متطرفة ومتشددين ممكن يعملو مشكلة . والشعب السوداني سني وبرفض التشيع وما كل السودانيين حركة اسلامية واجتماعاتنا مستمرة معهم . الجاب الاشكالية لأول مرة يقتل شيعي سوداني جاهر بها ودخل في مشادة كلامي مع سني في ولاية غرب دارفور . وبمجرد حصل الحادث اتصل علي مستشار الامن وممنول الحرس الثوري واتفقنا ابعاد الدعوة من علاقتنا الامنية والعسكرية وهم وافقوا . ورفعوا الكلام الي قيادتهم . كل المواطنين بالهرب من مناطق التمرد يتم ايوانهم ويعملوا لهم محاضرات عبر ابناء النوبة الموالين للحكومة ويرويههم ضرر التمرد . ولا بد من حماية نفسهم بتحنيد اولادهم بالدعم السريع نحن دايرين ثبت هزيمة التمرد بجنوب كردفان والنيل الازرق تم باهل المنطقة . ولن نسمح بمرور مساعدات انسانية الا مقابل وقف شامل لاطلاق النار والدخول في ترتيبات امنية كاملة . لن نسمح لهم بتوحيد المعارضة وكل من يجتمع مع التمرد يتم اعتقاله وفتح بلاغ له ويقدم لمحاكمه . والصالح المهدي ولوما قدم اعتذار يكون قاعد حتي الان وابراهيم الشيخ اذا لم يقدم اعتذار مكتوب لقوات الدعم السريع لا يطلق سراحه او يقول يشتغل معنا . اما اعلان باريس وكل اجتماعات التمرد عبارة عن عمالة مدفوعة الثمن . من منظمات ودول معادية وضغوطها مابتهمنا كثير . وهم جارين

اوربا الاتحاد الاوربي مؤيد الحوار الداخلي . ونحن ما مستعجلين لحاجة هم خالفين من تجي احداث والعالم ينسأه . واصلا حينسأهم . مع ظهور داعش . كل اوربا وامريكا لايد يتعاونوا معنا مقابل مكافحة الارهاب . وهنا ممكن تسلمو بهم . حولوا توظيف قضية المسيحيين فسلت . ونحن توجهنا اسلامي ممكن الناس بغير عشان هافراد . وتحرك داخلي مرصود والتحرك الخارجي مرصود ونحن لا نعمل تحت الضغوط . والعالم قاطعنا في بداية الانقاذ بما فيها كل الدول العربية ما قدرنا يسقطونا . ونحن اخذ كلامهم ماخذ جد وعملنا تحوطات امنية عالية ووضعناهم تحت الرصد والمتابعة تشمل كل الوسائط التي يستخدموها وعندنا ناس حيقلوهم في اديس وبصوروا كل جلساتهم . حتي يتمكن خبراء لغة الجسد من تحليل شخصياتهم . اثناء الاجتماعات وبعدها لتحديد انطباعاتهم وهم مابعرفوا أي حاجة . وقتنا أي اغثة لايد تكون تحت اشرافنا . و باتفاق سياسي . متكامل . هم مستهزئين اجهزة الامن ما عارفونها بتعمل كيف وحتي ناس الجاوا ايام نفقاشا مشوا دون ان يعرفوا كيف نفكر . والمتمردين بطرح حل شامل وكله دايرين نفوضهم كحركات حملة سلاح والحكومة لشراكة سياسية ووجوب قواتهم في قوات مشتركة وندي المنطقتين ودارفور حكم ذاتي . وباقي الفئات للحزب هم ما عندهم وجود الا في النت . في دارفور ومحصور في المنطقتين . وقليلين نحن ضعاف . والشيوخيين بوديهم معلومات مغلوطة . مره النظام بنهار ومرة الناس ديل طرحوا الحوار لان بينهم خلافات . لو المؤتمر الوطني مافي عندنا قوات نظامية تستطيع سد الفراغ . وعند حضوري للسيد رئيس الجمهورية لمن اجتمع مع كل قيادة الجهاز يوم الإثنين ١٤ أغسطس ونورناه كيف بعمل الجهاز واديناها رؤيتنا . قلنا الحوار داخلي والانتخابات تقام وعمليات الصيف تمشي ونزيد التجنيد للدعم السريع وارسل قوة من الدعم السريع لحراسة عمليات التعدين ومنع تسرب بيع انذهب خارج بنك السودان وضبط الحدود من ابوحمدة الي ولاية البحر الاحمر وحتي وادي حلفا واقامة اربعة معسكرات للتدريب بعيدا عن المدن . تحت اشراف العميد امن . عبد السيد عمر . واي صحفي او سياسي يتكلم في الدعم السريع اويتعرض لها يتم فتح بلاغ له باعتباره متخابر واتني الرئيس علي حركة بخيت دبجو وقال يدربوا ناسه . كما شكر قيادات ابناء جبال النوبة لوطنييتهم واخلاصهم ورقبتهم الاكيدة في محاربة التمرد وتشجيعهم الشباب للانضمام لقوات الدعم السريع لتخليص الجبال من الجبهة الثورية . وقدمنا له مقترح بتقسيم ولاية جنوب كردفان الي ولايتين . شريطة تحرير كامل ويتم من خلال مساهمة ابناء شرق كردفان في التحرير . وتجنيد كل الشباب القادرين في الدعم السريع خاصة بان المرتبات اصيحت عالية وفعلا لمن طرحنا الامر علي قيادات من شرق كردفان رحبوا بالفكرة . وبهذا التصرف ممكن

نقضي على الفتنة . التي يريدون تدويل قضية المنطقة ، ونحن شغولين في متابعة قيادات التمرد ومحلوا يمشوا نحن وربنا وعندنا مجموعات ضخمة نتلقى معهم قاعدين عبر واجهات واخرين غدهم لجوء سياسي ومعتمدين لدى الدول . ودائما الميليشيات احترافها ساحل . ونقول ان علاقتنا مع ايران استراتيجية وفوق كل المصالح واي من يحاول تخريبها لا يفهم لعبة التوازنات وتتقصه المعلومات وكل الخطط موجود لشق الجبهة والحركة والتخلص من مشروع السودان الجديد . انتقنا مع تعيين نبي لهم جهاز استخبارات في كل مكاتبهم والميدان تحت اشراف ونحل ونعالج لهم المعلومات ومكتبهم علي مع الجهاز ووفرنا لهم الحماية كاملة منذ تعليمات الرئيس من يوم زيارة د ريك للخرطوم

❖ فريق اول عبد الرحيم محمد حسين

ابداء من علاقتنا مع ايران علاقة استراتيجية وابدية لا يمكن التخلي عنها . كل التطور في الصناعة العسكرية من ايران وقصوا لنا ابواب محازن السلاح . لمن العرب وقفوا ضدنا وكنا بنقل تمرد منتشر في الاتجاهات بما فيهم التجمع الديمقراطي قدموا الخبراء ودرّبوا كوادر في العمل الامني والاستخبارات وتصنيع السلاح والتكنولوجيا الحديثة . ومازالو موجرين كتيبة من الحرس الثوري وخبراء وبنوا في قواعد تنصت وتحسس لحملتنا ومنظومة دفاع جوي . وبنوا قاعدة كثرة وجبل اءلباء الجوية قبل شهر جفوا صوايح وراجحات كقيوشا عبر طيران مدني وانزلناه بكثافة وبعثنا منها لقتل لمساعدة ثوار ليبيا بعدما تعرضوا لهجمات من الطيران المصري والامارات مما جعلهم ينتصروا . وان يقول العلاقة العسكرية تفصل من الجانب الديني . واما تحركات التمرد مع الصالح المهدي . ما عندنا ماخذه بعدما اتهموني بالجنائية تلقي مافي حاجة اظن . هدفهم تقسيم السودان . وبيديروا في مؤامرة خليفهم يمشوا اشرفوا محل غيرنا السودان ينقلوها فيه . عابن بيان التمرد هو المراك تنفيذ بدعم من فرنسا . والمبعوث الامريكي وهذا تدخل في شئوننا الداخلية واصلا المبعوث الامريكي ما يدخل السودان . والصالح المهدي تابعوا رحلته سوف يحاسب عليها والصالح ميصير لمن يشوف الزمن فات ومافي حاجة ونفق مويته علي الرهاب

• ويسمى بنهاية التمرد • لن نسمح بنقل الحوار • وجاعني امبيكي وتكلمنا عن
 رفض قطاع الشمال التفاوض حول المنطقتين • وامبيكي قال لا يمكن خلط
 مشكلة المنطقتين بباقي السودان هم لو دايرين يناقشوا قضية السودان مكانه
 الحوار الذي دعا له الرئيس • ولا يمكن نقل الملف الي مجلس الامن وبظل
 في الاتحاد الافريقي وان للسودان جيش السودان • ومشكلة المنطقتين
 مرتبطة بتنفيذ اتفاق التعاون المشترك مع جوبا لتحديد الخط الصفري
 واليات رقابة للدعم والايواء • وفتح نقاط العبور للتجارة والمنطقة العازلة
 اذا الجنوب يسوف يقبل التفاوض حول المنطقتين • واتفقت معه يمشي
 الجنوب ويقابل سلفاكير ويحدد اجتماع للجنة الامنية والسياسية تحت رعاية
 الالية وتشاورنا بضرورة ضم كل الحركات للحوار وفق رؤية الحكومة
 وداخل السودان وقلنا له ننق مع محمد بن شماس يجمع عليك حركات
 دارفور في اديس ابابا وتكون دعوة للتشاور وليس للتفاوض • ومن اراد
 التفاوض يمشي الدوحة • وهو بجمعهم ويشوف رايبهم واذا رفضوا الحوار
 موفق السودان بكون سليم • وبتمستطيع ندافع عنه امام المجتمع الدولي
 • والسودان ما قصر وهو سوف يشارك في الحوار الداخلي كمراقب
 • ولاقيت علي الزعترى موقفه معنا ولاقيت صلاح حليلة موقفه مساند لنا
 • وهليلي منكريوس موقفه معنا • ونحن انجزنا عمل كبير ومحمد بن شماس
 لاقيته وقال ناس البعثة دايرين يعملوا تحقيق في تقارير البعثة وانتوا اعملوا
 معالجات في الواقع علي الارض • ومطابقة تقاريرنا مع اداءكم • وقال
 دارفور ما عندها مشكلة والحركات الباقية تنضم لوثيقة الدوحة وارادوا
 الانضمام للحوار الداخلي يجي • ونخلي الدعوة عبر الاتحاد الافريقي
 • وبشهادتنا السودان ما قصر الحركات مصرة علي الحرب وما في حاجة بتلم
 دارفور مع المنطقتين • مشكلتين مختلفتين • وكل له منبر وعلي كل
 الحركات تعمل ترتيبات امنية وهو بشهادة بان العنل والمساراة جناح دبجو
 رتبوا ١٣٥٠ مقاتل للجيش السودان والتحرير والعدالة التجاني سيسي عندهم
 ٢٥٠٠ مقاتل سوف يتم دمجهم وبعدها ممكن نجمع السلاح من المواطنين
 ومنع تواجد سلاح داخل معسكرات النازحين • وشغاليين في عودة المواطنين
 الي قراهم وعودة اللاجئين من تشاد وان مؤتمر ام جرس داعم للسلام •
 لا بد ان نواصل العمليات ونضرب تجمعات التمرد بالطيران
 • باستمرار • وصيفنا القادم محتاجين لكل مقاتل من اي دولة يقتل تحت
 قيادتنا • وابناء المناطق كدليل للحرب • بيان الجبهة يوم ٢٠ واعلان باريس
 هذه نواياهم من ١٩٨٩ ما فيها جديد وفشلت • ولو نيفاشا كان كل التمرد

انتهى • الدائر حوار يصنع السلاح لكن نيل امانيهم كبيرة وبعملوا على تفكيك القوات المسلحة وجهاز الامن لوقفهم سندا منيع ضد مطامع الخونة واسيادهم • وكل اجتماعاتهم بياناتها طلابية ونفس الكلام بتقوله المنظمات المعادية هم بكرروا فقط بقينا فاهمين بقول شئو والصديق المهدي حنضيق عليه حتى ينسحب منهم • وكل الهيلمانه من افكار الحركة الشعبية وحركات دار ماعندها فهم نقول ممكن يقودوا الناس الواحد بفرشق نفسه • المهم نحن هدفنا نفرق الناس نيل ونحجم دورهم اما تحركات مابتهمنا كثير لو كل العالم وقف معاهم • خليهو يجو الميدان • والسودان يحلموا به • زوبعة وتنتهي • ومهما كان الخواجات ما بدعموك لحد الكفاية اويقاتلوا معاهم اكبر كذابين الخواجات وتهمهم مصالحهم • وعملنا شغل كبير مع الاثيوبيين في تأمين الحدود • والمصريين تنازلوا كثير ومنعوا نشاط المعارضة وهذا ليس كفاية لايد يطردوا كل الحركات ويقتلوا مكاتبهم • حتي الان لم نتعامل معهم بالمثل ووريت وزيرناهم وهم عارفين ممكن نعمل شئو مع قطر وليبيا • لان الحركات الاسلامية استلمت زمام المبادرة • الجنوب لايد ان يجتمعوا معنا ويرونا رايمهم في تنفيذ الخط الصفري والمنطقة العازلة ولذا رفضوا ممكن نتعامل معهم • بطريقة تتناسب وتهديدهم • والتقىنا رياك وضويوتعلان وهم متأسفين لفصل الجنوب ورجعنا له منزله • وطلب منا مساعدته وعنده نقص في الاستخبارات وادارة المعارك ونقص في قيادة الديابات • ولايد لنا الاستفادة من الكروات الكثيرة ضد الجنوب ونديهم درس لن ينسوه • والقوات المسلحة والامن في استعداد من الان لحملة الانتخابات وتعليمنا اي مظاهرة او تجمع او تخريب الضرب بالنار لان تخريب الانتخابات واستهداف مؤسسات الدولة وردفي تصريحاتهم وبياناتهم الداعية لاسقاط بالحرب او التظاهر كل جريمة وتمرد ضد الدولة ومحاولة لتقويض النظام واثارة الفوضى وعندنا تجربة سبتمبر لمن ضربوا بالنار وفقوا أي تصريح او تحرك او كلام عن العمليات العسكرية الجارية والجلية جريمة ويجب التعامل معها بالحزم الفوري • والحوار يجب ان يؤدي لقيام الانتخابات وعدم مناقشة قانون الامن والقوات المسلحة • • والان الشباب اصبحوا يسجلوا في القوات المسلحة وقوات الدعم السريع بعد زيادة المرتبات بنسبة ففقت تصور الجنود والضباط • جندي مرتبه ٢ مليون وضابط ملازم ٤ مليون غير البدلات والخدمات الاجتماعية • مرتب مقدم اكبر من مرتب وزير • وتعليمات كل المواطنين الفارين في العمليات يتعاملو معهم كريس ويرغب اولادهم في الانضمام للدعم السريع • الوضع الاقتصادي بتعالج لان لنا مقومات

الصناعة والزراعة والبنية التحتية للبترول ومافي زول جيعان ايام وتعدي
 والصناعات العسكرية يتمول كل عملنا القوات المسلحة . والشركات
 والاستثمارات بالخارج للاغراض الامنية حوالي ٤٠ شركة وشركات الحركة
 الاسلامية والامن الشعبي والامن العام راسماليها يفوق ٢ مليار وتظل تدار
 مدنيا وفكرنا فيها منذ الايام الاولى للثورة لان الاستهداف كثير لازم يكون
 عندها واجهات . لان المحافظة علي قطاع الامن اولية ويحمي مؤسستنا
 . ومايتاثر عملنا بالوضع الاقتصادي . وفي نهاية كلامي الاجهزة الامنية
 والاستخبارات لازم تشق الجبهة والحركة الشعبية في ان واحد وازرعوا
 اكبر عدد من العملاء واشتروا القيادات والكوادر وسلطوا الاعلام عليهم
 وارصدتهم تحركاتهم وشوهوا صورتهم بالداخل وخوف المجتمع منهم
 واعزلوهم من قواعدهم وحرصوا عليهم اهلهم . ومرروا معلومات
 استخباراتية وامنية للدول التي يتعاملوا معها عبر اجهزة امنية صديقة
 نحاصرهم امنيا واستخباراتيا دولي واقليمي لافشال خططهم . وامريكا الان
 في ورطة مع داعش والحركات الجهادية التي تكونت جديد وتتحرك بسهولة
 خارج دائرة الرصد . هنالك ٢٠ الف جهاد و ١٥ تنظيم جديد منتشرين من
 المغرب العربي مروراً بمصر وسيناء وفلسطين ولبنان وسوريا والعراق
 وكل الخليج وتنتشر واسع في افريقيا واوروبا ومافي زول عنده قاعدة بيانات
 زي ما عندنا . ندي الامريكان حسب الطلب مقابل ملف الحركات الايام حبلني
 بالمفاجات .

❖ بروفيسر ابراهيم غندور

او من علي كل كلامكم اولا استعدادنا للانتخابات ماشة والمؤتمرات مشغلة
 ومؤتمرنا في مواعيد لكن اختيار اعلان مرشح المؤتمر الوطني لرئاسة الجمهورية
 بناخره قريب مواعيد الانتخابات لنفاجي به الاواسط السياسية بدابيرين اجهزتنا
 الامنية تعمل داخل الاحزاب كلها معارضة وموالية لتحديد راي القيادات حول

الانتخابات . اتفقا مع المؤتمر الشعبي وادينا تعريضات عن الخسائر الفردية والحزبية ومال تحبب للرافضين للتقارب . اتفقا علي ثلاثة مليار تمسند علي ثلاثة مراحل . مع دخول الحوار والثاني عند بداية التقديم للانتخابات والثالث مع للدعية الانتخابية . عملنا كده عشان ضمن دخول الشعبي كله للانتخابات . لان تاييد الترابي فيه بعد لتاييد كل الحركات الاسلامية في التنظيم العالمي ولو أي مهتد امني ممكن يجاهد معنا . وبرضو نكون جمعنا الاسلاميين في برنامج مشترك فيه منفعة متبادلة وما بالضرورة الوحدة في تنظيم واحد المهم وحدة الهدف ضد التيارات العلمانية واستهداف الاخوان في كل الوطن العربي والمؤتمرات التي تحاك ضدهم . وجماعة الميرغني نص الحزب معنا لكن يركزنا علي حسن هلال واحمد سعد وعمر الشريف ديل نقوي . صنفهم ونملكهم معلومات عن استهدافهم داخل الحزب . وحزب غازي نصه حقنا . ودايرين اجهزتنا تحتفظ بالمعارضة عشان يكون في صوت ناقد . ونلوح به للمجتمع الدولي . وعلاقنا مع اوربا كويسة وفشلت كل محاولات التمرد عشان يعترفوا بالجبهة الثورية فشلت . بقللوا برلمانات وليس حكومات والقرار في الحكومات . الحوار دايرينه يمضي ببطء للعنصرة اذا لقينا فيه فائدة ممكن نمرع وتبرته واذا فيه ضرر يمضي والانتخابات تمضي . بس هدفنا ندخل الانتخابات بشرعية الحوار . واما الحركات مايجي منقها للحوار عالي وفهمهم باننا ضغفاء لذلك طرحناه . وهم فكروا هذه فرصة لتفكيك الانقاذ . ومحاكمة قانتها . واخطاعوا من اراد الحوار يجي بدون شروط . والصادق مشي يتقوي بهم وهم برضو يتقوي به بعدما فشلوا في كل مخططاتهم . وبيان التمرد واعلان باريس كلهم واحد . فيه عبارات مجاملة للصادق ومادايريه يتحرق مع حزبه وشرك للمؤتمر ويقبل بالاتفاق والصادق اتصل بمصطفى وكلمه بالاتفاق ومصطفى قال له لم اقرأ الاعلان وبعد نشوف راي الحزب وبعد . داك مصطفى جاني ومشيئا للرئيس في البيت ولقينا معاه عبد الرحيم وتكلمنا كلنا في الاعلان والرئيس قال ارفضوه . وامشوا للحركة الاسلامية تاخذوا رايها ومن ثم اعرضوا للمكتب القيادي عشان الراي الرسمي طالع من الحزب . ونفس الليل مشينا مع مصطفى للربير احمد امين الحركة الاسلامية ولقينا معاه د كمال عبيد ودالفتح عز الدين . وسالنا طوالي جاينين بخصوص الاعلان بتاع الصادق مع التمرد قلنا ابوة د كمال شاور الناس وقررنا رفضه جملة وتفصيلا واعتبرناه مؤامرة تحاك ضدنا . يجب تجريم كل من حضره اوشارك فيه وتسليط الاعلام في حملة لا يبطال مفعوله وتخويف الناس من الانضمام لهذا الاعلان . وان الاعلان رعته جهات اجنبية تسعى لتدمير الاسلام والمسلمين . . وانه يحمل افكار الحركة الشعبية . وقلنا امبيكي ومحمد ممكن تجمعوا المتمرد للتشاور للحوار الداخلي وهم متفقين معنا . اما موضوع اغائة او مواطنين . اغائة ووفق نا شامل للابد وفق

حزمة اتفاق يؤدي لتسريح كل الميليشيات، واللجنة السياسية لـجبال النوبة والنيل الأزرق برئاسة محمد مركزوا شغالين مع الولاية لتوطين المواطنين وإيجاد فرص عمل لابنائهم والمتاح قوات الدعم السريع لأن المرتبات عالية بعد الزيادات ورغبة القيادات في طرد التمرد من مناطقهم، والشئ المهم نحن قررنا لازم نشق الجبهة الثورية ونشق الحركة الشعبية بشأن نرتاح من هذه المتاعب ولا بد نعمل في هذا الاتجاه، وبالنسبة اداء الخير الفهيم ضعيف، وبهمنا علاقة دون خيانة مع الجنوب، لكن سلفاكير كل مرة بغشنا ونحن صابر رغم معرفتنا بكل كبيرة وصغيرة بالجنوب، وكلنا دايرينه يوفق دعمه ويسلمنا الحدود بقوا يتعللو، بقي ماعندنا حل غير، نحرر ارضنا من التمرد،

علاقة من ايران هي من انجح العلاقات في تاريخ السودان، وادارتها تحتاج لحكمة والعام بتفاصيلها ولو جينا نعدد مساعداتها لاتقدر بثمن، والمشتركات كثيرة بينا الناس ماينظروا للتشيع فقط، وهناك محسوسين كتار ديرون العلاقة تبوظ ونحسر ايران، وهي صديقة لكل الحركات الاسلامية في العالم، ونحتاج لتشاورنا بينا ومن ثم شركتنا الايران اخطار بكل التفاصيل، والاقتصاد سوف يتحسن بعدما وضعت برامج لتطويره وهذه مسألة عارضة، وتزول في الفترة القادمة بزيادة الانتاج الزراعي والحيواني، ويرضو نفهم ماذا يريد العرب والمصريين مع الاخذ، في الاعتبار نواياهم تجاهنا وكرهم لحكم الاخوان، نحتاج في هذه الفترة، بمجرد انت الحرب صرفها يحول لدعم الاقتصاد، ايقاف الحرب الالهية بولايات دارفور وكردفان برضو مؤثرة في الاقتصاد خاصة المواشي،

❖ فريق اول ركن بكري حسن صالح

كل القوى السياسية والمجتمع الاقليمي والدولي يتابعو باهتمام خطي الرئيس البشير في تغيير السياسة، فقد لا يفصل عن ذلك، تغيير آخر في نظام العمل في الحكومة، وقد يبدو هذا مسألة مهنية، إلا أنه يعد أيضا جزءا من مفهوم التغيير الجاري في السودان.

الرئيس البشير أصدر توجيهاته باجراء تغيير شامل، في تركيبة الحزب والدولة، وزيادة صلاحيتها في رسم استراتيجية البلاد، ليستوعب مجالا واسعا من القضايا الدولية والاقليمية والداخلية.

ان هذه التغييرات قال ان العالم الذي نعيش فيه قد تغير خلال العقد الحالي، بصورة مثيرة للغاية. وهو ما استلزم إعادة تشكيل الحرب والدولة، بحيث يختلف عما كان عليه في التسعينات، وهو أول تغيير من نوعه منذ إنشقاق الحرب .
القصر والمنشأة لأول مرة بعد انفصال الجنوب، وبعد أن أصبحت بعض المعايير والمبادئ التي كانت تتخذ للتصدي لأوضاع معينة . مثل التمرد والاقتصاد وتطور الأحزاب وعلاقتنا الاستراتيجية وعلاقة الجوار وعلاقات المصالح التجارية والعلاقات الأيولوجية ، غير مفيدة . وسوف نتعامل حسب المستجدات الجديدة، مع واقعنا، بعد اتساع نطاق عمل مؤسساتنا السياسية والأمنية والعسكرية، التي تجاوزت حدود السياسة الداخلية وصعدت الى السياسة الخارجية . لمتابعة تهديدات التمرد والدول المعادية وتحركات الاجنده .

: نحن في اجتماعاتنا ما بالضرورة نتفق علي كل شيء، لكننا نتناقش ونبدى وجهات النظر ونوصي، وأقوم بإخطار الرئيس بما تم في المناقشات والتوصيات، مع ضمان أن يعرف الرأي الأقل والرأي الغالب في الاجتماع. وضمن عملية التحديث والتطوير ورفع المرتبات . لتغيير وتجديد كل الخطط والبرامج الكان معمول بها في الماضية وما ادت الي انتاج في مجال ، نمط الاقتصاد ، والقوات المسلحة واجهزة الاستخبارات الأمن والشرطة والاجهزة السرية العاملة ، وهزيمة وطرد التمرد من الاراضي السودانية ومكافحة التمرد علي الدولة والقتال القبلي والجنوح نحو القبيلة والمنطقة . والجريمة المنظمة والجرائم الالكترونية

أكبر تهديداتنا واجتماعي . جايين من الجنوب لسببين اولا الوجود الاجنبي الذي يمثل تهديد مباشر لنا [بوغندا وأمريكا وفرنسا وإسرائيل] [الحركات المسلحة . وثانيا [النازحين والاجئين جراء الحرب . امراض وجرائم اجتماعية] [الاجنو السودان بمعسكرات المنطقتين تاخر في التعليم ونقل امراض وتنصير]

اصلا الجنوب لو الجوار ما دايرين علاقتو . الواقع بفرض تنكيف مع المستجدات . د. ريكاجتماع معي يوم ١١ اغسطس وكان مما مصدق الحصل في الجنوب وان الدينكا ابادوا اهل . وهذا كله كوم طيب المساعدة بكل اشكالها كمان نحن عندنا حسابات . اذا ريننا ممكن تحقق نكون اليات مهمتها نتجح زول توصله الي دائرة الفعل . وعندنا مرحلي بجي لحظة ردة الفعل وكروت ضغط للخصوم . الرئيس وافق بمستضيف مكتب اتصال له . وسلفاكير مستضيف توربورا والفرقتين .

المفاوضات والحوار واعلان باريس وبياناتهم كلهم يجب ان يودونا الانتخابات . يعني الدابر ينضم لمسيرة الانقاذ ويتعايش معنا مرحب . لكن لن نعمل تحت الضغوط مافي زول مدينا حاجة . امريكا كذبت علينا في فصل الجنوب . ورفعوا ولا عقوبات . ومبعوث مالجي . واما الصانق المهدي اولاده معنا وكلما الزمن طال الصانق يتملك . وخليه يزور وتكمل الزيارات وماذا بعد . امبيكي جلسنا معاي ولاقي الرئيس واتفقنا معا يجب الحركات للحوار بالداخل ويرضو بن سماش . يقنع اسمه . لكن الشي الجاري حسب اعلاناتهم مابجو . ونحن دايرين سلام من الداخل . ونحن علي مع الرئيس دبي وقطر ولجنة ودعة . لكن عليكم ترجعوا صديق اسماعيل ملف الحركات بحزب دايرة شغل . وماتهم ملف الجنوب واتفاق التعاون ولايد من عمل اللجنة الامنة . نشغل لدعم ابناء جنوب كردفان التي اصبح قطاع الشمال للتوثيق السياسي ومخزن للحركات المسلحة . علاقتنا استراتيجية مما تتغير والدابر يساعدنا يجيب دون شروط ونحن احوج للعلاقة ومرة جاء قابلني عبد الحافظ ابراهيم في المملكة وقال وزير الخارجية السعودي قال له ممكن ندعم السودان لكن علاقتكم مع ايران قيادتكم ما حيقبلوا وكلام كثير عرفت ربما اخترقوه وريت محمد عطا يتابعوه الان ما عندنا كلام خلو الانتخابات تعدي وبعداك ناس كتار دايرين تغيير . اهم اجمعوا المعلومات وراغبوا ناس دايرين يسقطوا النظام كيف ننق فيهم . ونشاط الشيعة نحن عارفينه وبنوقفه دون العلاقة تتاثر وبنفهم الناس ديل ممكن تحصل فتنة ونفقد كل العلاقة والسودان استراتيجي لايران . رابطنه بالشيعة بلبنان واليمن بس ديروا هذا الازمة لحين انجلاء الحوار والانتخابات وانتهاء الحرب والقضاء علي التمرد . لاننا مادايرين حلول خارجية كل اتفاق داخل السودان . والاخوان المسلمين وزعوه مايقعدوا مع بعض ومناطق انخرطوم وبعيد من المنشآت الحيوية وراقبوه لانهم فيهم اختراق من دول كثيرة وعندك داتا كاملة ياعطا عنهم وجمعناها منذ ايام ادارتي للجهاز . لكن فيهم الكوميسين . اهم تراقبهم للحماية والمعرفة وادوهم شرائح مبرمجة مع جهر التنصت عشان تعرفوهم اكثر هم ضيوف وتركيا بدفع ليهم التوصيات

- إنشاء ثلاثة لجان امنية سياسية، مهمتها التحليل، والتنسيق، واستعراض القضايا المطروحة من قبل الحركات المسلحة، والنظر فيها، وبحيث يتم من خلالها، تجهيز خيارات تفكيك المجموعات المتمردة لتكون في متناول صانع القرار.

حزمة اتفاق يزدي لتسريح كل الميليشيات. واللجنة الميسانية لجمال النوبة والنيل الأزرق برئاسة محمد مركزوا شغالين مع الولاية لتوطين المواطنين وإيجاد فرص عمل لابنتهم والمتاح قوات الدعم السريع لان المرتبات عالية بعد الزيادات ورغبة القوادات في طرد التمرد من مناطقهم. والشئ المهم نحن قررنا لازم نشق الجبهة الثورية ونشق الحركة الشعبية عثمان نرتاح من هذه المتاعب ولا بد نعمل في هذا الاتجاه. وبالنسبة اداء الخير الفهم ضعيف. وبهمنا علاقة دون خيانة مع الجنوب. لكن ملفاكير كل مرة بغضنا ونحن صابر رغم معرفتنا بكل كبيرة وصغيرة بالجنوب. وكنا دايرينه يوفق دعمه ويسلمنا الحدود بقوا يتعللوا. بقي ماعندنا حل غير. نحرر ارضنا من التمرد.

علاقة من ايران هي من انجح العلاقات في تاريخ السودان. وادارتها تحتاج لحكمة والمام بتفاصيلها ولو حيننا نعد مساعداتها لاتقدر بثمن. والمشاركات كثيرة بينا للناس ماينظروا للتشيع فقط. وهناك مدموسين كتار ديرون العلاقة تبوظ ونحسر ايران. وهي صديقة لكل الحركات الاسلامية في العالم. ونحتاج لتشاورنا بينا ومن ثم شركتنا الايران اخطار بكل التفاصيل. والاقتصاد سوف يتحسن بعدما وضعت برامج لتطويره وهذه مسألة عارضة. وتزول في الفترة القادمة بزيادة الانتاج الزراعي والحيواني. وبرضو نفهم ماذا يريد العرب والمصريين مع الاخذ. في الاعتبارات نوابهم تجاهنا وكرهم لحكم الاخوان. نحتاج في هذه الفترة. بمجرد انت الحرب صرفها يحول لدعم الاقتصاد. ايقاف الحرب الاهلية بولايات دارفور وكردفان برضو مؤثرة في الاقتصاد خاصة المواشي.

❖ فريق اول ركن بكري حسن صالح

كل القوي السياسية والمجتمع الاقليمي والدولي يتابعو باهتمام خطي الرئيس البشير في تغيير السياسة، فقد لا يفصل عن ذلك، تغيير آخر في نظام العمل في الحكومة، وقد يبدو هذا مسألة مهنية، إلا أنه يعد أيضا جزءا من مفهوم التغيير الجاري في السودان.

الرئيس البشير أصدر توجيهاته باجراء تغيير شامل، في تركيبة الحزب والدولة، وزيادة صلاحياتها في رسم استراتيجية البلاد، ليستوعب مجالا واسعا من القضايا الدولية والاقليمية والداخلية.

- اعتبار مشروع السودان الجديد يمثل تهديد لوحدة واستقرار السودان
- ممارسة ضغوط وتقديم اغراءات لابناء الصانق الضغط علي والدهم
- بضرورة الحضور الي السودان
- زيادة القوات النظامية كافة وترغيب الشباب للانضمام الدعم السريع
- تعامل قوات الشرطة من الاحتياطي المرعزي بمناطق العمليات بنفس
- امتيازات قوات الدعم السريع والقوات المسلحة
- اعفاء الخير الفهم فورا وتعيين نوخلفية - لابيبي
- رفض أي حلول خارجية

oboiikan.com

لَمْ يَبْقِ الْعَارَ مُزْعَةً لَحْمٍ فِي وَجُوهِنَا!

ما الذي جرى لنا.. ما الذي أصابنا.. بل ماذا دهانا.. هل وصلت بنا اللامبالاة إلى هذه الدرجة التي تدعو للرتاء؟! هل هو انكسارٌ ينعى إنسانيتنا، أم خنوع دخل في قاموس الأمة التي طالما افتخرت بقيم الشجاعة والبسالة والشهامة؟! هل فعلاً أعاد الأبالسة صياغتنا بمثلما نطقوا وخططوا ونفذوا كالنازيين؟! لماذا صارت الدهشة ردَّ فعلنا الوحيد أمام مصائبنا التي تكاثرت وصارت كال موج يدفع بعضه بعضاً.. ما أن تتلاشى واحدة حتى نعود لممارسة ذات الدهشة البلهاء مع موجة أخرى؟! ما الذي جعل العُصبة الحاكمة تستمرى فينا أفعال السوء بكلِّ أشكالها وموبقاتها، حتى لم تُبقِ لنا مُزْعَةً لحم في وجوهنا نقابل بها وجه هذا الوطن الرؤوم؟! كيف لا ندرك بعد أن تكسَّرت النصال على النصال، أن ما تقوم به العُصبة من جرائم وخطايا هو عملٌ مُمنهج القصد منه تدمير السودان بما فيه ومن فيه؟! وإذا سأل سائل عن الغرض، ستجيبه عبر التاريخ التي لا يتعظ بها الغافلون، وستقول إن الأنبياء الكذبة استنسخوا تجارب الأمويين والعباسيين والتتار، وأن الذين اندهشوا لممارسات وأفعال داعش في بلاد الشام والرافدين، تناسوا سابقتها في بلاد السودان. لم يجتهد نافع علي نافع كثيراً، ولم يتطلب الأمر منه شيئاً سوى تحضير روح أبي العباس عبدالله بن محمَّد، أوَّل الخلفاء العباسيين، الذي اعتلى المنبر يوم توليه وخطب في الناس حُطْبَتَه الدموية، وختمها بقوله: «وأعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلّمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام»، وعندما يقول علي عثمان طه يوم الخميس الماضي في نادي الشرطة، بعد حصاد رُبع قرن في دولة المشروع الحضاري: «إن إقامة الدولة الإسلامية لا يعني نهاية الجوع والوصول للرفاة»، هل يظن أحد أنه نقص حرفاً ممّا نطق به يزيد بن معاوية، يوم جاءته الخلافة تجرجر أذيالها؟! إننا يا سادتي أشبه بمن دخل دهليزاً وأغلق الباب على نفسه ووضع المفتاح في جيبه في انتظار أن يُفَتَحَ له الباب من الخارج!

(٢)

نعيد قراءة الحدث للذين قرأوا ولم يبالوا، أو الذين قرأوا وهم لاهون، أو حتى الذين قرأوا وتوسّدوا أحزانهم وهم غير ملومين. خبر طاف الدنيا في لمح البصر لأنه يُعدُّ بكل المقاييس من الأخبار التي تزلزل الضمير الإنساني، لأنه

عرف ويلاتها وذاق مرارتها وأدرك مآلاتها، حدث ذلك بعد أن تواترت أنباء باغتصاب نحو ٢٠٠ امرأة، بينهن متزوجات وبنات يُع وأطفال قُصّر في قرية "تابت". وكالعهد بنا، أخرج كل حزب وتنظيم ما في كنانته من بيانات الشجب والاستنكار، كأننا في مباراة لتأكيد الذات الوطنية. حدث بالقطع لم تشهد الدولة السودانية له مثيلاً إلا في ظلّ العُصبة نفسها التي كرّرت ما فعلته في مدرسة "طويلة" الثانوية بنات العام ٢٠٠٤، وما ظلّ مستمراً بين الفينة والأخرى. وقد أعاد للأذهان أيضاً ما فعله التتار ببغداد بعد استباحتها، وما أقدم عليه الصّرب في البوسنة بعد تواطؤ القوات الأممية، وما فعله الهوتو بالتوتسي في رواندا على غفلة من المجتمع الدولي. فنحن في دولة الأبالسة بتنا لا نبحت على الأمثال من كثرة ما تناوبت علينا البلايا ونحن صامتون. وطالما الشيء بالشيء يُذكر، خرج بالأمس مئات الآلاف من الهنود للاقتصاص لبنت لقت حتفها بعد أن اغتصبها ستة من البلطجية، ولم يغد المتظاهرون لمنزلهم إلا بعد أن أخذت العدالة مجراها ومرساها. وتلك قصّة أعادت لنا حمية المعتصم بالله "أبو اسحق محمد بن هارون الرشيد" التي اشتعلت، فجيش جيوشه واتجه صوب عمورية بعد أن استغاثت به امرأة من بني هاشم لطمها رجلٌ من الروم، أي أنه لم يغتصبها كما هو حال نسانا وفتياتنا، اللاتي بخت أصواتهن وهن يستغثن بمعتصم خرس لسانه، واستغشى ثيابه حتى لا يسمع أنينهن ولا يرى خبيته في وجوههن!

(٣)

ما الذي حدث؟! تقول الروايات التي ثبتت من كثرة تداولها، إن قوة عسكرية أعادت لنا سيرة "حملة الدفتردار" الانتقامية، دخلت قرية "تابت" مساء يوم ٢٠١٤/١٠/٣١ بذريعة البحث عن جندي مفقود، وعلى مدى تسع ساعات قضتها، عاثت في القرية فساداً، ثم انسحبت فجر اليوم التالي، مُخلفة وراءها 'الضحايا' المغتصابات وأحزانهم والعار الذي سارت به الركب. وبعد يومين، يعود قائد القوة العسكرية، الرائد سعد عبدالكريم ليقدم اعتذاراً، كأنما الذي حدث كان نزهة للترويح عن النفس. هُنيئة، وطرق الموضوع أبواب قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة والاتحاد الأفريقي "اليوناميد" فتحركت قوة منها حاولت لوصول للقرية، إلا أن السلطات العسكرية منعتها من مباشرة مهمتها، فعادت لموقعها. وكالعهد بها، لجأت لوسيلة العاجز، وأصدرت بياناً وضحت فيه المنع وملاصته. لكن خبراً كهذا لا يمكن أن يظل رهين المحبسين، الجدران والصدور. فعلى عكس ما عملت سلطة الدفتردار بغية محو آثار العدوان، انتشر الخبر وسرى في أركان الدنيا الأربعة، فالتقطته بعض الدوائر الرسمية ومنظمات المجتمع المدني ووسائل الإعلام التي تقف بالمرصاد لنظام جُبِل على ممارسات السوء. وفي نفس الوقت كان الأنبياء الكذبة قد شرعوا في تفعيل آلياتهم المعروفة في الفهلوة والتجديف. وفي يوم ٢٠١٤/١١/٩، أي بعد نحو تسعة أيام من الواقعة، اتفقوا مع مجموعة أخرى من قوات الـ"يوناميد" تحت غطاء السماح لها بتقصي الحقيق، أي حتى يُقنّ إنهم من الذين يسمعون القول ويتبعون أحسنه!

(٤)

دخلت بعثة الـ"يوناميد" القرية وانتشر أفرادها، ولكن في معية كل منهم خمسة أفراد من العسكريين، بينهم واحد من جهاز الأمن وآخر من الاستخبارات، وإمعاناً في الشفافية كان الأخير يحمل كاميرا لتصوير المُستَظنَّين، ربّما للذكرى والتاريخ! عندئذٍ كان من البديهي أن يلتزم الضحايا الصمت خشية مزيد من الكوارث التي لا يُخاف عقابها. على إثر ذلك، خرجت البعثة 'الأممية' ببيان هزيل لم يقنع حتى رئاستها في نيويورك، حيث قال جاري كوينلان رئيس مجلس الأمن لهذا الشهر: «إن زينب بانجورا، ممثلة الأمين العام المُختصة بالغنف الجنسي في مناطق الصراعات، وعدداً من أعضاء مجلس الأمن، أبدوا قلقهم إزاء تواجد جنود سودانيين أثناء استجواب ضحايا الاغتصاب». وتعلمون أن محصلة كهذه تُعدّ من المسلمات التي لا تحتاج لـ"درس عصر"، كما نقول في عاميتنا الدارجة. ولكن دعني أقول لك ما هو أكثر إيلاماً - أيها القارئ الصبور - إن هذا التضارب والتذبذب والتناقض ليس بجديد في سيرة بعثة حفظ السلام الهجين، فذلك مجرد غيض من فيض، فقد غمرتنا البعثة بفسادها المُتجذّر في أركانها حتى لم يبق من درنِها شيء، وهو الفساد الذي كشفت نذراً منه السيدة عائشة البصري، والمُحزن أن موقفها هذا لم يجد منّا التقدير اللائق، ولكن تلك قصة تُرجئها لمقالٍ آخر، حتى لا نكثر على القراء تقليب المواجع. على كلٍ، بعد تسعة أيام جفّ فيها الصّرع والدّمع والماء المُهين، ختم "الناكر الرسمي" الصوامي خالد سَعْد بضمّ أكاذيبه التي ألفتها الأذن حتى حفظناها عن ظهر قلب، فلم يكن منظوراً منه غير النفي المُعتاد.. وكالعادة دون أن يطرف له جفن!

(٥)

هذه جريمة شنعاء تُعدّ من أبشع الجرائم اللاإنسانية. فهي لا تكتفي بخيونة المرأة، وإنما إذلالها ببذر كائن غريب في رحمها لتحمله وهنا على وهن، وهي كارهة له. هل ثمة شعور أفسى من ذلك؟! هل تخيل أحدنا نفسه مكان ذاك الأب الذي أقتيد غنوة ومن ثم اغتصبت بناته أمام ناظريه؟! هل استشعر أحدنا توسلات تلك الطفلة للوحوش بأن يتركوها لأنها يتيمة؟! هل أدركنا كيف يكون الانكسار الذي سيتبع الضحايا كظلمهم حتى يوم يُقبرون؟! إذن ما جدوى الحياة؟! ولكن لأن الحائط المائل لا يسقط فجأة، هل أقول جزى الله الشدائد عثاً كل خير، فلربّما ذكرنا ما حدث بضرورة تسمية الأمور بمسياتها الصحيحة، التي تُوجّه فيها أصابع الاتهام لموضع الداء دون تلجج أو تلّغع أو مُداراة. أليس رئيس الدولة السنيّة وحامل أوزار النظام هو من أعطى الاغتصاب معنى مغايراً، وقال إنه شرفٌ ينبغي أن تتباهى به نساء الإقليم المنكوب؟! لم ينفّر قلبه عليهن من حرب تُكلن فيها الزوج والإبن والأخ والعم والخال، ولم تدمع عينيه وهن يرزحن في معسكرات الذلّ والهوان عاماً بعد عام. ومن عجب، هو ذات الرئيس الذي وقف متنبراً، وقال بالنص: «أحسن يسمعوها مني مباشرة.. أنا قاعد رئيس،

مافي قَوَات أممية بتدخل دارفور.. لأنه أنا أسهل لي مليون مرّة أبقي قائد للمقاومة في دارفور ضد القَوَات الأجنبية ولا رئيس جمهورية.. فتأمل سيرة من أصبح "مسيلمّة" مجرد تلميذ صغير في مدرسته!

(٦)

صفوة القول دعونا نخلص إلى مبادئ نسوقها بأضعف الإيمان لعلها تكون ترياقاً للجرح النازف:

• أولاً: نقول للذين برعوا في إصدار بيانات الشجب والاستنكار ذلك يكفي.. فالمسألة أكبر من أن تُصيخ مزاداً في مضمار الوطن والوطنية. وإذا كان المقصود بها مخاطبة الرأي العام السوداني، فالرسالة قد وصلت، وجزاكم الله عن المكالمات خير الجزاء، وليت الأمر بعدن ينقل من دوائر التنظير إلى دوائر التنفيذ!

• ثانياً: عِرضاً عن ذلك لعلّ الحادبين يعمدون إلى مخاطبة المنظمات الدولية بمذكرات ضافية، وعلى رأسها الهيئة الأممية، ومنظمات المجتمع المدني المعنية بحقوق الإنسان، والمنظمات الإقليمية كالاتحاد الأفريقي ومنظمة دول الإيغاد والجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وكذا الاتحاد الأوروبي وتحديدًا دول الترويكاء، وحكومات الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا، للنهوض بموقف دولي حازم، لا يتمثل في القيام بتحقيق تتوفر فيه عوامل النزاهة والاستقلالية والشفافية فحسب، وإنما ينحو إلى معاقبة فجور النظام وتماديه في إنتاج الخطايا حيال الشعب السوداني!

• ثالثاً: ليس صُدفة أن السيدة عائشة البصري التي صوّبت سهامها مباشرة نحو فساد قَوَات حفظ السلام العاملة في السودان، وفرت لنا فرصة تاريخية بحوثات تستطيع القوى السياسية المعارضة النهوض بها إن شاءت تسجيل مواقف تزيح عنها عبء الركود والعجز واللامبالاة!

• رابعاً: لا يخفي على أي مراقب أن الحادثة مهّدت الطريق نحو المحكمة الجنائية لمزيد من شدّ الأنشطة حول رقاب أركان النظام وعلى رأسه رئيس النظام!

• خامساً: علاوة على ذلك، أمام الحركة الشعبية قطاع الشمال، وكذا الجبهة الثورية فرصة أخرى، يمكن استغلالها لوضع حدٍ لعبث واستهتار النظام بمصائر الشعب السوداني، ذلك ما يمكن أن يتأتى عبر تعليق المفاوضات التي من المنظور أن تبدأ اليوم مع الأولى في أديس أبابا برعاية تابو امبيكي رئيس لجنة الوساطة المكلفة من الاتحاد الأفريقي، أو تلك غير المباشرة مع الثانية، وإلا فإن مُضيئهما في هذا الطريق سيُعدُّ مُخاتلة وخنوعاً إن لم يكن مُباركة لجرانم الاغتصاب!

• سادساً: في تقديري يجب الانتباه للتوابع التي تلت الزلزال. فنحن نخطيء كثيراً عندما نقول المغتصابات الدارفوريات، إذ أنهنَّ سُودانيَّات في المقام الأوَّل بحُكم الهويَّة القوميَّة، التي لا تمنحها دارفور بالهويَّة الجغرافيَّة. فتلك من ثرَّاهات النظام الذي يجد في القبليَّة والجهويَّة والمناطقية ملاذاً لهدف يضمُّره في أجندته الخفيَّة، كما تعلمون!

• سابعاً: بنفس القدر نقول ليت المنظرين يكفون عن ترديد ما نضح به قاموس النظام في تقسيم جغرافيا السودان بين مركزٍ وهامش، ففي ظلِّ الدمار الشامل الذي لم يستثن شبراً، تصبح هذه المصطلحات غير واقعيَّة، بل ليست بذِي جدوى، هذا إن لم نُقل إنها ترمي في اتجاه تغذية مسارات التفكير المُحبِّقة بالوطن، سيِّما، وأن البعض بدأ ينجح عنوة إلى تحميل الشعب كله أوزار العُصبة وهم براء. لكن تبعاً لذلك، لو شئنا تصحيحاً لتلك المصطلحات، فلا بأس من تلبس السُلطة صفة المركز طالما أن أبناء وبنات الشعب "الفضل" ظلوا في هامشها يدورون!

• ثامناً: لقد قتلت الديكتاتوريات الحس الوطني فينا أو تكاد، ومع ذلك لن نكون ممَّن يأمرّون الناس بالبرِّ وينسون أنفسهم. فما جدوى القلم إن لم ينزف دماً كذاك الدم المهرق، وما جدوى الكتابة إن لم تكن ممزوجة بعرق الكادحين والبُؤساء والمساكين، وما جدوى الحديث إن لم يكن معطوناً بمحنة وطن ومعجوناً بمأساته؟! فيا ويح قلبي وقلمي معاً، إن كانت تلك صرخة في وادٍ بذِي قفر!!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطيَّة وإن طال السفر!
٢٠١٤/١١/١٣

oboiikan.com

حكاية سيّدة اسمها: "عائشة"!

في تلك الأمسية الرائعة والمُميّزة بقاعة فندق وستن Westin أواخر أبريل الماضي، قدّمت نفسها بكلماتٍ بسيطة وعميقة في آنٍ معاً، فلا عُرُو بعدنّذ من أن نفذت مباشرة إلى عُقول سامعيها، وقد احتلت من قبل موقعاً فسيحاً في أفئدتهم، قالت: «غادرث السّودان، ولكن السّودان لم يغادرني، بل لن يغادرني». أقول بكل صراحة ثمة إحساس غريب يُداهمك وأنت تسمّع الناس يمدحونك ويصفونك بصفات ربّما أستغرب لها.. لأنه ليس لديّ إحساسٌ بأنني بطلة أو ادّعي البطولة، فما قمّت به هو أبسط ممّا يمكن أن يقوم به أي أحد لديه "شويّة" ضمير، وشاهد ما شاهدت. أي أن لم يتحدث من رأي وسمع وقرأ واضطلع ووثق مثلي، تكون هذه مشكلة إنسانيّة في المقام الأول.. وبالعكس، فانا ألوم نفسي لأن صوتي لم يَكن مسموعاً طيلة تلك الفترة.. وفي واقع الأمر كانت العبارة الأخيرة هذه محض تواضع منها كما ستبيّن لنا وقائع الأحداث لاحقاً، ما هو عكس ذلك!

(٢)

وفي مقام آخر، قالت عن نفسها إنها: «عربيّة الهوى وأفريقيّة الهوية»، وكان ذلك أيضاً اختزالاً لشخصيتها، فهي على الأقل لم تتوار خلف هذين الصنمين كما يتوارى الذين يبحثون عن منابثهم وجنورهم بغية تأكيد الذات. ولكنها جسّدت ذلك في مواقفها الحيائيّة، وزيّنت هويّتها بلسان وشفتين، بحيث أصبح انحيازها للإنسانيّة جمعاء، شاملاً وغالباً وواضحاً. وإن شئت التحجيم كما يفعل الذين لا يقوون على الصبر، فهي مغربيّة الهوية وسودانيّة الهوى، والأخيرة هذه ليست هبة أو منحة أو هديّة، فعندما أقامت بين ظهرانينا في ذاك البلد، الذي أزهقته الحروب وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، لم تأو إلى مكتب فخيم يُبعد عنها شرّ رمضان وكروبه وحروبه، ولكنها جابته طويلاً وعرضاً لمدة أربع سنوات، ثم غادرته إلى بلاد الرافدين، كأنها أبا يزيد، الذي غادر قريته بسطام بحثاً عن الحقيقة والمشاهدة، وكأنها في بغداد لاقت الشيخ الجنيد، فقال لها إن ما تبحثين عنه تركتيه بسطام.. فعادت أدراجها، وما زالت تبحث عن الحقيقة بالرغم من أنها شاهدها!

(٣)

إن شئت تسطيّراً بصورة أعمق، فقد زاد انحيازها للمذهب الإنساني عندما تيمّمت شطر أوروبا للنهل من معارفها وثقافتها. وفي باريس اختارت قامة أدبيّة

سامقة ومثيرة للجدل، هو الأديب الفرنسي الشامل - إن جاز التعبير - جان جينيه، ليكون موضع أطروحته للدكتوراه. كان "جينيه" متمرداً قال عنه قُرناؤه إنه «الخارج دوماً عن القانون السائد» لكن صديقه وصفيّه جون بول سارتر - رائد الفلسفة الوجوديّة - كان يراه قديساً، وأكد نظريته هذه في كتاب ألفه عنه وعنوانه بذات الصفة (القديس جينيه ممثلاً وشهيداً) وقال سارتر عنه أيضاً: «كان قد حدد فضاءين مختلفين ومتعارضين، هما الخير والشر، وكلاهما دفعاه للوراء، وذلك ما ضاعف لديه الإحساس بالإنثم، كما ولدت طرائقه البرجوازية لديه إحساس الإذلال، فاختر أن يكون عارياً ويرتدي فقط مقدرات عقلية لا توصف»، فإلى أي مدى - يا عزيزي القارئ - تدرك أن الدكتوراة عائشة البصري قد تماهت مع كل مما ذكرنا؟!!

(٤)

عائشة البصري سيّدة تدرت بالقيم الإنسانيّة النبيلة، والتي حصّتها من هُويّاتها المختلفة كما ذكرنا، وصقلتها بالتحصيل الأكاديمي المتميّز. أقامت عائشة في السّودان لفترتين مدّة خمسة سنوات إلا قليلاً. عندما جاءت في المرّة الأولى كان ذلك في العام ٢٠٠٥، وبقيت فيه حتى العام ٢٠٠٩، تسمنت خلالها وظيفة مسنولة الإعلام والتواصل في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. وتقول إنها فترة خصبة في حياتها، جعلتها تقف على مكّونات الشعب السّوداني الثقافي والاجتماعية، وبالطبع السياسيّة التي لا تنفصم عراها عن المجالين المذكورين. ثم غادرت إلى العراق، وما لبثت أن عادت مجدداً للسودان في أغسطس من العام ٢٠١٢ وتولت وظيفة الناطقة الرسميّة باسم قوات بعثة حفظ السلام، أو القوات الهجين المكوّنة من "الأمم المتحدة" و"الاتحاد الأفريقي" والمُسماة اختصاراً بـ"يوناميد" وذلك حتى أبريل ٢٠١٣، أي لمدة عام واحد إلا قليلاً، قدّمت في خواتيمه استقالة داوية، ما زالت توابعها تحاكي فعل الزلازل والبراكين في ثوراتها ضدّ الطبيعة!

(٥)

تقول عائشة، إنها تلقّت اتصالاً تلفونياً من زميلنا المثابر صلاح شعيب من إذاعة "عافية دارفور" التي تبث برامجها من واشنطن، وكان ذلك قبل نحو تسعة أيام من توليها المنصب الجديد، وسألها عن اشتباكاتٍ في منطقة "طويلة" شمال دارفور، فأحالت السؤال لزملائها الذين أجابوها بالنفي وأكدوا لها هدوء الأوضاع. ثمّ عادت إلى زميلنا وحمل الأثير صوتها معلنة هدوء الأحوال. لكن بعدها ببضعة أيام، اكتشفت أن الوضع لم يكن هادئاً كما زعموا، وإن ما خفي كان أعظم.. أدركت حينها أن القائمين على أمر البعثة صمّتوا حيال الانتهاكات الفظيعة التي قامت بها قوات الحكومة، وأدّت إلى حرق الزّرع والضرّع في أربعة قرى، قتل فيها من قتل، وجرح من جرح، واغتصبت من اغتصبت، وذلك بحسب إفادتها لقناة العربيّة فيما بعد. وقتذاك، بدأت الأرض تميد تحت قدميها، فاشتبكت القيم التي جُبلت عليها بالواقع الذي ظهر عارياً أمامها!

(٦)

في محاولة منها لتقصّي الحقائق، سألت الجنرال واي جونز قائد قوّات البعثة آنذاك عن سبب عدم رفعه تقرير بتلك الحادثة، فقال لها: «يا سيدتي كما تعلمين يجب علينا أحياناً أن نتصرّف مثل الدبلوماسيين، فليس كل ما يُعرف يُقال»، بيد أن حادثة "طويلة" وتلك العبارة فتحت عينا عائشة على أسرار بدأت تتكشف لها رويداً رويداً. ولاحقاً أسرّت لها السيدة عايشة مندأودو بن دودو وكانت القائم بأعمال البعثة، يقول آخر أشدّ وطأة وأقوم قبلاً: «كل التقارير الصادرة عن البعثة تتعرض لتحويل وتلاعب، وهناك شخصان أو ثلاثة اختطفوا البعثة ولهم أجندة لا تتماشى معها ولا مع مصلحة أهالي دارفور».. ومنذ ذلك الوقت أصبحت عائشة تشاهد تواطؤ البعثة مع النظام بجنده وجنوبه، وترى بأعينها قرى تُحرق بكاملها، وتوثق لنساء اغتصبن زُرافاتٍ ووحداناً، وتحزن لرجال طأطأوا رؤوسهم لأنهم فقدوا أعزّ ما يملكون، ثم تقف حائرة أمام أطفال يُلقم بهم الجحيم.. كلما قال هل من مزيد!

(٧)

كابوسٌ فظيع جثم على صدرها، كانت عائشة تشاهد نظاماً تبارى في قتل شعبه لدرجة بات لا يعرف فيها عدد ضحاياه، وينكر عدد النازحين داخل وطنهم، ويجهل عدد اللاجئين الذين اتجهوا صوب الحدود في رحلة المأهاة الكبرى. وفي كلِّ لعلّ الأنكى وأمر تواطؤ البعثة نفسها مع أفعاله وممارساته تلك. كانت الصورة موهلة في التراجيديا، وبالطبع لم يكن مرجواً من النظام الذي برع في القتل والتشريد أن يرق قلبه على ضحاياه، ولكن ما بال الذين غرهم بالسلطة الغرور ولاذوا بجنته في الخرطوم وقد تركوا ذوي القربى يهيمون على وجوههم في معسكرات النذل والهوان؟! هؤلاء فيهم الأم والأب، والأخت والأخ، والخالة والخال، والعمة والعم، الذين كادت محنتهم أن تخرس لسان عائشة الناطق، في وقت ينال فيه التيجاني السيسي قرير العين هانيها. وكلما سمع حسبو عبدالرحمن صراخ المغتصبات تمزّق ستار الصمت، ضحك ملء شذقيه، وقال لمجالسيه إن ذلك محض هراء. وأغمض الحاج آدم عينيه وأصمّ أذنيه حتى لا يرى الأطفال الذين أرقهم الجوع وباتوا يشاركون النمل طعامه. وبينما الذين أنهكهم المرض يبحثون عن جُرعة دواء، كان بحر إدريس أبو قردة يبحث عن دواء للثخمة بعد أن تورّم شحماً ولحماً ونفاقاً. أما في مسرح المأساة، لم يأل عثمان كبر في تجهيز الحملة تلو الأخرى، فقد صار الموت هوايته ومهنته.. كلما رأى الأيتام يزددون عدداً!

(٨)

بعد أن أصبح الذي بين يديها من أدلة وبراهين ينوء بحملها الرجال، طفقت عائشة تتحدّث بصوت عالٍ وتطالب بالتحقيق والعدالة والشفافية، وأضحت تدعو بضرورة كشف ما خُفي من أجندة سرّية في أضاير البعثة. وعوضاً عن ذلك، جاءت ثلاثة الأثافي، فقد ظهر تقرير الأمين العام السيد بان كي مون عن دارفور

خالياً من الانتهاكات التي كانت شاهدة عليها ورأتها بقلب مفطور. وعندما عيل صبرها، وأدركت ألا حياة لمن تُنادي، حملت متاعها القليل ومصيبتها الكبيرة، واتجهت صوب نيويورك لعلها تُسمع من به صمم. وهناك قذمت حصاد ضميرها وحاصرتهن بالأدلة والبراهين والوثائق التي لا تكذب، وطالبت بتحقيق مستقل يكون عادلاً ونزيهاً يزيح الستار عن الممارسات التي تدين المنظمة ممثلة في أمينها العام ورهطه ممن تكتموا مثله على المأساة. وبالطبع أدركت عائشة، وتُدرِك نحن أيضاً أنها تصارع منظمة نخر فيها الفساد حتى أزكم أنوف العالم أجمع. فتحرّكت خفافيش الظلام الذين دأبوا على الرضاغة من أئداء المساكين، وبذلوا ما في وسعهم لتسويق القضية. ولكن حتى لا ننوه بعيداً سواء كانت المنظمة فاسدة أو في طهارة يد سيدنا يوسف، من ذا الذي أقسم ألا تظأ أقدامها أرض بلادنا المنكوبة؟! من ذا الذي فرط في سيادتها بثلاثين ألف من جندها بعدتهم وعتادهم وفسادهم؟! يا ويلنا إن أدركنا ما رمت إليه عائشة في ثورتها عند ضحى الغدا!

(٩)

ما تزال مطالب عائشة تُورق مضاجع القائمين على إدارة المنظمة الدوليّة، ولعلّ ما يُورقهم أكثر إصرارها على بلوغ مراميها، فهي لم تطالب بما طالبت به وقدّمت استقالتها من الوظيفة المرموقة، ومضت إلى حال سبيلها، ولكنها ظلت مُمسكة بالجرم حتى بعد أن عزّ المناصرين الذين صدّعوا رؤوسنا بالحديث عن الوطن والوطنية. وفي خضمّ إصرارها العنيد جاءت مأساة الاغتصاب المعروفة في قرية "تابت". استنفرت عائشة نفسها لتلفت الأنظار لكلّ ممارسات البيعة "يوناميد" والتي طرحتها بوثائق دامغة وجعلت من قضية "تابت" منطلقاً في الوصول لهذه الأهداف. ومن المفارقات التي تعيي الضمير الوطني بـ الإنسانى إنه بينما كانت عائشة تملأ المنابر المقروءة والمسموعة والمرئية وتطالب بتكوين لجان تحقيق مستقلة للتثبت من جريمة "تابت"، انبرى أحد اصحاب "الياقات البيضاء" من الأكاديميين الذين جُبلوا على الشكّ حتى في أنفسهم، لئسود علينا حياتنا قبل الورق، وقال إن ما حدث في "تابت" صناعة أمنية. الغريب في الأمر أن المُشار إليه بعد أن كلّت يده من جمع المال، تدكّر بعد ربع قرن أن هناك نظاماً لبث فينا يوماً أو بعض يوم، فصار يطرنا بمقال في الصباح وآخر في المساء ظاناً أن ذلك يمكن أن يحيي ضميراً مات وهو رميم!

(١٠)

ما ضرَّ عائشة لو فعلت مثله وانهمكت في جمع الدولارات، كان بإمكانها أن تنعم بمُخصّصات يسيل لها لعاب الطامحين، لم يكن مطلوب منها سوى البصم على تقارير الزور وغض البصر عن الخطايا. لكنها انحازت لمبادئها التي آمنت بها ومهرت لها عمراً، وأدركت أن الطعام الذي تأكله مغموس في دماء وآلام المعذبين، وأن السكوت على الجريمة فعل لا يقدم عليه إلا الشياطين.

وعوداً على بدء في مقدّمة المقال - يا سادتي - أقول عندما بلغنا خبر عائشة وفعلها الداوي الشجاع، دعوناها في اتحاد الصحفيين في الولايات المتحدة بامكاناتنا المتواضعة، لتقدم لنا محاضرة تشرح فيها ما التبس وصُعب علينا فهمه. وكانت سعادتنا لا توصف حينما استجابت لدعوتنا بكل أريحية وجاءت وخاطبت جمع من المقيمين في منطقة واشنطن الكبرى. رأينا في وجهها مأساة أطفال الكهوف الهاربين من قصف الأنّتينوف، شاهدنا في عيونها النيران تحرق القرى البسيطة، لمسنا في حديثها محنة النازحين واللاجئين وأنين الثكالى!

صفوة القول - يا أيها المكومين مثلنا - عندما أقول: "استضيفناها بامكاناتنا المتواضعة"، ذلك لا ممّا مِنّا ولا أذى، ولكن لعلّنا بأن لمثل "عائشة" ينبغي أن يُفرّش البساط الأحمر، وترفع الصّوّاري أعلامها، وتعزف الموسيقى أناشيدها، وترصّع كتفاها بالأوسمة والنياشين.. وأيّم والله إنّنا لفاعلون في يوم يروونه بعيداً ونراه قريباً!

ليت أصحاب "الباقات البيضاء" يأخذون نصف وطنيّتهم من هذه الحُمّيزاء!

آخر الكلام: لا بُدّ من الدِّيمقراطيّة وإن طال السّفر!!

٢٠١٤/١١/٢٤

obeikan.com

في وداع آخر الأنبياء السياسيين!

غُيِبَ الموت الأسبوع الماضي الأستاذ التيجاني الطيّب بأكبر، وذلك عن عُمرٍ ناهز الخامسة والثمانين عاماً، سَخَّرَ منها أكثر من ستين عاماً لحياة حافلة بالعطاء والتجُرُّد وتُكران الذات. وهي القيم النبيلة التي لازمته حتى آخر لحظة فُتِيْلَ أن تصعد روحه لبارئها.

كان التيجاني قد نال نصيبه من الاعتقالات في سُجُون الأنظمة الديكتاتورية الثلاث التي تسلطت على رقاب الشعب السوداني. وما قد لا يُدهش الذين يعرفونه عن كُتُب، أن السنوات التي قضاها في المعتقلات والاختفاء القسري، إلى جانب المنفى الاختياري في القاهرة التي جاءها هارباً في العام ١٩٩١م على ظهر جَمَلٍ، قبل أن يعود للسودان مجدداً في العام ٢٠٠٥م قد غطت أكثر من نصف عمره السياسي. والمُفارقة أن القاهرة تلك قد شهدت أوّل اعتقالٍ له في سجن "الهايكسب" في مايو من العام ١٩٤٨م، وكان حينذاك يشغل موقع سكرتير اتحاد الطلبة السودانيين. ورافقه في السّجن كلاً من عبده دهب، عبدالرحمن الوسيلة، محمد أحمد الرشيد، تيّدي جيمس لاركن، والأخير هذا من جنوب السودان، وكان يعمل موظفاً مع الإدارة البريطانية في قنال السويس، إلى جانب آخرين بدأوا الارتقاء في مدارج الشيوعية تحت مُسمّاها المعروف بـ"الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني" (حدثو) قبل أن تصبح "الحركة السودانية للتحرر الوطني" (حستو)، ومن ثمّ الحزب الشيوعي السوداني.

المُفارقة أيضاً، أنهم سُجنوا بسبب انحيازهم للقضية الفلسطينية، إذ تزامن ذلك مع الحرب العربية الإسرائيلية الأولى. والمُثير في الأمر، أن اعتقالهم تخلله إضرابٌ عن الطعام، استمرّ لأكثر من عشرين يوماً. والتيجاني نفسه كان عُمره آنذاك بضعاً وعشرين عاماً!

بمجرّد مواراته الثرى، هرع الكُتّاب والصّحافيون والسياسيون للتعبير عن مشاعرهم في فِقْدٍ عظيمٍ.. طفقوا يُعَدِّدون مآثره، ويُسطرون تاريخاً حافل بالدروس والعبر والمواقف المتميّزة. ومن ضمن ما قرأتُ هُرْنِي موقف صدّر به صديقنا الأستاذ أمير بابكر مقاله التّأبيني ('الأحداث' ٢٤/١١/٢٠١١م) عن التيجاني. بيّذ أن ذاك الموقف، والذي حدث في وقتٍ مُبكرٍ من عُمره، بل في مقبّل حياته،

يمكن القول إنه يتسق تماماً وشخصية الرَّاحِل العظيم، بل جسّد رؤاه وأفكاره ومواقفه السياسيّة، إلى جانب التزامه الصّارم بقضيّته وإيمانه الصمدي بوطنه وشعبه، والإنسان بصورة عامة حيثما كان. فحياة التيجاني كانت أشبه بملحمة أسطوريّة، يحقّ للجيل الحالي والأجيال القادمة أن تلم بها وتتأقّلها كأنقى ما تكون السّير وقصص الرواد المخلصين. ولعلّ مرافعته التي قدّمها في محاكمته الشهيرة في نظام نميري، أو ما اصطّلحنا على تسميته بالديكتاتوريّة الثّانية، بعد إلقاء القبض عليه في العام ١٩٨١م بعد عشر سنوات من الاختفاء الذي حدث عقب ما أسماه الحزب الشيوعي في أدبياته بـ"أسبوع الألام"، في إشارة لموجة الإعدامات التي طالت قاداته وعلى رأسهم الشهداء: عبدالخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ وجوزيف قرنق وهاشم العطا وبابكر النور وآخرون. تلك المرافعة تُعدّ من أروع ما قيل في وجه جلاّد أينما كان، ولذا لو أننا كنا نرفل في ظلّ نظام ديمقراطي، لصابنا بأن تتضمّن مناهج التعليم حتّى يعلم الخلف كيف يمكن للمرء أن ينذر حياته لوطنه، ويكون على استعداد للتضحية من أجله، وبينه وبين الموت بضع خطوات!

كتب أمير في مقاله المشار إليه:

«كان والدي مكلفاً بالحفاظ على، وترحيل الرَّاحِل عبدالخالق محجوب إلى أن يجتاز الحدود إلى مصر، للحاق بمؤتمر للأحزاب الشيوعيّة في موسكو في النصف الأول من الستينيات، في وقت كانت تبحث عنه القوّات الأمنيّة لمنعه من ذلك. تمّ الاتفاق على اجتيازه الحدود عن طريق البر وبواسطة عربية "لوري" والتنسيق هناك داخل الأراضي المصريّة لاستقباله بواسطة آخرين. ظهر الأستاذ التيجاني فجأة في وادي حلفا، وهو الرّجل الثّاني في الحزب الشيوعي السّوداني، وكان في طريقه إلى مصر أيضاً في مهمّة حزبيّة، ليجتمع مع عبدالخالق وصاحب العربيّة "اللوري" وهو عضو في الحزب الشيوعي ووالدي، الذي يعمل في وادي حلفا حينها، في المنزل حيث يختفي عبدالخالق. وكان الاجتماع، حيث جلس الأربعة حول طاولة، لمتابعة الترتيبات النهائيّة لخطة السّفر. شرح صاحب "اللوري" الموقف، وقال إنّ العربيّة لن تكون جاهزة في الموعد المحدّد. كان ذلك يعني عدة أشياء، فالذين سيستقبلون عبدالخالق في الجانب المصري لا يعرفون إلا هذا "اللوري"، الذي يجب أن يصل في تاريخ ووقت محدّدين، والوصول إلى نقطة محدّدة سلفاً. أي تغيير سيضطر الجميع إلى وضع ترتيبات جديدة في ظلّ تلك الظروف المعقّدة.

ما أن سمع الرّاحِل عبدالخالق هذا الأمر، حتّى نهض واقفاً، وهو في حالة انفعال وهياج، بسبب الإخفاق في الترتيبات،

وأمسك بأوراق في الطاولة التي اجتمعوا حولها وقذف بها بشكل عبّر عن فقدانه لأعصابه. حدث كل ذلك لمدة ثوان، ليتحدث الأستاذ التيجاني في صرامة إلى عبد الخالق بقوله: "إنك لا تصلح أن تكون سكرتيراً للحزب الشيوعي" .. وأضاف: "إنني سأقدم تنويراً للجنة المركزية بما بدر منك، وأطالبك باعتذار رسمي". فما كان من الزعيم عبد الخالق إلا أن وقف مرة أخرى قائلاً للتيجاني والآخرين: "إذا لم تفعل ذلك، لن تكون شيوعياً، وأنا بدوري سأقدم اعتذاراً الآن هنا وأمام اجتماع اللجنة المركزية وحتى في الجريدة الرسمية". انتهى الاقتباس في الرواية التي صاغها أمير في سياق مقاله المؤثر.

عرفت التيجاني في منتصف ثمانيات القرن الماضي، عندما زرت السودان للمرة الأولى بعد انتفاضة أبريل ١٩٨٥م، حينها قُيِّمَت من الكويت لإجراء حوارات صحافية مع عدد من قادة النشاط السياسي، وبالضبط كان من بينهم الأستاذ محمد إبراهيم نُقِدَ، ذلك للألق الذي صاحب اختقائه، ونظراً لتاريخ الحزب النليد في مقاومة ذلك النظام الديكتاتوري يومذاك. قصدتُ صحيفة 'الميدان' الناطقة باسم الحزب الشيوعي، مصحوباً برسالة شفهيّة من صديقي العزيز الدكتور مصطفى خوجلي. وكانت الصحيفة تقبّع في دارٍ متواضعة في شارع صغير متفرّع من شارع الحرية.. دخلتها حيث بدأت قصّتي مع التيجاني، أو ذاك الشخص الصّارم القسّامات، والذي هالني بأنه يتحدّث لزملائه بصوتٍ جهور كأنه في خضمّ تظاهرة. سألته عن الأستاذ نُقِدَ بعد أن قدّمتُ له نفسي، فلم يزحزح ذلك من الأمر شيئاً. جاوبني باختصار يبعث الضيق في النفس: «انتظره هنا، يمكن يجي»!

كنتُ آنذاك طراً غريباً، توهمتُ أن الحزب الشيوعي سيحتفي بي وسيفرش لي بساطاً أحمرأ أتبختر فيه كيما اتفق، لكن تضاءلت أوهامي هذه عندما وجدتُ الحزب نفسه يبحث عن مُغيث.. صحيفة تقبّع في دارٍ متواضعة تتكوّن من غرفتين، ربّما ثلاثة، بالكاد تسع شاغليها. وزاد من إحباطي أنّ الرّجل الذي قالوا لي إنني سأجد عنه مقصدي، كان صارماً حدّ العجرفة، كأنه يتأهب لمعركة محتملة. غادرتُ المكان، وتوالى حضوري لأصطدم بذات الإجابة المختصرة، مرّة ومرّتين وثلاث.. خرجتُ في الأخيرة وأنا عازمٌ بعدم العودة مرّة أخرى. كانت المفاجأة، أن التقى مصطفى خوجلي في بوابة الدار، وكان قد قدّمَ للتوّ من الكويت أيضاً. أديتُ له ضيقي وتبرّمي، فضحك ضحكته الودودة التي تمتصّ منك الغضب وإن تراكم جبّالاً، ثمّ أمسك بيدي ودلفنا للدار مرّة أخرى وقدمني للتيجاني، فلم أشعر بأن الأمر تغبّر في كبير شيء.. اختصاراً لتفاصيل كثيرة، ليست بذات أهميّة، نلتُ مرامي.. أمّا علاقتي بالتيجاني، فقد بدأت بأخذ منحى آخر

عند كل زيارة للوطن في ظل ديمقراطية وارفة، أو هكذا نظن! لمست فيها ما خفي عني في شخصه، أو بالأحرى ما لا يمكن معرفته إلا بالاقتراب منه!

بند أن علاقتي هذه اتخذت مساراً آخر أكثر حميمية بعد وصوله القاهرة التي سبقته إليها بالدوافع نفسها. وفي مشهد لاحق، سألته تفصيلاً عن رحلة هروبه تلك والتي وثقت لها وأشياء أخرى في كتابي الأخير "سقوط الأقنعة" فلفت نظري بإجاباته المختصرة حول خواطره حولها، فقال لي إنه: «لا يعرف عنها شيئاً غير جمال الصحراء، حيث الهدوء يغم المكان، والأرض منبسطة بلا نهاية، لا تسمع فيها سوى أزيز الرياح وهسيس الأبل». ثم بعد وصوله القاهرة، قيضت لي الظروف أن نلتقي كثيراً، حيث سكنا متجاورين وبيننا صديقنا الودود محمد عبدالماجد، وهو بحكم عضويته في الحزب كان المسئول عن ترتيب أموره. بدأت يومها تتشكّل لي سيرته على نحو آخر بحكم المعاشية، كانت فيها العلاقة بعدئذ أشبه بنبتة صغيرة حرص كلانا على رعايتها بحنو بالغ.. كمن يخشوا أن تذروها ريح صرصر عاتية!

تلك كانت الفترة التي بدأ فيها النشاط السياسي والإعلامي المعارض في التشكّل. واتساقاً مع همومه الإعلامية المعروفة، كان التيجاني حريصاً على أن تصدر صحيفة ناطقة بلسان الحال، الذي كنا فيه غارقون. ذلك ما تحقق بعدئذ بصحيفة أسبوعية متواضعة يعجز "سيزيف" وصخرته عن حملها، وسمّيناها السودان وكانت بحجم 'التابلويد'، وأصبح التيجاني مشرفاً عليها. كنتُ محظوظاً، بل غمرتني السعادة حينما شعرت بأنه كان يرمي إليّ بأعبائه عمداً في متابعتها مع زملاء كرام، وذلك نظراً للمهام السياسية التي تناقلت عليه، وهو القادم لعاصمة ضخمة بكل ضيائها وضوضائها. فيها التقى التيجاني بعد صول غياب، رفاقاً بأعدت بينه ديمقراطية التاريخ وديكتاتورية الجغرافيا، منهم السادة: خالد محي الدين، رفعت السعيد، حسين عبدالرزاق، فريدة وأمينة النقاش، عبدالعظيم أنيس وآخرون.. كان يُحدّثني عنهم بوِدٍ وألفة تذيب الصّخر العصيّ.. يومها أدركتُ وأنا زعيم بحركاته وسكناته، أنه أصبح أكثر ألفة ومودة، وفوق كل ذلك، أكثر همّاً وغمّاً من مُستقبل لا ندري كنهه!

اتساقاً مع نهجه وتصالحه مع نفسه، عاش التيجاني زاهداً في شقة متواضعة في القاهرة بمدينة نصر، ولكنها كانت كخلية نحّ، لا تخلو أبداً من الزّنين. وبحكم الجوار الجغرافي، كنتُ أغشاه كثيراً ويعشاني لماماً بتواضعه الخجّ. وبين هذا وذاك بيننا الهاتف الذي لا ينقطع. في هذا الصدد، لا بدّ من ذكر ما لمسه غيري عنه، لا سيّما، في حياة الزّهد والتجرّد تلك. كان التيجاني يستقلّ المواصلات العامة، وكنتُ كثيراً ما أشعرُ بالشفقة عليه، وهو في عُمره السبعيني. والمفارقة، أن لا يكفي بذلك، بل يُصرّ على تصدير زّهده هذا للآخرين، وبينهم من ليس في حاجة لذلك. مثل نصائحه لزوّاره حينما يغادرونه إلى وجهة أخرى،

فَيَتَبَرَّعُ لَهُمْ بِأَرْقَامِ حافلات مدينة القاهرة، التي يمكن أن تقلعهم إلى حيث يريدون..
«طالما أنت ماشي نُصَّ البلد، يمكنك أن تستغل ٥٠٠ أو ٥٠٠ بشرطة من
محطة رابعة العدوية القدامنا دي، وإذا إنت ماشي العباسية أحسن حاجة تأخذ
٤٩ أو ١٨».. وهذه هي أرقام مواصلات القاهرة التي كان يحفظها عن ظهر
قلب، كمن يحفظ المرء أوراده عقب كل صلاة.. لقد عاش التيجاني في تلك
المدينة الباهرة كما عاش أبا ذر في زهده!

في ذات مرة جنته زائرا، ووجدت في باب العمارة التي يقطنها نفرا من
الحرس الشرطي المصري، الذين أكثروا السؤال عن شخصي وأسباب زيارتي
وأشياء من هذا القبيل. وعندما صعدت إليه في الطابق الرابع، قلت له مداعبا:
«يا أستاذ منتهى الأهميات، يعني بعد كده لازم نجيك بموعد وتفاصيله؟»..
شعرت أنه لم يُبدِ ارتياحاً لملاحظتي الودودة، فقلت له: «الحكاية شنو؟».. فقال
لي: «الأخوة المصريين - كثر الله خيرهم - قالوا إننا مستهدفون، ولذلك وضعوا
هذه الحراسة لقيادات التجمع الوطني بعد تواتر أخبار عن اغتالات محتملة»..
فقلت له، غير آبه بما قال، ومواصلاً دعابتي: «طيب كويس».. فبادرني بالقول:
«الكويس شنو؟».. واستطرد: «ده قانض عمالة ساكت.. أسنه الجماعة ديل
مفروض توفر ليهم إعاشة، ونحن ذاتنا في حاجة لمن يعيشنا». عجبني لمن كان
ذلك همه الذي علا على هم اغتياله، وعلمت فيما بعد أن بعض إخواننا في الكيان
نفسه - غفر الله لهم - ممن حباهم الأخوة المصريين بذات المزية، صاروا يدعون
معرفهم بإصرار، ليس حُباً في طلعتهم البهية، ولكن من أجل أن يروا النعيم الذي
فيه يرفلون!

بما أن الشيء بالشيء يُذكر، فثمة قصة لا بُدَّ وأن تُروى في السياق نفسه، إذ
حكى لي قصة مثيرة، لا أعتقد أنه حكاها بذات الأريحية لآخرين لا يعلمونها. قال
لي: «لو صحَّ موضوع الاغتيالات هذه، سترتكب هذه الجماعة خطأ لن ينمحي
أبد الدهر».. ثم مضى في القصة الشيقة أو الشائقة - سيان - فقال: «ذات يوم
في الحقبة الديمقراطية الأخيرة، ألقى شباب الحزب القبض على شخص كان
يتربص بي، ووجدوا بحوزته سكينا "مدية" بغية اغتيالي. وعندما تمَّ
استجوابه، أخبرهم بأنه مكلف من الحزب الغريم أي الجبهة الإسلامية، وسمي
لمعتقليه الذين كلفوه بتلك المهمة المقدسة».. لكن تيجاني رفض رفضاً باتاً أن
يذكر لي أسماءهم، وقال لي: «من خلال التحقيق اتضح أن الرجل مأجور مقابل
حفنة من المال وعد بها، فأطلقنا سراحه ولم تصل القضية للأجهزة الشرطية
خشية زعزعة النظام الديمقراطي». عند هذا الحد، كنت أظن أن القضية انتهت.
فباغتني التيجاني بقوله: «الأسبوع الماضي قابلت نفس الرجل بعد سنوات، وأنا
أتأهب لدخول محطة الميترو في ميدان التحرير!.. فنهت، وعاجلته بسؤال
سريع: «طيب، وحصل شنو؟»، فقال لي بطريقته المعهودة في تبسيط الأشياء:
«حصل شنو.. سلمنا على بعض، وكل زول مشى في حاله»!

من المواقف الطريفة التي استذكرتها، حدث ذات مرة أن زُرتَه في منزله وكان يجلس وحيداً حيث أن زوجته، الأخت الفاضلة "فتحية" كانت في زيارة للسودان.. فتح لي باب الشقة بعد فترة طويلة، واعتذر ضاحكاً بأنه كان في الحمام، ثم تبع ذلك بتساؤل فلسفي: «يا أخي، هل من الضروري إنو الزول يحلق ذقنه كل يوم؟».. وواصل: «تصور أنا وقفت قدام المرأة وخطر ببالي أنني أمارس هذه العادة لأكثر من خمسين سنة دون أن أتركها يوماً واحداً، اللهم إلا في ظروف قاهرة».. فقلْتُ له مداعباً: «غايِتو لو ما حلقَتها الناس ما حتفرّق بينك وبين الجماعة».. وقبل أن يجيبني بشيء سردتُ له حواراً دار بين الصديقين الزاحلين: علي عبدالقيوم ويونس الدسوقي، وهما من جمعت بينهما علاقة حميمة. إذ قال الثاني للأول، بعد أن شكا من تلك العادة اليومية: «إيه رأيك يا علي الواحد لو أطلق لحيته بعد هذا العمر؟».. فقال له الثاني بدعابته اللطيفة: «يعني حيحصل شنو، غير ما إنك حتريّل فيها».. فضحك الرجل الموسوعة، أو "عم يونس" كما كنا نحب أن نناديه، وقال له: «يعني كارل ماركس كان يريّل فيها؟!».. فضحك التيجاني كما لم يضحك من قبل، وسرت بيننا روح الفكاهة!

عندما انتقلت للعاصمة الإريتريّة أسمرا، قيّضت الظروف أيضاً لأعضاء التجمّع الوطني الديمقراطي مقراً، فصاروا يتوافدون عليها.. كان التيجاني حريصاً كلما زارها بتواتر لحضور اجتماعات هيئة القيادة على الاتصال بي بمجرد وصوله، وتوضّدت العلاقة بينه وبين زوجتي الفقيدة الراحلة وداد صديق.. فكان يُلزمها بما يُسمّيه "تعليمات" محدّدة في مأكله ومشربه، ونقضي بعدنّ وقتاً طويلاً..

والحديث يطول، ولكن ما استذكره دوماً في تلك اللقاءات، ان التيجاني كان يعاملني فيه بأريحية كأنني عضو في حزبٍ لم أنتم له أصلاً، وليس بيننا سوى تلك الوسائج الأزلية التي تربط بين الديمقراطيين بصورة عامّة. مؤخراً التقيتُه في السودان ولم أشعر بتغيير في شخصه، سوى إحساسٍ مقاتلٍ غير البندقيّة من الكتف اليمين للكتف اليسار، أو العكس. لكن صفوة قولِي، أنني تعلّمت من التيجاني فوق ما ذكرت.. كيف يمكنك أن تخالف الناس في الرأي، بشرط ألا تُبغضهم. فهل علّمت العُصبة ذوي البأس الدّرس كما علّمنا؟!

آخر الكلام: لابد من الديمقراطيّة وإن طال السّفر!

٢٠١١/١١/٣٠

في عيد ميلاده الأول!*

الحضور الكريم،

مساء الخير عليكم جميعاً، وأنتم تجتمعون لتأبين وتخليد ذكرى رجلٍ عظيم.. قمرٌ أضاء حياتنا ورَحَلَ عَنَّا في ظِلِّ عُتْمَةٍ غطت كل أرجاء الوطن، رَحَلَ عَنَّا دون أن ينتظر ثمرات نضاله الوطني الهادف إلى إقامة وتأسيس وترسيخ الدولة المدنية الديمقراطية. ولكن عزاًؤنا أن الرَّاحِلَ المقيم، “الأستاذ التيجاني الطَّيِّب بابكر” ترك لنا إرثاً عظيماً من القيم والمبادئ والأخلاق النادرة في الحقل السياسي، وفي مضمار العمل العام. ولا شكَّ إنها تُعَدُّ خير زادٍ لنا ونحن نواصل مسيرتنا في النضال المشروع ضدَّ الديكتاتورية والشمولية، وحُكْمُ القهر والتسلط، ودولة الاستبداد التي تجلس على ركامها طُغْمَةُ الجبهة الإسلامية، ونحن على يقينٍ بأن بشائر رحيلها تلوح في الأفق في يومٍ يروونه بعيداً، ونراه قريباً بحَوْلِ الله وبقدرة الشعب السوداني الصابر على مُكرِهِم.

ذات يوم، وفي لحظة صفاء ذهني وروحي، كنتُ قد جلستُ إلى أستاذي التيجاني الطَّيِّب في شقته المتواضعة بمدينة نصر (القاهرة)، وكنتُ قد سألتُه عن اللحظات والملابس التي صاحبت معرفته خَيْرَ الانقلاب المشنوم، أي الساعات الأولى بعد منتصف ليل يوم الخميس وصبيحة يوم الجمعة ٣٠ يونيو ١٩٨٩، فسردَ لي بطريقة المُعْنَةِ في الدِّقَّة تفاصيل اعتقاله، وهي القصة التي وثقتُ لها في كتابي الموسوم بـ “سقوط الأقنعة.. سنوات الأمل والخيبة”، وفي مناسبة الوفاء هذه، رأيتُ من الضروري اقتباس نذرٍ منها، وعلى الرغم من صغرِها إلا أنها تنطوي على عبرٍ ودروس غاية في الأهمية، ولهذا تستحق وقوفاً متأملاً في حضرة رجلٍ شامخٍ ينذر أن تجد له مثيلاً بين السياسيين!

قال لي الأستاذ التيجاني: «سمعتُ طرقاً شديداً على الباب الخارجي، فنهضتُ منزعاً وكل الذي دار في خاطري أن صهري الذي كان مريضاً قد حدث له مكروه، وجاء من يُبلغني ذلك الخبر، ولكن عندما فتحتُ الباب فوجئتُ بضابطٍ من الجيش برتبة نقيب ومعه اثنان من الجنود، فبادرني بلهجة هادئة لم تتخللها أي حدةٍ محتملة في مثل هذه المواقف، وقال لي: “إن القيادة العامة للقوات المسلحة استولت على السلطة، وأن هناك قيادات سياسية تقرر التحفظ عليها لمدة يومين أو ثلاثة، وبعد أن تعود الأوضاع لطبيعتها سيطلق

سراحهم"، فاستأذنته في تغيير ملابسي، وحملت معي ما اعتبره ضرورياً، مثل فرشاة الاسنان والمعجون وماكينته الحلاقة، وخرجت معهم، فوجدت في الخارج سيارة صغيرة طراز تايوتا بيك أب، فأجلسوني بين جندي وآخر مدني كانا ينتظران في السيارة، وصعد النقيب إلى جانب السائق، حينها لاحظت أن العلامة العسكرية تشير إلى أنه ينتمي للسلاح الطبي، وحتى ذلك الوقت لم يدر بخليدي أن هذا الضابط أو الانقلاب كله من تنفيذ الجبهة الإسلامية، بالرغم من أننا كنا على مدى أسبوع تقريباً نكتب في 'الميدان' مقالات وتحليلات تشير إلى أن الجبهة الإسلامية عمدت إلى تكتيكات إنقلابية، وأنها تضمّر شيئاً من ذلك القبيل، وبالطبع كان ذلك صحيحاً، ولكننا لم نتخذ أي إجراء كان يفترض عمله. وصحيح أيضاً أننا أوصلنا الرسالة للسيد رئيس الوزراء، إضافة إلى أننا حاولنا تنبيه الناس وأشعارهم بالخطر القادم، ولكننا لم نطرح شعاراً محدداً تجاه ما كان متوقعا - أي الانقلاب - وهذا خطأ أو تقصير من جانبنا نتحمل مسؤوليته.

بالعودة للسيارة التي أقلتنا، كان الجميع صامتون، وفي الخارج ليس هناك ما يلفت الانتباه غير حفلات الزواج الكثيرة على جانبي الطريق المؤدي إلى "وادي سيدنا" وهو منظر تقليدي، فمثل تلك المناسبات الاجتماعية دائماً ما تقام في نهاية الأسبوع، وكنت قد استسلمت لمقولة النقيب في أن الانقلاب من صنع القيادة العامة، ولم أستغربها، خاصة أن المناخ السياسي كان مضطرباً بعد المذكرة الشهيرة.

عند وصولنا إلى مدخل مدينة أمدرمان من جهة الخرطوم العاصمة، حيث يوجد "قصر الشباب والأطفال"، اتجهت السيارة يمينا، فخامرني شك في تلك اللحظة بأن الانقلاب ليس من صنع القيادة العامة، كما قال النقيب، وغلب على تفكيري أن الجبهة الإسلامية تقف من وراء التدبير، وفي ضوء ما كنت أكتبه من افتتاحيات الصحيفة، سيطرت عليّ هواجس تحذثني بذنوبي نهائيتي، وتلقانياً انصرف ذهني في استعراض مسيرة حياتي بمحطاتها المختلفة، فغمرني شعور بارتياح الضمير...

مضى الأستاذ التيجاني في سرد بقية التفاصيل بذات الدقة.. أما نحن، فلسوف نستوقف أنفسنا قليلاً فيما اقتبسناه من روايته تلك، لنأمل ثلاثة مواقف تشكل نهجاً متميزاً وطابعاً استثنائياً في شخصية الراحل العظيم:

• **الموقف الأول:** تمثل في تعليق الأستاذ التيجاني حول الملابس التي سبقت الانقلاب.. «هذا خطأ أو تقصير من جانبنا، نتحمل مسؤوليته»، الأمر الذي يؤكد نهجاً دأب عليه وعُرف به، وهو شجاعته التي لا تعرف التردد وهو يجنح للنقد الذاتي متى ما أدرك أن ثمة خطأ يستوجب النقد، وللأمانة نقول، أن تلك الخاصية هي الفضيلة الغائبة عن سلوك كثير من القيادات والناشطين السياسيين، على الرغم من أننا نعرف أن بعضهم ارتكب من الأخطاء الفادحة

ما قد يرقى إلى درجة الخيانة الوطنية، ولكنهم عوّضاً عن ممارسة النقد الذاتي، أو الاعتذار للشعب المغلوب على أمره، استغلوا المناخ الذي يُسميه البعض بـ"التسامح السياسي السوداني"، وأفرغوه من معانيه الحقيقية، حتى أصبح أقرب إلى التفريط في الحقوق الوطنية، ووسيلة للهروب المتعمد من المسؤولية التاريخية..

بالطبع لم تكن تلك هي الواقعة الأولى التي يشهد المرء فيها للأستاذ الراحل التيجاني بفضيلة النقد الذاتي، إذ أنني علاوة عليها أذكر له أيضاً أنه فعل الأمر نفسه في ندوة سياسية جامعة، أقامها مركز الدراسات السودانية صيف العام ١٩٩٣ تقريباً، في مركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية بالقاهرة، يومذاك قدم الأستاذ التيجاني شهادة للتاريخ، تحدث فيها منتقداً ثلاثة مواقف في مسيرة حزبه (الشيوعي السوداني) وكانت حول الموقف من قضية تقرير المصير قبيل استقلال السودان، والمشاركة في المجلس المركزي الذي أسسه نظام الفريق إبراهيم عبود، أو ما دُرج على تسميته بالديكتاتورية الأولى، إلى جانب الموقف من انقلاب العقيد جعفر نميري، أو ما دُرج على تسميته بالديكتاتورية الثانية.

ليس هذا فحسب، إذ أنني أذكر له كيف احتدّ ذات يوم في اجتماع دوري لهيئة قيادة التجمّع الوطني الديمقراطي، منتقداً السيد الصادق المهدي في أمر ما، وكان نقداً لاذعاً، بصورة جعلته يطلب في اليوم التالي الإذن من المجتمعين في مستهل اجتماعهم، وتحدث منتقداً طريقته ومعتذراً للسيد الصادق المهدي بشجاعة لا يستطيع تحمّل تبعاتها إلا من عرّف قدر نفسه، وحقاً "إذا كانت النفوس كباراً، تعبت من مُرادها الأجسام". هذا وذاك يجعلني أقول بثقة مُفرضة، إن الأستاذ التيجاني كما عرفته، هو من شاكلة قنّة من البشر نقول عنهم في ثقافتنا الشعبية "ألقي قلبه، في لسانه"، أي أنه كتاب مفتوح لا يُرهِق قارنه بطلاسم تُجهد العقل والعين معاً، بالرغم من أن حقل السياسة يعد - كما هو معروف - الحقل الأكثر عُرضة في ممارسة سلوكيات مغايرة تماماً لنهج الوضوح والعلانية.

• **الموقف الثاني:** الذي استوقفني في نذر التوثيق التي اقتبسناها من حديث الأستاذ التيجاني حول ملابسات الانقلاب، هو أعمال فراسته السياسية - إن جاز التعبير - في التنبؤ بهويّة الانقلاب في لحظات مبكرة، في الوقت الذي ظلّ بعض الناس يتجادلون حول هويّته رداً من الزمن، مستسلمين لنهج التعمية الذي جنح له أهل النظام في الاستعانة بمنهج وزير الدعاية النازي "جوبلز"، صاحب المقولة المعروفة والشهيرة: «إكذب وإكذب وإكذب حتى يصدقك الناس»! بل الغريب في الأمر أن الغصبة التي نفذت الانقلاب، استمرت الكذب وظلت تتحرّاه على مدى أكثر من عقدين من الزمن، واتخذ أشكالاً

والوانا كثيرة، وتفترخ ليمتد لكل مناحي الحياة، لدرجة باتوا يُصدِّقون كذبهم قبل أن ينطلي على الآخرين، وهو كذب لم يترك حجراً ولا بشراً إلا وأصابه بشروره الوبيلة!

• **الموقف الثالث:** والأخير فيما استوقفني في حديث الأستاذ التيجاني بصورة أكثر تأملاً واستقراءً، تمثل في ردود فعله الفورية عندما خامره شعور بدُنُو أجله، وذلك في قوله: «تلقائياً انصرف ذهني في استعراض مسيرة حياتي بمحطاتها المختلفة، فغمرني شعورٌ بارتياح الضمير».. وهذا لعمري شعورٌ لا يمكن أن يُداهم إلا الذين نذروا حياتهم لترسيخ القيم العليا، وعاش من أجل الآخرين، متصالحاً مع نفسه ومتوائماً مع ذاته، ومؤمناً بمعتقداته السياسيّة والفكريّة. والنفس المُطمئنة - كما نعلم - هي التي ترجع إلى ربّها راضية مرضية، بحسب ما أكد لنا الخالق تبارك وتعالى في قرآنه الكريم.

في التقدير يمكن للمرء أن يسرد كُتباً ومُجلّدات عن المواقف التي ميّزت حياة الزّاحل العظيم، الأستاذ التيجاني غمّن سواه من السياسيين الذين احترفوا السياسة، أو إن شئت فقلّ امتهنوا السياسة، وبعضهم ابتذلها تنظيراً وتفعيلاً، ولسنا في حال بسط الموازين وتقييم الناس وأفعالهم فـ"كلّ نفس بما كسبت رهينة"، ولكننا نستذكر ذلك لنؤكد فيما نحن لسنا في حاجة لتأكيد، في أن الفقيد الزّاحل الأستاذ التيجاني أخط لنفسه منهجاً أقرب إلى المثاليّة، كان سياسياً متصوّفاً، وزاهداً متبتلاً، وبسيطاً متفرداً، الأمر الذي أضفى على شخصيّته سحراً وجاذبيّة ومنحه تلك الكاريزما الاثّرة، حتى ليكاد المرء أن يقول أنه أسس لنفسه مدرسة فريدة، حتّماً ستكون نموذجاً لكلّ من أراد مجداً لنفسه ورقيّاً وتقدّماً وإزدهاراً لوطنه!

كان الأستاذ التيجاني قد أكمل لي سرد تلك الملابس إلى أن استقرّ به الوضع مع آخرين في سجن كوبر العتيق، ولسنا في حاجة للتذكير بأن سنوات المُعتقلات والإختفاء القسري إلى جانب المنفى الاختياري كانت قد غطت أكثر من نصف عُمره. وطالما أن التحالفات السياسية هي محور هذه الندوة، حريّ بنا القول إن سجن كوبر نفسه شهد أول خطوات التحالف الذي أنتج فيما بعد الكيان الذي سُمي بـ"التجمّع الوطني الديمقراطي" وذلك بتوقيع ميثاقه داخل السجن في أكتوبر من العام ١٩٨٩، أي بعد شهور قليلة من الانقلاب الكارثي. وطالما أن الحديث عن التحالفات السياسية يجدرُ بنا القول أن الأستاذ التيجاني وفق توثيقنا المذكور، كانت له اسهامات واضحة في الجهود التي سبقت توقيع الميثاق المذكور، ومن ثمّ امتدّت تلك الجهود إلى خارج السّودان، كان ذلك بعد أن نجح في الهروب على ظهر جملٍ إلى القاهرة (نوفمبر ١٩٩٠) من برائن النظام الثيوقراطي، الذي بدا يُكثّر عن أنيابه آنذاك، مختطاً إجراءات قمعية قاسية، مثل الإعدامات وإزهاق الأرواح بطريقة بشعة ولا إنسانية، وكذلك تدشين ظاهرة

“بيوت الأشباح” والفصل التعسفي، فيما أسموه بلا حياة أو أخلاق بـ “التمكين السياسي” وإن كان هذا نهجاً يتسق ومنهجهم وسلوكياتهم المريضة.

في سبيل ترسيخ التحالف المذكور، تواصلت الرحلة، والتي نتج عنها رغم وعشاء السفر وصعوبة الأثر “التجمع الوطني الديمقراطي”.. حدث ذلك بعد أن استقر الرّاحل المُقيم التيجاني في القاهرة، فتعاضدت جهوده مع آخرين بدءاً بما سُمي آنذاك بـ “لجنة التنسيق العليا” وطالما أن الفضل بالفضل يُذكر، نعيد هنا ما ذكرناه ووثقنا له في مقام آخر، وهو أن تلك جهود أسهم فيها الأستاذ فاروق أبو عيسى بجهد وافر بما اكتسب من ملكاتٍ سياسية وقدراتٍ تنظيمية، فكان بمثابة حجر الرّحى، حيث سخر فيها إمكانات “اتحاد المحامين العرب” كذلك، مستغلاً تطابق أهدافه مع القضية السودانية، وكانت بالفعل تجربة ثرية، رغم المحن والإحزن التي تكالبت عليها.

يمكن القول إن الخاصية التي ميّزت تلك التجربة، تمثلت في انضمام الحركة الشعبية لتحرير السودان لها، وهي في طور التخليق (١٩٩٠)، بعد أن قامت بالتوقيع على الميثاق، الأمر الذي تطلب إدخال تعديلاتٍ جوهرية عليه، أصبح تبعاً لها “الكفاح المسلح” آلية إضافية في أساليب المقاومة، جنباً إلى جنب مع “الانتفاضة الشعبية” و “العمل الإعلامي والدبلوماسي”، والجدير بالذكر أن الاجتماعات التي عُقدت بعدن في القاهرة، أديس أبابا، لندن، ونيروبي، عملت إلى حدٍ كبير إلى إزاحة النقاب قليلاً عن أهم قضية استهلكت قدراً وجهداً كبيراً في الواقع السوداني بعيد الاستقلال، وهي “قضية الدين والدولة”، حيث مهّدت تلك المؤتمرات إلى الوصول لصيغة تُعدّ من أرفع ما توصّل إليه العقل السياسي السوداني، وهي البند الذي عُولجت به تلك القضية في اجتماعات أسمرأ، أو ما سُمّي بـ “مؤتمر القضايا المصرية”.

لسنا بصدد تفصيل رحلة مُضنية بالفعل، سارت قافلتها صعوداً وهبوطاً إلى أن انتجت اتفاقية “نيفاشا”، أو ما سُمّي بـ “اتفاقية السلام الشامل”، وتنازلت بعدها اتفاقيات أخرى في جَدّة والقاهرة وأبوجا وغيرهم، وجميعها رَمَت بالتجمع الوطني الديمقراطي إلى أسفل سافلين، عوضاً أن تُؤدّي به إلى عليين ومقام مكين.. لكن ما يجدر بنا قوله إن تلك التجربة برغم هفاتها والأخطاء التي قَبَرَتها، إلا أنها تُعدّ من أرفع صيغ التحالفات السياسية، ويمكن القول إن أدبياتها ما زالت تُشكّل زاداً لن ينضب معينه، ويمكن أن تكون هادياً لكلٍ من أراد أن يهتدي بها في تجربة مماثلة.

في التقدير أن الظروف الحالية التي يمرُّ بها الوطن تُحتم على كل الوطنيين المُخلصين والحادين على مصالحه، الشروع العاجل فوراً في بناء تحالفٍ سياسي عريض، ويمكن التمهيد له بحوار موضوعي جاد، يهدف إلى تقريب المواقف المتباعدة وتذليل الصعاب الماثلة، ولسنا في حاجة للقول إنه سيكون بمثابة صمام

الأمان الذي يمكن أن يُقال من الأخطار المُحيقة، وهو الذي سيكون مؤهلاً لقيادة المسيرة نحو الإطاحة بالعصبة الحاكمة وتقصير معاناة الشعب السوداني، ومن ثم تأسيس الدولة المدنية الديمقراطية!

بيد أننا لا بُد من الوضوح والصراحة بالتأكيد على أن الوصول إلى مثل هذا المشروع لن يتأتى ما لم نضع في الاعتبار القضايا التالية:

- **أولاً:** كلنا يعلم أن تجربة التجمّع الوطني الديمقراطي قُبرت دون تشييع من قِبل الذين كانوا لُحميَّتها وسُدَّاتها، وهو أمرٌ لا يجافي الأعراف والمناهج والسلوكيات الديمقراطية فحسب، وإنما يندرج تحت باب الإهمال، الذي يستوجب حساباً عسيراً. لم تكن تلك التجربة نُزهة حتى تنتهي بانتهاء المشوار، ولكنها كانت تجربة عظيمة، استهلكت وقتاً ليس باليسير، وجهداً ليس بالقليل، وفيها أرواحٌ بذلت وأموالٌ فُضِّت ومواقفٌ سُجِّلت، ينبغي أن تُعرَضَ على بساط الشفافية والصدق طالما أنها تحدّثت باسم الشعب السوداني.

من جهة أخرى، كلنا يعلم أنها تحدّثت الإطار الجغرافي السوداني، وانداحت لتشمل بعض دول الجوار الإقليمي، وبعض دول العالم كذلك. إذا فالواجب الوطني يحتم على الذين تسنموا فيها المناصب عقد مؤتمر ختامي يُشرح التجربة بشكل لائق، تُنصب فيه موازين الحساب والمحاسبة على بساط العدل والصدق والشفافية، وهو ما نعهده أمراً حتمياً لن يسقط بتقادم السنين، ولن ينطوي بتراكم القضايا، وعليه يمكن القول إن أي حديث عن تجربة جديدة لا يخضع القديمة للأسس التي ذكرناها، سيكون محكوم عليه بالفشل حتماً!

- **ثانياً:** من الناحية النظرية يمكن القول إن بعض أدبيات مؤتمر القضايا المصيرية ما زالت صالحة زماناً ومكاناً، ولكن بقليلٍ من التشذيب والترغيب، وكلنا يعلم أن أهمَّ القضايا التي عُولجت في ذلك المؤتمر كانت قضايا تقرير المصير والدين والدولة وآليات النضال ضد النظام الديكتاتوري، بما يعني أن هذه القضايا ما زالت تشكّل نصف المسافة نحو تأسيس مشروع تحالف سياسي عريض، بغضِّ النظر عن أن النظام القائم - برعونته المعروفة - عبث بقضية تقرير المصير كما يعبث "الديك بالعدّة"، لكن لا ينبغي أن يُقعد ذلك المُخنصين عن بلوغ الغايات العظيمة، فما يزال في نهاية النفق ثمة ضوء يمكن أن ينير العتمة، ويُصلح واقع الحال، بعيداً عن سُحب التشاؤم التي تراكمت وجبال الاحباطات التي تطاولت من ممارسات الطغمة الحاكمة!

- **ثالثاً:** يمكن القول أيضاً إن "قضية الدين والدولة" التي وضعت الوطن كنه في كفت عفريت أصبحت في حاجة مُلحة لوضوح كامل، وفي هذا الصدد نعتقد أن ممارسات النظام الشائنة ستساعد فعلاً على استنهاض صيغة مؤتمر القضايا المصيرية، والتي أكدت على ضرورة الفصل التام بين الدين والدولة، أو الدين والسياسة، وفق ما ورد في موثيق التجمّع. نقول ذلك من أجل الحفاظ على ما

تبقى من الدولة، بل الحفاظ على الدين نفسه، بالابتعاد به من المتاجرة والتلاعب والاستغلال البشع.

• **رابعاً:** إن كانت تجربة التجمّع الوطني الديمقراطي قد فرضت عليها الظروف التمدّد والتضخّم خارجياً، فإن أي تجربة مماثلة يجب أن تضع في الحسبان ضرورة ولادتها داخلياً، حيث أن التداخل والتقاطعات والمصالح الإقليمية والدولية تفرض أحياناً واقعاً قسرياً، وليس سراً إنها ساهمت في تعقيد كثير من القضايا، وعلى رأسها المصير نفسه الذي حاق بتجربة التجمّع برمتها.

• **خامساً:** في التقدير أن أكثر ما ساهم في تحنيط التجربة الماضية وعدم الوصول بها إلى نهايتها المنطقية، تمثل في ازدواج المواقف وتغليب المصالح الذاتية على الحزبية، وتغليب المصالح الحزبية على الوطنية، وتعلمون أن هذه الأنانية وذاك التردّد هو الذي أطال عُمر النظام، وزاد من مُعاناة الشعب السوداني، وباعد بين الناس والوصول لمشروع تحالف سياسي عريض، لهذا فإن هذه الملاحظة تحديداً تتطلب وضوحاً وصراحة، وعدم الركون إلى اللامبالاة والإهمال والتسيّب، حتى لو تطلب الأمر بتر الأعضاء الفاسدة!

يمكن القول إن هذه خطوط عريضة، قد تصلح لتكون معينات للانطلاق إلى أفاق أرحب، وصولاً إلى الهدف المنشود في تأسيس كيان وطني جامع يُؤطر لجهة أو تحالف سياسي عريض، ويكون تريباً لوطن يعصمه من احتمالات إنهار درامي في ظلّ العصبية ذوي البأس الحاكمة، والتي اتّضح بما لا يدع مجالاً للشك إنها غير عابنة حتى لو تفتت هذا الوطن إرباً إرباً، ولن تكثرث وهي تتماهى في تسلطها، ولو كان ذلك على جثة آخر مواطن!

إن الإحتفاء الحقيقي بذكرى الأستاذ الراحل التيجاني الطيّب يكون بالوفاء للقيم والمبادئ والمثل التي نذّر لها حياته لأكثر من ستة عقود زمنية، وبما أن مشروع التحالف السياسي كان همّاً مُقيماً للفقيد، وسعى له في حياته بإخلاص كما بيّنا، علاوة على أنه أصبح ضرورة وطنية يكون لازماً علينا حمل هذه الأمانة حتى نستطيع أن تصل بهذا الوطن إلى برّ الأمان، واجهاض المؤامرات الشيطانية للسلطة القمعية الديكتاتورية الغاصبة.

الأمر الثاني الذي يتأمّله المرء ويرجوه من القائمين على أمر هذا التّأبين، وهو أهمية تخليد ذكرى الراحل العظيم بعملٍ يُجسّد محبّتنا له. نذكرُ على سبيل المثال.. مكتبة عامة على نمطٍ عصري أو مسابقة سنوية باسمه للصحافيين العاملين في المجالات المختلفة، أو ابتداء جائزة باسمه يتم بها تكريم السياسيين، الذين تصالحوا مع أنفسهم، وتجرّدوا لخدمة وطنهم، وشهدَ الناس لهم بالنزاهة والشجاعة والاحترام، ولعلّ الأفكار كثيرة ويمكن التّدوّل حولها لاحقاً حتى لا يأخذ احتفالتنا بالفقيد طابعاً مظهرياً سالباً. وأصالة عن نفسي، لي عظيم الشرف

في الاشتراك وتفعيل أي فكرة والمساهمة مع اللجنة القومية، أو أي آخرين يُناط بهم تنفيذ هذا الغاية النبيلة، كأقلّ ما يكون الوفاء وأوجب ما يكون الاخلاص لرجلٍ ضلَّ في حالة عطاء مستمر، إلى حين صعود روحه إلى بارئها!

وأختم بأنه يكفيني فخراً أنني اصطحبه معي في كلّ ما أكتب، متمثلاً قيّمه وأخلاقه ومبادئه، حيث يظلّ شاخصاً بصره نحوي، كأنه رقيبٌ عتيد.. فالتحية لك يا استاذي العظيم في عيد ميلادك الأوّل، فالبعض يموت ليحيّا!

٢٠١٢/٥/١٥

* هذه الورقة قدّمت في ندوة تابين الأستاذ التيجاني الطيّب بابكر والتي أقيمت بدار حزب الأمة القومي بمدينة أمدردمان، وقد خاطبها الكاتب من مقرّ إقامته بالولايات المتحدة الأمريكية عبر الـ"اسكايب" في حدود المسموح به من الوقت.

مَنْ يَمْنَحُنِي شَرَفَ بُشْرَاهَا مِنْ تَحْتِ الثَّرَى؟!*

* بعد أن واريناه الثرى في مدينة شيكاغو بولاية إلينوى في يوم ٢٠١١/٥/١١، سافرتُ واسررتُ، الصغيرة إلى السودان لتقبّل عزاء الأهل والأصدقاء والزُملاء. وفوجئتُ بتأبين أعد له اعداداً متميّزاً، بإشراف زميلات الفقيده إبان تسنُّمها دفّة العمل الوطني في إطار التجمّع النسوي الديمقراطي.. وهُن السيدات: إحسان عبدالعزيز ونادية مصطفى وسعاد الطيّب، وقد أقيم التأبين بـ"مركز الخاتم عدلان" للاستنارة في منتصف يوليو من العام ٢٠١١، وفيه أُلقيت الكلمة التالية على مسامع الحضور، الذي احتشد في الدار بصورة أنستني مصيبيتي.. وجوة أعرفها وأكثرها لا أعرفه، وكان لمشاركتهم جميعاً الأثر البالغ في نفوسنا..

والله إن هذا ليومٌ مشهود.. كنتُ أتمنى أن التقى هذه الوجوه النيرة في ظروفٍ غير هذه الظروف.. كنتُ أتمنى أن التقى هذه الوجوه النيرة في يوم انتظرناه طويلاً، وقد شاءت إرادة الله غير ذلك، ولكنه حتماً سيأتي ذلك اليوم حاملاً عبق الانتصار.. في البداية، أود أن أحبيكم جميعاً، والشكر كل الشكر للاخوات الفضليات من صديقات وزميلات الفقيده الراحلة مِمَّن فُمن بأعباء هذا التأبين، وكذلك الشكر لأسرة مركز الخاتم عدلان للاستنارة على استضافتها فعاليات هذا اليوم، والشكر موصولاً للحضور الكريم على تكبدهم المشاق، وأيضاً الذين خاطبوا الحضور من على هذه المنصة، والذين تحدّثوا في صمتٍ، ويشمل الشكر الذين خارج هذا المركز داخل السودان وخارجه، في قارات العالم أجمع. فقد أثبتتم بما لا يدع مجالاً للشك، أن وداد ليست فقيدتنا وحدنا.. نسال الله العلي القدير أن يقبّلها قبولاً حسناً بقدر هذه المحبة، ويلزمننا جميعاً الصبر الجميل.

أقول لكم أيها السيدات والسادة الكرام، إنه على الرغم من ايماني المُطلق بجديّة الحياة والموت، ورغم ايماني بأن كلّ نفس ذائقة الموت، إلا أنني والحق أقول، أشعر بأن "وداد" لم تمُت، ذلك لأن الخُب كما تعلمون لا يموت، وأن المبادئ لا تموت، وأن القيم الجميلة لا تموت، ولذا فـ"وداد" وإن رحلت بجسدها عنّا ستظل روحها هائمة بيننا ما حيينا على وجه هذه البسيطة. فرحلة "وداد" القصيرة في هذه الحياة كانت عبارة عن ملاحم متصلة، بعضها يأخذ برقاب بعض. وكسائر البشر، بدأنا حياتنا بملحمة عاطفية نعتزُّ بها لأنها كسرت السائد في العلاقات التقليدية، وتوجّناها بالزواج، الذي وجدنا فيه السكينة والطمأنينة بمثلما بشرنا المولى عزّ وجلّ، وعندما توخّدت في ناظري.. "وداد" والوطن، بدأتُ اقترض الشعر لها وحدها، ولم أجروّ على نشره، ثم هجرتُ الشعر وليس لي أدنى تفسير

غير أن الديكتاتوريات التي رُزنا بها لا تسمح بالأحلام. وعندما رُزنا بالبنين والبنات تعلمت من "وداد" الدرس الأول في مدرسة الحياة، وهو أن الطريق إلى الوطن يبدأ بالبيت والأسرة. فقد كانت "وداد" تؤمن إيمان العجائز بأنك إذا أعددت أسرة إعداداً جيداً فقد أعددت شعباً طيب الأعراق.

ثم اتصلت ملحمة العاطفة، بملحمة الأسرة، بملحمة حياة اجتماعية غنية وزاخرة. وفي هذا الشأن، لعل الذين عايشوا الفقيدة كانوا يعلمون أن أجمل لحظات صفاتها الوجداني كانت تتجلى حينما تحظى بضيوف يتوافدون على بيتها من كل حذب وصوب. فنحن كما تعلمون بفضل تلك الديكتاتوريات تنقلنا من بلد إلى بلد، عايشنا وتعايشنا مع ملل ونحل شتى، وتفاعلاً وسط ثقافات متعددة ومتباينة، لكنها لم تكن في يوم من الأيام خصماً على رصيدنا الوطني، أو نالت من هويتنا الوطنية التي نعز بها. بل على العكس تماماً، فقد كانت سنداً لنا ومعيناً صلب في تنوعنا الثقافي وتعدّدنا الديني والإثني، ومن المفارقات أن تمر علينا ظروف كئيبات، نشهد فيها قوم يتبرأون من هذه الخاصية التي حبا الله بها بلادنا.

في إطار الملحمة الاجتماعية كانت لـ "وداد" قدرة فائقة في خلق علاقات اجتماعية واسعة ومستمرة وبناءة مع تلك الشعوب والقبائل، كأنها كانت تتمثل للمبدأ القرآني الذي حفزنا على ذلك: كانت - أحبتي الكرام - كالغيث، حيثما انهمر فاض خيراً ونماء وبركة.

أما وإن كان الحديث عن الملحمة السياسية، فلا بُد لي أن أذكر حديثين هامّين، الأول في العام ١٩٩٤ بعد أن طاب لنا المقام في العاصمة الإريتيرية أسمرا، حدثت القصة التي حكى شذرات منها أخي وصديقي عبدالعزيز خالد، أو "أبو خاند" كما يحلو للكثيرين أن يُسمونه، عندما تحدث إليكم قبل قليل. يومذاك كانت صلاته قد بدأت مع السلطات الإريتيرية لتفعيل العمل المعارض في ظل علاقات بدأت تتضعع بينها وبين حكومة الخرطوم، ولهذا كان يأتي سرا إلى أسمرا وتعمل السلطات الإريتيرية على تأمين أقصى أنواع السرية على تحركاته نسبة لوجود سفارة نظام الخرطوم في أسمرا. الذي حدث، أن الأخ عبدالعزيز طلب منهم أن يسمحوا له برؤيتي، نسبة لعلاقة الصداقة القوية التي تربطنا معاً، وقال لهم إنه يأتيني، فقالوا له: وزوجته؟! قال لهم إنه يأتني أكثر مني.. وتبعاً لذلك، كان الأخوة الإريتريون يأتون به لمنزلنا في جُنج الليل، ونقضي بضع ساعات وأوقات طيبة نتفكر فيما آل إليه حال الوطن، وكانت "وداد" ثالثاً، وظلت هي الوحيدة التي تعلم بشيء لو أفصح عنه لذهبت الأمور في اتجاه آخر.. واعتقد أن أخي عبدالعزيز أعجبه طرائق السرية والكتمان التي رشحت من "وداد" لا سيما بعد أن أصبحت تلك الخاصية واحدة من سمات وركائز التنظيم نفسه. واعتقد أيضاً إنه منذ ذلك الوقت، وضع عينه عليها في ضميرها لصنوف التنظيم، بالفعل كنتُ آخر من يعلم، ولم أعلم حقيقة بأنها أصبحت واحدة من كوادرات التنظيم إلا بعد وقت طويل وبعد أن أصبح عمل التنظيم علنياً، وتقلدت فيه

المناصب المذكورة في "التحالف النسوي" وكذلك "التجمع النسوي" فيما بعد. ولكن أصبح الأمر مصدر فُكاهة بيننا، فقد كُنْتُ أداعبها بقولي: «في بيتنا كادر سري».. وأذكر للأمانة والتاريخ، أن "وداد" من فرط حفاظها على السريّة لم يحدث أن أشركتني في أمر يخص نشاطها السياسي أو الإعلامي، واعتقد أنه بالإضافة للسريّة التي هي من صميم عمل التنظيم كما ذكرت، فقد كانت لا تطيق أن يُقال عنها إنها تعيش في جلباب زوجها.. لقد كانت "وداد" شديدة الاعتداد بشخصيّتها، وكثيرة الاعتماد على نفسها، وتحب أن تشقّ طريقها وسط الصعاب، وتجد متعة فائقة في التغلب عليها.

أما القصة الثانية، فقد حدثت في نهاية العام ١٩٩٤ ومطلع العام ١٩٩٥.. غادرت "وداد" والأسرة إلى السودان لقضاء عطلة الصيف المدرسيّة، وأثناء وجودها في الخرطوم، انقطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، وتوقفت تبعاً لذلك الخطوط الجويّة السودانيّة بين العاصمتين، فقرّرت "وداد" العودة لأسمرأ بالطريق البرّي.. غادرت إلى كسلا - بعد أن أخبرتني بضرورة انتظارهم في يوم محدّد على الحدود الإريتريّة في المنفذ المعروف بـ"١٣"، يقابله منفذ "اللفة" على الحدود السودانيّة، ولكن رجال الأمن الذين علموا بوجودي هناك، أنزلوها عنوة من العربة الناقلة هي وأطفالنا، وأخبروها أنهم ممنوعين من السّفَر، ليس لجُرم ارتكوبه، ولكن - بحسب فهمهم - لجُرم ارتكبه زوجها، الذي ينتظر على الضفة الأخرى، وقالوا لها: أرسلني له كي يحضر لاصطحابكم، إن شئتِ السفر..

كُتِبَ عليها أن تبقى رهينة تحت رحمتهم لعشرة أيام حسوماً، كُنّا خلالها نتبادل قصاصات الورق مع سائقي العربات، تماماً كما في فيلم الحدود للممثل السوري الشهير دريد لحام. تلك أيام لن أنسى قساوتها ما حييت، كانت لحظات مؤلمة بالنسبة لكلينا، بل هي أشد وأمر بالنسبة لسيدة وأطفالها، أن تكون في قبضة من لا يرحم ولا يعرف الرّحمة، وأخيراً تركت لهم جواز سفرها الذي يرقد حتى الآن في أدراج جهاز الأمن، ليقف شاهداً على خزيهم وعارهم وسوء أعمالهم. ولأنّ لـ"وداد" قلباً لا يعرف الثّار، فقد صمّمتُ أن اقتصرُ لها كل دقيقة مُعانة قضتها على الخُود.

اسمحوا لي سيّداتي وسادتي، أن أختم ملاحم الرّاحلة العظيمة بملحمتها مع الداء الخبيث، لعلها تكون زادا في المُلَمّات والمصائب التي يمتحن الله بها عباده. ذلك أن هذا المرض وإن نال من جسدها، لكن روحها المعنويّة ظلت حتى لحظات حياتها الأخيرة مرتفعة، وفي قَمّة عُنفوانها، كانت تتمتع بإرادة قويّة، وتؤمن إيماناً قاطعاً بأنها يمكن أن تتغلب على ذاك المرض، ويعلم الله بالرغم من أنني صادفتُ في حياتي المهنيّة في منطقة القرن الأفريقي تحديداً من المواقف الصعبة التي حدث بي أن استرخص الحياة، ومنحتني قدرة على التّعامل مع المواقف التي تتطلب صبراً وجرلاً وشجاعة، إلا أن الشجاعة التي واجهت بها "وداد" ذلك المرض أذهلتني وتضاءلت معها شجاعتي. فقد كانت صبورة لا تحب الشكوى،

أما وأن اضطرت لها، فهي تمارسها مع ربّها الذي خلقها وابتلاها، إذ كانت تتأجبه سرّاً ونحن عنها غافلون.

كانت تلك طريقتها حتى بعد أن لزمت سرير المستشفى. وفي الخمس أيام الأواخر من حياتها، شاء الله - أو إن شئت فقلّ أكرمني الله - بأن يحضر لحظات احتضارها الأخيرة أخي وصديقي فيصل محمّد صالح الذي أجبه كثيراً وتُحبّه "وداد" أيضاً، والذي صادف وجوده تلك الأيام زيارته لأمريكا، فجاء إلى شيكاغو حيث نقيم، وعندما دخل عليها، أشهد أنه تهلّلت أساريرها لرؤيته رغم الإنهاك البائن عليها، ولعلّ أخي وصديقي "فيصل" شهد منظراً غير مألوف في المستشفى، حيث تواجد أصدقائنا وأحبّائنا وآخرين لا نعرفهم من السّودانيين، جزّاهم الله عنا خير الجزاء، توافدوا وتقاطروا نحو المستشفى وظلّوا مرابطين معنا لساعات طوال ولأوقاتٍ تمتدّ حتى أواخر الليل..

هذه الظاهرة - أي الكثرة والتواجد - كانت ظاهرة غير مألوفة للأمريكيين أنفسهم، ولذلك احترموها، فانعكس ذلك في تعاملهم مع الحضور، وعملوا على راحتهم.. جلبوا لهم الشاي والقهوة والماء والبسكويت على غير معهود، وكانوا يسألونهم فرداً فرداً ما إذا كانوا في حاجة لشيء، ومن المفارقات أن واحدة من العاملات في المستشفى سألتني إن كانت زوجتي شخصيّة اعتباريّة في بلادها، أي من ذوي المناصب الفاخرة، فقلت لها هي إنسانة عاديّة ونحن كذلك، ولكن هذه هي ثقافتنا التي جُبلنا عليها. وبالطبع، هي لا تعلم أن قوماً كالغول غزوا بلادنا ودّمروا ثقافتنا هذه التي نعتز بها.

واستشهد فيما ذكرتُ باحترام الأمريكيين لتعدّد الثقافات هذا، فقد كان لنا صديقٌ أمريكي اسمه جيف وزوجته لورا. جاءوا للمستشفى ومعهم طفلتهم الرضيعة وعمرها بضع أشهر، وقد شاهدوا المنظر الذي ذكرت، ولعله أعجبهم، وقالوا لي إنهم لم يألوه من قبل، وكنتُ أطلب منهم المغادرة رحمة بطفلتهم الرضيعة، لكنهم تجاهلوا طلبي مراراً وتكراراً، إلى أن قال لي جيف: من فضلك أتركني فأنا اليوم سوداني Please leave me, today I am a Sudanese رغم الحزن الذي كان يعتريني، إلا أن التفاف الأحباب حولنا خفّف عنا هول المصيبة، وقد تواصلت تلك الظاهرة من المستشفى، مروراً بالمسجد الذي صلينا فيه على الراحلة وانتهاه بالمقبرة التي دفناها فيها في مدينة شيكاغو. هؤلاء مثلكم يا إخوتي وأخواتي، كنتم وكانوا تاج عزّي الذي أتباهي به بين الأمم والشعوب.

في الختام، لا بدّ أن استخلص ما أقول في نقطتين هامّتين:

- **الأولى:** كانت "وداد" في ملخمتها مع المرض تعاني أقسى أنواع المعاناة، ولكنني أشهد أن وتائر ألمها تزداد وجعاً عندما تتابع الأخبار التي تتحدّث عن تروّي الأحوال الصحيّة في هذا البلد الأمين. وكانت تُبدي تعاطفاً طبيعياً مع الذين ابتلاهم الله بذات الداء، وتجدها دائماً في حالة مقارنات، وكانت كثيراً ما

تتداول معي كيفية تقديم العون والمساعدة في شيء يخفف عنهم الالمهم. والآن أقول لكم، لست من الذين أنعم الله عليهم بالمال والجاه، ولكني غني بأبنائي وبناتي الذين أعتبرهم ثروتي في هذه الدنيا، وقد بذلنا ما وسعنا في تعليمهم وتأهيلهم، ولا أذيعكم سرّاً إن قلت لكم إننا قطعنا عهداً على أنفسنا طال الزمن أو قصر، أن نعمل لها ما تمنّته ذات يوم في حياتها من أجل المرضى والبُوساء، ونسأل الله أن يعيننا في ذلك، وليكن ما سنفعله شاهداً على حُبنا ووفائنا لها، وديناً مستحقاً نردّه عرفاناً لهذا الشعب الأبوي، وإنا لقادرون بحول الله.

● **الثانية:** وهو شيء عملت من أجله الفقيدة الراحلة ووهبته عمرها وتمنت أن تراه يتحقق في حياتها، ولكن لم ثمّلها الأقدار لذلك. أقولها أمامكم يا إخوتي وأخواتي، من قلب هذه العاصمة الصابرة، بعد أن قلّتها من البعد مراراً وتكراراً.. يجب إسقاط هذا النظام، يجب إسقاط هذا النظام.. فإسقاط هذا النظام ضرورة وطنية، بل واجباً دينياً كذلك، حتى نستطيع أن نحافظ على ما تبقى لنا من وطن، ونحمي ديننا من المتاجرين به.

أيها الحضور الكريم،

هذا الوطن الجميل يتسرّب من بين أيدينا كما يتسرّب الماء من بين الأصابع، نحن محتاجون لوقفة أمام الذات.. نحن محتاجون لمواجهة مع أنفسنا.. نحن محتاجون لأن نسأل ذواتنا وبعضنا البعض: ماذا قدّمنا، و ماذا سنقدّم لهذا الوطن حتى نستطيع أن نوقف التدهور المريع الذي حدث في كافة الأصعدة؟! لست في حاجة لأن أذكركم أو أسرد على مسامعكم تفاصيل شيء تعيشون مرارته كل يوم، ف"الجمرة بحرق الواطيها" كما نقول، وأنتم تكتون بهذه الجمرة صباح مساء.

إن الفقيدة التي نؤيتها اليوم سيكمل تأبينها يوم سقوط هذا النظام.. أرجوكم امنحوني شرف أن أتحدّث لها من تحت الثرى، فأقول لها إن انيوم الذي انتظرتيه طويلاً قد جاء.. وإن الحلم الذي تمنّيته كثيراً قد تحقّق، وأن الديمقراطية التي تأقت لها نفسك وعملت من أجلها صادقة قد أزف موعدها.. إذ لا بُدّ من الديمقراطية وإن طال السفر!

٢٠١١/٧/٢٥

obeikan.com

مَا بَيْنَ قَبْرِي وَقَبْرِكَ.. يَنْتَصِبُ الْحَلَمُ!

ثلاثة أعوام مضت على رحيلك، مُنْذُ أن تركتيني وحيداً، أصارعُ الليل والأنواء والقَدَر..

أشعرُ أحياناً بتناقُلها، كأنها ألفُ عامٍ مِنّا نعد ونرصد، وعلى النقيض تماماً يباغتني إحساس آخر بتسارُعها وهي تتخطف كشهاب ثاقب خَرَّ من السماء!

أَكْتُبُ إِلَيْكَ في الساعة الثامنة وثمانٍ دقائق.. وأنا أتدثر بأحزاني وآلامي وذاتي المحطمة. إنها ذات اللحظة التي شهدت رحيلك عن الدنيا.. عند ذاك، غطست شمس ذلك اليوم في عين حَمِيَّة، لتُؤْزِن بمغيبها وغيابك في آنٍ معاً. عَجِبْتُ حينها للونها الفاقع الإحمرار على غير ما يعرفه الناس منذ الأزل، فأدركتُ حينها أن الكون كله توقف عن الشهيق والزفير، وأدركتُ أنه لم يعد هناك ثَمَّة شيء يدعوني للتأمل والتفكير في حركاته وسكناته، بمثلما دأبنا على ذلك من قبل!

كان رحيلاً أسطورياً، كأنك خُططتي له بملء إرادتك، فلم يكن ذاك الموت الذي نعرف.. الموت الذي تَخْرُج فيه رُوحُ المرء إلى بارئها، ويقف قلبُه عن الخفقان.. الموت الذي يُودع فيه الإنسان في ظلمات القبر، كتلك الظلمات الثلاث التي يتخلق فيها الجنين في بطن أمه. لكنه كان رحيلاً مُفعماً بمعاني جعلت الموت والحياة يتساويان، وما تلازمهما في المسير الذي نرى إلا محض تسابق غير مرئي لمن يجهلون!

نعم، كان رحيلاً أسطورياً، كما حياتنا نفسها، وإن قصُرت سِنِينُها!

ثلاثة أعوام وأنا انتظر قُدُومك كأنك ذهبت لقضاء أمرٍ ما.. ما زال القلق يجتاحني على تأخرِكَ على غير ما اعتدت.. سأواصل انتظارك لتأتين وأنت تهللين بشراً، بوجهٍ لا يعرف الغُبُوس.. فهذا المنزل الصغير في حاجة لأن تُشعِلي فيه فرحاً، بعد أن امتلأ حزناً وتكاثرت عليه الهُُمُوم.. ستجدين كُلَّ شيءٍ كما تركته.. حقيبة يدك الصغيرة ما زالت تستلقي مطمئنة في مكانها المعتاد، كأنها وُضِعَتْ للتو..

أبحثُ في ثناياها من حين لآخر كمن يبحث عن شيء ضائع ولا يدري ما هو؟! لكنني أفعلُ ذلك كلما أعياني الصبر وأن أعد الدقائق والثواني لعلك تهلين وفي يدك بشارة الخروج. أنظر في محتويات حقيبتك.. عطرك الذي تحبين يحتل رُكناً قصياً، نظارة طبية للقراءة، أقلام مختلف أنواعها، ثيرموميتر لقياس حرارة الجسم، قصاصات وأوراق مبعثرة تعبر عن همومك وأنت في خضم محنتك.. مذكرة صغيرة تحتوي أرقام هواتف تتنوعت مقاصدها، أقرأها بتمهلٍ لا بُدَّ أن لكلِّ رقم غاية.. أدرك أن بعضها رَحَلَ أصحابها وكأنهم لا يرغبون أن تعيشي وحشة الطريق الطويل وحدك.. بعض الصفحات ضجَّت بمواعيد الأطباء الذي كثروا على طبيبك ولم تغد الذاكرة تتسع لملاحظاتك.. صفحات أخرى فيها مقتطفات من أغاني الحقيبة التي تهوين سماعها عندما لا يقوى خافقك على فيض الشوق والحنين للوطن الذي تحبينه وأهله.. أتأمل أبياتها المُنقاة لعلني أجد قاسماً مشتركاً غير ذاك الألم الدفين والحزن النبيل، أدقق أكثر كآثري ينقب عن تاريخ مستتر، فأجد فيها معانٍ على غير ما قصد ناظموها، فابتسم كما يبتسم المُرورق عديم الحيلة والصبر.. أقرأ في صفحات أخرى همومك المنزلية.. كيف نصنع كيكة الشوكولاتا.. مقادير طاجن سمك بالخضار.. أي عيد ميلاد كُنْتُ تُخططين للاحتفال به في زمن الموت؟!

بيدَ أنني ما توقفتُ أمام أي من هذه المحتويات، بقدر ما توقفتُ أمام تلك الغلبة المستديرة باسماء أيام الأسبوع، وفي كل يوم عدد الحَبَّات التي كان ينبغي عليك تناولها، ذلك من فرط كثرتها درة للنسيان، وحرصاً على الالتزام بأوامر الأطباء.. يا إلهي، كل هذه العدد كان يغزو جسدك الغض الذي أنهكه المرض؟!

انتظرك كل يوم في ذات المواعيد التي دأبتَ فيها على الحضور من عملك، فقد أصررتِ إصراراً عنيداً على ألا تنقطعِي عنه، ولو إلى حين. عندما أجادلك رافة بحالك، تقولين إنه يجعل يومك مترعاً بالحيوية وأنت تعيشين وسط الناس، وهذا تفسيرٌ لا يستطيع معه تأويلاً.. لكنني أعلم أنك تفعلين ذلك حتى لا يسري القلق لأسرتك الصغيرة، فكم كُنْتُ تكرهين الكسل والتمارض واللامبالاة!

لهذا فما زلتُ أقف مُحِقّاً في الأفق، انتظر قُدومك، أشغُر بالقلق يجتاح كياني من تأخرُك، فتأتين بتلك الابتسامة الوضيئة التي سكنت بين شفتيك، أقول لك: هل نسيت موعدنا مع الطبيب؟! تقولين: لا.. وأقول لك: لقد تأخرنا.. فتقولين: لا تقلق، فأنا أعلم بأنهم ليسوا قلقين مثلك، ففيم العَجلة؟! ثم نمضي معاً كما تمضي سائر الأشياء في هذا الكون الذي لم ندرك أسرارهِ..

انظرُ لذاك الكرسي الذي يقَع وحيداً في حديقة دارنا الأمامية وما يزال، لا أريد أن أزيحه من مكانه ذاك، لأنني أشعر بتأنيب ضمير مستتر.. ذلك أن طلبت مني مرة أن أستجلب كرسيّاً آخر، ولكنني مع هُومِي التي تكاثرت، نسيْتُ أن

أفعل ذلك، ولم تلجفي في السؤال مرّة أخرى.. الآن فقط، أشعرُ كأنما كان هناك كلام كنتِ تودين قوله عندما نتجاذب أطراف الحديث كالعادة.. هل بالفعل كان هناك ثمة شيء تودين قوله ولم أدرك كنهه؟! على كلٍ.. ما زلتُ أحذق في ذاك الكرسي الصامت كل يوم أثناء دخولي وخروجي المعتاد من منزلنا لعله ينطق.. وفي كل مرّة أشعر كأنني أراه للمرّة الأولى!

لم يكن ذاك الكرسي وحده، فالأمكنة أيضاً ترهقني، كلما مررتُ بها أشعرُ أحياناً كأنني لم أغادرها، وفي أحيانٍ أخرى كمن عرفها بعد توهم.. لنا في كل مكان بهذه المدينة الصغيرة بعض ذكريات تتداعى إليّ دوماً، كما يتداعى الرضيع لثدي أمه. فهي تمنحني القوة والضعف معاً.. ذكريات لم تُخطط لها وخططت لنا حياة اخترناها غنوة في رحلة المنافي التي تعددت، لهذا لم أدر يوماً أنني سأجتزّها كما تتجتر الإبل مخزون طعامها وشرابها وصبرها!

أرهقتني هذه الذكريات التي ألقت برحالها على عقلي وقلبي وفي صدري، ولكلٍ منها لسانٌ وشفتان وطريق واحد مستقيم لا تعاريج فيه. هذه المطعم كنت تحببته فغشاه من حينٍ لآخر.. ما زلتُ أذكر ذاك اليوم الذي غادرناه، فطلبت منا أن نقف برهة في الساحة التي أمامه ونحن متماسكو الأيدي، ولحظتك تتممين سرّاً بما لم أدر مغزاه، أظنك كنت ترديدن ذات الأمانتي التي طالما تشاطرناها معاً لهذه الأسرة الصغيرة. لكن أصدّقك القول كانت تلك لحظة شعرتُ فيها للمرّة الأولى بشعور مخيف سرى في جسدي كدبيب النمل وبالطبع لم أشاء أن أفصح عنه!

ما أكثر المستشفيات التي زُرناها طيلة الأعوام السبعة التي كنتِ تكافحين فيها ذاك المرض الخبيث، كلما مررتُ بواحدة منها تقف جيوشاً من الذكريات مصطفة أمام ناظري كجندي يؤدّي فروض الولاء والطاعة.. أدهش كيف كان الأطباء يتعجبون من مرحك وروحك المعنوية العالية التي لا تعرف الانهزام!

بئراً أقف على قبرك كما الطفل اليتيم في متاهته.. أحادثك وأوانسك وأزُرُ على سمعك حديثاً كنت تحبين سماعه، أسمعك تضحكين مرّة يكاد القبر فيها أن يتهلل طرباً، وأجسك مرّة تصممتين حتى يكاد القبر أن يتصدّع.. أسرد لك أخبار الأسرة الصغيرة والأمانة التي القيتها على كاهلي، وتنوء بحملها الجبال.. فقد أدركتُ أن هذه الحياة لا يمكن أن تسير على ساق واحدة..

كم كنتِ عظيمة وأنتِ تؤدّين واجباتك كرسولٍ كُلّف بتبليغ رسالة.. أبناؤنا الثلاثة كبروا وصغرت همومي، أنهم في ذات الرب الذي رسمناه لهم سائرون.. أما صغيرنا "أواب" الذي سيبلغ بعد أقلّ من أسبوعين عامه الحادي عشر، فقد كتب لك رسالة في هذا اليوم، وقال إنه يود أن يبتك شوقه في "عيد الأم" الذي صادف - يا للمفارقة - ذكراك الثالثة، بالرغم من أن عيدك ظلّ بدرّاً لم يرغب عن ناظرينا!

مضيت لا غاضبة ولا مغضوبٌ عليكِ إلى قبركِ، وتركتيني في قبري الذي
دُفِنْتُ فيه حياً.. قبرُكِ منيرٌ، وقبري مظلمٌ بأفعالٍ عُصيةٍ ما تزال تسوم وطننا
وأهله سوء العذاب.. ما فتنوا يكذبون ويُفسدون ويُنافقون.. أما أنا، فما زلتُ أُمِّي
النفْسُ بأن أقف على شاهد قبركِ وأبشركِ بذات الخُلم، الذي عملنا من أجله منذ
شهقة الميلاد الأولى، وحتى زلزال رحيلكِ المهيّب..

أرُقِدِي في سلام.. السلامُ نفسه الذي تمنيتِه في الدُّنيا وعزٌّ فيه الوصال! يا
من يَتَمَتَّيِي ولم تفارقيني إلا كِفراق الجفن للعين!

٢٠١٤/٥/١١

حوار في الساعة الخامسة والعشرين مع باقان أموم (١)

بغض النظر عن ماهية الأسباب والمبررات، يجب أن نعترف بأننا لم نبْلُغ سن الرشد بعد، في ممارسة الحوار الديمقراطي الحر، الذي يُفضي إلى نتائج طبيعية، وعوضاً عن ذلك، فقد تظهر القصور في ميلنا الغريزي نحو إقصاء الآخر بشتى السبل المشروعة وغير المشروعة أحياناً، الأمر الذي يُعد دليلاً ساطعاً على فقرنا الشديد لمنهج الحوار بأسسه وآلياته المعروفة، وكتعبير عن هذا الجواء، غالباً ما تحتل القوة المادية مساحة المنطق، وتنداح العواطف لتحل محل العقل، ممّا يُربك النهايات المنطقية لفكرة ما، أو مشروع، أو غاية، سواء كانت سياسية أو ثقافية أو فكرية! والحوار أياً كان، مسموعاً أو مرئياً أو مقروءاً أو مكتوباً ليس بمستغرب وفق ذلك السلوك إن تطرّف البعض فيه، وتبعاً لذلك، قد تبدو العبارات السالبة التي تتطير في مثل تلك الحالات دون كايح أو وازع يردعها أمرٌ طبيعي، وكذا قد تسود أحياناً عبارات المجاملة التي تحمل مضموناً عاطفياً لا علاقة له بالأمر، فيكثر صرف أو الطرفان معاً من كلمات "الأخ" و"الصديق" و"الخليل" و"الرفيق"... إلخ، وهي إمّا جاءت بغرض تخفيف وطأة النقد على متلقيه، أو من باب درء الحرج الذي يشعر به الناقد، أو قد تحمل الكلمات في طياتها صبغة إعتذارية سلفاً للموجه له النقد، وهكذا يتم التحايل على أمر ثقافته لم تتجذر بعد في سلوكنا العام.

أيّاً كان التفسير لما نحن بصددّه الآن، فالسيد باقان أموم، أحد أصدقائي العديدين في أروقة الحركة الشعبية لتحرير السودان، وقد عرفت دروبها - أي الحركة - قبل أن أشرّف بمعرفته، وتوطدت العلاقة بيننا خلال رحلة نضالية كان الهم الوطني حجر رهاها وقاسمها المشترك، ووفق هذه العلاقة الانسانية والسياسية قَبِضت لنا الظروف حوارات مُتصلة وعميقة داخل الغُرف والصالون المغلقة، بيد أنني اليوم شئت أن أحاوره في الهواء الطلق وبصفته الاعتبارية كأمين عام للحركة الشعبية، ومبعث الرغبة الحوار الذي أجراه معه الصحفي ضياء الدين بلال وزميله مالك طه، ونشر في 'الرأي العام' الأسبوع الماضي ١٣، ١٤ و ١٧ نوفمبر ٢٠٠٧ على ثلاث حلقات، وتركز بشكل أساسي حول جدلية الوحدة والانفصال، وقد اكتسب هذا الحوار أهميةً وبعداً عميقاً نسبة لتوقيته الزمني، حيث أن القضية المشار إليها تُعدّ الآن قضية الساعة التي لا ينبغي أن

يعلو صوت على صوتها، ومثلما أشارت مقدّمة الحوار فقد أنجز أموم ما وعد، وذلك برسم "الدهشة" على وجوه القراء ومحاوريه بصورة لولبية. وإيثاراً للسلامة فليسمح لنا سيادته أن نسبح معاً في المياه الهادئة من قبل التوغّل في العمق، لعلّ حوار الساعة الخامسة والعشرين يفلح في إجلاء بعض الغموض الذي لازم جدلية الوحدة والإنفصال!

• **أولاً:** في إطار أقدارنا السياسيّة يمكن القول، أن علاقتنا بالحركة الشعبيّة لتحرير السودان استندت منذ نشأتها على فهم مشترك في القضايا الأساسيّة لهذا الوطن، وخلال مسيرتها التي زادت على العقدين من الزمن، تطابقت رؤانا وتباعدت.. اتفقنا واختلفنا حول كثير من القضايا، وبهذا المنظور قد يَعرّ لبعض أن يحسبنا في دائرة المهاجرين الذين ناصروها ظالمة ومظلومة، فإن كان الأمر كما تراءى لهم، فلن نتبرأ من شرف لم ندعيه وثُمة لم نُكرها، ولهذا فليسمح لنا أمينها العام باقن أموم مرّة أخرى قبل محاورته أن نترجل من مقعد "الشريك الخفي"، إلى مقعد "المراقب الحقيقي" حتى يستقيم الحوار!

• **ثانياً:** كنتُ قد توقفتُ عمداً عن نقد أوضاع الحركة الشعبيّة لتحرير السودان بعد رحيل قائدها الفذ الدكتور جون قرنق دي مابور (طيّب الله ثراه بنفحات فكره الثاقب)، وهو إجراء اتخذته بناءً على تقديرات شخصيّة، لسببين: **الأول**، إداركنا أن الحركة الشعبيّة تمرُّ بمرحلة تاريخيّة دقيقة لربما زاد النقد من أوجاعها التنظيميّة، وهو ما لا يسعدنا بالطبع، فتركناها حتى تبرأ جروحها! أما السبب **الثاني**، فقد تمثل في إداركنا أيضاً أن النقد المفترض قد يصبّ في مصلحة الشريك الآخر (المؤتمر الوطني)، وهو أمرٌ إن حدث فإننا نعدّه خيانة لقناعاتنا السياسيّة، نسبةً لأننا قد حدّدنا موقفنا منذ وقت مبكر من هذه الطغمة، وقلنا مراراً: لو كان الخيار لنا في المفاضلة بينهم ونفرّ من الجني، لما تردّدنا لحظة في اختيار الأخيرين – أيا كانت هويّتهم العقائديّة – إذ أن جنّاً معروفين أفضل لدينا من أبالسه مجهولي الهوية، وإن ارتدوا أقنعة الإنس!

• **ثالثاً:** يجب الإعتراف بأن تقبّل الأمر الواقع على علائته استلزم مران النفس على أقصى درجات الصبر والتحمّل والنسيان، فهو يعني إقناعها باستمرار أن الحركة الشعبيّة لم تجد عن مبادئها، رغم التصريحات المرتبكة لقادتها، وإختلال سلم الأولويات بالنسبة لبعضهم، والتناقضات المؤلمة التي تأتي بين الفينة والأخرى. ومن جهة ثانية، يعني الأمر أيضاً إقناع نفسك بأن عُصبة الإنقاذ غيرت جلدها وجنحت بالفعل للسلم، رغم الواقع الذي تراه بأم عينيك، ويؤكد لك بلا لبس أو غموض أن العُصبة ازدادت صلفاً وغروراً وعنجهيّة. ولهذا ضربت الحيرة أطنابها حول عجزنا، وخيمت الدهشة في مضاربنا، وكلاهما أبي أن يترحّز قيد أنملة، حتى كدنا أن نحسب الصبر خنوعاً والصمت خيانةً والنسيان نفاقاً!

● **رابعاً:** انتقدنا بشدة اتفاقية السلام أثناء التفاوض وقُبِّلَ التوقيع النهائي عليها، وذلك من حيث اقتصارها على طرفين، دون الآخرين الذين تَعِجُّ بهم الساحة السياسية، وهُم شركاء في ضراء الوطن بشرعية أكثر من الذين سطوا على السلطة بليل، لكننا ما لبثنا أن استسلمنا وتوقفنا عن النقد امتثالاً لأهم مُعطى نتج عن الاتفاقية، وهو نجاحها في توقيف الحرب وحقن دماء أبناء الوطن الواحد، وكُنّا في هذا الأمر أشبه بمن يتجرع السمّ بيده، ذلك لأن ثمن الركون للأمر الواقع كان يعني منح نظام عُصبة الإنقاذ شرعية ضلوا يلهثون من ورائها منذ إطاحتهم الشرعية المنتخبة في العام ١٩٨٩.

● **خامساً:** وفق مبادئنا، لا شك أننا مع فتح النوافذ على مصراعيها حتي يدخل الهواء النقي من جميع الجهات، وبهذا المنظور لسْتُ من الذين يتخوفون من ظاهرة المناقشة العامة التي بدأت تفرض نفسها حول جدلية الوحدة والانفصال، ومن الطبيعي أن تجد من يرى في الأخير أمراً واقعاً لا مُحال، وينفس المستوى هناك من يؤمن بالوحدة إيمان العاجز، وكلا يحاول أن يجمع حيثياته ليقنع بها أكبر قدر من الناس، وذلك في تقديري يعد ظاهرة صحية مبعثها إعمال العقل في قضية أرهاقتها العواطف المكثفة حتي كادت أن تؤذي بها إلى موارد التهلكة، فمن هذا المنطلق لا أرى فيما تكتبه جماعة 'الانتباهة' على سبيل المثال، أمراً مزعجاً. صحيح أنه مستفز، لأنهم ينظرون للقضية بمنظور ضيق، وفي كثير من الأحيان يبنون آرائهم بناءً على معلومات خاطئة أو تحليل عشوائي، ويجنحون للتضخيم في محاولة لإكساب وجهة نظرهم مصداقية، ورغم كل ذلك، ففي تقديري أن للقارئ أو المراقب عينٌ فاحصة تستطيع أن تفرز الغث من السمين، فينبغي مضاعفة الثقة فيهما، وإلا فإن الحكم القاطع على أولئك الجماعة، يعني نوعٌ من أنواع الوصاية المفروضة على القارئ أو المراقب!

● **سادساً:** تأسيساً على ما ذكرنا أعلاه، أجد في نفسي نفوراً تلقائياً مما درجت الاتفاقية والرأي العام على تسميته بـ"الوحدة الجاذبة"، ولعل سبب نفوري يعود إلى طبيعة المصطلح الذي لا يتواءم مع ثُبُل المقصد لسببين في تقديري: **أولهما**، إن عجزت حقائق الواقع وتَقَاصَر المنطق في أن يكون هذا الوطن كياناً واحداً، لا أعتقد أن سنوات معدودات هي عُمر الفترة الانتقالية بقدرة على تطويع المستحيل، ولربما في هذا يكمن السبب في التساكس الذي ميّز علاقة الشريكين، وثانيهما إذا لم يكن للشخص المعني المبررات الواقعية التي جعلت من الوحدة فيما مضى أمراً منفراً، وعلي رأس تلك المبررات الديكتاتوريات التي تعاقبت على حكم السودان، واستهلكت من جملة خمس عقود في سنوات ما بعد الاستقلال، نحو أربعة عقود زمنية منها، أي مانسبته أربعة أخماس الحقبة التاريخية، والمعروف أن هذه الديكتاتوريات تآذى منها

الشمال والجنوب معاً.. بناءً عليه، لم تكن الوحدة فيما مضى منفرة (لله في الله)، وبنفس القدر لا يُعتقد بأنها ستكون جاذبة لمجرد أن أُقبل عليها البعض ليلثمها قُبلاً، ونستطيع القول إجمالاً لو أن السودان حُكم حُكماً ديمقراطياً صحيحاً منذ استقلاله، لما جاء الحديث عن قضية مصيرية الآن بصيغتي التفاؤل والتشاؤم، أو بإختزال في نعم ولا!

• **سابعاً:** الملاحظ أن كثير من السياسيين الشماليين والجنوبيين معاً وظنوا أنفسهم في التعامل مع قضية الوحدة والانفصال من خلال تجاربهم الشخصية، ورغم إحترامنا لتجربة أي فرد، إلا أنه لا يمكن أن تكون معياراً قيمياً تزن به قضية مصيرية كهذه. هَبْ أن جنوبياً وشمالياً كنا متجاورين لمدة عشرين عاماً، وعاشا طيلة هذه الفترة في مُقَتِّ متبادل وكراهية حادة، للدرجة التي اشتعلت فيها حروباً خفية وعلمية بينهما طيلة تلك الفترة، وحدث أن استبدلا معاً دياراً بديار وجيراناً بجيران، فهل بالضرورة أن ينقل أي منهما مشاعر الشحنة والبغضاء للجار الجديد، أي يعاملانه بارث الجيرة القديم أم وفق معطيات الجيرة الجديدة، ولنضرب مثلاً آخر بالمعاملة التي لقيها معظم الأنبياء والرسل من قومهم، وكانت في مجملها صدوداً ومكيدة ومؤامرت وتعذيب وإهانات ومحاولات بالتصفية الجسدية، فلو أن هؤلاء الذين بُعثوا بالحق عاملوا قومهم بذات المنهج الإقصائي، هل كان يمكن أن نشهد بشيراً أو نذيراً من الأنبياء والرسل، بلغوا بدعوتهم منتهاها!

السيد باقان أموم ليس استثناء من الذين ظلوا ينظرون لجدلية الوحدة والانفصال من خلال تجاربهم الشخصية، وطبقاً لذلك، يمكن القول أن نظرته تلك تأرجحت غلواً وهبوطاً، وذلك ليس بذي بال، لولا أن الرجل يتسم الآن منصباً رفيعاً في الحركة، لا يحتمل الخضوع للأهواء والرغائب الذاتية. فكما هو معروف، قضى باقان شطراً من طفولته وصباه في الشمال، وذلك بالطبع لأبداً وأن يكون له أثراً غير مباشر في تكوينه النفسي، ولا يُعتقد بأن موضوع الانفصال شغل حيزاً في تفكيره آنذاك، ولا يذكر هو أنه تعرّض لتفرقة عنصرية داخل أسوار مدرسته، لربّما جاءت نُذُر منها خارجها، وغالباً ما تُعزى لشقاوة الطفولة، أي ليست منهجاً منظماً، لا سيما بالنسبة للكبار أنفسهم، أصبحت التفرقة العنصرية نفسية أكثر منها لفظية أو ممارسة عملية، وبعكس مناطق كثيرة في العالم، تماثل الحالة السودانية من ناحية التعدد العرقي والإثني، فإن الظاهرة في السودان تنازلية وليست تصاعدية بمعنى إن كانت سياسة الفصل الجغرافي الذي انتهجه الإنجليز فيما سُمّي بـ"قانون المناطق المقفولة" العام ١٩٢٢ هو قَمّة التفرقة العنصرية، يمكن القول أن خط الظاهرة البياني بعدئذٍ انحدر للأسفل، ولم يصعد للأعلى، إلا من خلال التصعيد العسكري الميداني للحرب، ولم يحدث مثله في قرى ومُدن الشمال مثلاً، بل يمكن القول أن النُذُر القليلة الباقية الآن هي مجرد موروث لا يد للأجيال اللاحقة فيما سلفت فيه يد الأجيال السابقة. زد على ذلك،

أن أزيد فرص التعليم بالنسبة للشمالين والجنوبيين معاً، إلي جانب الرُقي والتقدم الإنساني هذه أيضاً عوامل جعلت من الظاهرة مجرد استثناء عالق في الأذهان والنفوس أكثر من كونه قاعدة على أرض الواقع، وقمة الواقعية أن يستطع البعض الانفكاك من إसार الماضي، ولا يؤخذ المواطن بجريرة الأنظمة العسكرية الديكتاتورية!

المرحلة التالية في حياة باقان كانت انضمامه للحركة الشعبية وهو يافع، فوجد نفسه مع آخرين في كوباء، ومن البديهي أن يجد فيها رعاية مميزة، دفعته فيما بعد لإجراء مقارنه غير واقعية، فقد سبق لي أن سمعت منه أخطر رأي يمكن أن يُدلي به سياسي في حضرة آخرين، ورغم مرور أكثر من عشر سنوات على ذلك، إلا أنني كلما استرجعت هذا الرأي احترت في تصنيفه، هل أضعه في خانة الرأي الشجاع أم المنفعل أم الساذج أم الصادق أم المتهور!

في يوم ١٩٩٦/١/٩ هيأت لي الظروف إقامة ندوة في العاصمة الإريترية أسمرا على هامش إجتماعات هيئة القيادة، واقتصنت الفرصة قطعاً لدابر الانتظار المُمِل الذي ضرب بسياجه حول أعضاء هيئة القيادة بعد ما اتضح تأخر د. جون من الحضور في الوقت المُحدّد، وحضرها وشارك فيها بالحديث كل ألوان الطيف السياسي، منهم السادة: عمر نور الدانم، مبارك الفاضل (حزب الأمة) فاروق أحمد آدم، فتحي شيللا، التوم هجو (الحزب الاتحادي الديمقراطي) باقان أموم، منصور خالد، محمد سعيد بازركة (الحركة الشعبية لتحرير السودان) التيجاني الطيب (الحزب الشيوعي)، عبدالرحمن سعيد (القيادة الشرعية) حسين ولي أركاب (مؤتمر البجا) هاشم محمد أحمد (النتابات) فاروق أبو عيسي، بونا ملوال (شخصيات وطنية) وقد تَمَّت الإشارة لهذه الندوة لأول مرة في كتابي الأخير الذي صدر قبل عدة أشهر "سقوط الأقنعة.. سنوات الأمل والخيبة"، فما الذي قاله باقان وارتجت له قلوب وهوت أفئدة آنذاك؟!

نظراً للمساحة المُحدّدة، ذلك ما سنواصله في المقال القادم بإذن الله، ونتابع مع باقان هرولته بين صفا الوحدة ومروءة الانفصال!!

آخر الكلام: لا بُد من الديمقراطية وإن طال السفر!

٢٠٠٧/١١/٢٦

obeikan.com

حوار في الساعة الخامسة والعشرين مع باقان أموم (٢)

نواصل ما أنقطع من تسلسل، وكُنّا قد توقفنا الأسبوع الماضي في الندوة التي التأمّت بالعاصمة الإريترية أسمرّا على هامش اجتماع هيئة قيادة التّجمّع الوطني الديمقراطي، وقلنا عنها أنها انتظمت بإرادة "رُبّ ضارّة نافعة"، فقد استثمرنا الظروف التي أدّت إلى تأخير د. جون قرنق من الالتحاق بالاجتماع بدعوى انشغاله بشئون السّجال العسكري في جنوب البلاد، تلك الندوة كما أشرنا حضرها كل أعضاء هيئة القيادة - عدا الرئيس - وبيّدت التمثيل الحزبي الذي جرى ذكره في الحلقة الماضية، وتوقفنا في الحديث الذي أدلى به السيد باقان أموم، وزاغت جرّاءه عيون البعض حتى كادت أن تخرُج من محارها..

ابتدره بتمهيد ساقه وأبدى فيه سعادته - لا أسفه - بتحطيم الجبهة الإسلامية لما أسماه بـ"جهاز الدولة القديم" أو "دولة الجلالة"، مشيراً إلى أن ذلك يشمل الجيش "كجهاز قهر" وكانت تلك في تقديره "شوفينيّة سياسية" إن جاز التعبير، ينأى عن حياضها المثاليون، فالجبهة لم تحطم ذلك الجهاز بدعوى أنه غير صالح، ولكن لأنه لا يتوافق مع رؤاها، وقد فات على أموم أنها حطمته لتقيم مكانه دولة القهر الحقيقيّة، ولعله التمس ويلاتها الآن إذ أنه "ليس من رأي كمن سمع!" ومع ذلك فقد كان واضحاً أن العبارة محض إسقاط طبيعي للمشاعر التي أدّت إلى اندلاع واستمراريّة تلك الحرب اللعينة، دون التفكر في تمحيصها!

لكن الذي لم يكن طبيعياً ما اتصل بعدنّ في حديثه وفجّر خلاله قنبلة موقوتة في وجوه الحاضرين، وضرب فيها مثلاً بتجربته الشخصية، فقال: «أنا كشخص، ليس لديّ ولاء للسودان، وبالتالي فهو غريب عليّ.. في مدينة هافانا في كوبا، كنتُ أشعرُ بانتماء، وأنني جزءٌ من المُجتمع، وسألتُ نفسي: هل هذه خيانة، أم ماذا؟! لكن الحقيقة كنتُ أشعر بأنني مندمج في المجتمع، ولا أشعر بالعزلة، أو أنني مواطن من الدرجة الثانية.. في الخرطوم مثلاً، أشعر بأنني في الغربة.. كنتُ أقول لنفسي: هل هذه قلة في الوطنيّة، أم أن هناك سبباً آخر؟! الحقيقة، السبب أنني تربّيتُ على ذلك.. أنا أقول، كاقترح أن عاصمة "السودان الجديد" يجب أن تتحوّل من الخرطوم، لأن الخرطوم تُذكرنا بأشياء مؤلمة كثيرة.. لا بدّ أن نبحث عن مدينة أخرى، في أي مكان».. وتوقف عند تلك النقطة، وبدأ لي كأنه أفرغ من جوفه همّاً ثقيلاً خيّم على صدره زمناً طويلاً!

بعد ذلك مباشرة، ساد صمتٌ القبور على قاعة الاجتماعات الراحية في الطابق السابع في فندق نيلال.. وَجَم الحضور كأنما حطَّ على رؤوسهم الطير، وتفرَّست وجوه الحاضرين علَّ أحدهم يود التعقيب.. انبرى منهم السيد التيجاني الطيّب، ربّما لإحساسه بأن القائل تدثر ببقايا الفكر الذي ينهل منه حزبه، فقال اختصاراً: «على الرغم من تفهّمنا للأسباب الموضوعيّة التي تقف خلف هذا الكلام، إلا أن مثل هذه الآراء تُفزعنا»، وكان ذلك قولاً سديداً كفى الحاضرين مغبّة الخوض في جدلٍ لا أحد يعلم مبدأه أو منتهاه، وقد استأذنتي التيجاني في نشر مقتطفات من حديث أموم ذاك في الدورية التي يُصدرها الحزب "قضايا سودانية" العدد العاشر، وكأني به يريد زيادة مساحة الفرع الذي لم يستطع مداراته في تعقيبه القصير البليغ!

بيد أن الذي دعاني لتذكّر حديث أموم اليوم رغم مُضي أكثر من عشر سنوات عليه، حديث ممثّل أثناء زيارته الأخيرة للولايات المتحدة الأمريكية أواخر سبتمبر الماضي، حيث نظم له نشطاء الحركة الشعبيّة في منطقة واشنطن الكبرى ندوة وقد ورد في سياق حديثه وفق التقرير الذي نشرته ('الأحداث' ٢٠٠٧/٩/٣٠) عبارة أخرى لا تُعدُّ إلا أن تكون عزفت جديد للحنّ قديم، رغم اختلاف المفردات وتغيّر الأمثلة.. في تلك الندوة، استهلّ باقان حديثه بمباغثة الحضور في قوله: «لايُد أن أؤكد على أنني حركة شعبيّة أكثر من أنني سوداني»، بل ذهب إلى التأكيد على أن السودان إذا ما قُدِّر له المُضي بعيداً عن رؤية الحركة الشعبيّة فإنه لن يمضي معه، وزاد ضاحكاً: «ربّما تجدوني حينها مواطناً أمريكياً مثلكم»، معتبراً الحدّ الفاصل بين سودانيّته وعدمها، هو التزام الحكومة بإنفاذ "اتفاقية السلام الشامل" ..

الرأي عندي هذا قولٌ ثقيل الوطء على النفس أيضاً "كمشي المرجرج خائض الوحل"، فكيف للمرء أن يرهن بمغامرة لعبة "الروليت الروسية" هويّته الوطنيّة بنظام هو كالدهر لا أمان له؟! وبمنطقه، من ذا الذي يسحب الآخر نحو حظيرته، هل السودان هو الذي يجرّ الحركة الشعبيّة أم العكس؟!

نظير هذا، أذكر أنه كثيراً ما ساءني الإسلامويين حينما يُمايزون بين دولة المواطنة والعقيدة، علماً بأنّه خشية مغبّة مثل هذا الخلط الشائنة، ظلّ عقلاء البشريّة ينادون منذ الأزل بفصل الدين عن السياسة، تأسيساً على أن المواطنة أمرٌ دنيوي يحتمل الاجتهاد، والعقيدة شأنٌ ديني مُسلم به، وها هو باقان بحديثه المذكور يكرّر خطأ الاسلامويين ولكن برواية علمانيّة، فهو يفاضل بين المواطنة والهويّة السياسيّة، علماً أنها مفاضلة ضيزي، لأن الهويّة السياسيّة تلك، سواء دان فيها المرء للحركة الشعبيّة أو الأمّة أو الشيعي، فهي ترياق المواطنة، وإن حدث أن اختفت أو انعدمت فإن ذلك ببساطة يعني إنعدام مرجعية التنظيم!

عوداً على بدء، كنا قد أشرنا إلى أن كثير من القيادات السياسية الشمالية والجنوبية باتت تنتظر لجديّة الوحدة والانفصال من خلال تجاربها الشخصية، وقلنا إنه مع كامل الاحترام والتقدير لتجارب أي إنسان، لكنها لا ينبغي أن تكون معياراً قيمياً وفيصلاً في قضية كهذه يُفترض أنها تخضع لعوامل أخرى ليس من بينها التجارب الذاتية، فهي على الأقل إضافة لضيق رداؤها، إما أنها كانت غير سارة أو غير مستقرة (تلك القاعدة، الاستثناء فيها قلة)، وفي هذا السياق بدأنا في متابعة مسيرة الغلو والهبوط بمحاولة استنباط الظروف التي نعتقد أنها أثرت في عدم استقرار جدليّة الوحدة والانفصال في نفس أو فكر السيد باقان أموم، وبالطبع ما كان لنا أن نقبل على ذلك لو لا أن الرّجل يباشر مسؤولياته في أهم منصب تنظيمي كأمين عام للحركة الشعبية، أو بعبارة أخرى، المايسترو الذي يقف على رأس الفرقة الموسيقية!

كانت المحطة الثالثة لباقان بعد كوبا مسرح العمليّات في جنوب البلاد، ومن البديهي أن توجّج أجواء الحرب ورائحة الموت الكريهة مشاعر الشحاء والبغضاء وإزدياد حدة سلبيتها، لا سيّما تلك التي ولدتها مفارقة المقارنات بين زمين في كوبا والسودان، لكنها ما لبثت أن خفت أوارها بعض الشيء وذلك في المحطة الرابعة وفق ما سنرى، حيث أتاح انقلاب الجبهة الإسلامية في العام ١٩٨٩، أن ينتظم لواء المصابين في كيان التجمّع الوطني الديمقراطي، والتحقّت به الحركة الشعبية العام ١٩٩١ ليصبح وعاء جمع الإرادتين الشماليّة والجنوبيّة للمرة الأولى معاً، واختصاراً لتطوّرات تاريخيّة كثيرة إنتقل هذا الكيان جغرافياً بعد مؤتمر أسمرال للقضايا المصيريّة إلى ما درج بتسميته "الجبهة الشرقيّة" لمباشرة نشاطه العسكري، وهو ميدانٌ يختلف تماماً عن "الجبهة الجنوبيّة" التي كانت تتحرّك فيها الحركة الشعبية منذ نشأتها. ومن دون الدخول في تفاصيل كثيره ربّما تكون مرهقة للقارئ، يهمنا أن نقول أن تلك النقلة في حياة أموم كانت نفسية أكثر من كونها جغرافية، وقد وفر الإحتكاك المباشر في ذلك الفضاء مناخاً صحياً لغلبة التفكير العقلاني، وانعكس إيجاباً وبشكل تلقائي على مشاعر الوحدة، وتنامى حتى بلغ قمّته عندما تسنى له قيادة الجبهة على رأس الفصائل العسكريّة السبع، وإن كانت عملياً أقل من ذلك، وفعلياً صاحب أنشطتها النجاح والفشل بقدر سواء!

المرحلة التالية تدرّج فيها من العمل الميداني الذي كان يقوده في الجبهة الشرقيّة إلى منصب الأمين العام للتجمّع الوطني، وهي الخلافة التي جاءته تجرّجراً أذنيها بعد خروج حزب الأُمّة، ولم يكن ثمة مناص من أن يؤول المنصب له بعد أن كان يتولاها بالعناية والرعاية السيد مبارك الفاضل، وقد لا نظلم أموم إن قلنا أن المنصب بصيغته القوميّة كان يحتم على من يتسمنه في قضية الوحدة أن يكون كاثوليكيّاً أكثر من البابا، وليس ثمة معر أمام شاغره سوى أن يرمي بأي نعرات انفصاليّة في قعر جُبٍ عميق!

أثناء تقلده ذاك المنصب كان أموم وفق ما كشفنا عنه لأول مرة في الكتاب هو عزّاب لقاء جنيف مع مجموعة المؤتمر الشعبي (فبراير ٢٠٠١) ولعله يذكر أنه ذات أمسية قاهرية عقب عودته مباشرة من جنيف، جمع أحد الأصدقاء رهط من المعارضين على شرفه، أذكر منهم السيد فاروق أبو عيسى، الفريق عبدالرحمن سعيد، العميد عبدالعزيز خالد، الاستاذ محبوب عثمان، العقيد كمال إسماعيل، السفير السابق عباس أبا سعيد، مولانا سيف سليمان، السيد جابي فايز غبريال وشخصي، يومذاك تركّز الحديث حول وقائع المناسبة التي لم يحفّ حبر توقيعها بعد، وتركّز بعدئذٍ حول جدلية الوحدة والانفصال، وجرى الحديث عن التيارات التي تتشكّل منها الحركة الشعبية في الصفتين وبأمثلة حيّة!

لربّما من باب التبسيط لقضية أصلاً شائكة ومعقدة جداً، وضع أموم المسألة في شكل نسب، كقوله أن فلان وحدوي بنسبة كذا وانفصالي بنسبة كذا، ومضى في حديث الشفافية ولم ينس نفسه، وقد تحدّث عنها بشكل يحسده عليها البارعون في قضاء حوائجهم بالكتمان، وخلاصته قال إنه قبل تجربة التجمّع كان انفصالياً متطرّفاً بنسبة مائة في المائة، لكن ثمة عوامل غيرت من تلك الحميّة لصالح الإيمان بالوحدة، وتمتنت أكثر في إطار النشاط العام في التجمّع الوطني الديمقراطي، وتقديره أنه لم يكن مغالياً في ذلك، بل هذا بالضبط ما نحاول أن نترصّده في هذه المسيرة. وأذكر يومذاك سأله أحد الحاضرين عن ميول د. جون وموقعه من إعراب الوحدة والانفصال، فقال باقان: «ففتي ففتي».. وكان ذلك إيماءً منه في القول بطريقة غير مباشرة، ليس أمام قرنق خيار سوى أن يتناصفه الفريقين، طالما أنه يرأس حركة فيها الوحدوي والانفصالي يقفان حدّوك الكتف بالكتف، وبينهما بندقيّة!

اتساقاً مع ما نحن بصددّه، أستطيع أن أقول برأي شخصي أن الرّاحل د. جون كان - كما أشار أموم - يبدو لناظره "فيفتي ففتي" ولكن ذلك من ناحية نظريّة أو إن شئت فقلّ مظهريّة، لأن منصبه كقائد يحتم عليه أن يمسك بتلك العصا من منتصفها، وإلا تشظت الحركة وراحت شذراً مذراً، بيّد أنني أستطيع أن أقول إنه من ناحية الجوهر، فقد كان وحدوياً بدرجة مائة في المائة، وشاهدي في ذلك: أولاً، أنه خاض حرباً ضارية بداية تأسيس الحركة، ليس ضد "دولة الجلابة" كما يسميها باقان، ولكن ضد القوى الانفصالية في الحركة.. وثانياً، كان د. جون يُدرك - ورحم الله أمرئ عرف قدر نفسه - أن كارزمنيّة القيادة بقدراتها الفكرية والسياسية أكبر من أن تستوعبها رقعة الجنوب الجغرافية المحدودة، وأنها أرحب أن تتمدّد في المليون ميل مربع، وتلك مسلمة ربّما تراءت له إبان نشاطه في إطار التجمّع الوطني، مثلما تراءت لنا نحن معشر المرّاقبين! وثالثاً، نضنّ بغير إثم أنه كان واثق النفس في الأفكار التي تبناها نظرياً، بُغية

الوصول عملياً لمفهوم "السودان الجديد" وكان عظيم الثقة كذلك في أنها يمكن أن تصلح ما أفسده الدهر والعتار معاً! وأخلاقياً، هذا إرث ينبغي أن يُصان!

لعلّ باقان يذكر لحظة أن أشجي جالسيه وأضحكهم حدّ الثمالة، ذلك حين سأله أحدنا عن المستشار، فمن باب التفكّه أورد للحضور النسب التي منحها له د. قرنق في إحدى طرّفيه، ذلك حينما لاحظ بجسّيه السياسي أن نفس المستشار - وفيها بعض جاهليّة الأنظمة الشموليّة كما نعلم - راودته بين الحركة والحزب العتيق، بدلائل أنه صار يومذاك أقرب لزعيمه من حبل الوريد، واستكمالاً للطرفة كانت النسبة الأخرى التي منحها له د. جون يوم أن تورّع ولاء المستشار بين الحركة وحفيد الملك نمر، وكان الرّاحل كريماً فيها فقد احتفظ بالزّبع للحركة وذهبت الثلاثة أرباع للمذكور، وكادت أن تصبح واحداً صحيحاً يوم أن انبرى صاحبنا يدافع عنه في أروقة التّجمع بمنطق "كل صاحب نعمة محسود"، ذاك كان يوم أن دكّت صواريخ "توما هوك" منشأة "النعيم ود حمد" دكاً وسأوتها بالأرض، ضحكنا جميعاً لدقة الملاحظة يومئذٍ، ونقول الآن رحم الله زعيم الحركة الشعبيّة بقدر ما أدهش عدوّه في سوح المعارك، وبقدر ما شتّف أذان مستمعيه بحديث لا يملون سماعه!

اتصالاً مع ما مضى في مسيرة الصعود نحو مراقي الوحدة أحياناً، والهبوط نحو درك الانفصال أحياناً آخر، يجلس أموم الآن في المحطة الأخيرة على سُدّة الأمانة العامة للحركة الشعبيّة، وهو المنصب الأهم في الهيكل التنظيمي، وقد لاحظتُ على عكس ما هو مُفترض أن أموم الأكثر حديثاً فيه عن الانفصال، وكَم كنتُ أتمنى أن أكون مُخطئاً لكن الحقيقة ذلك ليس اجتهداً أو افتراضاً فهو أمرٌ مسنود بالوقائع العمليّة، فيما قرأته له من تصريحاتٍ أو ندواتٍ أو تصريحاتٍ، وجاءت الحلقات الثلاثة المنشورة في الرأي العام والتي استند عليها هنا في التحليل، كخاتمة بنيسة في هذا الصدد، فباقان سياسي براجماتي ذكي وجري وأخلاقي في تعاملاته، يُبزّر الغاية بالوسيلة إن كانتا معاً مشروعين وهذا يُحمّد له، لكنه بنزق الشباب يجنح نحو الانفعال الضار، وتخرّج من كنانته أحياناً سهاما طائشة يصعب التحكم في مساراتها، في حين أن المنصب سواء في التّجمّع الوطني الذي أصبح اثرأ بعد عين أو الحركة الشعبيّة يتطلب التحلي بحكمة الشيوخ، بخاصة أن القضية التي نحن بصدها هي باختصار رسالة مفادها أن يكون السودان أو لا يكون!

مع التسليم أن تلك ليست بانوراما سياحيّة في حياة أموم، وإنما خلفيّة لتفهّم آراءه حول جدليّة الوحدة والانفصال.. ونتابع...

آخر الكلام: لا بُدّ مِنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وإن طَالَ السُّفَرُ!
٢٠٠٧/١٢/٢

oboiikan.com

جوار في الساعة الخامسة والعشرين مع باقان أموم (٣)

مواصلةً لحوار الهواء الطلق الذي ابتدرناه مع السيد باقان أموم، استعرضنا في الحلقة الماضيتين خلفية حياته العامة بمساراتها المتعددة داخل وخارج السودان، وذلك من زاوية إعتقادنا أنها كانت ذات تأثير مباشر على رواه السياسية بشكل عام، وجدلية الوحدة والانفصال بشكل خاص، وبالطبع ما كان لنا أن نضعها تحت المجهر لولا أن الرجل يجلس الآن على قمة الهرم التنظيمي كأمين عام للحركة الشعبية، وجاء ذلك في إطار الملاحظة التي أوردناها وقلنا فيها أن كثير من السياسيين الشماليين والجنوبيين دأبوا على ممارسة "أبغض الحلال" في التعامل مع القضايا الوطنية الكبرى، وذلك بتلييسها جُلُباب تجاربهم الشخصية، ومِمَّا يعقد المسألة أكثر أن تلك التجارب بغض النظر عن تواضعها ومحدوديتها وخبيتها في أحايين كثيرة، فهي دوماً ما تتشابك مع آراء الحزب المعين أو التنظيم، بحيث يجد المراقبون صعوبة في الفصل بين الآراء الشخصية لقيادي ما وبين البرامج التنظيمية لهذا الحزب أو ذاك، وهذا ما أصطلح الناس على تسميته بـ"إنعدام المؤسسية" أو إن شئت فقل الداء الذي تشكو منه كل تنظيمات المجتمع المدني السوداني!

مع التسليم أن التجارب الشخصية ليست فيصلاً في القضايا القومية، إلا أننا لا نعني أن هذه التجارب كلها شرٌ، بل لا ينبغي لها أن تكون، ففي التقدير إن صاحبها قناعات راسخة وعضدتها مبادئ سامية، فقد تُثري وجهة نظر صاحبها أياً كان فُجورها وتقواها، أي نحو مراقبي الوحدة أو تجاه درك الانفصال. وفي التقدير وطبقاً لهذا المفهوم نعتقد أن كثير من قيادات الحركة الشعبية، أو تحديداً أمثال باقان أموم ورياك مشار ولام أكول ودينق ألور ونيال دينق وإدوارد لينو وبيتر نيوت كوك وآخرين، ليسوا في حاجة للمصطلح الذي شاع بعد نيفاشا وسُمي بـ"الوحدة الجاذبة"، ذلك من منطلق أنهم عاشوا شطراً من حياتهم في الشمال، ولا شك أن ذاك الوجود الجسدي قد أتاح لهم معاشية الواقع عملياً والتعرف على لب المشكلة وتعقيداتها، ولا أظن أن أحداً منهم إبتعد عن تشخيص الأزمة وفق المفهوم الذي درجت عليه كل القوى الوطنية الديمقراطية، لا سيما وأن غالبيتهم نهل علومه ومعارفه الأكاديمية من جامعة الخرطوم معقل تلك الآراء النيرة، ولهذا يبقى تارُجُح بعض هذه القيادات بين خيارَي الوحدة

والانفصال أمراً غريباً، في حين أن زعيم الحركة د. جون قرنق والذي تثنت له فرصة العيش في الشمال، ولكن بدرجة أقل - كمأ ونوعاً - بعد اتفاقية أديس ابابا ١٩٧٢، كان حتى رحيله يُعد حصان الوحدة الرابع وإن اختلفت الطموحات!

ولنضرب مثلاً آخرأ يبدو نقيضاً لسابقه، أنظر للرجل المثير للجدل د. حسن الترابي وتقلبه يسار الوحدة حيناً ويمين الانفصال أحياناً آخر، فالدكتور العالم الفقيه بدأ حياته السياسية بالعزف على أوتار قضية الجنوب، وقال يومها حديثاً مشبهاً بلبيرالية أهل الغرب، الذي قديم منهم للتو، لكنه حينما دانت له السلطة شاء إخضاع الجنوب نفسه بالقوة العسكرية، وطمح في أسلمته حتى يكون جسراً لتمدد طموحه نحو خاصرة القارة، وعندما هربت منه السلطة بـ"الباب" بعد أن تنكر له تلاميذه وفاصلوه بطلاق بائن، طفق يبحث بـ"الشباك" عن ذات الحركة التي قاتلها ووصفها بالكفر والإلحاد والصهيونية!

بمقاربة أخرى في الأمثلة التي لا تنتهي، لو أن ياسر عرفان استسلم لرؤود الفعل التي واجهته عشية انضمامه للحركة الشعبية في معسكر "إيتانغ" لكان اليوم أحد كوادرن منبر الطيب مصطفى بدون منافس، أو كاتباً نجزيماً في صحيفة "الإنباهة" يُذكر الناس بفضائل الانفصال! لكن الذي حدث يومذاك، أن المقادير وضعت رجلاً حكيماً في طريقه، هو البروفيسور باري ونجي، كان ياسر في ذروة معنائه جزاء الشكوك التي نسجها البعض حوله بالإرث التاريخي، إنتاشته سهامهم باعتباره "طابوراً خامساً" أو "غواصة" بلغة شارع اليوم، وأنه محض "جلابي" وفقاً للتوصيف الذي بات يربده أموم بكثرة، وقالوا عنه أن حكومة "المندكورو" في الخرطوم أرسلته لتسقط أخبار الحركة الوليدة وكشف أسرارها، لكن نصائح البروفيسور ونجي غسلت دموعه التي ضارعت أقطار الهضبة الأثيوبية في غزارتها، وانتشلت من غياهب اليأس والقنوط، وببساطة ذكره ونجي بالحكمة الأزلية القائلة أن في الكون أناس صالحين يمكن أن يتفهموا دوافعه، مثلاً في الكون أيضاً أناس صالحين لا ينظرون للأمور أكثر من أرنبه أنوفهم، وكان ذلك كفيلاً بأن يهذي روع القادم الجديد، لكن المفارقة الميلودرامية أن ونجي نفسه جرفه تسونامي الانفصال في طوفان ١٩٩١، بينما أوى ياسر إلي جبل آخر يعصمه من ذات الانفصال، فوجد ضالته في زعيم الحركة الشعبية د. جون قرنق!

في ضوء تداعيات هذه الخلفية، نستمر في مناقشة بعض الأفكار التي وردت على لسان أموم في الحوار الذي تمت الإشارة له ونشر في 'الرأي العام' في حلقات ثلاث، وبعض هذه الأفكار تكرر ترديدها ممّا أعطى الانطباع أنها أصبحت منهجاً ثابتاً في سلوك الأمين العام السياسي، وبادئ ذي بدء لا يستطيع المرء أن يخفي دهشته من الرأي الذي ورد في ديباجة الحوار واحتفت به الصحيفة على لسان أموم، والذي تمثل في وعدٍ قطعه لها قبل إجراء الحوار بقوله

أنه: «سيتحدث عن الوحدة والانفصال بصورة ستدهشهم».. ووفقاً لهذا الزعم وبناءً على الافتراض الذي ذكرناه أعلاه في انعدام المؤسسية بصورة عامة، لا بدّ للمرء أن يتساءل: هل الآراء التي ساقها أموم ونعكف الآن على مناقشتها تُعبر عن رأيهِ الشخصي، أم هو رأي الحركة الشعبية؟! ولو أن الإجابة أكدت أنها رأي الحركة الشعبية، فهل يعني ذلك أن هذه الآراء جَبَّت ما قبلها من أفكار وبرامج؟! وإن كانت الإجابة بـ«نعم»، فماذا لم تعلن الحركة الشعبية لجماهيرها بل لجماهير الشعب السوداني قاطبة عن تغيير أو تبديل أو تحويل طراً على برامجها؟! ومن جهة ثانية، سواء عبّر الحديث عن رأيهِ الشخصي أو رأي الحركة، هل جاء نتيجة رد فعل لتصرفات الشريك في الأزمة الراهنة؟! أم أنه تطوّر جديد في تشخيص الحركة الشعبية للواقع وكيفية التعامل معه؟!

إن الدهشة التي توخّاها أموم بعثت دهشة أخرى بطريقة التناضح العكسي، ذلك أن دهشته التي عناها هي في التقدير انطوت على قدر كبير من الآراء المتناقضة، ولا شك أنها استلقت انتباه القارئ وقبلة كانت قد لفتت انتباه الصحفيين اللذين حاورانه، والمثير في الأمر أنه بالإضافة إلى تعددها، فإن بعضها يقع في فقرة واحدة، ولا أدري كيف فعل أموم ذلك وهو الرجل الحصيف! وحتى لا نثهم بإلقاء القول على عواهنه، نسوق بعض الأمثلة.. ففي سياق رده على دور المستعمرين في ترسيم الحدود، قال أموم: «السودانيون لم يرسّموا حدود بلادهم.. هذه الحدود رُسمت بطريقة اعتباطية لا تعبر عن الواقع، ولكن تعبر عن نفوذ استعماري للإنجليز، وبالتالي هذه الحدود هي حدود استعمارية».. الحقيقة أن ذلك يُعد كلاماً عذّباً يمكن التأمين عليه، لكن أموم بعد دقائق معدودات، أي في السؤال الثالث في التسلسل، ناقض نفسه بطريقة لافتة للنظر..

ففي إجابته على سؤال من الصحفيين حول ما إذا كان مؤمناً بأن ترسيم الحدود بواسطة المستعمر تمّ برؤية يمكن أن تكون منتجة للآزمات داخل الدولة الواحدة، أو بين الدول، فقال: «أنا لا أتفق مع النظرة للحدود بأن ترسيمها يوحى بمؤامرة، أو أن وضعها كان جزءاً من مؤامرة استعمارية، ولكن أعتقد أن الحدود رُسمت إما بطريقة اعتباطية دون مراعاة لأي واقع اجتماعي أو سياسي أو ثقافي أو أنها وُضعت كخط فاصل بين مناطق نفوذ استعمارية».. وبالطبع يحتر المرء بين النقيضين، كأنني به لا يريد أن يوافق السائل لمجرد الظهور بمظهر المخالف، فما قاله الصحفي هو التفسير الذي استقر عليه رأي المستعمرين والمستعمرين أنفسهم، والدليل هذه الحروب المتصلة سواء داخل الدولة الواحدة أو بين الدول وجيرانها.. نعم، ترسيم الحدود لم يراع الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي لهذه الدول، لأنه وضع مصالح المستعمر فوق مصالح تلك الدول، وللوصول لهذه الأهداف الخبيثة خلف وراءه قنابل موقوته بغية تفجيرها حال رحيله!

في بطن إجابته السالفة الذكر، أطلق أموم سهماً عشوائياً في قوله: «لو أن الجنرال الفرنسي مارشان لم يتراجع عن منطقة فشودة في القرن التاسع عشر، لكنك الآن أتحدث معك بالفرنسية، بل ليته لم يتراجع لأنه كان الجنوب سيكون ضمن المستعمرات الفرنسية والشمال تابع للمستعمرات البريطانية، ولما كانت هناك حرب أهلية، بل ستكون جيران (زي ما نحن جيران مع أفريقيا الوسطى، لكن الفرنسيين انسحبوا)». افتراضات للأسف كلها خاطئة، وقد سؤلت لي نفسي أن باقان إرتأى المزاح في هذه الإجابة وأتمني أن يكون كذلك، فالحديث عن أن الجنوب كان سيكون مستعمرة فرنسية، وبزعمه تلك مزية إيجابية هو افتراض ساذج، فلا اظن أنه لا يعلم أن الاستعمار هو الاستعمار أياً كانت هويته، علاوة على أن عين الرضا في المثل الذي ساقه وضعت أفريقيا الوسطى وتغاضت عن تشاد رغم أن كليهما يتحدثان الفرنسية!

عندما يُعقب عليه الصحفي باستنكار مردّه لماذا لا ينظر لسياسة المناطق المقفولة باعتبارها واحدة من معوقات الترابط والتفاعل؟ وبالمناسبة، ليس هذا افتراض الصحفي وحده، بل هي الحثيثات ذاتها التي توارثتها النخب السودانية أباً عن جد، وتواصلت عليها واعتبرتها بمثابة "أم الكبانر" في رصد أسباب الحرب والنزاعات الأهلية، وأموم نفسه لم يجد عن ذلك التحليل لكنه زاد عليه بلرم بـ"به البروفيسور الكيني على المزروعي في أفكاره القائلة بضرورة عودة المستعمرين لأفريقيا بدعوى فشل حكامها ونخبها السياسية، وليت باقان قال ذلك أيضاً، فهو على الأقل حديث جدلي يحتمل الخطأ ويحتمل الصواب بقدر سواء، لكنه عوضاً عن ذلك قال: «أنا لا ألوم الإنجليز على سياسة المناطق المقفولة فقط، ولكن يمكن أن نلومهم على أنهم جمعوا مجموعات مختلفة في حدة واحدة في منطقة السودان، ونلومهم على أنهم وحدوا السودان ووضعوا الحدود بهذا الشكل، ويمكن أن نلومهم أنهم أعطوا السودان الحكم الذاتي وقرروا الجلاء قبل أن يوجدونا، ويمكن أن نلومهم على كل ذلك»..

مرة أخرى، أفترض أن أموم يمزح أو أنه إستهواه "سجع اللوم"، فما قاله ثرّهات لا أظنها تجد أذنًا صاغية في أي من المذاهب السياسية، مثلما هو تجديد صدّ وقائع التاريخ، وتدحضه ديكتاتورية الجغرافيا التي جعلت من السودان قطراً وسطياً يفترض أن يُجسّر الهوة بين عالمين بثقافتين مختلفتين.

الغريب رغم أنه قول معلول، فهو يحتوي أيضاً على تناقض مُربك، فهو يلوم الإنجليز لأنهم «وحدوا السودان ووضعوا الحدود بهذا الشكل»، وفي السطر التالي هو يتحسّر على أنهم «قرروا الجلاء قبل أن يوجدونا»، ويزيد الأمر إرباكاً في فقرة أخرى عندما ينسخ هذه وتلك ويؤكد ما أجمع الناس وتواطأوا عليه في تشخيص الأزمة الوطنية منذ زمن بعيد «عملية ظهور الدولة السودانية ليست عملية قديمة.. وبالتالي أنا اتحدث عن فشلنا كسودانيين ولا

الوم الشماليين أو الجنوبيين أو أهل الغرب ولا أُلوم أهل الشرق، ولكن ألوم أنفسنا في أننا فشلنا أن نبلور مشروعاً قومياً يضم الكوكتيل الذي جمعه الانجليز في مكان واحد».. نعم، هذا حديث العقل، فقد كان المأمول أن يكون هذا التنوع الذي حبا به المولى السودان مصدراً من مصادر ثراء الوحدة الوطنية، وتأكيداً لهذه الحقيقة الأزلية أشار باقان في "لقطة فنية رائعة" إلى قول المولى عز وجل في مُحكم تنزيله {إنا جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا}، ولا أظن أن بلداً متعددأ في معتقداته الدينية ومتابيناً في ثقافته، ومتنوعاً في اثنياته مثل السودان، يمكن أن ينجز تلك الوحدة المنشودة بطريق غير الطريق الذي أشارت إليه الآية الكريمة، لولا أن أصحاب المشروع المقبور قرأوها "لتتحابوا".. كما قال أموم!

في تقديري لم يكن أموم أصلاً في حاجة لهذه القفزات التي أوقعته في مغبة متناقضات كثيرة، لو أنه احتفى بالحقيقة الأزلية التي لهجت بها السنة السياسيين وعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا حول موضوع الوحدة واستهل بها هو نفسه حوارهِ مع الصحيفة المذكورة «إن تحقيق الوحدة يتم عبر الإرادة الحرة للشعوب المُكوِّنة للسودان، وهذا موجود في إتفاقية السلام عبر الآلية السياسية التي تضمّنت حق تقرير المصير لجنوب السودان، وعبر التغيير الجذري الكامل في البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية للسودان القديم.. في هذه العملية تتم معالجة مكامن الظلم وجذور نزعات الاحتراب والانفصال.. لأن الانفصال ردة فعل لعلاقات جانرة معينة بين الجنوب وبين المركز وليس الشمال».. وفي هذا الصدد ليت أموم ضرب مثلاً بتجربة الولايات المتحدة الأمريكية، ومثلها كندا وأستراليا، هذه دول بنت أمجادها بتطبيق حقيقي لشعار الوحدة في التنوع، ومع ذلك لا يدهشنا أن الغصبة المُغرمة بالشعارات الجوفاء وضعت شعاراً مماثلاً على القناة الفضائية الرسمية، كأنهم يريدون أن يقولوا لنا أنهم قومٌ آخرون غير الذين أسسوا ثقافة العنف والهيمنة السياسية، وفرضوا أحادية مقبّنة، وتعمّدوا إقصاء الآخر كأن الله ما خلق غيرهم!

وبمناسبة الشعارات هذه، لا بأس أن نختم هذه الحلقة بنكتة سياسية متداولة.. فقد سئل الشيطان عن أسباب غضبه المضربة على جلاوزة الغصبة وعزمه الهجرة من السودان، فقال: إنهم تنكروا له بعد أن أكرمهم بكل ما يشتهون، وضع كل منهم لوحة مذهبة في مكتبه نُسخَت عليها الآية الكريمة: «هذا من فضل ربي»!

وإلى الحلقة القادمة حيث نتبين فيها الخلط الذي وقع فيه أموم بين التكتيكي والإستراتيجي، بوعدٍ لن نتنكر فيه لـ "شيطان التفاصيل" الذي بدأ معنا هذه السلسلة!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطية وإن طال السفر!
٢٠٠٧/١٢/٩

oboiikan.com

جَوَارٍ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مَعَ بَاقَانِ أُمُومِ (٤)

استكمالاً لحديث التناقضات الذي أنهينا به الحلقة الثالثة في هذه السلسلة، توجّه الصحفيان المُحاوران للسيد أموم بسؤالٍ له، يدخل في سياق ما يلاحظه المراقبون في أداء الحركة الشعبية بشكل عام، وذلك من خلال التصريحات التي يُدلي بها قادتها، ومنهم أموم نفسه.. قالاً له: «هناك قضايا استراتيجية ومهمة يتم التعامل معها بصورة تكتيكية؟».. لكنه لم ينف ولم يُثبت، وعوضاً عن ذلك، لاذ بكهف التاريخ البالي، وأعزى المسألة برُمّتها إلى خللٍ في «الجيئات السياسية» السودانية – إن جاز التعبير – بقوله: «التناول التكتيكي للقضايا الاستراتيجية هو سمة من سمات الواقع السوداني، ومظهرٌ من مظاهر المُشكلة السودانية.. لقد تمّ تناول القضايا المصيرية بصورة تكتيكية منذ البداية، فعلى سبيل المثال، عندما طالب نواب جنوب السودان في البرلمان الانتقالي الأول بنظام فيدرالي، تمّ التعامل مع هذا الطلب من قِبَل ما يُسمّى بـ“الأباء المؤسسين للاستقلال” بطريقة تكتيكية، قالوا إنهم سيُعطون الاعتبار لهذا الطلب، وأنهم سيناقشونه.. وكان ذلك تناولاً تكتيكياً أفضى إلى الحرب قبل الاستقلال.. ومنذ ذلك الحين، استمرّ التناول التكتيكي للقضايا الاستراتيجية. كلهم فعلوا ذلك، عبود والنميري والبشير.. ونفس التناول لقضية مستقبل السودان حول الوحدة والانفصال يتم بصورة تكتيكية».

كان ذلك قولاً صحيحاً لا ينقضه سوى مكابر، وطالما هي أخطاء، إذن فمن غير الصحيح، بل غير الأخلاقي أن تسعى حركة ثورية رفعت شعارات تقدمية وناضلت بتضحيات جسام لأكثر من عقدين من الزمن إلى تكرار ذات الأخطاء التاريخية، لأن ذلك حينئذٍ يكون أشبه بمن راودته نفسه في الأكل من الشجرة المُحرّمة، وهو يعلم سلفاً المحاذير والعواقب الوخيمة التي ستلحق به إن فعلها! ويقيني أن أموم اقترب من ذلك، فهو حينما يُؤكّد أن التعامل الآن مع جدلية “الوحدة والانفصال يتم بصورة تكتيكية”، يكون حينئذٍ قد أساء لتاريخه النضالي من جهة، وأساء للمسيرة النضالية للحركة الشعبية كلها من جهة أخرى، ذلك لأننا منذ تأسيسها في ١٦/٥/١٩٨٣، لم نسمع من أحد قادتها أو نقرّ في أي من أدبياتها المنشورة أو غير المنشورة، أنها تتعامل مع “أم القضايا” المصيرية السودانية وهي “قضية الوحدة” بصورة تكتيكية، علماً بأن التعامل بصورة تكتيكية في أمّات القضايا السودانية هو سمة من سمات عُصبة الانقاذ منذ تَسَقُّها السُلطة في العام ١٩٨٩، وبالتالي إقراره أو تأكيده هو إقرارٌ وتأكيدٌ لحقيقة قائمة، والمُفارقة أن بعض ذوي العُصبة يعدّونه شرفاً ضمن إنجازات التباهي وهم يجهلون معنى المصطلح!

أوغل أموم أيضاً في الاساءة بإضفاء صفةٍ غير لائقة لغاية الوحدة النبيلة.. «السودان يلعب مباراة الوحدة في الوقت بدل الضائع»، هي أيضاً لم تكن مباراة في يوم من الأيام ولن تكون، وبالتالي ليس هناك وقتاً أصلياً أو إضافياً، القضية برمتها، كما ظللنا نتعلم من الراحل العظيم، هي قضية سامية تتعلق بالمواطنة وحقوقها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.. هي قضية حريات وانحياز للمنهج الديمقراطي الغالب في التجارب الإنسانية.. هي إيمانٌ بمصير مشترك وفردٌ واحد، هي حتمية تاريخية من أجل تكريس الهوية السودانية، مزيجاً يجمع الشنتيين! أما الذين حسبوا وسيلة للتسوية الدموية بشعيرة “الجهاد”، فهم الذين يشاركونهم أموم الحكم الآن، والذين عدّوها متعة من متع الدنيا الزائلة، هم الذين يتظاهرون بالمسئولية الوطنية الآن! فإن فرضت معادلات الواقع السياسي أن يشاركونهم أموم السلطة، نحن نربأ به أن يشاركونهم خطاياهم وأوزارهم!

المؤسي أن حديث أموم كثير التقوب، فقد برزت منه أيضاً نقيصة أخرى، إذ أغفل سهواً أو عمداً نضال القوى الوطنية والديمقراطية في الشمال، وكذلك مواقف قيادات تاريخية جنوبية، جميعهم آمنوا بالوحدة قدرا ينتظر الكيان السوداني، وهذه النضالات لم تجبئ بغتة أو يوم أن تسوّرت الجبهة الإسلامية حائط السلطة، بل هي سبقت الاستقلال وتواصلت بعده، وبالتالي تلك مواقف فرضت نفسها من قبل أن تطلق الحركة الشعبية الرصاصة الأولى، بل قبل أن يصرخ أموم نفسه صرخة الوجود الأولى، حتى وإن لم تأت أكلها!

ثمة خطأ آخر وقع فيه أموم، وبإصرار شديد طيلة الحوار، فهو من حيث يدري أو لا يدري اعتبر شريك الأمر الواقع المسمى “المؤتمر الوطني” هو ممثلٌ للشمال كله، أو قل لبقية السودان كله، وهو واقع إن كرّسته نيفاشا وأدعنا له لاعتبارات أهمها “سواد عيون” الحركة نفسها، فلا أظن أن أي مناضل ديمقراطي شريف إستشعر النيران التي “شوت” بها الغصبة لحم شعبها.. يمكنه الاستسلام لتلك الفرضية، أي فرضية أنها الممثل لكيان الشمال كله، والمعروف أنهم ظلوا يلهثون من وراء هذا الشرف طوال سني حكمهم، ولكنهم لن يبلغوه حتى يدخل الجمل من سُم الخياط، أو بلغة كبيرهم المُوغلة في الابتذال، لن ينالوه “حتى ولو لحسوا كوعهم”! فهم غصبة سطت بليل على السلطة واغتصبت نظاماً منتخباً، وبالتالي أصبح عدم شرعيتها ماركة مسجلة!

مع أنه ليس هناك أدنى حرج، أن نضيف للثلاثي الذي حكّم السودان وأشار إليه أموم في حديثه أعلاه، آخرين إختلطت عليهم حسابات البيدر والحقل. أو التدرّج بين التكتيكي والاستراتيجي في جدلية الوحدة والانفصال. مع فارق أن هؤلاء نزل نحن مسئولين عن أفعالهم هذه، سواء توافقت مع رغباتنا في صراط الوحدة، أو تضادت معها في اتجاه الانفصال، سواء نجحت أم خابت، فنحن قد انتخبناهم بخبر إرادتنا دون إكراه أو إجبار أو تزوير، لكننا بالطبع غير مسئولين

عن الذين ذكرهم، لأنهم جاءوا للسلطة بطريقة غير ديمقراطية، وحكموا بوسائل تسلطية، وأدمنوا العذاب الذي ساموه شعبهم!

يَبْدُ أنه رغم ذلك، ظلت جمرة المقاومة الوطنية متقدة على الدوام، وتلك من النقايس التي أغفلها أموم أيضاً في حوارهِ حين جاء ذكر سلطة الأمر الواقع هذه، فهو يقول رداً على سؤالٍ حول الواقع الذي تتحكَّم في مفاصله بقايا الجبهة الإسلامية: «السياسة التي كانت في السودان هي سياسة فرض أحادية دينية وثقافية، لذلك أصبحت دولة رسالية، عندها رسالة لدين مُعَيَّن تحاول فرضه على الآخرين، وتعلن عليهم الجهاد، هذا ما يجب أن يتم إلغائه حتى نتبنى مشروعاً ديمقراطياً يجري فيه حوار بين الثقافات السودانية».. وبالطبع ذلك تفسيرٌ لنصف الآية، فإكمالها يفترض أن يذكر السيد أموم نضال القوى الوطنية والديمقراطية في مناهضة هذا المشروع والحركة جزء منه، لكن السكوت عليه يشي بطريقة غير مباشرة إلى أن هذه القوى استسلمت للطغيان وخضعت للتدجين الذي مَورس عليها طيلة العقدين الماضيين!

الاشكالية التي نراها أن عُصبة الإنقاذ توهمت يومذاك أنه بمقدورها «الميمون» في الثلاثين من يونيو ١٩٨٩، أن «طلع البدر علينا من فوهات الدبابات»، وزعموا أن السودانيين دخلوا دين الإسلام أفواجا، ولكن بعد ما يقارب العقدين من التجريب القاسي للنظرية التي أثبتت خطئها من اليوم الأول، اكتشف المنقذون الجُدد أنهم منذ مجيئهم بـ «الشباك» هرب الوطنيون والماسكون على جمره دينهم بـ «الباب»! أخشى الآن أن يعتقد أموم بمُجمل حديثه الذي يُغفل فيه دور الآخرين ويُذَكِّي فيه دور الحركة الشعبية وحدها، أن يكون قد جاراها في الخطيئة، فالنضال ضد القوى الظلامية لم يبدأ يوم أن وُلدت الحركة الشعبية في العام ١٩٨٣، ولا يوم أن جاءت الإنقاذ في العام ١٩٨٩، ولن تكون نيفاشا ٢٠٠٥ هي محطته النهائية!

إن ما يُزعج الديمقراطيون الآن ليست نيفاشا التي كرَّست الأمر الواقع، ولا الخضوع لها امتثالاً «لسواد عيون» الحركة الشعبية، ولكن التكلفة الباهظة الثمن التي ترتبت على هذه الوضعية، فالسيد أموم، ونتيجة للاشكالية القائمة بين الحركة الشعبية وشريك نيفاشا «المؤتمر الوطني»، فهو يخلص بنظرة قاطعة إلى نتيجة مفادها أن «الوضع الحالي والعلاقات الحالية، فإن الوحدة ليست في مصلحة الجنوب.. الوحدة بشكلها الحالي مبنية على مصالح مجموعات صغيرة في شمال السودان.. والجنوبيون متضررون منها، هذه حقيقة».. لكن الحقيقة أيضاً أنه بحديثه هذا يأخذ الشمال كله بجريرة عُصبة الإنقاذ، مع أنه - كما ذكرنا - لم ينتخبهم بل تسلطوا على رقابنا بليلٍ، فهل الركون للأمر الواقع في نيفاشا يعني تحمُّل تبعات كل بلاويهم؟!!

الغريب في الأمر، أنه حتى لو حدث الانفصال تحت إبط العُصبة الحاكمة، فالسيد أموم يرهن العلاقة بين «الدولتين المُفترضتين» إلى حُسن سير وسلوك

العُصبة نفسها، فرداً على سؤال من الصحفيين حول أن الحرب الأهلية يمكن أن تتحوّل إلى حرب بين دولتين شمالية وجنوبية، يقول: «هذا يتوقف على عملية الانفصال نفسها، إذا كانت الصفوة الحاكمة في شمال السودان تحاول أن تقهر الجنوبيين وتفرض عليهم الوحدة لأنها تخدم مصالحهم، في نفس الوقت الذي يرفض فيه الجنوبيون هذه الوحدة لأنها لا تخدم مصالحهم، فإن الفرقة ستؤدي إلى ردة فعل من شأنها أن تشهد علاقات سيئة بين الدولتين، وستضُر بمصالح الشعبين.. وبالتالي وحتى تكون هناك علاقات طيبة بين الدولتين المفترضتين، فمن الضروري أن نحترم رأي الجنوبيين حتى يقرّروا مصيرهم دون ضغط أو تأثير عليهم».. سيقول أحداً ما أنه لا جناح ولا تثريب في هذا القول رغم غلظته، ولكن نقول للقاتل، أن في طبيّته تنكّر لعلاقة رفاقية كان يُفترض أن تسود بدلاً عن علاقة انتهازية تذرّت بثوب الواقعية!

إن العلاقة التي افترضنا فيها أن تسود، هي العلاقة بين القوى الثورية في الجنوب ممثلة في الحركة الشعبية، والقوى الوطنية والديمقراطية في الشمال، ذلك لأنها تأسست سلفاً على أساس مناهضة المشروع الشمولي، وبالتالي فإن جلفاً بغايات نبيلة كهذا الحلف ينبغي أن يستمر بشئ الوسائل، حتى يبلغ نهاياته المنطقية، ولا يُعتقد أن ثمة نهاية سعيدة مرجوة يمكن أن تكون غير عودة الديمقراطية كاملة وغير منقوصة، ففي ظلها يستطيع الجنوبيون أن يعملوا على تحقيق مصيرهم بإرادة حرة، وبعيداً عن أساليب الفهولة والهيمنة والاسترقاق السياسي، وأياً كانت وجهة الاستفتاء، فلسوف نُحترم نتيجته بلا شك، ولكن إن يقرّ أموم بأن المؤتمر الوطني ليس في صالح الوحدة «حتى اليوم الذي أتحدث فيه معكم، فإن بقاءهم يضر بمصلحة وحدة السودان، إلا إذا غيروا برنامجهم، واتفقوا على تنفيذ الاتفاقية بشكل جيد».. فعلام إذا يُعاقب الشمال بالانفصال، أو فلنقل: لماذا يُعاقب الوجدويين في الشمال والجنوب بالانفصال المقيت؟!

الغريب في الأمر، أنه بذات القدر الذي ابتسر به أموم قضية الوحدة، استهون أيضاً قضية الانفصال، فهو علاوة على كونه يفضل خياراً - مثلاً أوردنا أعلاه - في ظلّ الوضع الحالي، أي الوضع الذي تتحكّم فيه عُصبة الإنقاذ ما لم تغَيّر من منهجها، فما هو يحصر الأضرار التي يمكن أن يجنيها الجنوب من الانفصال في خسائر مادية فقط.. «أن يتحوّل الجنوب لدولة مغلقة لا منفذ لها على البحار، وبالتالي يخسر بورتسودان كميناء».. ثم يضيف ضرراً آخرأ في التفكير بنفس الذهنية التي بدأت تسيطر على بعض قادة الحركة الشعبية، ومنهم أموم نفسه، بعد ظهور النفط ودخوله في معادلات الصراع.. «يضاف إليه أن اقتصاد الجنوب سينبني على سوق ضيق وصغير، وكان يمكن أن يكون الشمال سوقاً لما هو مُنتج في الجنوب، وبالتالي فإن المنافع التي كان يمكن أن يجنيها الجنوب من السودان الواحد لن تكون موجودة.. وحتى في نظرنا كحركة شعبية فإن السودان ككل سوق صغير، لأن الزمن تجاوز فكرة القومية والحدود التي

تعوق التجارة».. قد يتساءل بعض القراء وأنا منهم: ما الذي تركه أموم لـ"شيلوك" الجبهة الاسلاموية بعد هذا الحديث؟! فقد عؤدونا الإتجار بقضايا الوطن بعقلية التاجر المُرابي تلك، دون إحساس بالمُكُونات النفسية والروحانية والعاطفية والفكرية التي تسهم في بناء الأوطان!

إزاء إلحاح الصحفي المحاور في استصعاب عملية الانفصال، يلقي علينا أموم حجراً آخرأ من شاهقي، كأنه استمراً استسهال قضية معقده.. «بالمناسبة الناس لديهم تصوّر عاطفي لموضوع الانفصال لأنهم مربوطون بالخارطة "بتاعة الأطلس".. لكن يجب أن تُبسّط العملية عبر الإجابة على السؤال: ماذا يعني الانفصال؟!».. ويجب هو على سؤاله بما هو أنكى: «الانفصال بصورة واقعية يعني أن يتحوّل الخط الوهمي بين الشمال والجنوب لخط وهمي دولي.. وحتى يقطع أي مواطن هذا الخط فلا بُدَّ أن يكون حاملاً لجواز سفر، وبإمكانه أن يحصل على التأشيرة عند الحدود، ويمكن ألا يسمح له بالدخول إلا إذا كان حاملاً لتأشيرة من السفارة.. ومن الممكن أن تصل الدولتان لاتفاق بالدخول دون تأشيرات، كما هو الحاصل الآن في "اتفاق الحريات الأربع" بين السودان ومصر.. هناك موضوع البضائع المتحركة من الشمال إلى الجنوب أو العكس.. هذه البضائع سيتم فرض جمارك وأتاوات عليها.. هذا كل ما يمكن أن يتغيّر إذا حدث الانفصال، وليس هناك شيء آخر سيتغيّر.. وإذا اتفقت الدولتان على إلغاء التأشيرات والجمارك، فلن يكون هناك شيء قد حدث».

يا سيدي، ما العيب أن يكون للناس تصوّر عاطفي لموضوع الانفصال؟! أقرُّ أنا كاتب هذا المقال أمام القراء، وبكامل قواي العقلية والبدنية أن لديّ تصوّر عاطفي لهذا الانفصال منذ أن ذرَّ به صديقنا "منقو زمبيري" على مسامعي، وهو تصوّر مربوط حقاً بالخارطة "بتاعة الأطلس"، لإحساسي بأنه منذ أن التقطتها عينا في بواكير الصبأ، فقد طفقت كما الشاعر الجاهلي «أحبُّها وتُحبُّني ويُجب نافتها بعيري»، فهل بمقدور متبئل مثلي أن ينزع أوردته الطبيعية ليضع مكانها أخرى صناعية؟! فمن ذا الذي يُعيد سيفاً إلى غمده كان صاحبه قد استله من أجل أن تبقى تلك الخارطة شامخة على الأرض؟! ومن ذا الذي يعيد قصيدة عصماء فُرت من قصورة إلى سربها، كأن شاعر مسكون بتلك الخارطة قد باح بها في لحظة صدق مع النفس!

إذاً هكذا تحدّث "زرادشت"، أو الأمين العام للحركة الشعبية لتحرير السودان، وأيضاً بكلّ صدقٍ يا سيدي.. من قال لك أن الانفصال هو محض "خط وهمي" فقد كذب!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!

٢٠٠٧/١٢/١٦

oboiikan.com

حوار في الساعة الخامسة والعشرين مع باقان أموم (٥)

ما زلنا نواصل الحوار الموضوعي وبنفس هادئ مع السيد باقان أموم، في ضوء ما رشح من أفكاره، وضمنها الحوار الصحفي الذي أجرته معه الزميلة 'الرأي العام'، ونشير في ثلاثة أجزاء متتالية، وأيضاً يتواصل الحوار باتكاءة على مواقف أخرى له، ذات انعكاسات واضحة على مسار نشاطاته السياسية، وهذه وتلك تركزت بشكل خاص حول جدلية الوحدة والانفصال، وهي القضية الإستراتيجية التي تُعدها الآن في صدارة القضايا التي تعج بها الساحة السودانية، فلا غرور إن أصبحت بعدن محكاً يُحدّد استمرارية الدولة ككيان يضم في أحشائه الشعوب السودانية بمختلف تبايناتها الإثنية والعرقية والثقافية، أو اضمحلال هذه الدولة وفق معايير ابن خلدون الاجتهادية في التاريخ وعلم الاجتماع!

في الحلقة الماضية، أشرنا إلى أن كثير من قيادات الحركة الشعبية أصبحت أكثر ميلاً في أقوالها وتصريحاتها نحو الانفصال، ويستطيع المرء أن يتبين دونما كثير اجتهاد أن السيد أموم أصبح أعلاهم قمة في هذا المضمار، والشاهد أنه حتى في الحوار مع الصحيفة المذكورة تمتع في أن يذكر رأياً قاطعاً في ريه على سؤال لا يحتمل من الألوان سوى الأبيض أو الأسود، فقد سئل حول ما إذا كان سيصوت للوحدة أم الانفصال في الاستفتاء المرتقب، فقال: «أول شيء، لازم أعرف على أي نوع من الوحدة سأصوت.. إذا كانت وحدة بين العبيد والسادة و.....». ووفق يداور هذه الأفكار بصورة لولبية في مواجهة إلحاح الصحفي وإصراره على إجابة محدّدة وواضحة!

قلنا لولا أن أموم يتسّم منصب الأمين العام في الحركة الشعبية الآن، لما أعاننا حديثه في كبير شيء، علاوة على أنه لفتنا الانتباه أيضاً إلى الخطأ الإستراتيجي الذي وقع، بل ويقع فيه كثير من قيادات الحركة الشعبية في الوقت الراهن، وهو التعامل مع شريك الأمر الواقع "المؤتمر الوطني" كأنه يمثل كيان الشمال كله، ونموذجاً لذلك، قول أموم: «إذا قرّر الأخوة في المؤتمر الوطني عدم تنفيذ اتفاقية السلام فيمكن أن يحدث انفصال مبكر.. وإذا لم تنسحب القوات المسلحة من مناطق البترول، ولم يحل قضية أبيي.. إلى غير ذلك.. فربما يصل الوضع إلى انهيار الثقة وحكومة الوحدة الوطنية، وهذا يؤدي إلى خرق الاتفاقية والدستور.. وبالتالي يكون المجال مفتوحاً للقوة أمام الأطراف».. ويضيف في

موقع آخر قوله أيضاً: «إذا انهارت العلاقة بين المؤتمر الوطني والحركة الشعبية ولم يتم تنفيذ الاتفاق، فيمكن أن تؤدي مشكلة أبيي للحرب».

يقولون أن النتائج الخاطئة هي بالضرورة محصلة تحليلات خاطئة، إذا ما لم يجرؤ أموم على قوله صراحة أن السودانيين مُبشَّرون بتحمُّل أوزار العُصبة الحاكمة، لكنها عندما سطت على السُلطة في تلك الليلة الغبراء شاورتهم في الأمر، ونحن لا نريد أن نوقظ الفتنة النائمة من مرقدها، ونذكر بأن تلك واحدة من منغصات اتفاقية السلام، أي حالة كونها اقتصرَت تمثيلاً وإخراجاً على طرفين، لكن ما يحدث أو سيحدث، هو الابن الشرعي لزواج الإكراه، وعليه لم يكن غريباً جُنوح بعض قيادات الحركة نحو التفكير بصوتٍ عالي في الانفصال، فذلك نتاج سياسة “الفهلوة” و “البهلوانية” والتسويق التي يمارسها شريك “الخيرة” إزاء اتفاقية السلام، ولكن الغريب أن يتم “تبليس” خطايا وأوزار هذا الشريك و “تبليسها” لعموم أهل السودان!

يبدو لكثير من المراقبين أن هذا الشريك الذي تمرَّس على نقض العُهود وخيانة الموائيق، نجح إلى حدٍ ما في استدراج بعض قادة الحركة نحو حبال الانفصال، علماً أن الانفصال كان في الأصل بنداً صمدياً في طليعة أجندة انشريك الباطنية، وقد تبدلت وتغيَّرت هذه الإستراتيجية طبقاً لظروفٍ لا يتسع المجال لذكرها، وظهرت مُجدداً الآن، مع فارق أن عُصبة الإنقاذ ارتأت حدوثها على يد الحركة الشعبية حتى لا تتحمَّل تبعات الوزر التاريخي..

بالطبع يستطيع أي مبتدئ في حقل السياسة إحصاء “الفوائد” التي تتوخاها العُصبة من وراء الانفصال! أما بالنسبة للحركة الشعبية فغني عن القول، أن مجرد التفكير في الانفصال، ناهيك عن التطبيق العملي لأجندته، يُعدُّ عقاباً – بلا أدنى مبررات – للوحدويين الشماليين والجنوبيين معاً، وقبل هذا، هو بمثابة تنكُّر وخيانة للمبادئ السامية التي ناضل من أجلها الزعيم الراحل د. جون قرنق!

في حوارهِ مع الصحيفة، ركَّز أموم بشكلٍ أساسي، وفي أكثر من فقرة على أن: «السودان الآن وحتى قبل الاستقلال لم يكن موحداً».. مشيراً إلى أن برنامج الحركة الشعبية قدَّم طرحاً بديلاً لهذا التفكُّك، واسماه “الوحدة الطوعية”، «القائمة على أساس المساواة وليس على أسس امتيازات السادة على العبيد»، على حدِّ تعبيره، ويذكر أن الحركة نَزَّجَت أيضاً على تسميته بـ “الوحدة الجاذبة”، بيد أننا لن نجد ما قلناه في الحلقة الأولى عن هذا المُصطلح، وذلك من حيث كونه مجردَ تحصيل حاصل، وعوضاً عن ذلك نختصر الطلاس المُرهقة بإحصاء بعض المعطيات التي ابتدعتها الحركة الشعبية – سواء درى قانتها أو لم يدروا – وغدت تلك المعطيات تنخر كالسوس في جسد ما أسمته بـ “الوحدة الطوعية”، أو “الجاذبة”، وفيما يلي غيضٌ من فيضها:

• **أولاً:** نظرنا في كل القواميس السياسية، فلم نجد مُسوغاً واحداً يبرّر التقسيم الجغرافي الذي أنتج بدعة الضلال المُسمّاة بـ"قطاع الشمال"، ولا أظن أننا سنظلم المجتهدين في التسمية إن قلنا أنه مجرد إعادة إنتاج لقانون المناطق المقفولة سيء الصيت (١٩٢٢) وتقديمه في ثوب عصري جديد بغية إمتاع الناظرين! وحتى إن أسلمنا جدلاً بنبل المقصد وسلامة النوايا، فالتسمية تبدو أشبه "بالمضاد الحيوي" لمقاومة ما سُمّي بـ"الوحدة الجاذبة" أو "الطوعية"، وسيقول فقهاء الضرورة أن التسمية جاءت من باب تسهيل الحراك التنظيمي السياسي، ولكننا نقول أن الكسل الذهني الذي خيم في مضاربنا، انحاز عمداً للمذهب المادي، دون أن يراعي الجوانب النفسية أو المعنوية، أو حتى الاسقاطات التاريخية.. بالتالي، ودونما أدنى مكابرة، لعله يمكن القول أن المصطلح ينطوي على قدر كبير من معاني ما يمكن تسميته بـ"الانفصال الخفي" إن جاز التعبير.. رُدّ على تلك الهواجس، أن الذين تولوا زمام الأمور في القطاع المذكور، هم من الشماليين، فلو أنهم كانوا من القيادات الجنوبية، لرُبما خُفّف ذلك من وطأة التسليم المطلق بتلك الفرضية، أو دحضها حتى!

• **ثانياً:** بدعة أخرى ذات صلة أو ثُمائل سابقتها في التجريم، وهي أنني لم أجد مبرراً أيضاً لإقصاء الوجوه الشمالية من الجهازين التشريعي والتنفيذي في حكومة الجنوب، وقد سأل الصحفي أموم عن الحكمة في ذلك، فقال: «لأن حكومة الجنوب للجنوبيين فقط.. هذا هو الواقع الطبيعي للتقسيمات».. ولعمري هذا قولٌ معلول، فبعضُ النظر عن أن الواقع لمُشار إليه لم يكن ضمن أي من نصوص القرآن ولا الإنجيل، فالثابت أن ذلك الوضع الغريب لم يُراعِ الجوانب النفسية ولا المعنوية أيضاً، وطبقاً لذلك يمكن القول بذات المعايير أعلاه، أنه يصبُّ في مجرى حيثيات الانفصال غير المرني، ولعلّ هذه الخطوة قد وجدت هوىً في نفس المؤتمر الوطني، فجاء بمثلها حشفاً وسوء كيله، إذ دفع بممثليه في الحكومات الإقليمية والمجالس الولائية، مُستثنياً منها الوجوه الجنوبية، وفي الاتحادية صنع منها ديكوراً يدرأ الحسد وشرّ النفاثات في العقد!

• **ثالثاً:** في ظلّ الأوضاع الحسّاسة، من المؤكد أن المفردات والمصطلحات تلعب دوراً هاماً، وفي هذا السياق سَعدتُ لمساهمة من أحد المشاركين "دوت مجاك" في موقع 'سودانيز أونلاين' نشرها يوم ٢٠٠٧/١١/٣٠ وعُثب عليها إيجابياً العديد من رُؤاد المنبر.. وضع مجاك مساهمته في قالب رسالة مفتوحة وجهها للسيد باقان أموم، ويبدو أنه لاحظ ما لحظناه سلفاً، وهو إكثار أموم من مصطلح "الجلابية" في أحاديثه، واستخدامه أحياناً في مواقع تشي بغير معنى التسمية، مثل قوله الذي نجترى منه: «فشل آباء الاستقلال كما تُسمّونهم في الشمال».. فقاطعه المحاور وقال له: وماذا تُسمّونهم أنتم؟! فقال له: «في الجنوب يُسمّونهم "الجلابية" الذين استلموا السلطة بعد الانجليز».. والحقيقة

أن ذلك خطأ منهجي افترى على الواقع، فالجيل الذي استلم السلطة من الإنجليز لم يطبق عليه أحداً ذلك اللقب.

عموماً، نعوذ لمبادرة "مجاك"، الذي قال له: «كثيراً ما تستعمل لفظ "الجلابة" في خطبك الجماهيرية، وأنا أعلم يقيناً أن بهذا اللفظ لا تقصد كل الشماليين، كما أنها في اللغة لا تعني الشماليين أيضاً، ولكن حسابات السياسة في دولتنا مختلفة، إن من تقصدهم بلفظ "الجلابة" استطاعوا تحويل هذا اللفظ لمصلحتهم، ونجحوا كثيراً في جعلها كلمة يعني بها "الشماليين" وطالما أن السياسة حرب "باردة" وإن تصادقت مع الآخرين، فإن المرحلة الحالية تحتم عليك تغيير هذا اللفظ، ليس خوفاً من كائن كان، بل لأن السودان بلدٌ مبني على القبيلة، وليس هناك سوداني يرضى أن يتحمل أي شيء تجاه قبيلته أو جماعته الإثنية. من تقصدهم بهذا اللفظ يعرفون جيداً أنهم المقصودون، وانك تستطيع أن تخاطب الجماهير بذكر اسم حزبهم في خانة لفظ الجلابة، لتقول بدون أي تورية "حكومة الإنقاذ" .. إلى أن يصل الكاتب إلى نتيجة من وجهة نظره فحواها: «بذكرك لفظ "الجلابة" في وسائل الاعلام أو اللقاءات الجماهيرية، فإن قطاع الشمال يخسر مع كل كلمة تقولها بعد نطقك لهذا اللفظ عضو في الحركة الشعبية، آمن ببرنامج الحركة الشعبية ونضالها التاريخي من أجل إنسان السودان، وليس الجنوبيين فقط كما يدعي بعض دعاة العنصرية من الأخوة الشماليين، وأصبحوا يستخدمون هذه الكلمة تحديداً لقطع الطريق أمام كل من يفكر في الانضمام إلى الحركة الشعبية» .. وشخصياً، رغم أننا نرى أن الكاتب بالغ بعض الشيء في المحصلة الأخيرة، إلا أننا نتفق معه في وجهة نظره، ليس من زاوية الحساسية في المصطلح، ولكن من منطلق أن ضبابية المعنى وفق ما أشار الكاتب، أصبحت القاعدة في فهم الغالبية الساحقة في الشمال والجنوب معاً!

• رابعاً: أشار أموم في الحوار إلى الفريضة الغائبة التي أغفلها اتفاق نيفاشا، وهي ثقافة الاعتذار، في قوله: «نحن طرحنا ضرورة أن نعتذر لبعض لأن هذا يعالج الجراحات القديمة ويحررنا من ترسبات الماضي.. طبعاً تمت مهاجمة هذه الفكرة، هناك أناس يشعرون بالتعالي عن الاعتذار أو الاعتراف بالأخطاء، وهذه إشكالية في الشمال، لأنه تم بناء ذهنية سائدة بواسطة المجموعة الحاكمة، هي أنها دائماً على صواب.. نحن التزمنا بالاعتذار إنابة عن الجنوبيين عن الأخطاء التي ارتكبوها أثناء فترة نضالهم، ولم يكن ذلك لأننا نعتبر أنفسنا مجرمين، ولكن لأننا نرى أن هذا ضروري، حتى الشخص المظلوم نفسه يقول "معلش"»، تلك من القضايا الحيوية التي كان يُنتظر أن تُصنَّب بطريق غير مباشر في أجندة الوحدة، لكن المؤسف أن الحركة اعتبرتها يومذاك من النوافل، وجاءت يومئذٍ لتقول للسامعين أنها من الفروض! لأن ثقافة العفو تُعدُّ ركناً ركيناً، كان الأجدر أن تُضمَّن بنود الاتفاق في نيفاشا،

وتُخصّص لها مفوضيّة بائّة تسمية مستمدّة من ثقافة الاعتذار والعفو والمصالحة والتسامح، وهي ذات القيم التي تأسست عليها تجربة جنوب أفريقيا، والمفارقة أن هذه التجربة كانت مثلاً يُحتذى لبعض قادة الحركة، ظلوا وما انفكوا يُذكّرُوننا بضرورة تكرارها في الواقع السُوداني! وطالما أن هذا أصبح حلماً أذرتّه الرّياح الهوجاء، فالرّاجح عندي أن الاتفاق قد تهيكل على أنقاض مراراتٍ ودماءٍ ومخنٍ وإحنٍ ومأسٍ، عوضاً عن ثقافة الاعتذار، الأمر الذي لا يُشكّل أساساً صلباً لتشييد ناطحة سحاب!

مثلاً هو معروف يومذاك، سَهّت الحركة مبدأ "المحاسبة"، رغم أنها رفعت لواءه مع الرّافعين في أروقة التّجمّع الوطني الديمقراطي لنحو عقْد من الزّمان قبل نيفاشا، وطالما أنها جالست موبقي المؤتمر الوطني، الذين صنّع ذلك الشعار خصيصاً لمثلهم، فإن البُكاء على اللبن المسكوب لن يُجد نفعا، والمنطق يقول أنه إذا لم ترعو عُصبة الإنقاذ في تنفيذ بنود الاتفاق الذي وقعت عليه تحريراً بشهادة أطراف إقليميّة ودوليّة، فهل يعتقد أموم أنها يُمكن أن تنصاع أو ترضح أو "تجبر خاطره" شفاهة وتُلبّي طلبه أعلاه؟!

• **خامساً:** إن غياب الديمقراطية كما هو معلوم يُعتبر العقبة الكأداء أمام تنفيذ اتفاق السلام بحذاقيره، بل هو كذلك أمام طموحات الحركة الشعبيّة نفسها، إن صدقت، إذ يقول أموم: «المشروع الذي نطرحه نحن قائم على الإدارة الديمقراطية للتبائنات السُودانية لخلق مجتمع متعدّد، قادر على إدارة تلك التبائنات، بإعطاء المساحة والحرية لما هو مختلف».. والحقيقة أن هذا قولٌ جميل، لكن أثبتت الوقائع في تجربة الحركة القصيرة أنه لا يعدو أن يكون سوى محض تنظير، وسيظل كذلك ما لم تُدرك الحركة أن قضيّة الديمقراطية ليست ترفاً، وإن تجاوز البعض عن غيابها في دهاليزها إبان فترة النضال المسلح بدعاوى تقاطعها مع ثقافة الميدان العسكريّة، فلا يمكن التماهي في التّجاهل في ظلّ الانتقال من الشرعيّة الثوريّة للشرعيّة الدستوريّة، وكان يُرجى أن تبتدئ الحركة شريكها وتُخرجه بالتطبيق الأمين لهذه الآليّة، لكن الواقع يقول أن افتقارها الديمقراطية في جسدها أصبح حُجّةً للمؤتمر الوطني في تّجاهل مطلبها بحتميّة التحوّل الديمقراطي، ومن جهة أخرى، فإن الحديث عن تقرير مصير في ظلّ غيابٍ قسري للديمقراطيّة، هو صلاة بلا وضوء في محراب الوطن!

آخر الكلام: لا بدّ من الديمقراطيّة وإن طال السّفر!

٢٠٠٧/١٢/٢٣

obeikan.com

جَوَارِ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مَعَ بَاقَانِ أُمُوم (٦)

عطفاً على كل ما مضى، نتناول في هذه الحلقة موضوعاً حيوياً، تعرّض له السيّد باقان أموم في سياق المقابلة التي أجرتها معه الزميلة 'الرأي العام'، والمنشورة في ثلاث حلقات أواخر نوفمبر الماضي، بحسب ما نؤمّن مراراً في هذه السلسلة الجوارية، وأشرنا إلى أنها استندت بشكل أساسي على آراء وأفكار طرحها مع الصحيفة المذكورة، وتركزت حول جدليّة الوحدة والانفصال، الأمر الذي حفّزنا لفتح هذا الحوار معه، وتوسّلنا فيه شفافيةً نطمح أن نقودنا إلى مشارف فهم مشترك للقضايا المصيرية ذات الصلة.. ومن جهة أخرى، لعلّ مبدأ الحوار نفسه يفتح المسارب المغلقة نحو تحوّل ديمقراطي حقيقي، وقد يساعد الحركة الشعبية على إنجاز أهدافها الآنية والمستقبلية.

الموضوع الحيوي والهام الذي تعرّض له أموم، كان هو "اللغة"، ويعلم الجميع أنه موضوعٌ شائك ومُعقد، وقد بات حُلُم الوصول فيه إلى وفاق واتفاق يمثل حجر الزاوية في القضية الجدلية موضع الحوار، "الوحدة والانفصال"، وفي التقدير أن الفهم الملتبس لدور اللغة في حياتنا، إضافة لممارسات الديكتاتوريات الطائشة، كانا سبباً في تعقدها، وتصنيفها في دائرة الأمور الصعبة ذات الحساسية العالية، ومن ثمّ أدّى ذلك إلى تحوير البعض لدورها.. من حيث كونها وسيلة للتواصل المعرفي والإنساني، إلى أداة تجسد الهوية المجردة، وفي ذلك خطئ، لو يعلمون عظيم!

ثمّة قصة خاصة، يجب أن تُروى كتمهيد لمناقشة قضية اللغة، والمُحزن فيها أن طرفها الآخر توسّد باطن الأرض، وطرفها الثاني حيّ يُرزق على ظاهر الأرض، وهو صاحب هذه السطور، وفي الحقيقة جُزّت وقائعها بدون ترتيب مُسبق، أي بصورة أقرب للعفوية. كان ذلك ذات يوم من أواخر نوفمبر العام ١٩٩٧، حيث جُلسْتُ إلى د. جون قرنق دي مبيور في حوار صحفي بمقرّ إقامته في "استراحة ميلوتي"، إحدى دور الضيافة الإريترية في العاصمة أسمرا، وبعد أن فرغْتُ من الموضوع الأساسي، امتدّت جلستني لبضع دقائق إضافية، تجاذبنا خلالها أطراف الحديث، "من كل روضة زهرة"، على حدّ تعبير شاعرنا الفحل محمد بشير عتيق! ولكن قبل مواصلة القصّة، لا بدّ من شرح خلفية ضرورية، حتى تستقيم بتشويق مشروع في الإثارة!

ليس لدي أدنى شك في أن الكاريزما القيادية، التي كان يتمتع بها د. جون.. هي ذات سحر خاص، وجاذبية قوية، وقد لا يستطيع المرء أن يفلت من الإعجاب به متى ما جالسه أو اقترب منه، لهذا أضل نفسي، وناشطين آخرين التمسوا قدراته السياسية والفكرية عن كثب، اقتنعوا به زعيماً متفرداً في سلوكه وتفكيره ومنهجه، إلى جانب حسبه الإنساني الشفيف، وأسرتهم روح الدعابة التي طالما خفف بها وطأة ورتابة الاجتماعات، وأستطيع أن أقول بكل ثقة أن الفترة التي جمعتهم مع المعارضين في إطار التجمع الوطني الديمقراطي، بدءاً من مؤتمر اسمرا للقضايا المصرية وحتى رحيله للدار الأخيرة، زادت قناعاته الشخصية الوحدوية، لأنه التمس بنفسه، وبصورة مباشرة، مدى الاحترام الذي يكنه له الكثيرون، رغم الدعاية السوداء لطغمة الإنقاذ، التي استمرت تصوّره في "ساحات الخزي والعار" كانهازي يعيش بلا مبادئ، وتاجر حروب، متعطش للدماء!

في التقدير أن د. جون كان يدرك، ولو بطرف خفي، أن قدراته السياسية والفكرية تلك، إلى جانب تضحياته الجسام قد رسمت له طريقاً ممهداً نحو ارتياد سنام القيادة، ولم يكن مستغرباً أن شرعت بعض الدول، إقليمياً ودولياً، في التعامل معه على هذا الأساس.. زد على ذلك، كان لكاريزمته تأثيرها غير المرئي، على سعيد الحراك التنظيمي المعارض، إذ لا تستطع هيئة قيادة التجمع الوطني تحديد اجتماع لا تستشير في توقيته أولاً، بل لا تتفق عليه حتى يراعي ظروفه الخاصة قبل كل شيء، وبعد تحديده، فهو عرضة أيضاً للفشل إذ فُتر ألا يشرفه - لأي سبب - بالحضور، وكم من مرّة تأجل الانعقاد لموعد آخر غير التاريخ المضروب سلفاً، وأحياناً يكون شمل الرفاق قد التأم حينها، ومع ذلك، لا يجرو أحد على زم شفتيه تيزماً، أو تبدي عين السخط المساوياً.. طالما أن الأسباب تُعزى دوماً لظروف ميدانية قاهرة! وإن تعدد الوصول، واضطر المجتمعون لعقد اجتماعهم بدونه، فهم يعلمون أن اجتماعهم ذاك لن يساوي ثمن الخبر الذي يكتبون به بيان الختام!

عوداً على بدء، بينما كنتُ في غمرة أنسي مع الدكتور، على بساط من العهن المنفوش بالإعجاب الخفي، فجأة وبدون أدنى مقدمات، قلتُ له مقتنصاً رفق ضحكة كانت تصلصل بيننا قبل حين: «تعرف يا دكتور، أنا أعتقد أنك قائد قومي **I believed you are a national leader**، ولو كان لديك طموح في أن تحكم السودان، فبغض النظر عن كونك مؤهلاً لذلك، وفق ما أرى، فهذا طموح مشروع لك ولغيرك، وإن كان كذلك بالنسبة لك تحديداً، فلا بد - من وجهة نظري - أن تجيد الحديث باللغة العربية، مع كامل احترامي لمحاولاتك الحالية»!

حدق د. جون في وجهي ملياً، كأنه بُهتَ بحديثي، أو أنني باغته على حين غرة بامرٍ جلال! ولبرهة خُيل لي أن غابة من علامات الاستفهام استطالت بيننا، وبعد فترة صمت قصيرة، قال بتعقيب مقتضب، وبرودٍ يشي بأنه لم يستطع إدراك

مرامي حديثي: «وليه يعني؟!». .. قلتُ على الفور: «لأنها، في تقديري، لغة تواصل للغالبية العظمى من أهل السودان، وأنت أو من يطمح في الرئاسة، لا بُدَّ أن يطرح أفكاره لهذه الأغلبية، طبعاً باللغة التي يعرفونها، مثلما تفعل أنت الآن مثلاً مع كوادِر الجيش الشعبي»!

أحسستُ أن هذه الإجابة أشاعت راحة نفسية عميقة في دواخله، فقال لي، كأنه يجاملني، أو يشاطرني الرأي فيما رميتُ إليه ضمناً: «إنت تعرف، أنا بتكلم بالإنجليزي لأنو بقدر أعبر بيه عن نفسي كويس، وإنت تعرف كمان أنا ما عندي مشكلة في فهم اللغة العربية، سواءً كانت بالفصحى ولا عربي جوبا»! قلتُ: «مضبوط».. فردَّ ضاحكاً: «بس الما مضبوط، اقترح عليّ دانيال كودي (كان معلماً) ذات يوم في بداية التسعينيات برنامج اسمه "كيف تتعلم اللغة العربية"، واحضر كتب وشرائط مسجلة كثيرة، ومشينا كويس في الموضوع، لكن دخل موضوع "صيف الغُبور" (الحملة العسكرية مع نظام الخرطوم).. لكن المهم نحن بصراحة ما قدرنا نخلص الموضوع»!

إزاء هذا الاجتهاد المُخلص في الشرح، وجدتُ نفسي أقولُ له، دون ادراكٍ حقيقي بما أعني: «طيب، إيه رأيك نكمل المشروع ده، وأدرِسك لغة عربية؟».. صمّت لبرهة، ونظر في وجهي ملياً كمن يريد أن يسبر غور حديثي، ويتبين هزله من جدّه: «وإنت تستفيد شنو؟».. قلتُ: «ما في حاجة معينة».. وأردف، كأنه يلقي بأخر سهم صبر من كنانته: «كيف ما في حاجة يعني، ما هو إنت لازم تكون بتستفيد شيء!..».. فقلتُ له: «الحقيقة موضوع الفائدة ده ما جاء على رأسي، لكن خطر ببالي أسّهُ، إذا إنت قبلتُ أدرِسك اللغة العربية فذلك يعني أنني سألازمك "الحجل بالزجل" لمدة ستة شهور على الأقل، ويمكن بعدها تكون أنت عرفت اللغة، وأنا طلعت بكتاب عنك، أو الحركة الشعبوية!..».. ابتسم د. جون ابتسامة تدلُّ على رضا وجد طريقه بهدوء إلى نفسه، ورغم شغفه بالسؤال عن كل غريب، إلا أنه تجاهل المثل العامي الذي ذكرته، فلم يسألني عنه، وعوضاً عن ذلك قال بشيء من الثقة: «This is quite fair».. أي أن هذا مُنصف أو عادل! وأضاف مُوجِّهاً حديثه وأمرأ ياسر عرمان، الذي ظهر أمامنا في تلك اللحظة: «خلاص شوف الموضوع ده مع ياسر، هو حيرت ليك كل حاجة»!

واقع الأمر، تداخلت ظروفٌ خاصة، طرأت بيني وياسر، حالت دون أن يسأل أحدهما الآخر عن الموضوع.. لكن للأمانة، فقد كان ياسر قبلها شديد الحماس في ترتيب زيارة لي للمناطق المحرّرة في الجنوب، وظني غير المأثوم، أن ياسر يُسعدُه دوماً أن يكون «بؤابة عبدالقيوم» لكلِّ شمالي ينوي دخول دار الحركة الشعبية، زائراً كان أو مقيماً.. وبالطبع، لأسبابٍ تخصُّه، لا بُدَّ أن له حكمة في ذلك! ولكن ليس من الحكمة أن يفتر حماس المرء، إذا حاول الرّاغِب في الدُخول التسلل عبر بؤابة أخرى!

المهم، أن الأمر الذي نحن بصددِهِ لم يتم، فمن سوء حظي "المنبّل"، كما يقول أشقاؤنا في شمال الوادي، أعقبت تلك الظروف الخاصة دخول الحرب الأثيوبية الإريتريّة، وهي الحرب المُباغطة التي دحرجت القضية السودانية كلها نحو المتاهة الكبرى، وقد عرّ عليّ أن أقدم تبريراً منطقياً لدكتور جون، لعله كُسُوفُ المنطق وكُسُوفُ اللغة! الأمر الذي انعكس على سلوكي الطبيعي معه، إذ أنه كلما تقابلنا، على هامش الاجتماعات، قال لي بروح الدُعاة التي تميّزه: «وين أنت يا أخونا؟».. فأجيبه الإجابة التقليديّة: «والله موجود يا دكتور!».. فِيرِدِف، دون أن يستبطن نفسه في السير أو الحديث: «ما أنا عارف موجود، لكن في مربّع وين؟!»... واستمرّ الحديث بيننا على هذا المنوال، وقد مُنِيت النفس بتحقيق تلك الرّغبة، وزاد أوراها بعد توقيع "مشاكوس"، ولم تنطفئ جذوتها، رغم مغادرتي إريتريا للولايات المتحدة.. وبعد سماعي نبأ رحيله، قُلْتُ لنفسي مواسياً: «لو أن كل منا ألقم شيطانه حجراً في المربّع الذي يقف فيه يا دكتور، لتسنّى لأفلاطون رؤية حُلْم مدينته الفاضلة في قرية "أم كدادة"!»!

يقول أموم: «يجب ألا يكون للدولة لغة معيّنة هي فقط اللغة الرسميّة، كل اللغات السودانية هي لغات رسميّة ومتساوية، ولها الحق أن تعيش وأن تتطوّر، وإذا كان هناك لغة ليس لديها القدرة على النمو، فإننا أرى أن من واجب الدولة أن تحيي هذه اللغة لكي لا تندثر».. شخصياً، أقدّر المرات التي حدثت بأموم أن يطرح هذا الرأي، ولا أدري إلى أي مدى هو مؤمن به، بخاصة وأن ما قاله ينطوي بعضه على قدر كبير من الشطط والمغالاة، فكيف لا يكون للدولة لغة رسميّة؟! وكيف تكون أكثر من ثلاثمائة لغة محلية لغات رسميّة؟! فذلك، على حدّ تأكيد المُحاور، مستحيل عملياً، وقد صدّق الصّحفي أيضاً في المثل الذي ساقه، وأشار فيه إلى أن أمريكا لم تعتمد لغة الهنود الحمر كلغة رسميّة! ونزيد نحن بالقول، إن اللغة الرسميّة تفرض نفسها بحجم الفراغات التي تغطيها في الدولة!

أيضاً حشر الصّحفي أموم في زاوية ضيّقة، حينما سأله، تبعاً للرأي السابق، ما إذا كانت حكومة الجنوب تكتب خطاباتها الرسميّة بلغة الدينكا أو الشلّك أو النوير؟! فقال له: «السياسة الجديدة في الجنوب هي أننا نطرح الحريّة والمساواة بين كل اللغات السودانية».. وذلك كلام جميل، ولكن كما هو واضح، لا علاقة له بالسؤال المطروح، الذي يظل هائماً، إلى أن يجد له إجابة!

أيضاً قد يتفق المرء مع أموم في قوله، أنه من واجب الدولة أن تحيي لغة ليست لديها القدرة على النمو، وأصبحت آيلة للاندثار، مثلما يتفق معه أيضاً في قوله في فقرة أخرى: «...على الدولة أن ترفع يدها عن اعتماد ثقافة معيّنة، كتقافة رسميّة مدعومة».. ولكنني أتخفظ على قوله المُكْمِل: «...بل على الدولة دعم كل الثقافات بصورة متساوية».. الواقع، أنا شخصياً عديم الثقة بالكيفيّة التي

تدعم بها "دولة الطغمة"، أو "دولة الشراكة" حتى، الثقافات المعنوية، وإلا فليقل لنا أموم، ماذا فعل بنسبة الـ ٢٨% في الأجهزة الإعلامية والثقافية؟! المعروف أن الثقافات تنمو وتزدهر وتتلاقح بصورة تلقائية، وتنتشر بوسائل أخرى - بطول شرحها - في إطار الحريات المسنولة، فالدول المتخلفة وحدها، هي التي تخصص وزارات للثقافة والإعلام، وإن كان هذا عين الدعم الذي يعنيه أموم، فتلك مصيبة، وإن اعتمد على الوزارات لتنفيذ برنامج "السودان الجديد" بشكل عام فالمصيبة أعظم! وقد شهدنا في ديكتاتورية الرئيس المخلوع، كيف أنه في إحدى إبداعاته النادرة، ألحق الثقافة والإعلام بوزارة الداخلية!

نقول مرة أخرى، إن المرء ليقدر الظروف النفسية التي حرّضت أموم على التهيب من مسألة اللغة، بذلك الحديث الوجل، ولكن ينبغي ألا تتملكه "فوبيا" تلك الظروف، أي يجب ألا نجعل الإجراءات القهرية التي قامت بها الطغمة العسكرية الأولى في مسألة التعريب بالقوة، ولا صنّوتها التي قامت بها العصابة الإنقاذية الحالية في مسألة الأسلمة بحذّ السيف، مُبرّراً للنظر في مسألة اللغة العربية تحديداً بعين الشكّ والريبة، فلا أظن أن د. جون في محاولاته تجويدها كان دافعه إثنيّاً، فلا هو من نسل العباس، ولا ادّعى صلة قُرْبى ببلال بن رباح، فهي مجرد وسيلة يمكن أن تساعد في توصيل أفكاره للغالبية التي تتحدثها!

ملحوظة تخص الكاتب: نوّكد ما هو معروف سلفاً بأن الدولة المعنوية في هذا المقال ليست دولة الإنقاذ أو الشراكة، بل دولة المواطنة، والحقوق المدنية والديمقراطية، التي لم نبلّغها بعد!!

آخر الكلام: لا بدّ من الديمقراطية وإن طال السفر!!
٢٠٠٧/١٢/٣٠

oboiikan.com

جَوَارِي فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مَعَ بَاقَانِ أُمُوم (٧)

نواصلُ في هذا المبحث الحديث حول موضوع اللغة، بتأكيد مبدئي على أنه رغم تناوُلِي لها إضطراراً، إلا أن تقديراتي تشير إلى أن وضوح الرؤى حولها يمكن أن يُعَبِّد الطريق نحو أي من النجدين.. الوحدة أو الانفصال. وطالما أنني لا أخفي تعصُّبي نحو الأولى، فسألقي بِبُرْدَةِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْوُطْنِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ عَلَى كَاهِلِ الْحَرَكَةِ الشَّعْبِيَّةِ، وبالطبع لا يوجد سبب يجعلني - وفق قناعاتي الخاصة - أن أتأمل خيراً في شريكها المُسمَّى "المؤتمر الوطني" حتى وإن إرتدى جلباب نيفاشا توسلاً لشرعية مفقودة! بالإضافة إلى أننا حينما تأملنا حسم الجدل في الحلقة الماضية لصالح اللغة العربية.. لم يكن ذلك تطرفاً ولا انحيازاً ولا تعصُّباً، ولكن لإدراكنا أن اللغة لا تمنح هُويَّةً، فهي مجرد وسيلة للتواصل الإنساني والمعرفي، كذلك فإن شواهد الواقع تقول أنه وبعد أن أصبحت اللغة العربية قاسماً مشتركاً بين قبائل الجنوب نفسه (سواء اسمها اللغة الهجين أو "عربي جوبا") إضافة إلى أنه وبدون أي مكابرة تعتبر الآن الشعرة الوحيدة التي تربط بين شعوب الكيانين الشمالي والجنوبي إلى حين إشعار آخر، ولكن بعض الذين أصابتهُم ما أسميناه "فوبيا اللغة" يرون فيما يجسده هذا الواقع.. خطيئة وُطْنِيَّة، فظَلُّوا وما انفكوا يغرقوننا في "جدل البئر المُعَطَّلَة والقصر المُشَيَّد" وقد استثنينا منهم زعيم الحركة الرَّاحِل دكتور قرنق بالرواية التي شاركناه حبكها.. ونزيد عليها بالتالي:

«في العام ١٩٨٦، فاجأ قرنق مستمعيه الذين جاءوا إلى أثيوبيا للإلتقاء به للمرة الأولى في كوكادام، وقد تركوا وراءهم الخرطوم تمضغ بقايا ثورة لم تكتمل، ويحرسها جنودٌ معلومون قدَّر قرنق أن يُسميهم "مايو ٢٠"، أي امتداد للنظام الذي ظن القادمون أنهم قُبروه، ومن المفارقات وبعد أكثر من عقدين من الزمن أصبح أسمهم في زمن المسغبة السياسية الراهن "مجلس الحكماء"، أي الذين ينتظر شعب السُّودان المكلوم أن يجري الله الحكمة على ألسنتهم ليُخرجوا بها البلاد من الظلمات إلى النور.. قال قرنق: "نحن نتاج لتطوُّر تاريخي، واللغة العربية مع ضعف إمامي بها وحرصي على إجادتها سريعاً، لا بد أن تكون اللغة الرسمية للسُّودان الجديد، ونحن صريحون وواضحون في كل شيء، لا يمكن القول أن اللغة العربية هي لغة العرب وحدهم (يقصد عرب

السودان: د. منصور خالد) وإنما هي لغة السودان كله، فالإنجليزية هي لغة الأمريكان ولكن القطر الذي يسكنونه هو أمريكا وليس إنجلترا، والإسبانية لغة الأرجنتين وبوليفيا وكوبا وكل هذه البلاد معروفة وليست إسبانيا. نحن جادون فيما نريد ولا نحس بمرارة فيما نقول، نحن جادون في خلق سودان جديد، يخلق حضارة جديدة تضيف إلى العرب وإلى الأفارقة حضارة الانسان، فالحضارة ليست ملكاً لأحد لأن الحضارات جميعها وليدة تلاقح» (المصدر: مجلة 'كتابات سودانية' العدد ٣٣ ص ٢٤).

لمثل هذا الكلام، لا يخالجنني أدني شك في أن رئيس الحركة الحالي الفريق سلفا كير ميارديت سيخلع قبعته احتراماً وتقديراً، أما أنا فقد أحنيتُ له تكريماً وتبجيلاً حتى كلَّ ظهري!

وأزيد على المثل أمثلة من الجوار الإقليمي.. تشاد، تلك الدولة التي ظلنا نستعلي عليها سياسياً واجتماعياً وثقافياً، وفي ظل حكم عصابة الإنقاذ اشتد ساعدها فاستعلت علينا عسكرياً، هي الدولة الوحيدة خارج حظيرة الجامعة العربية التي أقدمت "برضاها" على إقرار اللغة العربية في دستورها كلغة رسمية إلى جانب الفرنسية لغة المستعمر، أما جيبوتي التي تبدو أكثر اعتزازاً بغروبيتها، فقد فعلت الشيء نفسه، أي إقرار اللغة العربية في الدستور، ورغم أن ذلك أهلها لاحتلال مقعد في منظومة الجامعة العربية المذكورة، لكن المفارقة أن لغة التخاطب في الدوائر الحكومية والشرع العام هي الفرنسية، إلا من رحم ربي!

أيضاً إريتريا، فبرغم أن المتحدثين بالعربية أكثر عدداً من جيبوتي، إلا أن قيادتها تمنعت في الانضمام للجامعة العربية لتوهّمها أن ذلك سيثبّس على هويّتها، ونضرب كذلك مثلاً بالبلد الذي نعيش على ظهرانيه، وقد ذكره د. جون في سياق حديثه، فالمعروف أن الدستور الأمريكي صمت عن إقرار اللغة الرسمية، فسادت الإنجليزية وهي لغة المستعمر البريطاني بشرعية الأمر الواقع Defacto ويتحدثها نحو ٩٦% من السكان، في الوقت الذي اندثرت فيه لغة أهلها الأصليين "الهنود الحُمْر" رويداً رويداً، وحالياً نتيجة تغييرات ديمغرافية بدأت الإسبانية (يتحدثها حوالي ٣٠ مليون نسمة ما يعادل ١٢% من السكان) تفرض نفسها بقوة، وقد أصبح اللغة الأولى في السنوات القادمة في بعض الولايات، مثل تكساس وكليفورنيا، ومع ذلك لم يشك أحد أن الإسبان قادمون لاستعمار أمريكا.

في التقدير أن كل هذه الأمثلة تؤكد ما قلناه آنفاً، أن اللغة لا تمنح هوية، بل حتى بالنسبة للعقيدة الإسلامية فهي "تابعة" وليست "متبوعة"، كما قال شهيد الفكر آخر، الأستاذ محمود محمد طه! إن اللغة ينبغي أن تكون في إحدى عاياتها اسامية عامل توخّد بين الشعوب، وصحيح أن اللغة العربية التي ظلت تنمو وتزدهر في السودان لأكثر من سبعة قرون لم تكن كذلك، نسبة لأن البعض

أقحمها بصورة أو أخرى في النزاعات المسلحة والحروب الأهلية، وحملها ما لا تطيق حينما اندلع من ركام تلك الحروب والنزاعات سؤال الهوية.

كذلك لا يرى المرء سبباً وجيهاً يُفسّر افتعال البعض معركة في غير معترك، أي إدارة صراع خفي بين اللغتين العربية والانجليزية، رغم أنهما لغتين وافدتان وإن اختلفت طرق انتشارهما في السودان، ولعلّ هذا هو ما دفعني للتساؤل سراً بينما كنتُ أشاهد وقائع الاحتفال بالذكرى الثالثة لاتفاقية السلام في أستاذ واو يوم الاثنين ٢٠٠٨/١/١٤، إلى من وجّه المُتحدثون باللغة الإنجليزية حديثهم؟! هل للجالسين على المنصة، أم للمتشرّين في الإستاد؟! ويتعّدّ التساؤل أكثر لأن اللقاء مبنوثٌ على الهواء، وبناطبع مقصودٌ به السودانيّين في الداخل والخارج، وبينهم نسبة معتبرة من غير الناطقين بها!

بما أن الشيء بالشيء يُذكر، بصرف النظر عن المحتوى وطبيعة النظام، من ممّا لم يشعُر بالزهو والاعزاز حينما خاطب الدكتور لام أّول مؤتمر القمّة العربية الذي انعقد في الخرطوم العام ٢٠٠٦ بلغة عربيّة فصيحة، حرّضت الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى على التّوح بمكنون صدره من إعجاب مستتر، وكلنا يعلم أنذاك أن العرب العاربة الذين خاطبهم أّول، منهم من يتعثر في قراءة سطرين، وإذا قيّض المولى له أن يكملهما دون تأتأة، فقد يظن أن تلك درجه تُوهِله لأن يُصبح كليم الله.. على كلّ، أستطيع أن أقول بقرائن الأحوال، إن إجادة لام ورفيقه مشار اللغة العربية كانت حافزاً لدكتور جون في محاولاته تحسين لغته، وأعلم أن أكثر ما ساءه في تنقّسامهما الشهير عام ١٩٩١ وترتّمانهما في أحضان نظام الخرطوم، كان ظهورهما وآخرين في الأجهزة الإعلامية الرسميّة واللقاءات الجماهيريّة ومُخاطبة الناس بلسان عربي مُبين، رغم أنهما لا يمتلكان ذات الكاريزما التي يتمتع بها هو! وكنتُ قد قرأتُ رأياً لرئيس مجلس إدارة الصمغ العربي، المستشار منصور خالد ('الرأي العام' ٢٠٠٣/١١/١١) قال فيه: «أن د. جون بدأ يتجاوز عقبة الحديث باللغة العربية»، ويومها كانت نيفاشا تقدّم رجلاً وتؤجّر أخرى!

كذلك أطمح من خلال إثارتي قضية اللغة هذه رداً على ما أدلي به أموم على رتق الفتوق التي صاحبت الحرب الأهلية في جنوب البلاد، منذ أن بدأت بشرارة تمرّد العام ١٩٥٥، وقد هالني أثناء إعادة قراءة تقرير لجنة التحقيق الإداري التي عيّنها وزير الداخلية السيد علي عبدالرحمن "الشيخ الأحمر" كما كانت تطلق عليه صحافة ذاك الزمان، وكانت اللجنة برئاسة قاضٍ فلسطيني مشهودٌ له بالكفاءة والنزاهة، هو توفيق قطران قاضي المحكمة العليا، وعضويّة خليفة محجوب مدير عام مشاريع الاستوائية، ولوليك لادو زعيم قبيلة ليريا، وبعد عام كامل من التحقيقات الميدانيّة في مُدن مختلفة في الجنوب والخرطوم العاصمة، أصدرت اللجنة تقريرها قي ١٩٥٦/٢/١٨ ولم يُنشر حينذاك كاملاً، وهو يُعدُّ من أهم الوثائق التي وضعت الأصبع على الجرح النازف، ورغم مرور

أكثر من نصف قرن على الحدث، إلا أن ذلك التقرير يُعدُّ مرجعاً لتفسير كل ما التبس في لوح الحرب، وما يهمننا فيه الآن موضوع اللغة وتأثيرها في التمرُّد.

في سياق التسلسل التاريخي للمشكلة، أشار التقرير إلى أنه في إطار الحثيَّات اختط السكرتير الإداري آنذاك المستر هارولد ماكمايكل مطلع العام ١٩٣٠ سياسة جديدة بالنسبة للجنوب، اقتضت: «إمداد الجنوب بموظفين لا يتكلمون اللغة العربيَّة من إداريين وكتبة وفنيين، كما شملت الرقابة على هجرة التَّجَّار من الشمال واستعمال اللغة الإنجليزيَّة عندما يكون التفاهُم باللَّهجات المحليَّة مستحيلاً»، وقد ترتب على هذه السياسة عملياً خمسة سلبيات، يهمننا منها الأخيرة، وتقول: «ألغى تدريس اللغة العربيَّة كمادة في المدارس».. وتؤكد الوثيقة التعسُّف الذي صاحب تنفيذ هذه الإجراءات: «إن المدى الذي أتبع في تطبيق هذه السياسة بلغ حدًّا صبيانيًّا. فقد هُجرت قرية كافيا كنجي (مديرية بحر الغزال) وخُلقت منطقة حرام بين دارفور وبحر الغزال لمنع اختلاط العرب والزنوج، وحتى المسلمين من الزنوج من الأقطار الأخرى من أفريقيا مثل الفلاتة والهوسة قد أُجِّلوا».. إلى أن تخلص الوثيقة للنتيجة: «صار استعمال لغة التخاطب بين القبائل المختلفة "نوع ركيك من اللغة العربيَّة" جريمة يُعاقب من يتكلمها في المدرسة، كذلك أُجبر من «كانوا يسمون بأسماء عربية لعدة أجيال على تغيير أسمائهم».. تلك كانت نطفة المستعمر التي قذفها في رحم الوطن وولدت جنيناً مشوهاً ترعرع في كنف الحرب والكرهية، وبالطبع لا يوجد مغامر يرغب في إعادة عقارب الساعة للوراء ليرتكب الخطيئة نفسها، طالما أن هناك غُلاء مهمتهم هددت الفتنة في مرقدِها!

لكني أخشي أن يكون أموم قد أوما في حوارهِ مع 'الرأي العام' إلى إمكانية إعادة عقارب الساعة إلى الوراء بصورة أخرى، حيث أشار إلى اللغة الإنجليزيَّة كبديلٍ محتمل رغم أن ذلك قولٌ سبقه نفيٌّ منه، والحقُّ يُقال إن صدقَ هذا، فقد يكون أشبه بحال المستجير من الرَّمضاء بالنار، وكان الصَّحفي قد سأله عمَّا إذا كانت الإنجليزيَّة لغة سودانيَّة؟ فتحدَّق قائلاً: «نعم، الإنجليزيَّة لغة سودانيَّة بحكم الاستعمار الإنجليزي، والصفوة السودانية تعلمت باللغة الإنجليزيَّة والجامعات السودانية كان التدريس فيها باللغة الإنجليزيَّة، حتى جاءت الإنقاذ بما يُسمَّى ثورة التعليم العالي.. وبالتالي فإن الإنجليزيَّة لغة سودانيَّة بحكم أننا ورثناها من المستعمر الإنجليزي».. الواقع أنا لا أعلم رد فعل القارئ فيما قرأ، ولكن شخصاً مثلي يعرف قائله معرفة لا إغواء فيها، لا بُدَّ وأن يُقطب جبينه استغراباً، وتتكمش نفسه استنكاراً، ويتمدَّد عقله في محاولة لمعرفة أي دوافع ميثافيزيقيَّة حدثت بالقائل أن يسمَّ طعامه بيده!

لعلَّ أموم يعلم أن استرجاع عقارب الساعة تمثِّل في أن تماثل اللغتين كاد أن يعصف بمحادثات أديس أبابا بين نظام نميري وحركة تحرير السُّودان بقيادة جوزيف لاقو، وذلك من قبل أن تُفضي للاتفاق الشهير في مارس ١٩٧٢..

يومذاك، رفضت الحركة أن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية باعتبارها لغة استعمارية، إلى أن تمّ تجاوز العقبة بإقرار اللغة العربية، والإنجليزية اللغة الرسمية في الجنوب، أي لغة المكاتب، والواقع أن ذلك القرار لم يزد من استخدام اللغة الإنجليزية ولم يحدّ من انتشار اللغة العربية، وتجدر الإشارة إلى أننا حينما نقول اللغة العربية، فنحن نعني تحديداً اللغة الهجين التي أصطلح على تسميتها بـ"عربي جوبا"، ولعلها بهذه التسمية تدرأ الشبهات في نفوس الذين أصابتهم "قوبيا اللغة" كما ذكرنا، وقد أسعدني الجهد الذي أنجزه دكتور بول دينق شول ولعله كان بعنوان "لهجة جوبا العربية"، والذي نوقش في منتدى بمتحف التاريخ الطبيعي في يونيو العام الماضي ٢٠٠٧.

إن حسم الجدّل حول موضوع اللغة لا يعني بأية حال إهمال اللغات الأخرى، أو الاستعلاء على الثقافات الأخرى، ولعلّ الفرضية الأولى هي التي أدّت إلى انقراض بعض اللغات واللهجات السودانية، وذلك ما أكده ('الرأية' القطريّة ٢٠٠٧/١٢/١٣) البروفيسور يوسف الخليفة أبوبكر، رئيس دائرة اللغويات في مجمع اللغة العربية في السودان: «بين يدينا سبع لغات لا يتحدثها إلا بضغ منات، وأخرى انقرضت في خلال القرن العشرين، منها لغة حرازة وبرقد وقلّي»، والأخيرة هذه للذين لا يعلمون، كانت لغة دولة الفونج، وقال أنه في زيارة للمنطقة عام ١٩٧٧ وجدّ أربعة أشخاص فقط يتحدثونها، كانت أعمارهم تجاوزت السبعين!

في ختام مبحث اللغة، أرجو ألا يندهش القراء مثلي إن علموا أن هناك جسماً غير مرئي يُسمّى "مفوضية اللغات"، ويبدو أنها عاطلة عن العمل مثل صنّواتها، وما أكثر العاطل عن العمل في أجندة الشريكين!

آخر الكلام: لا بدّ من الديمقراطية وإن طال السّفرا
الأحداث ٢٠٠٨/٠١/١٦

oboiikan.com

حوار في الساعة الخامسة والعشرين مع باقان أموم (٨)

لُكِّلَ الحوار الذي لم نملِّه مع السيّد باقان أموم، الأمين العام للحركة الشعبية لتحرير السودان، ونتابع ما أثرناه في الحلقة الماضية حول اللغة، واستشهدنا فيه بعبّر ودروس التاريخ، إلى جانب وقائع الجغرافيا، ودعمناهما بشواهد من رُوي ثقافية لزعيم الحركة الرَّاحل دكتور جون قرنق، وكنا قد دعونا مخلصين إلى الانفكاك من ربة الماضي الذي نعلم جميعاً أنه مليئٌ بالآثام والخطايا، ويكفي أنه أورثنا تبعات تلك الحرب اللعينة، بعد أن قضت على الأخضر واليابس وسُجِّلَت كأطول حرب في القارّة الأفريقيّة، وعندما يجنح الناس للسلام، فللسلام أيضاً ضريبتة. وكان كاتباً صديقاً من ناشطي الحركة الشعبية قد حصّناً قبل فترة في سلسلة مقالات على أن "نسمو فوق ما يُفرّقنا" في حين نعلم جميعاً أن السُّمو فوق الذي يُفرّقنا يستلزم في البدء لغة مشتركة، نعرف من خلالها كيف نخاطب بعضنا بعضاً، فما جدوى اللغة التي نخاطب بها العالم الخارجي إذا لم ننجح في مخاطبة أنفسنا أولاً؟!

إن كان لكلِّ أمة "زرقاء يمامة" تستبصر لها مصائرها المخبوءة، أشهد أن السيّد بوث ديو كان "زرقاء يمامة" هذه الأمة، فقد نظر الرُّجل في الأفق واقترح علينا في مؤتمر جوبا (١٩٤٧) اقتراحاً، لو عملنا به، لكفانا مغبّة تلك الحرب العبثيّة، اقترح ديو تشجيع وتعزيز تعليم اللغة العربيّة في الجنوب، وذلك لاعتبارات موضوعيّة أفتحت المُشاركين بوضعها ضمن توصيات المؤتمر، وهي ذات الاعتبارات التي أمّن عليها رئيس مجلس إدارة الصَّمغ العربي، المستشار منصور خالد في مؤلفه المُسمّى "السودان: أهوال الحرب وطموحات السلام" (ص ١٧٤)، بقوله أن: «بوث ديو لم يكن قطعاً ينظر للعربيّة كأداة سيطرة على الجنوب، بل كخطوة مهمّة لتمهيد الطريق لأبناء الجنوب حتي يشقُّوا طريقهم في سُلّم الترقّي الاجتماعي مع نظرائهم الشماليين».. وذكر المستشار أيضاً في نفس الصفحة، أن السيّد عبدالرحمن علي طه في خطابه أمام الجمعية التشريعيّة (١٩٤٩)، أعلن: «بما أن السودان قُطِرَ واحد تشترك جميع أجزائه في مُؤسّسات سياسيّة واحدة، فإن أوّل ما يجب تحقيقه، هو أن تكون للبلاد لغة واحدة يفهمها ويتحدّث بها جميع أبنائها، ولا يمكن أن تكون هذه اللغة غير العربيّة».. وأشار إلى توجيه أصدره بموجب قرار من المجلس التنفيذي أن:

«تتخذ الوزارة الخطوات المناسبة لجعل اللغة العربية مادة أساسية في مدارس المديرية الجنوبية بأسرع ما يمكن، وأن اللغات المحلية ستظل تستخدم كوسيط تعليمي في المدارس الصغرى وفي الفرق الأولى من المدارس الأولية».

مؤتمر جوبا مثل في تقديرنا أول تلاقي نخبوي بين الشماليين والجنوبيين، وقد انتهت مداولاته بالتأمين على الوحدة، على الرغم من أنه تم في ظل مستعمر بذر بذرة الانفصال بقانون المناطق المقفولة (١٩٢٢) وكذلك جاء في أعقاب السياسة التعسفية للسكرتير الإداري المستر هارولد ماكميكل مطلع العام ١٩٣٠ والتي أشرنا لها في الحلقة الماضية ضمن تقرير لجنة القاضي توفيق قطران المسنولة عن تقصّي أحداث تمرد ١٩٥٥، ولا يدري المرء إن كان مؤتمر جوبا في جوانبه الإيجابية مفعماً بإفرازات ثورة "اللواء الأبيض" (١٩٢٤) أم تجاهلها، لكن الثابت أنها الثورة التي وضعت قضية الوحدة على بساط من التفاعل الحقيقي، وتمثل ذلك من جهة في علي عبداللطيف وعبدالفضيل الماظ كقيادات لها، ومن جهة أخرى حسم قادتتها صوتاً نشازاً "سليمان كشة" إثر محاولته تقزيم الهوية السودانية، تماماً مثلما كانت معركة الزاحل قرنق الأولى في الحركة الشعبية ضد الذين أرادوا توجيه دفة الحركة الوليدة نحو الانفصال!

مؤتمر جوبا المشار إليه كان بنده الوحيد المطروح على أجندة المجتمعين، هو تقرير مصير الجنوب، وفي ذلك برزت ثلاثة خيارات، بعضها من حيابة المستعمرين أنفسهم، ولم تلاق رواجاً، مثل ذلك الخيار القاضي بضمه لأوغندا، أضغه تخوف الأوغنديين من أن يتلعمهم، بدعوى أن مساحته - أي الجنوب - تساوي أضعاف مساحة أوغندا، وصرح على الهامش حلاً أراد الالتفاف على ذلك الخيار بتقسيم الجنوب بين دول شرق أفريقيا المجاورة، أي ذبحه وتشتيت دمه بين القبائل.. أما الخيار الثاني، أو في الواقع أنه كان الخيار الأول، وهو الوحدة بين الكيانين الشمالي والجنوبي، ولكن بأسس جديدة تضمن الفيدرالية مستقبلاً.. أما الخيار الثالث، فقد تمثل في تقسيم الجنوب بين السودان الجغرافي الشمالي ودول شرق القارة الأفريقية، وهي أيضاً قسمة ضيزي لأنها تأخذ ولا تُعطي الجنوبيين شيئاً، ولزُيماً من باب الامتنال للمثل الدارج "العافية درجات"، نم يكن أمام المجتمعين سوى الانحياز لخيار الوحدة بأسس وضغوا ضوابطها، ومنها إقتراح ديور. وحرى بنا القول أن هناك فرق كبير بين شفافية بوث ديور وواقعية عبدالرحمن علي طه من جهة، وبين سياسة التعريب القسري التي طبّقها النظام العسكري الديكتاتوري الأول من جهة أخرى، ذلك لأنه بقدر ما يكون استخدام اللغة العربية أمراً مطلوباً ومرغوباً كلفة مشتركة تحقق التواصل الحياتي والإنساني، لكن المؤكد أن الأمر يختلف جداً عندما تجيء تلك الدعوة في نسق سياسي مغلق، وتنطوي على مفاهيم توحى بالاستعلاء والتفوق العنصري!

كنا قد أوردنا مازق وضعية اللغة العربية في اتفاقية أديس أبابا، الذي كاد أن يؤدي إلى إنبهار المفاوضات، ذلك يدعونا أن نُمعن النظر قليلاً في وضعية

اللغة في الدساتير المختلفة، بغض النظر عن الأنظمة التي كرسها، إذ ندرك بغير كثير اجتهد أن المُشرِّعين داروا حولها بصورة تفصح عمق المأزق، الذي ظللنا نعيشه..

فمثلاً المادة (٥٧) في دستور ١٩٥٦ المُعدَّل ١٩٦٤، تحدَّثت عن اللغة كالتالي: «مع مراعاة أحكام اللوائح الداخلية الخاصة بالجمعية التأسيسية، تسير الإجراءات باللغة العربية ولكن دون مساس باستعمال اللغة الإنجليزية متى كان ذلك مناسباً»..

أما دستور ١٩٩٨، فالمادة (٣) المخصَّصة للغة ذكرت: «اللغة العربية هي اللغة الرسمية في جمهورية السودان وتسمح الدولة بتطوير اللغات المحلية والعالمية الأخرى»..

في دستور نيفاشا ٢٠٠٥، أوضحت المادة (٨) المخصَّصة للغة خمسة فروع:

- ١- جميع اللغات الأصلية السودانية لغات قومية يجب احترامها وتطويرها وترقيتها.

- ٢- العربية هي اللغة القومية الأوسع انتشاراً في السودان.
- ٣- تكون العربية باعتبارها لغة رئيسية على الصعيد القومي، والإنجليزية، اللغتين الرسميتين لأعمال الحكومة القومية، ولغتي التدريس في التعليم العالي.

- ٤- يجوز لأي هيئة تشريعية دون مستوى الحكم القومي أن تجعل من أي لغة قومية أخرى لغة عمل رسمية في نطاقها، وذلك إلى جانب اللغتين العربية والإنجليزية.

- ٥- لا يجوز التمييز ضد استعمال أي من اللغتين العربية أو الإنجليزية في أي مستوى من مستويات الحكم أو في أي مرحلة من مراحل التعليم».

(انتهى)

وبغض النظر عن ركافة الترجمة كما في الأخير هذا، يمكن القول أن ذلك مجرد "حكى" كما يقول عرب الشام، ولعلَّ الإسهاب في الشرح، كما في دستور نيفاشا أيضاً، يوضِّح عمق المأزق، وبالتالي فإن معالجة قضية اللغة في الدساتير الثلاثة (لم يتوفر لنا دستور ١٩٨٥ الانتقالي ودستور ١٩٧٣) هي تجسيد حقيقي لأزمة يظن البعض أن مجرد وضعها ضمن مواد الدستور كقيل بخل إشكاليَّتها، ناهيك عن القول أننا لا نري في الأصل سبباً مقنعاً يستلزم وضع اللغة أو الدين في أي دستور!

بناءً على الآراء التي وردت في الحلقة الماضية وهذه الحلقة نوجز وجهة نظرنا حول موضوع اللغة في نقاط، نعلِّ تسلسلها يكون مُعيناً على الإقناع وتفهُم الدوافع التي تقف من وراء القصد:

• **أولاً:** إن حديثنا حول اللغة غير معني بالحسم الديواني أي وضعيَّة اللغة العربيَّة في الدستور، سواء أكانت اللغة الرسميَّة الوحيدة أو مشاركة مع أخريات، نحن نقول طالما أن غالبيَّة أهل السُّودان يتحدَّثون اللغة العربيَّة، ينبغي أن يكون ذلك حافزاً يَحْتَمِلُ على التواصي والتراضي حولها لكي تكون وسيلة للتواصل الإنساني والحياتي بين الشعوب السودانيَّة جمعاء، ونعتقد أن ذلك يُمكن أن يعزِّز فرص التعايش السلمي والسلام الاجتماعي الذي قُصِرَت عن ذكره نيفاشا، علاوة على أن الاتفاق قد يُوْدي إلى توفير طاقة مبدَّدة فيما لا طائل يُجني من وراءه، فمن غير المنطقي أن نتجادل حول اللغة لما يَناهز المائتي عام، أي منذ أن وُحِدَ الاتراك هذه الأمَّة (١٨٢١) بل الأنكى من ذلك ألا نصل في حواراتنا لحكم قاطع حتى الآن!

• **ثانياً:** المعروف انه ارتضينا "السودانويَّة" هويَّة وسطاً بين هويَّتين، وبالتالي نكرِّر القول أن اللغة لا تمنح هويَّة، سواءً كانت مفقودة أو موجودة، وقد خابت محاولات الذين أرادوا لها أن تكون مُنتجاً للهويَّة، ليس في السُّودان فحسب، بل في أقطار أخرى أقل تعقيداً إثنياً، فلو كان الأمر غير ذلك لكان دُعاة القومِيَّة العربيَّة تَبَوَّأوا مكاناً عَليَّاً، ليس في السُّودان وحده، وإنما في أقطار المنبع.. العراق أو سوريا أو مصر، وبالطبع واهمُّ من يظن أن مجرد تحدُّثنا باللغة العربيَّة سيضعنا في خانة ذوي الهويَّة العربيَّة الإسلاميَّة، فهذه هي الفكرة الخطأ التي ينبغي محاربتها.. عوضاً عن محاربة اللغة نفسها!

• **ثالثاً:** لأن التوقع لا يُجدي فتيلاً - كما تعلمون - وبعيداً عن السُّلطة الحاكمة، كنا قد دعونا إلى ضرورة عدم محاكمة الحاضر بخطايا الماضي وشروره، ولسنا في حاجة لمن يُذكِّرنا بأثام الماضي والحاضر معاً، فقد انتقدناهما وسنظل ننتقدُهم بتركيز على ممارسات الأنظمة الديكتاتوريَّة الثلاث ليس في مجال التعريب القسري أو الأسلمة الاجباريَّة فحسب، وإنما في مسئوليتهم الشاملة عن التردِّي السياسي والأخلاقي الذي أوصل البلاد والعباد إلى دركٍ سحيق، وسيأتي يوماً تُنصَّب فيه موازين الحساب والعقاب!

• **رابعاً:** بنفس القدر، نحن نتطلع نحو المستقبل، وطالما أن الأمر كذلك فإن أي أفكار أو رؤي طرحناها حول موضوع اللغة لا نرجو لها تحقيقاً إلا في ظلِّ "دولة مدنيَّة ديمقراطيَّة مُوحَّدة"، أي بعيداً عن الغُصبة الحاكمة، سواء في طبعها الإنقاذيَّة القديمة، أو الجديدة فيما تسميه بـ "حكومة الوحدة الوطنيَّة"!

• **خامساً:** اعتدَّ أنه أن الأوان لإزالة التغبيش الذي يرمي باللائمة على اللغة في مسألة التهميش، الذي عانت وتعاين منه كثير من أطراف السُّودان، تُرى كيف كان سيكون حالنا لو أننا أتبعنا تلك النصيحة الغالية التي أسداها لنا السيّد بوث ديو، "زرقاء اليمامة" ولم نستبها حتى ضُحى الغد؟!

• **سادساً:** من باب الواقعية، نقول أن الكثير من أبناء الجنوب الذين عاشوا وتعلموا في الشمال، والذين درسوا كذلك في دول عربية مثل مصر وليبيا وسوريا اكتسبوا مهارة التحدث باللغة العربية إلى جانب الإنجليزية، وبما أن هؤلاء بدأوا رحلة العودة الطوعية، وإزاء تنمية شاملة منتظرة غداً، يمكن القول أن التحدث بالعربية سيكون مزية إضافية ولن يكون خصماً، وأعتقد أن هذا ما عناه بوث ديو تحديداً، والمعروف أن خاصية التحدث باللغة العربية تزيد من فرص عمل الذين يعيشون في البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية.

• **سابعاً:** لا يعرف المرء مسوغاً مقنعاً يجعل الذين يتحدثون اللغة العربية يعملون لحرمان أبنائهم منها، حتماً إنها الأنانية التي تعمي القلوب التي في الصدور! المفارقة أنني لم ألتق قيادياً قط في الحركة الشعبية لا يجيد الحديث باللغة العربية، سمها ما شئت.. عربي جوباً، أو اللغة الهجين، أو العربي المكسر، فالحقيقة نحن جميعاً في السودان نتحدث لغة عربية ليس لها علاقة بالأصل سوى الاسم.. هب أن القادة المشاركين في حكومة الوحدة الوطنية لا يتحدثون اللغة العربية.. كيف كان سيتأتي لسواد الشعب معرفة أفكارهم، وما يجول في خواطرهم؟!

• **ثامناً:** اتساقاً مع أعلاه، وبما أن الشيء بالشيء يُذكر في الأنانية، فليسمح لنا القارئ الكريم أن نضرب مثلاً شخصياً في مهجرنا الحالي.. لقد حرصت على تلقين العربية لمن كان في المهد صبياً من أبنائي، وهو أصلاً تعلم الإنجليزية "غصباً عني"، أما من بلغ منهم الكبر، فقد زاد على الحُسنيين - العربية والإنجليزية - بثالثة هي الأسبانية، وقبلهم كانوا قد تعلموا التغرينية بحكم وجودهم في إريتريا، ومع ذلك لم يقل لي أي واحد منهم أنه تضرر من تلك الازدواجية، أو أنني ظلمته في خياراته، مثلما لم أشعر أنني استلبت هويته، وبالتالي لم أر أحداً منهم.. تأتزر، أو تأسبن، أو تأمرك!

• **تاسعاً:** إن الحسم غير الرسمي للغة العربية لا يعني بآية حال الاستعلاء على اللغات أو الثقافات الأخرى، وكنا قد انتقدنا الإهمال الذي أدى إلى انقراض بعض اللغات، وأشرنا إلى ضرورة احتفاظ الناس بلغاتهم الأصلية، وأجد نفسي متفقاً مع أموم وآخرين في ضرورة تعليم النشء بما يُسمى لغة الأم، فبغير أن الطفل يمكن أن يستوعب أكثر من لغة، نجد أن الدعوة أساساً وردت في خطاب عبدالرحمن علي طه المذكور أعلاه، وأذكر أن دولة إريتريا الشقيقة طبقت التجربة على تلاميذ المراحل الابتدائية، ولكنني لم أتابع مدى الفشل أو النجاح الذي أصاب تجربتهم!

• **عاشراً:** من المهم التأكيد على ما أكدناه سابقاً في أن دعوتي لتغليب اللغة العربية ليس تطرفاً أو انحيازاً أو تعصباً، فالأمر قد أملتته ضرورات موضوعية، في مُقِمَّتِها الانتشار الواسع، إلى جانب أن الجدل حول اللغة

أهـر صافافنا بلا فافءة. وأقول ختاماف؁ لو أفنا كنا نأءءء الـوم لغة الاءفنا أو المأس أو البأا بنسبة أكأر من ٨٠% كما اللغة العربفة؁ لظلأ أماسف للسانء كما هو.. ولم فنفص أبة أراءل!

بهاا الأسلسل نأام أاءفنا آول اللغة؁ آملفن أن فكون مففناً لسلالة آل موسى الاءن أأابه علفهم البقر؁ فظنوا أن الآوار.. آواراً!!

آخر الكلام: لافءة من الاءمقراطفة وإن طال السفر!

٢٠٠٨/١/٦

حوار في الساعة الخامسة والعشرين مع باقان أموم (٩)

استعرضنا في الحلقات الماضية الآراء والأفكار التي أفصح عنها السيد باقان أموم في المقابلة الصحفية التي أجرتها معه الزميلة 'الرأي العام' ونُشرت في حلقات ثلاث أواخر نوفمبر الماضي، وبدأ لنا أنه طالما قائلها هو الأمين العام، فبالنظر هي تمثل توجهات الحركة الشعبية في القضايا المثارة، وها نحن في ختام هذه السلسلة الحوارية، ومن باب الإنصاف المتبادل، نُدلي باختصار شديد بملاحظات ثلاثة خاصة، والتي نعتقد أنها قد تفسر حالة الاضطراب التي اكتنفت توجهات الحركة ورؤياها منذ أن طرحتها على الملأ في العام ١٩٨٣. وعلى كل، هو اجتهد ليس من باب التشريح بقدر ما أنه يرمي - إن أسلمنا جدلاً بمعطياته - إلى البحث عن إجابة واقعية، وتفسير منطقي لتلك "الانعطافة" السياسية والفكرية في مسيرة الحركة، ولربما خلصنا إلى نتائج يمكن الاستفادة منها، تعين على الأقل في إكمال مشوار نعلم أنه طويل جداً، وبالطبع لا بُد من التذكير في أن هذه الملاحظات هي محض اجتهد شخصي.. ورغم أنه اجتهد يحتمل الخطأ والصواب بقدر سواء، إلا أننا نتمنى ما تمناه الإمام الشافعي لمحاوريه.. فيُسعدنا أن نقول ذات يوم: «أصابك الحركة وأخطانا نحن»، وعليه لا نرى غضاظة في أن تتسع مظلة الحوار هذه لتشمل الذين عبّر أموم عن أفكارهم ورؤاهم، فقد أكدنا غير مرّة أننا نهدف إلى تكريس مبدأ الحوار الديمقراطي الحر بعد أن تمّ تغيبه في ظلّ دولة المشروع الحضاري!

• **أولاً:** يقيني أن الموت كان فريضة غائبة، ليس في خلد كوادر وقيادات الحركة الشعبية فحسب، بل في خلد زعيمها نفسه، الذي رَحَلَ دون أن يحاول طيلة مسيرة العقدين على ترتيب الأوضاع في حال غيابه بالموت المفاجئ مثلاً حدث، أو تغيبه بفضل ثلثة من الطامحين في إرث الحركة، مثلاً هو الحال في كل الحركات المسلحة في العالم الثالث، ولهذا عندما غاب الدكتور جون قرنق في الثلاثين من يوليو ٢٠٠٦ عن المسرح السياسي، كادت الحركة أن تفقد بوصلتها.. صحيح أنها استعادتتها وحددت اتجاهاتها التنظيمية باختيار الفريق سلفا كير ميارديت خلفاً له، لكن عدا الناحية التنظيمية هذه، يمكن القول أن كل شيء ظلّ مُحَدِّقاً في الأفق يبحث عن معالجة، وقد أدهشني أن الفريق سلفا نفسه بدأ مشوار رئاسته بانتقاد القبضة المركزية لسلفه، وهو حديث وإن قصد

به الإيحاء في رغبته العيش بعيداً عن جُلُباب الرّاحل، لكنه ما كان ليجزؤ على قوله لولا إدراكه أن الرّاحل نفسه لن يعود!

على كل، طالما أن العبرة في الخواتيم لندع ذلك جانباً، ونطرح السؤال الذي نفترض أن كل قيادات الحركة الشعبية وناشطيها قد زَيّنوا به صدورهم كما التّمائم.. تُرى لماذا خرجت الملايين وبشكل غير مسبوق لاستقبال قائدٍ سياسي في قلب العاصمة التي قاتلت حركته نفسها أثناء التفاوض من أجل أن تُستبدل بأخرى لا تذكّرها بالحرب وأجوانها الكريهة.. على حدّ تعبير أموم في حواراته المُشار إليها أعلاه؟! الإجابة في تقديرنا ليست بتلك المثاليّة التي رَدّدها كثير من المحللين السياسيين في زعمهم وبصورة مطلقة أن تلك الجُموع خرجت لأنها تُحبّ السلام وتريد أن تقول "لا" للحرب، الحقيقة أن تلك مجرد شعيرة من فريضة أكبر نقول أن هذه الملايين خرجت لأنها تَوَاقّة للتغيير، وأرادت أن تُلقِي بمسئوليّاته الجسام على كاهل الحركة الشعبيّة، أو زعيمها!

نقول ذلك بيقين أن الرّعم الأوّل هو ابتسار للحقيقة، وقد رُوّجت له غصبة الإنقاذ، أو أن ترويح الآخرين له وجد هوى في نفوسهم، ذلك لأنهم يريدون تبرئة انفسهم من خطيئة الحرب قبل كل شيء، يريدون أن يوحوا لنا أن تلك الملايين خرجت لأنهم صنعوا لها السلام.. وهذه محض هُراء وافتراء على الواقع.. فبعضُ النظر عن أن الذنب لا يمكن أن يصبح حملاً وديعاً، وبغضِ النظر عن السلام، هذا كان متاحاً من قبل أن تدكّ دَبَابِتهم نظاماً منتخِباً كان قائماً، مع هذا وذاك يصعب التأكيد أيضاً على أن كل أهل السُودان استشعروا نيران تلك الحرب اللعينة.. نعم، لم يكونوا كلهم سواء في الضراء.. لأن في هذا السُودان هناك من ارتضى لنفسه أن يكون حطب الذين أجّجوا نيران تلك الحرب بـ "خُرْعِلَات" الجهاد لعقْد ونصف من الزمن، وفي السُودان هذا، هناك المُتقاعِسون الذين عزّ عليهم الدفاع عن مُلكٍ أضاعوه يومذاك وطفقوا يبحثون عنه يومئذٍ، وفي السُودان كذلك الذين باعوا مبادئهم باتفاقيّاتٍ سخيّة أضاعوا بها عمراً للكري، مثل تلك المُسمّاة بـ "اتفاقيّة الخرطوم للسلام"، وفي السُودان أيضاً الذين انخرطوا في مهزلة النظام بفرية "التوالي"، وفي السُودان قطاعاً كبيراً من الصامتين الذين لم يجرأوا على إدانة تلك الحرب القذرة ولو بأضعف الإيمان، ولكن أياً كانت هويّة المُستقبلين لعلّ السؤال الذي يطرح نفسه مباشرة.. ماذا قدّمت الحركة الشعبيّة بعد ثلاث سنوات للملايين، الذين وسّدوها أحلامهم وأمانيتهم في التغيير ساعة الاستقبال المهيّب؟! الإجابة باختصار شديد: لا شيء؟! ولكن لماذا لا شيء؟! لأن الحركة الشعبيّة في تقديرنا لا تريد أن تواجه الحقيقة المؤلمة المتمثلة في افتقارها لأهم شيء يمكن أن يعينها على تنفيذ إلتزاماتها الاخلاقيه حيال شعبها.. وما هو هذا الشيء يا رعاك الله.. إنه يا سادتي الملاحظة القاسية التالية..

• **ثانياً:** جاءت الحركة وفي بطنها "بطيخة صيفي" اسمها نيفاشا، أو "اتفاقيّة السلام"، في رواية أخرى غير مُتفق عليها، بظنها أن ذلك كافياً لتأهيلها للحُكم، ونست أو تناست أن للحُكم سنن وفرائض أخرى اسمها البرامج السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، ونحن الآن نستحي بعد فترة الاختبار التي قضتها في الحُكم أن نسألها عن برامجها في القضايا المذكورة، ونحن نعلم أن فؤادها أفرغ من جوف أم موسى! فهي لم تطرح أي برنامج في المجالات سالفة الذكر، وفي الواقع نحن نربأ بها أن تمارس نفس ممارسات الشريك المُسمّى بـ "المؤتمر الوطني"، فالجميع يعلم أن هذا الشريك يجلس على سُدّة السُلطة الآن بـ "الفهلوة" السياسيّة دون أي برنامج، وحتى مشروعه الذي أطلق عليه زوراً وبهتاناً مُسمّى "المشروع الحضاري" قد شيعته نُصوص نيفاشا "نظرياً" إلى مثواه الأخير، علماً بأن إرادة المحكومين أنفسهم شيعته "عملياً" قبل ذلك بسنين عدداً.. المُفارقة أن الحركة تجيب من يسألها عن برامجها التفصيليّة بالقول أنها اتفاقيّة السلام، وإن تفذلك بعض ناشطيها، قالوا لك: برنامجنا هو برنامج "السودان الجديد"، والحقيقة إن ذلك يندرج تحت أفعال "الحواة" على ذات النمط الذي تُمارسه جماعة الإسلام السياسي حينما يسألون عن برنامجهم، فيقولون لك تلك العبارة الفضفاضة: "الإسلام هو الحل!"

بناءً على ذلك، نعتقد أن إنتقاد البعض للحركة في عدم حماسها لدفع الشريك نحو الالتزام بعملية التحول الديمقراطي، أو تلكؤها هي نفسها في التحول الديمقراطي المُرتقب، هو انتقادٌ يجيب عليه افتقار الحركة لبرنامج سياسي، وقديماً قيل أن: "فأقد الشيء لا يعطيه"! ولا بُدَّ أن البعض استذكر التجربة المرّة في انتخابات المزارعين والأخرى الأشد مرارة في انتخابات المحامين! وعليه ما من سببٍ يجعل البعض يتعامل بحُسن نيّة في مسألة واضحة وضوح الشمس في كبد السماء، ولهذا نقول بذات الوضوح في ظلّ غياب البرنامج السياسي لا أحد يعلم إن كانت الديمقراطية الآن "فاعلاً" أو "نائب فاعل" في قاموس الحركة، وكُنّا أثناء نضالها المسلح قد غفرنا لها يوم أن كانت "فِعلاً مبنيّ للمجهول"، ليس لسببٍ سوى إدراكنا أن الديمقراطية في أجندة الحركات المسلحة رَجَس من عمل الشيطان! وأيضاً في ظلّ انعدام البرنامج الاقتصادي لا تستطيع الحركة أن تطرح خطة تنمية متكاملة عوضاً عن تنمية "رزق اليوم باليوم" السائدة الآن، كما أن انعدام البرنامج الاقتصادي فُتِح الباب لغول الفساد، وبالتالي لن تستطيع أن تستشعر حجمه سواء في أروقتها أو في ميدان الشريك، رغم أن رائحته زكمت الأنوف، وكذلك فإن غياب البرنامج هو الذي يجعل الحركة تكثر الحديث عن عائدات النفط حتى لا تُسأل عن ما الذي ستفعله بتلك العائدات، وبنفس القدر لا تستطيع الحركة أن تؤمن على ما تقول في جدوى التحوّلات الاجتماعيّة والفكريّة والثقافيّة في إطار ما تسميه بـ "السودان الجديد"، ما لم تكشف عن مكنون سيرها العظيم في برنامج تفصيلي في هذا الصندد، بل حتى إن وُجدت هذه البرامج، فالمعروف أنها تكون في

حاجة لترجمة نصوصها على أرض الواقع، وهذا هو محور حديثنا في النقطة التالية..

• **ثالثاً:** إن دُمعت القوى السياسية الشمالية تاريخياً بمصطلح "نقض المواثيق" وخيانة العهود مع الجنوبيين، وفق ما تفتق عنه ذهن مولانا أبيل أليز، فمن حق هذه القوى وبخاصة المنضوية تحت لواء التجمّع الوطني الديمقراطي أن تزدّ هذه البضاعة للحركة الشعبية، التي كانت جزءاً فاعلاً في ذلك الكيان، ولكن منذ التوقيع على بروتوكول "مشاكوس" في العام ٢٠٠٢، بدأت الحركة الابتعاد رويداً رويداً عن شواطئه حتى أدارت له ظهرها بالكامل، وقد تسبّب ذلك في ضعفة الكيان الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ذات يوم، ونحن لا نريد أن ننكأ جراحاً، أو ننبش ماضياً لا ترغب الحركة ولا الآخرين في مواجهته، لكن الحقيقة مهما كانت الأسباب والذرائع لم تنظر الحركة للمستقبل حينما فرضت عليها الظروف الدخول في تفاوض مع النظام، كان بمقدورها آنذاك ابتداء وسيلة تجعل من التجمّع الوطني - مع علاته - جزءاً فاعلاً يشد من أزرها أثناء وبعد التفاوض.

لكن الذي حدث، أنها تلذذت في إقصائه، وكان ذلك مصدر سعادة، بل شماتة الشريك، وحتى عندما أصبحت نيفاشا أمراً واقعاً، لم تكف الحركة بإدارة ظهرها للتجمّع، ولكن نشط بعض منسوبيها في اتجاه وضع كل بيضها في سلة المؤتمر الوطني، بدعوى أنه الشريك الضامن للاتفاق وبذريعة أن البعض في منظومة التجمّع له ملاحظات سلبية على الاتفاق، وبذلك خلطت الحركة خطأً مريعاً بين تحالفٍ مرحليٍ إقتضته ظروف الاتفاق مع الشريك وبين تحالف استراتيجي مع القوى الديمقراطية تتكئ عليه لإكمال مشروعها الوطني، ولعلّ أكبر الدروس التي نتجت عنها الأزمة الأخيرة مع الشريك، اتضاح خطئ تلك الحسابات بعد أن وجدت الحركة نفسها تخوض معركتها معه بظهر مكشوف، ورأيناها كيف انها في تلك الليلة الظلماء طفقت تبحث عن حليف الأمس!

حتى تكون لملاحظاتنا الثلاث معني دعونا نلجأ إلى أمثلة نعصّد بها وجهة نظرنا، فنحن حينما نقول أن الجماهير التي خرجت لاستقبال الراحل قرنق كانت تطمح للتغيير وانها وضعت غاياتها تلك بين يدي الحركة، نعلم جميعاً أن الحركة خيبت ظنها في انشغالها بقضايا لا يمكن أن تعدّ كترياق لتلك الهموم، إلى جانب أنها لا تُحظي بالأولوية في دائرة اهتمامات تلك الملايين، الأمانة تقتضي الآن وبعد ثلاثة سنوات من توقيع الاتفاق أن نقول أن الحركة شغلنا بقضايا من شاكلة: "اعتزل ياسر عرفان"، "اعتكف عبدالعزيز الحلو" و"غادر نبال دينق" ثم الحديث السّميج والمكروور عن عائدات النفط وما أدراك ما عائدات النفط، وعندما تهدأ أنفاسنا المُنتطعة من اللهث الماراثوني تبدأ بعدنّ أسطوانة أبيي وشكوى المذلة المستمرة.. والحقيقة نحن لا نقلل من شأن أبيي ولا العائدات، ولكن أين القضايا التي ينبغي أن تكون همّاً وطنياً، وعلى رأسها قضية التحوّل الديمقراطي؟! هذا

هو المحك الأساسي، ففي ظلّ الديمقراطية تستطيع أن تعالج عائدات النفط وأبني وتفسّر لنا ما استعصى بشفافية كاملة!

لكن فيما يبدو حتى الفرعيات التي شغلت بها الحركة نفسها لم تحسن صناعتها، من المؤكد أن كلنا يتذكر ما حدث لوزيرها الهمام الدكتور محمد يوسف أحمد المصطفي، وزير الدولة للعمل حينما غمرته تلك المشاعر "الثورية" المنحازة لقضية المفصولين تعسفياً، الذي حدث أن الوزير صمّت بعدئذٍ لأنه ببساطة حُورب من قِبَل حركته أكثر ممّا حاربه خفافيش المؤتمر الوطني، لقد كانت تلك القضية مثلاً واقعياً للرغبة الجماهيرية العارمة في التغيير، ومثال أيضاً لنوعية قضاياهم التي انتظروها طويلاً بعد أن ذاقوا الأمرين، لا أظن أن الحركة تعوزها الصيغ الجاذبة التي تجعل أفئدة الجماهير تهوى إليها، وقد لفت نظري اقتراحاً طرحه راند من رُؤاد أحد المواقع الإلكترونية، تمنى فيه أن تعمل الحركة لاستيعاب جحافل المفصولين من القوّات المسلحة والقوّات النظامية في صفوف الجيش الشعبي، والحقيقة وجدت نفسي أتأمل وجاهة ذلك الاقتراح ولكن بصورة أكثر رحابة تشمل كل المفصولين تعسفياً من جهاز الخدمة المدنية، إن لم يكن من أجل سواد عيونهم، فعلى الأقل نكاية في سياسات الشريك الجائرة.. ثرى ماذا سيكون مردود هذه القضية إن نطقت بها الحركة ناهيك عن تبنيها؟!

عوضاً عن كل ذلك، المؤسي حالة اللامبالاة التي تدثرت بها الحركة الشعبية نفسها.. تنتظر لجموع المفصولين وهم يرفعون المذكرة تلو الأخرى وتتأملهم وهم يتظاهرون أمام ناظرها ولا تحرك ساكناً.. يضرب عمّال السكة حديد في عطبرة فتصمّ أذنيها كأنما الأمر لا يعينها.. يقدّم المراجع العام تقريراً يندى له الجبين، وعضويتها في المجلس الوطني تُخرس صوتها بيدها.. يتمادى "الشريك" في اعتقال السياسيين والصحفيين ويلحق بهم منسوبها فتبعث بمندوبيها لزيارتهم في السجون والمعتقلات.. قوانين التحول الديمقراطي المرتجي إما مُوجلة أو تُجاز لتكريس دولة شمولية أخرى وهي ما زالت ترفع شعار لا أسمع ولا أرى ولا أتكلم.. المواطن المقهور تلهب ظهره سياسات السُلطة الحمقاء من جوع ومرض وعطالة فتقول له: أذهب انت وربك فقاتلا، إنّنا هنا قاعدون!

بوذي فقط أن يعرف عبدالصبور، بعيداً عن دعاوى الشراكة، هل الحركة الشعبية مع الشعب وفقاً لتسميتها وتوجّهاها، أم مع المؤتمر الوطني الذي تتقاطع مصالحه مع هذا الشعب، ولم يكن بنداً ذات يوم في دائرة اهتماماته؟! نعم، هو سؤال بسيط.. ومع ذلك فإن الإجابة عليه تضع النقاط على حروف قضايا كثيرة، فافتونا في الأمر أيها القوم إن كنتم في حلّ "الفواير" شاطرون!!

آخر الكلام: لأبذ من الديمقراطية وإن طال السفر!

٢٠٠٨/١/١٦

oboiikan.com

حوار في الساعة الخامسة والعشرين مع باقان أموم (١٠)

في ختام هذه السلسلة الحوارية مع السيد باقان أموم، والتي نهضت على خلفية أفكاره، وتمحورها حول جدلية الوحدة والانفصال، نطرح على أنفسنا مباشرة السؤال الذي نحاول من خلاله قراءة المخبوء في رحم الغيب، وهو: من الذي سيحدد انفصال أو بقاء الجنوب داخل الدولة السودانية الحالية عند إجراء الاستفتاء العام ٢٠١١، وفق ما حددت اتفاقية السلام؟! البديهي أن تكون الإجابة المباشرة هي أن الجنوبيين الذين سيستفتون هم بالضرورة من يحدد أي من الخيارين المذكورين، بيد أن هذا ليس ما نتوقع حدوثه يومذاك، ففي تقديرنا أن تلك قضية سودانية لكن ستحسمها أياد غير سودانية، بمعنى أن الذي سيحدد مصير الجنوب منفصلاً أو موحداً هو المجتمع الدولي، وإن شئت بعبارة أخرى دقيقة، فكل شركاء الإيغاد، وإن رأيت أن تكون أكثر دقة فكل الولايات المتحدة الأمريكية، صحيح أن هذه إجابة قد تبدو للوهلة الأولى عسيرة على الفهم والهضم معاً، لكن ثمة حيثيات لا علاقة لها بالسيادة أو الوطنية أو الشرعية، ليس لأن هذه مصطلحات تضعضت بعد التجارب التي عايشناها في يوغسلافيا - سابقاً - والكويت والعراق وأفغانستان والصومال، بل والسودان نفسه الذي يتهيا لهذا الدور، ولكن لأن القدر المعلن سيكون للغة المصالح التي ستجاوز تلك الكلاسيكيات، لا سيما في ظل دولة صُنفت أصلاً في عداد الدول الفاشلة!

تقول الحثيات أن شركاء الإيغاد بصورة عامة والإدارة الأمريكية بصفة خاصة، هم من جعل المستحيل ممكناً في الوصول لاتفاق في نيفاشا، وكانت تلك عملية طويلة ومعقدة لم تتم بين عشية وضحاها، فقد استلزمت الكثير من "الآليات" والصبر والمثابرة، وبالتالي لن يتوقف دور هذه الأطراف في وقف حرب تُعد أطول حروب القارة الأفريقية، ولن يتوقف دورها في رعاية الاتفاق فقط، بل من الطبيعي أن تذهب بهذا الإنجاز إلى نهاياته المنطقية. ومن جهة أخرى وبعيد عن أي مثالية لن يضير الاتفاقية شيء إذا قيل عنها أنها صنعة "أجنبية" فمعظم الاتفاقيات التي تتم في العالم بين خصمين، أحدهما حاكماً والآخر معارضاً تتم باختراق طرف ثالث، وهذا ما لا يعيب الاتفاقيات، لكن الذي يعيبها وينقص من قدرها أن تُعطي مصالح الأطراف "الأجنبية" على المصالح الوطنية، ودونما مكابرة، لا أحد يستطيع أن ينكر أن الأطراف أو الطرف الذي اجتهد في صناعة نيفاشا لم يفعل ذلك من أجل سواد عيون السودانيين، ولا من أجل نفحة إنسانية

غشته بين عشية وضحاها، وإنما كانت المصالح هي باعته ومحرضه ودافعه الاساسي في تسهيل الاتفاق وشاهدنا في ذلك التالي:

• **أولاً:** كلنا يعلم أن نظام الإنقاذ كان متعنّاً حول مبادرة الإيغاد وظلّ يراوغ منذ أن طرحت في العام ١٩٩٣، ونتيجة لظروف كثيرة بصعب حصرها في هذا الحيز، فاجأ النظام الأوساط الإقليمية والدولية بقبولها في العام ١٩٩٧، وهو التحول الذي نعى المشروع الحضاري ابتداءً، ثم ازداد التداعي بسقوط ورقة التوت التي كانت تغطي عورة المشروع كله انتهاءً، وأدّى هذا وذلك إلى صراع السلطة فيما سُمّي بـ"المفاصلة" بين الشيخ وتلاميذه، أو إنقسام القصر والمنشئة، وعليه عندما وصل أهل النظام لعتبة التفاوض الأولى في مشاكوس (يوليو ٢٠٠٢) جاؤوها مرهقين، ولم يكن ثمة مناص من الإدعان لإرادة من رفع العصا بيد وبسط الجزيرة باليد الأخرى، بل إن الأمر لم يتوقف عند حدود التوقيع على الاتفاق، فقد كان ذلك إيذاناً بتنازلات بدأت تترى منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم! (دعك عن التنازلات السياسية، هل تأمل أحدكم في واقعة استجواب فريق الـ"إف بي آي" الأسبوع الماضي لصحفية في قلب الخرطوم وبحضور ضباط أشاوس من إدارة التحقيقات الجنائية) المفارقة أن الايام أبدت ما كان خافياً وكشفت عن أن المعاداة العلنية لـ"الشیطان الأكبر" كانت تنطوي على تنازلات سرّية، بما لا عين رأت ولم يخطر على قلب بشر!

• **ثانياً:** لم تكن الحركة الشعبية في حاجة للتمرد على الدور الأمريكي، يبدو لنا - والله أعلم - أن الحركة إقتبست من آليات النظام جريته المُسمّاة بـ"قوة الضرورة" وأخضعها لمنهجها في التعامل مع الإدارة الأمريكية، وظروف قد تبدو موضوعية بالنسبة لها وعكسها لآخرين، لن تجد الحركة حرجاً في التسليم بقضاء الإدارة الأمريكية وقدرها، فواقعات الأحداث تقول أنها حركة إنتهجت أسلوب النضال المسلح لتحقيق اهدافها المشروعة، ولم يكن للسياسة نصيب إلا بقدر ضئيل يساعد على شرح أهدافها تلك، ولكنها الآن تخوض غمار تجربة العمل السياسي المكثف بكل التعقيدات البيروقراطية التي تكتنف أطر الحكم، وبعبارة أخرى يمكن القول أن الحركة الشعبية وجدت نفسها بين سندان المؤتمر الوطني ومطرقة واقع تنوّزع الولاءات السياسية التقليدية "شمالاً" والولاءات القبلية وضعف التجرب السياسية "جنوباً"!

وسواء لهذه المُعطيات أو نتيجة قناعات أخرى، يبدو لنا أن الحركة ترى ضرورة وجود "رافع" يعينها في اجتياز حقول اللغام هذه، بدليل أنه حينما احتدم الخلاف بينها والشريك المراوغ، دعا قادتها جميعهم الإدارة الأمريكية جهرةً وبلسان سوداني مبین إلى ضرورة التدخّل لحماية الاتفاق، ذلك على غير المألوف في مثل هذه الحالات.. إذ أنه غالباً ما تلجأ الحركات والتنظيمات لقواعدها الجماهيرية، بخاصة أن هذه الجماهير هي المناط بها إنجاز عملية التحول التاريخي في تقرير المصير، بل على غير ما يظن البعض أنه تمادى في تجاهل

قواعدها.. عَبَّرَ قادة الحركة الأطلسي ليسمعوا المُنادَى عن كتب، ومع ذلك نعتقد أن الحركة كانت متصالحة مع واقعها للأسباب سائلة الذكر!

إن أسلمنا جدلاً بفرضية أن الإدارة الأمريكية، هي التي ستلعب دوراً مؤثراً ومحورياً في عملية الاستفتاء المتوقع، لعلَّ غريزة حُب الاستطلاع قد تحرَّكت في دواخل البعض بُغية استنكاه ما تطويه "الأقدار السياسية" في صفحاتها، أي كشف أسرار الدور الأمريكي فيما هو متوقع، وبالطبع لا يستطيع المرء أن يدَّعي معرفة كل ما يحيط بهذا الدور، ولكننا نمتلك القليل سواءً من مصادر نثق في حُسن تصويبها للأمور أو جزاء قراءات نعتد بها رغم تواضعها، وخلاصة هذا وذاك يمكن التأكيد على أن ما تسميه الدوائر الأمريكية بقضية جنوب السودان (على عكس ما ناضلت من أجله الحركة طويلاً لتغيير هذا المفهوم) تعد ضمن القضايا الاستراتيجية الثابتة، أي تلك التي لا تتأثر بهوية الإدارة السياسية، مع مشروعية تباين المعالجات بين الجمهوريين والديمقراطيين، وبناءً عليه يمكن القول أن خيار بقاء السودان موحداً يُعدُّ قاسماً مشتركاً بين الطرفين، وثمة أسباب ثلاث فليعذرنا القارئ الكريم إن لم نُسهب في سردها، إلا بالقدر الذي يعين على التفكير وحسن التدبير.

● **أولاً:** تسعى الإدارة الأمريكية من خلال عملية الوحدة إلى ترسيخ مفهوم الاستقرار القطري كأولوية، وتعد تلك فريضة في بلد كانت وما زالت جغرافيته سبباً رئيسياً في عدم استقراره، وبلغه المصالح أنفة الذكر، فإن حالة الاستقرار الجغرافي، تقود إلى ضمان الثروة البترولية وفق ما خطط لها سلفاً في أن تكون الاحتياطي المُفترض للإدارة الأمريكية في القرن الحالي، وبالطبع ارتفعت مؤشرات ذلك في ضوء التقارير التي تتحدث عن بدائل للبترول الخليج والعراق، ومن البديهي بعدئذٍ أن ينتج الاستقرار الجغرافي استقراراً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.. هذا بزعم أن للبشر في حساباتها نصيب!

● **ثانياً:** يمكن لخيار الوحدة أن يُرسل إشاراتٍ مُوجبة وقوية لدول القارة الأفريقية الهشة والتي يتململ بعضها تحت نير التشرُّم والتفتت والانفصال، ومن المؤكد أن الإدارة الأمريكية في ظلِّ وحدانية القطب لا ترغب بفتح باب يمكن أن يفتح عليها أبواب جهنم، ولو أنها تنحو نحو مثل هذه الخيارات لكان قد دعمت تجربة شمال الصومال "صومالي لاند" التي أعلنت دولتها منذ ما يُقارب العقدين، ولم تحظ حتى الآن باعتراف أي من دول العالم، رغم حالة الاستقرار الذي تعيشه، وعلى عكس بقية الدولة الصومالية ودول أخرى في المنطقة!

● **ثالثاً:** لا يستطيع أي مراقب إغفال الدور المصري، في ضوء التناضح العكسي لنظرية الأمن القومي الإستراتيجي بين البلدين، وكذلك في ضوء النقل الإقليمي لمصر والعلاقة الراسخة والتميّزة بينها والولايات المتحدة الأمريكية.. يمكن

القول أن الوحدة تعد تريباقاً لكل هذه المُعطيات، وذلك بغض النظر عن أشياء لا تدخل في دائرة الاستراتيجيات المذكورة، مثل المحاولات الاسرائيلية الدؤوبة، والتي ظلت تحاول باستمرار ومنذ أمد بعيد التسلل للسودان من خاصرته.

ثم يأتي السؤال الأخير، الذي نحاول أن نلخص به مدى قدرة الحركة على إنجاز عملية التحول التاريخي.. هل يعني كل هذا أن الحركة الشعبية ستنتظر آخر المصب - وفق المثل الصيني - لينقل لها النهر جثة "عدوها"، أو بلغة المتنبئ فلنقل "شريكها" الذي ليس من صداقته بُد؟! الإجابة ببساطة، على الرغم من أننا ذكرنا في الحلقة الماضية ثلاثة أسباب رئيسية قلنا أنها تفسر من خلال وجهة نظرنا، حالة العجز والجُمود والكسل الذهني السياسي الذي ظل يحيط بالحركة إحاطة السوار بالمعصم منذ رحيل قائدها الفذ الدكتور جون قرنق، ومع ذلك يمكن القول إجمالاً أن الحركة الشعبية لا ينقصها التنظير لبرامج سياسية واقتصادية واجتماعية، فقد انتظر الناس منها تفعيل ما بين يديها من أدب تنوء بحمله الجبال في المجالات المذكورة، وهي لا تعاني أزمة قاعدية، ولكن يعوزها الابتكار الذي يوصلها لهذه القواعد، وهي لا تشكو علة قيادة، لكن بعض قيادتها اختلطت عليهم حسابات الحقل والبيدر فاستصعبوا الانتقال من خندق الشرعية الثورية إلى خندق الشرعية الدستورية؟! وكم عزّ علينا في هذا الصدد أن نرى الحركة الشعبية لا تكتفي بالشراسة، وإنما تهتدي بتقليد الشريك في بدع الضلالة.. مثل دغدغة مشاعر الجماهير بذر أنواع البراقة، ومحاكاة أساليبه الغوغائية في الحشد والتنظيم، وتذبذب التحالفات السياسية التي قد ترقى لدرجة الانتهازية، وخفة اليد "الثورية" في الفساد، وإتباع طرق غير ديمقراطية في معالجة قضايا تنظيمية، واضطراب الأولويات وتغليب المهام الأمنية على المهام الخدمية.. إلخ، ولبعض مما ذكرنا نماذج..

بعد ثلاثة أعوام من الاتفاقية، بشرنا الأسبوع الماضي (السوداني ٢٠٠٨/٢/٨) رمضان محمد عبدالله، الناطق الرسمي لقطاع الشمال أن: «الحركة الشعبية تعمل كحزب شريك في الحكم على إنزال نصوص اتفاقية السلام لأرض الواقع، مبيناً أن هناك اتجاهاً برز لدى قيادة الحركة بتبصير المواطنين بالسلام والتنمية والديمقراطية، وأكد أن الحركة ستشرع بالتنسيق مع شريكها في الحكم المؤتمر الوطني إلى التبصير ببندود إتفاقية السلام وإشاعة ثقافته إعلامياً»، ومن أجل هذه المحصلة الأخيرة فقد زفّ لنا رمضان أيضاً خبراً مفرحاً قال فيه أن: «الحركة شكلت لجنة فنية للمشروع في إنشاء محطة فضائية وإذاعية للسلام لنشر ثقافة السلام إلى جانب التطرق لقضايا التنمية والديمقراطية والانتخابات».. ذلك حديث كان أجدر بالذين سلخوا النخبة السودانية بأقلام جداد أن يقولوه وينفثوه عشية أن "توهطوا" في القصر الذي أعاد بناؤه "بهاء الدين"! ولكن عوضاً عن ذلك هرعوا للتقيؤ بظلال شجرة الهشّاب، ولن نخفي دهشتنا من سرعة تطبع المستشار مع ثقافة "طق الصمغ"، فقد كتب بقلمه السيّال العام الماضي حلقات

متسلسلة عن اتفاقية السلام، ولم يجد أروع من أن يختار لها عنوان "علمان من السلام. حسابات الربح والخسارة"، كأنه لا يعلم أن مثل هذه العناوين مكانها سوق "الملجة" أما السلام فقيمه معنوية لا تقاس بالقناطير المقنطرة ذهباً كانت أم فضة!

لكن هل أتاكم حديث القانوني الضليع الذي يفترض أن يكون أحد المبشرين ببرنامج "السودان الجديد"؟! أدلى السيد غازي سليمان بحديث (آخر لحظة ٢٠٠٧/١٢/٦) يختار قارؤه أن يصنف قائله في دائرة الجد أو الهزل:

لماذا الغياب والصمت أستاذ غازي، هل هو زهد في السياسة، ولماذا لم تتول منصباً ضمن قيادات الحركة؟

= ليس لدي طموح سياسي أسعى من خلاله لتولي منصب، ومنصب النائب الأول لن "انفع" فيه.. "إيه رأيك" ..

هل تعني إنك أكبر من المنصب أم...؟

= مقاطعاً بغف: يا أخي أنت عارف أنا "بنفع شنو" ... صمت.

• بتنفع شنو يا أستاذ غازي؟

= بنفع رئيس جمهورية "بس".

• لماذا رئيس جمهورية؟

= علشان اتحكر فيها "أسوي الدايرو".

• هل تتوقع أن "تلقاها" وتصبح رئيس جمهورية؟

= يا أخي "ألقاها" أنا، ولا الله "يقسم" لي...

(قالها والضحك يملأ المكان والمُصَوِّر سُفْيَان يستلقي على "قفاه" من الضحك)

• وإذا الله "قسم ليك"، ماذا بعد ذلك؟

= في زول الله "بقسم ليهو" حاجة "بياباها"؟!

• وما هو أول قرار سوف تتخذه إذا أصبحت رئيساً للجمهورية؟

= "أشيل" عصاتي و"ألبس" جلابيتي وأذهب للقصر الجمهوري و"أطلع" قراراتي الجمهورية ثم أرجع لبيتي وأنا مرتاح البال..

يكاد المرء يتخيل عظام الزاحل قرنق وقد تمللت في قبره، والحقيقة أن نوعية الحوار نفسه يكشف عن مدى عمق الأزمة التي تعيش فيها الصحافة السودانية، ولو أن أحداً حَجَبَ اسم غازي لما توانينا لحظة في نسبه لأحد أساطين المؤتمر الوطني، نسبة لأنهم ظلوا يُتحفون أهل السودان في أحاديث من هذه الشاكلة سنين عدداً.. بل ما زالوا في غيهم سادرون!!

آخر الكلام: لا بُدَّ مِنَ الدِّيمِقْرَاطِيَّةِ وَإِنْ طَالَ السَّفَرُ!

٢٠٠٨/١/٢٥

oboiikan.com

مِن قَبْلِ أَنْ يَطْوِيَ عَامٌ آخَرَ مِجْتَنِبًا!

مضى عامٌ وحلَّ عامٌ جديد. وما بينهما كان لزاماً علينا الصَّبْر حتى تُرفع سُرَادِقُ العزاء التي انبرى لإقامتها كثير من الكُتَّاب والمُراقِبين والمُعَلِّقين، تأسياً لمحنة وطن نحن صانعوها، ولو بصورة نسبية. وفي واقع الأمر، تلك عادة دَرَج عليها المُتَشائمون والمُخْذِلون والمُبْتَنسون والعاجزون.. الذين يَهْلون علينا كل عام ليتلون على مسامعنا آيات الحزن والأسى والألم، لكاننا في حاجة لمزيد من نكء الجراح وتطابق المحن على الإحن. ومن مساوئ الصدف لتي كان ينبغي أن تكون محاسن، أن ذكرى الاستقلال ارتبطت بحلول العام الميلادي الجديد. فبدلاً من الاحتفاء الخاص بهاتين المناسبتين في أجواء مفعمة بالأمل والرجاء حينما عُرِّ الاحتفاء العام، يهل علينا الأمرون بالوطنية والناسون أنفسهم ليجعلوا منهما منطلقاً لمصارعة "طواحين الهواء" فيحسبُون أطناناً من اللعنات على الوطن والزمن معاً، بشوفينيةٍ تُثْم عن مرضٍ دفين، وذلك في تقديري هُراءٍ لن تجد له مسرورين سوى الغصبة الحاكمة.. بمنظور ما تواطأ الرياضيون على تسميته باستراتيجية "تشتيت الكورة" طمعاً بفوزٍ فطير!

نعم، هو عامٌ جاء كسائر الأعوام التي مضت، مُثْقلاً بالهموم التي تكاثرت، والمشاكل التي تفاقمت، والتحديات التي تعاظمت، بل ثمة حقيقة ماثلة تؤكد لنا أن الوطن الذي ورثناه كابراً عن كابر، بات يقف الآن على حافة الهاوية، ولم يعد بينه وبين القبر سوى بضعة أشبار كتلك التي يعدها الناس لما يلجدون. ومن نكد الدنيا على هذا الوطن أيضاً، أن تلك الحالة لم تدهمه بغتة كما يُصوِّر لنا أصحاب "البيات الوطني"، فقد كانت حقيقة جَهَرَ بها الحاكمون عشية استيلائهم على السلطة، ثم مارسوها قهراً على مدى أكثر من رُبع قرن. بنظرية تُجِب أخرى، ونحن ننظر إليهم بلسان عقدة الدهشة، حتى لم يبق من درنهم شيء ينضحونه. أما وقد بلغت الأزمة الوطنية منتهاها الآن، وبعيداً عن السفسطة التي لن تُجدي نفعاً، تجدنا نتساءل، ما إذا كنا سنمضي في ذات طريق الآلام، أي نسبُ الوطن مرةً ونلعن الزمن مرّات؟! هل سنستمر في ذات الدهشة البلهاء ونحن نرى النيرونيين الجُدُد يقفون عند مُقرن النيلين، ليشهدوا منافع لهم من أشلاء وطن تحترق أطرافه وتتبعثر إرباً إرباً؟!!

إلى متى ونحن ننهض من منامنا كل يوم لنشهد فاصلاً من البؤس المُقَرَّر علينا في مسرح العيب؟! فما الذي تبقى ولم يُقَل، وما الذي تُرك ولم يُفعل؟! ممارسات وسلوكيات تنهال على رؤوسنا بلا هوادة، ولا نجد لها ترياقاً سوى الدهشة التي تُسلمنا لدهشة أخرى.. هل ضُربت علينا الذلّة والمُسكنة ونحن نرى آل فرعون يسوموننا سوء العذاب.. يذبحون أبناءنا ويستبيحون نساءنا؟!!

لقد استمرّ هذا النظام لا مبالاة الذين يحملون بالتغيير ويلقون بتوابعه على كاهل الآخرين، فلماذا إذن تعلو الدهشة جباهنا ونحن نصعر له خذاً يفعل به ما يشاء كأنه ولي حميم؟! كم من الأرواح أزهقت؟! وكم من النفوس غُذبت؟! وكم من الحروب أشعلت؟! الحادبون يُصجّفون والمكتوون يقرأون والصابرون يجأرون بالشكوى، فلا ارعوى النظام ولا رُفعت الأقلام ولا جُفّت الصُحف.. فالنظام الذي تبارينا في وصفه بكل الموبقات، لم يعد في حاجة لأن يسمع المزيد، إذ أن الحديث عن ديكتاتوريته لن يجعله ينقص منها حبة خردل، بمثل ما أن الكلام عن فساد له لن يزيده إلا تجبراً وتعتناً وخيلاء.. فهل ثمة شيء ينبغي إتباعه حتى لا يطوي عام آخر محتنتنا وخيبتنا معاً؟!!

ذلك هو سؤال المليون – كما يقولون – والذي ينبغي علينا أن نجد له إجابة شافية. وبالطبع لن نجد له هذه الإجابة المتوخاة، ما لم نُدرِك حجم الكارثة المُحيقة بالوطن، ونتخلّص من الصمّت الذي يحاصرنا، ونجتث جذور التفكير النمطي الذي يهدد مصيرنا ووجودنا!

بناءً عليه، نضع بين يديك – يا عزيزي القارئ – بضع اجتهادات، قد تصيب وقد تخطيء، ويمكن أن تزيد أو تنقص في محنة وطن قد تبدو للرائي كأنها أعجزت من مداوئها، ولكننا نعتقد أنه عبر حوار موضوعي نستطيع الوصول إلى قواسم مشتركة تقودنا إلى برّ الأمان وفجرٍ صادقٍ طال انتظاره!

• أولاً: طالما أن التشخيص الخاطئ يؤدي بالضرورة إلى نتائج خاطئة، تجنباً لذلك علينا الاتفاق أولاً على توصيف هذه الأزمة. ونحن نميل إلى أنها وإن بدت كازمة سياسة انقضت فيها عسكرٌ على نظام برلماني منتخب، إلا أنها تمظهرت بعدئذٍ إلى أزمة أخلاقية، تسربل فيها النظام بالدين الإسلامي مُكرساً أسوأ نموذج لدولة ثيوقراطية!

• ثانياً: لعله من نافلة القول – بعد أكثر من رُبع قرن – التأكيد على أن أي حديث يهدف إلى تعرية فساد النظام وتسليط الضوء على ممارساته الديكتاتورية بعدئذٍ، سيُعدّ مجرد مضيعة للوقت وحرثٌ في البحر. ومن المفارقات – في مسرح اللامعقول – أن تلك المهمة أصبح يقوم بها زبانية النظام أنفسهم، لعلهم هدفوا من وراء ذلك ألا يُرهقوا معارضيتهم فيما كانوا هم فيه خائضون!

• **ثالثاً:** إن الشفافية تحتم علينا الجهر بأن القوى السياسية المعارضة تخوض معتركاً بفؤاد أفرغ من جوف أم موسى. وعوضاً عن اقتحام "التابو" الذي يُكبل العقول، صار الكثير من منافحيها يتقبون الأفاق بنظراتٍ حيرى، لعلهم يجدون في طياتها حلاً يُنبئهم بسقوط وزوال النظام. وعندما يترد إليهم بصرهم خاسناً وهو حسير، يقفزون إلى النهايات دون المرور على البدايات، فيلجأون إلى ترديد السؤال اللولبي الذي لن يجدوا له إجابة سوى صدها حينما يقولون: ما الذي طرأ علينا نحن السودانيين حتى نرزح في هذا العذاب المهين؟!

• **رابعاً:** إن الصّدق مع النفس والقراءة الموضوعية للواقع يحتمان علينا القول بأن العجز الذي حاق بالقوى السياسية كان واحداً من أسباب تطاول سني النظام. وهي فرضية تجرّعها الجماهير الصابرة سماً زعافاً، إذ زعزع قدراتها وباتت سماؤها لا تمطر إلا لماماً. ومن هنا، نحن ندعو القوى السياسية المعارضة أن تعلن صراحة عن تخليها مؤقتاً عن نشاطها – إن جاز التعبير – الذي كان هادفاً إلى إسقاط النظام. على أن تشرع في بناء مرحلة أكثر صعوبة، بتجرّد وطني وتصالح من الذات. وذلك في لملة أطرافها وبناء تنظيماتها مؤسسياً، ومن ثمّ سيستقيم حديثها حول مسألة إسقاط النظام. بيد أننا لسنا في حاجة للتذكير، على أن حزب الأغلبية الصامتة المُكبل بعجز القادرين على التمام سيتولى زمام المسؤولية التاريخية. ومن يرى أن هذه الدعوة لا تعنيه فليتقدّم الصفوف!

• **خامساً:** بنفس القدر تحتم الشفافية علينا التأكيد على أن الحرب التي تخوضها القوى المسلحة المعارضة في الأطراف، هي حرب إستنزافية قد تأتي بمردودها ولكن على المدى الطويل، يكون زمناك قد هلك الزرع والضرع، والنظام – كما تعلمون – غير معني إلا بالذي يبقيه على سدة السلطة حتى لو كان الثمن جثة آخر مواطن. وموازة مع ذاك السجال، يقوم النظام باستهداف المدنيين في وجبات بمتوالية عديدة (عدد الطلاب الذين استهدفهم وخطفهم وقتلهم بدم بارد بلغ منذ يونيو ١٩٨٩ وحتى آخر من استشهد الشهر الماضي وهو الطبيب صالح ٥١١ طالباً وطالبة) علماً بأن ذلك ليس في الولايات التي تدور الحروب في رحاها، ولكن في قلب العاصمة المثثة ومُذن أخرى من السودان. بناءً عليه يُصبح لازماً على التنظيمات المسلحة أن تطور قدراتها النضالية لحماية المدنيين من التعذيب والتقتيل والتنكيل والاغتصابات. وذلك لن يتأتى إلا بإحداث ثقله نوعيّة يتم خلالها الإعلان الصريح باعتبار النظام ومنسوبيه أهدافاً مشروعة ممّا تمّ المساس بأي مواطن في أي بقعة من السودان!

• **سادساً:** إن الشفافية تقتضي أيضاً تمييز "عجز القادرين على التمام"، فإذا ما أسلمنا جدلاً أن الأحزاب السياسية تتحمّل الوزر الأكبر من الضعف الذي

سرى في أوساط الجماهير، يجب الإقرار بأن الحزب الاتحادي الديمقراطي يحمل لواء المُتقاعسين. ومن المفارقات أن البعض دُهِش عندما كشفت الغصبة عن عزم زعيمه السيد محمد عثمان الميرغني المشاركة في مهزلة الانتخابات، كأنه لم يكن ذاك الحزب الذي سبق له النهل من ذات المورد قبل سنوات، وكأنه لم يكن ذاك الحزب الذي يشارك النظام منذ ما يُسمّى بـ"اتفاقية القاهرة" العام ٢٠٠٦، ولو شئنا العودة للوراء كثيراً قلن تجد لهذا الحزب في ظلّ الحسيب النسيب موقفاً وطنياً واحداً يرفع مقامه ويُعلي شأنه. وبالتالي، يجب التأكيد على أن هذا الحزب وزعيمه شركاء في جرائم النظام منذاك التاريخ المذكور، وبالتالي تجب محاسبته والنظام بقدر سواء!

• سابعاً: نعلم جميعاً أن النظام المتعطش للدماء أشعل الحروب وأزكى أوارها في دارفور وجنوب كردفان والنيل الأزرق، وقد مارس في كل الإبادة الجماعية والتطهير العرقي، بل جعل من الاغتصابات سلوكاً ممنهجاً. وفي خضم كل ذلك، تجلت العنصرية في أسطح معانيها. ومن عجب، أن هذه العدوى أصابت بعض ضعاف النفوس من معارضيه، فشاركوا النظام ضرائه بترديد ذات العنصرية البغيضة، وكأنها ديدن الشعب السوداني برمته، وكأنه – أي الشعب – مسئول عن جرائم النظام برُمته. علماً أن ذات النظام الذي يمارسها قسراً، يضم عدداً وافراً من كل الإثنيات، وبعضهم ممن تطحن الحرب أسرهم الممتدة، فهل يمكن تبرئة المشاركين من تلك الخطيئة؟!

• ثامناً: ثمة مصطلحات خوّرت وكادت أن تصيب الوجدان الوطني بالتبلد. ونضرب في ذلك مثلاً يُريده البعض فيما يُسمّى بتصنيف "المركز" و"الهامش". وهو تحوير وجد هوى في نفس النظام، فقد حدا من خلاله إلى تعضيد ممارساته العنصرية. لا أعتقد أن هناك من يجادل في أن التهميش الذي يعيشه السودانيون، هو تهميش سياسي واقتصادي وثقافي، وليس تهميشاً جغرافياً كما يزعمون. بجانب أنه ليس قصراً على جنس واحد من أجناس السودان المُتعددة، إذ لم تستثن أفاته سوى المستجير من الرمضاء بالسلطة. بدليل أن الظاهرة بصورها المعروفة تجدها في همشكوريب وكبكاوية وشنقلي طوباوية وديم زبير والقويز والمتمة وحلفاء... إلخ، بنفس الصورة التي يلحظها المرء دون عناء في أطراف العاصمة المثلثة نفسها، وكلنا يعلم أن التهميش لم يولد من رحم الغيب، فهو نتاج فشل النخبة السودانية في استغلال ثروات البلاد المتوّعة لصالح بناء دولة عصرية حديثة، يكون مركزها الإنسان السوداني، بغض النظر عن لونه أو عرقه أو دينه أو مناطقيته. ولو كانت المقاييس بمثل ما يدعون، فليُقل لنا عاقل ماذا نضنع مع الجنرال عثمان كبر الذي يقود حملات الإبادة الجماعية؟! وماذا نفعل مع أحمد هارون وهو يجهر بتطهير عرقي لم يمارسه أدولف هتلر رائده؟! وماذا نحن قائلون عن التيجاني السيسي وبحر أبووردة وحسبو عبدالرحمن والحاج ادم وتابيتا بطرس ودانيال

كودي وأحمد كرمو ومسار ونهار وهلمَجَرًا؟! والقاسم المشترك بينهم حُبُّ
السُّلطة الذي وأد أي ذرَّة إنسانيَّة في نفوسهم!

صفوة القول، أما الآن وقد بلغنا منعرج اللوى، نستطيع أن نقول: لقد
اتسعت المحنة بالفعل حتى ضاقت العبارة في ظِلِّ نظام متَجَبِّر. وبرغم إيماني
الذي لا يتزعزع في دُنُو ساعة رحيله، إلا أنه لا بُدَّ من التذكير أن تلك غاية لن
نبُلغها بالتمنيات الطيِّبة، وإنما باستشعار كل فردٍ لمسؤوليته الوطنيَّة. وليتنا نسأل
أنفسنا فجر كل يوم: ماذا فعلنا من أجل إسقاط نظام يتهاى الآن – بعد ربع قرن –
للانتقال من ديكتاتورية الجماعة إلى ديكتاتورية الفرد؟!!

ولكن كيف السبيل للإجابة وبيننا “آل بوربون”، الذين يتساءلون عن
اختراق هذا الفرد المذكور للدستور، وكأنهم لا يعلمون أن شرعيَّته المفقودة لن
تسقط بالتقادم حتى بلغ عمر نوح عليه السلام!

آخر الكلام: لا بُدَّ من الِذِمِّقْراطيَّة وإن طال السَّفَرُ!!
٢٠١٥/٠١/١٩ م

oboiikan.com

الفهرس

٧	إهداء.....
٩	مقدمة الجزأين الأول والثاني.....
١٣	مقدمة الجزء الثالث.....
١٥	نُصَبِّحُونَ عَلَى ثَوْرَةٍ. تُمَسُونَ عَلَى وَطَنٍ.....
٢١	العُصْبَةُ ذُوِي الْبَاسِ وَسِينَارِيُوهَاتِ الرَّحِيلِ الْقَادِمِ.....
٢٩	هَلْ خُلِقَ السُّودَانُ فِي كَنْبٍ؟ (١).....
٣٣	هَلْ خُلِقَ السُّودَانُ فِي كَنْبٍ؟ (٢).....
٣٩	هَلْ خُلِقَ السُّودَانُ فِي كَنْبٍ؟ (٣).....
٤٣	هَلْ خُلِقَ السُّودَانُ فِي كَنْبٍ؟ (٤).....
٤٧	هَلْ خُلِقَ السُّودَانُ فِي كَنْبٍ؟ (٥).....
٥٣	هَلْ خُلِقَ السُّودَانُ فِي كَنْبٍ؟ (٦).....
٥٧	هَلْ خُلِقَ السُّودَانُ فِي كَنْبٍ؟ (٧).....
٦٣	هَلْ خُلِقَ السُّودَانُ فِي كَنْبٍ؟ (٨).....
٦٩	هَلْ خُلِقَ السُّودَانُ فِي كَنْبٍ؟ (٩).....
٧٥	هَلْ خُلِقَ السُّودَانُ فِي كَنْبٍ؟ (١٠).....
٨١	إِنِّي كَفَرْتُ بِصَنَمِكُمْ الَّذِي تَعْبُدُونَ.....
٨٥	فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُفْسِدُونَ.....
٩١	ماكفرلين وشخم "أليل" .. وبينهما طازج.....
٩٧	هذا هو "رئيسكم" الذي لا تعرفون (١).....
١٠٣	هذا هو "رئيسكم" الذي لا تعرفون (٢).....
١٠٩	كيف قَتَلَ مُصْطَفَى عُثْمَانُ شَهِيدَ "أَم دُوم"؟.....
١١٥	بُؤْسُ النَّوَايَا وَسُوءُ الطَّوَايَا.....
١٢١	هل أن أوان ليلة السكاكين الطويلة؟.....
١٢٧	حديثُ الْوَدَاعِ.....
١٣٥	هل يَزْحَفُ الْجَزَاكُ السُّودَانِي نَحْوَ خِيَارِ الصِّفْرِ؟.....
١٤٣	نداءٌ خاصٌّ لِلْمُغْتَرِبِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ السُّودَانِيِّينَ.....
١٤٧	فاصلٌ آخر من الجحيم القادم.....
١٥١	إنني أَرَى تَحْتَ الرَّمَادِ وَمِیْضَ نَارٍ.....

١٥٥	 الانتفاضة الشعبية الثالثة.. هل من سبيل؟!
١٦١	 ودنّت ساعة التفاف السّاق بالسّاق.....
١٦٧	 صلاة الغُضب على جنازة الحركة الإسلاميّة.....
١٧٣	 الوصيّة التي أرهقتني من أمري عُسراً.....
١٧٩	 أسرارٌ يصُعبُ ترويجها.. أو وقائع الكارثة المُقبلة (١).....
١٨٥	 أسرارٌ يصُعبُ ترويجها.. أو وقائع الكارثة المُقبلة (٢).....
١٩١	 أسرارٌ يصُعبُ ترويجها.. أو وقائع الكارثة المُقبلة (٣).....
١٩٧	 أسرارٌ يصُعبُ ترويجها.. أو وقائع الكارثة المُقبلة (٤).....
٢٠٣	 أسرارٌ يصُعبُ ترويجها.. أو وقائع الكارثة المُقبلة (٥).....
٢٠٩	 أسرارٌ يصُعبُ ترويجها.. أو وقائع الكارثة المُقبلة (٦).....
٢١٥	 الجوارُ أم الخوار؟!
٢١٩	 أنظر خلقك بغضب.. أو دغ دُموعك تنهمر.....
٢٢٣	 قِف تأمل.. كيف يُفكر “الأبالسة”؟!
٢٢٧	 مِن وَحي عُرس العالم.. ليتهم كانوا يَفقهون.....
٢٣١	 أيُّ عارٍ خلّبتهُ لأسرتك يا عبدالرحمن؟!
٢٣٥	 لماذا سكّنت الترابي عن الكلام المُباح؟!
٢٤١	 بلاغٌ علجل إلى السفارة الأمريكيّة بالخرطوم.....
٢٤٥	 تجريبُ المُجرب يُعجلُ بخُلُول الندامة.....
٢٥١	 أسرارٌ في الهوّاء الطلّق (النص الكامل للوثيقة الخطيرة).....
٢٨٣	 نم يُبقِ الغازَ مُزرعةَ لحمٍ في وجوهنا.....
٢٨٩	 حكاية سيّدة اسمها “عائشة”.....
٢٩٥	 في وداع آخر الأنبياء السياسيّين.....
٣٠١	 في عيد ميلاده الأوّل.....
٣٠٩	 مَنْ يمنحني شَرَفَ بُشْراها من ثُخْتِ الثّرى؟!
٣١٥	 ما بينَ قبري وقبرك.. يَنثَصبُ الحُلم.....
٣١٩	 جوارٌ في السّاعة الخامسة والعشرين مَع باقان أموم (١).....
٣٢٥	 جوارٌ في السّاعة الخامسة والعشرين مَع باقان أموم (٢).....
٣٣١	 جوارٌ في السّاعة الخامسة والعشرين مَع باقان أموم (٣).....
٣٣٧	 جوارٌ في السّاعة الخامسة والعشرين مَع باقان أموم (٤).....
٣٤٣	 جوارٌ في السّاعة الخامسة والعشرين مَع باقان أموم (٥).....
٣٤٩	 جوارٌ في السّاعة الخامسة والعشرين مَع باقان أموم (٦).....
٣٥٥	 جوارٌ في السّاعة الخامسة والعشرين مَع باقان أموم (٧).....
٣٦١	 جوارٌ في السّاعة الخامسة والعشرين مَع باقان أموم (٨).....
٣٦٧	 جوارٌ في السّاعة الخامسة والعشرين مَع باقان أموم (٩).....
٣٧٣	 جوارٌ في السّاعة الخامسة والعشرين مَع باقان أموم (١٠).....
٣٧٩	 من قبل أن يطوي عامٌ آخر محنتنا.....
٣٨٥	 الفهرس.....

obeikan.com

oboiikan.com